International
Islamic University
Islamabad- Pakistan
Faculty of Arabic
Department of Literature

الجامعة الإسلامية
العالمية
إسلام آباد- باكستان
كلية اللغة العربية
قسم الأدبيات

العناصر القصصية في كتاب "البخلاء" للجاحظ وكتاب "الإمتاع والمؤانسة" للتوحيدي
(دراسة موازنة)

بحث تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

تحت إشراف: **د. فضل الله** (الأستاذ بكلية اللغة العربية)
و
د. سلمة فردوس سهول (الأستاذة المساعدة بكلية اللغة العربية)

إعداد الطالبة: **ميمونة شريف**
رقم التسجيل: ١١٣-FA / PhD /F٠٨

العام الجامعي:١٤٣٦هـ/٢٠١٥م

International Islamic Univ
CENTRAL
LIBRARY
ISLAMABAD

Accession No TH-16838

Ph.D
٧٧ ٤ ٨٩٢
م ي ع
أدب عربي - فكاهيات

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ۚ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)[1]

[1]- سورة النساء، آية ٣٧-٣٩.

الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد
كلية اللغة العربية

لجنة المناقشة
أجريت مناقشة البحث الذي قدّمته
الطالبة: ميمونة شريف

تحت عنوان: **العناصر القصصية في كتاب "البخلاء" للجاحظ و"الإمتاع والمؤانسة" للتوحيدي (دراسة موازنة)**

بحث تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

أسماء أعضاء لجنة المناقشة وتوقيعاتهم

الرقم	الأعضاء	الأسماء	التوقيعات
١	رئيس اللجنة	د. مؤيد فاضل	
٢	المشرف على البحث	د. فضل الله حفظه الله	
٣	المشرفة المشاركة على البحث	د. سلمة سهول حفظها الله	
٤	المناقش الداخلي		
٥	المناقش الخارجي		
٦	المناقش الخارجي		

الإهداء

إلى الأستاذ الكبير سيد سيد عبدالرازق رحمه الله رحمة واسعة
الذي هداني إلى هذا الموضوع،
وارتحل إلى ربه تعالى أثناء إعداد الخطة،
وإلى والديّ رحمهما الله تعالى،
وزوجي وأولادي.

كلمة الشكر والتقدير

الحمد لله الذي جعلني مسلماً وهداني إلى الحق وسبل العلم والمعرفة. انطلاقاً من قوله تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)[1]، وقوله تعالى (وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[2]. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم{لا يشكر الله من لا يشكر الناس}[3]

أما بعد، أرى واجباً عليّ أن أشكر أستاذي المشرف الدكتور فضل الله حفظه الله الأستاذ المشارك، وأستاذتي المشرفة الدكتورة سلمة فردوس سهول حفظها الله الأستاذة المساعدة، وأدعو الباري سبحانه وتعالى أن يمتعهما بالصحة والعافية؛ لأنهما ساعداني أثناء كتابة هذا البحث، وزوداني بإرشادهما الثمين وتشجيعهما الثابت، فأعترف بأنه كان لا يمكنني أن أكمل هذا البحث بدون إرشادهما ومساعدتهما. فجزاهما الله عني خير الجزاء.

كما أقدّم الشكر والتقدير لجميع أساتذتي الكرام في قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، وعميد الكلية الدكتور محمد بشير، ورئيس قسم الأدبيات الدكتور مؤيد فاضل، ورئيس الدراسات العليا الدكتور محمد علي غوري سابقًا ورئيس الدراسات العليا الدكتور حبيب الرحمن عاصم خاصّة، الذين درّسولي، وأرشدوني وعلّموني وأناروا لي سبل العلم والمعرفة حتى أكملت دراسة الدكتوراه في الأدب العربي.

وأشكر خاصة الدكتورة قديرة سليم، وزميلتي الأستاذة سميعة نازش، وثروت جميلة اللاتي ساعدنني وشجعنني في جميع مراحل بحثي.

من واجبي أن أقدّم جزيل شكري لموظفي المكتبة المركزية الذين ساعدوني في حصول على الكتب الثمينة، واستخدام وسائل التقنيات الإليكترونية، ومنحوني الكوخ للتركيز خلال الدراسة، فجزاهم الله أحسن الجزاء على خدماتهم.

---

[1]- سورة إبراهيم، آية ٧.
[2]- سورة البقرة، آية ١٨٥.
[3]- حديث حسن، رواه أحمد والترمذي.

وأشكر زوجي الذي أعانني في كل مراحل دراستي ولعب دورًا أساسيًا في مرحلة الدكتوراه خاصة.

وأشكر لعائلتي على مساعدتها وتضحيتها ومعاناتها خلال هذا البحث؛ لأنني سافرتُ مرارًا إلى مملكة قازقستان في التماس جوّ هادئ لكتابة هذا البحث.

وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء في الدارين.

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

بعد:

تدور دائرة هذا البحث حول عنوان: "العناصر القصصية في كتاب البخلاء للجاحظ (ت٢٥٥) وكتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤)، وهي دراسة موازنة. وقد ألف كتاب البخلاء في القرن الثالث في العصر العباسي وكتاب الإمتاع والمؤانسة في القرن الرابع في العصر العباسي.

وهذا الموضوع فيه امتزاج بين القديم والحديث، لأننا نجد في الأدب العربي القديم، حكاية أوقصّة، كما نجد في كتاب البخلاء للجاحظ والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي. وكتاب البخلاء في النقد الاجتماعي والخلقي. والإمتاع والمؤانسة يحتوي على نقد اجتماعي لاذع إلى حد الشتم. وهو نقد للفقر والاستبداد، ولطرق السياسة ونظام الحكم، ونقد للتعصب وبيان الخصال و أخلاق القوم. وهو ليس كتاب ملح ونوادر وحكايات بل هو كتاب فلسفة قصد فيه التوحيدي الفلسفة قصدًا لاسبيل إلى إنكاره.

وهذا البحث هو محاولة الاكتشاف والبحث للعناصر القصصية في كتاب البخلاء للجاحظ والإمتاع وَالمؤانسة للتوحيدي، دراسة موازنة. فتناول الكتابان عن العصر العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجري. وأولهما كتاب البخلاء، وهو كتاب الأدب الواقعي من أديب كبير من أعلام الأدب العربي ومفكر عميق ومصلح اجتماعي، والقصص الواردة فيه (٢٠٥) مائتان وخمس قصص وثلاث رسائل، وهذا الكتاب كتاب القصص، موضوعه الرئيسي البخل، والكتاب بأكمله يدور حول موضوع البخل لاغير، وثانيهما كتاب الإمتاع والمؤانسة، كتاب المسامرات، في موضوعات متنوعة، من أديب وفيلسوف ومفكر حرّ، الذي ربط بين العلم والدين على بساط التصوّف. وعلى الرغم أنّ الكتاب ليس كتاب القصص بل المسامير عن الأمراء والحكام والملوك القدامى، والعصر النبوي، وعصر الصحابة إلى عصر التوحيدي في موضوعات مختلفة. حيث اكتشف البحث (١٨٧) مائة وسبع وثمانين قصّة في الإمتاع والمؤانسة.

وقد انشغل النقاد والباحثون من أبحاث حول الكتابين على حدة. ولكن لا توجد الموازنة بينهما على الأقلّ، ولو أن قصص البخلاء نالت حظ الدارسين، حيث قصص الإمتاع والمؤانسة لم تحظ مثل قصص البخلاء، فلم يدرك ولم يلحق دراسة فنية. فقد تكلم كثير من الأدباء

والدارسين، قديما وحديثا، عن كتاب البخلاء والإمتاع والمؤانسة في الكتب المختلفة والمقالات، وبعضهم قارنوا ووازنوا بين "الجاحظ" و"التوحيدي" كشخصيتين، فوجدوا بعض التشابه بين حياتهما، وكذلك في أدبهما، والثاني تأثر من أوّل الذكر في الفكر والأسلوب، ولقب الثاني بـ"الجاحظ الثاني".

وفيما يلي أحاول أن أقدم نظرة عابرة على الدراسات عن هذين الكتابين ومؤلفيهما من حيث النقد والبحث[1]:

ا- الدراسة والنقد على البخلاء:

- **فن القصص في كتاب البخلاء**، محمد المبارك، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٥م.

- **السخرية في أدب الجاحظ**، السيّد عبد الحليم محمد حسين، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٦م. وحاول إبراز فنية الجاحظ في سخريته، عن طريق الموازنة بينه وبين من سبقوه من أدباء العربية في هذا المجال.

- **مع بخلاء الجاحظ**، لفاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م. ما وجدت هذا الكتاب.

- **صورة بخيل الجاحظ الفنية**، لأحمد بن محمد امبيريك، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٥م. ما وجدت هذا الكتاب، ولكني وجدت بعض اقتباساته في كتب أخرى.

- **بناء النص التراثي**، د. فدوى مالطى – دوجلاس، ١٩٨٥م. وتناولت الباحثة الكتب الأدبية القديمة من مؤلفي العرب في العصور الوسطى، وتناولت عددًا من الكتب، يشمل فيه البخلاء للجاحظ، وحللت بعض قصص البخلاء، وقسمتها في الفئتين الأساسيتين "الضيافة والشيء".

- **فن السخرية في أدب الجاحظ**، لرابح العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

- **سخرية الجاحظ من بخلائه**، محمد بركات حمدي أبو علي، مكتبة الأقصى، ١٩٩٨م.

- **فلسفة الأخلاق عند الجاحظ**، د. عزّت السيد أحمد، منشورات اتحاد للكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م. تناول كتاب البخلاء وكتبه الأخرى، وعالج من فلسفة الأخلاق عند الجاحظ.

---

[1]- في هذا الفهرس يشمل الكتب والدراسات على الكتابين، ولا يركز على المؤلفين.

ب- الدراسة والنقد على الإمتاع والمؤانسة:

- **أبو حيان التوحيدي**، أحمد محمد الحوفي، جزئين، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م. تناول مؤلفات أبي حيان ليستقى الحقائق عنه، وعن عصره السياسي والعلمي.

- **أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء**، د. زكريا إبراهيم، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٧٦م. ركّز على شخصية التوحيدي، واستفاد من الإمتاع والمؤانسة لبحث شخصيته، وعصره، وأدبه.

- **أبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة**، أحمد محمد عبد الهادي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م. واستفاد في ثلاثة كتب ألفها التوحيدي، ومنها الإمتاع والمؤانسة في دراسة الموضوع.

- **البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة**، ميساء سليمان الإبراهيم، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١١م. تعاملت مع نص عربي تراثي من منظور نقد حديث، في محاولة إعادة قراءة النص السردي وفق رؤى وأدوات جديدة.

- **بين أبي حيان وابن العميد**، أحمد الحوفي، العدد ١٩٥، أغسطس ١٩٧٦م. وهذه المقالة تبين مكانة أبي حيان التوحيدي، ذي مواهب كثيرة، لكنه لم ينل حظه من عصره. وتوضح الخلاف بين أبي حيان وابن العميد، وفضل التوحيدي عليه. (وهذا ليس موضوعي).

كلّ هذه الدراسات والكتب تسلط الأضواء على الجاحظ والتوحيدي أو على كتابيهما وليست هناك دراسة تقدم على الموازنة بين كتابيهما لا سيما في العناصر القصصية فيهما.

أسباب اختيار الموضوع

*- اخترتُ القصّة القصيرة لموضوع الدراسة لأن القصّة القصيرة صنف جديد في الأدب العربي الحديث، ازدهر هذا اللون من الأدب في الغرب، وانتشر في أرجاء العالم المختلفة، وبلغت إلى درجة عالية في العالم العربي أيضًا. وهذا البحث سيبحث عن القصة القصيرة، هل لها جذور عربية أم غرست ونبتت في الغرب، وأخذت اللغة العربية بأكملها من الغرب؟

*- ولمّا بحثت أصل القصّة القصيرة، مررت برأى المستشرق ميكائيل: "أن أوروبا مدينة بقصصها للعرب"[١]، فندرك أن القصّة العربية القديمة تركت أثراً أو نكهة عطر القصّة في الأدب

[١]- القصّة القصيرة، الميلاد والتساؤلات، د. سعاد حمر، ديوان العرب، منبر للثقافة والفكر والأدب، ١ تموز (يوليو) ٢٠٠٤م.

الغربي، فرجعت إلى الأدب العربي القديم، في عصر الازدهار – عصر العباسي – ووجدت قصصًا، لأبحث صياغة القصّة القصيرة في الغرب، وأطبق هذه العناصر على القصص القديمة.

*- واخترت الجاحظ؛ معلّم العقل والأدب والكاتب العظيم لأنه أدخل نوعًا جديدًا في الأدب العربي كان مبدعًا إياه ... وهو تصوير أخلاق الناس، والمجتمع الإسلامي في حياته العادية بأسلوب قصصي يجمع بين الجد والهزل. واخترت التوحيدي بأسلوبه السردي الرائع، وسعة معلوماته، ولأنه يورد الحجج العقلية في معرض رده. ويطرق أخلاق الناس ويذكر ما هو خلق، وما هو ليس بخلق، ويذكر أخلاق الناس بكل تفصيل.

*- واخترت كتاب البخلاء للدراسة، لأن الجاحظ اهتم في كتابه بهذه القصص القصيرة، ورغب إلى تثقيف القارئ وتعليمه فمزج الهزل بالجد، وهذه مزية جاحظية مهمة، وكذلك التوحيدي مزج الجد بالهزل بعد قرن في كتاب الإمتاع والمؤانسة، بصورة القصص والمسامرات، فأريد أن أبحث فيهما العناصر القصصية، ودراستها حسب استطاعتي والموازنة بينهما.

الأهداف المتوقعة

هذا البحث هو الدراسة الموازنة للعناصر القصصية بين الكتابين؛ البخلاء والإمتاع والمؤانسة. وسيكون الموازنة من ناحية استنباط الخصائص، ويحدد فيها خصائص كل منهما. ويوازن هذا البحث بسيرة المؤلفين؛ الجاحظ والتوحيدي، وما توارد على كل واحد من أطوار الحياة، وأحداث الزمان، لأن لكل منهما حياة خاصة التي طبعت آثاره طابعًا خاصًا.

وهذه الموازنة ستتضح بين العصور الأدبية والتاريخية، والعوامل السياسية والاجتماعية التي تحيل الحياة وتدفع بالشعوب في طريق الحياة أو الممات. ومع هذا ستوضح اتحاد الموضوع بين الطرفين وكذلك اختلافهما، وستوازن العناصر القصصية في كل كتاب.

وهذا البحث يحاول كشف الأساليب الفنية التي استخدمها الجاحظ والتوحيدي في تأليف كتابي البخلاء والإمتاع والمؤانسة. والهدف من هذه الدراسة إبراز قيمة الأعمال الأدبية للجاحظ والتوحيدي ووجود عناصر القصّة الحديثة بينهما، والموازنه بينهما ليعرف قدر أدبهما في القصص. وفيما يلي أحاول بيان أهداف الدراسة في صورة نقاط بإيجاز:

١. جذور القصّة في الأدب العربي، وتطورها في الشرق والغرب، وبيان كيفية التأثير والتأثر.

٢. محاولة الكشف لعناصر القصّة الحديثة في الكتابين الممثلين للقصة القديمة من حيث القيمة الفنيّة.

٣. تطبيق العناصر الفنية للقصّة القصيرة على البخلاء والإمتاع والمؤانسة والموازنة بينهما.

٤. إبراز ملامح النقد الاجتماعي الموجود في الكتابين.

مساهمة الباحثة في هذا البحث

هناك بعض الدراسات الفردية التي تناولت بعض جوانب هذا الموضوع، ونشرت في صورة مقالات وبحوث في الدوريات المختلفة، وسيأتي ذكرها في ثنايا هذا البحث. إنني لم أطلع على أي كتاب أو رسالة عن العناصر القصصية في كتاب البخلاء للجاحظ أوالإمتاع والمؤانسة للتوحيدي. فهذه الدراسة من هذا الجانب جديدة بأكملها. ولأن؛ هذه الموازنة تشرح بين القصص الواردة بين الكتابين، للشكف عن وجود العناصر القصصية الحديثة التي توجد في القصة القديمة. ونوزع الموازنة بين الأنواع المختلفة من حيث الموضوع ليبرز عناية المؤلفَين في أنواع القصص المختلفة من حيث الفكر والموضوع والأحداث والشخصيات. وبالإضافة إلى ذلك ستبرز مورفولوجية القصّة، من حيث السرد والشخصيات والحكاية والأسلوب الخ. ومساهمة هذا البحث في الأدب العربي فيما يلي:

١. كتاب البخلاء[١] يحتوي على مائتين وخمس قصص، ورتّبت الفهرس بالعناوين والأرقام، لتثبت كلّ قصّة بعلامة مميّزة باسمها ورقمها، ووضعها في الجدول في الباب الثالث، الفصل الأول، وفي هذا الجدول منظم القصص من حيث السرد، والشخصية والموضوع، والمبنى الحكائي، ورتّبها على أساس الصفحة، وعدد الصفحات والسطور، ولا حظ أن (٣٨) ثماني وثلاثين قصّة بدون العناوين، فعنونتها بعنوان مناسب ومميّز هذه القصص في الجدول بعلامة (*).

٢. كتاب الإمتاع والمؤانسة هو بدون الفهرس[٢]، وقد قسمه المحققان أحمد أمين وأحمد الزين في ثلاثة مجلدات، بين الليالي الأربعين. فرتّبت الباحثة الفهرس بعناوين الليال[٣]، وهو يهدي إلى موضوع أساسي ذكر في تلك الليلة. وأيضاً ذكر الليالي وجدت فيها "ملحة الوداع"، وهي (٨) ثمانية: "٤٠،١٨،١٦،١٥،٥،٣،٢،١".

---

[١]- استفدتُ من نسخة طه الحاجري خلال البحث، وهي بدون عناوين القصص، حيث توجد مائة وثماني وستّين قصّة مع عناوين في نسخة دار صادر بيروت واستخرجتُ عناوين القصص من هذه النسخة، وعنونت ثماني وثلاثين قصّة بعنوان مناسب.

[٢]- قد حاول أحمد زكي باشا لوضع الفهرس لليال الإمتاع ويبرز بعض الموضوعات، لكن توفي -رحمه الله- ولم يكمل. (مقدمة: أحمد امين، ص "ر")

[٣]- الباب الأول، الفصل الرابع، ص١١٤-١١٦.

٣. وكتاب الإمتاع والمؤانسة مسامرات، فبحثت القصص فيها، وهذا طبيعي أنها بدون العناوين، فعنونت، ورتّبت الفهرس بالعناوين والأرقام، لتثبت كلّ قصّة باسمها ورقمها وفي رقم الليل الذي ذكر فيها، ووضعها في الجدول التسلسل ٣,٢، ورتّبت القصص من حيث السرد، والشخصية والموضوع، والمبنى الحكائي، ورتّبتها على أساس الصفحة، والليلة وعدد الصفحات والسطور.

٤. على أن القصص الواردة في الكتابين تفرّق بين المعاني والألفاظ والصور، قسّمت في سبع وعشرين نوعاً، ليسهل الموازنة بينهما. وتفصيل الكلام يأتي في الباب الرابع، الفصل الثالث، حين ذكرت كل قصّة مع نوعها، برقم القصّة، فبرزت صورة واضحة لأنواع الموضوعات. وبيّنت هذه الموازنة العددية، ونسبة مئوية بين قصص الكتابين بمساعدة الجداول والمخطط.

٥. وقد قسمت القصص للكتابين في ثلاث فئات أساسية، وهي الضيافة والأكل والشيء، وظهر هذا التقسيم في الجدول بأرقام القصص، والمخطط يبيّن نسبة مئوية لكلّ فئة للقصص في الكتابين على حدة.

منهجي في كتابة البحث

والمنهج الذي أتبع في هذا البحث هو **منهج الموازنة**، وأما منهج البحث الذي أسير عليه أو الأمور التي أراعي في إعداد هذا البحث، هي:

*- يكون المصدر الأساسي لهذا البحث، كتاب البخلاء للجاحظ، النسخة الأولى: مقدمة وتصدير وشرح لـ"طه الحاجري"، ونسخة ثانية: دار صادر بيروت، و كتاب الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيدا.

*- أستفيد من كتب الأدب والنقد عن هذين الكتابين، وعن موضوع القصّة القصيرة وجذورها.

*- ترجمت المؤلفين؛ الجاحظ والتوحيدي، وأعرف عن دور المؤلفين في عصرهما.

*- قرأت قصص البخلاء ومسامرات الإمتاع والمؤانسة وأبحث عن العناصر القصصية فيهما.

*- قرأت أراء الأدباء والنقاد الذين يثبتون جذور القصّة الحديثة في الغرب وكذلك أصحاب الرفض، الذين يقولون إن القصّة الحديثة لها جذور في الأدب العربي القديم، وأطبق رايي.

*- استشهاد على ما أقول بأقوال العلماء والأدباء والنقاد.

*- اعتماد على الكتب الأدبية والنقدية التي طبعت في الشرق والغرب، وأقرأ كتب المستشرقين لتكون هذه الدراسة أوفي وأوسع.

وفي كتابة البحث أحرص على الاهتمام بالأمور الآتية:

١. استخدام بعض الاصطلاحات الخاصة كالآتي: وضع القوسين [ ] حين اقتبس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ورقم علامة التنصيص " " عند نقل النصوص من متون الكتب، وذكر أسماء الأمكنة والأعلام. ورمز بـ"م" للعام الميلادي، و"هـ" للعام الهجري، و"ص" للصفحة، و"ط" للطبعة، و"ج" للجزء أو للمجلد.

٢. في تقييم القصص وضع "ا" لـالإمتاع والمؤانسة، و "ب" نسخة كتاب البخلاء مقدمة من طه الحاجري، و"ب-د" نسخة كتاب البخلاء دار صادر بيروت.

٣. تخريج الآيات الواردة في البحث، وذلك بذكر اسم السورة ورقم آيتها، وأما الأحاديث الواردة فهي إلى مظانها قدر الإمكان.

٤. ترجمة الأعلام الغريبة والأماكن والبلدان من كتب الأعلام والتراجم.

٥. أرقام المراجع والمصادر التي في الهوامش، تجدها مستقلة في كل صفحة، ويأتي بالترتيب التالي: اسم الكتاب أو المقالة، اسم المؤلف، مترجم (إن يكن)، مطبعة، طبعة، العام الميلادي/الهجري،جزء، صفحة.

حدود البحث

حدود هذا البحث فيما يلي:

١. من حيث المادة يقتصر على القصص في البخلاء للجاحظ والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، رغم أن في الأول يوجد دون القصص، الرسائل و أنواع الطعام، وفي الثاني يوجد القصص في داخل المسامرات وبدون أي عنوان، ويجد فيه الفلسفة، وأمثال، وأحاديث النبوية، ومناظرات، وعلوم اللغة وغيرها.

٢. وهذا البحث سيركز على العصر العباسي في القرن الثالث والرابع في توقيت زمان المؤلفين، والكتابين.

٣. من حيث المكان ينحصر في البصرة وبغداد.

٤. من حيث الدراسة يبحث عناصر القصّة القصيرة ويوازن بين القصص للكتابين.

تنظيم البحث

لتحقيق هذه الأهداف، آثرت الباحثة منهج الموازنة خلال البحث. فأبدأ هذه الرحلة العلمية بالتمهيد وهو معرفة جذور القصّة؛ وتطور القصّة في انحاء العالم، فتدرس القصّة بأنواعها في الشرق والغرب، وفي مراحل التاريخ الإنساني المختلفة؛ وهل تأثرت القصص العربية من القصص الغربية، أوالغربية من العربية، ونمو القصّة الأوروبية في عصر النهضة وعناصرها.

الباب الأول: شخصية المؤلفين وكتابيهما: يعني معرفة المؤلفَين وانتاجهما، ويسير في أربعة فصول: الفصل الأول في المحيط البيني؛ الاجتماعي والسياسي والثقافي؛ وهذا الفصل يتعلق عن بيئتي البصرة وبغداد في القرن الثالث والرّابع الهجري، والتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي أثرت على حياة الشعب، وعلى المؤلفَين، والفصل الثاني في المكوّنات النفسية والاجتماعية والثقافية للجاحظ والتوحيدي، والبحث يركزّعلى الحياة، وسيرة المؤلفَين، وكيف صاغهما معدن تجارب الحياة. والفصل الثالث عن كتاب البخلاء والإمتاع والمؤانسة بين الفن والتاريخ؛ من الإبداع الفنّي والمهارة، وتاريخ الأحوال والأحداث التي مرّ بها كتابين، حيث الفصل الرابع في كتابي البخلاء والإمتاع والمؤانسة من حيث القيمة والمحتوى، ما يشمل فيهما الفضائل من حيث الصفة العلمية والأثر الباقي، ومن حيث الفكرة والمضمون وما يتضمّنه من آراء وأفكار.

الباب الثاني: العناصر المضمونية للقصص في الكتابين وما تضمنا يعني دراسة الكتابين، والفن، ويسير في أربعة فصول. الفصل الأول في الملامح التاريخية للعصر العباسي وذكرها في الكتابين، والفصل الثاني في المحتوى الاجتماعي والسياسي والثقافي، أخلاق المجتمع وتصوير الطبقي، صراعات الأجناس والأمن الاجتماعي. والفصل الثالث في المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي، ظواهر البخل، ونقد الاجتماعي لحالة الشعب والأمراء، وقضايا سياسية في العصر، حيث الفصل الرابع في السخرية والفكاهة في الكتابين؛ وكتاب الأول كتاب الهزل والثاني ليس كذلك.

الباب الثالث: العناصر الفنية للقصص في الكتابين: يعني مورفولوجية القصّة ويسير في أربعة فصول: الفصل الأول في سرد القصص، ويبرز أهم المعالم والتقنيات وملامح السرد،

وإكتشاف مفارقة السرد. والفصل الثاني في شخصيات القصص، ويشمل فيها الشخصيات الإنسانية والحيوانية، الجاهزة والنامية، رئيسية وثانوية، وتبرز الشخصيات من الأبعاد الثلاثة. والفصل الثالث في الحكاية، وهي تنحصر في أربع نقاط رئيسية، الوظائف، والشخصيات، والبناء، وتسلسل السردية، وثلاثة عناصر لتحليل الحكاية، هي الهيكل والرسالة والشفرة. والفصل الرابع في المظاهر الأسلوبية، وهو يظهر في الموضوع والأديب. والأسلوب الأدبي يترتب بالعاطفة، والخيال والفكرة، فتحليل بعض القصص من الكتابين.

الباب الرابع: أوجه التشابه والاختلاف: يسير في ثلاثة فصول: الفصل الأول يسير في أوجه التشابه وأسبابها، ويبدأ من الأديبين في حياتهما وعصرهما وسيرتهما، والتشابه بين الكتابين، من حيث المادة والجوهر، وإبراز تشابههما، والموازنة بين القصص من حيث التشابه في الفكر والموضوع والصور والتعبير. والفصل الثاني يسير في أوجه الاختلاف وأسبابها، وهي مثل الفصل الأول، يسير في أوجه الاختلاف على التوالي. والفصل الثالث يسير في تقييم القصص الواردة في الكتابين وتثمينها وتقدير القصص والموازنة الصالحة، تقسم القصص بين الكتابين في الأنواع عديدة، لموازنة النوعية، ثم يثمن القصص على النطاق الواسع في فئات ثلاثة.

خاتمة البحث: تتضمن أهم نتائج البحث والتوصيات والفهارس الفنية.

التمهيد: جذور القصّة في الأدب العربي

التمهيد: جذور القصّة في الأدب العربي

١. جذور القصّة

وُجدت القصّة مع خلق الكون والحياة، وتنبض في عروق الإنسان كما يجري فيها الدّم. والإنسان؛ طفلاً أم كان شاباً، كهلاً أم كان شيباً يستمع القصّة ويتلذّذ ويتأثر بها أيضاً. ولما يملّ بالعمل ويسأم بالجهد والمشقّة، يميل إلى منتدى القصّ، أو مسامرات الليل، أو يقرأ المجلات والرسائل، أو كتب القصّة والحكايات، أو يفتح تلفزيون ويرى التمثيلات الملوّنة. والطفل ينشأ في أي مكان في الشرق أم في الغرب، يربّي مع هذه الفطرة، أنه يستمع القصّة الشعرية أم النثرية قبل النوم، من جدته أو أمه وأبيه. فجذور القصّة توجد في داخل كيانه. فالصحيح أن القصّة كانت "قبل أن يكون حاضرنا، وستظل بعد أن يزول هذا الحاضر، ما بقيت الإنسانية وكل ما هنالك أنها تغير من ثوبها بتغير العوامل الحضارية، لكن تظل حاجة الإنسان إليها حاجة ملحة وأساسية، حاجته إلى الماء والهواء والفن والعمل"[١].

إنّ القصّة أخذت في كلّ بيئة لونًا وفي كل عصر شكلًا، وهي أقدم الأجناس الأدبية. وهي نشأت واستقرت في الشرق والغرب معاً، وحكاية التأثر والتاثير لهذا الفن يشهدها عالم الأدب، خلال تاريخ الأدب في القرون الأولى، ومن ثمّ في عصور مختلفة. وما من قوم على وجه الأرض إلاّ له قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يتلذّذ بها في أوقات الفراغ، ويصوّر بها عاداتهم وطبائعهم وغرائزهم. فيمكن أن يقال إنّ بداية القصّة تتعلق ببداية الإنسان الحي العاقل، بصورة ساذجة.

---

[١]- القصة تطوراً وتمرداً، يوسف الشاروني، الهيئة العامة لعصور الثقافة، ١٩٩٥م، ص١٥.

١,١. مفهوم القصّة

في "لســـان العرب" قول الليث[١]: "القصّ فعل القاصّ إذا قَصّ القصـــص، والقصّـــة معروفة". ويقال: في رأســه قصّــة يعني الجملة من الكلام، كأنّها فن قولي. ونحوه قوله تعالى: **(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَ)**[٢]؛ أي نبيّن لك أحسن البيان. والقاص: الذي يأتي بالقصّة من قُصها. ويقال: قصصت الشئ إذا تتبّعت أثره شيئاً بعد شئ؛ ومنه قوله تعالى: **(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)**[٣]؛ أي اتّبعي أثره[٤]. كما جاء في الصحاح، وفي التهذيب: القصّ اتباع الأثر. ويقال خرج فلان في إثر فلان وقصا وذلك إذا اقتص إثره[٥]. وقصص القرآن أصدق القصص لقول القرآن: **(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)**[٦]. وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

فالقصّـــة لغة: هي الخبر، والقصـــص جمع القصّـــة التي تكتب[٧]. و"أحدوثة مروية أو مكتوبة يقصـــد من ورائها الإمتاع والإفادة"[٨]. وهي قريبة من الخبر أو من التاريخ لأن القاص ينقل عن الواقع ويحذف منه ويضيف إليه لتشوق القارئ.

وفي الاصطلاح: هي "مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض. ويكون نصيبها في القصّة متفاوتاً من حيث التأثر والتأثير"[٩].

و"حكاية مصـطنعة، مكتوبة نثراً، تستهدف استثارة الاهتمام سـواء أكان ذلك بتطور حوادثها أو بتصـويرها للعادات والأخلاق، او بغرابة أحداثها وهي تصـوير لحدث مترابط يثير الترقب والحذر والاندهاش والمتعة "[١٠].

---

[١]- الليث بن سعد، شيخ الإسلام في مصر، ولد ٩٤هـ وتوفي سنة ١٧٥ هـ، كان فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعرحسن المذاكرة (سير أعلام النبلاء، الطبقة السابعة، الليث بن سعد، الجزء ٨.)

[٢]- سورة يوسف، آية ٣.

[٣]- سورة القصص، آية ١١.

[٤]- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، دار صادر، بيروت، ١٤١٤م، ص٧٣-٧٤.

[٥]- تاج العروس، مرتضى الزبيدالمجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ٢٠٠٤، ص٤٣٢.

[٦]- سورة النساء، ٨٧.

[٧]- تعريف القصّة، إعداد: محمد صالح، عبر الانتربيت، بوابة: يوم جديد، نشرت في ١٨ مايو ٢٠٠٨م.

[٨]- فن القصّة الماهية، محمد غالمي، منديات دار الأدباء الثقافية، ٢٠٠٩/١١/٢٢م .www.alodaba.com

[٩]- فن القصّة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ط ٧، ١٩٧٩م، ص٩

[١٠]- فن القصّة في النثر العربي، سوسن رجب، .www.angelfire.com

"وهي فن من فنون الأدب النثري، يقوم على سرد حادثة أو أحداث تدور حول موضوع معيّن، الغاية منه الإمتاع والإفادة. وقد يكون موضوع القصّة حادثاً خيالياً أو خرافياً، أو يكون حادثاً حقيقياً مستقى من واقع الحياة، وقد يكون مزيجاً من الواقع والخيال"[1].

القصّة فن أدبي تكتب في أسلوب النثر في أغلب الأحيان، وهي مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تبرز فكرة معينة، وتنقل إلى القارئ الإمتاع واللذّة. والإنسان يظل في حاجة القصّة كحاجته إلى الماء والهواء والفن والعمل.

والقصّة تعدّ من "أهم خصائص العصر الحديث، بل كان من أوسع ميادين الأدب العالمي، وأخطرها، وأعمقها أثراً في الوعي الإنساني والقومي"[2].

القصّة هي تعبير عن الحياة، والحياة لا تبدأ من نقطة معينة، ولا تنتهي إلى نقطة معينة، أما القصّة فتبدأ وتنتهي في حدود زمنية معينة، وتتناول حادثة أو طائفة من الحوادث بين دفتي هذه الحدود[3].

والقصة تعالج الواقع الإنساني، النفسي والاجتماعي على اختلاف في مذاهبها الفنية الحديثة. ويتناول كاتب القصة الحدث، وتهتم بصراع الشخصيات، ويتم ألوان التفاعل بينهم، وتنظم الشخصيات والحوادث في أماكنها المناسبة، ويصل إلى الهدف أو النتيجة.

وللأدباء مجال خصب وميدان واسع في القصّة لتصوير الحياة، ومبتكراتهم الخيالية، ولذا ذاعت القصّة وحظت حظّا واسعاً، ولقيت رواجاً عظيماً وشهرة نادرة بين الناس، في كل طبقة.

وهكذا نجد أنّ "القصّة ظاهرة إنسانية صاحبت البشرية – وتصاحب الإنسان – منذ طفولتها"[4].

١,٢. تعريف القصّة القصيرة

القصّة القصيرة من أروع أنواع الأدب، وهي أقرب الفنون الأدبية لروح العصر؛ لأنها انتقلت من العام إلى الخاص، "فهي لا تتناول حياة كاملة بل تركز على جانب من جوانب

---

[1]- الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، فوار الشعّار، دار الحيل، بيروت، ص١٨٤.
[2]- نانحو وموال، معزوفة للعلاج النفسي، د. فاتن حسين، جريدة القاهرة، العدد ٦٤٥، الثلاثاء ٢٠١٢/١٠/٢٣م.
[3]- أنظر النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، ط ٨، ٢٠٠٣م، ص٨٧.
[4]- القصّة تطوراً وتمرداً، يوسف الشاروني، ص٣٨.

الحياة، أو فكرة من الأفكار، أو حدث من أحداث، أو زاوية من زوايا الشخصية، أو دافع من دوافع الإنسانية، وتصوره تصويراً مكثفاً"[1].

هي "سرد قصصي نسبيًا، يهدف إلى أحداث تأثير مفرد مهيمن ويمتلك عناصر الدراما. وفي أغلب الأحوال تركز القصّة القصيرة على شخصية واحدة في موقف واحد في لحظة واحدة"[2]. وهي فن يجمع كل الفنون، "ففيها من القصيدة بناؤها وتماسكها، وفيها من الرواية الحدث والشخوص، وفيها من المسرح الحوار ودقة اللفظ واللغة، وفيها من المقال منطقية السرد ودقته، وغيرها من الفنون الأدبية الأخرى"[3].

و"كاتب القصّة القصيرة لا يعرف شيئاً اسمه الشكل الجوهري، لأنّه لا يطمع في تصوير الحياة الإنسانية في مجموعها، بل يختار فقط ما يتناول الحياة من إحدى زواياها"[4]. ويقول أوكونور ، "أنّ كاتب القصّة يختار دائماً الزاوية التي يتناول الحياة منها، وكل اختيار يقوم به يحتوي على إمكانية قالب جديد"[5]. كما يصنع النحات الذي يستطيع أن يستخرج من الحجر المهوش، تمثالاً له معنى وكيان. فهي ليست كلاماً من هنا وهناك يملأ فراغاً من الصحف، وإنما هي عمل أدبي تام للبناء المحكم. والقصّاص البارع لا يقف عند السطح من المواقف والقضايا الاجتماعية، بل يتغلغل في أعماق الأفراد وينفذ إلى كيانهم الداخلي، ويصوغها في صورة القصّة باقية في الأذهان إلى الأبد.

القصّة القصيرة هو فن خالص، وهي "صوت الفرد" وكاتب القصّة يجلس وحيداً، ويناجي أشجانه الخاصة، ويعبر عن موقفه من المجتمع في قالب قصصي، وهو "الوعي الحاد بالتفرد الإنساني"[6].

والصحيح أن القصّة قد وجدت طوال التاريخ بأشكال مختلفة، وكل ما هنالك أنها تغير من ثوبها بتغير العوامل الحضارية[7]؛ مثل قصص العهد القديم عن الملك داوَد وسيدنا يوسف وراعوت، وقصص القدوة الأخلاقية في زعمهم هي أشكال العصر الوسيط للقصة القصيرة.

١,٣. أنواع القصّة

لقد تعددت أشكال القصّة وتنوّعت، ووضع النقاد لكل منها مسمى خاصًا، منها:

---

[1]- فصول في النقد الأدبي وتاريخه، د. صياء الصديقي ود. عباس محجوب، دار الوفاء، المنصورة. ص٢٩١.
[1]- تعريفات حول القصّة القصيرة والحكاية، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
[2]- القصة العربية أجيال وآفاق، سلسلة فعلية تصدرها المجلة العربي، كتاب الرابع والعشرون، يوليو، ١٩٨٩م.
[4]- القصّة تطوراً وتمرداً، يوسف الشاروني، ص٤٣.
[5]- الصوت المنفرد، فرانك أوكونور، ترجمة: محمود الربيعي، دار الكتاب القاهرة، ١٩٧٩م، ص١٦.
[6]- المرجع السابق، ص٦-٧.
[7]- أنظر. القصة تطورا وتمردا، يوسف الشاروني، ص١٥.

١. **الرواية:** هي أكبر الأنواع القصصية حجماً، تتضمّن أحداثاً متشعبة، في إطار اجتماعي معيّن. وهي قصّة طويلة تقوم على السرد المتدرّج صعداً وتشويقاً إلى نهايتها المترقبة والمرصودة، وعلى حبك الحادثة وتسلسلها في مجار التفصيلية ممّا يهمّ الإنسان ويتداول مصيره ووجوده، وعلى رسم الحيّز المكاني والزّماني لشخوصها وأحداثها، وعلى خلق الأشخاص وإحيائهم بما تفرضه طبائعهم وتقاليد البيئة من حولهم وروح العصر وحركة المجتمع وتناقضاته[١].

٢. **الحكاية:** هي وقائع حقيقية أو خيالية لايلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة. "وتعتمد على رواية يروى ويرسم، وليس على تحرك الأشخاص وسلوكهم"[٢].

٣. **القصّة القصيرة:** تمثل حدثاً واحداً، في وقت واحد وزمان واحد، يكون غالباً أقل من الساعة (وهي حديثة العهد في الظهور).

٤. **الأقصوصة:** هي أقصر من القصّة القصيرة وهي تقوم على رسم منظر وفيها يحصر الكاتب اتجاهه في ناحية ويسلط عليها خياله، ويركز فيها جهده ويصورها في ايجاز[٣].

٥. **القصّة:** تتوسط بين الأقصوصة والرواية. وهي تهتم بالوصف أي وصف الحياة والأشخاص، ومجال الأحداث التي يبررها، وتهتم بصراع الشخصيات النفسي. إذن فينقل إلينا الحياة كما هي، وإذا عالجت الماضي لم يكن ذلك تغنياً بالماضي فحسب، بل لابدّ أن تكون لهذا الماضي أهمية حاضرة، الذي ينير جوانب حاضرنا، أو يكون عاماً لقضاياه، أو يدفع به إلى الأمام[٤].

---

[١]- المعجم المفصّل في اللغة والأدب، إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٧م، ج١، ص٨٧٦.

[٢]- الأدب العربي، فواز الشعار، إشراف: إميل يعقوب، ص١٨٧.

[٣]- دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، د. عبد المنعم خفاجي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٤٣٤.

[٤]- أنظر: النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٤٦٣؛ قضايا النقد العربي، قديمها وحديثها، د داود غطاشة وحسين راضي، الدار العلمية الدولية، الارجن، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٢٩.

١,٤. عناصر القصّة

القصّـة تأتي في الوجود بشـروط ثلاثة: العرض، النمو، والعنصـر المسـرحي. ومن شـروط القصّـة أن تعتمد على أصـول وقواعد شبه ثابتة، سـواء كان عن وحدة الموضـوع، أو البنية، ويستلزم بها. ومن عناصر القصّة:

ا . الحادثة

هي مجموعة الوقائع الجزئية المرتبطة والمنظمة على نحو خاص بما يسمّى التصـميم، فالحادثة الفنيّة إذن هي سلسلة من الوقائع المسرودة سرداً فنياً ويضمها إطار خاص[١]. والقصّة تهتم بالحادثة، حيث يركز كاتبها على سرد المواقف والعناية بالأسلوب ويعمد إلى إخبار القارئ بكل شـيء بالتفصـيل دون أن يترك له فرصـة الاستنباط. والحدث في القصّـة القصـيرة مكثف، وهو كل شيء.

وإذا اعتبرنا العنصـر السـائد في القصّـة، فلا شـك في "أن تطوير الحوادث هو الناحية الثانية التي تلي تلك في الأهمية. فهو الذي يبعث في القصّة القوّة والحركة والنشاط. وهو العصا السـحرية، التي تحرك الشـخصـيات على صـفحات القصّـة، وتسـوق الحوادث، الواحدة تلو الأخرى، حتى تؤدي إلى تلك النتيجة المريحة المقنعة"[٢].

ب. السرد

هو الطريقة التي يســتعملها الكاتب لينقل إلى الناس ما يريد، عبر ألفاظ لها مدلولها، ولكي ينجح السـرد يجب أن تكون الطريقة سـهلة مبسـطة، وبألفاظ تثير عنصـر التشـويق المفروض في القصّـة، وله اختيار أن يستخدم الطريقة المباشـرة، أو طريقة السرد الذاتي، أو طريقة الوثائق التي تتحقّق عن طريق الخطابات والحكايات[٣].

---

[١]- الأدب العربي، الموسوعة الثقافية العامة، إعداد: فواز الشعّار، إشراف: د. إميل يعقوب، ص١٨٤.

[٢]- فن القصّة، د. محمد يوسف نجم، ص٣١.

[٣]- المرجع السابق، ص١٨٤-٨٥

ج. البناء

يختلف باختلاف موضوع القصّة، لكن في كل قصّة توجد المقدّمة، وهي تسهم إلى حدّ بعيد في خلق الجوّ الذي يضطرب فيه الأشخاص، والحوادث المفاجئة التي تقود إلى تأزم العقدة، ومن ثمّ يأتي الحلّ وتنجلي الأمور عن هدف معيّن[1].

د. الشخصية

تُعتبر الشخصية مصدر الإمتاع والتشويق في القصّة لعوامل كثيرة، والشخصية الإنسانية في القصّة، هي مصدر جديد من مصادر المتعة والتشويق، لأن كل إنسان يتعاطف وجدانياً مع الشخصية، فعلى القاص أن يجعلها حيّة متحركة[2]. وهي تمثّل العصب الأساسي في القصّة، فرسم الشخصية يستلزم مزيدًا من الجهد والبراعة والخبرة والحذر؛ لأنها لا تتحمل الإسهاب في رسم الشخصيات بعكس القصّة. "فالشخصية إذاً مصدر إمتاع وتشويق تنتج عن الأواصر التي تنعقد بين القارئ وبينه لدى تتبّع خطّ سيره في القصّة. وربما تعاطف معها لأنه يجد فيها ما يشبهه، أو يرى فيها بعض صفات أصحابه، وكثيراً ما يتشبه بها إذا ما وقعت في نفسه موقعاً حسناً"[3]. والشخصية مكون رئيسي وركيزة أساسية لكل عمل سردي، وهي تلعب دوراً بنيوياً أو وظيفياً مع دور البنيات الأخرى: الزمان والمكان والأحداث.

ر. الزمان والمكان

الأحداث التي تدور في القصّة لابدّ أن تقع في مكان وزمان محددين، وهي لذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما. والارتباط بكل ذلك ضروري لحيوية القصّة؛ لأنه يتمثل البطاقة النفسية للقصّة[4]. فهي ترتبط بذلك بالبيئة الكاملة لها والعادات والتقاليد، وطرق المعيشة التي تدخل فيها. وعنصر الزمان والمكان يعين القارئ على فهم الجو النفسي للقصّة والشخصية، (وخاصة في القصص العصرية) ويجعله أكثر استيعاباً للأحداث والشخصيات، ويستطيع أن يطلع في خلالها على حضارة أمّة في عصر من العصور.

---

[1]- الأدب العربي، الموسوعة الثقافية العامة، إعداد: فؤاد الشعّار، إشراف: د. إميل يعقوب، ص١٨٥.

[2]- أنظر: فن القصّة، د. محمد يوسف نجم، ص٥١؛ قضايا النقد العربي، قديمها وحديثها، د. داود غطاشة وحسين راضي، ص١٣١.

[3]- الأدب العربي، الموسوعة الثقافية العامة، إعداد: فؤاد الشعّار، إشراف: د. إميل يعقوب، ص١٨٥.

[4]- الأدب وفنونه، عزّ الدين إسماعيل، ط٧، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م، ص١٩٤.

وبيئة القصّة يمكن أن تكون حقيقتها الزمانية والمكانية، يتكون من الجوّ والمحيط، فلا بدّ للكاتب أن" يعي البيئة وعياً تاماً، وأن يتبين تفاعلها مع الشخصيات مؤثرة كانت أم متأثرة"[1]. القصّة هي تعبير عن الحياة، والحياة لها بدايتها، أنها لا تبدأ من نقطة معينة، ولا تنتهي إلى نقطة معينة، أما القصّة فتبدأ وتنتهي في حدود زمنية معينة، وتتناول حادثة أو طائفة من الحوادث بين دفتي هذه الحدود[2].

ز. الفكرة

هي الأساس الذي يقوم عليه بناء القصّة، وهي تشمل المقدّمة، والعرض والنهاية، فإذا كانت الفكرة ناجحة، نجح العمل[3].

١,٥. القصّة القصيرة الغربية

أما القصّة القصيرة الغربية، فقال عنها من رواد الغرب، "إدغار ألان بو[4]" (١٨٠٩م – ١٨٤٩م) "إنّ القصّة القصيرة بحق تختلف بصفة أساسية عن القصّة بوحدة الانطباع. ويمكن أن نلاحظ بهذه المناسبة أن القصّة القصيرة غالباً ما تحقق الوحدات الثلاث التي عرفتها المسرحية الفرنسية الكلاسيكية، فهي تمثل حدثاً واحداً يقع في وقت واحد. وتتناول القصّة القصيرة شخصية مفردة أو حادثة مفردة أو عاطفة، أو مجموعة من العواطف التي أثارها موقف مفرد"[5].

وقد نمت القصّة القصيرة في الغرب، وازدهر هذا اللون من الأدب في أرجاء العالم المختلفة، طوال قرن مضى على أيدي موباسان[6]، وزولا[7]، وتورجنيف[8]، وتشيخوف[9]،

---

[1]- فن القصّة، د. محمد يوسف نجم، ص١١٠.

[2]- أنظر: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، ط ٨، ٢٠٠٣م، ص٨٧.

[3]- الأدب العربي، الموسوعة الثقافية العامة، إعداد: فواز الشعّار، إشراف: د. إميل يعقوب، ص١٨٥.

[4]- شاعر وكاتب قصص وناقد أمريكي، من أوائل كتاب القصّة (فن القصّة، د. محمد يوسف نجم، ١٧٦).

[5]- look at:

Short story writing and free- lanoe journalism, Sydney A. Moseley, London, 5thed, ١٩٤٨, p. ١٨٨.

[6]- حي. دي. موباسان (١٨٥٠م- ١٨٩٣م) كاتب وروائي فرنسي، وأحد أباء القصّة القصيرة الحديثة (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[7]- إميل فرانسو زولا (١٨٤٠م- ١٩٠٢م) كاتب فرنسي مؤثر وكاتب العديد من القصص القصيرة، والمقالات والمسرحيات (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[8]- ايفان تورجنيف (١٨١٨م- ١٨٨٣م) الروائي الروسي الكبير، هو شاعر و مسرحي وكاتب قصص قصيرة أيضاً (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[9]- أنطون تشيخوف (١٨٦٠م- ١٩٠٤م) طبيب وكاتب مسرحي، ومؤلف قصصي روسي كبير، ينظر إليه أنه من أفضل كتاب القصص القصيرة على مدى التاريخ (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

وهاردي[1]، وستيفن[2]، ومئات من فنان القصّة القصيرة. وفي العالم العربي بلغت القصّة القصيرة درجة عالية من النضج على أيدي يوسف إدريس[3] في مصر، وزكريا تامر[4] في سوريا، ومحمد المر[5] في دولة الإمارات.

٢. القصّة قبل الميلاد

حياة الإنسان مرتبطة بالقصّة رباطاً وثيقاً، ولا يمكن أن نحدد لها موطناً بدقة، وإن كان أهل كل الحضارات يدعّون بمفاضلة ولادة القصّة بينهم. وشكل القصّة تغير مع مرور الزمن.

٢,١. القصّة المصرية

ليس من السهل تحديد موطن القصّة، وتتباين فيه الأراء بشدّة، بسبب دوافع قومية أو عنصرية. ومجموعة القصص التي وصلت إلينا، يمكن القول إن القصص المصري القديم أقدم قصص في التاريخ. وهذه المجموعة جمعها العالم الفرنسي الشهير "جاستون ماسبيرو[6]" (١٨٤٦- ١٩١٦م)، بعنوان: "القصص الشعبي في مصر القديمة"، وترجمها إلى الفرنسية ونشر ها في باريس، عام ١٨٨٩م، وهي من العصر الفرعوني الأول، وفيها شبه كبير بقصص ألف ليلة وليلة[7]. والحيوان يلعب دوراً محدوداً في هذه القصص. وقصّة "الفأر والأسد" وصلت إلينا على ورق بردي، يرجع تاريخها إلى أيام رمسيس الثالث[8] (١٣٠٠ – ١١٦٦ق.م)، ويرى المستشرق رتشارد برتون[9] (١٨٢١ – ١٨٩٠م)، ومترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغة الإنجليزية، "إن القصص الوعظي أيضاً موطنه بلاد النيل، ومنها هاجر إلى فنيقيا، وجوديا،

---

[1]- توماس هاردي (١٨٤٠م- ١٩٢٨م) روائي إنجليزي، كاتب القصّة القصيرة والشعر (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[2]- ستيفن زفايج (١٨٨١م – ١٩٤٢م) كاتب نمساوي (من الجمهورية النمسا أي آستريا) من أصل يهودي، من أبرز كتّاب أوروبا، حصل الجنسيّة البريطانية بعد تولي النازيين لسلطة ألمانيا. انتحر "الانتحار الثاني" مع زوجته الثانية (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[3]- كاتب قصصي، مسرحي وروائي مصري، ولد سنة ١٩٢٧م في مصر وتوفي سنة ١٩٩١م (أعلام الأدب العربي المعاصر ، لروبرت كامل، ج٢، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٣٣)

[4]- أديب سوري وصحفي وكاتب قصص قصيرة، ولد بدمشق عام، ١٩٣١م (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[5]- كاتب القصص القصيرة في أسلوب فكاهي والساخر الحاد، ولد في دبي عام ١٩٥٥م (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[6]- عالم اللغة الهيروغليفية، ومن أشهر علماء المصريات (موسوعة الأعلام، خير الدين الزركلي، ١٩٨٠م).

[7]- القصّة القصيرة، دراسة ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط ٥، ١٩٨٨م، ص١٢.

[8]- هو أول فرعون في الأسرة العشرين الذين حكموا مصر في الدولة الحديثة (اسكلوبيديا، موسوعة تاريخ أقباط مصر، عرت اندراوس، ١٩٩٤م).

[9]- عسكري ومترجم إنجليزي، اشتهر من خلال ترجمته لحكايات، انتقل من بريطانيا إلى الهند ثمّ إلى بلاد العرب (الموسوعة البريطانية المختصرة؛ موسوعة الأعلام، خير الدين الزركلي).

وآسيا الصغرى ثم اجتاز البحر في السفينة إلى بلاد اليونان"، وهنا ألتقطها ايسوب[1]. فسبقت مصر اليونان في مجال القصص كما سبقت في مجال الحضارة بآلاف السنين. ويقول ماسبيرو في مقدمة هذا الكتاب: "إنّ القصص المصرية التي وجدناه على أوراق البردي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث أو الرابع عشر قبل الميلاد، (..) وإنّ القصص المصري هو حتى الآن أول ما نعرف من الأدب العالمي، من هذا الجنس الأدبي"[2]. وهذه الدراسة تظهر صلات بين مصر واليونان، وسبقة مصر على اليونان في مجال الأدب والخاصة في صنف القصّة.

٢,٢. القصّة الأوروبية

مرّت القصّة بمراحل عديدة، من نشأتها وتطورها، فكل مرحلة يجتازها فن من فنونها، تعتمد على دعائم من المرحلة السابقة وتمهد للمرحلة التالية. والميثولوجيا الإغريقية (باليونانية) هي مجموعة الأساطير والخرافات التي آمن بها اليونانيون القدماء، ويهتم العلماء المعاصرون بدراسة هذه الأساطير لفهم الحياة الدينية والسياسية في اليونان القديمة، إضافة إلى معرفة نشأة هذه الأساطير بحدّ ذاتها. والمصدر الرئيسي للميثولوجيا الإغريقية هو الأدب اليوناني ومصدر الرسومات هو الفخار اليوناني[3]. الأدب الإغريقي اليوناني القديم ينقسم إلى أربعة عصور، وهي، (١) العصر القديم (٨٠٠ ق م – ٥٠٠ ق م)، (٢) العصر الكلاسيكي (٥٠٠ ق م – ٣٠٠ ق م) (٣) العصر الهيليني (٣٠٠ ق م – ١٠٠م) و(٤) عصر إمبراطورية روما (١٠٠ق م – ٥٠٠ م).

١. العصر القديم (المهجور)

يقع هذا العصر ما بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد. لعبت الروايات الأسطورية دوراً مهماً في الأدب اليوناني، وأعمال هوميروس[4]، "الإلياذة"[5] و"الأوديسية"[6] تُعدّ من أقدم المصادر الأدبية. "الإلياذة" تضع بطولة الإنسان اليوناني القديم في نقطة الارتكاز، بطل يكافح

---

[1]- وهو عبد إغريقي، عاش في القرن السادس قبل الميلاد، اشتهر بـ"خرافات ايسوب"، وهي القصص الخيالية (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[2]- القصّة القصيرة، دراسة ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، ص١٤.

[3]- انسائيكلوبيديا دي هيليوس، آرتيكل الإغريق، ١٩٥٢م؛ ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

[4]- شاعر ملحمي إغريقي أسطوري، مؤلف الملحمتين الإلياذة والأوديسية، عاش في ٨٥٠ ق م تقريباً (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[5]- أقدم نص أدبي مكتوب في الأدب الغربي وهي ملحمة شعرية، تحكي قصّة حرب طراودة (انسكلوبيديا برتيبكا، وار طروجن).

[6]- هي ملحمة شعرية وضعها الشاعر الأعمى، هوميروس في القرن الثامن قبل الميلاد. وهي قصّة بطل الملحمة، وهو أوديسوس، عن نهاية حرب طراودة، وبدء عودة المحاربين إلى بيوتهم (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

ليصل إلى مبتغاه، و"الأوديسية" الممثلة للطور الجديد تضع العقل في المقدمة وتتخذ من حرب طراودة صوراً عديدة لموضوعاتها المتسلسلة لتُبشر باستقلالية الفرد والوعي لطبقة الفلاحين[1].

ب. العصر الكلاسيكي

الكلاسيكية، هي أقدم المذاهب الفنية. يُعدّ القرن الخامس قبل الميلاد بطوله هو العصر الذهبي للكلاسيكية العالمية، قبل اليونانية القديمة، وازدهار لامثيل له في السياسة والعلوم والفنون والآداب. وقد قدّمت درامات "اسكيلوس[2]" أوّل دراميي الإغريق الكثير في هذا المجال.

يأتي القرن الرابع قبل الميلاد بجلّة أدبية يسوقها التأثير العسكري الحربي على الأدب، فآثار حرب "بيلوبونيسوس[3]" قد أضعفت من قوة أثينا[4] ومركزها. وفي هذا العصر فقد الشعر دوره الرائع السابق وتقدم النثر السياسي، وعظم شأن الخطباء مستلهمين جماليات الأعمال الدرامية.

ج. العصر الهيليني

تحتل الفترة من نهاية القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الأوّل الميلادي. ونتيجة للحكم المقدوني كوّن الإسكندر الأكبر[5] (٣٥٦ – ٣٢٣ ق م) إمبراطورية واسعة الأطراف وانتشرت الحضارة الإغريقية تجاه الشرق، فانتهى ازدهار الخطابة ولمعانها، واختط الأدب سيره إلى عالم الحياة، وساهم الأدب الدرامي بكوميديات جديدة لكتاب العصر بمسرحيات تعالج قضايا الأسرة، اعتمدت على أحداث الصدفة وأحداث كوميديا سابقة في دراما الإغريقي "يوريبيديس[6]". وبدأ عصر الرواية الذي يحكي تاريخ الإسكندر الأكبر، وهذه الروايات قريبة في شكلها الأدبي من القصّة، وروايات أخرى في عصر متأخر تبحث عن موضوعات الغزل والحب[7].

---

[1]- حذور الأدب العالمي، الآداب الإغريقية، أحمد اللساني، منتديات برق، ٢٠١٢/٣/٢م.

[2]- أديب يوناني في القرن الخامس قبل الميلاد. اشترك في الحروب، واقتبس منها بعض قصصه التمثيلية، كقصّة الفرس (الأدب اليوناني القديم، د. علي عبد الوافي،دار النهضة المصرية، ١٩٧٩م، ص١٥٦)

[3]- مكان تقع في اليونان، في الجزء الجنوبي من البلقان، في غرب ميسينيا، على شاطئ البحر الأيوني. قامت فيها حرب أهلية، انقسمت فيها بلاد اليونان بين المعسكرين، دعيت بـ"حرب بيلوبونيسوس" (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[4]- هي عاصمة اليونان، ومن أقدم المدن في العالم (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[5]- هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين، والفاتحين عبر التاريخ (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة؛ بيني، ٢٠٢٠م، ص١٥٩).

[6]- شاعر مأسوي يوناني قديم، أحد التراجيديين الثلاثة العظماء (الأدب الإغريقي تراثاً إنسانيا وعالميا، عثمان أحمد، القاهرة، ط٣، ٢٠٠١م)

[7]- حذور الأدب العالمي، الآداب الإغريقية، أحمد اللساني، منتديات البرق، ٢٠١٢/٣/٢م.

د. عصر إمبراطورية روما

هذا العصر يحتوي ستة قرون (من الأول قبل الميلاد إلى الخامس الميلادي)، توسعت الإمبراطورية الهيلينية إلى إمبراطورية أكبر توحدت في روما. لم تدخل تغييرات جوهرية في القصيدة، فظلت شعبية كسابق عهدها. لكن استقرت روايات تاريخية عن الإسكندر الأكبر، متجاوراً عصر روما إلى عصر القرون الوسطى فيما بعد ومتأرجحًا بين الروايات الدينية والكوميديا، كما في "روايات ميليتوس[1]"، "لونجوس[2]" و"هيليودوروس[3]"، أما آداب العلوم التخصصية فقد سارت وحدها في طريق مبشر نتيجة التصاقها بمصطلحات الآداب الجميلة وتعبيراتها، الأمر الذي أدى إلى انتشار العلوم والآداب معاً[4].

٣. القصّة بعد الميلاد

يُعدّ الأدب اليوناني أقدم أدب قومي، وأكثر الآداب تأثيراً في العالم. فقد أصبح الأدب اليوناني (الإغريقي) القديم نموذجاً لجميع الآداب بدءاً بالأدب اللاطيني. ولونجوس السوفسطائي رومانسية رعوية هو أوّل كاتب القصّة خلال القرن الثاني أو الثالث الميلادي، الذي كتب القصّة بعنوان: "دفنيس وكلو[5]" وتعتبر أوّل سابقة لفن الرواية[6].

والقصّة من بدايتها كانت "**تختلط فيها الحقائق الإنسانية بالأمور الغيبية**، وكانت تجمع في الخيال فتبعد كثيراً عن واقع الإنسانية وقضاياه، كما كان لا يفرق فيها القاص بين ما هو ممكن وما هو مستحيل. ونتحدث عن نشأة القصّة متتبعين الأدب ذا الطابع القصصي في مطلع ما نطلق عليه تجاوزا القصّة والأدب القصصي، حتى نضجت القصّة في أواخر القرن الثامن عشر"[7].

---

[1]- اسم مدينة إمبراطورية روما، ومركز أسقفية مسيحية، وتمت تقويتها بقلعة بيزنطية بنيت فوق المسرح (دائرة المعارف البريطانية، ١٩١١م؛ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[2]- كاتب يوناني، خلال القرن الثاني أو الثالث الميلادي.

[3]- روائي إغريقي روماني، من أصل متواضع، اتخذ من حرب طراودة صوراً عديدة لموضوعاتها (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[4]- جذور الأدب العالمي، الأداب الإغريقية، أحمد اللساني، منتديات البرق، ٢٠١٢/٣/٢م.

[5]- العصر ومكان القصّة لجزيرة "لسبوس" وهذه القصّة نموذج قصص الرعاة، وكان لها تأثير في الأداب الأوروبية حتى أوائل الكلاسيكي. وهذه القصّة الإغريقية لا تزال قيمتها القصصية حتى العصر الحديث (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[6]- الأدب اليوناني، الأكثر تأثيراً في العالم، منتديات برق، عبر انترنيت.

[7]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٦٤.

٣,١. في الأدب اليوناني

في القديم يبرز العنصر القصصي في عناصر مسرحية أو ملحمة، كما كان يفهم من معنى القصّة في القديم. فوجدت في الملحمة عناصر **مهدت للنثر القصصي الخيالي** في الأدب اليوناني. ومن جهة أخرى عمد المؤرخ اليوناني "كسينوفون[١]" إلى **خلط الخيال بالتاريخ فيما** يشبه القصّة، عن تاريخ لملك الفرس "كورش[٢]" في كتابه "كوروبيديا[٣]". وظهرت بشائر القصة في الأدب اليوناني كذلك في "أشعار الرعاة[٤]"، وفي حكايات الرحالة عن الإسكندر الأكبر. ثمّ ظهر النثر القصصي أوّل ما ظهر في الأدب اليوناني في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد. فكان الأدب القصصي آخر أجناس ذلك الأدب ظهوراً. ولكنه ظل مع ذلك مختلطاً بالمعاني والمخاطرات الغيبية، والسحر والأمور الخارقة، ووصل إلينا من الأدب القصصي اليوناني قصتان، هما "ثياجينس" و"خاركليا[٥]" فيما اكتملت مقومات هذا الجنس الأدبي[٦].

٣,٢. في الأدب الروماني

ظهرت القصّة في الأدب الروماني في أواخر القرن الأوّل بعد الميلاد على نحو مخالف للقصّة اليونانية في بادئ الأمر، كما يتجلى في قصّة "ساتيريكون[٧]"التي ألّفها بترنيوس[٨] (٢٥م – ٦٦م)، ثمّ تأثرت بالقصص اليونانية، وأشهر القصص التي يمثل بها لذلك التأثير قصّة "أبوليوس[٩]" (١٨٠ ق م – ١٢٥م) اسمها "الحمار الذهبي[١٠]" مثل الملاحم القديمة مسخ الإنسان إلى حيوان ثمّ إعادته إلى حاله الأولى.

ظلت القصّة قريبة من أثرها الملحمي في مخاطراتها العجيبة، وعناصرها الغيبية، وحوادثها غير مألوفة. فالقاص ينهج منهج الشاعر الملحمي، وقد سبقت القصّة الخيالية القصّة الواقعية إلى الوجود. وكان الخيال في هذه القصص نوعاً من "هروب" المؤلف والقراء من

---

[١]- هو فلسفي وكاتب والمؤرخ اليوناني الثالث بعد هيرودوس وتوكيديدس، عاش بين القرنين الثالث والثاني ق م، وكان أحد تلاميذ سقراط (دائرة المعارف البريطانية، ١٩١١م).

[٢]- كورش بن كمبوحية، ويلقب به كورش الكبير، استولى العرش وحكم من ٥٥٠- ٥٢٩ق م (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٣]- ملك كورش ألف هذا الكتاب، ومزج الخيال بالحقائق التاريخية (دائرة المعارف البريطانية، ١٩١١م).

[٤]- صنف الشعر في الأدب اليوناني في عصر الإسكندرية (دائرة المعارف البريطانية، ١٩١١م).

[٥]- هما قصتان اليونانيين ظهرتا في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد، ألفهما هليرودوس الحمصي، وأحياناً تسمى "إثيوبيكا" (كيمبرج يونيورستي بريس، ٤، ٢٠٠٤م).

[٦]- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، ص٤٦٥.

[٧]- هو عمل روائي باللغة اللاتينية، خليط من النثر والشعر (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٨]- أديب روماني في عهد نيرون (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٩]- كاتب لاتيني، فيلسوف وأديب أخلاقي وروائي ومسرحي وملحمي (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

[١٠]- وهي أقدم رواية لاتينية (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

عالم الحقيقة القاصر عن إرضاء رغباتهم. وهذا الضرب من "الهروب" وسيلة تعادل قوتين رئيستين في الإنسان ذلك العهد: هما قوة الفكر وقوة الخيال[1].

ولما ينظر المحقق إلى الجماهير في عصور الإنسانية الأولى فيبرز أنها كانت تهتم بالأحداث العجيبة وبالأخطار الخيالية، أكثر مما كانت تهتم بالواقع. وهذه الصبغة تجلت في قصص المخاطرات في الأدب اليوناني والروماني.

٤. القصة قبل الإسلام

كان للعرب قبل الإسلام قصص، يتسامرون به في مجالسهم، وفي وقت الفراغ، كما يذكرون حروبهم، وأبطالهم، ومواقع نجاحهم، وكذلك يذكرون الرجال المخذولون، والمنهزمون، ومن قتل ومن فر والتصق الجبن لقبيلته إلى مدى الدهر.

و"تضمنت قصص الجاهلية قصصاً فنية وأسطورية وواقعية، تصور معارك العرب وحروبهم وأساطيرهم وتروي أخبارهم وسير ملوكهم وتنتقل عن الأمم المجاورة لهم وعن الشعوب التي اتصلوا بها --- وامتزاج كل هذا بالقصص العربية"[2].

وكذلك كان "الحب موضوعاً مشوّقاً لكثير من الحكايات العربية، ولا سيما الحب العذري[3]، فقد كانت العقبات تقف في طريق العشق، وتحول بين الحبيب وحبيبته فتحدث المأساة، ويكثر البكاء، ويموت الوامق لعدم تحقق أمانيه"[4].

وكذلك قصص العفاريت منتشرة بين العرب، وهم يحكون من ما تصنع تلك المخلوقات، ويسمّون قبائلهم، وينسبون إليهم قدرات ما فوق البشر "ويجعلون لكلّ شاعر شيطاناً يلهمه الشعر، ويضعون لكلّ شيطان شاعر اسماً، يميزه من غيره"[5]، وللجن أماكن يسكنونها، كوادي عبقر[6]، وجبل غني[7]، ويحكّون عن تزاوج بعض الإنس والجن، وعن النسل الذي ينتج من هذا

---

[1]- أنظر. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٦٦-٦٧

[2]- أصوات جديدة في الرواية العربية، أحمد محمد عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١١.

[3]- تنسب ظاهرة الحب العذري عند العرب إلى قبيلة عذرة، اشتهر شعراءها بنمط معين من الحب، اتصف بالعفة والوفاء والسمو الأخلاقي، بعيداً عن شهوات الجسد (أنظر. الحب العذري عند العرب، شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩م)

[4]- الفنون الأدبية في العصر العباسي، د. شعبان محمد مرسي، دار الثقافة العربية، ط١، ١٩٩٢م، والطبعة الثانية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد، ١٩٩٥م، ص٢٠.

[5]- جمهرة أشعار العرب، أبوزيد القرشي، مقدمته.

[6]- وادٍ سحيق يقع في نجد (جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي؛ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[7]- جبل في الإمارات المتحدة العربية (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

النكاح، بعض الحكايات التي تتعلق بالعجائب التي كان يراها التجار بين الأسفار، وقصص الملوك ومن يحيط بهم[1].

خلاصة الكلام أن القصّة كانت موجودةً قبل الإسلام، ويتلذّذ بها النّاس في أوقات الفراغ، حسب مزاجهم وأعمارهم. وهذه القصص، لا تُعدّ لها حسب قيمة فنيّة، بل تُعدّ لها الفطرة الشعبية فقط.

٥. القصّة بعد الإسلام

جاء الإسلام في بداية القرن السابع الميلادي، ووجد العرب قصص الأقوام السالفة في القرآن، واتجهت في غايتها نحو الإصلاح الأخلاقي، و"هذه القصص كانت تركز على العبرة، ومنها قصص الأنبياء، وموقف أقوامهم منهم، وقصص الجبابرة وذكر مهلكهم ومصارعهم، وحكايات الصالحين، وعطاء الله لهم، قصّة يوسف تعبر عن الحب والطهارة"[2]، والقرآن يقصّ "قصّة الهبوط" بالتفصيل ومع أسبابها وأيضاً تكلم عن الجنّ والنار، وما يدور في الآخرة، وما فيها من النعيم، بوصف رائع، وكذلك تحدث القرآن عن العذاب المقيم، وعن شجرة الزقوم، وعن الغسلين والقطران، وما يحدث لأهل جهنم بتفصيل وبتعبير مؤثر تقشعر منه الجلود. والقرآن يحوّر القصّة تحويراً ملموساً ليجعل لها معنى جديداً مختلفاً عن معناها السابق فيه كل الطرافة، ليبعث فيها معاني جديدة يلائم مع روح التقدم في عصر جديد.

وفي الحديث النبوي يورد بعض القصص، قصد به النبي صلى الله عليه وسلم تعليم أصحابهم مكارم الأخلاق، وبعض الأمثال القصصية؛ مثل: قصّة جريج الراهب وأمّه[3]؛ وقصّة أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل[4]؛ وقصّة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام[5]؛ ليوضح لهم المعاني العليا، ويقرب لهم الحقائق البعيدة. وأوّل قاص في الإسلام هو تميم الداري، من قصّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهد عمر بن خطاب رضي الله عنه[6]، وارتفع شأن القصص حتى أصبح عملاً رسميًا، ويعهد به رجال يتناولون عليه أجراً.

---

[1]- الفنون الأدبية في العصر العباسي، د. شعبان محمد مرسي، ص٢٠.

[2]- قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، بيروت، ١٩٧٨م. وتحتوي كتب التفسير على شروح لقصص القرآن الكريم، بعضها ملتزم بما جاء في القرآن، وبعضها مزين بالخيال.

[3]- البخاري، حديث ٣٢٥٣، ص٢٦٨.

[4]- البخاري، حديث ٣٢٧٧، ص١٢٧٧.

[5]- مسلم، حديث ٣٠٠٥، ص٢٣٠١.

[6]- الفنون الأدبية في العصر الأموي، د. سجيع الجبيلي ود. قصي الحسين، دار البحار، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص٤٦٣.

٥,١. في العصر الأموي

ثم جاء العصر الأموي من سنة ٤١ هجرية إلى سنة ١٣٢ هجرية، فتبدلت النظرة إلى فن القصّة عما كانت عليه في عصر الإسلام الأول، حيث ازدهر النثر الأدبي عموماً فشمل هذا التطور والازدهار القصّة العربية أيضاً. فظهر الخطباء والقصاص البارعون مثل الحجاج بن يوسف الثقفي[١] في العراق وزياد بن أبيه[٢] وغيرهما. والأسود بن سريع[٣]، هو أوّل من قصّ بالبصرة، وكان يقابله في الكوفة زيد بن صوحان، وفي المدينة عبيد بن عمير، وكان عبد الله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبكى من شدّة تأثره[٤]. وفي عصر معاوية عيّن للقصاص مرتبات خاصة. وكان للخوارج قصاصون كثيرون أشهرهم على سبيل المثال "صالح بن مسرح[٥]"، خلط في قصصه بين الوعظ والدعوة إلى الجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذم الدنيا والتعلق بها، ووجد أيضاً من القصاص الرسميين "مسلم بن جندب[٦]" وهو قاص مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. و "يزيد بن أبان الرقاشي[٧]" كان قاصاً مجيداً[٨]. فالقصّاص كانوا وعّاظاً في الوقت نفسه، ومن كبار وعّاظ العصر وقُصّاصه الحسن البصري، والفضل بن عيسى الرقاشي. وفي العصر الأموي استردت القصّة الجاهلية مكانتها، ونشأت القصص السياسية، ومع هذا بدأت القصص التي تدور حول صرعى الحبّ، ويكسوه ألواناً من الخيال والمبالغات تبتعد به عن الحقيقة. وانتشرت قصص حبّ جميل وبثينة، ومن صنع الخيال حملوا أسماء واقعية مثل قيس بن الملوّح مجنون بني عامر[٩].

٥,٢. في العصر العباسي

تطورت القصص منذ مطلع العصر العباسي، وبرع في تأليفها عدد غير قليل من كبار أدباء ذلك العصر، ومن هنا تبدأ القصّة الفنية. ومع ارتقاء الحياة، وشيوع الثقافة بدأت أحاديث السمر في مجالس الخاصة، وبين حلقات العامة، وتزدهر وتنوع، وأصبحت سلّماً للنقد الاجتماعي، أو التصوير الأدبي، ودخل فن القصّة في دائرة الإبداع. ومشى خطوة إلى الأمام،

---

[١]- من أركان الدولة الأموية، يعدّ من الشخصيات المثيرة للجدل في التاريخ الإسلامي والعربي. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.)

[٢]- قائد عسكري في عهد الخلافة الراشدة، وكان أحد أربع من دهاة العرب. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.)

[٣]- ابن سعد، ج٧، ق١، ص٢٨.

[٤]- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢٤، ٢٠٠٧م، ص٤٣٥.

[٥]- رجل ناسك، يقرأ القرآن والفقه ويقص عليهم، ويذمّ عثمان وعليّا كدأب الخوارج. (سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، أجزاء ٢٥، ط٣، ١٩٨٥م، ص١٤٨.)

[٦]- هو القارئ والقاص، مولى هذيل، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك، بعد ١١٠ هـ تقريباً. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.)

[٧]- القاص من زهاد أهل البصرة، توفي عام قبل ١٢٠ هـ. (سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد عثمان الذهبي)

[٨]- أنظر كتاب "البيان والتبيين" الجاحظ، مكتبة الخانجي، مصر، ط٧، ١٩٩٨م.

[٩]- أنظر القصّة القصيرة، دراسة ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٨م، ص٣٠-١.

حين هبط بها إلى واقع الحياة، وجعل السـخرية جزءاً منها، ومزج فيها بين المتعة والجمال والنقد.

٦. القصّة في الأدب العربي

متى بدأ فن القصـة في الأدب العربي؟ هذا السـؤال يطرح في الذهن لما يفكر الإنسـان عن بداية هذا الفن. فبعض الكتاب يرون أن فن القصّـة له جذور عربية أصـيلة، فلم يكن وافداً إلينا كلية من الغرب، دون وجود أية جذور عربية له في بيئتنا، وبعضـهم ينكرون بها، وسـبب هذا الرأى، لأنهم وضـعوا نصب أعينهم القصّـة الغربية، في صـياغتها الخاصـة بها، وإطارها المرسـوم لها، واتخذوا بين أيديهم المقياس والميزان الغربي، وفتشـوا في الأدب العربي من وجود أمثال لهذا المقياس، فلم يجد.

ولم يكن للقصّـة قبل العصـر الحديث عندنا شـأن يذكر، بل كان لها مفهوم خاص لم ينهض بها، ولم يجعلها ذات رسـالة اجتماعية وإنسـانية في رأى د. محمد غنيمي هلال[1]. وأنّ خصائص القصّة الحالية لا تنطبق على القصص كما عرفها العرب.

ولابدّ أنه كانت للعرب حكايات (كما تكون لكل أمة) يتلهون بها ويسـمرون ، ولو أنا عددنا مثل هذه الحكايات قصـصـا لكانت القصّـة أقدم صـورة للأدب في العالم لأن كل الشـعوب الفطرية تسـمر على هذا النحو البدائي، ولكن مثل هذه القصـص إذا كانت لها دلالة شـعبية، فليسـت لها قيمة فنية حتى تعد جنسـاً أدبياً. وعلى مثال هذه الحكايات "قصّـة خنافر الحميري[2]" وغير ذلك.

ولا نعتد بالروايات التاريخية التي تختلط فيها الحقائق بالخرافات والأسـاطير، لأنها يقصد بها التاريخ، ولم تتوافر لها الصياغة الفنية التي تجعل منها ما يشبه الملاحم، أو القصص الملحمية، على نحو ما فعل الفردوسـي مثلاً في "الشـاهنامة[3]" متخذ من نفس هذه الأخبار مادة لملحمته الشهيرة. وكذلك الشأن فيما يخص القصص الغزلي، كما في أخبار العذريين[4].

---

[1]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٩١.

[2]- حريم بن خنافر الحميري آخر الفصحاء له قصّة مع معاوية بن أبي سفيان، وكان من إرشاد صاحبه من الجن له إلى الإسلام؛ وكذا حديث النسوة اللاتي أشرن إلى إبنة ملك من الملوك حمير بالمزوح، ووصفن لها محاسن الزوج، وكحديث زبراء الكاهنه من مولدات العرب، أنذرت بني رئام من قضاعة بنارة عليهم، فلم ينتصحوا، فأغار عليهم الأعداء (الأمالي، القالي، طبعة دار الكتب، ج٤، ط٢، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، صفحات ٨٠، ١٢٦، ١٤٣).

[3]- كتاب ألفه الفردوسي أبو القاسم منصور في فترة ١٠٠٠م، وهو يعدّ الملحمة الوطنية لبلاد فارس، تجمع القصص الإيرانية القديمة والحقائق والخرافات التاريخية، وقد سمّاه لسان الدين بن الخطيب قرآن الفرس (المثل السائر، ج٤، ص١٢، دار نهضة مصر).

[4]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٩٢.

٦,١. هل كانت القصّة لدى العرب من جوهر الأدب؟

على أن القصّة لدى العرب لم تكن من جوهر الأدب – كالشعر والخطابة والرسائل- ولذلك كانت ميدان الوعاظ، وكتاب السير والوصايا، والسمار، يوردونها شواهد قصيرة على وصاياهم وما يذكرون من حكم أو يسوقون في أسمارهم ومجالس لهوهم. وقد يكون لهذا صلة بنبوغ كثير من مسلمي إيران في القصص والمواعظ العربية ممن كانوا يجيدون اللغتين فيما يروى الجاحظ، مثل الخطباء القاصين من أسرة الرقاشي، ومثل موسى الأسواري. وكانوا يفيدون في قصصهم من اطلاعهم على كتب الشاهنامة[1].

"والحقيقة أن الأدب العربي فيه قصص ذو صبغة خاصة به، وإطار مرسوم له، وإننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا واضحة جلية، فقد بدأت القصّة العربية مع بداية الإنسان، فقد نشأت القصص الأسطورية مع الإنسان القديم بما حوته من خرافات من مثل قصص الغول[2] وصاحب اللحية الزرقاء[3]".

تنوعت أساليب السرد القصصي عند العرب قديماً من السرد الشفوي إلى المسامرات وروايات أيام العرب. والعرب كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون. ونجد الناس في ليالي الصيف يسمرون تحت ضوء القمر، وفي الشتآء حول النّار. ولو استمعنا إليهم لوجدنا لهم على سذاجتهم طرائف من القصص تدل على لباقة وذكاء، ونوادر غريبة تشوق الخيال.

٦,٢. أنواع القصّة (من حيث الفن)

في عيون الأدب[4] العربي التي تمت بصلة للقصّة في فنها وغرضها. وهي قسمان:

مترجم دخيل: مثل "كليلة ودمنة" و "ألف ليلة وليلة".

---

[1]- من أخبار الشاهنامة أو سير الملوك الفارسية ما تسرب إلى جزيرة العرب في الجاهلية، كالقصص التي كان يحكيها النضر بن الحارث عن رستم و اسفند يار يصرف بها الناس عن الرسول، فيه نزلت آية: "ومن الناس من يشتري لهوالحديث ليضل عن سبيل الله"- وانظر بعد ذلك: البيان والتبيين للجاحظ، ج ١، ص٢٧٤-٢٨٤.

[2]- هو كائن حرافي يردد ذكره في القصص الشعبية والحكايات الفلكلورية، يتصف هذا الكائن بالشناعة والوحشية وغالباً ما يتم إخافة الناس بقصصه (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

[3]- هي حكاية خرافية في القصص الشعبي، لها ما يماثلها في مختلف البلاد، وهو الرجل الجبار الذي يقتل زوجاته. ويقال لها أصل تاريخي من فارس يسمى راوول (الموسوعة العربية الميسرة، على أيدي نخبة العلماء والمفكرين، أمثال: د. محمد شفيق غربال، ود. زكي نجيب محمود، دار القلم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥م).

[4]- كما في مجمع الأمثال للميداني الذي يشرح أصل الأمثال بخرافات كانت سائدة لعصرها.

عربي أصيل: مثل "مقامات" و "رسالة غفران" و"حيّ ابن يقظان".

١. **مترجم دخيل:** وهي من جنس القصص على لسان الحيوان أو الخرافة. و**"كليلة ودمنة[١]"** مثال تلك القصص على لسان الحيوان، إما فطرية أسطورية تشرح ما سار بين الناس من أمثال، وإما مأخوذة من كتب العهد القديم[٢]. وما عدا هذين فمتأخر عن "كليلة ودمنة" ومتأثر به، كما في بعض قصص "الحيوان[٣]" في الجاحظ.

وكان كتاب "كليلة ودمنة" ذا طابع خلقي وفني وانفرد به، وبهذا السبب كان في الخلق جنس أدبي جديد في اللغة العربية، قصد فيه ابن المقفع إلى تعليم الملوك كيف يحكمون، وإلى الرعية كيف يطيعون. وذلك على لسان الحيوان، ليكون الجد في صورة متعة تجتذب إليه العامة ، ويلهو بها الخاصة.

ومن المقطوع به الآن أن الكتاب مترجم عن اللغة البهلوية[٤]، وهو فيها مترجم عن أصل هندي. وكان لـ"كليلة ودمنة" تأثير كبير في الأدب العربي. فقد كانت له ترجمات كثيرة في العصر العباسي، لم تصل إلينا. ونظم كذلك شعراً، ونظم سهل بن هارون على منواله كتاباً سماه **"ثعلة و عفراء[٥]"** ونظمه أخيراً ابن الهبارية[٦] (المتوفي عام ٤٠٥هـ)[٧].

وبعد "كليلة ودمنة" نسج على منواله إخوان الصفاء[٨] في محاكمة الإنسان أمام ملك الجان، في مرافعة بين الخصمين بث فيها إخوان الصفا آراءهم في الإنسان والحيوان، وأفكارهم الفلسفية العامة[٩].

٢. وكذلك "ألف ليلة وليلة"، وهو يشبه بكتاب "كليلة ودمنة" لأنه يرجع إلى أصل فارسي يسمى: "هزار أفسانه[١٠]" وهو متأثر بالقصص الهندي، في أصله وقالبه العام. وطريقة

---

[١]- هي مجموعة قصص رمزية ذات طابع يرتبط بالحكمة والأخلاق، على لسان الحيوان، يرجح أنها تعود لأصول هندية مكتوب بالسنسكريتية لكن ضاعت أصولها الهندية والفارسية، وبقيت لنا ترجمتها العربية، وهي قصة فيلسوف بيدبا (القصة القصيرة، دراسة ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٨م، ص٣٦).

[٢]- كما في الحكايات المروية عن النضر بن الحارث، كما في قصة الحمامة والغراب في سفينة نوح- أنظر: الحيوان للجاحظ، ج٢، ص٣٢٠-٣٢٤.

[٣]- هو أول كتاب جامع وضع في العربية في علم الحيوان، مثلاً في قصة البازي والديك، حققه عبد السلام هارون في سبعة أجزاء، في مصر، سنة ١٩٣٨م.

[٤]- هي لغة فارسية وسطى، كانت رائجة في عهد الساسانيين قبل دخول الإسلام إلى بلاد فارس (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٥]- وضعه سهل بن هارون، ٢١٥هـ (ولم يصل إلينا هذا الكتاب).

[٦]- لكليلة ودمنة ضمن كتابه المسمّى"نتائج الفطنة في كليلة ودمنة".

[٧]- أنظر الأدب المقارن، د. محمد عنيمي هلال، ص٨٩-٩١.

[٨]- هم جماعة من المسلمين من أهل القرن الثالث الهجري بالبصرة، اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة، فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها "تحف إخوان الصفا" (إخوان الصفا من الموسوعة العربية، أكسفورد يونيورستي دريس).

[٩]- أنظر: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، محقق: خير الدين الزركلي، طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٨م، ص١٧٣-٢١٧.

[١٠]- أنظر الفهرست، لابن النديم، طبعة فلوجل، ص٤٣٠ وكذا مروج الذهب، للمسعودي، طبعة القاهرة، ١٣٤٦هـ ج١، ص٣٨٦

تقديم القصّة فيه على نحو ما في كتاب "كليلة ودمنة" أي تبدأ بالتساؤل، ثم تداخل القصص في كلا الكتابين، إذ أن كل قصّة رئيسة تحتوي قصصاً عديدة، وقصص فرعية أيضاً تحتوي على قصّة أو أكثر متفرعة منها كذلك ويتبع ذلك دخول شخصيات جديدة، إذا كانت القصّة لأشخاص من الناس، أو دخول حيوانات كذلك، بدون انقطاع ولأدنى مناسبة[1]. ثم إن بعض القصص في "ألف ليلة وليلة" تشبه من قصص الحيوان في "كليلة ودمنة".

وقصص "ألف ليلة وليلة" مدونة في عصور مختلفة. ومن المقطوع به أن الكتاب كان معروفاً بين المسلمين قبل منتصف القرن العاشر الميلادي، وفي الكتاب قصص شعبية متأثرة بآداب شتى، على أنه يحتمل أن يكون في بعض قصص "ألف ليلة وليلة" تأثير يوناني[2].

و"ألف ليلة وليلة" تختلف عن "كليلة ودمنة" في أنها ليست لها غاية خلقية، كما في "كليلة ودمنة" بل هي زاخرة بالخيال والمخاطرات وعالم السحر والعجائب. والرابطة بين حوادثها مصطنعة، تمتد عن طريق التساؤل في الزمن الذي يحل فيه القاص حكايته متتابعة

كما يشاء[3]. وقد كان لهذه القصص تأثير عظيم في الآداب الأوروبية منذ أن عرفتها في القرن الثامن عشر الميلادي[4].

ب. عربي أصيل

القصص العربي الأصيل هي مقامات: ومعنى المقامة "المجلس"، ثم أطلقت على ما يحكى في جلسة من الجلسات على شكل قصّة تحتوي غالباً على مخاطرات يرويها راو عن بطل يقوم بهذه المخاطرات. وقد يكون هذا البطل شجاعاً يقتحم أخطاراً وينتصر فيها[5]، وقد يكون ناقداً اجتماعياً أو سياسياً[6]، وقد يكون فقيهاً متضلعاً في مسائل الدين، أو في مسائل اللغة[7]، ولكنه غالباً متسول، ماكر، ولوع بالملذات، مستهتر، يحتال للحصول على المال ممن يخدمهم،

---

[1]- أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة "ألف ليلة وليلة"، شركة العالمية للكتاب، ط١، ١٩٩٢م.

[2]- مثل قصّة السند باد البحري ومخاطراته في الجزر المهجورةالمسكونة بالوحش ذي العين الواحدة، وبالمخلوقات العجيبة، وهذه القصّة تشبه كثيراً بملحمة الأوديسيا لهوميروس، مما يفترض وجود ترجمة عربية لها استفاد منها الواضع للقصّة.

[3]- أنظر

Dictionaire des Oeuvres, Laffon-Bompiani , IV, p٧٢٦-٧٢٧. E.M. Foster: Aspects of the Novel.p٢٧.

[4]- أنظر المرجع السابق، ص٣٤٢-٣٦٤، وكذا: دائرة المعارف الإسلامية نفس الموضوع ثم لافون بومبياني السابق، نفس الموضع

[5]- مثل المقامة البشرية، وينتصر فيها بطل المقامة بشر بن عوانة على الأسد مخاطراته، ثم على الحية، ولكن يهزم أخيراً أمام فتى في مقامات بديع الزمان الهمداني، ص٢٥٢- ٢٥٦، طبعة بيروت، دار التراث، (د.ت).

[6]- أنظر، مقامات الحريري، أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، طبعة بيروت، ١٨٧٣م، المقامة التاسعة، والمقامة الأربعين، والمقامة الخامسة والأربعين، والمقامة الخمسين، وكذا المقامة ١١ الثانية والثلاثين من مقامات بديع الزمان.

[7]- أنظر مقامات الحريري: المقامة الثالثة، والمقامة الثانية والثلاثين، ومقامات الهمداني: المقامة الخامسة، والمقامة الثامنة والثلاثين، ثم المقامة القريضية والعراقية.

وهو دائماً أديب يجيد الأسلوب عن بديهة وارتجال. المقامات تسود في العادات والتقاليد لطبقات الوسطى والدنيا في كثير من المجتمعات الإسلامية، وكان يمكن أن يصبح هذا الجنس أخصب جنس أدبي في العربية. وأن يقوم مقام القصّة والمسرحية في الآداب الغربية، لو لا أنه انحرف عن نقد العادات والتقاليد والقضايا العامة إلى المماحكات اللفظية والألغاز اللغوية، والأسلوب المتكلف الزاخر بالحلى اللفظية التي لا تعود على المعنى بطائل يذكر.

وبديع الزمان الهمداني المتوفي عام ٣٩٨هـ، هو أوّل من اخترع المقامات، وقد خطا القاسم بن علي بن محمد بن عثمان المعروف بالحريري المتوفي عام ٤٢٢ هـ خطوات بهذا الجنس الأدبي لم يبلغ فيها شأوه أحد من الذين قلدوه قبل عصرنا الحديث. وهذا النوع من التحليل النفسي يقرب من النضج الفني في القصص. والبطل في هذه القصص يتعلق من بيئة اجتماعية دنيا، يصف من خلال حيله عاداتها وتقاليدها[1]. وكانت المقامة تجديداً في القرن العاشر الميلادي، وانتشرت عبر بقية العالم العربي سريعاً، وبلغت الأندلس أقصى حدوده في الغرب شمالاً عام ١١٠٨م، وحملها إليه يوسف بن علي القضاعي. وكتب أحمد بن عبد المنعم القيسي الشريني، وحاول كثيرون تقليدها ولكن أحداً لم يبلغ ما بلغه الهمذاني وصاحبه الحريري. وأخذت طريقها إلى لغات أخرى، في الأدب العبري والسرياني، وتركت تأثيراً واضحاً في الآداب الإسبانية[2].

ومن النوع العربي الأصيل كذلك رسالة الغفران[3] التي ألفها "أبو العلاء المعري[4]" (٤٤٩هـ -٣٦٣ هـ)، اخترع فيها رحلة تخيلها أبو العلاء في الجنة، وفي الموقف، وفي النار، ليحل في عالم خياله مسائل ومشكلات ضاق بها في عالم الواقع، من العقاب والثواب، والغفران وعدم الغفران، مع الكثير من المسائل اللغوية والأدبية التي يوردها مورد الساخر تارة، والناقد اللغوي المتبحر تارة أخرى. لعب فيه خيال أبي العلاء دوراً فريداً في الأدب العربي، وبه اكتسبت الرسالة طابع قصص المخاطرات الغيبية الذهنية[5].

---

[1]- يعتقد د. محمد غنيمي هلال أن المقامات قد أثرت في قصص الشطار الأسبانية، ثم في القصص الغربية على أثرها، ولما Palencia, op. cit. p. ١٣٤-٣٤١ يبحث هذا الموضوع في الأدب المقارن حتى اليوم، أنظر:

[2]- القصّة القصيرة، دراسة ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، ص٤٦.

[3]- هي من أعظم كتب التراث العربي النقدي، هي رحلة خيالية أدبية عجيبة يحاور بطل "ابن القارح" فيها أدباء والشعراء واللغويين في العالم الآخر.

[4]- هو شاعر وفيلسوف وأديب عربي في العصر العباسي (شعر المعري، انسانوكلوبيديا برتينيكا؛ سير أعلام النبلاء، ابو العلاء، ط٢٤).

[5]- فاشبهت بذلك "الكوميديا الإلهية" لدانته، وإن ظلت بينهما فروق كثيرة لا مجال لتفصيلها، وربما تأثر أبو العلاء بما تأثر به قطعاً "دانته" من قصة الإسراء والمعراج، او قصة رحلة "أردة ويراف" إلى الجنة والجحيم في الأدب الايراني القديم، وفيها شبه من حكايات الإسراء والمعراج. (أنظر أيضاً الأدب المقارن: د. محمد غنيمي هلال، ص٢٢٠-٢٢١).

وأخيراً نذكر هنا **قصّة حي بن يقظان**[1] لابن طفيل[2] (١١٠٥هـ - ١١٨٥هـ) التي توجد فيها جوانب نضج قصصي في الشرح والتبرير والإقناع، على الرغم أن القالب القصصي فيها الآراء الفلسفية الكثيرة المنبثة في النص. ويعترف ابن الطفيل في مقدمته أنه متأثر في قصّته بفلسفة ابن سينا، ولكن أصالته في القصّة لا يتطرق إليها شك. فظلت قصته بذلك فريدة في القصص العربي، على الرغم من طابع التجريد الفلسفي[3].

وفي رأي محمد غنيمي هلال "إن القصص – فلسفياً كان أم غير فلسفي – لم يلعب دوراً كبيراً في الأدب العربي في تصوير قوى الإنسان وصراعها مع ما يعوقها من القوى الغيبية أو البشرية أو الطبيعية، في صورة موضوعية فنية، يتوجه فيها الكاتب إلى الجمهور لتأييد قضية عامة من القضايا الاجتماعية أو الفلسفية أو تنفيذها. وهذا فارق جوهري بين الأدب العربي والآداب الغربية عامة، بل يكاد يكون فارقاً كذلك بين الآداب السامية والآرية، إذ أفاد الفرس من قصص القرآن. ومن قصصهم الأسطوري في نظم الملاحم، وبرعوا في القصص الفلسفية على نحو لم يعرفه العرب"[4].

٧. أثر القصص العربية على القصص الغربية

كيف نمى وترعرع الأدب في الغرب؟ يتفق الباحثون الذين يرتفعون بحوثهم فوق مستوى العصبية أن الحضارة العربية كانت وراء نهضة الغرب في أوج ازدهارها أي في القرن العاشر الميلادي. ولا شك أن الرأي الثاني على العكس وأصحابه يرفضون أن العامل العربي يوجد في عوامل نهضة الغرب وإيقاظه من سبات عميق.

أخذت إسبانيا الحظ الأوفر في مجال الأدب والثقافة، وهذه العناصر الثقافية التي تكونت منها الحياة العقلية الأوربية في مجالات عديدة، منها الفكر والفلسفة، والشعر والقصّة، وغيرها.

---

[1] - أسطورة تحكي قصّة شخص "حي بن يقظان" نشأ في جزيرة وحده وترمز للإنسان وعلاقته بالكون والدين. هذه الأسطورة تعد أفضل القصّة عرفتها العصور الوسطى جميعاً. وهي عن الطفل الذي نشأ في جزيرة مهجورة من جزر الهند دون خط الاستواء، لا يعرف أباً ولا أماً، يسمى بـ"حيّ بن يقظان". دربته غزالة حسنته ولدها المفقود. فكبر الولد، فتعارف مع متصوف، الذي قدم إلى هذه الجزيرة، فعلمه اللغة ثم الشرائع السماوية وقاده إلى الجزيرة المجاورة التي أتى منها، فحاولا معاً أن يهدي أهلها إلى الحقائق الكبرى التي وصلا إليها عن طريق الإشراق الروحي.

[2] - فيلسوف و عالم وطبيب مسلم وهو من أعظم المفكرين العرب (موسوعة علماء العرب، عبد السلام السيد، ط٢، ٢٠١١م).

[3] - وقد أثرت قصّة "حي بن يقظان" في الكاتب الأسباني بلثاسار جراثيان إلى العبرية عام ١٣٤١م، وترجمت كذلك إلى اللاتينية، ومن اللاتينية إلى الإنجليزية، وقام بهذه الترجمة جورج كيث لتكون مرجعاً لتعبد جماعة "الكويكر" وقد مدح القصّة الفيلسوف "بينتز" ويشهد بعض النقاد بأنها أقوى ما في الأدب العربي طرافة وأصالة. أنظر:
A. G. Palencia, op. cit. p. ٢٣٧-٣٤٨.
تم- قاموس الأدب الأسباني، ص٢٨٨.

[4] - النقد العربي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٩٨

والشـــعر هو الداعي الأول في ملامح التأثير، فالزجل الأندلســـي خليط من العربية واللهجات اللاتينية العامية راج ولا شك أنه وراء ازدهار حركة الشعر البروفنسالي[1].

وأول قصة بمفهومها العام، عرفتها أوربا في العصر الوسيط، كتبت في مقاطعة أرغون شمال شرقي الأندلس، وهو كتاب " **التربية الدينية**" أو "تربية العلماء[2]" ليهودي أندلسي يدعى موسي سفردي[3] (١٠٦٢م ميلاد)، مأخوذ من أصول عربية واضحة، يغلب على الظن أنه كتبه بالعربية أولاً ثم ترجمه إلى اللغة اللاتينية، ونقله عن كليلة و دمنة، وســـند باد البحري، ومصادر عربية أخرى، وأورد فيه الأشعار، والأمثال والخرافات. ولقي الكتاب ذيوعاً واسعاً، فترجم كله أو بعضه إلى اللغات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية والأسبانية والعبرية، ولغات أخرى[4]. ويمكن القول إن كتاب تربية العلماء أول ما ذاع في أوربا المســـيحية من القصص المستقى من أصول العربية[5].

ومحاولة أخرى لهجرة القصـــة من العرب إلى الغرب هي هجرة "**كليلة ودمنة**" إلى أوربا في زمن مبكر، فأمر ألفونسو العالم (ت ١٢٥٢م) ملك قشتالة بترجمته إلى اللغة الإسبانية عام ١٢٥١م، ومن قبل ترجم إلى اللغة العبرية، وعنها إلى اللاتينية بأيدي يهودي يدعى يوحنا دي كابوا، اعتنق الكاثوليكية أيضـــاً. وبعد هذه الترجمات الثلاث، نقل إلى أكثر من أربعين لغة أوربية[6].

وترجمت بعض القصـــص من كتاب "**ألف ليلة وليلة**" إلى اللغة اليونانية، نقلت عن السـريانية ، وهذه عن العربية، في أواخر القرن الحادي عشـر. وعن طريق ترجمة أخرى أمر بها الفونســو العالم أيضـــاً عام ١٢٣٥م، والصـــورة العربية الإسـبانية لهذا الكتاب تضـم ســتة وعشرون حكاية[7].

لم يترجم كتاب "**ألف ليلة وليلة**" كاملاً إلى اللغات الأوربية قبل القرن الثامن عشـــر، لاتســاع حجمه، وأخذ صـــورته النهائية في مصـــر، في أواخر القرن الخامس عشـــر الميلادي، ولكنه تسرب رواية شفوية، أو ترجمات كتابية، أو مع التجار والرحالة.

ومصدر آخر لهذه الحكايات **كتاب السند باد**، وعبر إلى أوربا في شكل حكايات مستقلة، قبل أن يصـــبح جزءاً من ألف ليلة وليلة، فأمر الدوق فدريك أخو ألفونســـو العالم بنقل هذه

---

[1]- أنظر: في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٧م، ١٥٩-٦٢.

[2]- في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، د. الطاهر أحمد مكي، ص١٦٣.

[3]- اعتنق الكالوثيكية ١١٠٦م، وسمّى نفسه "بدرو الفونسو" (دراسات في القصة القصيرة، محمود أبو أسعد، جمعية الحارس للديمقراطية والأعلام، ١٦-٠٦- ٢٠٠٧م)؛ ورأي ثان أنه حمل اسم بطرس ألفونسو ("في الأدب المقارن" د. الطاهر أحمد مكي، ص١٦٣).

[4]- القصة القصيرة، دراسة ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، ص٤٦.

[5]- في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، د. الطاهر أحمد مكي، ص١٦٤.

[6]- القصة القصيرة، دراسة ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، ص٤٦.

[7]- المرجع السابق، ص٤٧.

القصص من العربية إلى الأسبانية، فنجزت الترجمة عام ١٢٥٣م، تحت عنوان: **مكايد النساء وحيلهن**[١].

ومحاولة أخرى ظهرت لدفع القصّة إلى الأمام، وهو الأديب الإسباني خوان منويل[٢] (١٢٨٤م – ١٣٤٨م) (وهو حفيد ألفونسو العالم، ملك قشتالة[٣]) الذي اقتبس من أصول العربية ووقف على التربية والتهذيب لأقاصيصها في مجموعته **"الكوند لوكارنو"**، التي كانت جديرة أن تحتل مكانة بارزة في تاريخ الأدب العالمي.

وكان الإيطاليون أصحاب السبق في تخليص القصص الأوربي الوسيط من تقشف وقناعة القصص الإسباني، فبوتشيو[٤] اعتاد أن يتردد إلى **"مصنع الأكاذيب"**[٥] ليسمع من النوادر الطريفة عن رجال ونساء إيطاليا، فبدأ حياته الأدبية فدرّن النوادر وأعطاها شكلاً أدبياً أسماه "الفاتيشيا" تداولته بعده أجيال عديدة من الكتاب[٦].

ومحاولة أخرى ظهرت في القرن الرابع عشر في إيطاليا، قام بها جيوفاني بوكاتشيو[٧] (١٣١٣م – ١٣٧٥م)، صاحب قصص، الذي ألف **"الديكامرون"**[٨] أو (مائة قصّة[٩]) و **"النوفلا"** التي أطول بكثير من قصص مصنع الأكاذيب. لم يختر بوكاشيو قصصه ، واستخدم في كتابته مصادر لاتينية وعربية، وأساطير وحكايات شفوية، وبذلك مهد الطريق لمن جاءوا بعده. وكان أول كاتب أوربي يستخدم الفن الشرقي في تسلسل القصص والربط بينها، ويرى النقاد أن القصّة الحديثة تبدأ معه، من بين قلمه تدفقت أشكالها الأولى، وقلّده الكثيرون في إيطاليا وبقية

---

[١]- في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، د. الطاهر أحمد مكي، ص١٦٦-٧

[٢]- سياسي وكاتب إسباني من العصور الوسطى. يعدّ واحداً من المنظرين الرئيسيين للكتابة النثرية الخيالية (سيرة وحياة خون مانويل، ١٨يوليو ٢٠١٣م)؛ وأيضاً يدعى "خوان دي كابو" (في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، د. الطاهر أحمد مكي، ص١٦٦).

[٣]- في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، د. الطاهر أحمد مكي، ص١٧٥.

[٤]- رجل عريب الأطوار عمل سكرتيراً للبابا، ودون "الفتشيا".

[٥]- في قصر الفاتيكان يتردد رجال ونساء إيطاليا داخل حجرة فسيحة للهو والتسلية وتبادل الأخبار التي كانت تخترع أو تقصّ (القصّة القصيرة، د. الطاهر أحمد مكي، ص٤٨).

[٦]- فن القصّة القصيرة، رشاد رشدي، القاهرة، ١٩٥٩م، ص١-٢.

[٧]- شاعر وروائي إيطالي، ألف الديكامرون، وهي من أبرع المؤلفات العالمية. ويعتبر بوكاشيو من أبرع الكتاب في سرد وتحليلها (ثقافة دوت كوم، المكتبة الإلكترونية).

[٨]- القصّة أو "الليالي عشر" ضمنها مائة حكاية، أسندها إلى سبع سيدات وثلاثة رجال، اعتزلوا مدينة فلورنس بسبب الطاعون، وفروا إلى الريف، وفرضوا على كل واحد منهم أن يقصّ على أصحابه حكاية كل يوم، وأنهوها في عشرة أيام (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٩]- وهي قصّة رائعة حداً، بطلها "صلاح الدين أيوبي"، والتي عبّر من خلالها عما كان يشعر به حقيقة، وهو بأن الصداقة هي أقوى من الحبّ، ومن كل أطماع والمآرب، والخصومات العدائية. وفي القصّة أحاط بوكاشيو شخصية صلاح الدين بصفات من النبل والأخلاق والفروسية (ثقافة، هفاف ميهوب، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، دمشق، سورية، ٠٣-٠١-٢٠١٣م).

البلاد الأوربية، ودفع بإيطاليا إلى مكان الصـــدارة في الحياة الثقافية بين بقية دول القارة، وترجمت قصصه سريعاً إلى كل لغاتها[1].

وفي القرن الخامس عشـــر تموّج إيطاليا بألوان من القصـــص، كتبها أدباؤها، وأشـــهر قصـص هذا القرن "**السمين**" للقصـاص الإيطالي أنتونيو مانيتي (١٤٢٣م – ١٤٩٧م) ويعتبر أروع قصـص القرن الخامس عشـر، وراجح أن مصـدرها "**قصّـة النائم اليقظ**" في ألف ليلة وليلة، غير أنها حافلة بخطوب الدهر، وذات تأمل مختلف[2].

وكتب ألفونســو مرتينيث، كاهن بمدينة طليرة (ت ١٤٧٠م) مجموعة بعنوان "كرباج" وقصـصـها يتضـح واقعية، وربما كانت متأثرة بالقصّـة العربية، كما يومئ إليه اسمها، وأيّاً ما كان الأمر فهي تلتقي في جوانب منها، مع كتاب "**طوق الحمامة**[3]" لابن حزم الأندلســـي[4] (٩٩٤م – ١٠٦٤م)[5].

واصلت قصص بوكاشيو تأثيرها على امتداد القرن السادس عشر، في عدد من البلاد الأوربية، دون تجديد واضـح أو تطور يذكر، وقصـص المؤلف بنيدللو لومبرادو (١٤٥٨م – ١٥٥٣م) أقرب كثيراً منه، وقد شـاعت قصـصـه، وتركت تأثيراً واضـحاً في عدد من الكتاب الآخرين، وبخاصة "شكسبير[6]" (١٥٦٤م – ١٦١٦م)[7].

كتبت مرجريت[8] (١٥٥٣م – ١٦١٥م) مجموعة قصـــص على نهج "**الديكامرون**" وقسمتها إلى ليال عشر، وخمسة رجال وخمس نساء، كل واحد منهم يحكي قصّة في كل يوم. نشرت هذه القصص عام ١٥٥٨م.

---

[1]- القصّة القصيرة، د. الطاهر أحمد مكي، ص٥٠.

[2]- المرجع نفسه، ص٥٠.

[3]- يعدّ الكتاب عملاً فريداً في بابه، وهو أدق ما كتب العرب في دراقة الحب ومظاهره وأسبابه. يعالج ابن حزم في أسلوب قصصي هذه العاطفة من منظور إنساني تحليلي. ترجم الكتاب إلى العديد من اللغات العالمية (طوق الحمامة، ابن حزم، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى).

[4]- علي بن حزم الأندلسي، مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب. فقيه ومتكلم، أديب وشاعر، ناقد ومحلل، يعدّ من أكبر علماء الأندلس، وأكبر علماء الإسلام تصنيفاً وتأليفاً بعد الطبري (ابن حزم في معجم البلدان، ياقوت الحموي).

[5]- انظر دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، د. الطاهر أحمد مكي، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧.

[6]- شاعر وكاتب مسرحي إنجليزي، وقد ترجمت مسرحياته إلى كل اللغات الحيّة، وكتب الكوميديا التراجيديا والمسرحية الرومانسية (الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦٥م؛ موسوعة المورد، منير بعلبكي، ١٩٩١م).

[7]- القصّة القصيرة، د. الطاهر أحمد مكي، ص٥١.

[8]- الزوجة الأولى لهنري الرابع ملك فرنسا (القصّة القصيرة، د. الطاهر أحمد مكي، ص٥٢).

وفي القرن السابع عشر كتب الروائي الإسباني العظيم ثرفانتيس[1] (١٥٤٧م - ١٦١٦م) مجموعة قصصية "**روايات نموذجية**[2]" ووضّح في مقدمتها، "أنها ذاتية تماماً، وأبدعها ذكائي، وأنجبها قلمي". وينسب هذا القرن للقصّاص الفرنسي شارل بيرو[3] (١٦٢٨م – ١٧٠٣م)، الذي أسهم بمجموعة من القصص الجميل "**حكايات أمي لوا**"، وأسعدت أجيالاً من الأطفال الأوربيين[4].

ومع نهاية القرن السابع عشر خبا وهجُ القصّة، ولكنها لم تمت كجنس أدبي، وقد نجدها عند كتاب بعيدين عن هذا اللون من الأدب مثل مكيافلي[5] (١٤٦٩م – ١٥٢٧م)، والكاتب المسرحي الإسباني لوبي دي فيجا[6] (١٥٦٢م – ١٦٣٥م)، أو ترسو دي مولينا[7] (١٥٧١م – ١٦٤٨م).

وسقطت القصّة كجنس أدبي في القرن الثامن عشر الميلادي، وربما كان الكاتب الفرنسي الذائع الصيت "لافونتين[8]" (١٦٢١م – ١٦٩٥م)، أشهر من نمّى هذا الجنس فيه، ولكنه كان كاتب خرافات أكثر منه قصاصاً. وهناك من عالج هذا اللون من كبار الأدباء، مثل فولتير[9] (١٦٩٤م – ١٧٧٨م) ومدام دي ستال[10] (١٧٦٦م – ١٨١٧م)، دون أن يكونوا قصاصاً أو موهوبين في كتابتهما، على نحو ما فعل الدكتور محمد حسين هيكل[11] (١٨٨٨م –

---

[1]- جندي وروائي، وكاتب مسرحي، شاعر إسباني، يعدّ من الشخصيات الرائدة في الأدب الإسباني على مستوى العالم (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[2]- هي سلسلة من الروايات القصيرة لثرفانتس، وكانت تسمّى "روايات نموذجية" للترفية الأكثر صدقاً، وتسير على نهج النمودج المتبع في إيطاليا، وسميت بالنموذجية لأنها أول نموذج للروايات باللغة القشتالية يتبع طابع تعليمي وأخلاقي (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[3]- القصاص والشاعر والروائي الفرنسي، الذي وضع حجر الأساس لنوع حديث في الكتابة الأدبية وسماه بـ "حكاية خرافية". وكاتب "ذات القبة الحمراء" أي قصّة عربية "ليلى وزينب" وأيضاً تطل علينا "اللحية الزرقاء" لايعرف أوربا من قبل (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[4]- القصّة القصيرة، د. الطاهر أحمد مكي، ص٥٣.

[5]- مفكراً وفيلسوفاً سياسياً إيطاليا إبان عصر النهضة، وهو مؤسس مدرسة التحليل والتنظير السياسي الواقعي (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[6]- شاعر وكاتب، مسرحي إسباني، ومن أهم المسرحيين في العصر الذهبي الإسباني (لوبي دي فيجا، الموسوعة العلمية العربية، تاريخ الولوج ٢ ابريل ٢٠١٠م).

[7] - الكاتب الإسباني الشهير، وصاحب مسرحية "حداع الإشبيلية والضيف الحجري" (معجم المصطلحات، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان).

[8]- يعتبر أشهر كاتب قصص خرافية في تاريخ الأدب الفرنسي (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[9]- كاتب المسرحيات، والشعر، والروايات والمقالات، الفرنسي، كتب أكثر من ألفين من الكتب ومنشورات. وتركت أعماله وأفكاره بصمات واضحة للثورة الأمريكية والفرنسية (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[10]- ناقدة فرنسية، وروائية شهيرة، أثر عملها الأدبي في ازدهار المذهب الرومانسي، وهي من أوائل الذين اهتموا بالأدب المقارن نفيت من باريس عدة مرات على يد نابليون الذي عارض معتقداتها السياسية (الموسوعة العربية).

[11]- شاعر وأديب وسياسي كبير مصري، كان عضواً في لجنة الثلاثين التي وضعت دستور ١٩٢٣م (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

١٩٥٦م) في مطلع هذا القرن، حين كتب رواية "زينب[١]"، فلم يكن مدفوعاً بانفعال حقيقي، دون أن يعني ذلك أنه روائي أو قصاص[٢].

في عصر النهضة نشأت ونمت الآداب الأوروبية معتمدة على ما وصل إليها من تراث الشرق والأدب اليوناني والروماني، وتأثرت كذلك بالروح المسيحية. ومن أشهر القصص العالمية التي وجدت من ذلك العصر قصّة "**فاوست**[٣]".

وقد تأثرت القصص في أوروبا من معاني البطولة بملاحم العصور الوسطى، ولكنها نزعت نزعة إنسانية أوضح من ذي قبل، وكذلك خصصت تلك القصص بالفروسية. وقد اتخذت قصّة "**أماديس دي جولا**[٤]" الأسبانية نموذجاً لهذا النوع من القصص. وتأثرت الآداب الأوروبية جميعاً بها في قصص فروستها. ونجد في هذه القصص المثالية في الوصف، فبطلها مثال الفارس الكامل، يعيش معظم الأحيان بعيد عن الحقيقة، ويحارب أعداءه بين الناس ومخلوقات وحشية، والحوادث في القصّة منتثرة إلا شخصية البطل التي تنتقل من نصر إلى نصر. وننظر أثر أفلاطون[٥] (٤٢٨ق م – ٣٤٨ق م) واضحاً في الجانب العاطفي المثالي الذي يتفق بروح الفروسية[٦]. وهذا البطل كان دائماً بين طبيعة الفروسية وصدق العاطفة عند الفارس، كما يدل عليه هذا النوع من القصص في مختلف الآداب[٧]. وقد شدّ من أزر نزعة الفروسية هذه ما عرفته أوروبا من ثقافة العرب وآدابهم منذ العصور الوسطى، فتأثرت في أدبها بما أدركته من مكانة المرأة في الأدب العربي[٨].

وكاتب القصّة **الأسباني** "سان بدرو" كتب "**سجن الحب**[٩]" التي نشرها عام ١٤٩٢م، وفيها يفلسف قواعد قصص الفروسية، ويعد عاطفة الحب أمراً غيبياً له ما يبرره في واقع الحياة.

وفي طليعة عصر النهضة ظهر كاتب **إيطالي** "بوكاتشيو" بقصص **الحب** حوالي عام ١٣٥٥م، فمنها ما يثير الضحك، وينتهي نهاية سعيدة، ومنها ما يختم بمأساة. وهذه القصص

---

[١]- هي أول محاولة قصصية بارعة في الأدب العربي (بقلم فلاح ريفي)محمد حسين هيكل)، تمثل الرواية المناظر والأخلاق والمشاهدات والمعاناة الريفية في مصر قبل الحرب العالمية الأولى (محمد حسين هيكل، ريادة متعددة، أحمد تمام، القصّة السورية)

[٢]- القصّة القصيرة، د. الطاهر أحمد مكي، ص٥٣.

[٣]- هي قصّة باللاتينية، وأصبحت هذه القصّة أساساً للأعمال الأدبية المختلفة، لكتاب مختلفين حول العالم، لعل أشهر هذه الأعمال هي مسرحية "فاوست" لجوته، وبطل القصّة، وهو "فاوست" يبرم عقداً مع الشيطان، ويسعى إلى اكتشاف الجوهر الحقيقي للحياة (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٤]- رواية فروسية إسبانية مجهولة المؤلف، ويقال أنه جارثي أورونيس، ونشرها، في بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

[٥]- فيلسوف يوناني كلاسيكي، كاتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا. معلمه سقراط وتلميذه أرسطو(انسانيكلوبيديا برتينيكا، ٢٠٠٢م؛ كيمبرج يونيورستي بريس، ٢٠٠٣م).

[٦]- أنظر النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٧٠.

[٧]- أنظر المرجع نفسه، ص٤٧٠-٤٧١.

[٨]- المرجع نفسه، ص٤٧١.

[٩]- قصّة منغمسة في الخرافة والحب

أقرب إلى الواقع في التصوير، وبعضها يحمل طابع الفروسية والتسامي بالعاطفة. والحب في قصصه ليس مادياً، وإن يكن على شيء من الصلة بحوادث الحياة، وليس مع ذلك روحياً مجرداً كما في القصص الفروسية. وقد أثر بوكاتشيو بقصصه وبإدراكه للحب في الآداب الأوروبية حتى العصر الكلاسيكي[1].

وقد سخر "سرفانتس[2]" (١٥٤٧م – ١٦١٦م) من أدب الفروسية وما فيه من تصنع وزيف، هو بعيداً عن الواقع بمثاليته ويفسد العقول بخلطه بين الواقع وعالم الغيب، إذ تكثر فيه المفاجآت العجيبة من حقائق مسحورة، ثم كفاح الفارس ضد الوحوش والعمالقة، وهو كفاح المنتصر دائماً، وفي النهاية يظفر البطل بحبيبته وتغلبه على جميع الصعوبات. وتمثلت سخرية "سرفانتس" من أدب الفروسية لعصره، وقد حمل "سرفانتيس" على من يبعدون عن الواقع، ويعادون طبيعة الأشياء، ويقطفون عيدان الكلمات بدلا من سنابل الحقائق، ولكن حملة "سرفانتيس" لم تقض على هذا النوع من أدب الفروسية حتى العصر الكلاسيكي[3]، وكتب قمة الأدب الأسباني في الرواية والقصة بكل أنواعها، منها روايته الخالدة "دون كيخوته" حجبت ما عداها[4].

وقد قام كتاب القصة الفرنسيون – في مهاجمتهم لـقصص الرعاة – بالدور الذي قام به "سرفانتيس" في انتفاضة من قصص الفروسة، فتقدموا بالقصص نحو الواقع، ونحو الإنسانية الخالصة. وكان "جوتيه[5]" أول من قام بهذه المحاولة لتقريب القصة من الواقع في قصته "موت الحب" ظهرت عام ١٦١٦م.

وعلى الرغم من اشتراك قصص الفروسية السابقة مع قصص الرعاة في مثالية الحب، وفي التأثر فيه بالقول الافلاطوني، انفردت مع ذلك قصص الرعاة بخصائص أخرى عدت بها من ثمار النهضة، وإذ أنها لم تتأثر إلا في القالب العام بقصص الرعاة اليونانية واللاتينية[6].

والكاتب والشاعر الإيطالي "سنزار[7]" هو أول من ألف في قصص الرعاة في عصر النهضة، في قصته "أركاديا[8]"، وقد انتقل هذا الجنس الأدبي إلى الأدب الأسباني،والإنجليزي، ثم إلى الأدب الفرنسي على يد "أنوريه دورفيه" في قصته المسماة: "أستريه" في القرن السابع

---

[1]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٧٢.

[2]- كاتب ومسرحي أسباني، أكثر شهرة في الأدب الأسباني في القرن السابع عشر الميلادي؛ واسمه مكتوب "ثرفانتس" (في الأدب المقارن، د. الطاهر أحمد مكي، ص٣١٧).

[3]- F. C Green: French Novelists Vol, ١, P١ مرجع بول هازار ، ص٩٧-٩٨، وكذا؛

[4]- في الأدب المقارن، د. الطاهر أحمد مكي، ص٣١٧.

[5]- شاعر وروائي فرنسي، وكاتب مسرحي روماتسي وصحفي في القرن التاسع عشر.

[6]- أنظر: النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٦٤-٤٧٠.

[7]- كاتب إيطالي، في أوائل القرن الخامس عشر، ذات أسلوب رفيع، يمزج بين الشعر والنثر.

[8]- قصة الحب، عن إقليم "أركاديا".

عشر، وهي خليط من قصص الرعاة وقصص الفروسية، وتصف تقاليد الحب الأستقراطي. وكانت هذه القصّة نموذج القصص العاطفية في آداب أوروبا في نوع الحب.

وفي القرن السادس عشر والسابع عشر، ظهر جنس جديد من القصص في الأدب الأسباني، لمقاومة قصص الفروسية والرعاة في طابعهما السابق، ونسميه هذا الجنس الجديد بـــ"قصص الشطار"، وهي قصص ذات صبغة هجائية للمجتمع ومن فيه. وأول قصّة من هذا الجنس الأدبي هي قصّة "حياة لاساريودي تورمس[1]"، في عام ١٥٥٤م، وكان لها تأثير في اتجاه القصّة في الآداب الأوروبية كلها.

وقد تأثر "شارل سورل[2]" الفرنسي بهذا الاتجاه نظراً وعملاً في قصته "فرانسيون" التي نشرها في عام ١٦٢٢م، وهي هجاء للعادات والتقاليد والطبقات الاجتماعية في عهد لويس الثالث عشر. وينص هذا القاص على أن القصّة الفكاهية أولى أن تعد أفكاراً تاريخية[3].

وإذا يلتفت النظر إلى تأثير القصّة في الأدب العالمي، فتبرز الحكايات الشعبية الفرنسية، وكانت تميل إلى الملهاة، وتتسم ببيان معاناة الجماهير، ويُعتقد أن أصولها عربية وهندية. وقصص الفروسية التي انطلقت من إسبانية متأثرة بالقصص العربية القديمة، وبها تأثرت الآداب الأوربية جميعاً في قصص فروسيتها. وقصص الرعاة بدأت في أيطاليا، وانتقلت إلى إسبانيا، وإنجلترا وفرنسا، وتدور أحداثها حول الحب. كذالك ظهرت روايات الصعلكة، أو قصص الشطار في الأدب الإسباني، وتوجد شبه بينها وبين المقامات العربية، إذ عرفت مقامات الحريري، في إسبانيا، وترجمت إلى العبرية. وكل هذه تشير إلى أن بصمات القصّة العربية واضحة على القصّة الغربية في إطارها العام.

---

[1]- مؤلف القصّة مجهول، والقصّة قد تأثرت من المقامات العربية.

[2]- كاتب فرنسي، ناقد أدبي ومؤرخ وصحفي في القرن التاسع عشر.

[3]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٧٧.

٨. أثر القصص الغربية على القصص العربية

هنا أذكر عن القصّـــة العربية الحديثة، وتطورها وتأثرها بالآداب الغربية في العصـــر الحديث. وكان هذا التأثر في أطوار متعاقبة.

٨,١. مزج القديم بالجديد

١. تأثرت فيه القصّـة بأدبنا القديم، وبخاصـة جنس المقامة، ثم بـــ"ألف ليلة وليلة"، وبالخرافات أو القصص على لسان الحيوان بالإضافة إلى تأثرها بالآداب الغربية. وأوضح مثل لهذا المزج هو **"حديث عيسى بن هشام[١]" لمحمد المويلحي**[٢] (١٨٥٨م – ١٩٣٠م)، وفيه تأثر فن "المقامة" بالتأثير الغربي، حيث تأثر بأسلوب المقامة ولكن التأثير الغربي واضح في تنويع المناظر، وتسـلسـل الحكاية، وفي لمحات من التحليل النفسـي في صـراع الشـخصـيات مع الحوادث، ومن النقد الاجتماعي لعهد جديد تضـطرع فيه القيم التقليدية مع الوعي الاجتماعي الوليد. وينتهي الكتاب إلى وجوب **الإبقاء على الصـالح من القديم واقتباس المفيد من نظم الغرب**. وهذه نواح لا شك أن الكاتب متأثر في إدراكها وتصويرها بالثقافة الغربية وبما أثرت في آراء المصلحين في عصره[٣].

٢. وفي قصّـة "الأدياس الفاتنة[٤]" لأحمد شـوقي[٥] (١٨٦٨م – ١٩٣٢م)، **تظهر عنايته بالتعبير، ثم اعتماده في تطور الحوادث تطوراً خارجياً على عنصـر الزمن.** ويتجلى تأثره بالمقامة وبألف ليلة وليلة ولكنه متأثر كذلك بقصص "الفروسية".

---

[١]- هو حديث مدم عيسى بن هشام للقارئ ولنفسه، ما ذا رأه من العجائب التي اعتادها الناس وانتقوا لنا بعض الطرائف والنوادر والأخبار من كل زمان ومكان بأسلوب مميز. يشبه أسلوبه من أسلوب "المقامات"، ويتميز بخفة الظل، إيحكي الناس حلماً رآه في نومه. ويشرح من خلاله أخلاق الناس. ويعتبر كتابه من الكتب التأسيسية للرواية العربية (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٢]- أديب وصحفي شيّد، ولد في القاهرة في أسرة مقرّبة جداً إلى الخديوي إسماعيل. القى القبض عليه قنة ١٨٨٢م أثناء الثورة العرابية، وحكم عليه بالإعدام، لكن الحكم خفّف وبدّل إلى حكم بالمنفى. وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٦م (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٣]- يتجلى نفس هذا النوع من التأثر بالمقامة والثقافة الغربية معاً في "الوالي سطيح" لحافظ إبراهيم و "شيطان " لأحمد شوقي.

[٤]- أو "آخر الفراعنة" (عام ١٨٩١م)، وهي رواية نثرية تاريخية. قدّم من خلالها التنازع على السلطات بين الجيش والعرش، وكان يقصد الثورة أعرابي على الخديوي توفيق، فأراد أن يكون معلماً بالتاريخ وواعظاً بالمثل ومحذراً بالإيماء والرمز حين أعجزه الواقع عن صريح الكلام (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٥]- ولد بالقاهرة، لأب كردي وأم من أصول تركية وشركسية، وكانت جدته لأمه تعمل وصيفة في القصر الخديوي إسماعيل كان يحب الثقافة العربية وشعراء العرب وعلى رأسهم المتنبي، لكن تأثر بالثقافة الفرنسية وتأثر بشعرائه، وبالأخص راسين وموليير. يعدّ من أعظم شعراء العربية في جميع العصور (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

٣. وأما "الخرافة أو القصّة على لسان الحيوان"، فقد اتخذ تأثر بـــ"كليلة ودمنة" أو بالمأثور من قصص على لسان العجماوات بعد كليلة ودمنة، ولكن القالب الفني فيها متأثر دائماً بقصص الغرب، وخاصة بقصص "لافونتين[١]".وذلك كما في قصص "آداب العرب[٢]" لإبراهيم العرب، وفي هذا السبيل تقدم محمد عثمان جلال[٣] (١٨٢٨م – ١٨٩٨م) خطوات في تمصيره قصص "لافونتين" في كتابه: "العيون اليواقظ[٤]" التي يزعم أنه أخذها رأساً من إيسوبس[٥].

واخترع شوقي القصص في مقطوعاته التي ساقها على لسان الحيوان، وبلغ في هذا الفن أقصى ما تيسر له من كمال في العربية حتى اليوم. وقد عرف كيف يجاري فيها فن "لافونتين" الفرنسي، فعرض الصور عرضاً حياً. والتزم بين المقابلة الكاملة في تصوير بين الحيوان – بوصفه رمزاً – وبين الناس المرموز إليهم، وقصد فيها إلى معان خلقية متصلة بروح عصره وأحداثه، مثل حب الوطن، والوعي القومي، ونقد العادات الاجتماعية. وغالباً ما يصحب ذلك روح السخرية المرة، أو الفكاهة اللاذعة، وقد تطلع شوقي إلى إغناء اللغة العربية منذ حداثته حين كان يدرس في أوربا، ورمي فيه إلى السير على نهج "لافونتين" كما أشار في مقدمة لشوقياته.

٨,٢. نمو الوعي الفني بالتعريب

بدأ في هذا الطور الوعي الفني ينمي جنس القصّة من موردها الناضج في الآداب الأخرى. وقد بدأ هذا الطور بدءاً طبيعياً بتعريب موضوعات القصص الغربية وتكييفها لتطابق الميول الشعبية، أو لتساير جمهور المثقفين. فكان الكاتب يخلق الموضوع من جديد، مستهدياً الأصل الأجنبي في مجموعه، لا في تفاصيله، مستبيحاً تغيير ما يشاء، حتى أسماء الشخصيات والأماكن، وإضافة ما يشاء ليغير مجال الأحداث. ونمثل هنا بـــ"رفاعة رافع الطهطاوي[٦]"

---

[١]- يعتبر أشهر كاتب قصص خرافية في تاريخ الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر الميلادي (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٢]- الكتاب مجموعة مواعظ منظومة على ألسن الحيوان والطير على نمط كتاب "الصادح والباغم" لابن الهبارية (طبع ١٨٧٥م). وقررت تدريسه في المدارس الابتدائية، وفي مدارس المعلمين والمعلمات، ط١، ١٩١٣م.

[٣]- عربي أصيل، من مصر، فهو شاعر مقتدر، جمع بين أطراف الثقافة العربية والغربية، فمن تبحر في اللغة الفرنسية وأدابها، وكان من ظرفاء عصره. ترجم بعض أعمال لافونتين، وأدباء غيره. (الموسوعة العربية الميسرة، ج١، ص٦٣٦).

[٤]- "العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ" يعد من أوائل كتب أدب الأطفال في الأدب العربي الحديث في مصر، وهو أول محاولة عربية أمام الكتاب لإرساء دعائم أدب الطفولة. فيه توفر على الترجمة والاقتباس من اللغة الفرنسية بإعادة نقل حكايات لافونتين (رواد أدب الطفل العربي، أحمد زلط الزقازيق، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م).

[٥]- إيسوب الإغريقي (٦٢٠ ق م – ٥٦٤ ق م) اشتهر بكتابة الحكايات التي تنسب إليه المسماة "خرافات إيسوب"، وهو يعتبر رائد هذا النوع من القصص الحيالية بلا منازع (حكايات إيسوب، دراسة وفعليق وترجمة أمام عبد الفتاح أمام؛ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٦]- من قادة النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي باشا، التحق بالأزهر، ودرس علوم الحديث والفقه والتفسير واللغة، وسافر إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة، وألف "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" (الموسوعة العربية، رافع محمد الطهطاوي، تحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ١٩٧٣م).

(١٨٠١م – ١٨٧٣م) في ترجمته قصّـــة: "مغامرات تليماك[١]" للكاتب الفرنســـي "فينيلون[٢]" (١٦٥١م – ١٧١٥م)، وقد أسماه المترجم: "وقائع الأفلاك في حوادث تليماك"، ومحمد عثمان جلال في ترجمته: "بول وفرجيني" لـــبرناردين سان بيير[٣] (١٧٣٧م – ١٨١٤م)، بعنوان: "الأماني والمنة ... [٤]".

وسار "مصطفي لطفي المنفلوطي[٥]" (١٨٧٦م – ١٩٢٤م)، على هذا المنهج في قصصه الطويلة والقصيرة المقتبسة من **أصولها الغربية**، وقد سما فيها جميعاً بالتعبير اللغوي، ولكنه **تعبير مختلف عن الوعي الفني لهذا الجنس**، وبهذا نال هذه القصص تشويه صارت به دون الأصل. وإن كانت قد لقيت رواجًا لدى من يولعون بفخامة العبارة[٦].

٨,٣. نضج الوعي الأدبي

ثم نضـــج الوعي الأدبي، ونهض الجمهور **ثقافيًا**، فتطلب **الترجمة الصـــحيحة**. وقد قام بها كثير ممن أســـدوا إلى الأدب واللغة يداً عظيمة. ونذكر من هؤلاء الدكتور طه حســـين[٧] (١٨٨٩م – ١٩٧٣م)، والدكتور عبد الرحمن بدوي[٨] (١٩١٧م – ٢٠٠٢م)، والأســـتاذ عبد الرحمن صـــدقي[٩] (١٨٩٦م – ١٩٧٣م)، والـدكتور محمـد عوض محمـد[١٠] (١٨٩٥م – ١٩٧٢م)، وطبيعي أن الترجمة الصـــحيحة عماد الإبداع الفني. وقد كانت هذه الترجمة في أكثرها من الآداب الغربية، ثم من الأدب الروسي[١١].

---

[١]- تتعرض للأساطير اليونانية، وشئون السياسة والاجتماع في بعض بلاد أوربا، والقصة تشتمل على الحكايات النفايس في أوربا وغيرها، وعليه مدار التعليم في المكاتب والمدارس.

[٢]- فرانسوا فنلون، شاعر وكاتب فرنسي.

[٣]- روائي فرنسي ومتخصص في علم النبات. انتخب عضو في معهد فرنسا، حاز على جائزة تقدير من اكاديمة بيزانسون (١٨٥٢م).

[٤]- اسمها الكامل. "الأماني المنة في حديث قبول وورود جنة"،

[٥]- أديب مصري، نابغ في الإنشاء والأدب، قام بالكثير من الترجمة والاقتباس الروايات ونقلها في قالب أدبي (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٦]- أنظر النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٥٠١-٥٠٢.

[٧]- أديب وناقد مصري، لقب بعميد الأدب العربي، غير الرواية العربية، مبدع السيرة الذاتية، ومن أبرز دعاة التنوير في العالم العربي. دخل الأزهر للدراسة الدينية والعلوم العربية، وعلم الفرنسية وآدابها، علم النفس والتاريخ الحديث (الأيام، طه حسين، دار المعارف، القاهرة).

[٨]- مفكر، وأحد أبرز أساتذة الفلسفة في القرن العشرين، وأغزرهم إنتاجاً، إذ شملت أعماله اكثر من ١٥٠ كتاباً تتوزع ما بين تحقيق وترجمة وتأليف (موسوعة برتانيكا؛ دراسات عربية حول عبد الرحمن بدوي، أحمد عبد الحليم عطية، عام ٢٠٠٢م).

[٩]- شاعر وكاتب مصري، عمل في وزارة المعارف، مشرفاً على دار الأوبرا. وكان من الرعيل الأول الذي ربى نفسه بالثقافة الرفيعة. تأثر باس رومي والمتنبي (الموسوعة العربية؛ عبد الرحمن صدقي، أعلام مصر في القرن العشرين، ١٩٩٦م).

[١٠]- عالم جغرافي مصري، من أعضاء مجمع اللغة في القاهرة، له مؤلفات ومترجمات كثيرة، نقله عن الألمانية (الأعلام، محمد بن أحمد، محمد بن قاسم، خير الدين الزركلي).

[١١]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد عنيمي هلال، ص٥٠٣.

٨,٤. الوعي الفني الخالق (بمطابقة الواقع)

وقد أخذ الوعي الفني الخالق في النضج في خلال المراحل السابقة، فشرع **يخلق أدباً قصصياً يتصل بعصرنا وبيئتنا**. وتقوم فيه القصّة بدورها الاجتماعي الذي تقوم به في الآداب الغربية، أو قريباً منه. وقد تأثر أدبنا في اتجاهها العام **بالكلاسيكية** أولاً، ثم تأثر **بالرومانتيكية** في منهج القصص التاريخي مثل "جورجي زيدان[١]" (١٨٦١م – ١٩١٤م) الذي يتأثر بمنهج "والتر سكوت[٢]" أب القصّة التاريخية الرومانتيكية في أوروبا. ثم تأثر أدباءنا بالقصص التاريخية الرومانتيكية في نزعتها العاطفية القومية الوطنية، مثل الأستاذ محمد فريد أبو حديد[٣] (١٨٩٣م – ١٩٦٧م)، في قصصه مثل "زنوبيا ملكة تدمر[٤]" و "المهلهل سيد ربيعة[٥]"، والأستاذ محمد عوض في قصّة "سنوحي[٦]".

٨,٥. تأثر بالاتجاهات الفلسفية والواقعية

أخيراً بدأت القصّة العربية تتأثر **بالاتجاهات الفلسفية والواقعية في معالجة الحقائق** الكبرى أو المشكلات الاجتماعية. وأمثلة هذه القصص هي: "أنا الشعب" لمحمد فريد أبي حديد، و "عودة الروح" للأستاذ توفيق الحكيم، "الأرض" للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي، وكذلك قصص نجيب محفوظ.

٩. الأبنية القصّة الغربية

كان عصر النهضة فترة رائعة للنمو الفكري، والتطور الفني في أوروبا. حركة ثقافية كبرى بدأت في إيطاليا أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ثم انتشرت في كل من إنجلترا

---

[١]- أديب وروائي ومؤرخ وصحفي لبناني في القرن التاسع عشر الميلادي، أصدر مجلة الهلال (جورجي زيدان، محمد عبد الغني حسن، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م).

[٢]- روائي مؤرخ وشاعر اسكتلندا. دخل في مجال الرواية التاريخية، وكان التنقيب في زوايا التاريخ واقتنائه الكتب النادرة (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٣]- كاتب مصري، كتب العديد من المقالات التعليمية، ودعا إلى نشر الثقافة الدينية والنهوض بالفكر أدبي وأغرس الحس الفني ومحو الأمية (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٤]- عن امرأة وملكة وزوجة نجوابهم المختلفة حيث تشتد عليها المحن وتفقد حبيبها وزوجها، وسرعان ما تستفيد وجودها كملكة لتدمر عندما تحمل لها الأنباء بوقوف العدو على أبواب مملكتها، وتستطيع عبور المحنة لتعود إلى كينونتها كأنثى طالماً هناك سلام في مملكتها يسمح لها بالتفكير في نفسها (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٥]- وهي عن حرب البسوس، وقعت بين قبيلتين بكر وتغلب.

[٦]- أنظر: النقد الأدبي الحديث، د. محمد عبيمي هلال، ص٥٠٣.

وفرنسا وألمانيا وفرنسا وهولندا وأسبانيا، وبلاد أخرى في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وسرعان ما انتهى عصر النهضة تدريجاً في القرن السابع عشر الميلادي.

٩,١. الكلاسيكية وعلاقتها بالقصّة

ازدهرت الكلاسيكية في القرن السابع عشر، وأثرت قواعد "العقلية" في المسرح، وكان لابد أن تتأثر القصّة بهذا الاتجاه، فكتبت السيدة "دلافايت" قصتها "أميرة كليف[١]"، في عام ١٦٧٨م، وهي قصّة شبوب العاطفة، والوفاء والتضحية، والغيرة القاتلة لأميرة وزوجها، وصورة الصراع بين العاطفة والواجب، وانتصار الواجب على العاطفة. وهي من قصص التحليل النفسي، فهي لا تثير القارئ بأحداثها، ولكن عن طريق السبر أغوار النفس الإنسانية في إلقاء الأضواء على جوانب عاطفية على حسب الأحداث[٢].

وعلى الرغم من دعوات بعض النقاد ظلت القصّة بصفة عامة، متخلفة عن الأجناس الأدبية الأخرى فكانت القصّة رياضة ذهنية هينة الشأن، تقصر في قيمتها الفنية عن قيمة المسرحية بأنواعها، وعن الخطابة والشعر، فحملت معالم التجديد والثورة في القرن الثامن عشر قبل الأجناس الأدبية الأخرى.

فوجدت في القرن الثامن عشر **قصص مخاطرات** حديثة، تهجو الطبقات الاجتماعية المختلفة، إلى جانب عرض صورة للمجتمع ونظمه، تعني فيها بالتعمق أكثر من ذي قبل في الحالات النفسية، لتكتمل للقصّة صورتها الفنية وغايتها الإنسانية. ويعد "لوساج[٣]" (١٦٦٨م – ١٧٤٧م) رائد هذا النوع من القصص، وخاصة في قصته، "جيل بلا[٤]" التي ظهرت في عام ١٧٢٧م، فنمت واكتملت الاتجاهات الاجتماعية قليلا قليلا، فأصبحت القصّة طاقة فكرية وقوة اجتماعية عظيمة. وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهرت اتجاهات حديثة أخرى، وجعلوا منه وحدة الإصلاح في مجتمعهم. ونادوا بإنصافه من طغيان المجتمع وقيوده الظالمة. وكانت هذه القضية خطيرة من قضايا الرومانتيكيين ومن أتى بعد هم، وفيها قامت القصّة بأخطر دور للأدب في الحضارة الحديثة. وكان للفلسفة العاطفية في ذلك أثر كبير[٥].

---

[١]- إنها من أول الروايات السيكولوجية وما زالت من أفضلها. وهي الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التي ما زال في الأمكان قرائتها دون ما ألم. وكتبت داسكوديري: "إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرأ منها أبوها وأمها" (قصّة الحضارة في عهد لويس).

[٢]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ٤٨٠.

[٣]- روائي فرنسي ومسرحي، اشتهر بالرواية الصنطوكية، وازدهر في جميع إنحاء أوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولا يزال يؤثر في الأدب الحديث (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٤]- تدور أحداثها المتخيلة في أسبانيا، ولكن من خلال هذه الأحداث يصف دقائق الحياة الفرنسية. وجيل بلا (بطل قصّة) يرحل ليدرس في الجامعة، لكنه يقع في قبضة قطاع الطريق، وبعد المصارب كثيرة يصير إلى القصر (النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٨٠).

[٥]- أنظر: الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، باب الثالث.

٩,٢. الرومانتيكية وعلاقتها بالقصة

في عصر الرومانتيكية، صارت الطبقة الوسطى ذات أثر فعال في المجتمع، فصعدت فيه تتنقص حقوق الطبقات الأرستقراطية التي لم يكن لها من مبرر. وصارت القصة من وسائل التعليم والتسلية معاً، تحرك المشاعر وتوحي بالإصلاح، ويكتشف بها القارئ نواحي في نفسية المجتمع قد تغمض على المشرع والاقتصادي.

وكانت القصص الرومانتيكية التي تدافع عن القضايا الاجتماعية تحمل الطابع العاطفي المشبوب الثائر، وتثير الأفكار مباشرة خطابية غالباً. والشخصيات الرئيسية فيها ضحايا نظم المجتمع، وهم رموز لطبقات اجتماعية ممثلاً في صورة الظلم الجماعي الذي يعاني منه البائسون والفقراء[١].

٩,٣. مذاهب أخرى

وقام المذهب **الواقعي**[٢] ثم **الطبيعي**[٣] على أنقاض المذهب الرومانتيكي، فقربت القصص من الواقع قرباً لا مزيد وراءه، وأصبح الكاتب يتتبع في قصته الواقع على حسب منهج استقصائي، يجمع فيه معارفه باطلاعه على وقائع الحياة اليومية الفردية والاجتماعية. وتنحصر العملية الفنية في أخذ الوقائع من الطبيعة، ودراسة وظيفة هذه الوقائع، والتأثير فيها بتغير الحالات والبيئات، دون الابتعاد عن قوانين الطبيعة. وبذلك تحقق معرفة الإنسان معرفة علمية في عمله الفردي والاجتماعي[٤]. وذلك دون أن يظهر المؤلف في قصته، فلا يضحك ولا يبكي مع شخصياته، ولا يحكم مباشرة على أعمالهم ، ولا يستخلص بنفسه نتائج اجتماعية، أو مغزى لقصته. وعلى القارئ وحده أن يفهم ويستنتج ما يشاء[٥].

وفي القرن التاسع عشر دخلت طبقة العمال في الحياة الأدبية فشغلت مشكلاتهم الآداب العالمية. فيصورون تجارب إنسانية عميقة، هم فيها أصحاب الفلسفة وآراء اجتماعية خطيرة تمس النفوس الإنسانية في أخفى جوانبها، وهم بذلك يشاركون العلماء والفلاسفة في بناء مجتمع خير مما هم فيه، إذا كانوا قد ينسوا منه، أو إصلاح ما فسد في مجتمعهم إذا لم يبلغ يأسهم منه

١- أنظر: Bulwer- lytton: Paul Clifford, XXX. P.٢٥٥.

٢- القصص الواقعية الممتعة التي ينتزعونها من الحياة الواقعية الصميمة.

٣- لم يتأثر القصاص بالعوامل الخارجية الطارئة الذي صنعه الإنسان بما يتواضع علية من تقاليد وآداب وما سنه من قوانين وشرائع.

٤- العبارة لأميل زولا، أنظر: Experimental, P. ١٦-١٧.

٥- المرجع السابق، ص٣٧-٣٨.

غايته. وأساس أدبهم أن الوقوف على حقائق الظواهر الإنسانية والنفسية هو أساس التحكيم فيها[1].

ومنذ "الواقعية" و "الطبيعية" اكتمل مفهوم القصة الحديث، فتخلصت أولا من العالم الغيبي والقوى العجيبة التي كانت تدنيها من الملاحم، ثم من العالم المثالي الذي كانت تبعد فيه عن الواقع والمألوف، ثم من العالم الأرستقراطي الذي كان تهتم فيه بطبقة خاصة هي في الذروة من المجتمع ولا تمثله، ثم لم تكتف بعد ذلك بالنزول إلى أغوار المجتمع لتسير مشكلاته، بل غاصت كذلك في الجوانب المظلمة، جوانب السوء في الأفراد والجماعات لنعالجها على نحو ما ذكرنا[2].

وفي هذه المعاني تلاقت واقعة "بلزاك" مع طبيعة "زولا" ومن سار على نهجهما، وتلاقى هؤلاء في نفس هذه المعاني مع الوجودية والواقعية الاشتراكية الجديدة.

ثم إن بين الواقعية الأوروبية والواقعية الاشتراكية المادية فرقاً هاماً آخر: هو أن الواقعية الجديدة لا توغل في وصف الشرّ، وتنتصر للخير، على حين تعني الواقعية الأوروبية والوجودية معاً بوصف الموقف كما هو، على أن تختار جانب انتصار الحياة، بالإيحاء لا بالتزييف، تاركة قارئ استنتاج ما يرى من خلال التجربة الإنسانية الصادقة المبررة، مع قصد أصحابها إلى تنفير من الشر عن طريق وصفه الصادق.

وبذلك نشأت **قصص التحليل** لأدق جوانب النفسية في صلتها بالناس والجماعات في عصر وموقف معينين، ولكنها لم تصور النفسية الأرستقراطية. وقد راج هذا الاتجاه في الأدب الروسي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وظلت القصص النفسية والاجتماعية هي التي تشغل أكثر المفكرين من القاصين في القرن العشرين[3].

ثم كان اتجاه آخر **حديث في القصة**، حين لا يعتمد القاص إلى درس المشكلات الاجتماعية والمسائل النفسية العادية فحسب، بل يرمي كذلك إلى جلاء حالات نفسية خاصة بإثارة صور خيالية تثير المشاعر وتوحي بالحالات الغامضة الخبيئة في أعماق النفس، ولكنها مع ذلك تظل وسيلة من وسائل استجلاء حقائق خاصة عن طريق الإيحاء والرمز.

هكذا نمت القصة في الآداب الغربية بنمو الحضارة وتقدم الفكر، وأصبحت الآن قوة إنسانية خطيرة الشأن وأوسع ميادين الأدب وأجلها أثراً.

---

[1]- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص٤٨٦.

[2]- C. Green: French novelists, Vol, 1, P. ٢١٩-٢٢٢.

[3]- أنظر: Anees de Decouverts, ١٩٥٠, p. ٤٢-٨٠.

١٠. حكاية التأثر والتأثير

ولدت القصـــة لكن أين ولدت هذه القصـــة؟ لا يمكن لأحد أن يحدد كنه جغرافية الرحم الذي نبتت في ربوعه ورودها الأولى، والمســـتقرئ لأصـــول نشـــأتها يلحظ ظاهرة تأثر الحضـــارات وانفتاحها على بعضـــها البعض وتلونها بأطياف بعضـــها البعض في رحلة الحضارات وما حملت في أحشائها من أنشطة إنسانية شتى ومنها عوالم القصّة والأساطير التي جعلت بها المخيلة الحالمة في تراثها الأدبي.

ولما تبحث الباحثة "سـعاد رجب" وجدت أثر التراث العربي العريق في مجال القصّـة في وضع بصماته اللامعة ولمساته في الشخصيات والأحداث في رحلة القصّة الحضارية، على وجه الخصـوص، إذ سكبت مادة الأصـل العربية في قوالب متجددة في قصـص الأمم الأخرى لكن بقيت في عبقها نكهة عطر القصّة العربية في أصالتها وأطياف أجوانها[١].

لذا لا مجال لإغفال أثر التراث الأدبي العربي في إثارة ظاهرة الاســتلهام عند كتاب القصّـة الغربية. فالقصّـة في الأدب العربي قضـية فاعلية، وله دور هام في تطور فن القص، ليس على مستوى الأدب العربي، فحسب، وإنما على الأدب العالمي أيضاً.

ويعدّ بعض الباحثين القصّـة العربية على مسـتوى دوراً أسـاسـياً، فيرى المسـتشـرق ميكائيل، "أن أوروبا مدينة بقصـصـها للعرب"[٢]. ويرى المستشرق البارون كارادفو، في بحثه المطول في حكايات العربية، "إنّه لم يسـبق الأدب العربي أي آخر في نوع الأقاصـيص ومن أمثلة التي يقدمها الباحثون في هذا الصدد"، ويقول جب، "ولم يقف إعجاب الأوربيين بألف ليلة وليلة عند هذا الحد، وإذ ندرك تأثير هذه القصص في الأجيال الجديدة نستطيع تقدير دورها في تطور فن القصّـــة الأوروبي الذي عرف في مرحلة تالية، ولم يقتصـــر التأثير على "ألف لياة وليلة" وإنما تعداه إلى كتب أخرى، مثل "كليلة ودمنة" التي تركت أثراً واضـــحاً في الأدب الغربي. واستفاد منها كتاب الغرب وشعراءه وقصصوه، وفي مقدمتهم "ماسنجر الإنكليزي" و "لافونتين الفرنسي" كما قال جب.

قد أشار مورخو الأدب الأسباني إلى إمكان تأثير "فن المقامات" العربية في مولد جديد، في الأدب الأسباني، المعروف باسم "القصّة البيكارية" وهو تعبير تصعب ترجمته بدقة. وهو ما أقرب ما يقابله بالعربية بقصص الشطار[٣].

ويلحظ الباحث في محطات استقراء ميلاد القصّة الحديثة عبر التاريخ، أنها تشكل ذلك الجنين الجديد في الأجواء الأوروبية عيناً وقلباً، فامتد قلم ذلك المولود الطائر الجديد القديم ليرتقي في أجنحته ويكون له صـــولات وجولات في أجواء العربية فاكتســـب أصـــالة النكهة

---

[١]- القصّة القصيرة، الميلاد والتساؤلات، د. سعاد حدر، ديوان العرب، منبر للثقافة والفكر والأدب، ١تموز (يوليو) ٢٠٠٤م.

[٢]- المرجع نفسه.

[٣]- المرجع نفسه

وارتقى في سلالم الإبداع الأدبي، فانطلق من رحم تلك الأجواء صورة أصيلة للقصّة العربية القصيرة في انطلاقه تنافس فيها القصّة الأم في ميلادها الغربي وتمدد أغصانها في الأجوا بثبات ورسوخ وتطلع ذكي فطن في مسيرة الإبداع الأدبي وما زالت تمضي في ذلك الدرب نحو نبل الغايات الساكنة في رسالة الأدب ونبل الأفكار[1].

الخلاصة

خلاصة الكلام إنّ القصّة توام الإنسان، لانجد أيّ شخص بدونها، عنده حكاياته وحكايات الآخرين، في ساعات اللذّة يحب أن يسمع أو يقرأ حكايات مضحكة، وفي لحظات الألم يستمع إلى قصص تراجيديا.

ولكل قوم قصص وأسمار وخرافات وأساطير. هذه القصص توجد في وحي إلهي، بصورة كتب سماوية، وأيضاً في القرآن، ومنها ما تسمى "أحسن القصص" (أي قصّة يوسف) للموعظة والعبرة. وكذلك في الأحاديث النبوية صلى الله عليه وسلم تمثيلات وحكايات.

وتوجد القصّة في صورة الشعر (في القصيدة) وفي النثر (أغلب الأحيان) قصيرة أم طويلة، تركز في حادثة من الأحداث أم حياة كاملة، شخصية واحدة أم شخصيات، موقف واحد أم مواقف كثيرة.

نشأت القصّة وتحولت إلى أشكال عديدة. في اليونان القديمة يهتم بها العلماء، لفهم الحياة الدينية والسياسة. وصورة القصّة في تلك السنوات، هي "أسطورة"، ومصدر الرسومات هو الفخار اليوناني.

تغيرت صورة القصّة في القرن الخامس قبل الميلاد، فتقدّمت "الأساطير" وتقدم النثر السياسي. في العصر الهيليني ساهم الأدب الدرامي بكوميديات جديدة، وأضاف فيه موضوعاً جديداً، تعالج هذه المسرحيات قضايا الأسرة، اعتمدت على أحداث الصدفة. وفي هذا العصر بدأت الرواية تحكي تاريخ الإسكندر الأكبر، وتناول موضوعات الحبّ، ومن ناحية الشكل هذه الروايات قريبة من القصّة.

وفي إمبراطورية روما ظلت روايات كسابق عهدها إلاّ تفسير ساذج في الموضوع، وهو الدين والكوميديا، وفي هذا العصر انتشرت العلوم والآداب معاً. وتختلط الحقائق الإنسانية بالأمور الغيبية، وتجمع في الخيال فتبعد كثيراً عن واقع الإنسانية وقضاياه. وفي الأدب اليوناني في القرن الثاني والثالث ظهرت القصّة كجنس أدبي. وفي العصر الكلاسيكي ظهرت القصص مختلطاً بالمعاني والمخاطرات الفنية، والسحر والأمور الخارقة.

---

[1]- القصّة القصيرة، الميلاد والتساؤلات، د. سعاد جبر.

وفي العصر الرومانتيكي تأثرت القصّة بالقصص اليونانية، وظهرت القصص كمسخ الإنسان إلى الحيوان، ثم إعادته إلى حاله الأولى، لكن في هذا العصر تجلّت قوة الفكر وقوة الخيال.

هذه صورة القصّة في الغرب، وإلى جهة أخرى حين ننظر إلى العرب فنجد القصّة في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام. في العرب لا توجد "المسرح الخشبي" كاليونان، لكن هنا يتسامر الناس في مجالسهم وفي أنديتهم، وفي وقت الفراغ. وموضوع قصصهم حروب، وأبطال ومواقع نجاحهم أو هزيمتهم، وأساطير وسير الملوك وغيرها.

وفي صدر الإسلام ظهرت قصص أقوام سالفة، وقصص الأنبياء، وقصص الجبابرة، وبعض التمثيلات للعبرة والموعظة. ونما فن القصّة في العصر الأموي، وظهر القصّاص البارعون. وفي العصر العباسي وفرت قصص ذات دلالة شعبية، والروايات تختلط فيها الحقائق الإنسانية بالخرافات والأساطير يقصد بها التاريخ. ولم تتوافر لها الصياغة الفنية.

في القرن الثالث والرابع نشرت القصص التي لها نوعان: مترجم دخيل وعربي أصيل. معظم القصص المترجم جاءت من فارس وهند، وقصص عربي أصيل ظهرت مع الغرض المعين، وهو تعليم والتسلية للحكام وعامة الناس. وأوّل قصّة دخلت في اللغة العربية، هي من جنس القصص على لسان الحيوان أو الخرافة. والقصص العربي الأصيل هي "مقامات" غرضها الأول التعليم، وتحتوي مخاطرات. وهذه القصص صورة جميلة للنقد الاجتماعي والسياسي، تسود في العادات والتقاليد للطبقات الوسطى والدنيا، وهي أخصب جنس أدبي في العربية. وفي عصر النهضة تأثرت القصة الغربية من العربية. ونزع نزعة إنسانية من الشرق، وكذلك جذب روح الفروسية من فلسفة أفلاطون ومن ثقافة العرب وآدابهم.

وفي عصر النهضة تأثرت قصص الرعاة بالمقامات. وظهر لون آخر في أوربا، وهو قصص الفروسية والحب. وهذه القصص قد تأثرت بالأدب العربي تأثرًا واضحًا.

وفي القرن السادس عشر والسابع عشر ظهر في أوروبا جنس جديد في الأدب، وهي قصص الشطار، ذات صبغة هجائية للمجتمع ومن فيه. ويلاحظ بين القصص الشطار وبين المقامات العربية وجوه شبه قوية. وتقطع الأدلة التاريخية أن مقامات الحريري عرفت في الأدب العربي في أسبانيا.

فقد ترجمت مقامات الحريري إلى اللغة العبرية، التي كانت رائجة بين العبريين والمسيحيين، فترجموها إلى لغاتهم.

وأثر كتاب الأسبان أن يسيروا على منوال قصص الرعاة المثالية، فسبب في التقريب بين القصّة وواقع الحياة. وأثروا بذلك تأثيراً في كتاب القصّة في الآداب الأوروبية الأخرى.

فيبدو أن الغرب تأثر بالقصـــص العربية المعروفة في الأدب العربي من إطارها العام، وجعلها وحدات مســتقلة دون الحاجة إلى إطارلها، وأطلقها كجنس أدبي قائم بذاته. وبعدها استورد العرب القصّة التي بدأت غريبة الطابع وتبنوها.

والصـحيح أنّ القصّـة كانت قبل الحاضـر، وستظل بعد أن يزول هذا الحاضـر، ما بقي الإنسان على وجه الأرض، في أي لون، ولو تغير ثوبها بتغير العوامل الحضارية.

الباب الأوّل: شخصية المؤلِّفَين وكتاباهما

الفصل الأوّل: المحيط البيئي والاجتماعي والسياسي والثقافي

الفصل الثاني: سيرة الجاحظ والتوحيدي ومكوّناتهما النفسية والاجتماعية والثقافية

الفصل الثالث: البخلاء والإمتاع والمؤانسة من حيث الفن والتاريخ

الفصل الرابع: البخلاء والإمتاع والمؤانسة من حيث المحتوى والقيمة

الباب الأول: شخصية المؤلِّفَين؛ الجاحظ والتوحيدي وكتاباهما

مدخل

هذا الباب عبارة عن نبذة من حياة الجاحظ والتوحيدي وعصرهما ليعرف دور المؤلفَين فيه. فبدأت الدراسة عن بيئتهما، فالجاحظ نتاج البصرة، والتوحيدي ثمرة بغداد، وكلاهما عاشا في العصر العباسي، ودراسة البيئة والتاريخ تُعين في فهم العمل الأدبي والنشاط النفسي، ومظاهر الحياة والمجتمع تفتح زوايا مختلفة عن الأديب وعن شذراته. ويتكون هذا الباب من أربعة فصول: الفصل الأول والثاني عن شخصية المؤلفين، والثالث والرابع عن كتابيهما: "البخلاء" و"الإمتاع والمؤانسة" من حيث الفن والتاريخ، والمحتوى والقيمة.

الفصل الأوّل: المحيط البيني والاجتماعي والسياسي والثقافي

١. المحيط البيني للجاحظ

يقال إن الإنسان هو ابن البيئة، والبيئة تحيط وتؤثر في أي كائن حيّ، وكذلك يؤثر الإنسان على البيئة. فهناك ارتباط التأثر والتأثيرقوي بينهما. ويؤثر على الشخصية الإنسانية ثلاثة معايير؛ الجنس، والحاضر، والبيئة. فالبيئة هي من أبرز المؤثرات على الإنسان. وأيّ عمل أدبي هو نتاج هذه العوامل مجملاً. والنقاد الغربيون من أمثال "سانت بيف"[1] و "لافونتين[2]" يربط بين الأديب وبيئته، وجملة العوامل الأخرى المؤثرة في نتاج أدبي، لأنّ السياق الحضاري والفكري والاجتماعي له، هو الآخر أثره في نشأة الفنون وتطورها. ولذا يستحسن أن تسلّط الأضواء على بيئة الجاحظ، لنتعرف شخصيته بصورة واضحة.

---

[1]- شال أوغستان، سانت بوف /بيف (١٨٠٤-١٨٦٩م). ولد في بولوني. سور. مير. ثمّ تابع دراسته في باريس. كاتب وناقد فرنسي، كتب العديد من الدراسات التي كان لها تأثير مهم في تاريخ النقد الأدبي (الموسوعة العربية، المجلد العاشر، الآداب

لافونتين ١٦٢١- ١٦٩٠م) فرنسي، كاتب الخطبات القصيرة المنظومة، أكثر الأدباء ابتكاراً وتميزاً بالأصالة الإبداعية. هو —

[2]- ابن الموظف يعمل في الغابات والمياه، عمل محاسبا في البرلمان الفرنسي (ويكيبيديا الموسوعة الحرّة).

ولد الجاحظ في البصرة، التي أسسها الصحابي المشهور عتبة بن غزوان رضي الله عنه[1] على تعليمات أرسلها إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "سرْ على بركات الله واخش الله جهدك، واحكم بالعدل، وأقم الصلوات في أوقاتها، واحمد الله كثيراً[2]".

الجاحظ ابن البيئة، في شخصيته ونتاجه بأكمله، كأن أدبه ثمرة للعصر العباسي الأول والربع الأول من العصر العباسي الثاني من حيث فعالياته السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية. ويدرك الجاحظ تأثير البيئة في الإنسان والحيوان، وكذلك في جسم الإنسان وسلوكه ونفسه، لعل هذا هو الذي حدا المستشرق الفرنسي شارل بلا[3] (١٩١٤م – ١٩٩٢م) على القول "بأن الجاحظ نتاج صاف للبصرة"[4]. والبصرة قد صدّرت في الواقع الأسس الهامة للثقافتين الدينية والدنيوية في تكوين المسلم العربي، ويضاف إلى هذه الثقافة الفارسية التي استعارت الكثير من الحضارة الهندية.

"والجاحظ قضى في البصرة القسم الأوفى من حياته، ولكنه كان نَبتَةً إقليمية تغذت بنُسغ قوي مستمد من أرض خصبة، فلم تتفتح بصورة كاملة ولم تؤت ثمارها إلا في العاصمة بغداد. .. لكنه لم يستمتع تماماً بعشرة الخلفاء لقبحه بل اكتفى بصداقة الوزراء الكبار، كما أنه لم ينس أصله البصري بل تردد كثيراً على مسقط رأسه، وفي البصرة أيضاً أنهى عمره المديد"[5]. وفي العاصمة بغداد توسع أفق معارفه، و"اكتسب ثقافة ثالثة مصدرها قراءة الكتب اليونانية، كما أنّ مكثه الطويل في بغداد وسامراء أتاح له إتمام معرفته الموسوعية، وتثبيتها وإغناء عقله برصد العادات والتقاليد والأوساط الجديدة، على أن ما اكتسبه في البصرة يظلّ أساساً لكلّ هذا"[6].

اجتمع في الجاحظ خصبة أرضين: البصرة وبغداد. وأصبح وردة كاملة ذا رائحة جميلة. غرس في البصرة وأثمر ثمارها في بغداد. ويمكن القول "أنّ آثار الجاحظ تشبه مرآة انعكست فيها أوضاع عصره من النواحي الطبيعية والاجتماعية والسياسية والأدبية والفلسفية"[7].

بما أنّ البيئة قد أثّرت على الجاحظ، ولذا يجب معرفة المحيط البيئي له، لأن الوسط البصري أثّر في تكوين عقله وأدبه. وحياته مرت في مرحلتين:

---

[1]- كان من السابقين الأولين في الإسلام، شهد بدراً، أرسله عمر بن خطاب (ض) إلى الأبلة ليفتتحها، فاختط البصرة (سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٤م، ج٢٤).

[2]- انظر الموضوع في التاريخ العسكري العام، بواسطة العز بن باديس، المنتدى العربي للدفاع والتسليح، ٢٩نوفمبر ٢٠١١م.

[3]- هو مستشرق فرنسي، عني خصوصاً بالجاحظ، وكان أستاذاً في معهد الدراسات الاجتماعية، ومديراً لهذا المعهد (موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٩٣م).

[4]- الجاحظ، ومجتمع البصرة ، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دمشق، ط١، ١٩٦١م، ص١٠-١١.

[5]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة. د. إبراهيم الكيلاني، دارالفكر، ط١، ١٩٨٥م، ١٤٠٦هـ، ص١٧.

[6]- المرجع السابق، ص١٩

[7]- المناحي الفلسفية عند الجاحظ، د. علي بو ملحم، دار الطيعة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٣.

ا. مرحلة البصرة: التي ولد فيها واكتسب العلم فيها التي تفتحت مواهبه.

ب. مرحلة بغداد: التي اكتمل فيها تكوينه العقلي والأدبي وإبداع آثاره الخالدة[1].

إنّ عصر الجاحظ من العصور الهامة والفاصلة في التاريخ الإسلامي، في الجانب الواحد تفتخر العراق بوجود الأختين المتنافستين الكوفة والبصرة، وكلّ بلد يحتفظ زمن الأمويين باستقلاله الحقيقي، وفي الجانب الثاني استولى العباسيون على الحكم، وتأسسوا مركز الخلافة نحو الشرق مسمّى "بغداد". وهذه العاصمة الجديدة أخذت تقطف أحسن ثمرات الولايات وتدمج هذه الثمرات بعضها ببعض دون أن تفقدها طابعها الخاص المستمدّ من كيانها الأصيل. وكان الكوفيون والبصريون والشاميون والحجازيون والمصريون يتلاقون ويتعارفون في بغداد، وكذلك اختلطوا بالفرس والهنود والأتراك. ومع ذلك احتفظوا الفواصل القبلية، ويعيش أفراد كل رهط جميعاً في حي واحد، حيث استعادوا جو بلدهم الأصيل[2].

وفي أيام الجاحظ، كانت البصرة لا تزال ذا النزعة المحافظة؛ حفظ ونقل بكل إجلال التراث الذي رفدته الأجيال المتتابعة. ويقول ماسينيون[3]: "إنّ الصفة المميزة لمدرسة الكوفة في ميادين الثقافة العربية جميعها هي أصالة الخيال، في حين أن مدرسة البصرة تستمد قوتها من واقعية دؤوب ونقدية. وقد شبه الحجاج البصرة بامرأة عجوز تزينت بأنواع الحلي، وشبّه الكوفة بفتاة بكر ذات عنق عاطل"[4]. أي البصرة تتصف بخصائصها والكوفة تتصف بقوّة الفكر وجمالها.

ونمت البصرة نمواً كبيراً، خاصة بعد بناء بغداد[5] عام ١٤٥ هـ حتى صارت تمثل باب بغداد الكبير والمنفذ الرئيس لإقليم العراق، الحافل بالمنتجات الزراعية والصناعية. ومركز أبحار واستقبال السفن المحملة بالسلع الخاصة بالتجارة الشرقية في الخليج العربي كافة. وعلى هذا الأساس قيل "إنّ العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق"[6].

في القرن الثاني للهجرة، انبعثت المنافرات الجاهلية، وإحساس الافتخار، وولع الناس بهذا النوع بلغ حدّاً أنْ تفرّغ له "الشيوخ الجلّة، والكهول العلية، وحتى تختاروا النظر فيه على

---

[1]- أنظر: الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٥.

[2]- أنظر: المرجع نفسه، ص١٧-١٨.

[3]- هو لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢م) من أكبر مستشرقي فرنسا وأشهرهم. تعلّم العربية والفارسية والتركية والألمانية والإنجليزية، وعني بالآثار القديمة في العراق، وخدم في الجيش الفرنسي خوض سنوات خلال الحرب العالمية الأولى (الأعلام، خير الدين الزركلي، ١٩٨٠م).

[4]- خطط الكوفة وشرح خريطتها، المسيو لويس ماسينيون، ترجمة تحقيق. تقي محمد المصعبي، كامل سلمان الجبوري، دار الورق للنشر، ط١، ٢٠٠٩م، ج٤، ص٣٤٣؛ لطائف المعارف، الثعالبي النيسابوري، ١٨٦٧م، ص٢٠٢.

[5]- مدينة بناها الخليفة العباسي المنصور، في العصر العباسي الأوّل، واتخذها عاصمة للدولة (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٣١م، ج١٤)

[6]- أنظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري، ط مصر، ١٩٠٩م ص١٢٧؛ ومعجم البلدان، شهاب الدين، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، مصر ١٩٠٦م..

التسبيح والتهليل وقراءة القرآن وطول الانتصاب في الصلاة"[1]. وتجد المناقشة بين مختلف ولايات الإمبراطورية الإسلامية كالبصرة والكوفة خاصة صورة لها في أمثال هذه المناظرات، "فقد مثلت المفاضلة بين الشاميين والبصريين بشكل مستقل في المفاضلة بين الكرم والنخيل"[2] "وبين الكوفة والبصرة"[3] ولكن وراء هذه المناقشات ذات الفائدة الآنية المشكوك فيها عوامل خفية وأسباب عميقة له علاقة بالوضع السياسي القائم في زمن الجاحظ.

ومن حيث الكل، بهرت الحضارة العربية في العصر العباسي إذ لم تكسل خلفاؤه لحظة في الجدّ والاجتهاد من أجل استعمار الأرض واستثمارها، وحرّصوا على التقدّم والتطوُّر، واهتمّوا بأرض السواد، ودأبت على المحافظة على شقّ القنوات وتجديدها، وشدّة حرص على استثمارها، وكذلك عنيت الخلافة بالحيوان، ورعايته وتربيته[4].

والجاحظ نمى في هذه البيئة، منذ طفولته، في أيام الفقر، والخوف، في رحاب أمّه، واكتسب فيها العلم، ورسخ عقله، وفي المنافرات الجاهلية، تجنّب من حرب المفاضلة ودوّن أدبه.

١,١. المحيط الاجتماعي

من بداية الفتوحات، وظهور الإسلام في المدن المؤسسة هزّ المجتمع لهزّات عنيفة، وامتزج مفهوم الجنس والدين بينهما. وأدّى إلى نشوء المجتمع على أسس مختلفة، وتبيّن أربع طبقات هي: (ا). الطبقة الأرستقراطية المؤلفة من العرب الأقحاح، (ب). الطبقة البورجوازية المؤلفة من عناصر عربية وأعجمية مسلمة وغير مسلمة، (ج). الشعب، و(د). والرقيق[5]

والطبقة الأرستقراطية أي طبقة الحكام كان يتمتع بالترف والبذخ. فغلبت عليهم الحضارة الساسانية، وتبدوا واضحة في بناء عاصمة جديدة بـ"بغداد"، وعلى طراز قصورهم فيها. وكان الخلفاء وحاشيتهم يغدقون المال على العلماء والأطباء، والشعراء والمغنين، وكأنهم يبارون فيه، ويتنافسون في هذا البذل الواسع، وكان لهذه السيول أثر واسع في نهضة العلوم والآداب والفنون. وعلى جانب آخر، تدفع هذه الأموال إلى الترف في الحياة، فكان الوزراء وغير الوزراء من علية القوم يحيون الحياة المترفة، وينغمسون فيها انغماساً. ومضى العباسيون وحواشيهم يغرقون إلى آذانهم في البذخ والترف. وكانت هناك أدوات للترويح

---

[1]- كتاب الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ج١٤، ص١٠٢.

[2]- الحيوان، الجاحظ، ١١٢ -١١٦.

[3]- المرجع السابق، ١٦٧ – ١٧٣.

[4]- البيئة في عصر الخليفة العباسية، د. راغب السرجاني، الجمعية الشرعية الرئيسية، مجلة التبيان، العدد ١١٦، ١٩-٠٢-٢٠١٤م.

[5]- الجاحظ، شارل بلاّ، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٠٤.

واللعب كثيرة، ومن أسباب اللهو التي فُتن بها الخلفاء هو الصيد، فمعظمهم يشغفون به شغفاً شديداً.

والطبقة البورجوازية تحرص تقليد الطبقة الأرستقراطية. ونتيجة هذا الجو الزاخر ظهر الترف التأنق في الملبس والثياب، واستكثار من العطور وأنواع الطيب من الغالية، والطعام والشراب في أواني الذهب والفضّة، والصحاف الصيني، والصحاف الزجاجية المنقوشة. "ويبدو التأثير الفارسي واضحاً في أدب المائدة وتنظيم شؤون الخدم وترتيب أنواع الطعام، .. وأنواع الأطعمة التي يستعملها الجاحظ في تسمية أطعمة معاصريه لدليل واضح على تذوّق البصريين للأطعمة الإيرانية"[1]. والبخل الذي أنشأ عليه الجاحظ "كتاب البخلاء" صفة بارزة للطبقة البصرية البورجوازية التي أثرت بفضل اقتصادها المفرط.

وكان **الشعب** يكدح ويتجرع غصص البؤس والشقاء، ويتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لايطاق. فهناك طبقتان، الأولى تنعم بالحياة إلى غير حد، والثانية قُتِّرَ عليها في الرزق، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم[2].

وعامّة المسلمين قد انقسموا في فرق مختلفة، وأراد المأمون أن يكتب بلعن معاوية رضي الله عنه على المنابر لكن تركه خوفاً من هياج العامة، ثمّ فرض على الناس تفضيل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم مال إلى الاعتزال بتأثير ثمامة بن أشرس[3]، كما نادى أيضاً بخلق القرآن[4]. وكان للعامة ملاهيهم، فكانوا يجتمعون حول قصاص يطرفونهم بحكايات خيالية.

كثر **الرّقيق** في العصر العباسي كثرة مفرطة بسبب كثرة الحروب. وغير هذه عظمت تجارة الرقيق على مر السنين في بغداد. كان يجلب من بلاد الزّنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبي أوربا. وكانت رقيق النساء من الجواري أكثر عدداً من رقيق الرجال، اللاتي تلدن بعض الأحيان من الخلفاء. وكان للغناء أثر في الناس لهذا العصر، فقد شغلوا به. وكثيرات من القيان والجواري كن يحسن الرقص. فانتشر الظرف والرقة في المجتمع العباسي حتى أصبحا سمتين بارزتين فيه[5].

وورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني من أدوات اللهو والمجون، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة. وليس معنى أن المجتمع كلها

---

[1]- الحاحظ، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٣٣.

[2]- انظر: العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، ط١٦، ١٩٩٦م، ص٤٧.

[3]- هو النميري، المعتزلي، أديب بارع، والمغامر في أمور الدنيا والمتردد على قصور الخلفاء، وقد تأثر الجاحظ به كثيراً في أسلوبه وأدبه (سِيَر أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبقة العاشرة، مؤسسة الرسالة، ج٢٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٠٤).

[4]- هو فكر انتشر في عهد خليفة المأمون من قبل المعتزلة تعتبر ان القرآن مخلوق، وليس كلام الله عزوجل، أي إزالة التقديس عنه واعتباره كلاماً قابلاً للتأويل والتحديث والتفسير حسب مقتضيات العقل (موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، بأشراف الشيخ علوي، ومجموعة من المؤلفين، موقع الدرر السنية على الإنترنيت، ج١٠، ١٤٢٣هـ).

[5]- العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ص٦٥.

مجوناً وتهالكاً، لكن منذ أوّل العصر، الخمر تقترن بالغناء والرقص، فالبساطين أو طائفة منها تحولت إلى حانات كبيرة للخمر والقصف والمتعة بسماع بعض المغنين والقيان. ولا ريب أن إدمان الخمر دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية[1].

إن رجال الفرس البارزين كانوا يُذكون نار الشعوبية فيمن حولهم من الفرس. وكان الخليفة عربياً هاشمياً ولكن الوزراء وأكثر القواد كانوا فارسيين، وكان الخليفة يقدّمهم على العرب، حتى زالت رياسة العرب وهيمنتهم[2].

وقد ردّ بعض الشعراء العرب على الشعوبية وأصحابها، منهم الجاحظ وابن قتيبة ونفر من الموالي على أصحاب النزعة الشعوبية، وقام دعاة الشعوبية، فيرددون على العرب فخرهم التقليدي بالكرم، ويقولون إن أكثر هذا الفخر لا يفي بالفعل، ونوع من الفنج لا حقيقة له في الواقع، وفي سبيل ذلك يذهبون يتلقطون من هنا ومن هناك أخبارهم مما يتعلق بمآكلهم الغثة، ومطاعمهم الكريهه، وهيئتهم الخشنة، مما هو من لوازم البداوة[3]. وكان الجاحظ يدفع الموغلين فيها دفعاً إلى الإلحاد في الدين والزندقة[4]. وقد قتل كثيرون من رؤوس الزنادقة لهذا العصر.

إذا كانت حانات الكَرخ ودور النخاسة والمقينين به اكتظت بالجواري والإماء، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعبّاد والنُسّاك وأهل التقوى والصلاح. والتصوف نضج في هذا العصر، وشهد العصر العباسي لونين من الزهد، هما: زهداً إسلامياً خالصاً أعدّ للنسك والتصوف، وزهداً مانوياً[5] مارقاً، وقد مضت الدولة تقاوم النسك في الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سوال الناس[6].

فمجتمع الجاحظ مشتة، فيها طبقات مختلفة من حيث المال، والفكر الديني، ففي عصر الجاحظ يعيش المسلمون مع اليهود والنصارى والمجوس جنباً إلى جنب. واشتعلت نار الشعوبية، فأحرق الكثير ودفع إلى المنازعات. وساد الانتشار فيه.

---

[1]- العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ص٧٤.

[2]- الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٧٧م، ص١٣

[3]- أنظر: البخلاء، الجاحظ، مقدمة: طه الحاجري، ص٢٨.

وكلمة الزندقة ليست عربية، إنما هي تعريب لمصطلح إيراني، "إنحراف عن ظاهر نصوصه" ومدلول الكلمة يتسع في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس، فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم -

[4]- (أنظر. العصر العباسي، شوقي ضيف، ص٧٩).

[5]- زهد مانوي: ناتج من وحود إلهين.

[6]- الحيوان، الجاحظ، ص٤٥٦.

١,٢. المحيط السياسي

بدأ العصر العباسي من حكم أبي العباس السَّفّاح[١] (٧٢٧م – ٧٥٤م)، لكن أبا جعفر المنصور يُعدّ المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، فهو الذي أصّلها، وضبط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس[٢]. تغيرت نظرية الحكم في العصر العباسي، وأصبحت السلطة عندهم مقدسة ومستمدة من الله، وصار الخليفة خليفة الله على الأرض[٣].

كان الخلفاء العباسيون يشعرون أنهم يجبرون الناس على تسويغ خلافتهم، كما أنهم يجبرون على الردّ على خصومهم. ويعرفون أنّ بني العباس لم يحصلوا على تأييد المسلمين جميعاً، فحاولوا من مظاهر السياسة الشخصية أن يكسبوا عطف كثير من الناس.

وقد تمكن المأمون عندما نادى بالاعتزال أن يقاوم خصومه، وفسح المجال للمناقشة الحرة مما أوقع الخلافة فريسة للمرتزقة الأتراك والصقالبة[٤] والزنج[٥]. وأظهر المعتصم ميله للترك الذين اعتدوا على سكان بغداد فانتقم هؤلاء من المعتدين عليهم مظهرين عداءهم للخليفة الذي رأى نفسه مجبراً على إبعاد جنود الأتراك المشاغبين عن العاصمة، فأسس لهم مدينة سامراء[٦] سنة ٢٢١هـ. وقد بلغ نفوذ الأتراك إلى حد بعيد وأراد المتوكل أن ينقل مركز الخلافة إلى دمشق[٧]، لكن جنوده المرتزقة أرغموه على العودة إلى سامراء. ولما غلب على أمره وعجز عن اتباع سياسة أسلافه اتجه نحو عامة الشعب، وعاد إلى حظيرة السنة محرماً عقيدة خلق القرآن ومظهراً العداء للعلويين، ومتخذاً إجراءات صارمة ضد الذميين[٨].

تغلب العرب على الفرس والروم بسرعة فارتفعت نفسياتهم، وتملكهم الشعور بالسيادة. وكذلك الخلفاء العباسيون كانوا عرباً هاشميين (من جهة الأب على الأقل)، وكانوا يعتزون

---

[١]- الخليفة أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح، القرشي، الهاشمي، العباسي، أوّل خليفة العباسي، في القرن الثاني الهجري، حكم لأربع سنوات تقريباً (سيرّ أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ج٦، ص٧٨).

[٢]- أنظر: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي بن طباطبا الطقطقي، طبعة مصر، ١٩٢٢م، ص١١٦.

[٣]- العصر العباسي الأوّل، عبد العزيز الدوري، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، ص٣٨.

[٤]- العرب في العصر العباسي الناكر كانوا يعرفون السلاف، وكانوا يسمونهم "الصقالبة" (من الرومية)

[٥]- هو الإسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الساحل الشرقي و على سكانها السود (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٦]- مدينة عراقية تاريخية تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة في محافظة صلاح الدين، وكانت عاصمة للعباسيين بعد بغداد سنة ٢٢١هـ (موسوعة العتبات المقدسة، قسم سامراء، جعفر الخليلي، منشورات مؤسسة العلمي، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

[٧]- هي أقدم مدن العالم ما تزال عامرة حتى اليوم، وهي عاصمة السورية حالياً. (تاريخ سورية المعاصر، كمال ديب، دار الفهار، ط١، بيروت، ٢٠١١م.)

[٨]- الجاحظ، شارل بلا، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ص٣٦٣.

بنسبهم ويعتبرون أكبر مناقبهم، مع أنهم قربوا الفرس، إلاّ أنهم سيطروا عليهم فنكلوا لهم حين شعروا بتعاظم نفوذهم[1].

وكان لخلفاء بني العباس ولاة في كل إقليم، ينشـــرون الأمن والعدل والنور والعلم. وقد أعطيت بعض المناصب الهامة كالوزارة إلى الفرس، ولكن عدداً كبيراً من الولاة والقواد كانوا عرباً، وكان الجيش العباسي يتألف من فرق عربية وخراسانية[2].

ويتميز هذا العهد بعلاقته بالدين، فادعى العباسيون أنهم يريدون إحياء السـنّة، وإعادة حكم العدل، وإرجاع الخلافة الحقّة بدل الملك. فكان أخيار الناس وصـــلحاؤهم يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة[3]. ولكن المثل الأعلى للمساواة والعدل ظل وهماً، إذ لم يحقق العباسيون وعودهم، فاستمر العسف والجور واستمرت الثورات[4].

يُعدّ هذا العصر عصر الثورة، وعصر النزاع، لم يكد يستسلم مقاليد الحكم إلى المنصور حتى ثار عليه، فتصـــدى له، وعظمت في عهد المهدي حركة الزندقة ببغداد والعراق، فاتخذ لهم ديواناً يتعقّبهم، فقتل أصحاب الزندقة وصلبهم نكالاً لغيرهم[5].

وفي عهد المهدي أغار الروم على سميطاط[6]، ونكلوا بأهلها، فجرّد إليهم جيشاً، وتوالى حتّى تعهدوا أن يؤدوا الجزية وهم صـاغرون[7]. ويُعدّ عصر هارون الرشيد، العصر الذهبي للخلافة العباســية، ولا تزال ذكراه حيّة في نفوس العرب حتى اليوم، وكانت أيامه تشـبّه بأيام العروس لما امتازت به من بهاء وجمال. لكن أيامه لم تخل من الفتن والثورات، ومنها أن إمبراطور بيزنطة امتنع عن أداء الجزية، وبعد حملة قوية ارتاع حاكمها وتعهد بأداء الجزية[8].

وعصر المامون من أزهى عصور الدولة العباسية، واستطاع أن يجرّ الناس إلى القول بأن القرآن مخلوق. وجعل المأمون من فكرة خلق القرآن[9] عقيدة رســمية للدولة. وقد حدثت ثورات كثيرة فقضى على رؤوس الفتن، وقد استكثر من الترك وآذوا العامة في بغداد فبنى لهم

---

[1]- أنظر: العصر العباسي الأوّل، عبد العزيز الدوري، ص٣٦.
[2]- العصر العباسي الأول، عبد العزيز الدوري، ص٣٧.
[3]- الفخري، ص١٠١.
[4]- العصر العباسي الأوّل، عبد العزيز الدوري، ص٣٨.
[5]- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص٣٥.
[6]- هي مدينة عربي الفرات في طرف بلاد الروم.
[7]- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبو يعقوب بن جعفر بن وهب ابو واهب اليعقوبي، طبعة ليدن، ١٨٨٣م، ج٣، ص١٣٥؛ والطبري، ج٦، (د.ت)، ص٣٧٩.
[8]- أنظر: العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ص٣٧.
[9]- هو فكر انتشر في عهد خليفة المأمون (٢١٨هـ - ٢٣٥هـ) من قبل المعتزلة، تفسّر أن القرآن مخلوق، وليس كلام الله عزّوجل، أي إزالة التقديس عنه واعتباره كلاماً قابلاً للتأويل والتحديث، والتفسير حسب مقتضيات العقل (موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، بإشراف الشيخ علوي، ومجموعة من المؤلفين، موقع الدرر السنية على الإنترنيت، ج١٠، ١٤٣٣هـ)

سامرّاء، وثار الزُّطُّ[1] بالبصرة فقضي على ثورتهم، وتتوالى انتصارات على بابك وشيعته، وشغب بعض الأعراب في الحجاز وقد قضى على شغبهم، وشغب بعد الأكراد فسحق شغبهم إلى سنة ٢٣٢ للهجرة[2]. ولأول مرة في تاريخ الإسلام ظهرت أكثر من دولة واحدة تحكم أراضيه، إذ انفصلت الأندلس ونشأت فيها دولة مستقلة عن العباسيين[3].

فمضت حياة الجاحظ في وسط مفحم بالأدب والعلم، ونال حظاً وافراً من ثقافة العصر، وتأدب فيه، وانعكست ظروف العصر على مؤلفاته، وقرأ الخلفاء كتبه، ونادى المأمون بالاعتزال أن يقاوم خصومه، وهو مذهب الجاحظ، ونال الجاحظ حرية الفكر في هذا العصر، معها تشجيع الخلفاء، حتى ألف ما ألف، واسمه تعلو في الآفاق.

٢. المحيط البيني للتوحيدي

عاش التوحيدي في القرن الرابع الهجري، في كنف الدولة البويهية، وهو يُعدّ قرن التناقضات، بسبب التدهور السياسي للخلافة العباسية. أعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة، ممّا جعل كثيرين منهم يثورون عليهم طوال العصر. وكانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، فنشب عداء شديد بين الفرس والعرب. فالعرب يريدون استرداد مجدهم، كما كان في العصر الأموي، والفرس يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة، ويمحقوا العرب محقاً[4]. وما مضى القرن الثالث الهجري حتى انقسمت الدولة العباسية العظيمة إلى دويلات صغيرة. وانتشر الفساد في المجتمع العباسي وساد فيه ألوان من السقوط الأخلاقي. هذا جانب واحد، ولكن في الوقت نفسه كان عصر الازدهار الفكري الثقافي[5]. فالتناقض المجتمعي الذي بدأ في عصر الجاحظ بلغ على ذروته في عصر التوحيدي.

وجدت هناك ألوان التفكير تدفع بمدارس فكرية وعقائد فلسفية واتجاهات مذهبية ومدارس كلامية. ولا بد أن يترك هذا الازدهار الثقافي بصمات واضحة على هذا العصر وعلى صاحب العصر. فإذا هي صورة حية لما أصابها على أيدي أعلام الثقافة العربية والإسلامية، فقد كانت الحواضر الإسلامية في العصر العباسي تغص بالعلماء وتزدان بالمفكرين والحكماء في كل مجالات العلوم. وفي هذا الجو المزدهر قضى أبو حيان حياته

---

[1]- في سنة ٢٠١هـ ثار الزّط في البطيحة بجنوب العراق، فقطعوا الطرقات ونهبوا الغلاّت. أحداث التاريخ الإسلامي، عبد السلام الترمانيني، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ج٢، ص١١٦٥.

[2]- تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت، ط٢، ج٧، ص٣٣١.

[3]- العصر العباسي الأوّل، عبد العزيز الدوري، ص٤١.

[4]- أنظر: العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط١٢، ٢٠٠١م، ص٩.

[5]- أنظر: نظرية الأخلاق والتصرف عند أبي حيان التوحيدي، د. وسيم إبراهيم، دار دمشق، ط١، ١٩٩٤م، ص٥.

الطويلة في بغداد، وعبّر عن ثقافتها الغنية وحضـــارتها الخصـــبة، ومجتمعها المزدهر أروع تعبير[1].

٢,١. المحيط الاجتماعي

كان الشـــعب في القرن الرابع الهجري يتألف من عدّة عناصـــر، هي العرب والفرس والمغاربة. وقد ظهر العنصر التركي على مسرح السياسة، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية، وصارت بغداد في يد الأتراك، وصارت فارس والرّي وأصبحان والجبل في أيدي بني بويه[2]، ولم يبق للخلافة العباسية إلاّ بغداد. وبغداد أيضاً كان يد الخلفاء العباسيين اسماً، وفي يد جبابرة الأتراك فعلاً. ولكن كانت المملكة الإسـلامية وطناً للمسـلمين جميعاً، يرحب بهم حيثما رحلوا، وكان العالم ينقسم عندهم إلى قسمين: دار إسلام ودار حرب[3]. ولئن عدّ هذا ضعفاً من الناحية السياسية، فإنه لا يعدّ ضعفاً من الناحية العلمية، فالمملكة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، كانت أعلى شـــاناً في العلم من القرون التي كانت قبلها. والثمار العلمية نضـــجت فيه، لأن الإمارات الإســـلامية المختلفة كانت تتبارى في تجميل موطنها بالعلماء والأدباء[4]. وفي هذا العصر نبتت فكرة جديدة ظلّ المسلمون يعتنقونها قروناً طويلةً، وهي أن من ملك مكة والمدينة، فهذا أحق الناس بالخلافة[5].

ومن مظاهر هذا العصـــر خلاف شـــديد بين الفقهاء بعضـــهم مع بعض، وبين السـنّيّة والشيعة حتى جروا البلاد إلى الخراب، وكانت الشافعية مشهوراً بالشغب، وكذلك الحنابلة ، إذا مرّ بهم الشـافعي يضـربونه بعصـيّهم حتى يكاد يموت. وبلاد كثيرة خربت بسـبب الخلاف في المذاهب، حتى جعل البلاد الإسـلامية ناراً مشـتعلة[6]. وكان من أكبر مظاهر هذا العصـر القول بســـدّ باب الاجتهاد، ففي أوائل القرن الرابع تجمّدت المذاهب، واقتصـــر فيها على المذاهب الأربعة، ولذلك أغلق باب الاجتهاد من هذا التاريخ، ورمي الإسلام بالجمود[7].

وكانت الحالة الاقتصادية على أسوأ ما يكون، فثروة الأمة ليست موزّعة توزيعاً عادلاً، ولا شـــبه عادل، أموال تتدفّق على الملوك والأمراء، ومن يلوذبهم؛ وفقر مدقع لباقي أفراد

---

[1]- أنظر: ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، د. طيبة صالح الشذر، مطبعة الأهرام التجارية، ١٩٨٩م، ص (ذ)

[2]- سلالة من الديلم، جنوب بحر الخزر، حكمت في غرب إيران والعراق واستمدوا اسمهم من أبي شجاع بويه، وخلع عليهم الخليفة العباسي ألقاب السلطنة (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[3]- أنظر: ظهر الإسلام، أحمد أمين، ج١، ص٢٦٥؛ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٦٥م، ج٣، ص٤٢٣.

[4]- أنظر. ظهر الإسلام، أحمد أمين، ج١، ص٢٦٦.

[5]- أنظر: المرجع السابق، ج١، ص٢٦٧.

[6]- المرجع السابق، ص٢٦٨.

[7]- أنظر. المرجع السابق، ج١، ص٢٦٩.

الشعب. ومن سوء الحالة الاقتصادية فشا في الناس أمران متناقضان: الأمر الأول التصوف، والأمر الثاني، الشطّار، كانوا يقطعون الطريق على الناس[1].

ومن الناحية الثقافية، فقد كان العصر متقدّماً حقاً، تمّ فيه امتزاج الثقافات. وقد انغمس العباسيون في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وشاعت كثرة المجالس، فكان بعض الأمراء والوزراء يعقدون مجالس يجري فيها الأدب والعلم وأحياناً الشراب، وأحياناً هما معاً. فكم من مجالس فيها شعر، وفيها قصص أدبية، وكذلك مجالس العلماء، وكثير من الكتب المؤلفة كانت نتيجة هذه المجالس[2]. وقد صوّر لنا أبوحيان التوحيدي مجالس العلماء، وموضوعات أبحاثهم، تارة أدبية وتارة لغوية وكثيراً ما تكون فلسفية.

ومن مظاهر هذا العصر فشو اللحن، وخصوصاً في البيوت حتى في الشوارع، لكثرة الجواري الأعجميات، وغلبة الأتراك على القصور، فانتشرت الياء في آخر الكلمات، فدعا بعض العلماء المتزمّتين إلى وضع كتب في ألحان العوام، كما فعل الحريري وغيره.

أسرف المسلمون في الطعام وتفننوا في ألوانه، وقد تأنقوا في إعداد المائدة وتزيينها بالورود والرياحين وألوان الطعام والشراب[3]. وكان من مظاهر النعمة الأغنياء السكنى في السراديب صيفاً، والثلج لشرب الماء البارد، كما استعملوا في البيوت المراوح المبلولة بالماء من الخيش، وكان هذا هو النظام المتّبع للتبريد في ذلك العصر. واتخذوا في بيوتهم الأماكن الواسعة توضع فيها الأرائك يجلسون عليها ليلاً بسماع الغناء والشراب وللحديث اللذيذ[4].

ووجدت بيوت النخّاسين يبيعون فيها القيان، وكثر شراء الرقيقات اللاتي أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن. وأحياناً تقام فيها حفلات الرقص والغناء[5]. وانتشر للتسلية ألعاب النَّرد والشطرنج، وكثرت الضرائب، وتنوّعت لمّا احتاج الخلفاء إلى المال، فضربوا الضرائب على المغنيات، وعلى الحوانيت وعلى السفن وغير ذلك. وكانت السباحة والمصارعة من أهم أنواع التسلية، فيسبح حتى ينضج اللحم[6]. واختلف المدن، وتنوّع نَمطُها إلى أربعة أنواع: من يغلب عليها الطابع اليوناني، ومدن يغلب عليها الطابع العربي، أو الطابع الفارسي، والطابع الروماني. وكل مدينة لابد أن يشوبها بعض من الأنماط الأخرى.

وقد حلّى الشعب عيشته بالأعياد الكثيرة تقام من حين إلي حين. ويحتفلون الأعياد في شيء من الأبهة والعظمة. وانتهزوا هذه الفرص ليتمتعوا بملاذ الحياة، ولم يقتصر على العيدَين، بل شمل الأعياد الفارسية القديمة، والأعياد نصرانية الأصل وغيرها. وفي هذه الأعياد

---

[1]- ظهر الإسلام، أحمد أمين، ص٢٧٠.
[2]- أنظر: المرجع السابق، أحمد أمين، ج١، ص٢٧٧.
[3]- تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، ص٤٣٩.
[4]- ظهر الإسلام، أحمد أمين، ص٢٧٩.
[5]- تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، ص٤٢٤.
[6]- تاريخ الخلفاء، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص٢٦٤ .

يكثر الهرج والملاهي واللعب والفرح والسـرور، ويحتفلون في البحر كما يحتفلون في البر[1]. ويعتقد أحمد أمين في ظهر الإسلام: "لولا هذه البيئة ما كان التصوف بهذا الشكل، ولا نبغت المقامات في الأدب، ولا غرق الأدب العربي في المديح، ولولا انتشار الشيعة في هذا الزمان ما كانت رسائل إخوان الصفاء، ولو لا هذه البيئة ما كان إخفاء الكنوز، ولا كثرة الصعلكة في جانب، والترف والنعيم في جانب آخر"[2]. فالمجتمع تغيّر مع مرور الزمن، وبزيادة الترف والمال رغب كثير من الناس إلى الألعاب، وشـغلوا إلى ألوان من أدوات العيش، وكذلك مال إلى العلم والأدب.

٢,٢. المحيط السياسي

عاش أبو حيان التوحيدي في عصـر تقهقر جلال الخلافة وجمالها، وتشـتت شـملها، وتفرق جمعها، وتفككت وحدة الإمبراطورية الإسلامية إلى فِرَق، وقوتها إلى ضعف. وفي هذه الأبيات يشعر أبو حيان الخطر الداهم الذي غفل عنه العباسيون أو تغافلوا:

أرى ناراً تُشَبُّ على يَفاع ... لها في كل ناحية شُعاع

وقد رقدت بنو العباس عنها ... وتامت وهي آمنة رتاع

كما رقدت أُميّةُ ثم هبت ... لتدفع حين ليس لها دفاع[3]

وفي عصـر المعتصـم دخل عنصـر جديد من الرقيق، اشـتهر لعصـره، وهو الرقيق التركي، التي توافد على بغداد والعراق، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها مما اضطره أن يبني لهم مدينة سامراء[4].

وكان الضعف السياسي بدأ منذ تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ، وزاد إذ قرّب الترك إليه، وآثرهم على الفرس الذين كانوا أكثرهم شيعة في المذهب[5]. ولم يكن يدور بخلده أن خدمه الأتراك الذين ناصـرهم على الفرس، هم الذين يطيحون به، وهم الذين يسـلبون سـلطانه، ولن

---

[1]- أنظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، ص٤٥٢-٤٥٤.

[2]- ظهر الإسلام، أحمد أمين، ص٢٨٩.

[3]- أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص٧.

[4]- أنظر في تخطيط سامراء والسبب في بنائها، كتاب البلدان، أحمد بن أبي يعقوب، المعرف باليعقوبي، مطبعة بريل، طبعة ليدن، ١٨٦٠م؛ ومعجم البلدان، ياقوت؛ وسامراء، في دائرة المعارف الإسلامية؛ وبلدان الخلافة الشرقية، تأليف، ستراتج وترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد.

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقي، طبعة المطبعة

[5]- الرحمانية، مصر، ١٩٢٢م، ص٢١٥.

يجد من الفرس من يؤازره أو يدفع عنه. وانتهى بهم الأمر إلى أن تآمروا مع ابنه المنتصر على قتله، وقتلوه سنة ٢٤٧هـ[١].

واشتد شر الأتراك، فقوادهم يساعدون الابن على أبيه والأخ على أخيه، فاستكثر الخلفاء والأولياء عهودهم مع هؤلاء الأتراك، ليتعززوا بهم، حتى شَرِقَت بهم بغداد، لكنهم خربوا أمن الدولة، وتلاعبوا سادات الخلفاء، وفي ذلك يقول ابن الطقطقي: "استولوا الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه[٢]".

في هذا العصر، ازداد نفوذ الأجناد من الترك، فزاد قوة عسكرية، وكانت سلطة الخلفاء قد تفاقم وازداد ضعفها، وتعسّف الترك بشئون الحكم والسياسة، فطعموا في الاستقلال بما تحت أيديهم من ولايات.

وقد تجلت الحركات الانفصالية منذ عهد الخليفة الراضي بالله، فهو آخر خليفة انفرد بالحكم، وهو كذلك أوّل خليفة انفلت السلطان من يده. ففي السنة الأولى من ولايته (٣٢٢هـ - ٩٣٤م) عظم أمر مرداويج بأصفهان، وقيل أنه كان يريد أن يستولي على بغداد، وينقل الدولة إلى الفرس، ويمحو دولة العرب، لكن غلمانه قتلوه. وفي أيامه غلبوا الأتراك سلطته، واستولى الأعاجم وأرباب السيف والأمراء على الدولة، وكفوا يد الخليفة وقدروا له يسيراً من المال[٣]. وفي عهده تمزقت الخلافة، وتشتت إلى دويلات، وإذاً فلم يبق للخليفة العباسي إلا بغداد وملحقاتها[٤]. والذي يلاحظ أن هؤلاء المنفصلين ليسوا من جنس واحد، بل هم من الفرس والترك ومن العرب.

في هذه الفترة ازدادت العداوة والبغضاء بين هذه الدويلات المنفصلة، فالحكام لم يتعاونوا على سد المغير من الروم، وضاعفت النكبة مضاعفة، لأن قويهم يطمع في ضعيفهم، وضعيفهم يحقد على قويهم، وزر البأس يتطلع إلى إضعاف ذي البأس[٥]. ولم يكن الأمن في الداخل مستقراً، ولم تكن الثورات تهدأ، فابن رائق يستولى على البصرة، ثم على دمشق.

---

[١]- الفخري في لأداب السلطانية، الطقطقي، ص٢٤٠

[٢]- المرجع السابق، ص١٨١.

[٣]- المرجع السابق، ص٢٥٤.

[٤]- أنظر. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، أبو علي أحمد بن محمد، بن يعقوب مسكويه، سروش، طهران، ط٢، ٢٠٠٠م، ج٥، ص٥٥٣ ؛ والكامل في التاريخ، عزّ الدين ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج٨، ص٢٤١؛ وتاريخ أبي الفداء، الملك المؤيد إسماعيل بن أبي الفداء، دار الطباعة المكيّة، مدينة باريز المحميّة، ١٨٣٧م، ج٢، ص٣٩٨؛وتجارب الأمم، مسكويه، ص٢٥٢.

[٥]- أنظر. أبوحيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص١٠.

والبريدي[1] يستولي على خورستان ثم على بغداد. والمرزبان يثور بالبصرة وابن بقية[2] يثور بواسط ٣٦٤هـ[3]، والبهبويون يزحفون على بغداد سنة ٣٤٤هـ والأتراك والديلم يتربص بعضهم ببعض، وأحياناً يتحاربون في دار الخلفاء نفسها، فينقسم سكانها ويحارب بعضهم بعضاً.

وفي القرن الرابع الهجري عاث القرامطة فساداً بالعراق والشام، وعبثوا بالحجاز، وحذا حذوهم الخوارج ودعاة الفتنة والثورات. وثار العيارون في بغداد مرات عديدة، لينالوا ما يحفظ حياتهم، وكان أبو حيان من ضحايا ثورتهم سنة ٣٦٣هـ إذ امتدت أيديهم إلى حي الذي سكن فيه أبوحيان، فنهبوا من منزله كل ما وجدوه من ذهب وملابس وأثاث، وقضت جاريته من الخوف[4].

وفي هذا القرن، انضم السنّة إلى سبكتكين التركي وانضم الشيعة إلى بختيار الديلمي، ونشب الحرب بينهما. وعجزت الحكومة وصارت العصبية بين السنّيّة والشيعة دائرة على أمور الدين والدنيا معاً، بعد أن كانت من قبل مقصورة على الدين وحده[5]. في هذا الزمن العصيب لم يسلم الخلفاء أنفسهم من الاعتداء على حياتهم، فكثيراً ما خُلعوا وحُبسوا، وكثيراً ما قُتلوا. فالأتراك تآمروا مع المنتصر مقتل أبيه المتوكل، وأكبر أمرائه الفتح بن خاقان، وولوه مكانه سنة ٣٤٧هـ[6].

فلما استولى البويهيون على بغداد تلاعبوا بالخلفاء كما كان يتلاعب الأتراك. في البداية أرسلوا الهدايا، ثم خلعوا بعضهم وقتلوا بعض. وقضى الطائع بمنصبه الاسمّي ثمانية عشر عاماً، وكان كسابقيه من سليب الحول والطول، ألعوبة في يد آل بويه، وانتهى أمره بأن قبض عليه بهاء الدولة البويهي وخلعه سنة ٣٨١هـ[7]. وخلفه ابن عمه القادر بالله ، وتزوج بنت بهاء الدولة البويهي، وفي عهدهم ظهرت دويلات كثيرة بالشرق والغرب، وبقي في الخلافة حتى مات سنة ٤٢٢هـ.

وفي القرن الرابع الهجري لم يكن خلفاء بني العباس رمزاً للخليفة فقط، بل كانوا رموزاً لا مهابة لها ولا جلال، فهم رموز للمنصب الديني، لكنهم محرومون من الحمية والتوقير والإجلال. وكان الأمر بيد المتغلبين والحاكمين، يصرّفون كما يشاؤون، غير مقيدين برعاية

---

[1]- هو أبو عبد الله البريدي، استولى معز الدولة والبريدي على الأهواز، ثم هرب البريدي خوفاً على نفسه من معز الدولة (نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، ص٥٠).

[2]- الملقب نصير الدولة، وزير عزالدولة بن بويه، من أعيان وزراء الدولة البويهة. خلع طاعة عضدالدولة وخالف عليه، وقبضه عضد الدولة وصلبه عام ٣٦٧هـ (ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م؛ الموسوعة العربية، ج٥، ص٢٢٣).

[3]- تجارب الأمم، مسكويه، ج٦، ص٣٤٤.

[4]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج٣، ص١٥١.

[5]- تجارب الأمم، مسكويه، ج٦، ص٣٢٨.

[6]- الآداب السلطانية، الطقطقي، ص٢١٥.

[7]- المرجع السابق، ص٢٦٠.

المصالح وتوخي العدالة، لذا تفشى الخراب والفساد. وانصرف الخلفاء منذ المقتدر (٢٩٥هـ - ٣٢٠هـ) عن الملك والسياسة، واستسلموا للشهوات، وأسلموا مقاليد شؤونهم لنساء القصر وغلمانه[١]. وهذا طبيعي أن يزيد خصوم الدولة في حالة الضعف المستسلم، وفي الافتراق والانتشار ، وطمع فيها، والهجوم على ملك متفرق الكلمة، مبعثر القوة، فأغار الروم على أطراف الدولة غارات عدة، في سنة ٣٠٣هـ، و٣١٤هـ، و٣١٥هـ، واستولوا على "مدينة ملطية[٢]"[٣]، وظهروا على المسلمين، وكان الحكام يشغلون بولاياتهم الخاصة، ثم استولى على جزيرة كريت سنة ٣٥٠هـ، وجزيرة قبرص ٣٥٥هـ، ثم فتحوا طرطوس، ثم حماة وحمص وأنطاكية، وأغاروا على الرها[٤] ودخلوا ديار بكر سنة ٣٦٢هـ، وقتلوا وسبوا وخربوا وانتهكوا الحرمات[٥]. وفي عام ٣٦٤هـ فتحوا بعلبك وبيروت، فافتدى أهل دمشق أنفسهم بغرامة يدفعونها للروم في كل عام[٦]. على أن هذا الانكماش في غرب المملكة الإسلامية كان يقابله في بعض الأحيان توسع في شرقها، فقد فتحت بلوخستان[٧] سنة ٣١٣هـ وأسلم من الترك مئات الألوف[٨].

٢,٣. المحيط الثقافي

كان عصر التوحيدي أحفل العصور الإسلامية برجال العلم، وكان أساتذته خير هؤلاء الرجال في كل فن من فنون الثقافة رغم ضعف الدولة العباسية سياسياً، لأن الحركات العلمية والأدبية لا تتمشى مع العصور السياسة مشى التلازم المحض، التي قد تجئ مفاجئة وقد تجئ على مهل وتدبير، لكن الحركة العلمية والأدبية فلابد لها من تمهيد طويل. فضعفت الدولة لكن النشاط العلمي والأدبي دأب في طريقه إلى غرضه، ولذلك أسباب:

أن الملوك والأمراء وجدوا الخير لهم في تقريب العلماء، وتشجيع الأدباء، سواء أكانوا يبتغون من ذلك محاكاة خلفاء بني العباس الأولين، أم يريدون أن يُضفُوا على ملكهم هالة من الأبهة والمجد وحسن الأحدوثة، أم يطمعون إلى أن يمدحهم الأدباء ليسير ذكرهم في الناس، أم يتخذون من العلماء والأدباء أعواناً لهم في شؤن الملك والسياسة[٩].

---

[١]- أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص١٣.

[٢]- تقع في تركيا، قريب من نهر الفرات، وكانت مركزاً هاماً للمسيحية (أكسفورد يونيورستي بريس، كارميك رابن، ٢٠٠٨م، ص٢٧٢؛ برتانيكا، ط١٥، ١٩٨٣م، ج٧، ص٥٢٦).

[٣]- تجارب الأمم، مسكويه، ج٥، ص٢٤٩.

[٤]- مدينة سريانية تاريخية في الجزيرة الفراتية، وتعرف حالياً باسم "اورفة" في تركيا (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[٥]- أنظر. أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص١٤.

[٦]- الكامل، ابن الأثير، ح٨، ص٤٥٤؛ وتجارب الأمم، مسكويه، ج٦، ص٣٨٦؛ والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين يوسف بن تغري الأتابكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ح٢، ص٤٣٥.

[٧]- أو "بلوشستان".الآن أقليم باكستان.

[٨]- تجارب الأمم، مسكويه، ح٦، ص٢٤٠، ٢٤٩.

[٩]- أنظر: أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص١٦.

وقد نجم عن ذلك أن صـــارت العواصـــيم تزخر بالكبار من رجال العلم والأدب، وأن صارت تتنافس بغداد وحلب وقرطبة والقاهرة وأصفهان، وشيراز وهمذان، ونيسابور وسمرقند والريّ. وفي هذا القرن تبين تشـجيع الولايات للعلم والأدب، واشـتهر آل بويه بالعلم والأدب، فكان عزالدولة بن المعز شـاعراً وكانا عضـد الدولة وابنه تاج الدولة أديبين. ويعرف عضـد الدولـة نـابغاً في عدة علوم. ويظهر ميل آل بويـه في اختيار وزرائهم والمقربين إليهم، فكان أكثرهم كتاباً أو شـعراء أو علماء، وكان نشـاطهم في تشـجيع العلماء والأدباء محموداً، وكانوا يغمرونهم بالعطايا، فبعض الأدباء شغلوا عن تاريخهم وسيرتهم في النثر والشعر[1].

وكان الغزنويون مشـغولين بالفتح لكن حروبهم لم تصـرفهم عن مناصـرة العلم والأدب، وكتب السـلطان محمود إلى أمير خوارزم أن يرسـل إليه من العلماء المبرزين، ليسـتفيد من علمهم، وهو الذي أشـار على فردوسـي[2] (٩٣٥م ــ ١٠٢٠م) أن يتم الشـاهنامة[3] التي بدأها الدقيقي[4] باقتراح نوح بن منصور الساماني[5].

أما بنو حمدان بالموصل وحلب فقد كانوا عربا خُلَّصاً وكانوا شعراء وأدباء. وكان سيف الدولة أمل الأدباء والعلماء في عصره. وقد ازدان قصره بالمتنبي[6] (قضى عنده تسع سنوات) وأبي فراس ابن عمه، والسرى الرّفاء، وأبي الفرج الببغاء، وابن الفرج الأصفهاني، والفارابي، وابن خالويه[7]. وأما الفاطميون فقد استقروا بالقاهرة، وجعلوا يناقسون بغداد في مظاهر الخلافة والأبهة، وفي الحفاوة بالعلماء والأدباء، وكانت عروبتهم الخالصـة مذكية لهذه الحفاوة. فالمعز أنشأ الأزهر ليكون مثابة لعلماء الشيعة، والعزيز أنشأ في قصره خزانة كتب. ثم بنى الحاكم دار الحكمة، واستكثر فيها من الكتب، وتأنق في تأسيسها وزخرفتها، وأباح للمترددين عليها أن يعقدوا مناظرات فيها، وأعد بها أقلاماً وأوراقاً ومحابر للذين ينقلون من كتبها، وهوالذي أنشـأ المرصـد الحاكمي على الجبل المقطم. وكان كثير من الخلفاء الفاطميين وأمرائهم أدباء، يتذوقون القول الرائع، ويكافئون عليه بالعطاء الجزل[8].

---

[1]- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك أبو منصور الثعالبي، شرح وتحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ط١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ج٢.

[2]- أكبرشاعر ملحمي فارسي، اشتهر بتأليف "الشاهنامة"، التي تتحدث عن أساطير الفرس قبل الإسلام، ووضع جلّها في شتم العرب وتحقيرهم وتمجيد الفرس وملوكهم (المكتبة الرقمية العالمية؛ زهلول عبر الإنترنيت).

[3]- (أو "كتاب الملوك" أو "ملحمة الملوك") ألفه فردوسي في القرن العاشر الميلادي، وهو يُعدّ الملحمة الوطنية لبلاد فارس. وهي مجموعة القصص الإيرانية القديمة، والحقائق والخرافات التاريخية (المثل السائر، ٤١١٢، دار نهضة مصر).

[4]-نظم ملحمة فارسية لتخلد ذلك التراث، معتمداً على شاهنامة أبي منصوري وغيره، لكنه قُتل قبل أن يتمّها عام ٣٦٨هـ (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[5]- أبوحيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص١٧.

[6]- أحمد بن الحسين بن الحسن ابو الطّيب المتنبي (ت ٣٩٣) شاعر عظيم من الكوفة في العصر العباسي (تاريخ بغداد، ١٠٢/٣).

[7]- يتيمة الدهر، الثعالبي، ج١.

[8]- أنظر أبوحيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص١٨.

وتمّ في القرن الرابع الهجري نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية. ومن أشهر النقلة: (ا) أبوبشر متّى بن يونس القنّائي[1] (المتوفى سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م[2])، و(ب) أبو زكريا يحي بن عدي المنطقي[3] (المتوفى حول سنة ٣٦٤هـ)، و(ج) أبو علي عيسى بن إسحاق بن زُرعة[4] (المتوفى سنة ٤٤٨ه)، و(د) أبو الخير بن الحسن بن الخمار[5] (ولد سنة ٣٣١هـ) وهو من تلاميذ يحي بن عدي. وقد اتصل التوحيدي بهؤلاء وبغيرهم.

ويعدّ هذا العصر، عصر الابتكار والتجديد، حين تلقف العلماء والأدباء الثروة العظيمة من علوم لغوية وشرعية ومترجمة التي خلفها لهم سابقوهم. وتبين عدة ظواهر في الحركة العلمية والأدبية:

- استكملت العلوم أسباب النضج والنماء، فيما دونوا في لغتهم أو ما نقلوا من اليونان والفرس والهنود.

- انتهى تطور النثر الفني إلى أسلوب خاص، إذ امتاز أكثر كتابه بافتنانهم في التعبير، وجنوحهم إلى الصناعة والسجع، واحتفاظهم باللفظ، وميلهم إلى التطويل، وإكثارهم من عبارات التفخيم والتعظيم والتهويل، وإيثارهم للخيال الشعري، واقتباسهم من الشعر واستشهادهم به، وظهرت القصص والمقامات، وكثرت المكتبات الخاصة والعامة، وازدهر المذهب الشيعي، لأن آل بويه في الشرق شيعة، ولأن الفاطميين في مصر أشد منهم تشيعاً، وشاعت في العالم الإسلامي مذاهب شتى مثل قدرية وشيعة وسنية وحنابلة وشافعية ومعتزلة.

وكثيراً ما تحدث الفتنة بين الحنابلة والشافعية[6]، أو بين الشيعة والسنية، فيتقاتلون بالسيوف ويكاد يفني بعضهم بعضاً. فنشأت الجماعات السرّية من أرباب التفكير والفلسفة، لأن علماء تلك المذاهب كانوا يخفون حقيقة مذهبهم، في بعض الأحيان، صيانة لأرواحهم من عدوان العامة أو تنكيل الحكام.

- ويظهر أن قيام دول غير عربية مثل بني بويه، والقرامطة، والغزنوية قد أرضى الأعاجم. وذهب ببعض تحاملهم على العرب، فخفت حدة الشعوبية.

---

[1]- فقد ولد في دير قنى، وتوفي ببغداد. نقل كثير من تصانيف ارسطوطاليس وثامسطيوس، والإسكندر الأفروديسي، وشرحها (ابن النديم، ص٣٦٨-٣٦٩؛ والقطفي، ص٣٢٣؛ وابن أبي أصيبعة، ج١، ص٢٣٥).

[2]- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري، مكتبة المنار، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٣٥.

قرأ على ابي بشر متي وعلى أبي نصر الفارابي. وله معرفة واسعة في علوم الحكمية في وقته، وإليه انتهت الرّئاسة، وكان

[3]- المعرفة، www.marefa.org(أوحد دهره ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية، وكان جيد المعلاقة في النقل (

[4]- (www.almarefa.org)كان حكيماً منطقياً كاملاً، وله رسالة في أن علم الحكمة أقوى الدواعي إلى متابعة الشرائع.

[5]- هو ابن دانا بن دهنام المعروف دابن الحمار، نصرانياً وعالماً بأصول صناعة الطب وفروعها. وكان حبيراً بالنقل، وقد نقل كتباً كثيراً من السرياني إلى العربي (www. Almarefa.org)

[6]- ورد إلى بغداد أبو القاسم البكري المعربي الواعظ وكان أشعري المذهب، فوعظ بالمدرسة النظامية، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم. فجرى بين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدت إلى الفتنة (الكامل في التاريخ؛ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

- ظهرت شخصية العواصم والمدن واضحة في نسبة علمائها وأدباءها إليها، كالأصفهاني (٢٨٤هـ - ٣٥٦هـ)، والرازي (٢٥٠هـ - ٣١١هـ)، والمروزي (٢٠٢هـ - ٢٩٤هـ)، والبخاري (١٩٤هـ - ٢٥٦هـ)، والقمّسي، والنيسابوري (٣٢١هـ - ٤٠٥هـ)، وقد كان الغالب في النسبة قبل ذلك أن تكون إلى الأصل أو الصناعة كالمازني (٢٤٩هـ ت) والفراء (١٤٤هـ - ٢٠٧هـ) والزجاج (٢٤١هـ - ٣١١هـ).

- وكانت اللغة العربية هي لغة الأدب والحكومة في القرن الرابع الهجري، فأكثر الفرس يتكلمون بها، ويؤلفون وينشئون، ودواوين الحكومة تصطنعها لغتها الرسمية.

- وقد خلقت هذه العواصم المستحدثة بغداد في أنها صارت مثابة للأدباء والعلماء. ذلك أنهم كانوا اعتادوا في العصر الذهبي للدولة العباسية أن يؤموا بغداد، ليعرضوا علمهم وأدبهم، لينالوا ما يريدون من غنم مادي ومعنوي. فصاروا يؤمون العواصم الجديدة، وإن كانوا من بغداد نفسها، كما فعل أبوحيان.

- وحَسبُ القرن الرابع أن يتألق في سمائه عشرات من كبار الكتاب، وعشرات من العلماء والفلاسفة، من أمثال الخوارزمي (١٦٤هـ - ٢٣٥هـ) ، والصابي، وبديع الزمان الهمذاني (ت ٢١٠هـ)، وابن عباد (٤٣١هـ - ٤٨٨هـ)، وابن العميد (ت ٣٦٧هـ)، والشريف الرضي (٣٥٩هـ - ٤٠٦هـ)، والأصفهاني (٢٨٤هـ - ٣٥٦هـ)، والجرجاني (ت ٤٧١هـ). ومن الفلاسفة والعلماء مثل ابن مسكويه (٣٣٠هـ - ٤٢١هـ)، والفارابي (٢٦٠هـ - ٣٣٩هـ)، وابن سينا (٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ)، والأنباري (٢٧١هـ - ٣٠٤هـ)، والآمدي (ت ٣٧٠هـ)، والباقلاني (٣٢٨هـ - ٤٠٢هـ)، والرازي (٢٥٠هـ - ٣١١هـ)، وابن حزم (٣٨٤هـ - ٤٥٦هـ)، وابن شهيد (٣٨٢هـ - ٤٢٦هـ)، والعسكري (٢٣٢هـ - ٢٦٠هـ)، والحاتمي (٣١٠هـ - ٣٨٨هـ)، والمرزباني (٢٩٧هـ - ٣٨٤هـ)، والثعالبي (٣٥٠هـ - ٤٢٩هـ).

فالعصر العباسي عامّة والقرنان الثالث والرابع خاصة، عصر الحركة العلمية والأدبية رغم ضعف الدولة سياسياً في هذين القرنين. وتأثير هذه الحركة قرعت على أبواب الحكام، فاشتهر آل بويه في عدة فنون العلم والأدب، فخرج فيهم شعراء وأدباء وعلماء وكتاب العصر، وكذلك بنو حمدان. فهذا العصر عصر التطور والتقدم من حيث الفن، ومن الجانب الثاني عصر الجمود من حيث المذاهب الفقيهة.

الفصل الثاني: سيرة الجاحظ والتوحيدي ومكوّناتهما النفسية والاجتماعية والثقافية

المبحث الأول: سيرة الجاحظ ومكوناته النفسية والاجتماعية والثقافية

١,١. سيرة الجاحظ

عدّ القرن الثالث الهجري عصر وضع القواعد في فنون البيان المختلفة، والجاحظ من أوائل المهتمين بالخطابة والنثر، إذ كان إماماً اقتدى البلاغيون والنقاد به، وساروا على خطاه، ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: "وكان الجاحظ درّة ثمينة في جبين العربية والإنسانية، عالماً في كلّ فن. آخذ من كل علم بطرف بل أطراف، ثقّف نفسه ثقافة واسعة هيأت أسباب المجد في حياته ومكنته من تأليف نفائس الكتب التي كتبت له، ولها الخلود بعد مماته"[١].

وقال عنه الدكتور عز الدين إسماعيل: "ولم يكن الجاحظ رجلاً عادياً من عامة الناس الذين يطمحون إلى تثقيف أنفسهم عن طريق الاستماع والمناقشة وحسب، أو عالماً يسعى إلى تحصيل جانب واحد من العلم، كأن يكون مطلبه علم الكلام أو اللغة أو البلاغة، بل كان يتميز بمقدرة عقلية تستوعب كل شئ وكما كان يتميز بنهم شديد لكل أنواع العلم والمعرفة في عصره"[٢].

وقال أبو القاسم البلخي: "الجاحظ كناني من أهل البصرة، وكان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره، وعلا قدره، واستغنى عن الوصف"[٣].

وقال ثابت بن قرة المترجم: ما أحسد هذه الأمة الأ على ثلاثة أنفس. أوّلهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه والثاني الحسن البصري، والثالث أبو عثمان الجاحظ"[٤].

إنّ الجاحظ لا يظل الكاتب الإنساني للعرب أو للمسلمين فحسب، ولكن في وسعنا أن نزعم أنه أسهم أيضاً في تكوين هؤلاء. فلعله أعطى بعض الأبعاد الجديدة للكثير من قضاياهم

---

[١]- مناهج التأليف، د. مصطفى الشكعة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤م، ص١٦١.

[٢]- المصادر الأدبية واللغوية، د. عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٥م، ص١٣٧-٨.

[٣]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط مصر، ٧٤/١٦.

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، ط٢، مطبعة هندية، القاهرة، ج٦، ص٧٩-٧٠؛ تاريخ الإسلام السياسي ---

[٤]- والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٦٥م، ج٣، ص٣٧١.

الأخلاقية، حتى أننا لنجرؤ فنقول: "إنه أفاض من سخريته وذكائه عليهم شيئاً ربطهم به – دون أن يشعروا – إلى الأبد[1].

وبدأ الجاحظ حياته في عصر "تضخمت فيه الأنانية واستبدل بالايثار أثرة. وكان الناس يعزفون عما يعوق حركتهم إلى أمام، ويختارون أقصـــر الطرق مهما تكن طبيعتها، ذلك أن المهم هو: خذ ما تستطيع برغم من لا يستطيع!"[2].

ومهما يكن من شئ فإن الجاحظ الذي كان الخلفاء **يتمنون الاتصال به**، مدين لهم ولمن دونهم بكل ما بدر منهم في حالات صـــفوهم وحالات كدرهم وعلى شـــتى الظروف، فإذا كان علينا أن نوفي – بدلا منه – حقهم من التقدير، فلا بد أن نرجع القهقري نحو قرن تقريباً نهايته عام ٢٥٥هـ[3].

ولادته واسمه

ولد الجاحظ حول العام التاسع والخمسين بعد المائة (١٥٩هـــ)، وروى ياقوت أنه ولد سنة ١٥٠هـــ مستنداً إلى خبر منسوب للجاحظ نفسه جاء فيه قوله: "أنا أسنُّ من أبي نواس بســـنة، وُلدت في أوّل ســـنة خمســـين ومئة ووُلد في آخرها"[4]، وجعل بعض المؤرخين ولادة الجاحظ سنة ١٥٥هـ[5]، و١٥٩هـ[6]، و١٦٠هـ[7]، و١٦٣هـ[8]، ١٦٥هـ[9]. في البصرة التي وصلت

---

[1]- الجاحظ د. أحمد كمال زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، فبراير ١٩٦٧م، ص٥.

[2]- المرجع نفسه، ص٦.

[3]- المرجع نفسه، ص٧-٨.

[4]- إرشاد الأريب، ياقوت، ص٥٦؛ أدب الجاحظ ، السندوبي؛ عيون الأخبار، الكتبي، ١٥٣، ب؛ تاريخ الأدب العربية، كارل بروكلمان، دار المعارف، ط٥؛ الجاحظ، شارل بلا، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م، ص ٩١

[5]- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ابن الجوزي، تحقيق: جنان جليل محمد الهموندي، وزارة الثقافة بغداد، العراق، ١٩٩٠م، ص ١٨٥

[6]- يشمل هؤلاء الذين تعمدوا جعل وفاة الجاحظ سنة ٢٥٠هـ في السادسة والتسعين من عمره.

[7]- الجاحظ معلم العقل والأدب، شفيق جبري، دار البشائر للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص ٤١.

[8]- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

[9]- الوافي بالوفيات، الصفدي، محقق: أحمد أرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ج٢٩، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، كما رواه أسين بلاسيوس،ص ٣٣٣.

إلى أوج ازدهارها، وانتمى إلى بني كنانة بن خزيمة[1]، وكان فزارة جد الجاحظ عبداً أسـود، وكان جمَّالاً لعمرو بن قِلع الكناني[2].

هو أبو عثمان[3]، عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة، وأبوه كان مولى زنجيا لأبي القلمس الكناني الفقيمي، وعمل جمالا لواحد من سادة العرب اسمه عمرو بن قلع[4]. وقد أطلق عليه لقب الجاحظ بسبب نتوء حدقتيه مما جعله دميماً، وربما لقّب بـ "الحَدَقي" وهو أقل ذيوعاً من الأول. ولا نعرف متى لقّب بهذين اللقبين، لكنه كان غير راضٍ عن هذا في شبابه وحتى في شيخوخته. ويريد أن يعرف باسم "عمرو" أو بكنيته "أبي عثمان" الذي كان فخوراً به[5]. وقد ألف رسالة وسمّا نفسه بـ"عمرو[6]"، وفي رسالة أخرى كناه بـ"أبي عثمان"[7]. ويُدعى الجاحظ في كتبه "أبا عثمان" أو"عمرو بن بحر" لكن في شيخوخته اختار اسم الجاحظ[8]. وأيضاً لقب بـ"حدقي"، والجاحظ والحدقي لقبان يبدو فيه قبح الصورة لكن فيما بعد أصبح له عنوان شرف في مهنة الأدب.

شكله

كان قصير القامة[9]، صغير الرأس، دقيق العنق، صغير الأذن[10]. وتظهر قبحه في صفتين أساسيتين، هما: السمرة الشديدة، والجحوظ في العينين[11].

---

[1]- يرجع تاريخ بعداد ١٤: ٣٥٨-٣٦٠، معجم الأدباء ٦٠٥٦، وحرص الدكتور طه الحاجري على ألا يرفض أية رواية عن ام ميلاده (الجاحظ حياته وآثاره٨٩ط. المعارف سنة ١٩٦٣م) في حين أصر شارل بلا على أن يكون ميلاده في عام ١٦٠هـ (الجاحظ في البصرة وبغداد ٩٢ط دار اليقظة العربية، سنة ١٩٦١م). وبخصوص عروبته تتشابك الأراء في دعاوي مختلفة تسلم كنانيته من الخلاف فيها، فقد يكون كنانيا صليبة وليس في هذا شئ، وقد يكون كذلك بالولاء على ما يرويه يموت ابن - المزرع ابن بنت أخت الجاحظ نفسه فيما بعد، وهنا ينبغي أن نسلم بأن من العرب الأقحاح من كان مولى للعرب الأقحاح أيضاً في الجاهلية.

[2]- الجاحظ، د. شارل بلا، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ص٩٤.

[3]- تاريخ بعداد، الخطيب البغدادي، القاهرة، ١٩٣١م، ج١٢، ص٤١٤؛ تاريخ دمشق، ابن العساكر، (ترجمة الجاحظ التي نشرها كرنكو في مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٢٩م، ج٩، ص٤٠٦؛ إرشاد الأريب في معرفة الأديب، ياقوت، لندن،ج٦، ص٥٦.

[4]- الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، ص١٢.

[5]- الجاحظ شارل بلا، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ص٩٩.

[6]- كان الجاحظ يستشهد كثيراً بمن سمّي عمْراً من المشهورين، أدب الجاحظ السندوبي، ص١٥ -١٦.

[7]- لغة العرب، ج٨، ٥٧٢-٥٧٥؛ مجلة الأبحاث الاستشراقية، روما، ليفي ديلافيدا، ج١٢، ص٤٤٥- ٤٥١.

[8]- البخلاء، الجاحظ ط١٩٥، ١٩٤٨م.

[9]- رسالة الجد والهزل، الجاحظ، ص٨٨.

[10]- رسالة التربيع والتدوير، طبعة فان فلوتن، ص١٠٦.

[11]- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٢، ص١٠٨؛ مرآة، ابن الجوزي، ج٦، ص١٨٦.

مولده

كان الجاحظ بصريّ الأصل والمنشأ، وكانت للبصرة من خصائص ومميّزات تفردها عن الأمصار الأخرى وخاصة شقيقتها الكوفة. فقد كوّنته البصرة وصوّرته وكيّفته حتى عدّ أكبر ممثّل وأصدق مرآة لشخصية المصر العراقي العظيم في القرن الثالث الهجرة. ولئن لم يستقر الجاحظ طوال حياته في مسقط رأسه فقد رحل إلى بغداد حيث ألّف عدداً مدهشاً من الكتب، وحرّر كميةً لا تكاد تحصى من الرسائل، وقد عثر على الكثير منها فطبع ونشر وتدوول[1].

أسرته وطفولته

نشأ في البصرة نشأة متواضعة في أسرة رقيقة الحال، وجاورت أسر الموالي في هذا الحي الفقير من أحياء البصرة. وكان يحث خطاه إلى الشهرة، دون أن تكون هناك خطة معينة لتنشئته. "وليس لدينا معلومات عن طفولته كما لا نعلم شيئاً عن أهله وإخوته وأخواته، ثم إن مترجمي الجاحظ لم يقولوا لنا شيئاً عن الظروف التي أتمّ الجاحظ فيها دروسه الأولية"[2]. ويزعم الرواة أنه نشأ يبيع الخبز والسمك بسيحان[3] أحد أنهار بلدته. ونستطيع أن نفترض أن أهله لم يكونوا ميسورين، من المكان، والحي الذي يسكن فيه، وعن أوّل مهنة التي اتخذ في حياته. وكان الجاحظ دائماً يتحدث عن أبيه بحر الكناني الذي ودع الدنيا ولم يزل في ريعان الشباب وخلف أمه تعيش به على دخل هين[4].

وفي مرحلة مبكرة من حياته تبدو الظروف كلها متعاقدة، ويوجه سخطه إلى هؤلاء الناعمين في قصور بغداد ودور البصرة الكبيرة، لكنه فيما يبدو كان يقبل كل أمر بيسر، أو لعله راض نفسه على ذلك، بل ربما هون على نفسه بضحكة ما. وستكبر هذه الضحكة مع الأيام، لا لتصبح مجرد قهقه عالية، وإنما لكي تكون دنيا كاملة من السخرية والسحر والمرارة[5].

---

[1]- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دارالفكر، دمشق،ط١، ١٩٨٥م، ص٣٧٥

[2]- المرجع نفسه، ص١٠٣.

[3]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٦، ص٧٣.

[4]- الجاحظ، د أحمد كمال زكي، ص٩.

[5]- المرجع نفسه، ص١٥.

أمه

مكث الجاحظ حياته الابتدائية في سكة المربد، بمدينة البصرة القديمة، وكان بعيداً عن اللهو ما لايتناسب مع سنه الغضة، وفي يده لوح وبعض أوراق. وهذا شأن والدته التي أعطته قلماً ولوحاً في أيام الصبا.

كانت أمه ترغبه إلى القراءة والكتابة وكانت تقول له: يا ولدي – أنت عربي صريح النسب كريم الأصل، ولن أدعك حتى تأخذ بآداب قومي وجيرتي[1]. فربّته بإحساس مليء بتفخّر جنسيته، ومع هذه ترغب رغبة شديدة أن يحصل ابنها العلوم والآداب لعصره. وعندما تسمع أسماء الشيوخ الجامع من أمثال: "الخليل بن أحمد" (١٠٠هـ - ١٧٣هـ) و"ثمامة بن أشرس"(ت ٢٢٥هـ) و"أبي الهذيل العلاف" (١٣٥هـ - ٢٣٥هـ) و"الأصمعي" (١٢١هـ - ٢١٦هـ) و"أبي عبيدة" كانت تهز كتفيها وتقول له: سينفعونك يا بني، ولكن هل تستطيع أن تصل إليهم؟ أرجو ذلك بشرط ألا نبيع بقية ما خلفه لنا أبوك[2]. فهي شائقة أن يرفع شأن ابنها بعلم، ولكنها كانت خائفة ألا يسرف كل مبلغ المال. ولما تعرف أن العلماء يثنون له، فتقول: "إن كنت تظفر منهم بطائل: فأنت مشكور يا عمرو، وهم مشكورون"[3].

وفي حداثته كان مشغولاً باكتساب العلم، لكن أمه، فيما يبدو، ساءها ذلك، فقد حدث أنه طلب منها الطعام، فجاءت إليه تحمل طبقاً فوقه عدة أوراق وكراسات، ولما سألها: "ما هذا يا أماه؟ فأجابت: "هذا الذي تجيء به كل يوم! فخرج مغتماً إلى المسجد الجامع، ولقي مويس بن عمران، وقصّ له ما حدث به في بيته، فصحبه إلى بيته، وأطعمه، وأعطاه بكيس فيه خمسون ديناراً. فاشترى الدقيق والزبيب والزيت والتمر، ورجع مع حمالين بمئونة كبيرة. ولما رأت أمها صاحت قائلة: "من أين لك هذا"؟ قال: من الكراريس التي قدمتها إليّ!"[4].

فالجاحظ، يعرف أهمية المال في سنوات مبكرة من عمره، لأن أمه تربط دائماً بين العقل والدرهم، بل "لا بد أن يكون حديث الناس عن البخل والجود صدى لهذه الرغبة التي أفصح عنها معلم الكتاب الجشع. - المال هو كل شئ"[5].

---

[1]- الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، ص١٢.

[2]- المرجع نفسه، ص١٤.

[3]- المرجع نفسه، ص١٤.

[4]- ذكر المعتزلة، أحمد بن يحي المرتضى من كتاب المنة والأمل في شرح كتاب الملل ، ص٣٨٠؛ الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، ص٢٠-٢١؛ الجاحظ، شارل بلا، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ص١١٠.

[5]- الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، ص١٨.

الجاحظ في رحاب العلم والعلماء

الجاحظ كان مولعاً للعلم، ذهب إلى الكتّاب[1] في حيّه، حي بني كنانة، وفيه اتصل أوّل مرة بالمعلمين. ثم أخذ الألواح والقلم ودخل في حلقة من حلقات شيوخ عصره، يستمع ويفهم الشئ الكثير، ويحضر مناقشة بين الأصمعي وأبي عبيدة. وأبو عمران مويس بن عمران يثني عليه دائما. وأعطاه كتباً في أخبار العرب ومنازلهم ومنافراتهم وأنسابهم، فكان يحفظ منها وينقل بعضها إلى كراريس، فارتفعه في المستوى، ونجاه من عيب معاصريه ذوي الاختصاص الضيق.

وبمرور الأيام اقتبس الجاحظ نور العلم، وراح يضرب في صنوف الكلام، حتى جاء يوم قال عنه أبو عبيدة، للأصمعي: "إنه يتكلم كما يتكلم الرجال، وأحسب ما قاله خاله أبوالهذيل صحيحا؛ حفظ القرآن والتوراة ويحفظ الإنجيل والزبور"[2]. ودرس الحديث على أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، ويزيد بن هارون، والسري بن عبدويه، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة، وأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش، وكان غلام[3] إبراهيم بن سيّار النظّام وعنه ومنه تعلّم"[4].

فالجاحظ الذي كان يبيع الخبز والسمك بـ سيحان أنهار في بداية شبابه، وصل إلى أنهار ثقافة عصره بعد قليل، ففي المربد يسمع من الأعراب الفصحاء، ووصل إلى الصحراء ليسمع من الأعراب مشافهة ما لم يسمعه قط، ويتردد إلى حلقات العلماء في المسجد الجامع، ويأخذ عن علماء اللغة وغيرهم، ويجلس في حلقة المتكلمين، ويشتاق إلى ما ترجم من الثقافات الأجنبية، ويروي صاحب الفهرست "أنه يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر"[5]. وإن الجاحظ مدين – باستثناء مطالعاته - بثقافته العربية إلى أساتيذه البصريين[6]. والمظنون أنه قرأ كتب الفلسفة اليونانية المنقولة إلى العربية ببغداد أيام المأمون، كما أتيح هناك الاطلاع على كتب فارسية وهندية. ويقول المبرد: "ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ"، وكلاهما يستشهدان بالشعر. وكان الجاحظ متأثراً بكتابات عصره وخاصة كتابات سهل بن هارون الذي كان يشغف به، وفي نهاية القرن الثاني، استوت له شهرة فائقة بين كتّاب عصره، حتى طلب إليه المأمون أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها، وقيل أنه أقيم على ديوان الرسائل، لكنه ترك هذا المنصب بعد ثلاثة أيام فقط، كأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل[7].

---

[1]- الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص٥.
[2]- الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، ص٢٦.
[3]- كلمة غلام بمعنى المريد.
[4]- مروج الذهب، المسعودي، ج٧، ص٣٥.
[5]- الفهرست، ابن النديم، ص١١٦٩؛ وانظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي.
[6]- الجاحظ، شارل بلا، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ص١١٦.
[7]- أنظر الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، ط ١٣، دار المعارف، ص١٥٧.

ميله إلى الحيوان

الجاحظ، جاحظ العينين ينظر الدنيا وما فيها من زاوية خاصة، ويسمع بالسكوت، كان يراقب ويدقق ويطيل السمع إلى أصوات الناس والحيوان، ولما يسمع صوتاً أو حركة أو أقبل على حشرة يقلبها، وينخسها في بطنها بمسمار، ويجري وراء الكلاب، ويلاحظ أكثر من مرة ثعباناً يطل برأسه من إحدى فجوات الجدار، فيعرف أنه يطلب الجرذ والفراشات والضفادع والبراغيث، ويحب أن يرتادها كلما ترك لوحه وورقه[1]. ويظهر أن محبته الأولى إلى العلم، والثانية إلى الحيوان. وهو أوّل واضع لكتاب عربي جامع في علم الحيوان.

مهنته

والجاحظ لم يزاول أية مهنة بصورة منتظمة، وأنّ الجوائز التي نالها من كتبه كانت تكفي عيشه[2]. وعندما سئل الجاحظ: "ألك بالبصرة ضيعة؟ فأجاب: إنما أنا وجارية، وجارية تخدمها وخادم وحمار، وأهديت كتاب "البيان والتبيين" إلى داؤد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب "الزرع والنخل" إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد"[3]. ونال المبالغ الضخمة من ابن الزيّات، مساحتها أربع مئة جريب[4]، ثم إنه أفاد زمن المتوكل من راتب منتظم كما تدلّ على ذلك رسالة للفتح بن خاقان[5].

علاقته مع الخلفاء

ليس الجاحظ شاعراً فحسب ولكنه كان ناثراً وكاتباً رسمياً واكتفى بالاختلاط بالحاشية وقبول الجوائز المتباعدة. وليس لدينا سوى خبرين عن علاقته مع الخلفاء: الأوّل جرى زمن المأمون، والثاني زمن الخليفة المتوكل، هذا باستثناء استدعائه إلى سامراء في آخر حياته. وطلبه المأمون إليه أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها، ويقال إنه أقيم على ديوان الرسائل غير أنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام[6]. ودخل عليه رسول من عند المتوكل يستدعيه

---

[1]- الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص١٦-١٧.
[2]- الجاحظ، دائرة المعارف الإسلامية (ب ت)
[3]- إرشاد الأريب، ياقوت، ج٦، ص٧٥-٧٦.
[4]- الجريب مكيال قدر عشرة آلاف ذراع، وجريب الطعام اربعة أقفزة.
[5]- الجاحظ، شارل بلا، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ص٣٦٢.
[6]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٦، ص٧٩.

شـوقاً إلى حديثه، قال بأسـف: "وما يصـنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل، ذي شـق مائل ولعاب سائل"[1].

وقد كسب الجاحظ صداقة الوزراء وبعض الكبراء، وكان أوّل من صادقه منهم الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات وكان له تأثير كبير على وليّ نعمته. واشـتعلت العداوة بين ابن الزيات وأحمد بن أبي داؤد والتزم الجاحظ جانب ابن الزيات، فلما قبض عليه وأودع في التنّور، فرَّ الجاحظ هارباً خوفاً من أن يناله نفس عقابه، ولما قبض عليه وقُدّم إلى ابن أبي دؤاد عدوّ ابن الزيات لقيه لقاء جافاً فاعترضـه قائلا: "خفِّض عليك – أيدك الله! (..) وإن تعفو عني في حال قدرتك أجملُ بك من الانتقام مني، فعفا عنه[2]".

مؤلفاته

يمتاز الجاحظ بمؤلفاته، التي "تعلّم العقل أوّلاً والأدب ثانياً". إنه لم يترك موضوعاً عاماً إلا كتب فيه، وعدد مؤلفاته في كتاب مرآة الزمان لسبط الجوزي أكثر من ثلاثمائة وستين كتاباً وهو بذلك يكون أوفر المولّفين المسـلمين عدد كتب. وهذا يدلّ على أنه خطا خطوة جديدة بالكتابة الفنية. وقد ألّف في النبات والشجر وفي الحيوان والإنسان، وفي المعاد والمعاش، وفي الجدّ والهزل، وفي الترك والسـودان، وفي المعلمين والقيان، وفي الجواري والغلمان، وفي العشق والنساء، وفي النبيذ، وفي الشيعة، وفي العباسية، وفي الزيدية، وفي الرافضة، وفي الردّ على النصارى، وفي حجج النبوّة، ونظم القرآن وفي البيان والتبيين، وفي حيَل لصوص النهار وحيَل السراق الليل، وفي البخلاء واحتجاج الأشحّاء[3]. وعبّر عن جميع الموضوعات في خلابة وبيان عذب. وكتبه ليست كلها مجرّد تصنيف، ولكنّها في أكثرها ابتكار وخلق وإبداع في علوم الدنيا بين أساتذة العربية وعلماء الإسلام[4]. وثابت بن قرّة قال: "وكتبه رياضٌ زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلا رشـاه آنفا، (..) جمع بين اللسـان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره، وفشـت حكمته، وظهرت خلّته (..) لقد أوتي الحكمة وفصـل الخطاب"[5].

---

[1]- الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، ص١٦٨.
[2]- أمالي المرتضى، ج١، ص٩٥؛ معجم الأدباء، ياقوت الحموي،
[3]- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط١٣، ص١٦٠-٦١.
[4]- الجواحظ في الأدب العربي، د. خضر موسى محمد محمود، عالم الكتب،بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٧.
[5]- معجم الأدباء، ياقوت، ج١٦، ص٩٦.

وفاته

في آخر حياته لم يخرج الجاحظ إلى الناس، لزم بيته، وتمّم تصـــانيفه. وقد أصـــيب بالنقرس والشلل. ويروون أن طبيباً عاده فقال له: "اصطلحت الأضداد على جسدي، إن أكلت بارداً أخذ برجلي وإن أكلت حاراً أخذ برأسي"[1]. وأخيراً وبعد مرض قاس طويل انهالت الكتب على الجاحظ يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضـــت عليه[2]، وهكذا ذهب الجاحظ ضـــحية آثر الأصدقاء وأعزهم لديه[3].

الجاحظ صـــحب الدنيا طويلا، وتقلبت عليه عينه، ومضـــت حياته الطفولة في الحيّ الفقير، بعيداً من قصور الناعمين، وفي حالة البؤس والشقاء، عرف أهمية المال، لكن مال إلى العلم والأدب، وكان يبيع الخبز والسمك بـــ"سيحان أنهار"، ووصل إلى أنهار ثقافة عصره، وكان يكتري دكاكين الوراقين، إلى أن طُلب إلى الخليفة المأمون ليكتب له الرسالة في العباسية، فيظهر أنه مارس ألوان الحياة ممارســـة، فهم العميق للحياة، ومعرفة دقيقة للناس. وخرج من بحر المعرفة وكان نظره نظرة جادة صـــارمة، وهو رجل مرح ضـــاحك منطلق النفس، يحب الحياة، واستمتع بها، ويرتاح بسخريتها أيضاً.

١,٢. المكونات النفسية للجاحظ

تتكون شـــخصـــية الإنســـان من الصـــفات الجســـدية والنفســـية، والعادات والتقاليد والقيم والعواطف متفاعلة من خلال التعامل في الحياة الاجتماعية. وهذه الشـــخصـــية تتطوّر مع تقدّم الإنسان في السنّ ومع معاشرة الناس.

١. العنصر الجسمي

كان الجاحظ كما ورد في تراجمه دميم الوجه، جاحظ العينين كأنهما بطن حوت مبقور[4] و أنف أفطس[5] يطغي معظم وجهه وصـغر أذنيه، لكنه لراض بهذا الوجه القبيح، وبقصـر قامته شاكر إلى الله.

---

[1]- أمالي المرتضى، ج١، ص١٩٩.

[2]- أنظر: تاريخ أبي الفدا في سنة ٢٥٥ هـ؛ شذرات الذهب، ابن العماد، نشر مكتبة القدسي، ج٢، ص١٢٢.

[3]- الحيوان، الجاحظ، ج١، ص٣٨.

[4]- حوت بحري يشبه بقرة، كأن عينيه تشبه بطن حوت التي تشبه البقرة.

[5]- منخفض قصبة الأنف.

هو قصير القامة لكن عزمه عالي، يسكن في سكة المربد، وفي يده أوراق ولوح، وفي قلبه رغبة لتحصيل العلم من الأساتذة الكبار. ويقترب من حلقات الشيوخ ويجد لذة كبيرة.

قال شاعر العصر العباسي الحمدوي في بشاعته:

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو العمى في عين كل ملاحظ

ولو أنّ مرآة جلت تمثاله ورآه كان له كأعظم واعظ[1]

واعترف الجاحظ بقبح خَلْقه، فقال: "ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري، فأمرلي بعشرة آلاف درهم وصرفني"[2].

لقد أثّر قبح الجاحظ في تفكيره فأرهف حسه الجمالي ودفعه إلى النقد الذي يتلمس مواضع الحس ليجلوها ويقرظها، ويتبين مواضع القبح ليهزأ بها ويتهكم. والمرء عندما يجد في نفسه عيباً يريد أن يستتر هذا العيب عن أعين الناس، وإذا كان غير ممكن يعريه هذا العيب والهزء به يسبق الناس إلى السخرية، وليقطع عليهم طريقها. وآثر الجاحظ الثاني، فينكت على بشاعته، ويضحك قبل أن يضحك الناس عليه.

ثمة أخرى من ناحية جسمية التي تركت آثارها على الجاحظ، هي المرض. انتابه علتان، هما الفالج، الذي شلّ نصفه الأيسر والنقرس، الذي انتاب نصفه الأيمن. أما الفالج فكان لا يشعر معه بشئ حتى ولو قرض بالمقاريض بسبب خدره وبرده، وأما النِقرس فيطليه بالصندل والكافور لشدة حرارته. طلبه الخليفة المتوكل في السنة التي قتل فيها، فقال لمن أراد حمله من البصرة إلى بغداد: "ما يصنع بأمرئ ليس بطائل، ذي شق مائل، ولعاب سائل، وفرج سائل، وعقل زائل، ولون حائل"[3].

في أواخر حياته أصيب الجاحظ بالفالج، وهذا المرض أثر في نفسيته، وتفكيره، وفي هذه الفترة كان يعاني من حياته كثيراً من القلق والاضطراب النفسي، فأضعف قدرته على إنتاج، وأدخل الاضطراب في التأليف والأسلوب، وأوقع شيء في غير موقعه. وظهر ذلك في تكرار الألفاظ والمعاني، وفي الاستطراد، وفي ذكر المسألة الواحدة مرات عديدة في مواضع مختلفة من كتبه[4]. على نحو ما نراه واضح المظاهر في كتبه التي كتبها في هذه المرحلة من حياته لكتاب الحيوان، وكتاب البغل وكتاب النساء. ولا نجد أية اشارة في كتاب البخلاء تدل

---

[1]- الفَرق بين الفِرَق، البغدادي، ص١٦٣؛ والمستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأشيهي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ج٢، ص٥٧.

[2]- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٣، ص١٤١.

[3]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ح١٦، ص١١٣؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ح٣، ص١٤٣.

[4]- مباحي الفلسفية عند الجاحظ، د. نوعلي ملحم، ص٦١.

على هذه الحالة، بل إنه يدل حالة نفسية هادئة مطمئنة، وعلى نشاط موفور لا يرنقه شيء مما يبعد عندنا معه أن يكون كتب في تلك الفترة[1].

ب. العنصر العاطفي

يبرز العنصر العاطفي عند الجاحظ من جهتين، هما: الغزيرة الجنسية، والميل إلى السخرية والضحك. من الجهة الأولى لم يتزوج الجاحظ ولم ينجب أولاداً ولم يؤسس عائلة. ولا ندري السبب الكامن وراء ذلك. هل هو لضعف الغزيرة الجنسية فيه أو كرهه للحياة العائلية، أو هو عزوف النساء عنه بسبب بشاعته، أو أُشتغل بالقراءة والتأليف والتعليم ولم يجد وقتاً للتفكير في بناء البيت، فمهما أمره، ولكن ثمة أمرين أكيدين يمكن الجزم بهما: الأول أنه لم يعان تجارب غرامية في حياته، فأدبه خلو من الغزل ولواعج الحب، وبث الأشواق والأشجان، والثاني هو كثرة حديثه عن الجنس. في كتاب الحيوان الجاحظ يصف تسافد الحيوانات[2]. ومن جهة ثانية كان الجاحظ مطبوعاً على الضحك والتهكم، فكان ينظر إلى الحياة نظرة متفائلة، فقلّما شكا وتأوه، ولا يعرف العبوس والانقباض، ودائماً يضحك ويولد الضحك، ويفلسف الضحك. وكان يؤكد أن الحزن يوهن الجسم ويميت النفس، وأثر السرور على العكس، فيربي الصحة ويزيل الهموم[3].

أما التهكم فنتيجة طبيعية لحس الجاحظ المرهف الذي يرتاح إلى الخير والجمال، وينقبض لرأى الشر والقبح. وهو يتهكم عن نفس مرحة ودود لا عن نفس لئيمة حاقدة، فيعتمد على التصوير الحسّي والتحليل النفسي والنوادر ويتشح بالمعاني الفلسفية والصور الأدبية. وتتجلّى روح الجاحظ الضاحكة المتهكمة في كتاب البخلاء، حيث نراه يروي النوادر الطريفة عن الأشحاء، وكيف يفكر ويدبر هؤلاء البخلاء، ويصفهم وصفاً حيّاً، يضحك الناس، ويبعث على التأمل والتعجب.

ولم يستطع الجاحظ أن يتخلى عن طبيعته التندر والتهكم، وعندما ألّف كتاباً ذا الموضوع العلمي، التمس لنفسه الإعذار، وزعم أن المزاح ضروري لطرد السأم والملل من نفس القارئ، ولإثارة نشاطه.

---

[1]- البخلاء، مقدمة وتحقيق طه الحاجري، ص٣٨.
[2]- الحيوان، الجاحظ، ج٧، ص٢٣٧.
[3]- أنظر. البخلاء، الجاحظ، ص٦.

ج. العنصر العقلي

التقت في الجاحظ ثلاث مزايا، يفضله عن غيره من أدباء عصره: ١ الموهبة الأدبية، ٢ الفضول العلمي، ٣ والفكر النّير. يعدّ الجاحظ أديباً وعالماً وفيلسوفاً. ولم يجتمع هذا لأحد على ما أعلم قديماً وحديثاً. لقد جمع أفلاطون الأدب والفلسفة، وجمع أرسطو العلم والفلسفة، وجمع سارتر الفلسفة والأدب، أما الجاحظ فجمع العلم والأدب والفلسفة[١].

لم يكن الجاحظ في الميادين الثلاثة واحداً، ومن ثم جاءت الأحكام عليه متضاربة، فمنهم من قال إنه أديب ولا حظ من الفلسفة والعلم، ومعظم الدراسات التي كتبت عنه تناولت هذه الناحية[٢]، ومنهم من اعتبره فيلسوفاً طبيعياً[٣]، ومنهم من عده مفكراً حرّاً[٤]، ومنهم من جعله عالماً[٥]، ومنهم من بخسه حقه فقال عنه أنه ليس سوى جماعة معارف يقتبس من هنا وهناك دون أن يبدع شيئاً أو يعمق موضوعاً[٦].

ولما نقرأ الموضوعات التي تناولها الجاحظ، فهي موضوعات من أدب وفلسفة، وطبيعة وصناعة، وتجارة وسياسة، وتاريخ وغيرها. ولا يمكننا أن نذكر عليه النظريات العلمية التي المح إليها كنظرية التطور، ونظرية أثر البيئة. وفي مضمار العلم تداول منهجه التجريبي، وفي مضمار الفلسفة جرى مذهب كلامي خاص، وكان رئيس فرقة من المعتزلة نسبت إليه. وفي مجال الأدب اعتبر "أبا النثر العربي بحق"[٧]. كما اعتبر واضع الأسس لعلم البلاغة والبيان وفقه اللغة[٨].

د. العنصر النفسي

كان الجاحظ يتسرى بما يطيب به نفسه، وكان ينظر إلى الحياة بنظرة خاصة، فقد كان على ما ظهر منه ميالاً بطبعه إلى تحلل من القيود التي تقف بأمثاله ونظرائه من معاصريه عند مقتضيات التقاليد وموجبات العادات، فهو لم يشأ اتخاذ زوجة تشتركه بأساء الحياة وضرائها، بل انصرف إلى اتخاذ الجواري والفتيات تطيب بها نفسه، ويصبو إليها حبّه وإذا شاء دفع بها إلى السوق وجاء بغيرها، والسوق بهن زاخرة والأموال لديه حاضرة[٩]. وأصاب الجاحظ الفالج

---

[١]- المناحي الفلسفية عند الجاحظ، د. بو علي ملحم، ص٦٣.
[٢]- من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين؛ الجاحظ حياته وآثاره، طه الحاجري.
[٣]- تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) القاهرة، ط٣، ١٩٥٤م، ص٨٨.
[٤]- تاريخ الحضارة الإسلامية، آدم متز، ج١، ص٣٧٦.
[٥]- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٣، ص١٤٢
[٦]- المناحي الفلسفية عند الجاحظ، د بو علي ملحم، ص٦٣.
[٧]- تاريخ الحضارة الإسلامية، آدم متز، ج١، ص٤٤١.
[٨]- من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، دار المعارف، ١٩٦٥م، ص٧٧.
[٩]- الجاحظ، حسن السندوبي، ص٢٠٣.

والنقرس، لكن المرض والشـــلّ لم يحل بينه وبين التفكير والكتابة والتأليف. وكان الجاحظ عقيماً، فلم يعرف أن ولد له ولد، أو أعقب ذرية مدى حياته الطويلة. فعاش وحيداً ومات وحيداً.

١,٣. المكوّنات الاجتماعية والسياسية للجاحظ

كان الجاحظ يرى الاســـتمتاع بملاذ الحياة وأطايبها، "ويطمع أن ينال منها ما يمكن أن تصبو إليه أوسع النفوس البشرية أملاً وغاية، على أن يكون ذلك في حدود التعقل والإتزان، مع التحفظ و التستر والابتعاد عن مواطن الشبه حتى لأتهمّز المروءة ولا تغمز الكرامة. ولهذا لم يَرد ولم يُرو أن أحداً من خصومه استطاع أن ينل من سمعته أو يطعن فيه بما يحط من قدره وكرامته. وقد كان خصـومه من قوّة اللّسن وشدّة اللّدد، فما قيل عنه أنه قارف إثماً أو ارتكب جرماً أو اجترح ذنباً"[١].

كان الجاحظ يتبادل مع أصدقائه الحديث حول المعضلات السياسية الدينية الهامة، التي شـــغلت الأذهان يومئذ، وحلّت محل العدوات القبلية منازعات عرقية تضـــرم نار الخلافات الحزبية. وهذه النار تشـــعل بين العثمانيين والشـــيعيين وبقية الخوارج، والمرجئة، والدهريين، والمعتزلة والزنادقة، والنصارى واليهود. وكلّ هؤلاء يقارنون بين مذاهبهم وآرائهم في جوّ من الحرية النسبية. وهذه الحركة الفكرية ساعدت الجاحظ في تكوين شخصيته.

١,٤. المكوّنات الثقافية للجاحظ

أخذ الجاحظ ثقافته الأولى في البصـــرة، وهذه الثقافة العربية، وكان مولعاً جداً أن يقرأ كل كتاب يجد من الأساتذة أو من أصدقائه، ويسمع ويبصر، ولم يكتف إلى هذا الحد، بل حين يوســـع أفق ثقافته العربية يميل إلى تعلم التاريخ والأدب الفارســـيين في كتب نقلت حديثاً إلى العربية، "وقد زوّدته مراقبته للوســـط الاجتماعي إبّان تطوره بمعلومات أفاد منها على مقياس واسع في آثاره المقبلة"[٢].

ورحل الجاحظ إلى بغداد، وفي العاصـــمة بغداد أخذ يؤلف كتبه، ولم يمنعه هذا من توسيع أفق معارفه، فاكتسب في بغداد ثقافة ثالثة، مصدرها قراءة الكتب اليونانية. وعاش في بغداد مع كبّار المعتزلة كالنظّام خاصـــة الذي أتاح له إيجاد طريقة جديدة في الاعتزال عرف

---

[١]- الجاحظ، حسن السندوبي، ص٢٠٦.

[٢]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص١٩.

بها. وسكونته في بغداد وسامراء أتاح له إتمام المعارف الموسوعية، وتثبيتها وإغناء عقله برصد العادات والتقاليد والأوساط الجديدة، لكن البصرة ظل أساساً ما فعله في بغداد[1].

كان الجاحظ عبقرية الدهر، استمتع بعصره بكل ما تعتلج به النفس الإنسانية من أماني وآمال، ومن خير وشرّ، ومن نقص وفضل، ومن علم وجهل، ومن إيمان وإلحاد، ومن خطل وسداد. فكانت بغداد في ذلك الدهر أشبه بلندن وباريس ونيويورك وبرلين وروما، مجتمعين في هذا العصر، فيها نزعات العقول وشهوات النفوس وخلجات القلوب، غير أن الجاحظ كان يتناول شهوات نفسه ونزعات عقله ولذائذ قلبه، في تعقل وتلصف واتزان[2].

الجاحظ لم يكن رجلاً عادياً بل عالماً من كل فن، الذي يتميز بعبقريته. كان مولعاً للعلم فيتردد في حلقات شيوخ عصره من حين، وحين آخر يكتري دكاكين الورّاقين وهضم ثقافة العربية واليونانية. كسب الجاحظ صداقة الوزراء والكبراء، وأحيط الجاحظ بالعداوة بين ابن الزيات والقاضي داود، وقتل ابن الزيات وفرّ الجاحظ من القاضي، لكن قبض عليه، وعفا عنه القاضي.

كان الجاحظ قبيح الوجه لكنه كان شاكراً لله، وهذا القبح أرهف حسه الجمالي. وعلى الرغم أن الأمراض انتابته لكن حالته النفسية كانت هادئة مطمئنة، وتتجلى فيه روح الفكاهة والتندر. وجمع فيه صفات متنوعة، حتى أصبح عالماً وأديباً وفيلسوفاً.

---

[1]- أنظر: المرجع نفسه، ص١٩.

[2]- أنظر: الجاحظ، حسن السندوبي، ص٢٠٧.

المبحث الثاني: سيرة التوحيدي ومكوناته النفسية والاجتماعية والثقافية

٢,١. سيرة التوحيدي

الأديب الذي يعدّ من كبار الأدباء في القرن الرابع الهجري، هو "أبو حيان التوحيدي" الذي امتاز أدبه بتنوع موضوعاته، بحيث تناول من جوانب الفلسفة والفكر العميق في الإلهيات والطبيعيّات والإنسان، والأخلاق، والنفس، فأدبه يحمل الكثير من المعاني كما عُني بالألفاظ عناية فائقة، كما أعجب بأسلوب الجاحظ في المزاوجة، وتضمينه السجع أحياناً، ولا غرو أن نجد أدباء عظماء كأبي حيان في عصر يعد من أنضر العصور في الآداب والفنون[١]، قال عنه ياقوت: "كان متفنناً في جميع العلوم من النحو والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة (..) قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه، والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، فصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، كان مع ذلك محدوداً، محارفاً، يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه"[٢].

اسمه وكنيته

هو "أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي". وكنيته أبو حيان التي اشتهر بها شهرة، وأجمع عليها كنسبته "التوحيدي" التي لا تقبل هي الأخرى أي نقاش؛ إلا اللهم ما قيل من أنه التوحيدي نسبة إلى المهنة[٣] بيع التوحيد[٤] التي عرف والده بها، ويرى الدكتور عبد الأمير الأعسم، "أن انتسابه إلى المهنة أمر منطقي يسير طبيعة الانتساب إلى المهن في القرنين الثالث والرابع الهجريين"[٥]. ويرى ابن حجر العسقلاني، "أن هذا اللقب يحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد، الذي هو الدين؛ لأن المعتزلة يسمّون أنفسهم أهل العدل والتوحيد"[٦]. وكُتب أبوحيان صامتة على هذا التفصيل، "ولو كان أبوحيان هكذا ينتسب إلى عقيدة التوحيد لما رأيناه

---

[١]- الحواحط في الأدب العربي، حياتهم بيئتهم نتاجهم، د. خضر موسى محمد حمود، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٣٣.

[٢]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ١٥،٥/٦.

[٣]- هي بيع نوع من التمر المسمى "التوحيد".

[٤]- تاج العروس، مادة "وحد" ح ع، ص٥٣٦.

[٥]- أبو حيان التوحيدي، في كتاب المقابسات، د. عبد الأمير الأعسم، دار الأندلس، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٥٥.

[٦]- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ج٦، ص٣٦٠

يغفل ذكره في مطاوي كتبه"[1]، والإنسان مثل أبي حيان لاينحدر من هذا الأصل. ونسبته إلى مهنة أبيه ليس عيباً له. ثم ما قيمة البحث في أصل أبي حيان الذي أهمل ذكره هو نفسه إهمالاً لا ينكره إلا الجاهل لمؤلفاته؟

ويضيف إلى هذا أحمد محمد عبد الهادي، فيقول: "لعل كثرة مناجاته لله تعالى وتسابيحه وتحاميده لله تعالى في كتاب "الإشارات الإلهية" جعلهم يطلقون عليه لقب التوحيدي خاصة وأنّ له نزوعاً إلى التصوّف ومخالطته المتصوفة، وله رسالتان في الصوفية وفي أخبار الصوفية[2]".

فالنسبة الشهيرة التي اشتهر بها أبوحيان هي التوحيدي، إما هي مهنة أبيه أم عقيدته أم مذهبه الاعتزال، أو كثرة مناجاته إلى الله.

مولده و جنسيته وأسرته

إن أبا حيان كان من الشعب، ونشأ نشأة الصبيان مع أولاد الشعب، فيقول أحد من الباحثين: "لاتسألني متى ولد، ولا أين ولد، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمع في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد، ويكفي أن تعرف أنه فارسي الأصل، وأنّهم تردّدوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز، وأنه عاش في القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس"[3].

وقد اختلف المؤرخون في جنسيته، فهو عند ياقوت شيرازي الأصل، فهل هو فارسيّ كما يزعمه ياقوت؟ ونقل عنه السيوطي والسندوبي والدكتور زكي مبارك؟ أم أنه عربي الأصل كما ذكره الأستاذ محمد كرد علي في كتابه أمراء البيان؟

ولعل هذا الرأي الأخير أصوب من آراء غيره للأسباب التالية عند أحمد محمد عبد الهادي:

(ا). لم يشر أبوحيان في مؤلفاته من قرب أو من بعد أنه كان يُمتُّ إلى فارس بسبب، أو يتصل لديها بنسب (ب). إنّ اسمه بلقبه وكنيته يدلّ على عربيته فهو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي. (ج). إنّ صاحب كتاب شيراز نامة وهو فارسي ذكر أنّ أبا حيان بغدادي وفد على شيراز. (د). ثمّ إنّ أبا حيان صرح بأنه يجهل الفارسية. و(ر). تعصّبه للعرب وردّه على الشعوبية يؤكد أصله العربي، فقد مدح العرب في جاهليتها وإسلامها، وأثنى على أخلاقها

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، في كتاب المقابسات، د. عبد الأمير الأعسم، ص٥٥.

[2]- أبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، أحمد محمد عبد الهادي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص١١

[3]- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٣١م، ج٢، ص١٦١.

وطباعها ولغتها وعجب أشد العجب من الجيهاني[1] إذ سبّ العرب وحطّ من قدرهم فردّ عليه التوحيدي ردّاً مفحماً[2].

وبعض الباحثين يقول: "أن الرجل كان يعلم أنه نشأ من أسرة رقيقة الحال، عديمة النسب والحسب، فلم يكن يجد داعياً للحديث عن نشأته، أو الإشارة إلى أسرته"[3]. وجملة كلام المؤرخين أنه ولد بين سنتي ٣٠٢هـ، ٣١٠هـ وتوفي بعد سنة ٤٠٠هـ وقبل ٤١٤هـ. ويشير الشيرازي أنه توفي في سنة ٤١٤هـ[4]. وكذلك وردت في "المقابسات" اعتراف التوحيدي أنه "قد جاوز العقد الخامس من عمره، وينص في الوقت نفسه أنه ألف هذا الكتاب سنة ٣٦٠ هجرية"، والثانية وردت في الرسالة التي كتبها إلى القاضي سهل بن محمد سنة ٤٠٠ هجرية، ويقول فيها أنه "قد بلغ عشر التسعين"، وعلى ذلك قد ولد حوالي سنة ٣١٠هـ، ٣١١هـ[5]، وتوفي بعد سنة ٤٠٠هـ وقبل سنة ٤١٤هـ على وجه التقريب[6]. اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ومكان مولده، "لأن الناس لم يكونوا يقيّدون مولد أبنائهم كما نفعل الآن، ولقد يرتبط مولد الشخص بحدث جلل، يعيّن زمن استهلاله على هذا الأرض"، كما يقول أحمد الحوفي: أما وفيات هؤلاء العلماء والأدباء فقلّما تُجهَل، لكنّنا في تاريخ لأبي حيان نلقي عسرين: عسراً في توقيت مولده وعسراً في تعرّف وفاته" ولعل الكاتب بذلك يقول: كأنما اتفق الناس على إهماله ميتاً كما أهملوه حيّاً. وكأنما أبى حظّه المهظوم إلا أن يلازمه في الحياة والموت"[7].

طفولته

تعتبر الطفولة أخطر مراحل حياة الإنسان، وفيها تشكل معالم شخصيته القادمة، لكن مع الأسف الشديد ما نجد شيئاً عن طفولة أبي حيان، كيف نشأ بين أسرته، إلاّ أنه قد نشأ في عائلة من عائلات بغداد الفقيرة يتيماً؛ يعاني شظف العيش والحرمان؛ لا سيما بعد رحيل والده، وانتقاله إلى كفالة عمّه الذي كان يكره هذا الطفل البائس ويقسو عليه كثيراً[8]. وأحد الباحثين

---

[1]- الجيهاني نسبة إلى جَيهان مدينة بخراسان. وقد شهر بهذه النسبة اثنان: أحدهما أبو بكر بن محمد بن نصر وزير السامانية بخارى، كان أديباً فاضلاً له من الكتب كتاب آنين نامة وكتب أخرى؛ وجيهاني آخر اسمه محمد بن أحمد كان كذلك وزيراً للسامانيين، قال فيه ياقوت: كان أديباً فاضلاً شهماً حسوراً. وقد ترجم لكليهما ياقوت. وقال ابن نديم في الأخير: إنه من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ويصنفون في نصرة الأثينية. والظاهر أن الأخير هو المراد هنا (هامش: الإمتاع والمؤانسة، ص٧٨-٩).

[2]- أبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، أحمد محمد عبد الهادي، ص١٢-١٣.

[3]- أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، د. زكريا إبراهيم، ص١٥.

[4]- أبوحيان سيرته وآثاره، عبد الرزاق محي الدين، ص١٣.

[5]- معجم الأدباء، ياقوت الرومي، طبعة القاهرة، الجزء الخامس عشر، ص٢٠.

[6]- أبو حيان التوحيدي، سيرته وآثاره، عبد الرزاق محي، ص١٠. والنظر. لسان الميزان، ج٦، ص٣٦٩.

[7]- أبو حيان التوحيدي، د. أحمد الحوفي، ج١، ص٢٢.

[8]- التعريف بكتاب الإمتاع والمؤانسة، نورة سعد، (٢٠/١٢/٢٠١٠, www.Iwan٧.com)

يقول: بأن " الرجل فقد كل شئ في عهد مبكر كما فقد الصديق والصاحب والتابع والرئيس في جاري سني عمره"[1] . والتوحيدي الذي يتكرر الحديث عن نفسه، دائماً يسكت عن طفولته ولا يذكر بأهله كأنه لا يجد الراحة في ذكرهما، على الرغم أن الإنسان يحنو ويشتاق إلى ما مضى من عمره، حتى ولو "كان الماضي من الزمان في ضيق وحاجة، وكرب وشدّة"[2]. وعلى كل حال، فقد عاش التوحيدي طفولة معذبة " وربما منعه الحياء من الخوض فيها، فاكتفى بالصمت الذي هو أبلغ من كل كلام"[3].

أمّه

ويظهر أن أبا حيان قد حرم في طفولته من كل حنان وعطف، فلا يذكر شخصية أمّه في كتبه، بل نجد في مقابساته حديثاً عجيباً عن "الأم" بصفة عامة. فهو يروي لنا – نقلاً عن أبي زكريا الصميري – "أنه يجد في نفسه أشياء هي أركان فكره، ودعائم همه، وأسس وساوسه، وأوّلها: حديث الوالدة، فإني لا أكاد أنساها، ولا أذهل شأنها، وشاني معها، هذا على بعد عهدي بها، وامتداد الزمان بيني وبينها، لأنها صارت إلى جوار الله وأنا غلام"[4].

ويروي لنا التوحيدي حديثاً شيقاً عن الأمّ وسموّ منزلتها عن الأب، فيقول: "إنّ الأمّ شأنها في الحسّ أعظم، وتدبيرها في المباشرة أظهر، وشفقتها بحسب ضعف قوتها أكثر. والأب هو الفاعل الحسّي أيضاً ولكن لا مباشرة له متصلة، ولا ولاية له متمادية. وإنما هو أوّل فقط؛ والأمّ حاملة واضعة، وفاطمة مرضعة، وحاضنة ومربية. فالكلفة عليها أغلظ وحسها للوالد آنف، وهو بها أشغف"[5].

مهنته

عاش التوحيدي في بؤس شديد وشقاء، اتخذ مهنة الوراقة والنسخ وجوّب الأقطار، أعطاه الله حافظة عجيبة أنه كان ينسخ كل المخطوطات في رأسه قبل أن ينسخها على الورق. وكان من عشاق المجالس والندوات الثقافية المنتشرة في عصره. وألف الكتب وقصد الأمراء والوزراء ليكافئو علمه وأدبه، فلم يحظ منهم بطائل، مع أنهم أغدقوا مطر عطياتهم على الشعراء والأدباء ليسوا يدانيه علماً وأدباً. وعاش التوحيدي على نحو "أربعين درهماً في

---

[1]- تصدير عام لكتاب "الإشارات الإلهية"، عبد الرحمن بدوي، ١٩٥٠م، ص "ه".
[2]- الهوامل والشوامل، أبوحيان التوحيدي ومسكويه، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر، ١٩٥١م، ص٣٧.
[3]- الإشارات الإلهية، تصدير د. عبد الرحمن بدوى، ص "ه".
[4]- أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، د. زكريا إبراهيم، ص١٧.
[5]- مقابسات، أبوحيان التوحيدي، تحقيق حسن السندوبي، القاهرة، ١٩٢٩م، ص٢٧٥-٧٦.

الشـهر[1]". طرق أبواب الوزراء ومدح وأطرى، وبكى واشـتكى، وهدد وأوعد، فما نفعه مدحه ولا ذمه، ولا إطراؤه ولا هجاؤه[2]. ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه في حياته، وعجب ياقوت الحموي من أنّ "مؤرخي الرجال لم يترجموا له، مع أنه فيلسـوف الأدباء وأديب الفلاسفة"[3].

ويظهر أنه قد مل حرفة النسـخ ومل ذكرها، وود أعظم الود ألا يعود إليها. يذكر في كتاب "مثالب الوزيرين"، أن الصـاحب بن عباد كلفه أن ينسـخ له كتاباً، فقبل على مضـض. وقال لبعض الناس في دار الصـاحب: "إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم[4]"، لكن ابن عباد قدم إليه رسائله في ثلاثين مجلدة على أن ينسخها له[5].

ويعترف أنه نسـخ كتباً لزيد بن رفاعة[6]، وأيضـاً يذكر أن ابن سـعدان[7] اسـتكتبه كتاب الحيوان للجاحظ، لأنه علم عنايته به، وتوفره على تصـحيحه[8]. وقبل أن يلاقي ابن سـعدان كان يراعي أمر البيمارستان[9].

انتقم التوحيدي من الناس الذين كفروا صـنيعه، وجحدوا علمه وفضـله فأحرق كتبه في آخر أيام حياته. وقال السيوطي: "ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه في حياته وخرجت من قبل حرقها"[10]. ومن سوء الحظ ضاع الكثير من تصانيفه وما بقي منها إلا قليل.

---

[1]- مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ص (ح).

[2]- المصدر السابق، ص (ج).

[3]- مقدمة الإمتاع والمؤانسة، ص (ج).

[4]- معجم الأدباء، ياقوت، ج١٥، ص٢٨.

[5]- المرجع نفسه، ح١٥، ص١٣.

[6]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٤.

[7]- هو الوزير أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان، وزير صمصام الدولة البويهي. (مقدمة الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين وأحمد الزين، ص "ز").

[8]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٥.

[9]- الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص١٩.

[10]- مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ص "د".

حياته العائلية

أبوحيان اهتم بالعلم والدراسة إلى هذا الحد الذي صرفه عن التفكير في الزواج وإنجاب النسل، فلم يعرف عنه أنه تزوّج أو رزق أولاداً بدليل قوله هو نفسه: أنه ظل طول عمره لا يجد حوله "ولداً نجيباً وتابعاً أديباً ورئيساً منيباً"[1].

شيوخه

ومن شيوخه أبو سليمان وهو محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني (ت٣٧١هـ /٩٨١م)، أكبر علماء بغداد في عصره، في المنطق والحكمة والفلسفة، وكان به عور وبرص يمنعانه من غشيان مجالس الأمراء والوزراء وهو أكبر شيوخه في الفلسفة، مات على أغلب الظن في السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع الهجري[2].

وقد أتيح له أن يتصل بأكبر العلماء عصره ممّا أكسبه ثقافة موسوعية، منهم: في النحو واللغة أبو سعيد السيرافي (٣٣٠هـ - ٣٨٥هـ /٩٤١م – ٩٩٥م)، وفي البلاغة والبيان علي بن عيسى الرماني (٢٩٦هـ - ٣٨٤هـ /٩٠٨م -٩٩٤م)، وفي الفقه أبو حامد المروروذيّ (ت ٣٦٢هـ)، وفي الحديث أبو بكر الشافعي صاحب الفيلانيات (٢٦٠هـ - ٣٥٤هـ / ٨٧٤م – ٩٦٥م)، وفي التصوف جعفر الخلّدي تلميذ الجنيد (٢٥٣هـ - ٣٤٨هـ / ٨٦٧م – ٩٥٩م)، وفي الفلسفة وعلوم الأوائل يحي بن عدي تلميذ الفارابي (٢٨٠هـ - ٣٦٤هـ / ٨٩٤م – ٩٧٥م)، وأبو سليمان السجستاني[3]. وكان يحضر هذه المجالس أعلام العصر في الأدب والفلسفة واللغة[4].

تأثر التوحيدي بأسلوب الجاحظ

التوحيدي، هو أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، والناطق بلسان الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري، يقال عنه أنه "الجاحظ الثاني" لأنه تأثر بأسلوب الجاحظ، وأعجب ببلاغته.

ولاحظ الأستاذ الكبير أحمد أمين: "إن الجاحظ كان أكثر تشبعاً وأكثر انطلاقاً، فقد كان التوحيدي "أجزل لفظاً وأوسع علماً" لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثاني، وفي القرن الثاني

---

[1]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، طبعة القاهرة، ج ١٥، ص١٩.

[2]- أنظر: الهامش١ في كتاب الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ص٢٩.

[3]- عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٠م، ص٤٥٤.

[4]- أنظر: نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي، د. وسيم إبراهيم، دار دمشق، ط١، ١٩٩٤م، ص٤٠.

بدأت نشأة العلوم؛ وأبو حيان مسجل القرن الرابع، وقد نضجت العلوم، وشتان بين علم ناشئ وعلم ناضج"[1].

وممكن القول أن التوحيدي كان لسـاناً ناطقاً للثقافة العربية في القرن الرابع الهجري، وسواء ألحقنا اسمه باسم الجاحظ الذي كان له أثر كبير على الثقافة الأدبية والفكرية، أم ألحقنا اسمه باسم "أبي سليمان السجستاني المنطقي" الذي تتلمذ على يديه، أم قلنا مع الآخرين أن التوحيدي "مفكر حر" حاول أن يوفق بين العلم والدين على بساط التصوف[2].

٢,٢. المكوّنات النفسية للتوحيدي

لا يوجد أديب مجيد ولا شـاعر بليغ إلا متأثراً بعاطفتين اثنتين، وهما: الحب أو الحقد. وأبوحيان التوحيدي خلقه البأسـاء وأنشـاه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه. كان كثير التحصيل لعلوم عصره ونال حظه من الدراسة والرواية، لكنه لا يصيب خيراً من الزمان، فهو قليل الحظ يشتكي صرف زمانه فكتاباته شاهدة عليه. ما كان يحقد على أهل العلم والأدب والجاه، بل كان يحقد على هؤلاء الذين لم يعترفوا لفضله وأغلقوا عليه أبواب الرخاء.

ويصور التوحيدي الحياة بين الأحياء، وهذه الكلمات توضح فكرته عن الأهل والأقرباء "أنه يحنّ إلى والده للتعزز به، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به، ويؤوي إليه؛ وينزع إلى الوالدة لشفقتها ودعائها الذي لا يعرج إلى الله مثله، ويشتاق إلى أخته للصيانة لها والتراوح إليها؛ وإلى ابن عمه للانتصار به، ولابنة عمه لأنها لحم على وضم؛ ويصبو إلى عشيقة لأن ذاك شئ يجده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المجون جواد راكض"[3].

وقد عرض التوحيدي للصديق بصورة عامة، "أما الصديق، فوجدي به فوق شوقي إلى كل من نعته لك، لأني أباثه بما أجل أبي عنه، وأجبأ من أمي فيه، وأطويه عن أختي خجلاً منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفاً من حسد يفقأ ما بيني وبينه. فأما العشيقة فقصارى معها أن أشوب لها صدقاً بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيادة، وتحفة من حديث. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني وانتسابهم إلى دون الصديق الذي حريمي له مباح، وسارحي عنده مراح، أرى الدنيا بعينيه إذا رنوت، إذا عززت له ذل لي، وإذا ذللت له عز بي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المؤدة، وإذا تصامتنا تناجينا بلسان ثقة، لا يتوارى عني إلا حافظاً للغيب، ولا يتراءى لي إلا ساتراً للعيب"[4].

---

[1]- مقدمة الصداقة والصديق، أحمد أمين، القاهرة، ١٩٥٣م، ص "ح".
[2]- أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة فيلسوف الأدباء، زكريا إبراهيم، ص٢٩٩
[3]- الصداقه والصديق، أبوحيان التوحيدي، ص٦٢.
[4]- الصداقة والصديق، ص٦٢.

صفاته النفسية

١. **بعثه الخلقي:** لم يكن أبو حيان مزوّداً بأخلاق عالية تعدل علمه وأدبه، ولو أنه كان كذلك لصار نادرة في دهره، ومثلاً عالياً في عصره وبعد عصره، لكنه كان في أخلاقه رجلاً عادياً، يعتريه الضعف أكثر مما تعتريه القوة، ويقع في الخطأ أكثر مما يقع على الصواب[١].

وكان يعاني من أزمة نفسية حادة، ومعظم سببه أن الناس لايدركون قيمته ولايعترفون عظمته، وهو يخالطهم في كل وقت. ولو يرى مشاغله فيبدو أنه كان ذا مزاجين: الأول، مزاج الرجل الذي يرتاد مجالس العلماء، والثاني: مزاج الرجل الذي يرتاد مجالس الكبراء من أهل السلطة، فنجح في النوع الأول، بينما فشل فشلاً ذريعاً في النوع الثاني، وكتبه تدل عليها[٢].

وفي الحقيقة هذان مجلسان يبدوان مخالفين في العنصر والروح، لأن هناك بُعد كبير بين أهل السلطة والعلماء، الفرقة الأولى تعبر عن المال والاقتدار، والثانية رمز للعلم والنور. فكيف يمكن أن رجلاً مثل التوحيدي يحصل على مقام مرفوع بينهما.

٢. **قلة العزم والصبر:** كان شديد الخوف، ضعيف العزيمة، كثير الهيبة، ومن هنا ملّ الورّاقة والنسخ، وتطلع إلى كسب أيسر وأسهل، ولم يتّجه إلى الارتزاق من عمل آخر، يشعر فيه بالحرية والكرامة، على كثرة ما مني به من تصويح الأمل. سأله الوزير ابن سعدان: لم لا تداخل صاحبَ ديوان، ولم ترض لنفسك بهذا اللّبوس؟ فقال: أنا رجل حُبُّ السلامة غالب عليّ، والقناعة بالطفيف محبوبةٌ عندي. فقال الوزير: كنيتَ عن الكسل بحب السلامة، وعن الفسولة بالرضا باليسير. فقال أبو حيان: إذا كنتُ لا أصل إلى السلامة إلا بالفُسُولة، ولا أتطعم الراحة إلا بالكسل فمرحبا بهما"[٣].

وهذا قدر التوحيدي أنه يكره الورّاقة ، والوراقة تأتي إليه، وليس عنده الصبر، وغلب عليه الكسل، فطعنه حتى الوزير ابن سعدان أنه يعبر الكسل الراحة.

٣. **طمّاع:** كان التوحيدي طمّاعاً شديد الرغبة إلى عطاء من الوزراء، وكان يحسد ممن ينالوا عطايا من الوزراء ويعتبره خطأ فاحشاً في حقهم، لأنهم ينفقون أموالهم ع

١- أبو حيان التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص٧٤.
٢- أنظر: أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، د. عبد الأمير الأعسم، ص١٨
٣- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج١، ص١٠٤.

ليس لهم حق أن يأخذوا هذه العطايا. وهؤلاء الوزراء يضـــيعون أموالهم الخطيرة فيمن لا يســتحق. منعه أبو علي مسكويه على طمعه وأراد أن يمسك يده، وفهمه أن هذا الحسد، لا يناسب لك ولا يلائم لإنسان مثلك، "وأنت تدعي الحكمة، وتتكلف الأخلاق، وتزيف الزائف، وتختار منها المختار، فافطن لأمرك، وشرك[1]".

قد يستطيع أبو حيان أن يعيش من الوراقة ومن العلم، ويترفع عن التأميل في وزراء عصره، وكانت له أسوة في كثير من أصدقائه ومخالطيه من العلماء والأدباء، كثير منهم كانوا محرومين لكن أبا حيان ما سار على طريقهم، ومدّ بصره إلى أنعُم رآها على غيرهم، ولو يرى إلى أستاذه أبي سليمان المنطقي (وكان أعمى) أو إلى صديقه ابن يعيش الذي كان ظاهر الخصاصة[2]، أو إلى أبي بكر القومسّي الذي وصفه أبوحيان، بأنه "كان بحراً عجّاجاً وسراجاً وهاجاً، وكان من الضرّ والفاقة بمنزلة شديدة[3]"، وغيرهم كثيرون حدثنا أبوحيان عن بؤسهم، لا يطمع في نعم الدنيا.

ولم يقف عند حدّ الطمع بل سقط إلى أسفل المكان، وأذل نفسه أشنع الذل، ونسي عزته أيما نسيان، يلحو في الطلب، وصبوراً على طول الرجاء. وكتبه تسامر بهذه القصص الدنيئة عنه. ففي رسالته إلى أبي الفتح ابن العميد، التي كتبها له قبل وصوله إليه، تصاغر واستجداء صريح، منها قوله: "لما رأيت شبابي هرِما بالفقر، وفقري غنياً بالقناعة، وقناعتي عجزاً عند أهل التحصيل، عدلتُ إلى الزمان أطلب إليه مكاني وموضعي منه، فرأيت طرفه نابياً ... فطمعتُ في السكوت تجلّداً، وانتحلت القناعة رياضة، وادعيت الصبر مستمراً ... (..) أصلح أديمي فقد خَلِقَ – فسد – وجدد شبابي فقد هرِم، وأنطق لساني في اصطناعي، فقد شردت صحائف النُجح عند انتجاعي، ورِش عظمي، فقد براء الزمان، واكسُ جلدي فقد عرّاه الحدثان[4]".

وكتب إلى أبي الوفاء المهندس رسالة ويشكو فيه، ولما أعانه أبو الوفاء أثنى عليه ثناء مستطابا كقوله له: "أنا سامع مطيع، وخادم شكور، لا أشتري سخطك بكل صفراء وبيضاء[5] في الدنيا. أنت مولى وأنا عبد، ومصطنع وأنا صنيعة، أنت مُنَشّي، وأنا مُنشأ، وأنت أول وأنا آخر، وأنت مأمول وأنا آمل[6].

---

[1]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٥، ص١٥.
[2]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج١، ص١٠٥.
[3]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٥، ص١٢.
[4]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٥، ص٣٧.
[5]- صفراء: ذهب، بيضاء: فضّة
[6]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج١، ص٨.

وقوله: "لا أجحد أياديك القديمة والحديثة، ولا أنكر نعمتك الكافية الشافية. أأنسى أياديك وهي طوق رقبتي، وتجاه عيني، وحشْوُ نفسي، وراحة حلمي، وزاد حياتي، ومادة روحي؟[1]

وقوله عنه لابن سعدان: "أخذ بيدي، ونظر في معاشي ونشّطني وبشّرني، ورعى عهدي، ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى، وقلدني بها القلادة الحسنى، وشملني بهذه الخدمة، وأذاقني حلاوة هذه المزية، وأوجهني عند نظراني"[2]. وهو يصرح بأن عزة النفس حسنة، إلا أنها صعبة، ما لم تعتمد على مال يجددها. ويقول لصديقه أبي الوفاء المهندس: "المكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة، والدنيا حلوة خضرة، وعذبة نضرة ... وصيانة النفس حسنة، إلا أنها كلفة محرجة، وإن لم تكن لها أداة تُجِدُّها وفاشية (مال كثير) تمُدُّها"[3].

ويعترف في كتاب "المحاضرات" أنه ذهب إلى رجل من أهل الكرماء مرات عديدة، فلم يتسير له ملاقاته إلا في المرة الخامسة عشرة، وكان مشغولاً، فما حصل على العطاء، ثم قصد إليه بعد ذلك مراراً، حتى ملّ نصيبه من عشرين مرّة، وعزم على طرح الرجاء في ذلك الرجل[4]. بل إنه يدل حالة نفسية هادئة مطمئنة، وعلى نشاط موفور لا يرنقه شيء مما يبعد عندنا معه أن يكون كتب في تلك الفترة.

فكان يطمع إلى المال وأن ينال من عطاء الأغنياء ولما حرموه سلط عليهم لسانه تارة وقلمه تارة، ونظر إلى الناس بنظره الحاقد الحانق. ولو قنع على مهنته الوراقة والنسخ، وانصرف إلى العلم والأدب على أنهما غاية لا وسيلة لكان أجدر له.

٤. **مرضه النفسي:** أبو حيان عاش حياةً صعبةً، محروماً من حب الأبوين، مفلوك الحال، ويقول إبراهيم الكيلاني: "نحن نجهل العناصر الوراثية وعوامل البيئة والاجتماعية التي عملت في تكوين شخصية التوحيدي، تلك العناصر الوراثية والعوامل الأولية التي يرتكز عليها الباحثون، ويبدو لنا أن التوحيدي كان معتل الطبع ذا مزاج سوداوي، ويغلب على صاحب هذا المزاج الحزن والانقباض اللذان يفيضان به حتماً إلى التشاؤم والنظر للعالم من جوانبه الكئيبة المظلمة"[5].

فأبو حيان من خلال هذا التشخيص بعيد كل البعد عن افتعال العلاقات؛ بل كان يضع قدمه حيث يعلم تمام العلم أنه أقل منهم شأناً في الحياة وإنه أرفع منهم منزلة في العلم والثقافة. وكيف نفسر إحراقه لكتبه في أواخر عمره؟ أليس هذا هو اليأس في أعلى صوره؟ فماذا كان يريد أبو حيان حتى ينحط به الشعور إلى اصطناع الدمار لعطاء عقله الذي كان سلاحه الوحيد

---

[1]- المصدر نفسه، ج١، ص١١.
[2]- الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص٥٠.
[3]- المصدر نفسه، ح١، ص١٣
[4]- أنظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٥، ص٤٩.
[5]- أبو حيان التوحيدي، إبراهيم الكلاني، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢٨.

في دنياه؟[1]، لقد كان أبو حيان يطلب الاعتراف به عبقرياً فريداً يضـــيف إلى مجالس الكبراء فضلاً بوجوده وعلمه وثقافته. ومسألة المسائل في الإحباط النفسي الذي عاناه، أنه لم يحصل على هذا الاعتراف في قصور الملهبي وابن العميد والصاحب بن عباد[2].

فالتوحيدي بدأ حياته في المعاناة، وحصل العلم والمعارف، وبلغ على أوجها لكن اليأس ألحقه، وما وجد حقّه في حياته، أحرق كتبه، في الهبوط النفسي.

٥. **كثير الشكوى:** قد أسرف في السخط والشكوى، وذم أهل زمانه، وعابهم نقص الدين والبخل والمروءة[3]. ومن ذلك قوله: "فقد أصبحنا في هذه الدار – الدنيا – وكأنما هي قاع أملس[4]، أو أثر أخرس، لم يبق ما يُرضَـــى هديه، أو يقتبس علمه، أو يخطب عُرفه، أو يُقتَفَى جوده، أو يستفاد لفظه"[5]. ومنه قوله في مقدمة رسالة "الصداقة والصديق": "إني فقدتُ كل مؤنس وصاحب، ومرافق ومشفق، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقّال أو عَصّار أو كَذّاف أو نَصّاف ... فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونَجْمُ العيش إلى أفول، وظِلُّ التَلَبُّث إلى قلوص"[6].

وذكر في كتابه "المحاضرات" ألواناً من بؤس الأدباء وشكاياتهم، وقال ابن حيان واصفاً الإحباط النفسي الذي عاناه: "ما ذنبي، يا قوم، إذا لم استطع أن أنسخ ثلثي مجلدة من هذا الذي يستحسن هذا الكلب حتى أعذره في دومي عن الامتناع! أينسخ إنسان هذا القدر وهو يرجو بعدها أن يمتّعه الله ببصره أو ينفعه ببدنه"[7]. نبه الأدباء أبا حيان أنه كثير الشكوى، ونصحه بإقلاع عن شكاياته من الزمان والخلان، لكن عبث ما قالوا.

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، في كتاب "المقابسات، د. عبد الأمير الأعسم، ص٧٠.
[2]- المرجع نفسه، ص٧٠.
[3]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج١، ص١٦- ١٨.
[4]- أملس: ناعم، عكس خشن.
[5]- المقابسات، التوحيدي، ص١١٧
[6]- الصداقة والصديق، التوحيدي، ص٦.
[7]- مقدمة كتاب "المقابسات"، السندوبي، ص٢١.

٦. **امتزاج الود بالشتم:** ومن عَجَبٍ أنّ أبا حيان جرّح أكثر معاصريه، حتى الذين وصلته بهم صلات علم أو مودة. فكان يذكر محاسن ومساوي الناس ويجرحهم به، ويظهر أنه ينسى المودة الحميمة في لحظات الغضب، ويستل قلمه للثلب.

رمى من سهمه صديقه أبو مسكويه في قوله: "أما مسكويه، ففقير بين أغنياء، وعيٌّ بين أبيناء، لأنه شـــاذ ... ولقد طعن العامري[1] الرّي خمس ســـنين. ولقد تجرّع على هذا التواني الصاب والعلقم، ومضَغَ بفمه حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد فهو ذكيٌّ حسن الشعر نقي اللفظ .. مع كلفه بالكيمياء، واحتراقه في البخل بالدانق والقيراط والكِســـرة والخرقة. نعوذ بالله من مدح الجود باللســـان، وإيثار الشـــح بالفعل، وتمجيد الكرم بالقول، ومفارقته بالعمل"[2].

كذلك فعل مع ابن العميد، إذ كتب له رســـالة قبل أن يتصـــل به، أسـرف فيها في الثناء والخنوع والاســـتجداء وبالغ في ثنائه وتغالى[3]. ثم انقلب عليه، وذمه في كتاب "مثالب الوزيرين". وفعل مثل هذا مع المدلجي، وألف له كتاب "المحاضـرات"، واعترف بأن المدلجي كافأه مكافأة مضـــاعفة، لكنه قال فيه فيما بعد: "فأنجزلي ما وعد، ووفّى بما شَـــرَط وكان ينفع عليه سوق العلم، مع جنون كان يعتريه، ويتخبّط في أكثر أوقاته فيه"[4].

هذا كله هو علاقة أبي حيان بالناس، ويرى بعض النقاد "أنه حبّ الثلب لمن عرف في حياته"[5]، أو أنه كان "يعشق فكرة انتقاص أصـحاب الفضـل من السـابقين عليه"[6]، وهو يتحدث عن كل شئ بكل صراحة، حتى عن أصحاب السلطة الذين يتمكنون على مساند الوزراء، وعن الأباء الكبار ومنهم أصدقاؤه. وهذه صفته التي أبعده من الناس، لأنهم يعرفونه تمام المعرفة أنه طويل اللســـان، قليل التحفظ، كثير الانفعال، شـــديد التعصـــب لما يراه حتى ولو كان ذلك على حساب المصلحة.

٧. **غُفل:** كان التوحيدي غُفْل في معاملة الوزراء، ضعيف الخبرة بما يحتاج إليه في مخالطهم، وأهل السياسة، فضاق صدره بالإقامة في رحاب ابن العميد وابن عباد وابن سعدان. سجل أبو حيان أن صديقه أبا الوفاء قال له: "أفكان من حقّي عليك أنك تخلو بالوزير – أدام الله أيامه – ليالي متتابعة ومختلفة، فتحدثه بما تحب وتريد، وتلقي إليه ما تشاء وتختار، وتكتب إليه

---

[1]- وهو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري، فيلسوف معاصر لابن سينا، كان متبحراً في الفلسفة اليونانية مكباً على كتب أرسطو، وله على بعضها شرح. وقد اتصل بابن العميد وقرأ معاً عدة كتب، توفى سنة ٣٨٠هـ.

[2]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج١، ص٣٥.

[3]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٥، ص٣٧ – ٤٤.

[4]- المرجع نفسه، ج١٥، ص١٤- ١٦.

[5]- أبو حيان التوحيدي، محيي الدين، ص٤٧

[6]- المرجع نفسه، ص٣٥.

الرقعة بعد الرقعة، وتتطاول إلى ما ليس لك، تغلّط في نفسك، وتَنسَى زلة العالم، سقطة المتحرّي، وخجلة الواثق.

هذا وأنت غِرٌّ لاهيئة لك في لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء. وبعد فما أطيل، لعل لهب الموجودة يزداد ولسان الغيظ يغلو، (..) والندم ما أسلفت من الجميل يتضاعف، ولستَ أنت أوّل من بُرَّ فعقَّ، ولا أنا أوّل من جُفي فنقَّ، وهذا فراق بيني وبينك، وآخر كلامي معك، وفاتحة يأسي منك.

ومتى لم تفعل هذا فانتظر عقبى استيحاش منك، وتوقع قلة غفولي عنك (..) يا أبا حيان، تاكل إصبعك أسفاً، وتزدر دريقك لَهَفاً، على ما فاتك من الحَوطة لنفسك، والنظر في يومك لغدك، والأخذ بالوثيقة في أمرك[1].

ويظهر أن التوحيدي كان غَفُولاً، فيخاطبه أبوالوفاء كأنه حقير كحشرة الأرض، ويستحقره لأنه كان سبب وحيد للقائه من الوزير ابن سعدان، وكأنه يستحق أن ينال نصيبه من مجلسهما، ولما رأى تساهل أبوحيان في تأليفه غضب عليه بلسان الغيظ، وزجر عليه، لأنه كان متوسطاً بين لقائهما.

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٥.

٨. **اليأس والقنوط:** أبوحيان يطمع طمعاً شـــديداً إلى الناس للعطاء والإكرام لكنه بعض الأحيان يســـتســـلم إلى اليأس من الناس، ويزهد ما في أيديهم كل الزهد، ويدعو الله أن يصـون وجهه عن الحاجة إليهم، والطلب منهم. فقد ختم رسـالة العلوم بقوله: استخلف الله منكم وعليكم، واستغفره لي ولكم؛ إنه غفور رحيم، منوج كريم. اللهم صُنْ وجهنا باليسار، ولا تبتذلنا للإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شِرار خلقك، فنبتلي بحمد من أعطى وذم من منع، وأنت من دونهم ولي الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء، يا ذا الجلال والإكرام[١].

ويتبين لنا من أقوال أبي حيان وأفعاله أنه رام العلم والأدب وسـيلة لا غاية، فأراد بأدبه أن يغتني، وأن يكون وجيها بين الناس، فلما ينس من هذا وذاك أحرق كتبه، غير آسـف عليها، ولا نادم على ما فعل. "وإنه أحرق كتبه لقلة جدواها، وضـــناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، ولأنها لم تنله المثالة والرياسة بين الناس"[٢].

فالتوحيدي كان مفكراً حرّاً، تأثر بعاطفة الحبّ والحقد سواسية، ولم يكن مزوّداً بأخلاق عالية، فكان شـــاكياً على خلقه البأســـاء، وحاقداً على الموهوبين من العلم والأدب والجاه. ولم يرفع أخلاقه من رجل عادي، ومعظم الأحيان لم يعطر لسانه بكلمات جميلة عذبة وجذابة. يكره التوحيدي مهنته فملّ منه ورغب إلى كســب أيســر من الحكام، والعطايا لكنه لم يحصـــل هذه العطايا فحســـد ممن ينالوا من الوزراء. عاش التوحيدي حياة صـــعباً، وأســـرف في الســـخط والشكوى حتى عاب أهل زمانه، وجرح معاصـريه حتى نسـي المودة والمحبة بينهم، وضـاق صدره وأيئس من الناس حتى أحرق كتبه.

٢,٣. المكوّنات الاجتماعية للتوحيدي

١. **شخصية منكسرة:** يبدو أن شخصية التوحيدي كانت منسحقة ومنكسرة بالهمّ والغمّ تماماً على المستوى الاجتماعي، إلى الحدّ الذي جعله منفّراً للسادة وعلية القوم الذين يخالطهم، فهو لا يملك الهندام الذي يؤهله لمجالســة هؤلاء لو لا تفضّـلُ ذوي الفضـل عليه. ومسـاعدته للوصـول إلى مجالس الأمراء والوزراء ومن هؤلاء الذين سـاعدوه في ذلك صـديقه أبو الوفاء المهندس[٣].

---

[١]- ملحقة بالصداقة والصديق، ص٢٠٨.

[٢]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٥، ص١٨.

[٣]- أبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، أحمد عبد الهادي، ص١٠.

٢. **قليل الرضـــا:** التوحيدي فرد الدنيا لانظير له ذكاء وفطنة وفصـــاحة ومكنة[١]، لكنه يضـــاف إلى زراية مظهره عدم تزوده بأخلاق عالية، يناســب مع علمه وأدبه. والأخلاق يرفع شأن الإنسـان، ولو زيّن التوحيدي بمكارم الأخلاق لكان نادرة زمانه، ومثلاً عالياً في عصـره، لكنه كان كما قال ياقوت الحموي: "سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذّم شأنه والثلب دكانه، وكان مع ذلك محدوداً محارفاً (محروماً) يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه"[٢].

ويبيّن صديقه أبو الوفاء المهندس إلى حالته البؤوسة بقوله : "إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص المرقّع، وباقليُّ درب الحاجب، وسنداب درب الرواسين[٣]، إلى متى التـأدُّم بـالخبز والزيتون، قد والله بحّ[٤] الحَلْق، وتغيّر الخُلُق: الله الله في أمري، اجبُرني فإنني مكسور، اسقني فإنني صد. أغثني فإنني ملهوف[٥]، شهّرني فإنني غُلْف[٦]، حلّني فإنني عاطل"[٧]. "قد أذلّني السـفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب فباب، ونكّرني العارف بي، وتباعدني القريب مني"[٨].

٣. **الحرمان:** التوحيدي عاش في قرن ازدهار العلوم والفنون، ومعاصـــروه نالوا من الشهرة والمجد ما حُرِمَه التوحيدي، لأن بعضهم كانوا الوزراء، وكان لهم من نفوذهم السياسي، ما أضـفى عليهم هالة من المجد، وأضـاف إلى أدبهم تقديراً لايسـتحقه، ولأن الذوق الأدبي قد ضعف وانحرف منذ القرن الرابع، فصار الأدب الرّفيع هو المثقّلُ بالصناعة والزينة، وإن كان خِلواً من العاطفة، فقيراً في الفكرة، تافه الموضـوع. فغُبِن التوحيدي، وطار اسـم الأدباء على الآفاق، ونالوا العطايا والجوائز الذين ليس لهم للحقّ.

ومن الأمور الطبيعية التي لا تزال نراها في كل يوم أن من كان في مثل ما كان عليه أبوحيان علماً وفضلاً، وفي مثل حال بؤساً وفقراً، أغلب أن تستولى المرة السوداء عليه، فيرى أن ما في أيدي الناس من النعم والأموال، وما ينعموا به من الجاه والسـلطان، قد كان من حقه دون غيره من سـائر الخلق، فإذا رأى إنسـاناً في يده قليلاً أو كثيراً من متاع الدنيا عدّه سـالباً

---

[١]- ارشاد الأريب، ياقوت، ط مارغوليوث، ج٥، ص٣٨٠-٣٨١.
[٢]- أبو حيان التوحيدي، أحمد عبد الهادي، ص١٠
[٣]- "الحاجب والرّواسين" مكانان و"باقل وسنداب" شخصان فقيران.
[٤]- بحّ: صار أجش، غلط الصوت
[٥]- ملهوف. ساع إليه بحرص شديد.
[٦]- غلف. أرض لم ترع، وخصب واسع.
[٧]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج٣، ص٢٢٧.
[٨]- المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٧.

لحقه، وحسبه مغتالاً لرزقه، حتى لو ناله شئ مما ينعم به ذلك الإنسان فلا يرى له حق الشكر عليه[1].

٤. **خامل الذكر:** والحقيقة أن التوحيدي مال إلى الوزراء، للعطاء، ولما طال اللأمد ولم يرضوه، تتبع عوراتهم، وخاصة الوزيرين: الصاحب بن عباد وابن العميد، وأنشأ فيهما كتاباً عن مثالبهم. وهذا سبب رئيسي لنفور الناس عنه، وتباعدهم عنه، لأن التوحيدي وضع يده في جحر الثعابين. لأن الصاحب بن عباد بما كان له من واسع السلطة والعطايا الدارّة على الأدباء والعلماء وأهل الفضل؛ قد سلط عليه كل ذي لسن وبيان، فتصدوه بالإساءة من سائر نواحيه حتى أخملو ذكره، وعمروا اسمه، وجعلوه طريداً شريداً لا يأويه حجر، حتى قال ياقوت: "ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في ضمن خطاب"[2].

٥. **الشكوى:** إنّ نبوغ أبي حيان يرجع إلى حقده وثورته على الحياة والأحياء، فأذكر أن تلك الثورة شبت في مفتاح حياته ومستهل صباه حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب بن عباد وما كان يجري بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمانينة، فقصد ابن العميد واستظل بفنائه حيناً، ثم تحوّل إلى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما يقنع غلته، ويطفئ صداه. هنالك انفجر بركان غضبه وتحوّل إلى أتون متسعّر يرمي باللهب الماحق والشواظ المبيد،[3] الذي ظهر في كتابه "مثالب الوزيرين".

٢,٤. المكوّنات الثقافية للتوحيدي

أبو حيان كان ابن عصره، فالتقط ثقافته من بطون الكتب، وأفواه المتحدثين، ومن علماء عصره وعظمائه، فكان متفنناً في جميع علوم عصره. وأما معارفه فكانت متنوعة بتنوع أساتذته وشيوخه، وله مكانة بارزة في الأدب العربي.

جمع أبوحيان بين التراث اليوناني من جهة، والثقافة العربية من جهة أخرى، وتتلمذ على كبار المفكرين والعلماء وزعماء الفكر للقرن الرابع الهجري، ومنهم القاضي أبو حامد المروزي الفقيه، وقال عنه: "لأنه أنبل من شاهدته في عمري، وكان بحراً يتدفق حفظاً للسير

---

[1]- المقابسات، حسن السندوبي، ص١٣-١٤.

[2]- المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، ص١٣.

[3]- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، الجزء الثاني، ص١٦٢.

وقياماً بالأخبار، واستنباطاً للمعاني وثباتاً على الجدل وحبراً في الخصام"[1]. (وكان أبوحيان كثيراً ما يلقبه بالقاضي).

وأما ثقافته اللغوية فقد تتلمذ على يد كثير من علماء اللغة والنحو، منهم: السيرافي، وحق الكيلاني في قوله "أن من يتدبر نفسية التوحيدي ويطلع على آرائه الأدبية وأفكاره الفلسفية يظهر له انعكاس آراء السيرافي وأفكاره في عقلية تلميذه"[2].

ودرس أبو حيان اللغة والكلام والمنطق على عليّ بن عيسى الرماني، وهو أحد أئمة اللغة والأدب والمتكلمين على طريقة المعتزلة. و كثيراً ما يلقبه التوحيدي "بالشيخ الصالح أو النحوي". وقد أخذ عنه العلم سمّاعاً وقراءة ومجالسة[3].

واستقى أبو حيان الحكمة والفلسفة على عظماء عصره، فمنهم أبوسليمان محمد بن بهرام السجستاني، وهو أعظم علماء زمانه، في علم النجوم والأفلاك والمجسطي والمقادير وآثار الطبيعية والمنطق، الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات[4]، أخذ أبوحيان الكثير من هذه الثقافة اليونانية، وأخذ عنه بطريق السماع، والسؤال وأخرى بنقل الأقوال وحضور المجالس، وقد كان يقرأ على أستاذه كتب اليونان أو يملي عليه ما أراده[5].

وكان يحضر كل مجلس فيه الفلسفة والعلم اليوناني أمثال مجالس القومسيّ[6]، وغيره من علماء هذا الفن، ولعل رسالة الحياة لأبي حيان تعتبر أكبر دليل على مدى تبحره في الثقافة اليونانية ونقله من معظم فلاسفتها[7]. وأيضاً تتلمذ التوحيدي على يد يحي بن عدي ومتّي والفارابي، حتى صار علماً فرداً وأوحد دهره في صناعته[8].

لقد استقى الفلسفة أولاً من الكتب التي قرأها ونسخها، واستقاها من حرفة الوراقة، لأنها تتيح له أن يقرأها على تمهل. وأغلب الظن أن حرفة الوراقة سيرت له أن يطلع على النادر النافع من الكتب[9].

وتتلمذ أبو حيان على كتب من لم يمكنه رؤيتها[10]، ولعل خير من قرأ كتبهم واستفاد منها أيضاً، وظهر أثرها في كتاباته أستاذه الجاحظ، لأنه وجد في كلامه وروايته له الشفاء والتأدب والمعرفة، فيقول: أنا ألهج أيدك الله بكلام أبي عثمان ولي فيه شركاء، من أفاضل الناس، فلا

---

[1]- البصائر والذخائر، التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، القاهرة، ١٩٥٣م، ج١، ص٣٠٥.
[2]- أبوحيان التوحيدي، إبراهيم الكيلاني، ص١٤.
[3]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ح١، ص١٠٨؛ ح٣، ص١٣٠.
[4]- المصدر نفسه، ح٢، ص٦؛ ج١، ص٣٩
[5]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٥١.
[6]- المقابسات، ص١٧٢
[7]- ثلاث رسائل لأبي حيان، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، ص٥١.
[8]- الفهرست، ابن النديم، ص٢٨٣
[9]- التوحيدي، أحمد الحوفي، ج١، ص٢٩.
[10]- البصائر والذخائر، ج١، ص٥.

تنكر روايتي لكلامه، فإن فيه شـــفاء، وبه تأدبا ومعرفة[1]. وهكذا نجد أبا حيان قد أتيح له أن يتصـــل بأعظم علماء عصـــره، ومفكري زمانه مما أكسـبه ثقافة موسـوعية، وتظهر أثره في كتاباته.

[1]- البصائر والذخائر، ج١، ص٤، ٨.

الفصل الثالث: البخلاء والإمتاع والمؤانسة من حيث الفن والتاريخ

١ ـ كتاب البخلاء

١,١ ـ البخلاء من حيث الفن

كتاب سمّي بموضوعه، وهو البخل. والبخلاء قصص طريفة اقتطفها الجاحظ من عصره، وشخصياتها، شخصيات عصره، والجاحظ معهم في مجالسهم، وفي بيوتهم، وعلى خوانهم، أو ينظرهم من بعيد بنظرة شاسعة كأن في يده مرآة سحرية وهو ينظرهم فيه يتعامل بين الناس بنفسية البخل، ويصوّر تصويرهم تصويراً واقعياً حسّياً ونفسيّاً، بمهارة فائقة، حتى لم تترك هذه الصور أثراً سيئاً في نفوس المتلقي.

كتاب البخلاء هو أكبر الآثار التي أبقت الأيام عليها من ميراث الجاحظ الأدبي الخالص، في رأي طه الحاجري. وهو مرجع الفن الجميل، من شدّة لصوقه بالنفس، وتأثيره في الوجدان. وحشد فيه الجاحظ شتى المعارف والنظريات العلمية السائدة في عصره.

يلتقط البخلاء مظاهر الفعالية الاجتماعية في البصرة ومشاهدة نشوء البرجوازية المال فيها. ولما ننظر إلى طبيعة الفن نجد قوة المزاج الفني وغلبة النزعة الفنية عند الجاحظ، حتى ليمكننا القول أن هذه القوة أي النزعة الأدبية القوية الغالبة هي التي رفعت شأن الجاحظ بين المعتزلين والمتكلمين، وجعلته علماً من أعلامهم وإماماً من أئمتهم. وأسلوبه يشبه السوفسطائيون، على أن الجاحظ يمكن اعتباره كذلك "معلم بيان"، وهو الوصف الأول لهم. وكانت هذه الطريقة شائعة عند السوفسطائيين في تعليمهم للبيان، كما ذكر "إيجيه" عن هبياس[١]، أنه تدوين نماذج بلاغية كالفواتيح والخواتيم. وقد تكون خطبة كاملة عن موضوعات تختلف في حقيقتها[٢].

وفي كتاب البخلاء يسوق الجاحظ الروايات على لسان بعض من عرفوا بالبخل ممن عرفهم كسهل بن هارون، والأصمعي، والكندي، والثوري، والمروزيين. وحرص تماماً على الذهاب بحججه مذاهب مختلفة، فهو يسوقها مرة، مساق الجد – وإن شابتها السخرية – ومرة

---

[١]- ص١١. Egger, Essai sur l'Histoire de la Critique chez les Grecs,

[٢]- أبطر البخلاء، الجاحظ، مقدمة طه الحاجري، ص٢٣.

أخرى يزجي بها في تهكم مرير[1]. ظهر الجاحظ كمجدد حقيقي يجيد استعمال اللغة بمهارة فائقة وإنه ليُجمع على ذلك أصدقاؤه وخصومه[2].

والمؤرخ المسعودي الذي عرف آثار الجاحظ جيداً أشار إلى عبقريته، وهي روعة الأسلوب المتنوع وقوته مع التزام الحرية التي تتجنب سعة علم المعاصرين في التدقيق فتنتقل لترفية عن القراء حيناً إلى الجدّ ومن حين آخر إلى الهزل دون تمهيد.

وعندما رأى المسعودي خصوبة فكر الجاحظ فقال: "وكتب الجاحظ مع الانحراف المشهور تجلو صدى الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوّف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من الجدّ إلى الهزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة"[3].

ومادة أفكار الجاحظ تستمد من "الدين والعلوم العربية ومن الوسط البصري" الغني المتنوع. إن تطلُّعاً عجيباً متوثّباً يوفّر للجاحظ نظرة ذاتية للعالم ويقوده إلى حافة الارتياب، وهذه الخاصية بالذات حدت أحد المستشرق الألمان (لم يصرح شارل بللا اسمه) على مقارنة الجاحظ بفولتير[4]، بَيدَ أن المقارنة لا تصمد أمام الامتحان ولذا كان من الطبيعي أن تقف من هذه المقارنات السريعة العقيمة موقف الاحتراس[5].

وفي أدب الجاحظ "إذا ما وجدنا في آثاره هزلاً أو مزاحاً جريئاً أو عبارات بذيئة، أو فقرات غير منسجمة كما هي الحال في أغلب الكتب العربية! فإنّ المجموع يوحي على العكس بفكرة الهدوء والاعتدال وحتى الحياء. فالجاحظ يحب الضحك والمزاح لدفع الملل عن القراء، ولكن تهكمه هو من معدن يختلف عما ينسب إليه عادةً"[6]. إن الجاحظ متفرج ساخر، فقد رزق حس اكتشاف الجوانب المضحكة في طبائع الناس، كما رزق روحاً تهكمية نادرة تتناقض بصورة فريدة كان يشعر بدافع لمعاشرتهم ومصادقتهم.

ويضع الجاحظ نفسه بتواضع في سلك الرواة ونَقَلة الأحاديث الدنيوية والشعر القديم، فهو إذن لا يشعر بحاجة إلى إجلال نظام هو في نظرنا منطقي على الرغم يحاول أحياناً في كتابه البخلاء الخضوع لنهج مسبق معتذراً عن استطراداته. وقد يأخذ أحياناً حديث أو نادرة أو

---

[1]- الجاحظ، أحمد كمال زكي، ص١٣٩.

[2]- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بللا، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ص٨.

[3]- مروج الذهب، المسعودي، ٣٤/٨.

[4]- فرانسو ماري أرويه، اسمه المستعار فولتير: (١٦٩٤- ٧٧٨م) مفكر وفيلسوف فرنساوي، من أكبر كتاب عصر التنوير، كتب روايات فلسفية بأسلوب ساخر منها.

[5]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بللا، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ص١٠.

[6]- المرجع نفسه، ص١٢.

رأي مكانه في كتاب يختلف عن الكتاب الذي وضـــعه فيه مؤلفه، وقد نقع في بعض الأحيان على مقاطع كاملة في عدة كتب تثير بوجودها الدهشة فينا[1].

وفي رأي د. إبراهيم الكيلاني "وعلى هاتين الظاهرتين من التفكك والتكرار تقوم روعة كتب الجاحظ في نظر قراء العربية، وبعض القراء الغربيين الذين ســـحروا بغرائب لم يألفوها في كتب اعتادوا النظر فيها كل يوم"[2].

فكتاب البخلاء كتاب الأدب، عن العصـــر العباســـي، يظهر مزية البخل في طبقة البورجوازية في القرن الثالث الهجري، بصورة مضحكة، وساخرة، أو يخرج صور البخلاء من معدنه التهكمية. وفيه أثر الهيلينية بطريق غير مباشـــر، الذي يقربه بصـــنعة البيان كما يتصورها اليونانيون.

أسلوبه

الجاحظ ليس الأول في تأليف الكتابة عن البخلاء، وها هو ذا أســـلوبهم في تناول ذلك الموضـــوع، فقد كانت كتاباتهم فيه أخبارية لا فنّية، تعرض صـــوراً من الحياة الماضـــية دون الحياة الحاضـــرة، ولفت الجاحظ إلى هذا الموضـــوع، ونبه نزعته الفنّية، وأبدع فيه الصـــور الجديدة، ومن ألوان الحياة المعاصرة، وأبرد نار المفاخرة والشعوبية، بدون ذكرها.

والجاحظ أديب أريب، بصـر، وأسـلوبه هو الأسـاس الذي قامت عليه شـهرته على مر العصور. والجاحظ جاء بأسلوب جديد بلغ فيه الغاية في الجزالة والبلاغة أي البلوغ والنفاذ إلى القلوب والأذهـان، والنقـاد اعتبروه "المثل الأعلى" في إتقـان اللفظ وإجـادة المعنى. والقـارئ ليعجبُ من كثرة الفقرات والنصـــوص التي يمزج فيها بين الجدّ والهزل. فيقول الجاحظ: "إن الجدّ في غير موضـعه مذموم كما أن الهزْل في موضـعه محمود. والجدّ الدائم متعب مملّ وإن في الهزل راحة وفي المُزاح استجماماً"[3].

إن صـورة الجاحظ العادية التي أضـفى عليها أدب التسـلّي غير المكترث بالواقع طابعاً شعبياً ليست بصورة رجل رصين وقور، فإن أسلوبه الكتابي وامتزاج الجدّ بالهزل لكي يحمل القارئ على تقبّل وجهة نظره، كما أن حرصـــه في مواضـــيع عدة على الدفاع عن الضـــحك والمزاح.

---

[1]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ص١٢.
[2]- المرجع نفسه ، ص١٣.
[3]- البخلاء، ص٣٨٩.

والأسلوب التأليفي لكتاب البخلاء على لسانه: "أنه في نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز في باب الجدّ"[1]. فعلى هذا بنى الكتاب كله، وفي ذيله حديث العرب والأعراب، ويركز الجاحظ على الأصحاب الذين اشتهروا بالبخل من معاصريه، "كسهل بن هارون والحامي والحارثي والكندي وابن أبي المؤمل وابن التوأم والأصمعي، يحتجون لمذهبهم في الاقتصاد في النفقة والتثمير للمال أو مذهب الجمع والمنع. فيأخذ الجاحظ في إيراد هذه الحجج مذاهب مختلفة، فهو يسوقها مساق الجد، والسخرية تترقرق في خلالها. ويعرضها أخرى في معرض السخرية الصريحة والتهزؤ المكشوف. ويحكي حركاتهم النفسية حكاية دقيقة. وبين حكايات صغيرة ونوادر قصار يتخلل بها تلك الأحاديث والرسائل التي قد تبلغ من الطول مبلغاً عظيماً، وتمعن في تشقيق الكلام والتحليل النفسي إمعاناً كبيراً"[2].

اتخذ الجاحظ شخصيات البخلاء من المذاهب الدينية والاجتماعية، وهو يسخر أئمة المعتزلة من أبي الهذيل وعلي الأسواري، ومن الأصمعي العربي وأبي سعيد المدائني الشعوبي، فليس من ممكن أن نتصور أنه مع فلان، وعلى فلان، لأنه يسخر من هؤلاء على نهج واحد.

وهويدرك أن الرسائل الطويلة تثقل على القارئ، لكن أيضاً يعرف أن ذلك الطويل أنفع، فنجده أنه لا يكاد ينتهي من رسالة سهل بن هارون حتى يأخذ في نوادر المراوزة، وما يكاد يفرغ من حديث خالد بن يزيد حتى أخذ في حكاية بعض النوادر عن يحي بن عبد الله وفلان وفلان. هكذا ينتهي من الكتاب على هذه الخطة المرسومة[3].

وإذا انتهى من التصوير والتحليل غايته أخذته نزعته العربية فمال إلى حديث عن العرب والأعراب، وعلم العرب وطعامهم، ويصف طرفاً من ألوان معيشتهم، ثمّ يعرض لما تقوله الشعوبية عنهم، في الغض منهم والتشنيع عليهم، فتأخذه شنشنته في الدفاع عنهم، ورد ما ينسب إليهم أو توجيه القول فيه متسعاً في رواية الأشعار مما يتصل بهذا المنحى. وبذلك ينتهي كتاب البخلاء[4].

وأكثر ما في هذا الكتاب إمتاعاً واستثارة اللذة الأدبية، وأقوى ما فيه دلالة على قوة الجاحظ الفنية. وأتاح بها اللغة العربية هذا اللون الرائع من ألوان الأدب[5].

فكتاب البخلاء اتّسم بأسلوب فريد، ويشبه هذا الانتاج بالموسوعيّة. وأسلوب الكتاب أدبيّ مترسّل، اجتمع فيه التوازن والترادف والازدواج، بحسن الملاءمة بين اللفظ والمعنى، أو

---

[1]- البخلاء، ص١.
[2]- المصدر نفسه، ص ٣٨.
[3]- أنظر: المصدر نفسه، ص ٣٩.
[4]- أنظر: المصدر نفسه، ص ٣٩.
[5]- المصدر نفسه، ص٣٩.

بين المقام والمقال. وهوأوّل أديب عربي الذي يصوّر لنا أحوال الشعب تصويراً ينبض بالصدق والحياة. وهو أصدق مصوّر للنزعة الإنسانية برهافة الحسّ وخصوبة الخيال وقوّة الملاحظة.

١,٢. البخلاء من حيث التاريخ

متى ألف الجاحظ البخلاء؟

سؤال هام أمام الباحث، عن الوقت الذي وضع الجاحظ فيه كتاب البخلاء، وليس لدينا نص قاطع نستطيع أن نتعرف به ذلك التاريخ على وجه يقيني، أو أدنى إلى اليقين. وإن كان هناك حقيقتان يمكن التهدي بهما فيما نحن بصدده.

أولهما: أنّ كتاب البخلاء مذكور في مقدمة كتاب الحيوان، إذن كتاب البخلاء سابق على كتاب الحيوان. وثانيهما: أنه يشير في البخلاء إلى إصابته بالفالج[١]، إذن ألّف الجاحظ كتاب البخلاء بعد أن أصيب بالفالج. وأما كتاب الحيوان فممكن القطع بأنه كتب في أواخر حياته، بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ، وأكبر الظن أنه كتبه قبيل وفاته. وأما إصابته بالفالج فلا نملك ما نقطع معه بتاريخ إبتدائها، وإن كان يبدو أنه ابتدأ في أواخر عهد ابن الزيات قبل مقتله سنة ٢٣٣ هـ[٢].

وعرض الشيخ مصطفى عبد الرازق في بحثه عن أبي يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي لتأليف الجاحظ كتاب البخلاء، فقال: "إن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ يذكر عن الكندي في كتاب البخلاء في صيغة الماضي، الدالة أن الكندي كان ميتاً حين كتب كتابه. وكتاب البخلاء مؤلف على الراجح سنة ٢٥٤ هـ وكتاب الحيوان السابق عليه، فالكندي لم يكن حيّاً في سنة ٢٥٤ هـ ولا في ٢٥٣ هـ إن صح أن الجاحظ كتب الحيوان في هذه السنة"[٣]. فكتب كتاب البخلاء قبيل وفاته بأشهر معدودات. وكان يعاني كثيراً من القلق والاضطراب في هذه الفترة، لكن لا تجد هذه الحالة النفسية في كتاب البخلاء وإنما أشبه عندنا أنه كتب هذا الكتاب في أواخر عهد ابن الزيات وأوائل إصابته بالفالج، في الوقت الذي كتب فيه رسالة الجدّ والهزل، ويظن طه الحاجري غالب الظن، أنه كتب هذا الكتاب وهو بالبصرة[٤]. ألف كتاب البخلاء بعد وفاة ابن السندي وصديقه إبراهيم النظام. في رأي الباحثة كتاب البخلاء سابق، من كتاب الحيوان، حيث يوجد ذكره في "الحيوان"، وفي الوقت ألف فيه رسالة الجد والهزل، ومادة الرسالة أثرت في أسلوبه في البخلاء.

---

[١]- في قصّة محفوظ نقاش، ص١٢٣-٤.

[٢]- أنظر. من قبيل استئناس، قصّة إصابة الجاحظ بالفالج في سرح العيون، ص١٣٦.

[٣]- مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، المجلد الأول، ج٢، ص١٤٨.

[٤]- البخلاء، تحقيق طه الحاجري، ص٣٧.

لمن ألف البخلاء؟

كانت عادة الجاحظ أنه يؤلف كتاباً ويقدم إلى شخصية عالية من أصحاب السلطة، وينال الجوائز، أما كتاب البخلاء فقد أشـــار إلى أنه قدمه إلى عظيم من عظماء الدولة ولكنه لم يبح باســـمه، وراجح أنه كتب لواحد من ثلاثة، هم: محمد بن عبد الملك الزيات، وزير المعتصـــم والواثق، والفتح بن خاقان وزير المتوكل، وابن المدبّر وقد كان للجاحظ صديقاً حميماً[1].

املأ الجاحظ كتاب البخلاء لوراقه، وقرر أن يتمّه ليخرج به إلى الوزير فينال الجائزة أو الموت. وكان عزمه أن يقدم شيئاً لم يقدمه أحد أو لم يقدر عليه أحد حافزاً إلى أن يتكئ على نفســـه، وإن يكن اعتمد أخباراً كثيرة حفظها في أوراقه. فراح يولد الأقوال ويضـــع الأحاديث ويفنن في ذلك شتى الأفانين[2].

من بعث كتاب البخلاء من مرقده؟

في ختام القرن التاسع عشر الميلادي (١٩٠٠م) اطّلع العلامة المستشرق فان فلوتن[3] بـ "كتاب البخلاء" للجاحظ وقد عنى بنشـــره وتحقيقه، ونشـــره دار برل. وأهداه إلى شـــيخ المستشرقين العلامة نولد كه[4].

وقد أســـدى فان فلوتن بنشـــرة هذا الأثر الجليل إلى الأدب العربي منة لا تكاد تقدر بأسباب:

- لايسعنا أن نذكرها وننحني أمامها تقديراً وشكراً، مهما داخل هذه النشرة من أسباب النقص ومظاهره.

- وأكبر الظن أنه لو لا عناية ذلك المستشرق على هذا الأثر العظيم لظلّ حيناً من الدهر حبيساً، حيث كانت مخطوطته مودعة.

---

[1]- مقدمة كتاب البخلاء، أحمد العامري وعلي الجارم، سنة ١٩٣٧م.

[2]- الجاحظ، د. أحمد كمال زكي، ص١٣٨

[3]- فان فلوتن: (١٨٦٦-١٩٠٣م) هو مستشرق هولندي، تتلمذ على دي خويه، ويعتبر أحد المستشرقين المعنيين بالتاريخ الإسلامي، خاصة فترة الأمويين والعباسيين (الموسوعة الشاملة، ١١/٧٩).

[4]- ثيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠م) المستشرق الألماني، من كتاب تاريخ القرآن في القرن العشرين، يعدّ شيخ المستشرقين في الألمان، حصل على الدكتوراه في سن العشرين، وعين مدرساً للتاريخ الإسلامي (الدرر السنية في الأديان، علوي بن عبد القادر السقّاف).

- وظلّ الجاحظ مختفياً عن قراء العربية بأمثل آثاره الفنية، وأجدرها بتمثيل قيمتها الأدبية، وحرمت نهضتنا الأدبية في ذلك الوقت هذه الصورة الرّائعة من صور الأدب القديم الخالد.

وبعد بضعة أشهر لظهوره كتب العلامة الكبير نولد كه فصلاً عنه في ١٩٠٠م وتمنى أن يترجمه أحد المستشرقين إلى أحد اللغات الأوربية.

حقّق طه الحاجري هذا الكتاب في سنة ١٩٤٨م، وترجم كتاب البخلاء بـــ"شارل بللا" في ١٩٥١م باللغة الفرنسية، وهذه أوّل مرّة أن ترجم هذا الأثر العظيم في اللغة الأوروبية، بعد ثلاث سنوات للتحقيق الحاجري[١].(وحققت تمنية نولد كه بأيدي شارل بللا).

ومحاولة أخرى ثبتت بصماتها، لما قام العلامة وليم مرسيه[٢] لترجمة الكتاب، لكن واجه بعض الصـــعوبات خلال الترجمة، وأحس أنه لن يســتطيع تقديم صـــورة مثلى من هذا الأثر العربي إلى القارئ الغربي، بترجمته إلى اللغة الفرنسية إلا بعد أن يحرر النص العربي للكتاب من أثار الخطأ والاضطراب التي تعتوره وتستهلك كثيراً من دقائقه.

فقدم الأستاذ المرسيه في سنة ١٩٢٥م (١) طائفة من الملاحظات القيمة على نشرة فان فلوتن، (٢)وصـــحح بعض الكلمات، (٣) وقوّم بعض العبارات، (٤) وأشـــار إلى بعض المقارنات[٣].

لم تكد هذه النشرة التي نشرها فان فلوتن تصل إلى مصر حتى تلقفها أحد التجار الذي يتجر بنشر الكتب، وهو الحاج محمد الساسي المغربي، فقذف بها إلى المطبعة (سنة ١٩٠٥م) دون أن يتكلف من أوليات ما ينبغي في نشـــر الكتب، فلم يحاول مراجعة المخطوطة، (وقريب منه في دار الكتب المصـــرية) بل ولا ملاحظة القراءات التي أثبتها فان فلوتن في هوامش الصفحات والايضاحات التي ذيل بها نشرته، بل لم يكلف نفسه الإشارة إلى النشرة التي طبع عنها. وبذلك جاءت هذه الطبعة المصرية الأولى مشوهة من النشرة الأوربية[٤].

ووزارة المصرية قد تنبهت إلى شئ من واجبها في هذا الصدد. فعهدت بكتاب البخلاء إلى عالمين من علمائها، هما الأســـتاذان أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك، فأظهراه في نشرة يبدو فيها أثر الجهد ومظهر القصد إلى التحقيق، ولكن هذا الكتاب كانت نشرة مدرسية، فعنيا بتصـــحيح النص ولم يظفر إلا بحظ قليل، لكن عني منها بالتفســـير اللغوي، والإعراب

---

[١]- أنظر البخلاء، تصدير الحاجري، ص٩.

[٢]- وليم مرسيه: (١٨٧٢- ١٩٥٦م) مستشرق فرنسي اهتم خصوصاً باللغة البربرية واللهجة العربية المغربية (موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوى، موسوعة شبكة المعرفة الريفية

[٣]- البخلاء، تصدير طه الحاجري، ص١٠.

[٤]- المصدر نفسه، ص١٠.

النحوي، والتفسير البلاغي. وأسقط بعض القطعات من النص لأنها تتداول في أيدي الطلاب الشباب، وجدا من الخير أن يتخطى ما عسى أن يمس الحياء[1].

فهاتان الطبعتان المصريتان تتفقان في أنهما أخذتا من نشرة فان فلوتن، الأصل الوحيد لهما. وكذلك الأمر في الطبعة التي طبعت في دمشق، إن كانت تمتاز عنها أنها استفاد بآراء بعض العلماء في مواضع من النص. وقد عقب على هذه الطبعة الأستاذ داؤد الحلبي في سلسلة مقالات نشرها بالمجلد العشرين من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[2].

وهكذا نجد أن هذه الطبعات المختلفة جعلت تصدر عن نشرة فان فلوتن وترجع إليها، والاعتماد عليها مجازفة لا تتفق مع الروح العلمية.

وهو أن هناك كثيراً من مواضع الخطأ في نشرة فان فلوتن لا يرجع إلى المخطوطة قدر ما يرجع إلى الناشر نفسه. فقد يكون النص مضطرباً في عيني الناشر، فيسيء قراءته، فيحرفه من أصله بقصد تصحيحه ولا يدري أنه بذلك يزيد النسخة فساداً إلى فساد[3].

فنشرة فان فلوتن من بخلاء الجاحظ لم تكن في صورة يطمئن الباحثون إليها، وإذن لابد من مراجعة النظر في هذا الأثر مراجعة أصيلة، تعتمد على الأصول الأولى، وتستخدم الوسائل العلمية المقررة، وتعنى بإخراجه إخراجاً جديداً علمياً، جديراً بمكانة الجاحظ في تاريخنا الأدبي والعقلي، وبالروح العلمية التي يجب أن تسيطر على اتجاهاتنا في هذه السبل سيطرة قوية. وهي تأدية نص كتاب البخلاء تأدية بدقة، فإنها مقاربة قدر الطاقة. فقام طه الحاجري في هذا الصدد، واعتمد على المصادر مباشرة وغير مباشرة، وحاول بكل جهد إلى تحرير نص الجاحظ وتحقيقه.

٢. كتاب الإمتاع والمؤانسة

٢,١. الإمتاع والمؤانسة من حيث الفن

لعل أقوم كتب أبي حيان التوحيدي وأنفعها وأمتعها هو كتابه الذي نحن بصدده، أي كتاب "الإمتاع والمؤانسة". فهو كتاب ضخم، يقع في ثلاثة أجزاء. وقال القطفي في وصفه: "وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص

---

[1]- البخلاء، ص ١١.
[2]- المصدر نفسه، ص ١١.
[3]- البخلاء، تصدير طه الحاجري، ص ١٢.

كل لجة، وما أحســـن ما رأيته على ظهر نســـخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيّاً توسّطه محدّثاً وختمه سائلاً ملحفاً"[1].

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة أن الوزير دائماً كان يقترح الموضـــوع، وأبو حيان يجيب عمّا اقترح، فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها، ويسأل الوزير عن بعض الأشخاص، ورأيه فيهم، وهكذا يستطرد من باب لباب، وفي نهاية المجلس يسأله الوزير غالباً أن يأتيه بطرفة من الطرائف، يسميها "ملحة الوداع". وهذه الملحة تكون – عادة – نادرة لطيفة أو أبياتاً رقيقة، أم شـعراً بدوياً يشم منه رائحة الشيخ والقيصـوم وهكذا[2]. وأحياناً يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة في رسالة، وأحياناً يتخذ الكلام شكل حوار، وأحياناً يطلب إليه الوزير أن يحضّـر له رســالة في موضــوع، ثمّ يتلوها عليه في جلســة مقبلة، وآونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليه في اللغة والفلسفة والاجتماع، يعرضها عليه، ويطلب منه الجواب فيفعل. ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبي حيان رقعة فيها أســئلة يطلب إليه أن يفكر في الإجابة عنها، ويتصـــل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها، وعلى هذا النمط جرى تأليف الكتاب[3].

وموضـوعات الكتاب "متنوعة تنوعاً طريفاً لا تخضـع لترتيب ولا تبويب، إنما تخضـع لخطرات العقل وطيران الخيال وشـــجون الحديث. حتى لتجد في الكتاب مســـائل من كل علم وفن؛ فأدب وفلســـفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفســـير وحديث وغناء ولغة وســياســة وتحليل شــخصــيات لفلاســفة العصــر وأدبائه وعلمائه وتصــوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه"[4].

أسلوب التوحيدي

أسلوبه يشبه شيء بـــ "ألف ليلة وليلة" ولكنها ليست ليالي للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام، إنما هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة. فإن كان "ألف ليلة وليلة" يصوّر أبدع تصوير الحياة الشعبية في ملاهيها وفتنها وعشقها، فهذا الكتاب يصوّر حياة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية؛ وكلامها في شكل قصصي مقسم إلى ليال، وإن كان حظ الخيال في الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة[5].

---

[1]- أخبار الحكماء، القفطي، ص٢٨٣. (د-ت)
[2]- مقدمة الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين، ص (ن).
[3]- أنظر: مقدمة الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين، ص (ن- س).
[4]- المصدر نفسه، ص (س).
[5]- المصدر نفسه، ص (ص).

وأسلوب الكتاب "أسلوب أدبي راق، يحب الأزدواج ويطيل في البيان[1]، ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولا (..) فإذا خرج من الموضوعات الدقيقة إلى موضوعات أدبية: كوصف لفقره وبؤسه، أو وصف للكرم وفوائده، أو وصف للسان والبيان؛ جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع"[2].

٢,٢. الإمتاع والمؤانسة من حيث التاريخ

التأليف

إنّ أبا الوفا المهندس كان صديقاً لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله العارض، فقرب أبوالوفاء أبا حيان من الوزير، ووصله به، ومدحه عنده، حتى جعل الوزيرُ أبا حيان من سُمّاره؛ فسامره سبعاً وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها، ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبوحيان.

ثمّ طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكّر بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه (أي أبا حيان) ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عادته وقلة مرانته وحقارة لبسته، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه، ويستوحش منه، ويوقع به عقوبته، وينزل الأذى به.

فأجاب أبوحيان طلب أبي وفاء، ونزل على حكمه، وفضّل أن يدوّن ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر، فوافق أبو الوفاء على ذلك، ونصحه أن يتوخى الحق في تضاعيفه ولأثنائه، والصدق في إيراده، أن يطنب فيما يستوجب الإطناب، ويصرح في موضع التصريح. "وكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة"[3].

ودوّن أبوحيان لأبي الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمق الحديث. وكان يدوّن جزءاً ويرسله إلى أبي الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا ... فلما فرغ من الجزء الأول حمله إلى أبي الوفاء على يد الغلام اسمه "فائق"، وأرسل إليه الجزء الثاني في الأسبوع اللاحق، ثم الجزء الثالث وهو الأخير، وقال في أوله: "قد والله ألقيت فيه كل ما في نفسي من جد وهزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وأدب، واحتجاج واعتذار .... ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها في خاص أمري"[4].

---

[1]- لعل سببه أنه وعد أبا الوفاء المهندس بأنه سيرتب كل شيء بالتفصيل، (باحثة).
[2]- مقدمة الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين، ص (ق)
[3]- مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين، ص (د-ح).
[4]- أنظر. المصدر نفسه، ص (ع).

لمن سامر أبوحيان؟

بحث كثير من علماء الشرق والغرب عنه في مظانه، فراجح القول: أنه هو الوزير أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي. لكن هناك احتمالات في قبول الاسم، منها:

ا. ورد الاسم في كتب التاريخ أمثال "تجارب الأمم" وذيله "ابن الأثير" ولم يلقبه أحد منهم بـ"العارض"؛ لكن من الممكن أن يلقّب به اللقب قبل أن يتولى الوزارة، لأنّ كلمة "العارض" جاء في كتاب "الأنساب للسمعاني" لمن يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم، وتولاه هذا العمل في وقت لقي به أبوحيان.

ب. وشهادة أخرى وردت في كتاب الإمتاع والمؤانسة أن أبا الوفاء ذكر لأبي حيان، أنه أوصله إلى "الأستاذ أبي عبد الله العارض" ثمّ كتب اسمه "أبو عبدالله الوزير".

ومن أسماء الوزراء فيما بين سنة ٣٧٠هـ وسنة ٣٧٥هـ لم يجد وزيراً يكني بأبي عبد الله إلا الوزير "أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان" فقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣هـ وقتله ٣٧٥هـ.

ج. وذكر المؤرخون أيضاً أن لم يكن لصمصام الدولة وزير يكنى بأبي عبدالله غير ابن سعدان.

د. ومما يستأنس به أن أبا حيان كان متصلاً بالوزير ابن سعدان، أنه ألف له كتاب "الصداقة والصديق" على أن الوزير أمرله أن يدوّنه، فدونه في الرسالة. فاتصال أبي حيان به معروف.

ر. وهناك شخص آخر من رجال صمصام الدولة من اسمه "أبو الحسن بن عمارة العارض" لكن يبعد أن يكون هو الذي أُلف له كتاب "الإمتاع والمؤانسة"، لأن كنيته "أبا الحسن" والذي ألف له الكتاب هو "أبو عبد الله". وفي مواضع متعددة يتكرر أنه ألفه لوزير، وأبو الحسن ليس بوزير.

ز. وذكر أبو حيان في كتاب "الإمتاع والمؤانسة" من أصدقاء أبي عبد الله العارض اسم أبا الوفاء المهندس، وغيره بعض الأصدقاء وأيضاً ذكر اسمه في كتاب "الصداقة والصديق" ونفس الأصدقاء[1]؛ فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم في مجلس وزير يرجح الظن جداً بأن ابن العارض هو ابن السعدان.

س. وجاء في "كتاب الإمتاع والمؤانسة" أن ابن العارض سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه؟ فذكر صياح وضجيج الناس له بسبب غل القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة

---

[1]- انظر: الصداقة والصديق، ص٣١.

الفقر، وأجابه بجواب مُرّ بقطوب الوجه وإظهار التبرم، وهذه الأوصـــاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع في كتابه "ذيل تجارب الأمم" عن حادثة جرت لابن سعدان[1].

لمن ألف التوحيدي؟

ا. ألف أبو حيان الإمتاع والمؤانسة لأبي الوفاء الذي وصله بابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي، ودوّن له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير في ســبع وثلاثين ليلة. وكان أبو الوفاء من ندماء ابن سـعدان. لكن القطفي في كتابه "أخبار الحكماء" عند ترجمته لأبي سـليمان المنطقي أورد كلاماً يناقض هذا القول، أنّ أبا سـليمان كان أعور، وبســببه اعتزل عن الناس، ولزم بيته، وكان التوحيدي من بعض أصــحابه المعتصــمين به، ولأجله صــنف هذا الكتاب. وأحمد أمين في مقدمة الكتاب يقول أنه يرجح خطأ القطفي في هذا الصدد.

ب. وأبو حيان يقول في صــدر الكتاب "إنه ألفه ردا لجميل أبي الوفاء إذ كان هو الذي أوصله لأبي عبد الله". وفي ثنايا الكتاب يسأل أبو عبدالله أبا حيان عن رأيه فيه، فيمدحه ويثني عليه ويقول: "كيف أذمه وهو الذي أوصلني بك"[2].

ج. ودليل آخر أن في كتاب "الإمتاع والمؤانســة" يلقب الوزير أبا الوفاء المهندس بـ "شيخنا"، أما أبو سليمان فكان فقيراً، وكانت صلة أبي حيان به صلة علمية، لاصلة مالية، فمن البعيد أن يستجديه أبوحيان[3].

د. ودليل آخر: وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان في الكتاب عن أبي سليمان هذا، فذكر له أوصافه مع عيوبه، فلو كان ألفه لأبي سليمان لكان بعيداً كل البعد أن يذكر عيوبه[4].

ر. و"أن أبا حيان ينقل في كتابه هذا عن أبي سليمان، ويذكر آراءه، وينقل بعض رسائله إلى الوزير، ولو كان يؤلف هذا الكتاب لأبي سـليمان لاسـتغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سـليمان عن نفســه من أقواله ورســائله، ولكان أبو حيان في ذلك كمن ينقل إلى البئر ماءه، وإلى الكنز ذهبه، وهذا غير مألوف ولا مسـتسـاغ"[5]. لهذا كله يرجح خطأ القطفي فيما ذهب إليه لأنه ألفه لأبي سليمان المنطقي. وهو لم يؤلف هذا الكتاب جملة ليهديه إلى ابن سعدان، وإنما سامره به ليالي عديدة متواترة ومختلفة، وحدثه في سبع وثلاثين ليلة. وألفه لأبي الوفاء المهندس صديقا لأبي حيان وللوزير ابن سعدان، الذي عرّف الوزير بأبي حيان، فقربه واتخذ من سماره[6].

---

[1]- مقدمة الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين، ص (ز).
[2]- المصدر نفسه، ص (ل).
[3]- المصدر نفسه، ص (ل).
[4]- المصدر نفسه، ص (ل).
[5]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، مقدمة أحمد أمين، ص (ل).
[6]- أبو حيان التوحيدي، محمد أحمد الحوفي، ص٤٤.

ثمّ عاتب أبو الوفاء أباحيان على أنه اختص الوزير بسمره، وذكر فضله عليه في تقديمه إلى ابن سعدان، وطلب منه أن يكتب له كل ما قصّه على الوزير في لياليه، وشدّد في طلبه، وهدده أن يجفوه ويعاقبه إن لم يستجب[1]، وهدده بقطع النعمة عنه إن هو لم يطلعه، فقال له: "إنك جهلت أن من قدر على وصولك، يقدر على فصولك، وأن من صعدبك حين أراد ينزل بك إذا شاء"[2]. وقال أيضاً: "وهذا فراق بيني وبينك، وآخر كلامي معك وفاتحة يأسي منك ... إلا أن تطلعني طلع جميع ما تحاورتما وتجاذبتما هدب الحديث عليه"[3]. فاستجاب أبوحيان ودوّن مسامراته في هذا الكتاب[4]، وزاد في الحسن، ونقص من القبيح[5]، وكان يرسله إلى أبي الوفاء أجزاء، وبعثه إليه على ثلاث مرات، لأنه قال في أوّل الجزء الثالث: أوصلت إليك الجزئين الأول والثاني على يد غلامك فائق، وهذا هو الجزء الثالث[6]. وطلب منه الاحتفاظ بالرسالة سرّاً، وألحّ في هذا الطلب بقول: "وأنا أسئلك ثانيةً (..) أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيّابين، بعيدةً عن تناول أيدي المفسدين المنافسين فليس كل قائل يسلم ولا كل سامع ينصف"[7].

إذن يظهر أن الكتاب هو ثمرة ضغوط شديدة سلطت على التوحيدي وجعلته يخاف الغد، فاستجاب الطلب ولم يتردّد لحظة واحدة في أدائه لأنه خاف وخشي بتهديده ولا يريد أن يفقد صداقة أبي الوفا المهندس. ومن جانب آخر عمد أبو الوفاء إلى تحديد حرية المؤلف لغةً ومضموناً، فضبط له بكلّ دقّة الأسلوب الذي يجب عليه اتباعه في التحرير[8]. فالإمتاع والمؤانسة هو "وليد التهديد" من ناحية و"الخوف" من ناحية أخرى، وقد ملك فيه أبو الوفاء على أبي حيان كامل حريته الفكرية والأسلوبية.

متى ألف الإمتاع والمؤانسة؟

إنه ألف الكتاب في حياة الوزير، وخشي أن الوزير يطلع عليه فيعلم مقدار ما تزيد. والدليل عليه أنه ألفه في حياة الوزير ما جاء في نسخة ميلانو: "أنشئت هذه الرسالة في رجب سنة ٣٧٤هـ" والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣هـ إلى سنة ٣٧٥هـ"[9]. والتوحيدي

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، محمد أحمد الحوفي، ص٤٥.
[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٦.
[3]- المصدر نفسه ، ج١، ص٦-٧.
[4]- المصدر نفسه، ج١، ص١٠.
[5]- المصدر نفسه، ص٩.
[6]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٦.
[7]- المصدر نفسه، ج٢، ص١.
[8]- المجتمع والرؤية، د. الحبيب شبيل، ص٢٤.
[9]- مقدمة الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين، ص (ف).

ألف هذا الكتاب في الكهولة، فهو يقول في مقدمة الكتاب: "وأنا في ذيل الكهولة وبادنة الشيخوخة".

من بعث كتاب الإمتاع والمؤانسة من مرقده؟

أحرق التوحيدي كتبه في حياته، لينتقم من الناس الين كفروا صنيعه والنسخ الموجودة من تصانيفه خرجت عنه قبل حرقها.

نسخة الكتاب

محقق أحمد أمين يعرف عن نسختين كتاب "الإمتاع والمونسة":

- فأما النسخة الأولى فكاملة، وتقع في خمسة أقسام.

والجزء الثاني ما نصه: محمد الأيوبي، وكتب للعادل سليمان بن غازي الأيوبي.

- وأما هذه النسخة فأخذها المرحوم زكي باشا بالفوتوغرافيا من مكتبة طوب قبو سراى لما اطلع على الكتاب وعرف قيمته. وقد أحضر النسخة الفوتوغرافيا معه إلى القاهرة، وكتب بعض الأشياء، لكن توفى – رحمه الله- فتشتراها السيد حمدي السفرجلاني وباعها لدار الكتب المصرية.

- والنسخة الثانية فوتوغرافية أخذت من أصل ميلانو، وليست كاملة.

وأحمد أمين وأحمد الزين قاما بتصحيحه، وقسما كل ليلة رقما يدلّ عليه[1].

[1]- أنظر: الإمتاع والمواسة، التوحيدي، مقدمة: أحمد أمين، (ص) (ق-ت).

الفصل الرابع: البخلاء والإمتاع والمؤانسة من حيث القيمة والمحتوى

١. كتاب البخلاء

١,١. البخلاء من حيث القيمة

كتاب البخلاء، هو أكبر الآثار التي أبقت الأيام عليها من ميراث الجاحظ الأدبي الخالص. وإنها كانت أقوى صفات الجاحظ، وأغلبها عليه وأبرزها في جميع آثاره. وباعتبار قيمته هو أعظم الآثار التي بقيت لنا، صادرة عن هذه النزعة القوية، وكذلك السيطرة الأدبية واضحة في الناحية العلمية[١].

العصر العباسي هو عصر الازدهار للفنون والآداب، حين تطوّر المجتمع الحضري واتساع حركة التمدن والاختلاط بين الأجناس، فغيرت أنماط الحياة، وتداخلت المذاهب والعادات، وظهر انقلاب في بعض خصائص المجتمع العباسي، كما تغيرت الطبائع، وانحسرت قيمة الجود والكرم، وراج البخل والاقتصاد في حياة عامة الناس.

إنّ آثار الجاحظ هي ينبوع ثرّ من المعلومات عن الفعالية الفكرية والدينية والعلمية والاجتماعية عند العرب والأعاجم حتى أواسط القرن الثالث للهجرة. وهي أبعد أن تؤلف وحدة متجانسة متماسكة. وهذا الكتاب يُعدّ من أشهر مؤلفاته، فهو كتاب أدب وعلم وفكاهة. ويقوم على أساس التماس البخلاء، الحجج العقلية والنقلية، في دفع تهمة البخل عنهم، أو تسويغها بالاقتصاد. وهو من أنفس الكتب التي يتنافس فيها الأدباء والمؤرخون، لأنه تصوير حي لحياة اجتماعية في صدر الدولة العباسية، ويكشف لنا أسرار الأسر، ودخائل المنازل، وحياتهم الخاصة والعامة، وسلوكهم وعاداتهم وصفاتهم وأحوالهم. وكذلك تبرز لنا موقف البخلاء عن دفاعهم للبخل، الذي يسمّونهم الاقتصاد.

كتاب البخلاء مشهور عند العرب والمستعربين، ومؤلفه الجاحظ لاحظ أن العرب مجبولون على الجود والسخاء، فألف هذا الكتاب، لمواجهة العجم المشهورين بالاقتصاد والبخل. ومعظم الأشخاص وردت أسماؤهم في كتاب البخلاء هم من الموالي وأهل خراسان. ونراه أنه يحلل البخل تحليلاً لانظير له من قبلُ ومن بعدُ في تاريخ الأدب العربي[٢].

---

[١]- البخلاء، تصدير طه الحاجري، ص١٠

[٢]- أنظر. الجاحظ، شارل بلا، ترجمة. إبراهيم الكيلاني، ص٣٨٦- ٣٨٧.

والجاحظ كالباحث يشـخص أمراض المجتمع النفسـية والاجتماعية، ويتكلم عنهم بدقة تصـويره، ووسـعة معلوماته حول هذه الفئة من الناس. هو كتاب مهم من الكتب التراثية الذي تجسد لنا العصر العباسي بكل حيويته، وحياته الاجتماعي بكل التفاصيل، ويشخص لنا أمراض المجتمع النفسـية والاجتماعية. وتنقّل لنا الحياة الثقافية بكل إشـعاعاتها ورحابتها المدهشـة، يساعدنا في فهم التاريخ[1].

١,٢. البخلاء من حيث المحتوى

موضوع الكتاب

هذا الكتاب يمثل نقداً للبخل، وكذلك الدفاع عن القيم العربية الأصـيلة كالجود والكرم. والجاحظ أشبه ما يكون بممثل الدفاع والاتهام في نفس الوقت، فلا تعرف هل هو يذمّ البخل؟ أو يعتبره من المحامد بين الناس. فهو من جهة يورد النوادر عن البخلاء، ويتيح لقارئه الضـحك إلى حدّ قهقهة، ومن جهة أخرى يلقّن خلانه الحجّة تلو الحجّة بما يحبب أحياناً البخل إلى النفس، حيث الاقتصاد في النفقة وحسن التدبير في المال[2]. والكتاب يشتمل على عنصرين:

- الفكاهة والإضحاك من خلال القصص.

- إيراد الحجاج والمناظرات ليضفي على جوّ الكتاب الفكاهي جوّا كلامياً فلسفياً منطقياً. يستعرض فيه الجاحظ تقنياته الحجاجية والكلامية. فهذان العنصران يفضيان إلى هدف الجاحظ وهو البيان.

صـوّر الجاحظ في كتابه البخلاء، وهو لم يأخذ بخلاءه من بطون التواريخ ولكنه أخذهم من بيئته وخصّ بالذكر منهم بخلاء بلده البصـرة، وبخلاء خراسـان وعاصـمتها مرو، وسـمّى المبخّلين غير متحرّج، وقد صـوّر بخلاءه تصـويراً واقعياً حسـيّاً، وتصـويراً نفسـيّاً، وجعلته شخصيّته المرحة العابثه، المطبوعة على السّخر والتهكم يمزج في تصويره إياهم الجد بالعبث والنقد للعادات والأخلاق بالفكاهة. وكان بخلاء الجاحظ من "طيّاب البخلاء" كما كان يسـمّيهم. وعالج الجاحظ من خلال قصـصـه أحوال الإنسـان ودرس نفسيته وأخلاقه وغرائزه وعاداته، وجعل أشخاصه إنسانيين يمكن أن يعيش في كل زمان ومكان كما في تصويره المتسوّلين[3].

---

[1]- أنظر الجاحظ وصورة الآخر في كتاب البخلاء، مثنى كاظم صادق، الحوار المتمدن، العدد ٢٧٥٢، ٢٨-٠٨-٢٠٠٩م، ١٠:٠٣.

[2]- البخلاء، تقديم وضبط وتدقيق وشرح وفهرس، د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م/١٤٢٠هـ.

[3]- أنظر: كتاب البخلاء، الجاحظ، ص٧-٩.

تقسيم الكتاب

إن النصـــوص في كتاب البخلاء كثيفة وغزيرة من حيث الكم والكيف، فيصـــعب تحديد منهجه في التقسيم. تأتي النصوص تحت المسميات أوالعناوين التالية: رسالة أو حديث أو نوادر أو قصّة أوتفسير أو الرجوع أوضروب أو رد أو أطراف من علم العرب.

لا تأتي هذه النصوص مرتبة فهي تأتي غير مقسمة وغير مطردة شكلياً. فيبدأ الجاحظ كتابه بعد المقدمة برسالة سـهل بن هارون إلى بني عمه، حين ذمّوا مذهبه في البخل، ثم تأتي نوادر أهل خراسان، ثمّ قصص أهل البصرة من أصحاب المسجديين، ثمّ ثلاث قصص منها قصة زبيدة بن حميد، وقصّة ليلى الناعطية، وقصّة أحمد بن خلف، ثمّ حديث خالد بن يزيد، ثم ثلاث قصص منها قصة أبي جعفر وقصّة الحزامي وقصّة الحارثي، ثمّ تفسير كلام أبي فاتك، ثم ست قصص ومنها قصّة الكندي وقصّة محمد بن أبي المؤمل، وقصّة أسد بن جاني وقصّة تمام بن جعفر وقصّة ابن العقدي وقصّة الأصمعي، ثمّ رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب إلى الثقفي، ثم الرجوع إلى أحاديث البخلاء، ثمّ ضـروب الطعام عند العرب، ثمّ يختم الجاحظ كتابه بطرف شتّى.

هذا التنوع في الكتاب يبدو ضـرباً من الفوضـي والاضـطراب في الوهلة الأولى لكنه يمثل مظهراً أوّلاً من مظاهر الثراء والغزارة في الأثر. ذلك أن التنوع في الشـكل والتعدد في الأبنية يوحّدها الإنشداد إلى الموضوع الواحد، وهو البخل والإمساك والاقتصاد في النفقة[1].

وتقسم نصوص الكتاب إلى ثلاثة أنواع:

ا. غالب عليها الطابع البياني، بمعنى أنها أحاديث أو أقوال تردد على لسـان البخيل. كحديث الثوري الذي قال لابنه وهو ينصحه.

ب. غالب عليها الطابع السردي، وهي حكايات وقصص ونوادر تختلف طولاً وقصراً وتصـور واقعة أو حادثة جرت لشـخص مع بخيل أو بخيل مع شـخص أو مجموعة من الأشخاص فيها حكمة من حكم الاقتصاد والتدبير، كحكاية الجاحظ مع محفوظ النقاش.

ج. نصـوص يتداخل فيها الجانبان البياني والسـردي، فتوجد فيها مقاطع تشـمل أقوال البخيل واستطراداته واحتجاجاته من جهة والأحداث والأفعال من جهة ثانية، كقصة الكندي مع سكان داره.

---

[1]- أدبية النادرة، دراسة في بخلاء الجاحظ، حافظ رقيق، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس، ط١، سنة ٢٠٠٤م، ص٩.

وبهذا ممكن القول أن الجاحظ ركّز على وحدة عضـوية موضـوعية غاية، الذي تتنوع فيه الأجناس الأدبية من أجل التغيير، وهذا التقسيم تفرضه عقلية الجاحظ الموسوعية المترامية الأطراف.

٢. الإمتاع والمؤانسة

٢,١. الإمتاع والمؤانسة من حيث القيمة

"الإمتاع والمؤانسـة" كتاب ممتع مؤنس كاسـمه، يلقي نوراً كثيراً على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع – أعني في العصر البويهي – وهو عصر مغبش بالظلام فإنه يتعرض لكثير من الشـؤون الاجتماعية في ثنايا حديثه، فيصـف الطبقة العليا وفيهم الأمراء والوزراء، ومجالسهم، ومحاسنهم ومساويهم، ويصف العلماء، ويحلل شخصياتهم، وأحوال مجالسهم، وما يدور فيها، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين، والمناظرة في المفاضلة بين المنطق اليوناني والنحو العربي، والمفاضلة بين الأمم، ورأي العلماء في الشعوبية، وغيرها كأن هذا الكتاب مرآة للمجتمع في القرن الرابع للهجري. وفيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسة للدولة، فهو يصف كثيراً حالة الشعب في عصره وموقفهم من الأمراء والملوك، وهيجانهم واضطرابهم. هو مصدر ثمين لدراسة تراث التوحيدي والحياة الفكرية والاجتماعية في زمن آل بويه، ولا نجد أبلغ عبارة من عبارة القطفي في وصفه لهذا الكتاب حين قال: "هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجّة"[١].

وتقول د. طيبة صالح الشذر أن الكتاب قد انفرد بإيراد وثيقتين هامتين: الأولى منها، هي النص الذي كشف لنا عن مؤلفي إخوان الصفا، وقد نقله القفطي عنه[٢]، والثانية هي المناظرة الممتعة التي دارت بين أبي سعيد السيرافي ومتّى بن يونس القناني حول المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني[٣]. وهي تصور لنا قصّة النزاع بين النحويين والمناطقة[٤].

وتظهر قيمة الكتاب فيما يضمه من أفانين المعرفة والثقافة ما يعبر عن عقلية صاحبه الموسوعية، ويلقى الضوء على الحالة الثقافية للعراق في القرن الرابع الهجري. وهذا الكتاب لا يتضمن منه موضوع واحد ينسقه في فكرة أو حول فكرة، وإنما هو أفانين من المعرفة والثقافة لا يربطها رابط موضوعي. وهو ضرب رفيع من أدب المسامرة، لأنه إجابات عن

---

[١]- تاريخ الحكماء، القفطي، ص٣٨٣.
[٢]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، مقدمة: أحمد أمين، ص (ف).
[٣]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج١، ص١٠٧-٢٨.
[٤]- ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، د. طيبة صالح الشذر، ص "ع".

أسئلة شتّى كان يعدها ابن سعدان في نفسه أو كان يلقيها عفو الخاطر على أبي حيان التوحيدي في مجالس الإمتاع .

وتجمّعت فيه عصـــارة مؤلفاته الأخرى، فهو عرق أدبه، رغم أنه ليس الكتاب الأخير الذي ألفه؛ ففيه خلاصـــة كتاب "مثالب الوزيرين" لأنه حدّد الموقف الجوهري لأبي حيان من ابن العميد والصاحب بن عبّاد؛ وفيه قبس من "المقابسات" لخوضه في شتّى فنون المعرفة من فلسـفة وتصـوّف وغيرهما؛ وفيه مزج الجدّ بالهزل، والهزل بالجدّ ترويحاً عن القارئ كما في "البصائر والذخائر"؛ وفيه نبذة من "الإرشادات الإلهية" لأنه لمّح إلى إحساس المؤلف بالغربة داخل المجتمع، وميله إلى العزلة وبداية يأسه من الحياة. ففي الكتاب إذن "روح أبي حيان بسعة ثقافتها وبهزلها وجدّها وبقلقها وتشاؤمها. وهذا الأمر يجعل "الإمتاع والمؤانسـة" يلتقي فكرياً ووجدانياً مع كلّ ما أتيح التوحيدي من آثار"[1].

٢,٢. الإمتاع والمؤانسة من حيث المحتوى

هذا الكتاب لا يخضـع لترتيب ولا تبويب، قسـمه التوحيدي في تقسـيمه إلى ليال، وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار، يجعله لذيذاً شيقاً، وممتعاً مؤنساً[2].

يقســـم الكتاب بين الأجزاء والليالي: الأجزاء، يبلغ عدد أجزاء الكتاب الذي حققه أحمد أمين وأحمد الزين ثلاثة. وهذه الملاحظات عن تقســيم الكتاب: أن أبا حيان أرســل الكتاب إلى أبي الوفاء على ثلاث مرات، واضحة التقسيم.

القسم الأول: له مقدمة يبدأ بـــ"نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين" وله خاتمة أبلغ فيها التوحيدي السلام إلى أبي الوفاء[3]. وقد احتوى هذا القسم على ست عشرة ليلة.

القسم الثاني: له مقدمة يخاطب فيها التوحيدي الشيخ أبا الوفاء[4]، وله خاتمة واضحة تبدأ هكذا: "هذا الجزء أيها الشيخ ... هو الجزء الثاني والثالث يتلوه"[5].

القسم الثالث: له مقدمة المخاطب فيها دائماً أبو الوفاء المهندس وذيله التوحيدي برسالتين وجههما لابن سعدان وبأخرى وجهها إلى أبي الوفاء.

---

[1]- المجتمع والرؤية، الحبيب شبيل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/ ١٩٩٣م، ص١٣٢.

[2]- مقدمة الإمتاع والمؤانسة، أحمد أمين، ص "ص".

[3]- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ج١، ص٢٢٥.

[4]- المصدر نفسه، ج٢، ص١-٢.

[5]- المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٥.

مادة الكتاب

يقسم الكتاب بعناوين الليالي المذكورة في الكتاب، وهي ذات مواضيع المجالس التي دارت بين الوزير وأبي حيان التوحيدي، وليس له من إضافات عليها إلا مقدمات الأجزاء الثلاثة والرسالتان الموجهتان لابن سعدان ثم الرسالة الموجهة لأبي الوفاء.

ونجد في الكتاب إشارات عديدة إلى أنواع اللقاء بين ابن سعدان المؤلف فقد كانت لهما لقاءات ثنائية، والدليل على ذلك قول أبي الوفاء يخاطب أبا حيان: "أفكان من حقي عليك ... أن تخلو بالوزير – أدام الله أيامه – ليالي متتابعة وأخرى مختلفة"[1].

كما كانت لهما لقاءات يحضر فيها أناس آخرون، يقول في الليلة الثانية والثلاثين: "فقال ابن زرعة وكان حاضراً"[2]، فهذا اللقاء ليس ثنائياً، وأيضاً يقول: "وقال بعض من حضر المجلس – وهو رجل القدم الثقيل"[3].

طريقته

ا. كان ابن سعدان يسأل أبا حيان، فيجيبه.

ب. وأحياناً كان ابن سعدان يتخذ من الجواب موضوعات لأسئلة أخرى، يفرعها.

ج. وأحياناً يطرح عليه السؤال ويمهله إلى الغد ليجيب، أو يمهله إلى أجل غير معلوم، حتى يقرأ ويسأل ويباحث غيره، ثمّ يجيب شفويًا أو كتابة.

د. ولقد يسمع منه بعض الجواب، ويرجئ باقية إلى أن يكتبه أبو حيان ويبيضه[4].

ر. ولقد يروقه الجواب فيطلب من أبي حيان أن يكتبه ليردد نظره فيه: "لله در هذا النفس الطويل، لقد كنتُ قرِما إلى هذا النوع من الكلام" ففرغ نفسك لرسمه في جزء، لأنظر فيه، وأشرب النفس حلاوتَه"[5].

ز. وكان يختم بعض الليالي بقوله: هات ملحة الوداع[6].

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص٥.
[2]- المصدر نفسه،ج٣، ص٦٦.
[3]- المصدر نفسه، ج٢، ص١١٢.
[4]- المصدر نفسه، ج١، ص٧٠.
[5]- المصدر نفسه، ح١، ص٩٥.
[6]- المصدر نفسه، ج١، ص٧٠.

س. ولم يكن ابن سعدان يكتفي بالسماع، بل كان أحياناً يعلّق برأيه، ويناقش ويفنّد[1].

ص. وأبو حيان في إجاباته يسند كل خبر أو رأي لصاحبه. فقد نقل عن أرسطو عن كتابه (السماء والعالم) وسماه "الحكيم"[2]، ونقل عن الأصمعي[3]، وعن علي بن أبي طالب[4]، وعن عمر بن الخطاب[5]، وعن إبراهيم السندي[6]، وعن إبراهيم بن الجنيد[7]، وعن الأعمش[8]، وعن أنس بن مالك[9]، وعن عمارة بن مالك اللخمي[10]، وعن ابن الكلبي[11]، وعن أبي سليمان المنطقي[12]، وعن أبي الحسن العامري[13].

ط. واستشهد بأحاديث كثيرة[14].

ع. وعقب على الليلة السابعة عشرة (عدد صفحاتها ٤٨ صفحة) يلتف شتى (٢٤ صفحة) ذكر فيها طرفا وآراء النبي صلى الله عليه وسلم وابن المقفع وكسرى أنو شِروان وأبي سليمان وعمر بن الخطاب، وتكلم عن الدية عند العرب، ومثل بشعر وذكر كلاما لديو جين، والإسكندر وسقراط وأنكسا غوراس وأفلاطون، وسقراط وأبي زيد البلخي ومسكويه وأبقراط[15].

ف. وبدأ الليلة الثامنة عشرة بمجون فيه إفحاش، نثري وشعري من محفوظه، وفيه فكاهات لا إفحاش فيها، لكن لا يجمعها رابط موضوعي[16].

ق. وفي إحدى لياليه وصف الوزير برقة القلب، وشدّة التوقّي، وكثرة الصوم، لأنه دمع حينما سمع حديث الرسول عليه الصلاة والسلام « **بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ**»

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٢٤.
[2]- المصدر نفسه، ج٢، ص٨٧.
[3]- المصدر نفسه، ح٢، ص٦٣.
[4]- المصدر نفسه، ج٢، ص٦٣.
[5]- المصدر نفسه، ح٢، ص٦٦
[6]- المصدر نفسه، ح٢، ص٦٦.
[7]- المصدر نفسه ، ج٢، ص٦٨.
[8]- المصدر نفسه ، ح٢، ص٦٩.
[9]- المصدر نفسه، ج٢، ص٦٩.
[10]- المصدر نفسه ، ج٢، ص٧٠.
[11]- المصدر نفسه ، ح٢، ص٢٤.
[12]- المصدر نفسه ، ج٢، ص٨٢، ١٣٢.
[13]- المصدر نفسه ، ج٢، ص٨٤.
[14]- المصدر نفسه ، ج٢، ص٩٢- ١٠٣.
[15]- المصدر نفسه، ج٢، ص٢
[16]- المصدر نفسه ، ح٢، ص٥٠.

[1]. وسمع شرح الحديث. ثمّ طالبه الوزير بجمع جزء من رقائق العبّاد وكلامهم اللطيف الحلو ومواعظهم الرادعة، ففعل، وكتب ورقات في حديث النُّسّاك[2].

ل. وعاد إلى مواعظهم ثانياً[3].

م. ومرة طلب منه الوزير ابن سعدان كلمات بَوارع، قِصارٍ جوامع، فكتب إليه أشياء كان قد سمعها من أفواه أهل العلم والأدب، على الأيام في السّفر والحضر[4].

موضوعاته

ليس للكتاب موضوع واحد يَنسُقه في فكرة أو حول الفكرة، وإنما هو **أفانين من المعرفة والثقافة، لا يربطها رابط موضوعي. هو ضرب رفيع من الحديث والمسامرة؛ لأنه** إجابات عن الأسئلة شتى، كان يعدها ابن سعدان في نفسه، أو كان يلقيها عفو الخاطر. وكان الكتاب دون الموضوعات أو الفهرس، فأرتبتُ عناوين حسب موضوعات الليالي الأربعين فيما يلي:

الليلة الأولى: تحيات وتعارف وفقة اللغة و قصّتان وملحة الوداع

الليلة الثانية: كلام عن أبي سليمان المنطقي وملحة الوداع

الليلة الثالثة: حديث الخُراساني، كلام عن رسل سجستان، وعيوب بعض العلماء وملحة الوداع

الليلة الرابعة: حديث عن الغزل، عن الغلام خواشاذة، عن بلاغة ابن عبّاد وابن العميد

الليلة الخامسة: خصال أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي، قصة ملحة الوداع

الليلة السادسة: فضيلة العرب أم العجم

الليلة السابعة: الحساب أنفع وأفضل أم البلاغة، آفات الكتابة

الليلة الثامنة: المنطق والهندسة، مناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتّى

الليلة التاسعة: أضراب في خلق الحيوان، وخصائله، وفي أخلاق الناس

---

[1]- حديث المرفوع، رقم ١٤٥، صحيح مسلم.
[2]- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، ج٢، ص٨٠.
[3]- المصدر نفسه ، ج٢، ص١١٩ -١٣٠.
[4]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٤٦١؛ وانظر. أبو حيان التوحيدي، محمد أحمد الحوفي، ص٤٨.

الليلة العاشرة: (وفيها الليلة الحادية عشرة والثانية عشرة أيضاً[1]) نوادر الحيوان وغرائبه

الليلة الثالثة عشرة: كلام في النفس والعقل

الليلة الرابعة عشرة: عن السكينة والطمع

الليلة الخامسة عشرة: كلام في الممكن وملحة الوداع

الليلة السادسة عشرة: القضاء والقدر وملحة الوداع

الجزء الثاني

الليلة السابعة عشرة: في تِفعال وتَفعال، الفرق بين الفلسفة والشريعة، الوحي والروحانيّ

الليلة الثامنة عشرة: ليلة مجونية وملحة الوداع

الليلة التاسعة عشرة: كلمات بوارع، قصارٍ جوامع، والوصايا والمح

الليلة العشرون: الأحاديث الفصيحة المفيدة

الليلة الحادية والعشرون: الحسّ والطرب

الليلة الثانية والعشرون: كلام أبو الحسن العامري الفيلسوف

الليلة الثالثة والعشرون: لُمَعٍ من كلام الرّسول صلى الله عليه وسلّم

الليلة الرابعة والعشرون: طبائع الحيوان، والنبات، والفرق بين الروح والنفس

الليلة الخامسة والعشرون: مراتب النظم والنثر

الليلة السادسة والعشرون: أمثلة الكلمات القصار

الليلة السابعة والعشرون: في كنه الإتفاق وحقيقته، والبركة والطيرة

الليلة الثامنة والعشرون: أيام التُرك

الليلة التاسعة والعشرون: كلام عن الله، ومعنى اللغوي لبعض الألفاظ

الليلة الثلاثون: في التذكير والتأنيث

---

[1]- وفي الليلة العاشرة تضمن ليلتان، الليلة الحادية عشرة والثانية عشرة، كما يقول التوحيدي: "وإني قرأتُ هذا الفصل على الوزير -في الليلتين"، وجعل الفصل القادم الليلة الثالثة عشرة (هامش الإمتاع، ص١٩٨).

الليلة الواحدة والثلاثون: حديث في الحرب والحزم والتقيظ وقلّ الاستهانة بالخصم، ووجوه فعيل ومواقعها

الجزء الثالث

بقية الليلة الحادية والثلاثين: أمر المطعمين والطاعمين

الليلة الثانية والثلاثون: ما بقي في الليلة السابقة عن الشبع، والضيافة

الليلة الثالثة والثلاثون: حديث الممالحة، وفيها القصص والأقوال والأشعار

الليلة الرابعة والثلاثون: خوض العامّة في ذكر أمور الحكام

الليلة الخامسة والثلاثون: الفرق بين الإرادة والاختيار

الليلة السادسة والثلاثون: كلمات، إهلال واستهلال، عشر كلمات عينها عين ولامها واو.

الليلة السابعة والثلاثون: الأخلاق في الخلق

الليلة الثامنة والثلاثون: شواهد عصره في أيام الفتنة الغربية

الليلة التاسعة والثلاثون: ضروب الجواب الحاضر

الليلة الأربعون: قصص المفاضلة والتعصب وملحة الوداع

جهد أبي حيان في هذا الكتاب

أكثر جهده معتمد على الإدلاء بما يحفظه أو ينقله، بعباراته هو في الغالب. وأقل من هذا اعتماده على آرائه الخاصة. فمن اعتماده على محفوظه هذان مثالان:

١. سأله الوزير أن يفرق بين النظم والنثر، ويبين أيهما أجمع للفائدة، وأدخل في الصناعة وأولى للبراعة. فأجاب في تفضل النثر إجابة نقلها عن شيخه أبي سليمان وأبي عابد الكرخي، وعن عيسى الوزير وعن ابن طرّارة وعن أحمد بن محمد كاتب ركن الدولة وعن ابن هند والكاتب وعن ابن كعب الأنصاري، ونقل تفضيل الشعر عن السلاميّ وابن نباته والخالع والأنصاري[1].

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي، ح٢، ص١٣٠.

ولم يُدلِ برأى خاص في موضوع أدبي كهذا هو من اختصاصه[1]. قال له ابن سعدان: ما تحفظ في تَفعال وتِفعال، فقد اشـــتبها؟ وفرغت إلى ابن عبيد الكاتب فلم يكن عنده مَقنَع، وألقيتُ على مسكويه فلم يكن له فيها مطلع، وهذا دليل على دثور الأدب، وبَوَار العلم، والإعراض عن الكَدح فى طلبه.

فقال (التوحيدي): قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام – نضَّر الله وجهه - : المصادر كلها تَفعال بفتح التاء، وإنما تجيئ تِفعال في الأســـماء. وليس بالكثير. قال: وذكر بعض أهل اللغة منها ستة عشر اسما لا توجد غيرها.

قال: هاتها.

قال التوحيدي: منها التِّبيان، والتِّلقاء، وتِمساح ، وتِمثال -- الخ[2]. ومن آرائه الخاصة هذا المثال: سأله ابن سعدان: أتفضّل العرب على العجم أم العجم على العرب؟ فأجاب بما نسبه إلى ابن المقفع في تفضيل العرب على الفرس والروم والصين والهند والزنج. لكن ابن سعدان طلب رأيه فأراد أن ينتصل، فضيق عليه فأجاب بأن لكل أمة فضائل ورذائل. وشرع يعدد فضائل الفرس والروم والهند والترك والزنج والعرب، على أنها ليست فضائل لكل فرد منها، بل هى شائعة بينها، وفي كل أمة من هذه الأمم كثير لا يتحلون بها.

وتنبّه إلى فكرة لها قيمتها في الحكم على الأمم، وهي أن لكل أمّة من الأمم زمناً تغلب فيه وتسمو، كما كانت يونان في أيام الإسكندر، وفارس أيام كسرى أنوشروان، والأمة في زمان قوّتها وسيطرتها تكون أفضل، فإذا غلبها غيرها صار هو الأفضل .. [3] لكنه عاد ففضّل العرب على الفرس وعلى الهند، وردّ على الشعوبية في قوّة وتدفق وبراعة بيان[4].

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، محمد أحمد الحوفي، ج٢، ص٥٠.
[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٢.
[3]- المصدر نفسه، ح١، ص٧٠ ــ ٧٩
[4]- المصدر نفسه، ح١، ص٧٦ ــ ٩٦.

الخلاصة

هذا الباب يبين الربط بين الأديبين وإنتاجهما، فالجاحظ نتاج صاف للبصرة، والوسط البصري أثر في تكوين عقله وأدبه، الذي ظهر ثمره في بغداد. تأثر الجاحظ من مجتمعه واختار له طريقه وهو أنه مزج الجدّ بالهزل، وفي عصر اشتعلت فيه نار الشعوبية، حاول أن يخمد هذه النارفي زمن ومكان فيما حوله هجوم الفرس. وفي عصر الازدهار الثقافي ترك نتاجه بصمات واضحة على هذا العصر. وعصر التوحيدي يعدّ قرن التناقضات سياسيّاً، وألوان التفكير في المدارس الفكرية والاعتقادية والفقهية فرّقت بين الشعب على الرغم أن المملكة عامة وبغداد خاصة تغصّ بالعلماء والمفكرين والحكماء. وهي أحفل العصور برجال العلم. وهذا طبيعي أن التوحيدي تأثر بهذا الجوّ الزاخر، بما أن حياته بدأت بالضنك أصبح لساناً ناطقاً للثقافة العربية. وفي حياته العامة لم يكن مزوّداً بأخلاق عالية، ويعاني من أزمة نفسيّة حادّة لكن كتابه هذا لم يوثقه.

الباب الثاني: العناصر المضمونية للقصص في الكتابين

الفصل الأول: الملامح التاريخية للعصر العباسي

الفصل الثاني: المحتوى الاجتماعي والسياسي والثقافي

الفصل الثالث: المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي

الفصل الرابع: السخرية والفكاهة في الكتابين

الباب الثاني: العناصر المضمونية للقصص في الكتابين

مدخل

سيطرت القصة على الجماعات لأنها أيسر منالاً وأسهل فهماً كسحب الصيف قصيرة الآجال. إذا كان النثر القصصي يقاس بكمية وحدها أو بكثرة ما نشر منه، فالقصّة لقيت رواجاً عظيماً وشهرة نادرة بين النّاس، واتخذها الكتاب وسيلة فعالة لنشر المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. الحياة سريعة كسرعة الساعة، وقد مال الأدباء إلى الإيجاز، ونبغ في هذا الفن جماعة من الأدباء، تناولوا جوانب الحياة متفرقة، فأجادوا تصويرها. ونضج التفكير العلمي، وشاعت الثقافة مع تطوّر المجتمع العربي في العصر العباسي، ودخل في الأدب العربي مجال الإبداع، وشاعت القصّة أكثر شيوعاً، مع جاذبيتها وعمقها. فكتاب البخلاء و الإمتاع والمؤانسة من أهم كتب القصّة والمسامير في العصر العباسي، فالأوّل يدور حول حكايات البخلاء والبخل، وهي خصلة خلقية ذميمة من خصال الإنسان، التقطها الجاحظ من محيطه في واقعية دقيقة، وتحولها إلى صورة ساخرة للبخلاء، ومزج فيها بين المتعة والفن والنقد. وكتاب الإمتاع والمؤانسة هو تمرة لمسامرات سبع وثلاثين ليلة، ساهم تأسيسه فقسّمه من حيث الزمن، ومن ناحية شكلية يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء في مجلد واحد، وموضوعاته ليست خاضعة بحديث الليالي ولا بترتيب منطقي واضح أو تبويب منظم. وتتنوّع موضوعات الكتاب تنوعاً كثيراً.

الفصل الأول: الملامح التاريخية للعصر العباسي

١. العصر العباسي في البخلاء

الأديب يعكس ما في المجتمع، وآثار الجاحظ مرآة ثمينة انعكست فيها أوضاع عصره من ناحية اجتماعية وسياسية وأدبية وغيرها. والعصر العباسي، هو العصر الذي نمّى وأنبت فكر الجاحظ في هذه المرحلة التاريخية. وإن لاحظنا فكره فكان انعكاساً خلاقاً بديعاً للظروف والمعطيات الحضارية التي عاش فيها. ولو نظرنا نظرة عابرة إلى عناوين كتب الجاحظ ورسائله وإلى طبيعة عصره الحضارية تكفي لإنباننا بمدى التلازم والتواصل بين هذه الآثار والعصر الذي ولدت فيه[١].

شهدت الحاضرة العباسية طول الفترة التي عاشها الجاحظ الازدهار الفكري على مستويات مختلفة. وهو ازدهار منقطع النظير في تاريخ العرب والإسلام، يدهش الباحث. فهناك الحركة الفكرية التي أعطت حرية الفكر في هذه المرحلة التاريخية من تاريخ أمتنا، ونمت وترعرعت الترجمة والتعريب في هذا العصر. وهذه هي الحركة العلمية والفكرية التي قادت حملة التطور والتغيّر والنشاط. واستنتج وأنبت جيلاً من عباقرة المسلمين، هم فخرنا واعتزازنا ما دامت أمتنا وما دامت أبناؤنا[٢].

١,١. الحياة العلمية

القرن الثالث الهجري هو قرن الازدهار العلمي، الذي أشغل الناس في اكتساب العلوم والفنون، ويرحلون من بلدٍ إلى بلاد أخرى لحصول المعارف والتحقيق. وكان مؤلف البخلاء عالماً محيطاً بمعارف عصره. وهو أديب أريب وتفوقه العلمي واضح في شتى المعارف والنظريات العلمية السائدة في عصره، و"تأدّب في المِربد والمسجد والمجالس الخاصة، وشوارع البصرة وفرضتها[٣]"، وألّف مئتي كتاب أو رسالة وتيفاً. وكتاب البخلاء هو عرق عصره، من ناحية تاريخية واجتماعية وسياسية، كتبه الجاحظ بقلمه المرهف، وبقيت بشاشته وروعته حتى بعد ألف سنة.

---

[١]- أنظر: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عرت السيد أحمد، ص٤١.

[٢]- أنظر: المرجع نفسه، ص٤٢.

[٣]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، د. شارل بلاّ، ترجمة. د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٧٧.

الحرية في الفكر

بلغت حرية الفكر والاعتقاد والسلوك في العصر الجاحظ على أوج ازدهارها، وهذه الحركة بدأت بتولّي المأمون (١٧٠هـ -٢١٨هـ) الخلافة، فعلى يديه اتّسعت أبواب المناظرات والمناقشات، وبين يديه يجتمع المفكرون والفقهاء على اختلافهم، ويتجاذبون أطراف الحوار، ويتفقون ويختلفون مع المأمون ذاته، ويخطئونه من غير خوف وتهيّب. والعيب الذي قد يكون وحده في هذا المجال المأخوذ على المأمون فالمعتصم ط(١٧٩هـ -٢٢٧هـ) والواثق (٢٠٠هـ - ٢٣٢هـ)، هو محنة خلق القرآن، من أكبر المشكلات ذلك العصر. قبل هذه الفتنة كانت الأمة تحت لواءٍ واحد، وعلى دينٍ واحدٍ، لكن بعدها اختلفت كلمتهم حتى أصبح الإنسان يحار من كثرة الفِرَق[1].

وهذه الحرية في الفكر جلبت لهذا العصر فوائد ومحاسن كثيرة، ومنها أن المسلم والمسيحي واليهودي والمجوسي، يتحاورون بالحرية والأريحية، وغير خوف ولا هيبة ولا حرج. ومع اختلاف رأيهم يتكاملون ويتضافرون في عمل واحد.

وكان المفكرون والأدباء يكتبون بحرية الفكر والقلم، بدون رقيب وحسيب. فالجاحظ صال وجال وفسّر وأوّل في القرآن والحديث وضروب الفكر والأدب والأخلاق على النّحو الذي شاء غير مبالٍ بأحدٍ، كائناً من كان، كما أورد لنا كثيراً من آراء وأقوال وتحليلات المجوس والزنادقة والملاحدة وغيرهم[2].

النشاط العلمي

كان من نصيب الدولة العباسية، أن استقرت مقاليد الأمور، ودبّت حركة علمية في البلاد، وأخذت تتسعُ دوائرها شيئاً فشيئا حتى بلغت أوجها في هذا العصر. وكانت المساجد منابر العلم والتعليم، ويمكن تشبيهها بالجامعات الحرّة. وكان الشغف العلمي ، شديد بين طلاب العلم، فيرحلون من بلدٍ بعيد إلى بلدٍ بعيدٍ طلباً للعلم.

وهذا النشاط لم يقتصر على الطبقة العليا بل راج إلى طبقات أخرى وكان الجاحظ أيضاً من أصحاب القَتر، يبيع الخبز والسمك للعيش، لكن حبّه للعلم لم يخمد في قلبه. وحين بدأ تأليف الكتب، سمّى اسمه على الآفاق.

---

[1]- أنظر: الجاحظ معلم العقل والعلم، شفيق جبري، محاضرات كلية الآداب، دمشق، ص٩٩.

[2]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عرت السيد أحمد، ص٤٣.

حركة الترجمة والتعريب

بدأت حركة نقل التراث الأقدمين من الأمم الأخرى كالهندية والفارسية واليونانية، وكذلك نقل كتب عن لغات غير لغاتها الأصيلة. ووضع الجاحظ شروطاً للترجمة وضوابطها، والشروط التي وضعها الجاحظ هي عماد الشروط التي مازلنا نرددها اليوم. وكان الجاحظ أحد كبار المسهمين في التطوّرات العلمية، فعلى يديه بدأت معظم علوم اللغة العربية بالتطوّر والتّبلور، فوضع أسس علوم الفصاحة والبيان والبلاغة والمعاني[1]. فهو من مؤسسي هذه الحركة، وكتب رسائل شتى لا تخلو من ابتكار وإبداع تدلّ على أصالة فكر الجاحظ. ويرتكز أدبه على التراث العربي، والحكمة الفارسيّة، وفيه أثر للحكمة الهنديّة، وكذلك أثر الهيلينية من طريق غير مباشر.

١,٢ ـ الحياة الاجتماعية

يرتبط تنوّع الحياة الاجتماعية وتطوّرها بغنى الحياة العلمية وثرائها، لأن الحرية في الفكر تؤثر في العادات والأخلاق. وترجمات آثار الشعوب الأخرى تفتح نوافذ حياة الأمم الآخرين، والحركة العلمية تؤثر في العادات الاجتماعية والحالة الاقتصادية. وهذا القرن بداية توسع المسلمين في بقية العلوم الدنيا مع العلوم الدينية. وبدأ المسلمون دراسة علوم العقل مع علوم النقل.

والترف الذي وصلت إليه الحاضرة العباسية في عصر الجاحظ، قاد إليه من التطورات والتغيرات في الحياة الاجتماعية، كانتشار ضروب اللهو والمتعة والمجون، وكذلك ميل البعض إلى الزهد والتصوف[2].

وفي كتاب البخلاء انعكاس بيئتي البصرة وبغداد من الناحية الاجتماعية، ورسم لنا صورة المجتمع العباسي. والبصرة في القرن الثاني كانت مهداً للعلم، والناس مولعوا بالعلم والأدب.

وكتاب البخلاء وثيقة تاريخية شاهدة على العصر، وعلى بعض خصائصه وجوانب من الحياة الحضرية في المجتمع العباسي. والأسلوب الأمثل للتأليف، يثبت فيه قدرته على إسباغ روح العصر على كتابه. واجتهد فيه لإبراز شخصيته وفلسفته، فجاءت كتابه مصطبغة بصبغتها؛ "ولذلك لا نرى كاتباً في عصره أو العصور التي لحقته استطاع أن يبني تصوّراً كاملاً ودقيقاً جداً في بعض المواطن الاجتماعية في العصر العباسي مأخوذة صورتها التقريبية من كتابات كاتب ضليع له باعه الكبيرفي التأليف المنوع والموسوعي في ذلك العصر مثل الجاحظ"[3].

---

[1]- انظر فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د عزّت السيد أحمد، ص٤٦-٤٧.

[2]- انظر: المرجع نفسه، ص٤٧-٤٨.

[3]- صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء، علاء الدين رمضان السيد، مجلة جذور، ح٧، سبتمبر ٢٠٠٣م، ص٣٠.

وصوّر الجاحظ البخلاء من بيئته واستقى معظم مادة كتابه من العصر العباسي، وحتى تلك الحكايات التي استمدّها من عصور أخرى إنما استمدّها بشرط عباسي؛ إما لإرضاء الدولة العباسية أو لإذكاء مذهب سائد في ذلك العصر الذي كان يعيش فيه.

فصورة المجتمع العباسي كما وردت في البخلاء لابدّ لها من عرض صورة مقاربة لأهم ملامح العصر الذي نبت فيه الكتاب ومؤلفه، فهي صورة حيّة نابضة من حياة مجتمع الجاحظ وبيئته ومعاصريه. ويتسم عصر الجاحظ بتناقضاته التي خلفتها الحضارة العربية التي اتسعت في كل الاتجاهات فانعكس ذلك بالضرورة على الحياة عامة[1].

فكتاب البخلاء مرآة لعصره، من حيث الفكر، وملامح الحياة التي راجت فيه، ومن حيث الموضوع اختار الجاحظ موضوع الهزل دون الجدّ، وجرى فيه مذهب الاحتجاج كأنه مدفعة البخيل.

صوّر الجاحظ صورة تقريبية لأهم ملامح الحياة الاجتماعية في كتابه البخلاء، فهناك ثلاثة جوانب مهمة كفيلة بتقريب صورة البيئة، بل تجسيدها عند تضام معطياتها مع ما قدمه الجاحظ في البخلاء. وهي الجوانب الاجتماعية والسياسية والثقافية في المجتمع العباسي.

طبقات اجتماعية

تغيرت ظروف الحياة في العصر العباسي، وكانت غاية في التعقيد الحضاري والخروج على المظاهر التي عرف بها المجتمع الاسلامي في القرن الأوّل والعصور التي تليها. فالمجتمع العباسي في عصر الجاحظ كان مزيجاً من الحضارات والأعراف والأجناس المتعددة اختلطت وتشابكت وتلاحقت تلاحقاً غريباً في دمائها وأفكارها وعاداتها وتقاليدها وأنماط تفكيرها وخصائص سلوكها.

وقد انقسم الناس إلى طبقات من حيث الوضع الاجتماعي: (ا) الطبقة العليا أو الحكام والمترفين، (ب) الطبقة الأدنى وهي عامة الناس. فالخلفاء يعيشون في قصورهم الفارهة، في معزل عن الرعية وبعيداً عن عامة الناس.

وعامة الناس يجتمعون حول القصاص الذين يقصون عليهم قصصاً متفاعلة أو تضرب بسهم تفريج الهموم بالانتقام للمظلوم من الحكام والظالمين. فهذا المجتمع كان يشمل على تجذر ظاهرة التفاوت الطبقي في المجتمع العباسي. فالتفاوت الطبقي من أبرز المميزات العصر العباسي التي تجلت بوضوح في كتاب البخلاء[2]:

---

[1]- أنظر. صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء، علاء الدين رمضان السيد، ص٣٠.
[2]- أنظر. المرجع نفسه.

ا. فطبقة السادة الذين يملكون كل شيء وينعمون من وسائل الترف وهم يحصلون من المجتمع بالتوفير والإجلال والمهابة والاحترام. ومن نالوا حظوة القرب إلى الخلفاء من الشعراء والعلماء والأطباء والمغنيين والندماء والمسامرين والكتاب، وجدوا كثير من العطايا، لأنهم يفيضون عليهم من أكداس المال ويمنحون من القطائع وصنوف الهبات والأعطيات. والجاحظ تلقى جوائز سنيّة من ابن الزيات وغيره، وأهدي خمسة آلاف دينار على كلّ كتاب من "الحيوان" و"البيان والتبيين"، و"الزرع والنخل[1]".

ذكر الجاحظ في البخلاء قصّة والٍ كان بفارس، إما أن يكون خالداً خو مهرويه أو غيره. وجاء إليه شاعرٌ من بين يديه فأنشده شعراً مدحه فيه .. وقال خالداً لكاتبه: إعطه عشرة آلاف درهم، ففرح الشاعر، فزاده العطية، وزاده مرات حتى تضاعفه إلى أربعين ألفاً، وفرح الشاعر، فكاد الفرح يقتله[2]. وهذه صورة سلبية للعطاء، أخذ الجاحظ من عصره. وهذا كله ليس غريباً في المجتمع العباسي، لأن الحكام والوزراء والخلفاء يغدقون المال على الشعراء والكتاب وغيرهم.

وهناك قصّة أخرى، وهو والي البصرة، اسمه بلال بن أبي بردة، قد خاف الجذام، فوصفوا له الاستنقاع[3] في السمن، فكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر ببيعه. فاجتنب الناس في تلك السنة أكل السمن[4].

وهذا الوالي (وهوبلال بن أبي بردة أيضاً)، "كان يفطر الناس في شهر رمضان، فكانوا يجلسون حلقاً، وتوضع لهم الموائد، فإذا أقام المؤذن، نهض بلال إلى الصلاة، ويستحي الآخرون، فإذا قاموا إلى الصلاة، جاء الخبازون، فرفعوا الطعام"[5]. وهذه الصور الممتعة لحيلة البخيل في العصر العباسي.

ب. وأما عامة الناس فكانوا يعيشون في فقر مدقع وضنك شديد. ولا يجدون في حياتهم العادية ما يفرج عنهم. فهذه الفوارق الاجتماعية والطبقية بين الناس جعلت عامة الناس يشعرون بالضعة وبضياع شخصيتهم وجعلهم ينطون على أنفسهم وينفضون أيديهم من السياسة بسلبية كبيرة.

وهذه التفاوت الطبقي تظهر في "قصّة زبيدة بن حميد" الصَّيرفي[6]، الذي استلف من بقّال، مبلغاً قليلاً، وهو درهمين وقيراطاً، وبعد ستّة أشهر قضاه درهمين وثلاث حبّات شعير، (أقلّ ما أخذه) وكان البقّال في حالة سيّئة، ويعيش بالجهد والكدّ، ويستفضل الحبّة والحبّتين[7]؛ وهذه الصورة تظهر بسلوك سيّئة من طبقة المترفين إلى طبقة الشعب. وفي كتاب البخلاء هناك قصّة ليلى

---

[1]- أنظر: الجاحظ، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٦١.
[2]- أنظر. البخلاء، ص٢٦.
[3]- الاستنقاع: الدخول في الماء (أو في شيء آخر) والتمرد فيه.
[4]- البخلاء، ص١٥٠-١.
[5]- المصدر نفسه، ص١٥١.
[6] وهو صيرفي بصري كبير، يملك مائة ألف دينار، ويستخدم العديد من الغلمان (تعليقات وشروح: طه الحاجري، ص٢٩٨)
[7]- أنظر. البخلاء، ص٣٥.

الناعطية[1] التي ما زالت ترقع قميصاً وتلبسه حتى صار القميص الرّقاع[2]. وهذا النموذج من حالة بعض عامة الناس في العصر العباسي. ويجسد في البخلاء صورة حيّة لعصره في هذا الشعر:

ألم تَر بيتَ الفقرِ يُهجَرُ أهلُه وبيتَ الغِنى يُهدَى له ويُزار[3]

ومثل هذا:

إذا ما قَلّ مالُكَ كُنتَ فَرداً وَأي النّاسِ زُوّارُ المقِلّ؟[4]

فالمجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري كان منقسماً بين المترفين وعامّة الشعب. والفوارق الاجتماعية يزداد مع تغير الأسلوب الحياة وهو رغد العيش، وقلة القناعة بين أفراد المجتمع. وعامّة الشعب يعيشون حياة الجدّ والكدّ بالصبر ولم ينالو لقمة العيش. وكتاب البخلاء تبرز حالة البخيل خالد بن يزيد (مع كثرة المال المبالغ) الذي يخرج للسائل فلساً، ثمّ يفطن ويستردّه، ثمّ يعطيه درهماً، فلما فطن استردّه، ويعطيه الفلس، وقيل له: هذا لا نظنه يحل، وهو بعدُ قبيح. فيقول: "إنّي لم أجمع هذا المال بعقولكم، فأفرقه بعقولكم. والله ما أعرفه إلاّ بالفراسة[5]".

والمجتمع الإسلامي كان مرتبطاً على أساس حق المحروم، كما جاء في القرآن **(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩))**[6]، لكن في القرن الثالث بدأت تغير هذه الصفة بغلبة البخل وحبّ المال في أخلاق بعض المترفين.

ويبدو أن المجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري كان يميل إلى الفكاهة، حتى وإن كانت باردة، وهم يقبلون عليها، ويهشون لها، فظهرت طائفة المتندرين، يلتقطون ملح الكلام، والنوادر والطرائف والتندر بالمفارقة.

١,٣. الحياة الثقافية

ازدهرت الثقافة العربية وتألقت في أيام الدولة العباسية، فبلغت على قمّة المجد والعظمة. والعوامل الثلاثة التي تنمّي الثقافة، هي الفكر والثقافة والعلم.

انتشر الكتاتيب في هذا العصر، والناس يهرولون ويسارعون إلى مجالس أهل العلم، ويرسلون أطفالهم إلى الكتاتيب، وكذلك اشتهرت الأسواق الأدبية في بصرة ومربد، وكانت منهلاً

---

[1]- هي من نساء غالية، ويمكن أن تكون يمنية الأصل، وكان الناعطيون أصحاب عليّ في الكوفة. (تعليق وشروح طه الحاجري، ص٣٠٠-١.)
[2]- أنظر: البخلاء، ص٣٧
[3]- المصدر نفسه، ص٢٤٢.
[4]- المصدر نفسه، ص٢٤٢
[5]- المصدر نفسه، ص٤٦.
[6]- سورة الذاريات.

للثقافة العربية، والناس يغدون عليها ويروحون إلى البادية للقاء فصحاء العرب، كما كانت المساجد مركزاً لحلقات العلم، وقد احتشدت بالطلاب، الذين يلهفون إليها لعلم الكلام، والمجادلة، وعلم الفقه وغيرها من المعارف التي يعتني بها العامة والخاصة على السواء[1].

ومن الأسباب التي أعانت على إحداث نهضة ثقافية في ذلك العصر: المجالس والمجامع العلمية، وظهور صناعة الورق وانتشارها، واتخاذها وسيلة للكتابة. وهذه النهضة الفكرية الواسعة كان من آثارها أنها عملت على تغلغل الثقافة بين جميع الطبقات بلا استثناء، وقد قدم البخلاء عدداً كبيراً من الظواهر والمظاهر اللافتة للنظر والتي لم يعتن بها الجاحظ في كتاب من كتبه على هذا النحو، مثلما فعل في كتاب البخلاء، لدرجة أن بعض الكتاب المعاصرين أرجح إلى ذلك وحده. فهو يجسد لنا صورة حيّة لذلك العصر، فيه الغنى والترف أو الفقر والإملاق، كما تقدم لنا نفسية العداء بين العرب والشعوبية، وبين الأموية والعباسية، وتقدم لنا ما كان يعتلج في وجدان ذلك العصر من ألوان الثقافة وأنماط التفكير، وتقدم كذلك صوراً متعددة لما ساد المجتمع آنذاك من نظم مدينة وتنظيمات اجتماعية، وكلها عناصر تشكل في مجموعها صورة المجتمع العباسي فكراً وسياسياً واجتماعياً واقتصاداً.

وهنا سأقدم بعض النماذج من البخلاء، يجلّ صورة عصره. وهذه صورة البخيل المترف، الذي شعر بالجوع لكنه لا يأكل لكي لا يطعم: "وأتى ضيعة له يتنزّهُ إليها، ومعه خمسة رجالٍ من خاصته، وقد حَمّلوا طعامَ خمسمائة. وثُقّل عليه أن يأكلوا معه، واشتدّ جوعُه، فجلس على مَشارة[2] بقل، فأقبل ينتزعُ الفجلة، فيطوي جزرتها بعرقها، ثمّ يأكلها من غيرِ أن تُغسل، من كلَب الجوع، ويقول بواحد منهم، كان أقرب الخمسةِ إليه مجلساً: لو قد ذهب هؤلاء الثّقلاء لقد أكلنا"[3]. وهذه ثقافة البخيل، تبخّل في إطعام الناس ولو كان عنده كثير.

وهنا أبو الأسود الدّؤلي، رأى رجلاً يأكل "لقماً منكراً" فسأل عنه: ماسمك؟ قال: "لقمان" فقال: "صدقتَ أهلك، أنتَ لقمان"[4]. وفيه لغز معنوي جميل، أشار إليه أبو الأسود، حين رأى أنه يأكل لقمين في وقت واحد. وهذه جماعة تريد حل المسألة، "البخلاء أعقل أم أسخياء"[5]، فاقستموا أعقل الناس الذين اشتهروا بهاتين صفتين، ففي قائمة البخلاء وضعوا سهل بن هارون، وخاقان بن صُبيح، وجعفر بن سعيد، والحزامي، والعروضي، والخريمي، فما بقي مع الأسخياء إلا أبو اسحق، فنتيجة القائمة تظهر تفوق البخلاء على الأسخياء، أنهم أعقل وهذه النتيجة ثابتة على موازين العدد.

وهنا جار إبراهيم بن سيّار، دُعي إلى مأدبة الطعام، وهم على خوان هذا الجار، فبدأ يقطر السمن على الخوان، حتى أكثر من ذلك، فسأل رجل عن علته من الآخر، فأجاب أن الخوان

---

[1]- أنظر: صورة المجتمع العباسي، علاء الدين رمضان السيد

[2]- المشارة: المزرعة.

[3]- البخلاء، ص١٥٢.

[4]- المصدر نفسه، ص١٥٣.

[5]- المصدر نفسه، ص١٣٠.

خوانه، فهو يريد أن يدسّمه، ليكون الدبغ له، ولقد طلّق امرأته ، وهي أمّ أولاده، لأنها غسلت خوان له بماء حارٍ، فقال: هلاّ مسحته[1]؟

وماذا أقول على الكفاية والاقتصاد هذا الجار، الذي طلق امرأته على غسل الخوان؟ لكن هناك قصّة أخرى، وهي أيضاً امرأة، (اسمها مريم الصناع)، لكن ذوات الاقتصاد، زوّجت ابنتها، فحلّتها الذهب والفضّة، وكستها المرويّ والوشيّ وغيرها، فقال لها زوجها: (**يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا**) فأجابت (**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**)[2]، لكنه طلب منها تفسير الأمر: وهو أنها منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها، كانت ترفع من عجين حَفنة، ولما اجتمع من ذلك مكّوك[3]، باعته[4]. ففرح الزّوج وفرح النّاس على حسن تدبيرها.

وفي قصّة الحزامي يورد الجاحظ الفرق بين البخيل والسخيّ، وكلا هما ذو مالٍ، "فقولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في مِلكه، وقولهم سخيّ إخبارٌ عن خروج المال من مِلكه. واسم البخيل فيه حفظ وذمّ، واسم السخيّ اسم فيه تضييع وحمد"[5].

وهناك قصّة رجلٍ قد بلغ في البخل غايته، وصار إماماً، وكيف خاطبه إذا صار في يده الدرهم، وناجاه وفدّاه واستبطأه[6]، ويقول له: "كم من أرضٍ قد قطعتَ، وكم من كيسٍ قد فارقتَ، وكم من خاملٍ قد رفعتَ، ومن رفيعٍ قد أخملتَ! لكَ عندي لا تعرى ولا تضحى[7]، ثمّ يلقيه في الكيس ويقول له: اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تَذِلّ ولا تُزعَج منه[8]". وشأنه أنه لم يدخل فيه درهماً قطّ فأخرجه. وهذا احتجاج البخيل، لتجمعه المال في الكيس، هو لايجمع المال فحسب، بل يكلّمه ويعزّزه، وكل هذا بدليل جميل يواري طبيعة البخل خلفه.

فثقافة البخلاء تظهر في أنماط التفكير، وتتعدد صوره في المنع والاقتصاد، كأن البخيل يتردد ويتفكر، ويثقل عليه أن يؤتي غيره اللقمة؛ بل ينظر إلى لقمة الآخرين، وإن كانت كبيرةً، يسمّيها "لقمان"؛ ويطلّق امرأته على غسل الخوان؛ ويفرح الزوج على حسن تدبيرها، واقتصادها؛ ولما صار البخل على غايتها، يخاطب البخيل بالدراهم، كأنه صديق حميم، وثقافة البخل لا يفارقه أبداً.

---

[1]- البخلاء، ص٢٣.
[2]- سورة آل عمران، آية ٣٧
[3]- مكوك مكيال عند أهل العراق يسع نصف رطل إلى ثماني أواقي.
[4]- أنظر البخلاء، ص٣٠.
[5]- المصدر نفسه، ص٦٢.
[6]- استبطأه. استبطأ وصوله إليه. فداه. قال له جعلتُ فداك.
[7]- تعرى تخرج من الكيس. تضحى: تصيبك الشمس.
[8]- البخلاء، ص١٣١.

١,٤. الحياة السياسية

المجتمع العباسي مرّ بتغييرات عاصفة في مجالات مختلفة للحياة، وأسباب تغير الأحوال هي: سيطرة الترك على مقاليد السلطة، ونشوز النزعات الشعوبية، وبدأت تدهور الخلافة الإسلامية، وبعض الثورات والتمردات. وكان العنصر العربي هو صاحب السيادة والهيمنة في مطلع الدولة العباسة. ويمتاز هذا العصر بغلبة العناصر الفارسية نحواً من مائة عام، ثمّ بغلبة العناصر التركية مائة عام أخرى، كما يمتاز بتجمع الثقافات وظهورها في الثقافة العربية. وإذا نظرنا من الجانب الخارجي، فنجد أن هذا العصر بلغت الدولة العباسية ذروة مجدها. وإلى الجانب الداخلي، تنوعت فيها الاضطرابات والثورات، ومظاهر الشغب. وكان من أهم هذه العناصر:

ا. العنصر العربي: توزع العنصر العربي في ذلك العصر عددًا من المذاهب والانتماءات، فكان منهم الشيعة من شيعان علي بن أبي طالب، وهم أشدّ أعداء الدولة العباسية، ومحمد بن الحنفية ابن أبي طالب من غير فاطمة الزهراء، كان من المنشقين على الدولة العباسية.

ب. العنصر الفارسي: وكانوا شديدو التطلع إلى إحياء المجد الفارسي القديم بواسطة إغراء الحكومات العربية، ولذلك أعانوا العباسيين ضدّ الأمويين. ثمّ قدموا عليهم عناصر أخرى من الزنادقة والمجوس، وأنصار الزرادشتية والمزدكية، الذين اشعلوا الثورات السياسية في محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بقوة السلاح.

ج. العنصر التركي: استفحل خطره في عهد الخليفة الواثق سنة ٢٣٣هـ، وقتل الأتراك بعض الخلفاء.

وفى أوائل القرن الثالث الهجري كان الخلفاء يشعرون قوّة المسلمين وغضبهم على قبول بعض أعمال الخلفاء، مثل قتل الأمين على يد أخيه المأمون، فأخذ الخليفة المأمون تقرّب الشيعة، ثمّ أخذ مذهب المعتزلة بإيحاء من ثُمامة بن الأشرس، وأكره المسلمين على القول بخلق القرآن[١].

عصر الجاحظ، (١٥٨هـ -٢٥٥هـ) عبارة عن التقلبات في الأوضاع السياسية والاجتماعية، والنثر الأدبي حلّ مكانة الشعر، ويقول فيه إبراهيم الكيلاني، في "المقدمة" الجاحظ: "ويظهر أن الجاحظ كان مسوقاً في حياته الطويلة – مع احتفاظه باستقلاله الفكري – إلى إرضاء فئات من الأسياد، وتأليف رسائل وكتب مطابقة للعقائد السائدة يومئذ. فالنثر عنده ذو أثر كان إلى وقت قريب موقوتاً على الشعر، فالأديب ينوب عن الشاعر فتحلّ بذلك الدعوة الماهرة التي فيها العقل دوراً أوّلياً محل المدائح الغنائية الحماسية المجردة عن طرافة الشعر والتي تستهدف الأذن أكثر من العقل"[٢]. إن العصر العباسي هو أثر من آثار الحياة العقلية الجديدة. وهذه الحياة تنتهي إلى عناصر متباعدة، ولكنها التقت وتمازجت حتى نشأت عنها ثورة عقلية، تفكّكت عنها ثورة سياسية. فهذه العناصر الثلاثة هي العربية الخالصة، والإسلامة الجديدة، والمعرفة بشؤون الأمم

---

[١]- أنظر الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٧٩-٠.

[٢]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص١٥.

المغلوبة معرفة سياسية ومالية وإدارية، كل ذلك يكوّن مزاج العربي المثقف الذي يمكن أن ينهض بالأمر أو يشارك في إنهاض الدولة[1].

"ليس هناك كاتب معاصر للجاحظ أو لاحق به يشبهه، وإنّ جميع التحليلات التي تقوم بها لتكتشف أوجه شبه بينه وبين غيره مصيرها "الإخفاق المحتّم"؛ لأنّ أوجه التباين تطيح بأقوى وجوه المماثلة، ولعل الفضل الوحيد الذي يستطيع غيره من الكتاب منافسته فيه هو "خلق النثر الأدبي في زمن تخلّى فيه الشعر عن مكانه الراجح"، فانسحب تدريجاً أمام وسيلة تعبيرية لم تكن جديدة بل كانت موفقة على ما يظهر لبعض الكتّاب الأعاجم كابن المقفع أو سهل بن هارون"[2].

بدأ الجاحظ حياته الأدبية بإشارة الخليفة المأمون وهو كتاب "الإمامة"، ثمّ ألّف كتاباً سياسياً آخر، وهو كتاب "العثمانية"، وفيه يحتج الجاحظ للخلفاء الراشدين داحضاً، وكتب رسالة في "النّابتة" (أي بني أمية)، ثمّ رسالة في "مناقب الأتراك" وكتاب في "الردّ على النصارى"، وكل هذه المؤلفات عن موضوع السياسة، وتربط بالتدابير السياسي أو بين الأحوال السياسة. وفيه لم يعمد إلى التخصص في علم واحد منتقى بل عمد بدافع من نزعة اصطفائية جيدة، وهكذا نشأ الشكل الجاحظي الأدبي بعد أن عرف ازدهاراً هوى إلى درك مجموعة المعارف العملية الشعبية. ولمّا وصلت كتبه إلى المأمون، دعاه إليه، وصدّره كتاب الرسائل، ولكنه لم يلبث أن استعفي، فأعفي. فالرحلة الأدبية التي بدأت من كتاب الإمامة، فهو شبه الإكمال والتكميل إلى كتاب البخلاء.

٢. العصر العباسي في الإمتاع والمؤانسة

أبو حيان التوحيدي، هو ابن القرن الرابع الهجري، وهو قرن التناقضات. بدأ فيه التدهور السياسي للخلافة العباسية لأن؛ الدولة انقسمت إلى دويلات صغيرة في أواخر القرن الثالث الهجري، وسادت فيه ألوان من السقوط الأخلاقي. وإلى جانب آخر، هذا القرن قرن الازدهار الفكري والثقافي. وكتابات التوحيدي مرآة لهذا العصر، فكتابه الإمتاع والمؤانسة يعبر عن مجالس العصر، و"مثالب الوزيرين" تسجيل لأخلاق بعض وزراء العصر وأموره السياسية، وكذلك "المقابسات" يسجل لنا مجلساً فكرياً لنخبة من أفضل مفكري العصر[3].

٢,١. الحياة السياسية والاجتماعية

---

[1]- أنظر من تاريخ الأدب العربي، د. طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٦م، ج٢، ص١٣-١٦.

[2]- الجاحظ، في البصرة و وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، ص٨.

[3]- أنظر- نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي، وسيم إبراهيم، دار دمشق، ط١، ١٩٩٤م، ص٥.

في هذا القرن بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها في العلوم والفنون، وأمير كل دويلة طمح في استقلالها، والخليفة قد احتفظ بمكانة صورية أو شكلية، فاعترف به أصحاب السلطة الحقيقية في هذه الدويلات. فأصبحت "الخليفة" تسمية ظاهرية يذكر اسمه في الخطبة، وله بعض الشكليات كالدعاء له في المساجد، وإرسال الهدايا إليه على المناسبات، وشراء الألقاب منه. وظهرت نظرية تقول بأن أمير المؤمنين هو من كان ملكاً للحرمين، فثار نزاع شديد فيما يتعلق بمكة والمدينة، بين العلويين والفاطميين والعباسيين، ولكن العلويين استطاعوا فتح مكة في منتصف القرن الرابع تقريباً.

ومع هذه الانقسامات كانت مملكة الإسلام مقابل مملكة الكفر، ولا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة، فللمسلم أن يرتحل حيث يشاء بدون أي قيد، وإنما يجد نظماً يحميه. فكان العلماء والمحدثون والجغرافيون ينتقلون من بلد إلى آخر بسهولة. فقد كان المسلم يجد ديناً واحداً وشريعة واحدة في كل مكان[1].

والعوامل السياسية تركت بصمات واضحة على الأوضاع الاجتماعية. فهذا الاهتزاز السياسي أثر على الجانب الاجتماعي والاقتصادي والثقافي أشدّ تأثير. وبالنهب والسلب أُضعفت همّة الرعيّة، ثمّ هناك سببان آخران: الأول عنصري، بسبب اختلاف عنصر الأجناد وما جره ذلك من منازعات، والثاني سبب ديني، وهو الخلاف بين أهل السنّة والشيعة.

ونستطيع أن نميز ثلاث طبقات في هذا القرن: الطبقة الأولى الطبقة الارستقراطية من خلفاء ووزراء وتجار وكبار وأشراف، والطبقة الوسطى من تجار متوسطين وملاك الأراضي المتوسطين ونحوهم، وطبقة فقيرة، وهي عامة الشعب من صغار الفلاحين، وصغار العمال والعلماء الذين بعدوا عن الخلافاء والأمراء.

ولطبقة الأولى رأي التوحيدي أنّ الله عزّوجلّ "جعله سائس النّاس: عامّتهم وخاصّتهم وعالمهم وجاهلهم وضعيفهم وقويّهم، وراجحهم وشائلهم، أن يضجر مما يبلُغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة، منها: أنّ عقله فوق عقولهم، وحلمه أفضل من حلمهم، (..) وأنّ العلاقة التي بين السّلطان وبين الرّعية قويّة، لأنها إلهيّة. والملك والد كبير، وهذه العلاقة المحكمة والوُصلة الوشيجة"[2].

وكتاب الإمتاع والمؤانسة يلقي ضوءاً على العصر البويهي في القرن الرابع الهجري، وهو عصر مغبش بالظلام، ويصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عبّاد، وابن العميد، وابن سعدان، ومحاسنهم ومساويهم[3]. والكتاب يصف العلماء، ويحلل شخصياتهم، وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة بين المنطق اليوناني والنحو العربي، ورأي العلماء في الشعوبية والمفاضلة بين الأمم، إلى كثير

---

[1]- أنظر نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي، وسيم إبراهيم، ص٦

[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٨٦-٧

[3]- الإمتاع والمؤانسة، مقدمة أحمد أمين، ص(ب).

من أمثال ذلك[1]. ويصف كثيراً حالة الشعب في عصره وموقفهم من الأمراء والملوك، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك.

احتلت السياسة مجالاً واسعاً من أحاديث التوحيدي والوزير ابن سعدان، ففيها الحياة السياسية اليومية داخل الدولة ومشاغل الناس، وكذلك فلسفة الحكم من خلال الحديث عن العلاقة بين الشريعة والسياسة أو الحديث عن علاقة السلطان بالرعيّة.

وهناك دليل آخر يظهر التوتر بين الرعيّة والحكام، رواه التوحيدي في الليلة السابعة عشرة من الكتاب، في ثورة العامة على سياسة الوزير ابن سعدان واحتجاجهم على سوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية. فقد "صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر تهتّك صاحب العيال"[2]، إلا أنّ الوزير لم يسمع منهم شكوتهم، و"أجابهم بجواب مرّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرّم بالاستغاثة: بعدُ لم تأكلوا النّخالة"[3].

فهذا التنافر بين الحكام والرعيّة يزيد توتراً في الحياة السياسية. ويؤكد التوحيدي بصورة جلية هذا المظهر في عديد من المواضع. فهولاء رسل سجستان – وهم من الأدباء والعلماء – يعقدون مجلس غناء ورقص يلهجون فيه بنقد السياسة الوزير ابن سعدان مع حاشيته، واعتبارها أصل الفساد في الدولة"[4].

والانشغال بالأخبار السياسية لم يكن مقصوراً على فئة دون أخرى، حتى المتصوفين لم يسلموا من هذه الآفة، حتى شعر بعضهم "أنهم يخوضون في الأحاديث التي ليس لهم فيها ناقة ولا جمل ولا حظّ ولا أمل"[5]. وكانت السياسة هي الموتر الأساسي في أغلب مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

ويتميّز عصر التوحيدي من مظاهر الحياة السياسية على خاصتين، هما: (ا) التوتر السياسي، و(ب) الفساد السياسي. وتتجلّى في الإمتاع والمؤانسة التوتر السياسي الذي سيطر على كلّ أوضاع البلاد خارجيّاً وداخليّاً، حتى صارت الأمور السياسية من الشواغل الأوّلية للرعيّة من ناحية وللحكام من ناحية أخرى. ويتجلى هذا التوتر في عدّة مظاهر هامة كثيراً ما تواتر ذكرها في الكتاب.

ويحكي التوحيدي حكاية عن عهد الخليفة المعتضد، أنّ "طائفة من النّاس يجتمعون بباب الطاق ويجلسون في دكّان شيخ تبّان، ويخوضون في الفضول، وفيهم قومٌ سرّاة وتنّاء[6] وأهل بيوتات سوى من يسترق السمع منهم من خاصّة النّاس، ولمّا عرف الخليفة بذلك ضاق ذرعاً، ..

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، مقدمة. أحمد أمين، ص(ب).
[2]- المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦.
[3]- المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦
[4]- أنظر: المصدر نفسه، ح١، ص٤٢-٤٩
[5]- المصدر نفسه، ح٣، ص٩٢
[6]- التناء. الدهاقين والرؤساء.

ودعا وزيره الذي قال: أن تتقدّم بأخذهم وصلب بعضهم وإحراق بعضهم، لكن المعتضد كان أعقل من وزيره، فقال: (..) ألا تدري أن أحداً من الرّعية لا يقول ما يقول إلاّ لحقه أو لحق جاره"[1]. فبعقله وفراسته يحلّ الخليفة مسئلة الرّعيّة، لكن في أوائل القرن الرابع الهجري "بدأ زحف الروم (٣١٤هـ) فاستولوا على مدينة ملطية، ثمّ سقطت قبرص وفقد المسلمون سيادة البحر الأبيض، على أن الإسلام قد استمر تقدمه في المشرف بينما كان ينحسر عن بلاد المغرب"[2].

وليست الفتن الداخلية والخارجية ونتائجها هي الشاهد الوحيد على توتر الحالة السياسية بالبلاد، فالعلاقة بين الحكام والرّعية تؤكد هذا التوتر. فالناس قد صاحوا وضجواخلال هجوم الروم على المسلمين، وأنكروا على عزّ الدولة إخلاله بواجباته السياسية، إذ أنه كان زمن الفتنة مشغولاً في الكوفة، "لانهماكه في القَصفِ والعزف وإعراضه عن المصالح الدينية والخيرات السياسية"[3].

ويذكر التوحيدي عن زحف الروم، ولمّا اشتعلت النائرة، وواشتغلت الثائرة، صاح الناس: النّفير النّفير، وإسلاماه، وامحمداه .. في أيدي الروم والطُّغاة. وكان عزّ الدولة قد خرج في ذلك الأوان إلى الكوفة للصيد؛ فاجتمع النّاس عند الشيوخ، والأشراف والعلماء، وكانت النّية بَعدُ حسنة، وللناس في ظلّ السلطان مَبيتٌ ومقيل، .. وقالوا: الله الله، انظروا في أمر الضعفاء وأحوال الفقراء؛ وأغضبوا لله ولدينه؛ والتّدارك واجب، وهو الإسلام، وانصرف الناس عنهم، واجتمع القوم، الأشراف والعلماء، وذهبت الجماعة إلى الكوفة، ولحقت عزّالدولة في التصيُّد، وانتظرته؛ فلمّا عاد، .. لم يلتفت إليهم، ولا عاد عليهم – وكان وافر الحظّ من سوء الأدب، قليل التحاشي من أهل الفضل والحكمة.. ثمّ قيل له: إنّ القوم وردوا في مهمّ لا يجوز التغافل عنه، فقال: تكلموا. فكلّم البعض، وشرح له المسئلة، فقال عزّالدولة: ما زوي عنّي ما طرق هذه البلاد، وفكّرتُ فيه، .. لعمري إن الغفلة علينا أغلب، والسهو فينا أعمل، ولكن فيما ركبتموه منّي تهجين شديد[4]. (فأهان العلماء.).

وقد أبرزت هذه الهجمة ضعف تنظيم المسلمين داخلياً؛ وانعدام الأمن الخارجي، وهو ما يبيّن تراجع القوّة الإسلامية التي كانت هي الفاتحة والمبادرة بالهجوم أمام الروم. فأصبحت قوة غير قادرة حتى على حماية الثغور، ومن التوتر الداخلية الذي يصوره الكاتب كثرة الفتن الداخلية، وهي فتن مسلّحة فيها القتل والنهب. وفي أيّام الفتنة الغربية، ثارت فتنة العيّارين، وشنّت الغارة، واتّصل النهب، وتوالى الحريق، حتى قُطع الماء من دِجلة. والعبيد العريان أصبحوا قوّاد العيّارين، وسفكوا الدّم، وهتكوا الحرمة، ولم يسلم التوحيدي من هذه الغارة، فجاءت النهّابة إلى بين السورَين، واكتسحوا ما وجدوا في منزله من ذهب وثياب وأثاث، وقتلوا الجارية[5].

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٨٩-٠.
[2]- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ح١، ص١٥.
[3]- المرجع السابق، ح٣، ص١٥٢.
[4]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٥٢-٨.
[5]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٦٠-٢.

ونتيجة لهذه الفتنة انقلبت القيم السياسية وظهر من العيارين قواد كثيرون، يحدثنا التوحيدي عن واحد منهم، وهو "أسود الزبد"، فكان هذا الرجل قبل الفتنة "لايؤبه له ولا يبالي به[1]"، يعيش في حالة سيّئة، فهو "عريان لا يتوارى إلا بخرقة[2]"، لكن انقلبت منزلته بعد الفتنة، فبعدما نهب وأغار "صبُح وجهه وعذب لفظه وحسن جسمه وعَشِقَ وعُشِقَ .. وأطاعه رجال وأعطاهم .. حتى صار جانبه لايرام وحماه لايضام[3]"، وهذا الانقلاب في القيم السياسية يدعم معنى التوتر السياسي.

وتعرضت بغداد نكبة بسبب العيارين، ولم يقتصر الفتن مثل السرقة والنهب ولكن كان هناك نوع آخر من الفتن، وهو الفتن المذهبي. فقام الخلاف بين السنّة والشيعة، حتى ألقوا النار على بعضهم البعض، وقتل الآلاف، وحرق الدكاكين والمساجد ونهب الأموال. وعن تاريخ الخلفاء العباسيين يقول المؤرخ: "لما اعتلى المكتفي العرش كثر الفساد، إذ كان مسرفاً شديد الأسراف والتبذير، وزادت في عصره ظاهرة اقتطاع أجزاء من أراضي الدولة العباسية"[4]. وسبب هذه الفتنة كثرة الجور الذي بلبل الدولة. وهي عبارة عن تمرّد عسكري ضدّ هذا الظلم. وقد توترت نتيجة لذلك مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومن أهم أسباب التوتر الاجتماعي ومظاهر الفساد السياسي الذي عمّ البلاد، من أوّلها؛ أن الحكام لم يؤدّوا واجباتهم التي كلّفوا بها. فالخلفاء تخلّوا عن مباشرة هذه المسؤولية وفوّضوها إلى الوزراء الذين كثيراً ما استبدوا بالسلطة وأطلقوا العنان لشهواتهم ولسلطانهم بالمتعة والجور[5].

ومن أسباب الضعف لدولة العباسية، تدخل النساء في الحكم؛ فأمّ الخليفة المقتدر (وكان طفلاً) وقهرمانته تتدخل في الحكم، وتبلغ نفوذها إلى حدٍ، حتى عنيت صاحبة للمظالم، فاستخف الناس بالخلافة، ونظروا نظرة الاحتقار إلى حكامهم. وسارت الأمور إلى الأسوأ، ووسط هذه الصراعات عاشت بغداد أقسى حياته وأشدها، وسقط السلطان الحقيقي للعباسيين، فالخلافة رئاسية دينية فقط، وكان الأمير ألعوبة في أيدي الأمراء. فهذا هو عصر التوحيدي، من جانبه السياسي، وهذا الطبيعي أن الجو السياسي أثّر على الاجتماع والاقتصاد والثقافة.

إن مواقف التوحيدي من خصائص الحياة السياسية في عصره تبرز على ثلاثة مستويات: (أ) القلق والضيق، (ب) النقد والاستنكار، و(ج) التحليل. فعصر التوحيدي كان مضطرباً سياسياً واجتماعياً، إذ شمل الضعف دولة الخلافة العباسية، وتناثرت أطرافها، ودبّ الفساد إليها، وهاجم الرّوم على بغداد، فاضطرب الناس، ويقسم هذا الموج والاضطراب بين الخاصة والعامّة. وصارت العامّة طائفتين: طائفة ترق للدين، وطائفة وجدت فرصتها في العيث والفساد، والنهب والغارة. وافترقت الخاصة أيضاً فرقتين: فرقة أحبّت أن تكون للناس حميّة الإسلام ونهوض إلى الغزو، وانبغاث في نصرة المسلمين، وطائفة اختارت السكون والإقبال

---

[1]- المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٠.
[2]- المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٠.
[3]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٦٠-١٦١.
[4]- التاريخ الإسلامي، علي إبراهيم حسن، ص٤٣٨.
[5]- أنظر: المجتمع والرؤية، الحبيب شبيل، ص٣٧

على ما هو أحسم لمادة الوثوب والهيج. وبمثل هذا فتحت البلاد، وملكت الحصون، وأريقت الدماء وهتكت المحارم وأبيدت الأمم[1].

[1]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٣٥٦.

الفصل الثاني: المحتوى الاجتماعي والسياسي والثقافي

١. في البخلاء

رسم الجاحظ في كتاب البخلاء صورة المجتمع العباسي، الذي تهالك على الملذات وانتشر فيه المجون والتهتك. وظاهرة أخرى اشتهر بها المجتمع العباسي، هي الشعوبية، التي ظهرت على العصبية القومية. وقد أبغض الشعوبية العرب لأنهم فتحوا بلادهم. وكان تأثير البيئة على الجاحظ كبيراً، حتى أنه لم يعالج الفلسفة مباشرة، بل من خلال وصفه لمجتمعه الذي كان تروج فيه الآراء، فعرض لهذه الأخيرة نقلاً وتناولها إذ ذاك بالعدل والتجريح[١].

وفي البخلاء بدت الروح الساخرة للجاحظ، الذي خلق فنّا أدبيًا جديدًا، وقدم صورة مغايرة للواقع من أجل إدهاش القارىء على الرغم من عصر الازدهار العباسي. وتناول فيه الأخبار والروايات العربية شفاهاً وتدويناً. أخذ الجاحظ هذه الروايات والأخبار المؤيدة للكرم والسماحة والشجاعة، ومروءة الإنسان العربي من الرواة، ووضعت هذه الحكايات والنوادر التي تستهجن كل ما يخالف هذه القيم والمثل، وعلى رأسها، البخل.

الإسلام يحبّ صفة الكرم والسماحة، ولا يقبل صفة البخل. وكذلك المجتمع الإسلامي، فأخذ الجاحظ هذا الموضوع للفكاهة والتندر، ومارس فيه فنّا جديدًا وعرف عنه من دقة الملاحظة وقابلية الجدلية، قادرة على جمع المتناقضات التي تحتويها روح فكهة يتمتع بها الجاحظ[٢].

والجاحظ عكس في البخلاء صورة شبه تامة للمجتمع العباسي، فهو يصوّر طبائع الناس وأحوالهم ومأكلهم وملبسهم وطبقاتهم، ومهنهم وكرمهم وبخلهم إلى آخر نشأة الإنسان أينما حل وأينما ارتحل. وتطبع الجاحظ إطار زمنه أو عصره سلوك فئة البخلاء واحتجاج الأسخاء من رصد للحياة في المجتمع العباسي الأول.

يرى د. جميل جبر: "أن الجاحظ اتخذ من المجتمع مادة حيّة متحركة في أدبه .. وفي حكايات مروياته التاريخية في كتاب البخلاء، وهو يلقي في هذا الكتاب أضواء كشافة على بيئة عصره في شتى نواحيها .. فكتاب البخلاء مرجع وثيق لدراسة المجتمع العباسي، إبان ازدهار

---

[١]- المباحي الفلسفية عند الجاحظ، علي بو ملحم، ص٢٤٩

[٢]- صورة المجتمع الحضري في كتاب البخلاء للجاحظ، د. مزيد عجيل، كلية الآداب الجامعة المستنصرية، ٠٨ يونيو ٢٠١٢م.

بغداد والبصرة وخصوصاً من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل (١٧٠هـ - ٢٤٧هـ)، ولا تقل قيمة الكتاب الأدبية عن قيمته التاريخية"[١].

ولا يمكن أن نغفل عن رأي أحمد الحوفي، الذي يقول: "... لقد أعطى الجاحظ الناقد المؤرخ في كتابه البخلاء، لوحة فنية، تعكس ظلالها بعض الفئات التي كانت تشكل مجتمع عصره، وبيئته بالذات. فكان المبدع والمؤرخ في آن، مما أعطى قيمة تاريخية لكتابه، تعدل قيمة أدبية، قد غاص في أعماق المجتمع العباسي، فعكس أحواله في براعة ودقة كبيرين"[٢].

الجاحظ أوّل كاتب عربي اتخذ هذا الموضوع الصارم، ونقل شخصية البخيل من الواقع الحرفي، إلى دائرة الأدب والفن. وشخصية البخيل تورد احتجاج تلو الاحتجاج لتوجيه البخل، لكنه لا يهمل احتجاجات البخلاء لأنفسهم والمسوغات التي يطرحونها لما يفعلون. والقارىء ينظر إلى شخصية البخيل مجسدة أمام ناظريه ليضحك عليها أو يتسلى بها لكنه لا ينتقم منها بل ربما يشفق عليها، لأن الجاحظ يكشف من أمر هذا البخيل ما لم يكشفه البخيل من نفسه.

فالأسلوب الجدلي يستغل من قبل شخصيات البخلاء حقّاً أو باطلاً، إذ لم يكن البخلاء من نمط واحد، فهناك:

- بخيل يبالغ في إظهار الكرم، خوفاً من أن يوصف بالبخل.

- ويقابل هذا النمط آخر كان أقصى أن يتمناه أن يعرفه الناس بالبخل ليقطعوا أملهم فيه، وييأسوا من ماله الذين يقدمون على طلب شيء منه.

- ولا يخلو الكتاب من بخلاء يوصفون بالعقلاء وشدّة العارضة يقرعون الحجة بالحجة، لأنهم مقتنعون تماماً بما يفعلون، ويدافعون بالحجج العقلية عن البخل، فيسمّونهم بسمّية الإصلاح والاقتصاد والتدبير.

والجاحظ يكشف لنا عن أسرار البخيل، وطباعه، وطريقة عيشه، فلعب السرد والوصف دوراً كبيراً في معرفة مشاعر البخيل، فهو بارع في تصوير دقيق لطبيعة الصراع النفسيات البخلاء، فيكشف الجانب الباطني لكل بخيل. وكتاب البخلاء شاهد على العصر، فلو بحثنا عن أماكنها، لوجدنا الأماكن الجغرافية مثل بغداد والبصرة وخراسان ومرو[٣]، وبعض المأكولات والأطعمة، وأسماء صنوف الطعام والشراب ولأدوات المتصلة بالأكل والآكلين، مثل غذية وقدية والشواء والطبيخ والمرى والكامخ والسلاطات ولحم المجفف والحامض، وفيه فصل طويل حول العرب والطعام بعنوان، (أطراف من علم العرب في الطعام) وكذلك الملابس الشتاء وأخرى

---

[١]- نوادر الجاحظ، جميل حبر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م، ص١٢٤.

[٢]- الجاحظ، أحمد الحوفي، ص١٣٧.

[٣]- هي كبرى مدن خراسان، حتى لتعد قصبتها. وكان المراوزة موصوفين بدقة النظر، ثم جاءهم من ذلك الحرص، حتى وصفوا بالبخل. (تصدير: طه الحاجري، ص٢٨٢.)

للصيف، وكذلك عندهم "ثياب عزّة" و"ثياب حبرة" من بردة اليمن[1]. وهذا الكتاب صورة حيّة من حياة المجتمع العباسي، وأحاط الجاحظ بأساليب الحياة في بلاده وعصره.

١,١. الأخلاق عند الجاحظ

الأخلاق من أهم الدعائم والأسس التي يقوم عليها نظام الحياة البشرية. ولا شك فيه أن المستوى الأخلاقي للأمة مقياس حضارتها وأساس بناء مجتمعها، فالأمم تبقى وتذهب من بقاء الأخلاق ومن ذهابه.

إن مذهب الجاحظ الخلقي طبيعي يقول إن للإنسان تركيباً جسدياً ونفسياً فطّريا معيناً، ينبغي اعتباره على أساس الأخلاق. وإذا لم نأخذه بعين الاعتبار، وقعنا في أخطاء جسيمة عند معالجتنا هذا الموضوع.

ينفي الجاحظ أن تكون القيمة الأخلاقية ذاتية أو شخصية، لأن هذا الاعتبار لا يقيم فرقاً بين الإنسان والحيوان، ويعتذر أن ننسب نشأة القيم الأخلاقية إلى البشر على الإطلاق؛ فرادى أو جماعات. ولم يبق أمامنا إلا الله عزّوجلّ مصدراً للقيم الأخلاقية[2].

وهو يعتقد أن الإنسان مركب من عقل وغرائز، وإن هذه الأخيرة تظهر بشكل حاجات تلح على صاحبها في الاستجابة لها لترتوي، وأهمها الغضب والحسد والبخل والجبن والغيرة وحب الشهوات والنساء والعجب والخيلاء[3]. وهذه الغرائز شريرة إذا استبدت بالإنسان قادته إلى الهلاك، وإلى فساد الدين والدنيا معاً، ويستعين لمقاومتها وضبطها بالعقل[4].

بتحديد مصدر القيمة الأخلاقية وموقع الخلق بين السجيّة والرّوية والكشف عن طبيعة وجود الشر في الوجود وضرورة وجوده يكون الجاحظ قد أرسى قواعد انطلاقه في تحديد نظريته الأخلاقية ورسم معالمها من جهة وفي وضعنا أمام الأسس التي بنى عليها نقده أخلاق معاصريه من جهة ثانية[5]. "إنّ نقد أخلاق البخلاء على نحو خاص إلى جانب كونها صورة جمالية مبدعة، هي ممارسة نقدية أخلاقية مستندة إلى الأساس النظري لنظريته الأخلاقية في كون مصدر القيم إلهيّا من جهة أولى وفي أنّ البخل ضرب من الشرّ الذي لابدّ من وجوده من جهة ثانية، ولكن وجود ضرورة الشّر لا تمنع نقده ولا تعني تقبله"[6].

---

[1]- أنظر أدبية النادرة، دراسة في بخلاء الجاحظ، حافظ رقيق، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس، ط١، سنة ٢٠٠٤م.
[2]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عزّت السيد أحمد، ص٦٥.
[3]- استحقاق الإمامة، آثار الجاحظ، ص١٥٤.
[4]- المرجع نفسه، ص١٥٥.
[5]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عزّت السيد أحمد، ص٧٣.
[6]- المرجع نفسه، ص٧٤.

ويقول الجاحظ: إن الأخلاق مشتركة بين الدين والدنيا، فمذهب الجاحظ الخُلقي كما قال، هو "وضع الأخلاق على أصول الطبائع"، وهذا ما يؤكده في كتاب البخلاء. إنه لم يؤلف هذا الكتاب للفكاهة والتندر من البخلاء، كما ظنّ البعض، وإنما ألفه لدراسة أصل الأخلاق عند البشر. ما هو سبب البخل عند بعض الناس، وما هو سبب الكرم عند بعض الآخر؟ إنه طبع الذي فطر عليه هؤلاء وأولئك. فالبخلاء ليسوا أصحاب بخل وشحّ بسبب قناعة عقلية، وحجج منطقية يدلون بها على لسان **أبي العاص الثقفي** في الرسالة المنسوبة إليه أيضاً. فيقول: "إنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرَع، والجوائح عليهم أكلب، لأنهم أقلّ توكلاً وأسوأ بالله ظنّاً. والجوادُ إما أن يكون متوكلاً، وإما أن يكون أحسن بالله ظناً .. واعتلالُ البخيل بالحدثان، وسوء الظنّ يتقلب الزّمان، إنما هو كناية عن سوء الظنّ بخالق الحدثان، وبالذي يحدث الأزمانَ وأهلَ الزّمان.. والدليل على أنه ليس بهم خوفُ الفقر، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم، أو طبيعةً فيهم، أنكَ قد تجد الملك بخيلاً ومملكته أوسعُ، وخرجُه أدرّ، وعدوّه أسكن، وتجد أحزم منه جواداً، وإن كانت مملكتُهُ أضيَق وخرجُه أقلّ، وعدوّه أشدّ حركة"[1].

وفيه مثالان، الأوّل يتعلق بعاقبة السوء التي تصيب إلى مال البخيل بعدم التوكل، وجزاء الخير التي تناله الجواد، لأنه يتوكل على الله أو يحسن بالله ظناً، والثاني يتعلق بالقدر، وهو جزء من الإيمان، أن خيره وشرّه من الله تعالى.

والبخلاء يتصفون بالبخل لأنهم طبعوا عليه، والأجواد يتصفون بالكرم لأنهم طبعوا عليه، والجاحظ يورد نادرة الديكة في مرو التي تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ على العكس. "إن البخل شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم"[2]. ويؤكد الجاحظ بصدد الأخلاق على تأثير البيئة الطبيعية في أخلاق الناس والحيوان كما لاحظ تأثيرها من قبل في أجسامهم وعاداتهم.

وهذه تؤكد في نادرة الصبي المروزي الذي طلب منه زائر أبيه أن يطعمه من خبزهم، فأجاب: "لا تريده، هو مرّ"، فقال له: "فاسقني من مائكم"، قال: "لا تريده، هو مالح .."[3]، فضحك أبوه واعترف أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم. وهذا الاعتراف اعتراف المذنب، لأن الصبي في العقل غير ناضج، وإن يبخل فهذا في عرقه، وطبعه.

فالإنسان يلقى الأخلاق من بيئته الاجتماعية، ويتأثر بضربين من التربية، الأولى مقصودة وهادفة، والثانية شاملة ومشتقة منتشرة.

فهل البيئة الاجتماعية وحدها هي التي تحدد الأخلاق؟ لا يمكن الإجابة بالإيجاب، لأن مفهوم البيئة غير مقتصر على المحيط الاجتماعي، ولأن حياة الإنسان تعقد بشبكة العلاقات، منها

---

[1]- البخلاء، ص١٥٩-٠٠.
[2]- المصدر نفسه، ص١٨
[3]- المصدر نفسه، ص١٨

النفسية والأخلاقية والجمالية والجسمية والروحية ...الخ، التي تمثل لغزاً لا يزال العلم على مجده ورفعته، وما وصل إليه ماضياً في سبيل حله[1].

التوسّط والاعتدال

يبدو أن الجاحظ لا يقصر نظريته في التوسّط أو الاعتدال على القيم الأخلاقية وحسب، بل يرى أنها أكثر صواباً في كل مجالات الحياة وبمختلف ضروبها. وهو يقول: "وإنما وقع النّهيُ عن كل شيءٍ جاوز المقدار. ودين الله تعالي بين المقصر والغالي"[2].

ثمّ حاول الجاحظ في كتابه البخلاء أن يوجد أساساً فيزيولوجيا لدى الإنسان لتأكيد هذه القاعدة، فيقول: "من قامت أخلاطه على الاعتدال وتكافأت خواطره في الوزن، لم يعرف من الأعمال إلا الاقتصاد، ولم يجد أفعاله أبداً إلا بين التقصير والإفراط[3]، لأن الموزون لا يولد إلا موزوناً، كما أن المختلف[4] لا يولد إلا مختلفاً، فالمتتابع[5] لايثنيه زجر، وليست له غاية دون التّلف. والمتكفّي ليس له مأتى ولا جهة، ولا له رقيّة[6] ولا فيه حيلة. وكلّ متلوّن في الأرض فمنحلّ العَقد، ميسّر لكلّ ريحٍ"[7]. هناك تسميات للقيم الأخلاقية المتفاضلة في درجاتها ومقاديرها؛ فالجود مثلاً اسم لمقدار من المقادير يتوسط بين البخل والتبذير. والترف اسم لمّا زاد عن المقدار الذي يسمّى جوداً، والبخل اسم لمّا ينقص عن المقدار الذي يسمّى اقتصاداً[8].

يتبنى الجاحظ المفهوم الوسطى للفضيلة، فيقول: "إن خير الأمور أوساطها. أما الإفراط فهو رذيلة وكذلك التقصير، ويعتبر الجاحظ البخل رذيلة لأنها تقصير، والتبذير رذيلة لأنه إفراط. ونرى الجاحظ يهاجم البخلاء والمبذرين معاً. أما البخلاء، فقد هاجمهم بلسان أبي العاص الثقفي على البخلاء، ويقول لهم: "لقد تعجّلتم الفقر قبل أوانه، وصرتم كالمجلودين من غير لذّة .. ثمّ إنهم يحتجون لبخلهم بخوفهم من الجوائح والكوارث التي تنوبهم، فيردّ عليهم قائلاً: "وإنما صارت الآفات إلى أموالِ البخلاءِ أسرع، والجوائح عليهم أكلب[9]، لأنهم أقلّ توكّلاً بالله ظنّاً"[10].

---

[1]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ د. عزت السيد أحمد، ص٩٤.
[2]- البيان والتبيين، الجاحظ، ج١، ص١١٦.
[3]- بين التقصير والإفراط: الاعتدال.
[4]- مختلف: أراد الذي لم تتوافق أمرجته، ولم تعتدل وتتوازن.
[5]- المتتابع: المسرع إلى الشّر.
[6]- الرقية: هي أن يستعان للحصول على أمر بقوى تفوق القوى الطبيعية في زعمهم أو وهمهم.
[7]- البخلاء، ص١٦٩.
[8]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عزّت السيد أحمد، ص٨٧.
[9]- الجوائح: الواحدة جائحة: البلية والتهلكة. والداهية العظيمة. أكلب: أشدّ.
[10]- البخلاء، ص١٥٩-٠.

وإذا احتج البخلاء بأنهم أعقل من الأسخياء والأجواد وأكثر بصراً بعواقب الأمور، وخبرة بشؤون العيش، قيل لهم: "إنّ الزنج هم أبصر الناس فكرة ورؤية وأذهلهم عن معرفة العاقبة، وهم أبخل الناس"[1].

وإذا ادعى البخلاء أنهم "إنما يجمعون المال من أجل أولادهم، قيل لهم: ولو كانوا لأولادهم يجمعون، ولهم يكدّون، ومن أجلهم يحرصون، لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبون، ولتركوا محاسبتَهم في كثيرٍ ممّا يشتهون.. ولو كانوا لأولادهم يمهّدون، ولهم يجمعون، لما جمع الخصيانُ الأموال، ولما كنز الرهبانُ الكنوزَ، ولاستراحَ العاقرُ من ذلّ الرّغبة، ولسلم العقيم من كدّ الحرص"[2]. "إن الله جوادٌ لايبخلُ، وصدوقٌ لا يكذبُ، .. وقد أمر بالجود ونهانا عن البخل، وأمرنا بالصدق ونهانا عن الظلم"، وفخرت هاشم على سائر قريش فقالوا: نحن أطعم للطعام، وأضرب للهام. وقالوا: "أفضل الجود الجود بالمجهود[3]، وحتى قالوا في جهد المقلّ[4]، ولم نرى أمة أبغضت جواداً قطّ، ولا حقرته، بل أحبّته وأعظمته"[5]. والجاحظ يبين تفضيل الجود على البخل والإسراف معاً، لأنه بجانب تقصير والإفراط ويقع وسطاً بينهما.

١,٢. النزعة الإنسانية

إن الجاحظ كان السبّاق إلى فتح باب النّزعة الإنسانية. ويؤكد أن دواعي الإلفة والتحابب والتعاون والانسجام بين بنى الإنسان أقوى وأشدّ وأكثر من دواعى التنافر والتحارب والتشاحن والبغضاء. ويرى أن بني بشر إن تباينوا واختلفوا في انتماءاتهم وولاءاتهم ولغاتهم، فإنهم متفقون في الأصل والفصل والجوهر والمظهر بما تميّزوا به عن جميع خلائق الله تعالى، وما نُدِبوا له وأوكلَ إليهم"[6].

والجاحظ يريد أن يقول: "إن الشعوبي؛ الفارسي أو الرومي أو غيره .. الذي يعيش في كنف العرب هو ابن هذا القوم، وإليهم ينتسب لأنه بفضل حضارتهم صار ما صار إليه من حال"[7].

وفكر الجاحظ عن النزعة الإنسانية واضحة صريحة، ويؤلف بين القلوب التي كانت مختلفة، ليزيد الإلفة إن كانت مؤتلفة، وليخبر عن إتفاق أسبابهم ليجمع كلمتهم، وليسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب، ومقدار الخلاف في الحسب. ويقول الجاحظ "إنّ بقاء التنافس والتحاسد وما جرى مجراها مما لا ينتفي من بين الأقارب بالقربة

---

[1]- البخلاء، ص١٦٠.
[2]- المصدر نفسه، ص١٦٢.
[3]- بالمجهود. أي على قدر الطاقة.
[4]- قالوا في الجهد المقل: مدحوا العقير الذي يجود بما هو فوق طاقته.
[5]- البخلاء، ص١٥٦، و١٥٧، و١٥٨.
[6]- مناقب الترك، الرسائل، الجاحظ، ج١، ص٣٢.
[7]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عزت السيد أحمد، ص٩٦.

والجوار وكأنه يريد القول إنّ معرفة حقيقة وحدة الانتماء الإنساني لن تقضي على الشّر بالإطلاق، وإنما ستحطّم الحواجز بين الأمم والشعوب لتجعلهم كأنهم قبيلة أو أمة واحدة. ويجري على الإنسانية من أساليب التعامل والعلاقات ما يجرى على هذه الأمة"[1].

١,٣. أثر البيئة في الأخلاق

تؤثر البيئة الجغرافية والطبيعية في تحديد سلوك الناس وميولهم وأهوائهم وطبائعهم إلى حدٍ جدٍ بعيدٍ. وفي رأى الجاحظ أن العوامل الطبيعية تلعب دوراً هاماً في الأخلاق والعناصر المركبة للإنسان. لعل في هذا ما يفسر لنا اجتماع أفراد كل أمة من الأمم على أنماط معيّنة من السلوك الاجتماعي والأخلاقي والنفسي، "فالعرب كلهم على سبيل المثال شيء واحد، لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التّصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق والأعراق، من جهة الخؤولة المردّدة والعمومة المشتبكة، ثمّ المناسبة التي بنيت على غريزة التربة، وطباع الأهواء والماء، فهم في ذلك شيءٌ واحدٌ في الطبيعة واللغة والهمّة والشمائل، والمراعي والرّاعية، والصناعة والشهوة"[2].

البيئة ليست مقتصرة على المحيط الجغرافي، وإنما تمتدّ لتشمل الإطار الاجتماعي والنفسي والتربوي والديني للفرد. ويعرض الجاحظ لنماذج كثيرة من أثر البيئة في طبائع الإنسان وأخلاقه، منها ما هو على المستوى الفردي، باعتبار كنماذج كثيرة من البخلاء، والمغنين والكتاب، ومنها ما هو على المستوى الجمعي من حيث يتّصل باقتفاء أفراد أمةٍ ما أو بلدٍ ما ضروباً معيّنة من أنماط السلوك والأخلاق والعادات والأعراف والتقاليد .. وانتقال ذلك من جيلٍ إلى جيلٍ، وهو التأثير البيئي الشامل في الأفراد. والجاحظ يورد حديثه في خصال قريش، وهاشم ومصر والكوفة والبصرة ومناقب الترك والعثمانية والنابتة والبيضان والسودان[3]. وسنقف مع نموذجين أولهما خصال قريش وثانيهما بخل أهل مرو.

خصال قريش

ينقسم الجاحظ البشر بالاعتبار الأوّل إلى أمم. وكل أمة تختص بمجموعة من السمات والمزايا الأخلاقية والاجتماعية والنفسية .. التي تكونت بفعل ظروف متعددة وأكثرها أهمية البيئة الجغرافية والطبيعية. ثم تنشعب كل أمة إلى قبائل أو بلدان، وضياع يتّسم أهل كلّ منها أيضاً بخصائص تنفرد بها عمّن سواها من قبائل و بلدان أخرى من الانتماء إلى الأمة ذاتها. وهذا ما أكده غير مرّة إبان مرضه لخصال قريش دون سائر العرب، فيقول: "ونحن وإن أطنبنا في ذكر

---

[1]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عرت السيد أحمد، ص٩٧.

[2]- البيان والتبيين، الجاحظ، ج٣، ص٥٢٥.

[3]- وهما أيضاً خصّ الجاحظ كلاً من هذه البلدان والقبائل والشعوب بكتاب أو رسالة.

جملة القول في الوطن، وما يعمل في الطبائع، فأنا لم نذكر خصال بلدة بعينها، فنكون قد خالفنا إلى تقديم المؤخر وتأخير المقدم. وقلتم خبّرونا عن الخصال التي بانت قريش من سائر العرب، أي الخصائص التي في قريش دون العرب، فمن ذلك:

ا. أنا لم نر قريشاً انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب، إلى الساعة ينتسبون في قريش .. ومما بانت قريش أنّها لم تلد في الجاهلية ولداً قطّ لغيرها. ولقد أخذ ذلك منهم سكّان الطائف، لقرب الجوار وبعض المصاهرة، ولأنهم كانوا حمْساً[1] وقريش حَمَسَتهم[2].

ومن العجب أنهم مع تركهم الغزو كانوا أعزّ وأمثل، مثل أيام الفجار وذات كهف. وعند بنيان الكعبة قال رؤساؤهم: لا تخرجوا في نفقاتكم على هذا البيت إلا من صدقات نسائكم، ومواريث آبائكم! أرادوا مالاً لم يكسبوه ولا يشكون في أنه لم يدخله من الحرام شيء[3].

ب. ومن العجب أن كسبهم لمّا قلّ من قبل تركهم الغزو، ومالوا إلى الإيلاف والجهاد لم يعترهم من بخل التجار قليل وكثير، والبخل خِلقة في الطباع، فأعطوا الشعراء كما يعطي الملوك، وقرو الأضياف، ووصلوا الأرحام، وقاموا بنوائب زوّار البيت، فكان أحدهم يحِيسُ[4] الحَيسة في الأنطاع فيأكل منها القائم والقاعد، والراجل والراكب، وأطعموا بدل الحيس الفالوذج.

ج. ومن خصالهم أنهم لم يشاركو العرب والأعراب في شيء من جفائهم، وغلظة شهواتهم. كانت العرب قاطبة ترد مكة في أيام الموسم وترد أسواق عكاظ، وتقيم هنا أيام الطوال فتعرف قريش، لاجتماع الأخلاق لهم، والشمائل والألفاظ، والعقول والأحلام.

د. وقد تعجب الناس من ثبات قريش، وجزالة عطاياهم، واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة، وقد علموا أن البخل والبصر في الطفيف مقرونٌ في التجارة. وذلك خُلُق من أخلاقهم[5].

والحاصل في خصال قريش التي ذكر الجاحظ عفة نساء قريش في القرون السالفة إلى يومهم هذا ألف الجاحظ فيه البخلاء، أنها لم تلد ولداً لغيرها في الجاهلية، وأن قريشا آثروا أن يبنوا بيت الله من نفقاتهم الطيبة، فأخرج المال من صدقات نسائهم. والبخل ليس في طبائعهم، وتتجلي صورته أنهم كانوا يعطون الشعراء مثل الملوك. وموسم الحج يبرز أخلاقهم حين يترددون في خيام الحجاج، ويضيفونهم بالطعام والشراب، ويحتفلون مجالس الشعراء في عكاظ.

---

[1]- يقول ابن منظور الحَمْس: قريش لأنهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم، فلا يطاقون.

[2]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عزّت السيد، ص١٠٥

[3]- المرجع نفسه، ص١٠٥

[4]- الحيس الخلط، ومنه يسمى الحيس والحيسُ: الأقِطُ يخلط بالتمر والسمن، وحاسه، يحيسُه، حيساً.

[5]- الأوطان والبلدان، الجاحظ، ص١٠٦.+

بخل أهل مرو

يوازن الجاحظ خصال قريش مع بخل أهل مرو، وهذا البخل الغريب حتى الطرافة، والطريف حتى الإدهاش. وهو يؤكد على نظريته القائلة بوضع الأخلاق على أصول الطبائع. وأن الطبائع انعكاس مباشر للبيئة الجغرافية والطبيعية والاجتماعية. ويتجلى ذلك بنصاعة ووضوح في قصّة الصبي مرو التي يروي لنا الجاحظ، بلسان أحمد بن رشيد، الذي كان عند شيخ من أهل مرو، فطلب عن صبيّه بعض الأشياء، إما عابثاً وإما ممتحناً، فيمنَعُنيه ويبغّضه إليه، فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علّمه؟ وهذا الاعتراف أن البخل في طبعهم وفي أعراقهم وطينتهم[1]. والأغرب من ذلك أن هذا الطبع غير مقتصر على طينة الناس وأعراقهم وحسب، بل يمتدّ إلى الحيوانات أيضاً.

لانظنّ إلا أن المراد منها هو لإثارة الضحك والتهكم اللاذع، يقول ثمامة[2]، رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ، فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثم عمّ جميع حيوانهم[3]. ولا يكتفي الجاحظ بحكمه هذا على أهل مرو، فيورد لتأكيد ذلك نماذج متعددة ومتباينة من نوادر أهل مرو وطرائفهم نقطتف بعض هذه النوادر فيما يلي:

ا. **المَروزِي وزائرُه:** الذي لا يكرم ضيفه بالغذاء، ولما يطيل جلوسه يسأله: تغدّيتَ اليوم؟ وفي إجابة "نعم"، يقول: لو لا أنك تغدّيتَ لغدّيتك بغذاء طيّب. وإن قال لا، يقول: لو كنتَ تغدّيت لسقيتُك خمسة أقداح. فلا يصير على يديه على الوجهين.

ب. **ابن أبي كريمة[4] والوضوء بالعذب:** يغضب ابن أبي كريمة زائره أنه يتوضأ من ماء عذب، ولما يوضح إنما هو من ماء البئر[5]، يقول فتفسد كوزنا بالملوحة، فلم يدر الزائر كيف يستخلصه.

---

[1]- أبطر البخلاء، ص ٣١-٣٢

[2]- هو ابن أترس النميري كان أحد زعماء المعتزلة.

[3]- أبطر البخلاء، ص٣١.

[4]- اسمه أسود، وهو مروزي الأصل. وكان رجلاً بصرياً اسمه أبوكريمة ولا ندري لعله أبوه أو لعله هو وهو معدود في البخلاء الذين يستشهد بأسمائهم (ت طه الحاجري، ص٢٨.)

[5]- هذه القصّة تشير إلى أن البصرة كانت تعاني حالة خاصة من أجل ماء الشرب والواقع أن مسألة ماء الشرب في البصرة كانت منذ العتح التي عنى الولاة عناية خاصة بتدبيرها. وهذه القصص ما جاءت في البخلاء من اشارات إلى المبالغة في تقدير الماء العذب، والشح به، والتدبير له (ت طه الحاجري، ص٢٨٣-٤)

ج. بخل شديد الغرابة، شدّد عينية بمنديل: ترافقوا بعض خراسانيين في منزل، وليس فيه مصباح، فشاركوا في الغرم إلا أبى واحد منهم أن يعينهم، فإذا جاء المصباح شدّوا عينيه بمنديل، إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفأوه أطلقوا عينيه.

١,٤. البيولوجية والأخلاق

هل تؤثر البيولوجيا في الأخلاق أو يتأثر بها؟ ظلّ الجاحظ أميناً في تصوير الوقائع، واقعياً في تعامله مع أخلاقهم، موضوعياً في أحكامه، ولذلك لم يمنعه اعتراضه عليهم من الإعجاب بذكائهم وفطنتهم وظرافتهم وطرافتهم، كما لم يقده ذلك إلى التبرم بهم أو النفور منهم، أو السّخط عليهم، وهذا يبدو بالتلميح والتصريح في كثير من مواضع كتابه البخلاء وكتبه ورسائله الأخرى. ولم تتوقّف واقعيته وموضوعيّته في أطار موضوعنا، عند تعامله ونظرته إلى البخلاء والمبذّرين وحسب، بل ظلّ محافظاً عليها دائماً.

وها هو ذا يطلق حكماً قد ينطوي على بعض الغرابة ولكنه حدٌّ واقعي تشهد به حياة الناس. صحيح أن القاعدة الشّرعيّة تقول: "الحرام حرام، ولو فعله كل الأنام". والجاحظ يقول: "كلُّ خُلُقٍ فارق أخلاق النّاس، فإنه مذموم"[١]. وهو يميل إلى القول بأن بعض التغيرات البيولوجية والفيزيولوجية في جسم الإنسان تؤدي إلى تغيّر في أخلاق المرء وسلوكه، سواء أكانت خَلقية أم لاحقة على الخلقة. ومع هذا لا يقتنع الجاحظ على قول أطباء الهند الذين يزعمون أن العقوق يورث البرص[٢].

١,٥. مذهب البخلاء

البصرة في القرن الثاني كانت معهداً للعلم، وكان الناس يخالطون المسجديين[٣] لأخذ العلم عن الشيوخ والأدب عن أئمته، وبعض الطلاب (وفيهم الجاحظ أيضاً)، كانوا يكتريون حوانيت الورّاقين ويبيتون فيها للمطالعة.

استفحل ظاهرة البخل في العصر العباسي التي دعت أصحابه إلى الإنضواء تحت مذهب خاص بهم، يجمعون ويتدارسون فيه قضاياهم، لكي يدفعو مذهبهم، ويحتجّو له. وكانوا يعقدون لهم أندية يجتمعون فيه، وبعض الأحيان يقعد فيها أصحاب فن الاقتصاد، فيتذاكرون الإصلاح

---

[١]- الحيوان، الجاحظ، ج١، ص٢٨٢.

[٢]- البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ، ص٣٦.

[٣]- هم قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم، وطال عشيانهم له، فعرفوا به، ونسبوا إليه. ولم يكونوا – فيما يبدو – من صنف واحد، بل كانوا خليطاً من الناس، وكانوا يستطرفون من هذه الثقافات التي يزخر بها مسجد البصرة، ويتحدثون شتى الأحاديث، في مختلف المسائل (ت. طه الحاجري، ص٢٩٥).

وطرق البخل، ومكانهم في أغلب الأحيان المسجد حتى سمّوا بـ"المسجديين"[1]. ويبدو أن مسجد أبي رغبان بحيي البصريين في بغداد كان ملتقاهم.

وكان أبو عبد الرحمن الثوري على رأسهم فيه، يحتج ويوصي به للبخل ويدعوا إليه. ومنهم سهل بن هارون وأبو يعقوب الخريمي، وكان أبو سعيد المدائني إماماً للبخل في البصرة في ذلك العصر. وكان البخل عندهم دعوة ومذهباً اقتصادياً، ويقوم هذا المذهب على التناصح والتذاكر في البخل من خلال حفظ المال وعدم إنفاق والتقتير على الأهل[2].

٢. المحتوى الاجتماعي والثقافي والسياسي في الإمتاع والمؤانسة

التوحيدي قد تحدث عن كل الطبقات الاجتماعية وأبرز طريقة عيشها وأخلاقها وعلاقاتها ببعضها البعض وخصائص الحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري، هي: (ا) التصوير الطبقي، (ب) انعدام الأمن الاجتماعي، و(ج) الفساد الخلقي. ويتميز المجتمع الذي صوّره الإمتاع والمؤانسة بالتباين الشامل، فهو تباين طبقي وسلوكي وجنسي.

٢.١. التصوير الطبقي

الحياة الاجتماعية في القرن الرابع الهجري تبرز من أنماط الحياة الخاصة وأنماط الحياة العامة. فالحياة الخاصة تتركب من الخلفاء والحكام وحاشيتهم وكبار التجار وغيرهم، وهي الطبقة التي تملك السلطة والمال. فالصّاحب بن عبّاد (المتوفى ٣٨٤هـ) يطيعه الرجال ويصدّقه الجلساء، رغم أن "صغار آفاته كبيرة وذنوبه جمّة"[3]. وذلك لأن "الغنيّ ربّ غفور"[4]، حسب رأي التوحيدي. والوزير ابن سعدان (المتوفى ٣٧٥هـ) يملك الدرهم والدينار والذهب والفضّة والثياب العزيزة والخلع النفيسة والخيل العتاق والمراكب الثقال والغلمان والجواري"[5]، وكلها تبرز ثراءه.

والحياة الخاصة هي حياة العيش والترف، فينغمّ فيه للهو والعبث وإرضاء للشهوات. فذكر التوحيدي الأمير عزّالدولة (المتوفى عام ٣٦٦هـ) الذي ذهب إلى الكوفة وينعم بلذّتي الصّيد والغناء[6]، وما تبعهما، من الملذّات المأكل والمشرب. وهذا أبو عمر شاري صاحب الخليفة يدعو أحد المتصوفين إلى مائدته، ويصف المأكل الفاخرة الموجودة فوقها، قائلاً: "انهض بنا حتى

---

[1]- البخلاء، ص٤٧.

[2]- انظر المضحك في كتاب البخلاء، عبد الكريم العزبي، الحوار المتمدن، العدد ٢٩٩٧، ٢٠١٠\٠٥\٠٦م.

[3]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٦٠-٦١.

[4]- عجز بيت للشاعر الصعلوك عروة بن الورد يبين فيه أن المال يمحوا ذنوب الأغنياء، يقول: قليل ذنبه والذنب جمّ ولكن الغنى رب غفور.

[5]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٢٢٣.

[6]- المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٢.

نتغدى، فإن عندي مصوصاً[1] وهُلاماً[2] وبقيّة مطجّنة وشيئاً من الباذنجان البوارني المخمّر[3]". وهذا أبو الفضل بن العميد (المتوفى ٣٦٦هـ) كما يصفه أحد أعوانه، "لاه ساهٍ .. بالكأس والطّاس[4]، والغناء والقصف والناي والعود والصبّوح والغبوق، والشّراب المروّق العتيق[5]".

وفي هذه النصوص عرضت بعض النماذج من مظاهر اللهو في الإمتاع والمؤانسة، أمّا مظاهر الترف، فبعض الناس يتجادلون حول المفاضلة بين الطعام والغناء. فطبقة العليا لم تعرف الحرمان ولم تكابده، فالتوحيدي يروي لنا حواراً دار بين الرجلين، بمجلس أحمد بن يوسف، فالأوّل يذمّ الغناء فردّ عليه الثاني بقوله: "قصدت إلى أرق شيء خلقه الله وألينه على الأذن والقلب وأظهره السرور والفرح وأنفاه للهمّ والحزن .. فذممته"[6]. فأبه قائلاً: "أما أنا فالطعام الرقيق أعجب إليّ من الغناء"[7].

أما الحياة العامة فيصورها التوحيدي في أماكن كثيرة من الكتاب التي تظهر الفقر المدقع والجوع فتسوّل النّاس ويلبس أحقر الثياب. وليس أدلّ على صدق هذه الأحوال من شهادة رجل من الخاصّة، وهو الوزير ابن سعدان الذي يقول واصفاً العامة: "لم أقابل عامّةً جاهلةً ضعيفةً جائعةً بمثل هذه الكلمة الخشناء"[8].

والكتاب يعرض أحياناً للحياة الاجتماعية الشعبية فيذكر عدد القينات في الكرخ فيقول: "ولقد أحصينا في سنة ٣٦٠هـ: ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن[9]". وقد تحدث التوحيدي عن **المتصوّفين** بنيسابور سنة سبعين وثلثمائة، في أيام قد اشتعلت خُراسانُ بالفتنة، ووصف أحوالهم المادية البائسة وحياتهم ضنكاً ما يعانونه من الجوع. ويقول أحد المتصوّفين واصفاً حياته مع أصحابه: "كنّا جماعة غرباء نأوي إلى دويرةٍ الصّوفية، لا نَبرَحُها، فتارةً نقرأ وتارةً نصلّي وتارةً ننام وتارةً نهذي والجوع يعمل عمله"[10]، ثمّ يقول: "نحن قوم قد رضينا في هذه الدنيا العسيرة، ولهذه الحياة القصيرة بكسرة يابسة وخرقة بالية وزاوية من المسجد مع العافية من بلايا طلاّب الدنيا"[11].

لئن رضي المتصوّفون عامّة بتلك الأحوال واتخذوا القناعة بالقليل، فهناك طائفة أخرى من العامّة رفضت الاستكانة والاستسلام حتى وجدت فرصة للخروج من الفقر، وهي طائفة

---

[1]- المصوص: طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل؛ ويكون من لحم الطير خاصّة.
[2]- الهلام كعراب: طعام من لحم عجل بجلده؛ وقيل مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن.
[3]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٧٦.
[4]- الطاس إناء من النحاس يشرب فيه أو به.
[5]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٢١٨.
[6]- المصدر نفسه، ج٣، ص٨٠.
[7]- المصدر نفسه، ج٣، ص٨٠.
[8]- المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦.
[9]- المصدر نفسه، مقدمة أحمد أمين، ص (ص)
[10]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٩٢.
[11]- المصدر نفسه، ج٣، ص٩٢.

العيّارين. فهذه الطائفة الحقيرة تعاني الخصاص الغبن الاجتماعي. والعيّارون تجاوزوا السخط والضجيج إلى أخذ السلاح وسفك الدّماء، يقول التوحيدي: "شُنّت الغارة واتصل النّهب وتوالى الحريقُ حتى لم يصل إلينا الماءُ من دِجلة"[1].

يصف التوحيدي واحداً منهم وهو أسود الزبد. ويبرز هذا الوصف لنمط الحياة الخاصّة ونمط الحياة العامّة، تبايناً واضحاً بين الطبقتين ماديّاً ومعنويّاً. فالتناقض بين من يتنعّم بالترف ومن يشكو الجوع ليس بحاجة إلى دليل، والتقابل بين الخطوة الاجتماعية للخاصة والمهانة الاجتماعية للعامة تزيد هذا التناقض أشدّ عمقاً واستفحالاً.

والتناقض الطبقي وانعكاسات اجتماعية تمهّد لردّ الفعل. والمجتمع العباسي في القرن الرابع الهجري ليس مجتمعاً ميّتاً، فلم تقبل هذه الحالة ورفضت العامّة وبدت ضجّة ثائرة من جانب الشعب، ويورد التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة أمثلة: "فلما نزل الوزير ليركب المركب، صاحوا وضجّوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام .."[2]،هذه حالة الشعب، أنهم صاحوا حين نزل وزير من قصره، فأسمعوا احتجاجهم، وحالة فقرهم؛ وهذا الحديث وصلت من شيخ من الصّوفية، في أيام فتنة خُراسان: "وغلا السّعرُ، وأخيفت السّبلُ، وكثُر الإرجافُ، وساءت الظّنون، وضجّت العامّة"[3]. وهذه الكلمات تدل على الثورة والغضب، وهذه الثورة هي الرّد الطبيعي على المهانة الاجتماعية والخصاصة الماديّة[4].

إن أبرز ما يميّز بين الناس في سلوكهم الاجتماعي رغم التناقض الطبقي السائد بينهم هو اشتراكهم في الجمع بين الهزل والجدّ. وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة مثال "أبو محمد بن معروف قاضي القضاة في بغداد، فقد أشركه المهبلي (توفي عام ٣٥٢هـ) في أمر الملك مع بعض الرجال الآخرين، "إنه (أي المهبلي) قدّم قوماً ونوّه بهم ونبّه على فضلهم وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم وإلى كفايتهم منهم أبو الفضل العبّاس بن الحسين ومنهم ابن معروف القاضي .."[5]، وشارك في الوفد الذي ذهب إلى الأمير عزّالدولة سنة ٣٦٢هـ ليحثّه على تدارك أمر الفتنة التي اجتاحت البلاد بعد غزو الرّوم للبلاد[6]. لكن إلى جانب هذا السلوك الجدّي نجده أنه يحضر مجالس الغناء ويطرب بصوت مغنيّة تسمّى "علية"، وهي تتغنى بغزل عمر بن أبي ربيعة:

"أنيري مكان البدر إن أفل البدر وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر

ففيك من الشمس المنيرة نورها وليس لها منك المحاجر والثغر"[7]

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٦٠.
[2]- المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦.
[3]- المصدر نفسه، ج٣، ص٩٢.
[4]- أنظر. المحتمع والرؤية، الحبيب شبل، ص٥٨.
[5]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٢١٣
[6]- المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٣.
[7]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٦٨.

ولعل أبرز مثال على التباين السلوكي شخصية أبي سليمان السجستاني، الذي كان فيلسوفاً لعصره، والكتاب ثري بآرائه والمواقف الجديّة في السياسة والفلسفة والشريعة وغيرها من المواضيع، وهو إلى جانب ذلك يحضر مجالس الغناء ويطرب طرباً شديداً على غناء صبيّ موصليّ، وذكر التوحيدي المجلس الذي كان فيه، "المغنّي وغزال راقص وعلم[1]"[2].

وقد صارت مجالس الناس تشتمل في الوقت نفسه على هذين المظهرين، كمجلس رسل سجستان الذي حضر فيه بعض رجال السياسة والعلم والأدب من ناحية ومطرب وراقص وجارية مغنّية من ناحية أخرى، ويذكر "إتيان النساء الرُّعن[3] والصبيان الزّعر[4]"[5]، وقد خاض القوم بالسياسة طويلاً وتمتّعوا بعض الطبقات بالغناء والرقص وما تبعهم من الملذّات.

وكذلك كانت مجالس الوزير ابن سعدان، التي حضرها التوحيدي، تجمع بين أحاديث الجدّ والممالحة. وتختم الحديث على "ملحة الوداع". وكانت الليلة الثامنة عشرة عن ذكر المجون كاملة، لأن الوزير قال له: "كان الجدّ قد كدّنا ونال من قوانا، وملأنا قبضاً وكرباً[6]. وهذه الأمثلة تظهر أن المزج بين الجدّ والهزل قد صار أمراً طبيعياً في القرن الرابع الهجري، وإلا كيف من الممكن أن قاضي القضاة ومقريء القرآن والمتصوّف يحضر إلى مجالس اللهو والمجون.

والمجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري كان منقسماً بين الأجناس المتعددة من فرس وعرب وهنود وأهل الروم وغيرهم. ويعيش فيها المسلمون واليهود والنصارى (من الديانات)، وقد عرف هذا المجتمع بالصراعات العنيفة بين هذه الأجناس من العصر الأموي، وظهرت حركة الشعوبية التي تعادي العرب وخصائلهم وعاداتهم وأخلاقهم علماً وحضارة ومع مرور الزمن قويّت هذه الحركة، وفي الحكم العباسي تمكّن الأعاجم من السيطرة على مراكز النفوذ السياسي والاجتماعي، فيصف التوحيدي هذه الحالة في الكتاب، يقول: "ألا ترى أن الحال استحالت عجماً وكسروية وقيصرية"[7]. وأيضاً يبرز كيفية هذه السيطرة، "لكن لمّا غلبت عليهم العزّة، ودخلت النَّعرة[8] في آنافهم، وظهرت الخُنزُوَانَة[9] بينهم، سَمَّوا "آنين العجم[10]"، وقدّموه على السُّنَّة التي هي ثمرةُ النبوة"[11]. لكن ذلك لا يعني انتفاء ذلك الصراع تماماً. الوزير ابن سعدان

---

[1]- علم: اسم جارية. المصدر السابق، ج١، ص٤٢.
[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٤٢.
[3]- الرعن: كان أهوج في منطقه. حمُقَ وطاش فيما يقول أو يفعل.
[4]- الزعر جمع أزعر، وهو الذي لا شعر له. (الإمتاع، ج٢، ص٥٠.)
[5]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٥٠.
[6]- المصدر نفسه، ج٢، ص٥٠.
[7]- المصدر نفسه، ح٢، ص٧٦.
[8]- النَّعرة: كبر وخُيلا وعصبيّة
[9]- الخنروانة: الكبر.
[10]- آنين العجم عرفهم وعاداتهم. وهي كلمة فارسية.
[11]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٧٦

يسأل التوحيدي: "أتفضّل العرب أم العجم؟[1]". ويتضح ذلك أن مشكلة المفاضلة ما زالت قائمة، وهذه المصارعة العنيفة لم تضع أوزارها، والأذن تشتاق إلى سماعها.

فالتباين بين الأجناس ما زال قائماً، وهو بين العرب والفرس شديد، والإمتاع والمؤانسة لم يبرزه بصورة جليّة في الحياة اليومية للناس، والصراع الحضاري ارتكز على إبراز الفضائل الأخلاقية والاقتصادية والعلمية لكلّ جنس. وفي صراع الفضيلة لأجناس مختلفة عاب الجيهاني أخلاق العرب قبل الإسلام، كما نقد التوحيدي والقاضي المروروزي والأنطاكي أخلاق الفرس وعاداتهم قبل الإسلام. فهناك صورة التناقض في المجتمع الإسلامي، لأن الحضارة الفارسية تغلب رويداً رويداً، والحضارة العربية قد صارت في موضع الدفاع، لأن الفرس تمسك مواقع السياسة بالبلاد، ونالت الحضارة الفارسية حظّاً واسعاً في انتشار عاداتهم وأخلاقهم. وهذه الصورة تدل على التفكك الطبقي والسلوكي والجنسي الذي مَحُقَ أمن المجتمع والسكينة في القرن الرابع الهجري.

فكتاب البخلاء يورد صورة مجتمع بدأ يعيش قيم حياة جديدة، فهو يجسد لنا اضطراب القيم في ذلك العصر، كما يجسد لنا اضطراب هذه القيم في أعماق النفس الإنسانية وصراعها بين الجود والبخل، ومن الجانب الثاني الإمتاع والمؤانسة يبرز كثير من صور التمازج الحضاري التي شاعت في القرن الرابع الهجري، ومنها صورة الفرس والعرب. فبين لنا كيف أخذ العرب من الآخرين كما أعطوهم. وكذلك قدّم لنا مظاهر التمازج الذي يقوم على أساس ديني. وإنه العالم الذي استطاع أن يستخلص من الرؤية المتعصبة التي كانت تقرّح وتجرح جسد الأمّة الإسلامية.

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٧٠

الفصل الثالث: المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي في البخلاء والإمتاع والمؤانسة

١. المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي في البخلاء

إنّ الأخلاق، هو أخلاق الإنسان، والإنسان يتلقى من بيئته الاجتماعية العناصر الرئيسية في الوجدان، ويأخذها من العادات الزائفة، والأمثال، والتقاليد، والأعراف، وأنماط الثواب والعذاب، ويتأثر من التربية، التي قد تكون هادفة وقد تكون شاملة ومشتقة منتشرة.

حاول الأدباء من الزمن القديم توظيف صورة البخل كأداة للوقوف على معالم بعض الظواهر الفردية والجماعية، ولم يكن الجاحظ السبق في ذلك. وكان العرب مهتمين بجمع أخبار ونوادر البخلاء قبله من أمثال الأصمعي والمدائني، وأبي عبيدة[١].

أدخل الجاحظ نوعاً جديداً في الأدب العربي، وهو أخلاق الناس، والمجتمع الإسلامي في حياته العادية. وهذا النوع لم يلق رواجاً من قبل إلا بصورة متقطعة، لكن نتاج الجاحظ البخلاء أظهر أثراً ممتازاً على عصره وفيما بعد. والحقيقة أنّ الواقع الاجتماعي عنصر هام في التطور الإنساني. والجاحظ لا يقف عند حد طبقة في المجتمع، بل ينتقل من الطبقة الشعبية إلى البورجوازية ثم الأرستقراطية بدون المبالغة في الالتفات إلى الماضي، وهذا شئ نادر في الأدب العربي[٢].

والجاحظ، هو أديب أريب، غير متّبع أو مقلّد في القرنين الثاني والثالث الهجري. وهو أوّل من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان، تارة بالتلميح وتارة بالتصريح، وذكر الصفات وأبان السّمات. فقيّد عليهم أنفاسهم، وخلد غرائب أطوارهم، وعجائب تصرفاتهم، وشواذ أغراضهم، وعرض لأخذهم بأغلاطهم وفلتات ألسنتهم ومساوى أعمالهم. وقد يجابه من شاء منهم بالنقد واللذع والتجريح، غير عابيء بعتبهم، ولا معتد بلائمتهم[٣].

---

[١]- البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، (د.ط) ص٢٨.

[٢]- أنظر: الجاحظ، شارل بلا، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ص٣٠٢-٣٠٣.

[٣]- الجاحظ، حسن السندوبي، ص٢٠٠.

١.١. ظاهرة البخل

البخل غريزة بشرية، وجدت بوجود الإنسان، فقد راح يستحسن بعضها ويمدحه ويثني عليه، ويذمّ بعضها الآخر وينفرّ عنه، فهو عمل أدبي أمعن فيه الأدب مهما كان عصره أو غايته، ستقتضي حتماً الوقوف عليه سلبية كانت أم إيجابية. السبب الأوّل إثبات ما للعرب من قيم مناقضة لهذه القيمة، وبالتالي التفاخر بها، ويتجلى هذا في مآثرهم الشعرية والنثرية. والسبب الثاني فقد كان لأسباب محلية تمثلت في الصراع المتعارف عليه بين الأمويين والعباسيين. فاتخذت بعض الشخصيات الأموية كرمز لتجسيد ظاهرة البخل ورسم صورة بخيل في بداية العصر العباسي الأوّل. ولكن بعد ظهور النزعة الشعوبية[١]، اتسعت دائرة توظيف المصطلح في وجه الشعوبيين من الفرس خاصة. وكان الجاحظ وابن قتيبة أبرز من قاد هذا التوجه الفكري الثقافي[٢].

ومن الشعوبيين الذين طعنوا في القيم العربية ورسموا العرب بالبخل، هو المدائني، حيث التقط من هنا وهناك أخبارهم مما يتعلق بمآكلهم الغثّة، مطاعمهم كريهة وهيئة معيشتهم الخشنة، ليغضوا بذلك من قدرهم في نظر جمهور الناس[٣]. وفي هذه المرحلة اتسمت كتابات العرب عن البخل بالواقعية الزمانية، معالجة قضايا الحاضر والتعددية الطبقية حيث نجد الجاحظ "ينتقل من طبقة إلى طبقة أخرى – من الشعبية إلى البرجوازية إلى الأرستقراطية – دون الإلتفات إلى الماضي، وهذا شيء نادر في الأدب العربي"[٤].

يتميز كتاب البخلاء بأسلوبه النادر في تصوير نفسيّة الإنسان، ومهما تعددت الدوافع والحوافز التي حركت أقلام الأدباء أن نقلوا بها المضامين عن البخل، فكانت معظمها إخبارية، خالية من الصبغة الفنية والجمالية ما سوى عن الجاحظ حيث اتخذ أسلوباً جديداً لأنه يدرك أهمية توظيفه للواقع الاجتماعي كمعيار البحث مدى التطور الإنساني. وولع الأدباء بعد الجاحظ بموضوع البخل والبخلاء وأولوا اهتماماً وحرصاً كبيراً بهذا الموضوع[٥].

وبخلاء الجاحظ يدعون إلى البخل، ويقوم مذهبهم على التناصح والتذاكر في البخل. والآباء يوصون أبناءهم لحفظ المال، وعدم إنفاق والتقتير، وينصحونهم بسلك مسلكهم، وكيفية تدبير أمورهم، وهناك أمثال عديدة في كتاب البخلاء، ومنها، **أسد بن جاني** يوصي لإبنه: "واعلم أنّه إذا كان في الطعام شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهيّة"، فإنما ذلك للشيخ المعظّم والصبيّ

---

[١]- هي نسبة غير قياسية إلى الشعوب. وهم فريق من الناس لا يرون فضلاً للعرب على غيرهم، بل يبالغون في تنقصهم، والحط من قدرتهم والأرجح أن المصطلح يطلق على العجم. (أنظر. البيان والتبيين، الجاحظ، ح٣، ص١٠٥.)؛ وفي رأي أحمد أمين، في ضحى الإسلام، أن الجاحظ هو أوّل من استعمل كلمة "الشعوبية".

[٢]- أنظر البيان والتبيين، الجاحظ، ص٤.

[٣]- تاج العروس من جواهر القاموس، الإمام الزبيدي، فصل الياء، باب اللام، ص٢٢٢.

[٤]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلاّ، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٢٠٣.

[٥]- أنظر من السخرية في أدب الجاحظ، من خلال رسالة التربيع والتدوير والحيوان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص١٩٤.

المُدلَّل، ولستُ واحداً منهما، ... وعهدُك باللحم قريب، وإخوانكَ أشدّ قرماً إليه منكَ. وإنما هو رأسٌ واحد، فلا عليكَ أن تَتَجافَى عن بعض وتصيب بعضاً. وأنا بعدُ أكره لكَ الموالاة[1] بين اللحم، فإن الله يُبغِضُ أهل البيت اللَّحِمِيين[2]"[3]. وهذه الوصية تركز على جانب أساسي في حياة الإنسان وهو **المأكل.**

ويبدو أن البخلاء ينتمون إلى مؤسسة قائمة الذات في العصر العباسي، فظهر البخل إلى جوانب عديدة من حياتهم، بل يكاد يسير معهم أينما حلوا وارتحلوا. والبخلاء يعتمدون على الحجج في إعطاء المشروعية لما يقومون به، والبخل يأتي إليهم من الجوانب التالي:

في المأكل

وهو من أبرز الجوانب التي ركز عليها البخلاء في الشح والتقتير، ومعظم قصص البخلاء تبيّن هذا الجانب، كما أورده الجاحظ في رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه الذين ذموا مذهبه في البخل. قال: "عبتموني حين قلت لغلام: إذا زدتَ في المَرق فزد في الإنضاج، لنجمع بين التأدّم باللحم والمرق. .. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء"[4].

وسئل أبو عبد الله: "منذ كم أنتَ مقيم بالعراق؟ فقال: أنا بالعراق منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ أربعين سنة". فقال: "سألناك يا ابا عبد الله عن مسألة، فأجبتنا عن مسألتين"[5]. وحالة هي كناية رفض الطعام للقادم المضيف.

وقال أحمد بن رشيد: أنه قال لصبيّ من أهل مرو، إما عابثاً وإما ممتحناً: أطعمني من خبزكم، قال: لا تريده، هو مرّ، فقلت: فاسقني من مائكم، قال: لاتريده، هو مالح، قلت: هات لي كذا وكذا، قال: لا تريده، هو كذا وكذا .. فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علّمه، أي البخل في طبائع أهل مرو. والبخل ليس في أهله فقط بل في صبيانه، حتى في حيوانه، كما يقول ثمامة: أن الديك في أي بلدة، هو "لافظ"، يلفظ حبّة منقاره قدام الدجاجة، لكن ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ. فالبخل في طبع البلاد وفي جوهر الماء[6]. وهذا دليل أن البخل من ظواهر الشاذة والمذمومة التي عرفها العصر العباسي.

وقيل لأبي الحارث جمّين: "كيف وجه محمد بن يحيى على غدائه؟ قال: أمّا عيناه فعينا مجنون. وقال فيه أيضاً: لو كان في كفّه كُرٌّ خردل، ثم لعب به لعب الأبلّي بالأكرة، لما سقطت

---

[1]- الموالاة المتابعة
[2]- اللحميين. الذين يكثرون أكل اللحم
[3]- البخلاء، ص١٥٤.
[4]- المصدر نفسه، ص٢٣.
[5]- المصدر نفسه، ص٣٧.
[6]- أنظر: المصدر نفسه، ص٣١.

من بين أصابعه حبّة واحدة[1]". وقيل لرجل من العرب: "قد نزلتَ بجميع القبائل، فكيف رأيت الخُزاعة؟ قال: جوع وأحاديث"[2]. وفي قصّة أخرى يدعوالجاحظ البخيلُ على الطعام في منزله، (وهو صديقه محفوظ نقاش[3])، ويبين فيه أن البخيل يمنعه من الأكل بالحيلة ويخوّفه حين لمرضه وحين لبرد الليل، وثقلة الطعام حتى ولو أحضره، وكل ما له علاقة بالتغدية عدوا لسياستهم الاقتصادية التي تبني على الشح والتقتير في الإسراف على ملذات البطن، حيث عززوا ذلك بالحجج الواهية التي تبدو في الظاهر مقنعة، لكنها تقوم على التنافر والتناقض، فكيف للإنسان أن يتحرك بدون أكل أو أن يسعى للبحث عن الأموال بالطرق المعروفة عند البخلاء إذا سلمنا جدلاً بظاهرة البخل.

البخل في المشرب

لقد شمل البخل إلى جانب المأكل لدى البخلاء المشرب، ومنها ما حكاه عن المسجديين، إثناء مناقشتهم ومذاكرتهم في البخل، قال الشيخ منهم: "ماء بئرنا - كما قد علمتم – مالح أجاج[4] لا يقربه الحمار ولا يسغيه الإبل .."[5]، وهذه الحكاية تبيّن مدى إلحاح البخلاء عن عدم الإنفاق والإسراف في الماء.

وهذه القصّة عن البخل في الماء، وقال المكيُّ: "كنتُ يوماً عند العنبريّ، إذ جاءت جاريةُ أمّه، ومعه كوز فارغ، فقالت: قالت أمّك: بلغني أنّ عندك مزمّلة، ويومنا حارّ، فابعث إليَّ بشربة منها في هذا الكوز". قال: "كذبتِ أني أعقل من أن تبعث بكوز فارغ ونردّه ملآن. اذهبي فاملئيه من ماء حبّكم، وفرّغيه في حبّنا، ثمّ املئيه من ماء مزّملتنا، حتى يكون شيء بشيء"[6]. وهذه القصّة تبيّن شدّة البخل، حتى في الماء لأمه. وفي الجانب الثاني تشير إلى مشكلة الماء العذب في البصرة.

البخل في الملبس

ويشمل فيه قميص وسروال ونعل وغيرها. وفي رسالة سهل بن هارون: "وعبتموني بخصف النعال[7] وبتصدير القميص[8]، .. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ويرقع ثوبه

---

[1]- البخلاء، ص٧٢

[2]- المصدر نفسه، ص٧٣

[3]- المصدر نفسه، ص١٧٥.

[4]- أجاج ملح مر.

[5]- البخلاء، ص٤٧-٤٨.

[6]- المصدر نفسه، ١١٣

[7]- خصف النعال: ترقيعها.

[8]- تصدير القميص: تبطينها لتقويتها.

.. وكان في ثوب عمر رضي الله عنه رقاع أدم[1]، وقالوا لا جديد لمن لا يلبس الخَلَق"[2]. وفي هذه الحكاية احتجّ سهل بن هارون لترقيع النعال والثياب بالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم، الذين يلبسون المرقع من اللباس، فهذه الأدلة مقنعة بالنسبة للمخاطب، ما لم يتمعن في جوهرها، ولم يربط بسياقها.

والبخل لازمة حياة البخيل كأنه ملبس أو تاج ألبسه البخيل، ويذهب معه أينما حل وارتحل، وكأن البخل يجري في عروقه كالدم مما يجعله مطبوعاً فيه. ويؤكد الجاحظ في حديثه عن أهل مرو: "ناس من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لاينزعون خفافهم، يمشون على صُدور أقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر، حتى يكون كأنهم لم يلبثوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر"[3].

البخل في وسائل الإضاءة

البخل طبيعة البخيل وسلوكه، ويأتي على جميع جوانب الحياة، فالبخيل يبخل في الاستفادة من النور الذي تمنحه وسائل الإضاءة من قنديل ومسرجة وغيرها. ويتجلى هذا ما قاله مثنى بن بشبر والشيخ المروزي – الخراساني، على استعمال مسرجة الخزف، فهذا الحوار تمحور حول كيفية الاقتصاد في الدهن الذي تستعمل للمسرجة. فرجل خراساني ألقى في دُهن المسرجة شيئاً من ملح، وعلّق على عمود المنارة عوداً بخيط، لكي لا يضيع الدهن في ليلة التي يكفي للشهر[4]، فالأدلة التي ساقها الشيخ الخراساني للتدليل على مشروعية البخل في دهن المسرجة، هي في حدّ ذاتها مثار للضحك.

وفي قصّة أخرى يفضّل المَروَزي قنديل الزجاج على مِسرجة خَزَف، لأن "الخزف والحجارة يحسُوان[5] الدّهن حسواً" و"الزجاج أحفظ من غيره، ولا يعرف الرّشح ولا النّشف، ولا يقبل الأوساخ التي لا تزول إلا بالدلك الشديد أو بإحراق النار، وإن فضله الذهبُ بالصلابة فضله الزجاج بالصفاء" .. "ثمّ انظر كيف يتضاعف نورُه، وإن كان سقوطه على عين إنسان أعشاه وربّما أعماه" .. وزيت في الزجاجة نورٌ على نور، هذا مع فضل حُسن القِنديل على حسن مَسَارج الحجارة والخزف"[6]. وفي هذه القصّة أكّد البخيل ذلك بآية قرآنية تعتبر دليلاً قاطعاً ذا مرجعية دينية لا تقبل النقاش ولا المتمثل، في قوله تعالى: **﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا**

---

[1]- أدم: الجلد

[2]- البخلاء، ص٢٤

[3]- المصدر نفسه، ص٤٥.

[4]- أنظر المصدر نفسه، ص٣٣-٣٤

[5]- يحسوان يشربان.

[6]- أنظر البخلاء، ص٣٥-٣٦.

شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) (٣٥))[١].

البخل بالمال

المال هو محرك الطمع لدى البخلاء، وهاجسهم في الحياة، فهم يفعلون المستحيل من أجل حفظه وعدم ضياعه من جهة ثانية. فأبو عبد الرحمن ينصح لإبنه: "أي بنيّ إنّ إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق[٢]، وإنفاق الدوانيق يُفتح عليك أبواب الدراهم، .. والمئون تفتح عليك أبواب الألوف .. أي بنيّ صار تأويل الدرهم، دار الهمّ، وتأويل الدينار، يدني إلى النار، وإذا خرج الدرهم إلى غير خَلَف، وإلى غير بدل، دار الهمّ على دانق مخرجه. وكذلك الدّينار يُدني إلى النار .. "[٣]. وهذا التأويل المضحك للتقتير، وعدم إنفاق، ولعبة ظاهرية للألفاظ دون المعاني.

وهذا حديث عن والٍ بفارس، إما أن يكون خالداً خُو مهرويهِ أو غيره، كان مشغولاً بحسابه إذ نجم[٤] شاعرٌ بين يديه، وأنشد شعراً مدحه فيه، فقال لكاتبه، أن يؤتيه عشرة آلاف، فلما فرح شاعر من هذا العطاء، زاد عليه الجائزة أضعافاً مضاعفة .. ولما سأل الكاتب عن نفاذ أمره، فأنكر له، وقال: قد سُرِّنا بكلام، وسررناه بكلام. فيكون كذب بكذب، وإذا قيل الكذب بالصدق، والقول بالفعل فذلك هو خسران مبين[٥]. وهذا شان والٍ بخيل، في العصر العباسي الذي كان الوزراء والحكام يغدقون أموالهم على الشعراء والأدباء وهذا الوالي يسرّ بالكلام فقط. يعدد الجاحظ عن "البخيل المخدوع" والبخيل المفتون والبخيل المضياع والبخيل النفاج والبخيل الذي ذهب ماله في البناء والذي ذهب ماله في الكيمياء والذي أنفق ماله على أمل خائب، والذي أنفقه في طلب الولايات، والدخول في القبات، وكانت فتنته بما يؤمل من الإمرة فوق فتنته بما حواه من الذهب والفضة[٦].

والبخيل إذا أنفق ماله يطمع في الحصول على المزيد منه، مع ما يلقاه في كثير من الأحيان من خيبة الآمال وضياع الأموال. ويتحدث الجاحظ عن نفاق البخيل، أي عن القناعة التي يتخفى وراءه مرتديا رداء الدين والتقوى والورع، فيقول: "لأن يطعن الطاعن في الإسلام أهون عليه ممن يطعن في الرغيف الثاني، ولا شق عصا الدين أشق عليه من شق الرغيف، ولا يعد الثلمة في عرضه الثلمة، ويعدها في ثريدته من أعظم الثلم"[٧].

---

[١]- سورة النور.
[٢]- الدانق. سدس درهم.
[٣]- البخلاء، ص١٥٠-٥١.
[٤]- نجم. طلع، ظهر.
[٥]- انظر: البخلاء، ص٤٢-٤٣.
[٦]- الجاحظ الأديب الساخر، عبد الحليم محمد حسين، ص١٥٩.
[٧]- المرجع السابق، ص١٥٩.

والبخل مدخل للرزائل ومقدمتها، كما كان الكرم عكسه. وكانت العرب تصم أعدائها بصفة البخل والغش إذا تريد وصمة مقذعة. ويربط الجاحظ بين البخل والبخيل ونهمه، لكن على مائدة غيره، فيصل ما كان من أمر "علي الأسواري" وهيئته وهو أحد الشخصيات التي صورها تصويراً كاريكاتيريا فيقول: "وكان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عيناه، وسكر وسدر وانبهر وتربد وعصب ولم يسمع ولم يبصر"، ويقول عنه أيضاً: "أثناء تناوله الطعام، ما رأيته قطّ إلا وكأنه طالب ثأر أو كأنه دانع مقرور"[1].

٢,١. طياب البخلاء

بخلاء الجاحظ طياب البخلاء، لا تشمئز النفس منهم ولا تمل قراءة أخبارهم؛ ومن هم "أحمد بن خلف"، وهو من أصدقاء الجاحظ، يعدده الجاحظ من "طياب البخلاء"، ومن مفاضله أنه وأخوه اقتسموا من ميراث أبيه بينهم نفس اليوم الذي مات أبوه فيه، وقبل الصلاة عليه. وتركه مالاً عظيماً، وهي ألفان وألف درهم وستّمائة ألف درهم، وأربعين ومائة ألف دينار؛ وهو بعيد العهد بالأكل في بيته، ويقول: "لا، والله إلا أن فلاناً حبسني" و"لا والله، إلاّ فلاناً عزم عليّ". ولا يعزم أحمد بن خلف على غيره أن يأكله؛ لكنه يشاور الأصدقاء، عن الأخذ "المثلثة"[2]، لأنها تنوب على الغداء والعشاء؛ وكان لا يفارق منازل إخوانه، وإخوانه يهدون إليه، ويتناوبون الطعام، ولا يدعوهم مرّة، ولما طال تغافله، صرّحوا له، أن يجعل لهم دعوة ليس لها أخت، فاتّخذ لهم طعيماً خفيفاً شهيّاً مليحاً، لا ثمن له، لكن أثبت نتيجة هذه الدعوة، أنها قرّبه من الفقر وباعده من الغنى؛ وهذا أحمد بن خلف من طياب بخلاء الجاحظ. وكان بخلاء الجاحظ طياباً كما ذكر، ومنهم الذي: (أ). لابترك أثراً سيئاً في النفوس، لأن الناس يأكلونه ويحبسونه على خوانهم، (ب). الجاحظ جعل نكتته على لسان البخيل مثل في قصّة دعوة أحمد فقال بلسانه: "فمن لا يلومني على دعوة قوم قرّبوني من الفقر وباعدوني من الغنى، وكلما دعوتهم أكثر، كنتُ من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد[3]"، (ج). بخيله يحرص على ماله ولا يتعدى على حقّ غيره، وحرصه على مال أبيه أنه اقتسمها بينه وبين أخيه حاتم في يوم مات فيه أبوه، و(د). بخيله يبخل على الناس ويطعمهم "طعيماً خفيفاً" ولا يبخل على نفسه في الغالب إلا لعذر[4].

---

[1]- الجاحظ الأديب الساخر، عبد الحليم محمد حسين، ص٨٠.

[2]- المثلثة: إنها تطلق على نوع من الحساء، طبيخ يتخذ دقيق زماء ودهن وقد يحلى.

[3]- البخلاء، ص٤٢.

[4]- أنظر: المصدر نفسه، ص٧-٨

ماذا عالج الجاحظ في البخلاء؟

عالج الجاحظ فيه **أحوال الناس** في سفرهم وإقامتهم، فراداً وجميعاً، وفي مآكلهم، ومشاربهم، وفي نفقاتهم، وجمع أموالهم، وتبخّلهم في غسل الثياب، وفي بيعهم وشرائهم، و....

ودرس **نفسيته** في تعامله مع الضيوف، والإخوان، والأصدقاء، والغلمان والجواري، والجيران، والأولاد، ... **وأخلاقه** في تأجيل الضيافة، وحرمان المؤنة، وغضبه للماء العذب، أو ضربه للغلمان المجاعة على أكل الجوارشن، أو تقديم الطعام "غير الحشمة" إلى الأعمى ...، **وعاداته** في طلب المال وجمعه، وادّخره في كيس لم يخرج منه أي فلس يكنز فيه، أو في طلب الطعام للزوج الحامل من جيرانه، وفي تكثير الطعام على المأدبة وتقليل الماء، أو تكثير الطعام وتقليل الخبز، ...، **وجعل شخصياته** تمثل كل زمان ومكان.

٢ ـ المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي في الإمتاع والمؤانسة

ينشغل التوحيدي بظاهرة بخل الأغنياء وشحهم، مثلما انشغل الجاحظ بهذه الظاهرة من قبل في كتابه عن البخلاء ونوادرهم، غير أن معالجة التوحيدي تفتقد حس السخرية والتندر والضحك، الذي اتسمت به معالجة الجاحظ، وتميل إلى رصد وتحليل الجانب المأساوي للظاهرة، بل حتى حين يميل التوحيدي إلى التندر والسخرية تنطوي معالجته على مرارة وسوداوية واضحة. وعند ظاهرة البخل يتوقف مضمراً إدانته، وتعريته القاسية لأغنياء عصره البخلاء، أهل الشحّ والنزالة والخسة واللؤم، فيقول في الهوامل والشوامل: "ما سبب ذمّ الناس البخل مع غلبة البخل عليهم، وما سبب مدحهم الجود مع قلّة ذلك فيهم؟ وهل الجود والبخل طبيعيان مكسويان؟ وهل بين البخيل واللئيم والشحيح والمنوع والنذل والوتح (الخسيس) المسيك والجعد (البخيل) والكزّ (كزّ اليدين/ البخيل) فروق؟!"[١].

التوحيدي يؤكد الإصلاح الخُلقي ويبيّن تباين الأخلاق الإنسانية وتناقضها داخل كيان الفرد الواحد مثل داخل الكيان الاجتماعي. وهو في هذا السياق أكثر حدّة وقسوة وعنفاً من محاوره في حكمه على هؤلاء الأغنياء البخلاء المرائين المتشدقين بالجود، دون ممارسته؛ أي أنه يسعى لكشف التناقض الاجتماعي الشائع بين الادعاء الأخلاقي، والممارسة الفعلية، ولعل أبا الفضل ابن العميد – الوزير – ونوادر بخله الشهيرة مضمرة في عمق تساولات التوحيدي، بل إنما يرويه التوحيدي عن بخل ابن العميد يتجاوز حدود النادرة ليصل إلى مستوى الإيذاء الفعلي حيث يقترن البخل باللؤم والقسوة والخساسة[٢].

يروي التوحيدي في الليلة الحادية والثلاثين قصّة رجل "عشق جارية رومية، كانت لقوم ذوي يسار، فكتب إليها يوماً: جُعِلتُ فداك عندي اليوم أصحابي، وقد اشتهيتُ سكباجَةً[٣] بَقَرِيَّةً فأحبّ أن توجّهي إلينا بما يعمنا ويكفينا منها، ودستَجَةً[٤] من نبيذ، ونشرب على ذكرك. فلما وصلت الرّقعة وجّهت إليه ما طلب؛ ثمّ كتب إليها يوماً آخر: فدتك نفسي، إخواني مجتمعون عندي، وقد اشتَهَيت قَلِيَّةً جزوريَّة فوجّهي بها إليَّ وما يكفينا من النبيذ والنّقل، ليعرفوا منزلتي عندك، فوجّهت إليه بكل ما سأل؛ ثمّ كتب إليها يوماً آخر: جُعلتُ فداكِ، قد اشتهيتُ أنا وأصحابي رؤوساً سماناً، فأحبّ أن توجّهي إلينا (..)؛ فكتبت الجارية عند ذلك: إني رأيت الحبّ يكون في القلب، وحبّك هذا ما تجاوز المعدة"[٥]. وهذه القصّة تبيّن صورة الرجل العاشق، الذي لا ينفق على الأصدقاء، وكل

---

[١]- عني بخيل .. فقير شرها كوميديا سوداء، هالة أحمد فؤاد، مجلة العربي، العدد ٦٢٦، ٢٠١١/١١م.

[٢]- المرجع نفسه.

[٣]- مرق، يصنع من اللحم والحلّ.

[٤]- إناء كبير من زجاج فارسية دسته

[٥]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٨.

مرّة يجيء إلى عشيقته، ليحصل منها ما يعمه وأصدقاؤه، ليعرفوا منزلته عندها، وهو ليس ضيف واحد، يريد الطعام، بل يرسل إليها الرّقعة لضيافة أصدقائه. وهو بخيل الحبّ أيضاً.

وهذه القصّة عن بلدة البخلاء، "كان بأصفحان رجلٌ أعمى يطوف ويسأل، فأعطاه مرة إنسانٌ رغيفاً، فدعا له وقال: أحسن الله إليك، وبارك عليك، وجزاك خيراً وردّ غربتك. فقال له الرّجل: ولِمَ ذكرتَ الغُربة (في دعائك، وما علمك بالغربة؟) فقال: الآن لي ها هنا عشرون سنةً، ما ناولني أحد رغيفاً صحيحاً"[1]. [2] وهذه مائدة محمد بن يحيى البرمكي، "شبرٌ في شبر؛ وصفحته من قشر الخشخاش، وبين الرغيف والرغيف مضرب كرة؛ وبين اللون واللون فترة نبيّ؛ وقيل: من يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون[3]". وهي صورة البخل للغير. على مائدة البرمكي طعام كثير لكنه يأكله دون الضيف، أو المصاحب، أو الصديق. والتوحيدي يأتي بمقابل هذه الصفة البخل، الجود والضيافة إبراهيم عليه السلام، الذي لا يأكل الطعام إلا مع الضيف، وهو يقول: "وما تغذيتُ وما تعشيتُ إلاّ مع ضيف". وهذا بخيل آخر، دخل ساقيةً في الكرخ فتوضّأ؛ فلما خرج تعلّق السّقاء به وقال: هات قطعة (أجرة ما استعمل الماء)؛ فضرط ضرطةً وقال: خلّ الآن سبيلي، قد نقضتُ وضوئي[4].

وهذه قصّة أبي الحسن الذي جرّب ابنته وابنه على المائدة، فوجد الابنة أنها تخصّ أكلة نفيسة له، وابنه "يسبق إلى لقمة طيبة"[5]، ويأكلها. فابنه كان بخيلاً لحقّه؛ وهذه امرأة بشّرت زوجها بأن ابنها منه قد اثّغر[6]، فقال: أتبشّرينني بعدوّ الخبز؛ اذهبي إلى أهلك"[7]. والقصّة الأولى تظهر طمع الابن على المائدة، والثانية بخل الوالد لابنه. وغضبه على زوجها بهذا الخبر حتى أخرجتها من بيته.

وهذا خوان قتيبة، والضيف الشعبي، وسأله قتيبة: ما أسقيك؟ قال: "الهيّنُ الوُجد، العزيزُ الفَقد، فقال: يا غلام، اسقه الماء[8]". وهذه الضيافة المائية على خوان قتيبة النادرة.

ولمّا يذكر التوحيدي خصائل بعض علماء عصره، البخل صفة كبيرة في خصائلهم، فيقول عن أبي سليمان المنطقي: "إن الزمان بمثله لبخيل"[9]، ومرّة أخرى يقول: "أمّا شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً (..) وبخلٍ بما عنده من هذا الكنز"[10]. ويقول عن ابن العميد: "احتراقه بالبخل بالدانق والقيراط، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان وإيثار الشحّ بالفعل، وتمجيد الكرم بالقول

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٢٨.
[2]- المصدر نفسه، ح٣، ص٧٨.
[3]- المصدر نفسه، ح٢، ص٥٨.
[4]- المصدر نفسه،ح٢، ص٥٨.
[5]- المصدر نفسه، ح٣، ص١٤.
[6]- اثغر الغلام واثغر نبت ثغره.
[7]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٥٠
[8]- المصدر نفسه، ح٣، ص٣٢
[9]- المصدر نفسه، ح١، ص٣٠
[10]- المصدر نفسه، ج١، ص٣٣

ومفارقته بالعمل"[1]. وهذا أيضاً من خصائل البخيل أنه يبخل ويشحّ في العمل لكن يتمنى أن يوصف له أنه جواد. وعن ابن زرعة: "فهو حَسَن الترجمة، صحيح النقل، (..) ولا له من لغزها مأخذ، ولو لا توزّع فكره في التجارة، ومحبّته في الربح، حرصه على الجمع، وشدّته على المنع؛ (..) وحبُّ الدنيا يُعمي ويصمّ"[2]. وهو تصوير حقيقي للبخيل الذي يجمع ويعدد، ويمنع المال والأشياء من أن ينفق.

وعن ابن السمح: "فلا ينزل بفنائهم، ولا يسقى من إنائهم؛ لأنه دونهم في الحفظ والنقل والنظر والجدل، (..) والذي يحطّه عن مراتبهم شيئان: أحدهما بلادةُ فهمِه، والآخَر حرصُه على كسبه، فهو مستفرغ مُحّ البال مأسور العقل، يأخذ الدانق[3]، والقيراط والحبّة والطسوج والفَلس بالصرف والوزن والتطفيف؛ والقلب متى لم يُنَقَّ من دنس الدنيا لم يَعبَق بفوائح الحكمة"[4]. وهذه كلها تظهر صورة بخله مع ضيوفه، وأيضاً تطفيفه في المال. وعن عيسى بن عليّ: "فله الذرع الواسع والصدر الرحيب في العبارة (..) ولكنه مع هذا الفضل الكثير بخيل بكلمة واحدة، ونصيح[5] على ورقة فارغة، لسودانه الغالبة عليه، ومزاجه المتشيّط[6] بها"[7]. فمعظم علماء عصره كانوا بخلاء في رأي التوحيدي.

٢,١. النقد الاجتماعي عند أبي حيان التوحيدي

يمتاز أبوحيان التوحيدي بأسلوبه، لأنه يمدّ قلمه من قلبه، ويعتمد على حرارة عاطفته، وقوتها وصدقها، ويعبر عن فكرة، ويكتب بقوة وحرارة. فكانت الحيوية والقوة غالبة فيما كتب التوحيدي بقلمه. وإنه قد تفرد بوصفه للرجال، وبتحليل نفسياتهم، والكشف عن مواهبهم ومميزاتهم وبيان مكانتهم ومالهم وما عليهم. والتوحيدي يلمس سخريته البيّنة من الطبقات العالية في المجتمع ومن القائمين على شؤون الناس من الوزراء والكتّاب والقضاة والفقهاء. وقد اتخذت السخرية عند التوحيدي منحى لا يراد به الهزل والإضحاك فحسب، وإنما يرمي إلى الاحتجاج، والتعبير عن موقف رافض للواقع الكائن وسعي إلى واقع ممكن[8].

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص٣٦

[2]- المصدر نفسه، ح١، ص٣٣.

[3]- هو سدس درهم، والقيراط نصف دانق، والحبّة ورن شعيرتين، والطسوج. ربع الدانق.

[4]- الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص٣٤

[5]- نصيح على ورقة فارغة، أي أنه بلغ من شدّة بخله بعلمه أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه حتى في ورقة فارغة يأخذها منه. وهم يصفون البخيل بالنصح على ماله، لأنه لا يخدع عنه فيجود به. أو لعله شحيح.

[6]- المتشيّط- الملتهب بها، أي بسبب السوداء.

[7]- الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص٣٧.

- سمات الأدب الهامش من التوحيدي إلى شكري، محمد المسعودي، WWW. Jehat.com

[8]المعرب

وكتاب الإمتاع والمؤانسة هو من الكتب المهمة للتوحيدي، تضمن مسائل عديدة ضمنها لياليه الأربعين، وعرض مسائل الفلسفة والدين واللغة، والعادات والتقاليد الاجتماعية. ويضم الكتاب جانبين، هما: الجانب الفلسفي والجانب الثقافي. وفي ليلة (وكانت الليلة الأولى) جرى سمر حول متعة الحديث وخصائص الحديث الجيد. وأن الحديث الجيد هو الذي يجري على أحكام العقل، ويشتمل على فكاهة. ففي بداية الحديث والسمر اتفقا التوحيدي والوزير ابن سعدان على متعة الحوار ما يدور بينهما في هذه الليلة وفي الليالي القادمة أنه سيشتمل على حديث جيد، الذي يجري على أحكام العقل، سواء هو في الجدّ أم الهزل أو الفكاهة.

هناك إشارات عديدة في كتابه هذا إلى بعض الشخصيات، وإلى عصره. وهو ليس مجرد مصور، الذي يصور تصويراً رسمه من قوة تخيّله، بل كان شاهداً عليه، وكذلك ناقد لعصره وناقم ورافض ومرفوض معاً[1].

وكتاب الإمتاع والمؤانسة لم يأت في صورة منظمة ومرتبة، فيه موضوعات مختلفة ومتفرقة، عن الإنسان والروح والنفس واللغة، وفيه قضايا إنسانية مختلفة، ومجالات عديدة من المعرفة، امتدت إلى عصور متباينة، فموضوع النقد الاجتماعي منتشرة بين الليال.

ويتصدى التوحيدي ما قال الجيهاني[2] في **ذم العرب**، "وهو يسب العرب، ويتناول أعراضها ويحطّ من أقدارها، ويقول: يأكلون اليرابيع والضّباب والجرذان والحيات ويتساورون، ويتهاجون ويتفاحشون، وكأنهم قد سُلخوا من فضائل البَشَر، ولبسوا أُهُبَ الخنازير"، ليتولى الدفاع عنهم أمجد الدفاع وأبلغه، فيقول التوحيدي في دفاع العرب، أنهم: "عزّ إلها معبودا، وجلّ ربا محموداً. وبعد، فالذي لا شك فيه من وصف العرب، ولا جاحد له من حالها، أنه ليس على وجه الأرض جِيلٌ من الناس ينزلون القفر، وينتجعون السحابَ والقَطر؛ ويعالجون الإبلَ والخيل والغنم؛ ويرجون الخير من السماء في صوبها؛ وهذا لأنهم مع توحُّشهم مستأنسون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات، ومن أخلاق البادية أطهر الأخلاق"[3].

- **في الإلهيات والعقائد** يذكر بعض الأمم، مثل الهنود واليونان والفرس. وصفات الله تعالى، والناس الذين يحاجون على صفات ربّهم، والغلام الذي يخطأ في علم أن الله يبتلي الإنسان بالمصائب، وهو الذي يستصلحه بالبلاء، ليكون إذا وهب له العافية شاكراً له عليها[4].

---

[1]- أنظر. نقد عصر التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة، محمد رجب السامرائي

[2]- الجيهاني نسبة إلى جَيهان، مدينة بخراسان،وكان من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ويصنفون في نصرة الأثينية

[3]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص٧٠-٩٦

[4]- أنظر: المصدر نفسه، ح٣، ص١٨٩-٠.

- **في الفلسفة وعلم المنطق وفي الصوفيات**، يطرق الكتاب في مواضع عديدة لذكر المواقف المتعددة لعلماء ذلك العصر من هذه العلوم.

- **في اللغة** بكافة أقسامها من صرف ونحو وبلاغة وغيرها من علوم اللغة. و في الليلة الأولى يجري بينهما كلام عن تحديدات لغوية، تفرق بين معاني الكلمات مشابهة في المعنى[1].

- **في الأدب** بكافة أقسامه من خطب ورسائل ومقولات وأشعار، وفي مرات كثيرة كان يشهد بأبيات لشعراء متعددين في عصور مختلفة. وفي ليلة يدور الحديث حول شخصيات بارزة عندئذ في العلم والأدب، ومنهم أبو سليمان المنطقي، وابن زرعة، وابن الخمار، وابن السمح، والقومسيّ، ومسكويه وعيسى بن عليّ ..الخ، وذكر عن مذاهبهم في النفس، وما يقولون فيها. والتوحيدي يعرف جيداً بعلماء عصره وأرائهم الفلسفية.

ويقارن التوحيدي بين علم الحساب والبلاغة، أيهما أنفع، أو قلّ بين العلوم الرياضة وفنون الأدب. والأولى جدّ والثانية هزل، والأولى شبيهة بالماء والثانية شبيهة بالسراب. ولئن اكتفت الدولة بكاتب واحد، فلا يكفيها مائة محاسب. وكذلك يقارن بين الخياطين والأطباء، وأهميتها بين الكم والكيف[2]. وقال عن علم الطب أنه وسط بين الصواب والخطأ، وفي الحياة أنه بين السلامة والعطب، وكذلك فرق التوحيدي بين العلم والتعليم[3].

وقد اتخذ التوحيدي أدبه وسيلة للتعبير عن رؤيته للمجتمع، وهناك أدباء عديدون من قبله اتخذ هذا المنهج، وكان الجاحظ من أوائل الكتّاب الذين سعوا إلى الكشف عن جوانب من اختلالات مجتمع العصر العباسي، وعن واقع المقهورين فيه، في كتابه البخلاء وفي رسالة "التربيع والتدوير"، وذلك عن طريق السرد ومن خلال توظيف السخرية أفقاً لكتابة الاختلاف واستراتيجية لابتداع أشكال تعبيرية جديدة، لكن أبا حيان التوحيدي تفوق على أستاذه الجاحظ في السخرية، وفي ابتداع أشكال فنية جديدة ومختلفة في عصره، ولذلك نال حظاً وافراً من الأذى وقسطاً كبيراً من التهميش والمطاردة، والتعرض للاغتيال تحت ذريعة الزندقة[4]. وعديد من الفقهاء اعتبره زنديقاً وقالوا: زنادقة الإسلام ثلاثة، ابن الروندي، المعرّي والتوحيدي، وأخطرهم على الإسلام التوحيدي، مجمج ولم يصرح[5].

---

[1]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص١٩-٢٨

[2]- أنظر. المصدر نفسه، ح١، ص٩٦-١٠٤.

[3]- أنظر. المصدر نفسه، ح١، ص٢٩ – ٤١

[4]- سمات أدب الهامش من التوحيدي إلى شكري، محمد المسعودي، ندوة الهامش والهامشي في الأدب، اتحاد كتاب المغرب، أصيلة ٩-١٠ دجنبر ٢٠٠٥م

[5]- أبو حيان التوحيدي، د. بكر الفلاني، مؤسسة الحوار المتمدن، العدد. ٣٨٤٦، ٢٠١٢/٠٩/١٠م.

- **في قضايا عصره وسياسة حكامه**، وفي وصف وزرائه، وعلمائه وشعرائه وأدبائه، ففي مرات عديدة كان الوزير يسأل رأيه عنهم في مجالات مختلفة. وحديث التوحيدي عن السياسة في الكتاب مهم ومثير، وله أسباب عديدة:

فالسياسة قد احتلت مجالاً واسعاً من أحاديث التوحيدي والوزير ابن سعدان. وقد تنوعت الأحاديث، ففيها الحياة السياسية اليومية داخل الدولة ومشاغل الناس. وكذلك اهتمّ بفلسفة الحكم والعلاقة بين الشريعة والسياسة أو الحديث عن علاقة السلطان بالرعيّة.

والكتاب يبرز الاهتمام بالقضايا السياسية وما يجري داخل الدولة، وطبقات مختلفة خاضت العامة في السياسة. فالسياسة هي المؤثر السياسي في أغلب مجالات الحياة. وهذه قصّة ابن بقيّة، وكان وزيراً لعضد الدولة، فغضب عليه على بعض ذنوبه وصلبه على الجذع عرض الجسر، وطال عليه الأمد، على الرغم أن عضد الدولة مات ودفن أيضاً، فقال الرجل في الطريق، لمّا رآه مصلوباً: "لا إله إلا الله، ما أعجب أمور الدنيا، وما أقل المفكر في عبرها وغَيرها، عضد الدولة تحت الأرض وعدوه فوق الأرض!"[1]. فلما وصل ذلك إلى الوزير استأذن في دفنه. وهذه القصّة تشير إلى حالة السياسية، وما لحق الوزير عقاباً مؤلماً من الخليفة.

التوحيدي يلمس سخريته البيّنة من الطبقات المتنفذة في المجتمع ومن القيمين على شؤون الناس من الوزراء والكتاب والقضاة والفقهاء. وقد اتخذت السخرية عند التوحيدي منحى لا يراد به الهزل والإضحاك فحسب، وإنما يرمي إلى الاحتجاج، والتعبير عن موقف رافض للواقع الكائن وسعي إلى واقع ممكن[2]. وفي بعض الليالي كانوا يناقشون عن قضايا سياسية، وفي بعض الفرق والجماعات، وفيهم العيّارون والشطار، والقضاة، والمتصوفين والعلماء وغير ذلك.

وفي ليلة سأله الوزير عن ابن عباد وخصائله، وأن يقارن بين ابن عباد وابن العميد، ومعروف أنه كتب "مثالب الوزيرين" عن ابن عباد وابن العميد. فيعترف فصاحة لسان الأوّل، وأنه (التوحيدي) اتعلّم البلاغة منه، وفي الأخلاق لسرعة غضبه، ولا قيل له: أخطأتَ أو قصّرتَ، لأنه نشأ على أن يقال: أصاب سيّدنا، وصدق مولانا. والثاني (ابن العميد) هو الأوّل من أفسد الكلام، لأنه يريد أن لحق بالجاحظ في الكلام، فوقع بعيداً من الجاحظ، وفي الأخلاق هو مثل ابن عباد، صاحب الأخلاق الخبيثة. وكذلك ذكر بعض العلماء والأدباء وما يمتاز فيه كل منهم: فالخليل في العروض، وأبو عمرو بن العلاء في اللغة، وأبو يوسف في القضاء، والأسكافي في الموازنة، وابن نوبخت في الآراء والديانات، وابن مجاهد في القراءات، وابن جرير في التفسير،

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٤١-٢.

[2]- سمات أدب الهامش عند التوحيدي، محمد المسعودي.

وأرسطوطاليس في المنطق، والكندي في جوهر الفرد، وابن سيرين في العبارة (تفسير الأحلام)، وأبو العيناء في البديهة، وابن أبي خالد في الخط، والجاحظ في الحيوان .. الخ[1].

- **وفي الإنسان والأمم والشعوب** وأحوالها وأخلاقها والسجايا والطبائع. وتكوين الإنسان، وفضيلة الأمم بعضها على بعض، وفضائل ومساوي لكل أمة، وهي متغيرة بذلك حسب أحوالها وأزمانها وقوتها وضعفها. وفي الليلة الثالثة ناقش التوحيدي والوزير عن جماعة الرجال يحضرون كل أسبوع في مكان، ومنهم؛ شيخ إزراء ابن شاهويه؛ وابن طاهر الذي يدّعى للناس أنّه لو لا مكانته لكانت هذه الوزارة سراباً وهذه المملكة خراباً[2]. والتوحيدي يعرف رجال السوء كما يعرف علماء الحق، فيذكر بهرام (رجل مجوسي، الذي لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ) وابن كخيا (رجل نصراني، ما جاء يوماً بخير قطّ، لا في رأي ولا في عمل ولا في توسط)[3].

وفي الليلة السادسة، تكلم عن فضيلة الأقوام، وهي أربع: الروم والعرب وفارس والهند؛ وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال: أن العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة. والخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخَلق، مفضوضة بين كلّهم. فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم؛ وللرّوم العلم والحكمة؛ وللهند الفكر والروّية والخفّة والسّحر والأناة؛ وللترك الشجاعة والإقدام؛ وللزّنج الصبر والكدّ والفرح؛ وللعرب النَّجدة والقِرَى والوفاء والبلاء والجود والذِمام والخطابة والبيان. وهذه الفضائل المذكورة في هذه الأمم المشهورة ليس لكلّ واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها؛ ولكلّ أمةٍ لها زمان على ضدّها، وهذا الاعتبار ينساق من شيء عامٍ لجميع الأمم[4].

وفي ليلة من الليالي الأربعين يتحدث عن خصائص الأمم، فالفرس تقتدي وتبتكر، والروم أصحاب البناء والهندسة، والصين أصحاب الصنعة، والترك سباع للهراش، والهند أصحاب وهم وشعبذة، والعرب قد علمتهم العزلة والتفكير، وهم ذوو قيم خُلقية عليا. ولكل أمة عصر تعلو فيه، ثمّ يجيء عصر الآخر، فتعلو أمة أخرى.

- **وما هو أخلاق**، وما هو ليس بخلق. وتفضيل أخلاق النّاس، وكيف أنهم يشابهون الحيوانات فيها إلا أنهم يتميزون عنها بالعقل. وأخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث: النفس الناطقة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية، وسمات هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع. وإنها بين المحمودة وبين المذمومة، وبين المشوبة بالحمد والذمّ، وبين الخارجة منهما. وقد قيل: "وخالق الناس بخُلق حسن". وأضرب في خُلق الحيوان، وأخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفةٌ في نوع

---

[1]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص٥٠-٧٠

[2]- المصدر نفسه، ج١، ص٤٢-٥

[3]- أنظر: المصدر نفسه، ح١، ص٤١-٥٠.

[4]- أنظر: المصدر نفسه، ج١، ص٧٠-٥.

الإنسان، وذلك أن الإنسان صفوُ الجنس الذي هو الحيوان، والحيوان كَدَر النوع الذي هو الإنسان، والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع. وبهذا النظر كلّ ضرب من الحيوان خُلُق وخُلقان وأكثر، كالكُمُون الي في طباع السبع والفارة، والثبات الذي في طباع الذئب، والتحرز الذي في طبائع الجاموس من بنات الليل، والحذر الذي في طبائع الخنزير، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعة تمثُلا بصاحب المقدّمة[1].

- **وفي عالم الحيوانات**، وذكر فيه ثلاث ليال متتالية وكانت هائلة من المعلومات عن الحيوانات متعددة ومتنوعة، المألوف منها والغريب، والموجود والمفترض، والحقيقي والخرافي، ويقارن بينها وبين الإنسان. والتوحيدي كأديب مرهف، وناقد المجتمع يتكلم على هذه الموضوعات.

٢,٢. المنزع العقلي

ا. **عقل مفكّر ومنظر:** عقل مفكر في المشاغل الفكرية، والفلسيفية والأدبية، والمساهمة في تدارس القضايا الثقافية العامة المطروحة في الأوساط الفكرية في عصره.

ب. **عقل ناقد مصلح:** عقل ناقد متفحص لحياة الناس بمختلف الوجوهها السياسية والاجتماعية والعقائدية. وهو العقل يحلل الموجود، ويشير إلى مواضع الخلل مقترحاً أوجه صلاحه. فاعقل عنده له منزلة متميّزة من خلال القرائن التالية:

العقل موهوب من الله تعالى، فيرى التوحيدي أن العقل هبة إلهية، وقوّة تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات، فيقول: "وُهب الإنسان الفطرة[2]، وأعين بالفكرة ورُفِد بالعقل". وأيضاً يقول: "العقل قوّة الهية وهو خليفة الله"[3].

٢,٣. تصوير انعدام الأمن

والكتاب يبيّن انعدام الأمن، بما أصاب الناس بمدينة بغداد في ذلك العصر، فقد "خلت المنازل ببغداد من أهلها، وصاروا يطلبون من يسكن الدار بأجرة يتعطاها ليحفظها، وأغلقت عدة حمامات ومساجد"[4]. وهذه صورة عامّة لأحوال العصر بما فيها من تباين اجتماعي وفساد أخلاقي.

---

[1]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص١٤٣-١٥٩.
[2]- الفطرة أو الفكرة
[3]- الإمتاع والمؤانسة، ح١، ص١٤٤.
[4]- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ج١، ص٣١

والتوحيدي يحكي قصّة أنوشروان، التي كتب إليه وزيره رُقعة للأمن اجتماعي، فهو يقول: "إذا كانت سُبُلنا آمنة، وسيرتُنا عادلة، والدنيا باستقامتنا غامرة، وعُمّالُنا بالحق عاملة، فلِمَ نمنعُ فَرحةً عاجلة؟[1]". فسيرة الحكام، وأمن السبيل، واتصالات، وعدل اجتماعي يضامن رفاهية المملكة.

والكتاب يبرز قصّة طائفة من الناس يجتمعون بباب الطاق ويجلسون في دكان شيخ ثبان، ويخوضون في الفضول، ويسترقون السمع من خاصّة الناس، فلما عرف الخليفة المعتضد ضاق ذرعاً، وشاوره وزيره أن يأخذهم بالعقاب، ويصلب بعضهم وإحراق بعضهم وتغريق بعضهم، ليشدّ الهول، لكن الخليفة لم يقبله، وقال: "ألا تدري أن أحداً من الرّعية لايقول ما يقول إلاّ لظلم لحقه أو لحق جاره[2]"، فعمل بهم على الوجه اللطيف، ومن كان منهم يصلح للعمل فعلّقه به، ومن كان سيّء الحال فأعطاه من بيت المال، وقال له: إن لفظك مسموع، وكلامك مرفوع، وإذا فعلتَ ذلك فقد بالغت في العقوبة، فعادت الحال ترفّ بالسلامة العامّة. فعقد الأمن في المجتمع يكون في يد الحاكم، وبحكمته يصلح أمور الرّعيّة، وسادت الأمن والفرح.

فكتاب البخلاء أظهر أثراً ممتازاً على العصر العباسي، وتناول الجاحظ كل طبقة في مجتمعه بالتلميح حينا والتصريح حيناً آخر، وهو تصوير حقيقي لنفسية الإنسان وللبخلاء الذين ينتمون في العصر العباسي وعالج نفسيتهم، وكتاب الثاني، الإمتاع والمؤانسة يؤكد الإصلاح الخلقي ويسعى لكشف التناقض الاجتماعي، ويحلل نفسية رجال عصره ويكشف مواهبهم ومميزاتهم. والكتاب يضمن مسائل عديدة عن الموضوعات المتنوعة، ومؤلفه شاهد وناقد لعصره الذي اتخذ أدبه وسيلة للتعبير عن رؤيته المجتمع ولأحوال عصره.

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٢٤.

[2]- أنظر: المصدر نفسه، ح٣، ص٨٨-١

الفصل الرابع: السخرية والفكاهة في الكتابين

١. السخرية والفكاهة في البخلاء

السخرية: معناها اللغوية الاستهزاء، ويقال سخر منه وبه سخرية أي هزئ ومنه هزواً[١]. ويقول الأستاذ العقاد: "المرء إنما يضحك من كل شيء يوضع في غير موضعه ويظهر بغير المظهر الواجب له، وفي غير الصورة اللائقة به"[٢].

السخرية قديمة قدم الإنسان، لأنها تروح النفس وتسرّ القلب فرحاً أو استنكاراً لما يقع أو هزءاً وتندراً بالخصم. والسخريات، تشتمل فيها الغفلة والتغافل والتناقض والتلاعب بالألفاظ والتهكم بالعيوب الخُلقية والنفسية والجسدية، والدعابة والحذلقة، والرد بالمثل والتهكم الاجتماعي والسياسي، والتخلص الفج والقلب والعكس، وضعف العقل وغير ذلك[٣].

والفكاهة: جاء في لسان العرب: وفَكَّه القومَ بالفاكهة، أتاهم بها. والفاكهة أيضاً الحلواء على الشبيه. وفَكَّهَهُم بمُلح الكلام: أظرَفَهم، والاسم الفكهة والفكاهة. المصدر: الفاكِهة، المزّاح، والفكاهة: المزاح، والتفاكة: التمازح[٤].

والفكاهة جوهرها الخيال المضحك أو تعبيراته، وهي كذلك محاولة لأن يكون المرء متفكها. فالفكاهة يمكن أن تكون استعداد أو تهيؤا خاصاً بالعقل؛ استعداد للبحث عن البهجة والسرور، وكل ما يتعلق بما نسميه "حس الفكاهة"، ومنها: النكتة والظرف أوالدعابة والمحاكاة التهكمية[٥].

لقد ضحك العرب كثيراً من الفكهين محترفين وكثيرين، وكانوا من هنتين: فئة يضحك منه الناس لغرابة في شكلها الجسماني وملابسها وغيرها. وفئة أخرى تضحك الناس بسرعة الخاطر، التي تبديها في القول والفعل والحركة، أي أن رأس مال الفئة الثانية العقل والذكاء وموهبة الخلق المضحك، وهؤلاء كانوا على كثير من الثقافة[٦].

---

[١]- لسان العرب، ابن منظور، ج٦، ص١٧.

[٢]- مطالعات في الكتب والحياة، عباس محمود العقاد، مطبعة الاستقامة، ط٢، ص٩٦.

[٣]- أنظر السخرية في أدب الجاحظ، ص٦٥

[٤]- لسان العرب، ابن منظور، ج١١، ص٢١٢.

[٥]- أنظر: الفكاهة والضحك عند العرب، شاكر، محمد بلقراد، رسالة الدكتوراه من حلقة الثانية قدمت إلى جامعة الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص٤٢١.

[٦]- الفكاهة عند العرب، أنيس فريحة، مكتبة رأس، بيروت، ١٩٦٢م، ص٧١.

إن الدوافع والأفكار الأساسية للفكاهة والضحك في التراث العربي تتركز حول فكرة واحدة؛ هي الانتقاد للنقص، والحط من قيمته أو السخرية منه، سواء كان هذا النقص متمثلاً في البخل، الذي هو نقص في الكرم والمروءة، أو في الحمق الذي هو نقص في الذكاء والتفكير أو في بعض العيوب الجسمية أو العقلية أو السلوكية التي هي نقصان في الكمال أو السواء"[1].

فالفكاهة عند العرب والمسلمين إنما تقوم بهجاء أي نقص في الأخلاق أو الصفات أو السلوك فعلت العرب.

السخرية قبل الجاحظ

راجت سوق الضحك في القرن العباسي رواجاً عظيماً، وصار للظرفاء والمضحكين شأن أي شأن، فقد أخذ الخلفاء والأمراء والأثرياء يدنون من مجالسهم أهل الظرف والنادرة، ليتمتعوا أنفسهم بالنكتة الحلوة والجواب اللاذع، والفكاهة التي تنتزع الضحك من وجوه العابسة. ففي العصر العباسي ازداد وارتفع قدر المضحكين والظرفاء. "وكان من الطبيعي أن يندفع الكتاب والمؤلفون إلى وضع المصنفات التي تجمع النوادر المستملحة. وأسبق الجميع وإمامهم في ميدان الأدب الضاحك دون ريب هو "الجاحظ" فقد سبقهم إلى ذلك وليس بينهم من يجاريه أو يحاكيه في أسلوبه، الذي يمزج فيه الجدّ بالهزل والهزل بالجدّ، ويضمن كل ذلك سخرية لاذعة، وفكاهة لم يستطع أحد من كتاب العربية أن يدانيه فيها حتى اليوم"[2].

كانت السخرية قبل الجاحظ تأتي عفوية تارة، ومقصود لغرض من الأغراض السياسية تارة أخرى، ولم يؤلف قبله كتاب يرد نوادر المجتمع ليظهر سماته، وألف علي محمد المدائني (١٣٥هـ - ٢٢٥هـ) "كتاب الأكلة" لكنه كان إخبارياً في نوادره، وكذلك أبو عبيدة معمر بن مثنى (١١٠هـ - ٢٠٩هـ) في كتابه "لصوص العرب". والجاحظ أوّل مؤلف في تاريخ الأدب العربي يخصّ كتاباً كاملاً في السخرية تحليلاً ودراسة لمجتمعه في كتابه البخلاء ورسالة "التربيع والتدوير".

والجاحظ تأثر من فلسفة اليونان، وخاصة من أرسطو الذي يقول: "والهزل أو المزاح تمثيل الصغار من غير غضب يقترن بهذا التمثيل، ومن غير إيلام المحاكي .. إن المستهزيء تتسم سحنته بالفرح والانبساط، لا بالانقباض والغم والأذى، فالمضحك نوع دميم أو مشوه، لا يبلغ حد الإيلام لنا والإيذاء"[3].

---

[1]- الفكاهة والضحك، شاكر عبد الحميد، ص٢٩٢.

[2]- أدبنا الضاحك، عبد الغني العطري، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٤م، ص٥٥.

[3]- فن الشعر، أرسطو، ترجمة ابن سيناء، ص١٧٣؛ وجحا الضاحك المضحك، عباس محمود العقاد، ص٥٣.

والفكاهة في كتاب البخلاء يرجع إلى الروح الساخرة للجاحظ، كما يرى طه الحاجري، أنه يرجع إلى طبيعة الجاحظ ومزاجه، "فقد كان رجلاً مرحاً، متهلل الخاطر، منطلق الوجه، نزاعاً إلى الضحك، ومن ذلك نجده لديه من الدعوة إلى الضحك والمزاح والفكاهة والدفاع عنها، ورد ما يعترض به عليها"[1]. وقال الجاحظ: "والله ما تركت النادرة ولو قتلتني في الدنيا وأدخلتني النار في الآخرة".

١,١. أسباب الفكاهة عندالجا حظ

ناقش النقاد عن أسباب ولع الجاحظ بالسخرية والفكاهة، فأرجعها بعضهم إلى ظروفه الشخصية، مثل جحوظ عينيه ومظهره الخارجي غير الجذّاب مثل أحمد أمين وغيره. ويقول طه الحاجري، أن سببه: "المدينة التي عاش فيها، وهي البصرة، الزاخرة بصنوف الأجناس والألوان العقول وأنواع الثقافات" وكذلك إلى "روح الاعتزال التي كانت تتجه بأصحابها إلى التغلغل في النواحي المختلفة للمعرفة"، وأيضاً نزعة الجدل والمناظرة التي كانت غالبة عليه، ثم هذه المرانة والألفة العقلية التي امتاز بها". وقد أسهم ذلك كله في توافر روح "الشك" التي كانت متوافرة لديه بفعل تلك الحياة وذلك المجتمع[2].

وفي رأي عبد الحليم حسين: أن "روح السخرية لدى الجاحظ يرجع إلى التنوع والثراء الثقافي الذي كان موجوداً في عصره، حيث تعددت الفرق الدينية وكثرت المذاهب وتنوعت الملل والثقافات الوافدة من هندية ويونانية وفارسية، وكان من المحتم أن تتعارك وتتصارع، وينتصر كل فريق لرأيه ومدرسته ومذهبه، فيشيع الهجاء وتنتشر السخرية ويكثر الهمز واللمز[3].

تعددت هذه العوامل في تكوين شخصيته أديباً ساخراً، له أشكال وضروبه، ومنها:

الوراثة

كان جدّه فكها مرحاً؛ وكذلك أمه، فيها ميل واضح إلى السخرية التي وضعت يوماً الكراريس في الطبق وقدمها إليه للطعام، متى كان جائعاً، فالميل إلى المرح والفكاهة والسخرية لدى الجاحظ يرجع إلى الوراثة.

---

[1]- البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دارالمعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩١م، ص٥٣-٥٤.

[2]- المصدر نفسه، ص٥٤-٥٥

[3]- أنظر. السخرية في الأدب الجاحظ، السيد عبد الحليم محمد حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط١، ١٣٩٥هـ\١٩٨٨م؛ وأيضاً ضحى الإسلام، أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م؛ وأيضاً الفكاهة في الأدب العربي، محمد معوض أبو عيسى، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٠م

المجتمع والبيئة

لقد كان عصر الجاحظ "عصر ازدهار واستقرار" ومزيجاً هائلاً من جميع الألوان، فتباينت البيئة العامة والبيئة الفكرية، وقد كان لهما أثر الواضح في أدبه الساخر.

ا. البيئة العامة:

كان الجاحظ فرداً من عامة الناس، نشأ يبيع السمك والخبز، ويتردد إلى الشيوخ، يتلقى مبادئ العلوم، وكان المجتمع العباسي حافلاً بالمتناقضات، ملياً بالمخالفات، وظهرت فيه طبقات من البخلاء والحمقى والمتعلمين، فسرت فيه روح الخفة والتهكم وعرف فوائد الضحك. وفي قول الجاحظ: "فكلّ شيء خرج عن الحدّ في خَلق أو خُلق – حتى في الدين والحكمة، اللذين هما أفضل الأمور – فهو قبيح مذموم"[1].

وبهذا وضع الجاحظ قاعدة القبيح والمذموم، الذي يسخر منه ويهزأ به. فإذا مجتمع كله مهيأ للضحك والإضحاك، باعث على التهكم والسخر.

ب. البيئة الفكرية

تعددت الفرق الدينية وكثرت المذاهب وتنوعت النحل في عصر الجاحظ، كما تعددت المدارس، ولكل مدرسة طابعها وطريقة تفكيرها، وتنوعت الثقافات من هندية ويونانية وفارسية وغيرها. فكان من المحتم أن تتعارك وتتصارع، وينتصر كل فريق لرأيه، ومدرسته ومذهبه، فشاع الهجاء وانتشر السخرية وكثر الهمز واللمز.

هذه البيئة أثّر في تكوين فكره، ونمو السخرية عنده، وعبقريته فيها. تتلمذ الجاحظ في البصرة على أبي عبيدة بن معمر المثنى، وإبراهيم بن يسار النظام وثمامة بن أشرس[2]، وكانوا مشهورين بالدعابة والسخرية، وهذا الارتباط ظهر في كتاباته. وفي عهد المتوكل اتصل الجاحظ برجال تخصصوا في الهزل والفكاهة والسخرية، من أمثال أبي العنبر الهاشمي، وأبي العنبس، والجماز، فصار واسع الاطلاع موفور الثقافة وأديباً مرهفاً. فعرف الجاحظ مجتمعه وخبر طوائفه

---

[1]- ثلاث رسائل، الجاحظ، نشر يوشع فنكل، المطبعة السلفية، ط٢، ١٣٨٢هـ، ص٦٥.

[2]- شخصية من الشخصيات الخطيرة، ذات الأثر الخالد في الحياة العقلية الإسلامية. وكان زعيماً من زعماء المعتزلة، أوذي في أيام الرشيد. نشأ في البصرة، تلميذاً لأبي الهذيل العلاف. (تصدير. طه الحاجري، ص٢٨٥.)

واعترك معها مرة بالعنف والقسوة، ومرات باللين والهوادة طوراً بالهجاء اللاذع والذم المقيت، وفي أغلب الأحيان بالسخرية المريرة، والتهكم الممض[1].

١,٢. إمام السخرية والفكاهة

كان الجاحظ إمام الساخرين وشيخ المتندرين، أفرد للسخرية رسائل وكتباً، وتأثر به من جاء بعده. ويقول في مقدمة كتاب البخلاء: أنه "يدور حول نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء، وما يجوز منه في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجِدّ، لأجعل الهزل مستراحا، والراحة جماماً، فإن للجد كدا يمنع من معاوته ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته"[2].

هكذا جذب البخلاء اهتمام الجاحظ، فالبخل خاصية سلوكية ممقوتة، وهي عكس الكرم. والعرب يسمونهم أهل الكرم والجود. والبخل عندهم صفة رذيلة. وقصص البخلاء التي يرصدها الجاحظ، بعضها حقيقية يتم عن قصد ونية بلا مواربة، وبعضها الآخر تظاهر على سبيل المزاح والملاطفة.

يتحدث الجاحظ عن ملح البخلاء ورسائلهم وكلامهم وخطبهم وأعاجيبهم وكيف يلوون إلى الحقائق ويغيّرون المعاني، وهم يسمّون البخل "إصلاحاً"، والشحّ "إقتصاداً"، وعندهم سلوك المنع هو "الحزم"، ويقلّب عندهم أشياء فوصفوا الكرم بـ"التضييع" والجود بـ"السرف".

وفي رأي الجاحظ، البخيل يظنّ أنه يتجه ببخله نحو السعادة، سعادة الجمع والكنز، في حين أنه لا يحظى في النهاية سوى الشقوة، شقوة الحرمان، وذل الامتلاك الذي لا ينفع صاحبه، بل قد يذهب ما يكنزه البخيل إلى بعض من يكرههم من أقاربه. وكيف يستطيع البخيل أن ينصح الناس وهو يغش نفسه؟ وكيف يجمع هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافي؟ هذا التناقض وجده الجاحظ مدعاة إلى الضحك والسخرية من غباء الأذكياء هذا، وشقوة المتقدمين أنهم سعداء أوفي سبيلهم إلى السعادة[3].

وفي مرحلة ثانية، يرى الجاحظ أن الحياة مرآة تتجلى فيها أشياء، التي تدعو إلى الضحك وإلى البكاء أيضاً، ويقول: إن البكاء صالح للطبائع .. إذا واقف الموضوع ولم يجاوز المقدار"، ولما يعدّد مزايا البكاء وخصائصه، ينبرى لكشف مثالبه ومعايبه، فيقول: "إن البكاء يطلّ صاحبه فى بلاء وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ، ودلّ على السخف وقضى على صاحبه بالهلع"[4].

---

[1]- أنظر: السخرية في أدب الجاحظ، عبد الحليم، ص٢٧-٢٩

[2]- البخلاء، تحقيق طه الحاجري، ص٥٧

[3]- أنظر: الفكاهة والضحك، شاكر عبد المجيد، ص٢١٨.

[4]- الجاحظ الأديب الساخر، عبد الحليم محمد حسين، ص٦.

ثمّ يمدح الضحك والضاحكين، ويرى أن الضحك شيء جميل، فهوهبة من الله الجميل الذي يحب الجمال. فالضحك صفة لله سبحانه وتعالى. فالضحك في نظر الجاحظ فعل جميل لأنه من أفعال الله. ويقول الجاحظ عن الضحك والضاحكين: "ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك، لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبنى كأنه يضحك ضحكاً". والضحك أوّل الخير يظهر من الصبي، إن به تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمّه الذي هو علة السرور ومادة قوّته[1].

خصائص سخرية الجاحظ

تتميّز سخرية الجاحظ بخصائص عديدة ومن أهمها: ا. أنها تدفع الملل على القراء ولذا قال أن "إذا ما وجدنا في آثاره هزلاً او مزاحاً جريئاً أو عبارات بذيئة، أو فقرات غير منسجمة كما هي الحال في أغلب الكتب العربية! فإنّ المجموع يوحي على العكس بفكرة الهدوء والاعتدال وحتى الحياء. فالجاحظ يحب الضحك والمزاح لدفع الملل عن القراء، ولكن تهكمه هو من معدن يختلف عما ينسب إليه عادةً"[2].

ب. وأن الضحك لا يأتي إلا بمشاركة العقل، فيرى الفيلسوف برجسون: "أن الإنسان حينما يضحك، إنما يضحك بعقله لا بقلبه ولا شعوره، فلكي يضحك الإنسان لابد أن يتوقف قلبه لحظة عن الشعور، كما يقرر أن العقل الضاحك لا يمكن أن يضحك وحده، بل لابدّ له من عقول تشاركه وتجاوبه حتى يتأثر بالشيء المضحك فيضحك"[3]. والجاحظ سابق من برجسون إلى تقرير هذه الحقيقة في قصّة.

ج. اتخذ الجاحظ من الحياة والمجتمع والنفس البشرية موضوعاً لأدبه، فاتصفت كتبه بالواقعية والصدق دون تمويه أو تستر، فهو يسمي الأشياء بمسمياتها دون لجوء إلى الرمز، ويصرح بذكر سوءات والعورات في غير مواربة ولا خفاء، وهو أكثر إيضاحاً للصورة، وإبرازاً للفكرة، وتمشيّاً مع "الواقعية". "والواقعية لا تقف عند التفصيلات فقط، بل تستند إلى تحليل نفسي واجتماعي، وتصوير لبعض الأحاسيس والعوطف"[4].

---

[1]- الجاحظ الأديب الساخر، عبد الحليم محمد حسين، ص٦.

[2]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ص١٢

[3]- أنظر الضحك، هنري برجسون، ترجمة سامي الدروبي، ص١٦؛ وحجا الضاحك المضحك، العباس محمود العقاد، ص٣٦؛ وفكاهة في الأدب، د أحمد الحوفي، ص١١.

[4]- في الفصص في كتاب البخلاء، محمد المبارك، دار الفكر دمشق، ط٢، ١٩٦٥م، ص٢٧.

د. الضحك خاصة الجنس، لكن التهكم خاصة الفرد، ويشبه ذلك العلاقة بين التذوق الفني والجمالي، والإبداع، فالتذوق خاصة عامة للإنسان، وإن تفاوتت وتباينت. أما الإبداع فهو خاصة الأفراد بمعنى أن التهكم فن وموهبة. والموهبة لا تجد عند كلّ الناس[1].

١,٣. التهكم في الطبع

يؤكد الجاحظ أن من كان فيه طبع التهكم واصطناع الفكاهة، يصعب عليه التّخلي عن هذا، وإن غلا ثمنه أو عظمت عواقبه. يورد الجاحظ نادرة طريفة تؤكد هذا الرّاي، أن الشخص منع رجلاً عن هذا، فقال: "والله لا تركت النادرة، ولو قتلتني في الدنيا وأدخلتني النار في الآخرة"[2]. والجاحظ ذاته مطبوع على حبّ التهكم واصطناع الفكاهة، "فقد رزق روحاً تهكمية نادرة تتناقض بصورة فريدة، وابتذال المهرّجين والمحترفين الذين كان يشعر بدافع لمعاشرتهم ومصادقتهم"[3].

كان في الجاحظ هذه الصفة والطبيعة و"ظهر ميله إلى الاستهزاء منذ غضاضة عوده، واستحكم هذا الميل بعد أن تهيأت له أسباب التهكم بحذافيرها، فقد خلق مطبوعاً على هذا التهكم، وقوّت فيه ثقافته هذا الطبع"[4]. والتهكم بالطبع يعنيه أنه مرتبط بسرعة البديهة في الرّد ونوعية الرّد التي قد تكون مثل الصّفعة باليد على الخدّ أحياناً وقد تكون شبه وخزة. ويظهر في الجاحظ هذا الطبع وكان طالباً، سأل من أمّه الغذاء، فقدمت له الكراريس في الطبق، وكان هذا الطبق مثل الصفعة باليد على خدّ الجاحظ وكان ردّه الطبيعي التهكمية أنّه قدّم لها أنواع التغذية كثيرة "بدل هذه الكراريس التي قدّمتها أليه".

إنّ أسلوب الدفاعي قد يحمي أحياناً أشياء موسفة. هناك تهكم العاجزين الذين لا يملكون سواه؛ إنهم يسخرون مما لا يستطيعون فهمه، ولا يستطيعون الشعور به، ولا يستطيعون فعله، أنهم يحاولون أن يجعلوا حياتهم أمراً لا يطاق، ولكننا لانعجب بهم. وكذلك تهكم الحساد، فإنهم يحملون الناس، ويحملون أنفسهم على تقدير ما يبقى لهم .. وتهكم الحساد هذا، ذائع أكثر الذيوع[5].

ومثال التهكم الجاحظي: "قال جاءني يوماً بعض الثقلاء فقال: سمعتُ أن لك ألف جواب، فعلّمني منها؟ قلتُ نعم، فقال: إذا قال لي شخص: يا زوج القبحة، يا ثقيل الرّوح، أيّ شيء أقول

---

[1]- أنظر: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، عزت السيد أحمد، ص١٤٦.
[2]- نوادر الجاحظ، جميل حتر، ص٢٣
[3]- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ص٣٧٢-٣.
[4]- الجاحظ معلم العقل والأدب، شفيق جبري، ص١٩٥
[5]- أنظر. دراسات أخلاقية، د. عادل العواء، ص٤٠٥-٧

له؟ فقلتُ: قل له: صدقتَ!". وهذا التهكم لسعة السوط على الظهر العاري. ولا نبالغ أن نقول، إن السائل ذاته هو الذي فرض على الجاحظ هذا التهكم.

وظائف التهكم

قد تكون وظائف التهكم كثيرة، ولكن بإمكان إجمالها في وظيفتين محورتين، وهما الشجب، والدفاع عن الذات بالمعنى الأوسع شمولاً.

ا. **الشجب:** هو إضفاء مسحةٍ جماليةٍ على الحياة برفّ رفيف الفكاهة على النفوس. وذلك بشجب أفعال الأشرار وسخافات الحمقى بطريقة أنيقة خالية من القسوة والعنف، بل مفعمة برهافة الجمال وشفافيته. ولهذا الغرض خصّ الجاحظ كتاب البخلاء على أقل تقدير، ثمّ ما وشي به بقيّة كتبه.

وهناك نموذجان أولهما من حوار وثانيهما سلوك تهكمي يتشفى من موقف غير لائق ولا محمود. والنموذج الأوّل عن ثمامة بن أشرس، الذي "أصبح شديد الغمّ حين احترقت داره. وكان كلّما دخل عليه الإنسان، قال: الحريق سريع الخلف. فلمّا كثر ذلك القولُ منهم، قال: فاستحرق الله. اللهم إني استحرقُك فاحرِق كلّ شيءٍ لنا"[1].

أما السلوك التهكمي، فهو يظهر في قصّة محفوظ نقاش، الذي صحب الجاحظ ليلاً، وسأله أن يبيت عنده، وقال: "أين يذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نارٌ، وعندي لبأ[2]، لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له". فمالت معه. وبعد ساعة جاء إليه بلجام لبأ وطبق تمر، فلما مدد يده إليه، قال: "يا أبا عثمان إنه لبأ وغلظة، وهو الليل وركوده .. وأنت رجل قد طعنت في السّن، .. وإنما قلتُ هذا الكلام لئلا تقول غداً: كانَ وكانَ، .. وقلتَ: لم يشفق عليّ ولم ينصح، .. فإن شئتَ فأكلة وموتة، وإن شئتَ فبعض الاحتمال، ونوم على السلامة. ولكن الجاحظ لم يترك الأمر يمرّ هكذا فعقب قائلا: "فما ضحكتُ قط كضحكي تلك الليلة. ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور، فيما أظن .. على شطر مشاركة الأصحاب"[3]. فالجاحظ كان صديق محفوظ نقاش، وسلوكه التهكمي معه يفهم من احتجاج البخيل ودلائله وحيله الذي يعدد أمراض الجاحظ وعجزه في تلك الليلة الباردة، ونصائحه التي تلقي إليه كصديق حميم، لكن الجاحظ ردّ كل نصيحة، وفعل ما أراد بكل اطمينان، ومع لذّة السرور لسلوك التهكمي، الذي فعل مع هذا البخيل.

---

[1]- البخلاء، ص٢٨.
[2]- اللبأ أوّل اللبن عند الولادة.
[3]- البخلاء، ص١٢٣-٤.

ب. الدفاع عن الذات

في بعض الأحيان تصدر الأفعال التهكمية عن الحساد وأضرابهم، وكذلك من المخالفين ولا يقتصر التهكم على أن يكون دفاعاً عن الذات ضد الآخرين، وإنما قد يكون كذلك دفاعاً عن الذات ضد الذات وضد ذوات الآخرين[1].

والتهكم لا يقود بالضرورة إلى سوء النيّة والشراسة حتماً، فهو ليس بالضرورة موقف امتهان، ومترفع واحتقار. وربما صحبته مشاعر الطيبة والتعاطف والصّلاح. ومن الملاحظ أن التهكم يحمي الضعف أيضاً. وهذا نموذج من نماذج التهكم الجاحظي الذي يؤدي وظيفة الدفاع عن الذات ليحمي ضعفها أمام جبروت السلطان.

وكان الجاحظ ذا خطوة فريدة عند خلفاء بني العباس، وكانوا يكبرون شأنه، ويقدرون ما طبع عليه من لطف المعشر ولذعة النكتة، فلما ظهرت العداوة بين الوزير ابن الزيات والقاضي أحمد بن داؤد، آثر الجاحظ صداقة الأول، حتى قبض عليه، ففرّ الجاحظ. فسأله الوزير لمّا جيء به مكبّلاً، لمَ هربتَ؟ فقال: "خفتُ أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور"[2]. إشارة إلى التنور الذي صنعه ابن الزيات وجعل في جوفه المسامير ليعذب به خصومه، فعذب هو فيه حتى مات[3].

التهكم الذاتي

المقصود من التهكم الذاتي هو التهكم جعل الذات موضوعاً يتهكم به صاحبها، وهذا من الطرافة والأصالة والجدّة. وبراعة الجاحظ التهكمية حدت بشارل بلا إلى القول بأن الجاحظ هو نسيج وَحدِهِ في هذا الباب. الجاحظ يتعامل مع مرضه بنفس دعابي فكه فيصوّر حاله بعد أن أصابه الفالج تصويراً تهكمياً لطيفاً، فيقول: "قد أصلحت الأضداد على جسدي، إن أكلتُ بارداً أخذ برجلي، وإن أكلتُ حاراً أخذ برأسي"[4]. ومرّة أخرى يصوّر تصالح الأضداد، يقول أبو العباس المبرد: "عدتُ الجاحظ فسمعته يقول: أنا من جانب الأيسر مفلوج، فلو قرض بالمقاريض ما علمتُ، ومن جانب الأيمن منقرسٌ، فلو مرّ بي الذباب لألمت، وبي حصاة لا ينسرح البول معها، وأشدُّ على ما عليَّ ست وتسعون (عمر حينها)[5]. ولاحظ أنّ السنّ لم يتغير روحه التهكم وميله إلى الدعابة والفكاهة حتى على ذاته.

---

[1]- دراسات أخلاقية، د. عادل العوا، ص٤٠٧

[2]- نوادر الحاحظ، جميل جبر، ص١٣.

[3]- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، د. عزت السيد أحمد، ص١٥٥.

[4]- نوادر الحاحظ، د. جميل جبر، ص٣١.

[5]- المرجع السابق، ص٢٩٢.

وفي السنة التي قتل المتوكل فيها، أرسل إليه قاصد ليحمل إليه من البصرة، فوجده لا فضل فيه، فقال لمن أراد حمله، "ما يصنع بأمري ليس بطائل، ذي شقّ مائل، ولعاب سائل، وفرج بائل، وعقلٍ زائل، ولون حائل!"[1].

ومن بدائع تهكمه الذاتي وروائعها قصّته مع الجارية السندية تدخل في هذا الباب. قال: "أتيتُ منزل صديق لي، فطرقت الباب، فخرجت إليّ جارية سنديّة، فقلتُ: قولي لسيدك: الجاحظ بالباب. قالت: أقول الجاحد بالباب؟ على لغتها. فقلتُ: لا قولي، الحدقي بالباب. فقالت: أقول الحَلقي بالباب؟ فقلتُ: لا تقولي شيئاً ورجعتُ"[2]. وقال ياقوت الحموي: "قيل لأبي هفان، لم لا تهجو الجاحظ وقد يؤذيك وأخذ بمنخنك؟ قال: أمثلي يخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبه أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلتُ فيه ألف بيت لما ظنّ بيتٌ في ألف سنة"[3]. وهذا حق ولا غرابة فيه، فحديثه وتهكمه بالبخلاء حتى في أحاديثه من دون الكتاب، خوّف الناس من شرّ لسانه، فتحاشى من يعرفه ألا يظهركريماً أمامه، وأظهر البخلاء بخلهم أمامه ليطير ذكرهم في البلاد، ويبتعد الناس عنهم خشية اضطرار تكلّف أقلّ القليل. وما زلنا نتندر بطرائف قصصه ونوادره، وبدائع تهكمه حتى الآن. وكيف لا يحلق قوله في الأذهان، وهو الذي نسي اسمه، وهل هناك من ينسي اسمه؟ وسأل عن أهله: بم أكنّي؟ فقيل له: أبو عثمان!".

وخلاصة مذهب الجاحظ في الضحك على النحو التالي:

ا. إن الجاحظ قد فاضل بين البكاء والضحك، واختار الضحك وفضله على البكاء، وربط بين الضحك والحياة، وبين البكاء والموت، وبذلك انتصر للضحك والحياة في ثقافة تمجد البكاء والخوف والموت والأحزان.

ب. والضحك فطري في الإنسان، فهو شيء في "أصل الطباع في أساس التركيب"، وظهوره علامة طيبة. وهو أوّل خير يظهر لدى الإنسان.

ج. وفي رأي الجاحظ، للضحك تأثير إيجابي في الشخصية، فبه تطييب النفوس. فهو يربط بين النمو السليم للجسم، وانعكاس ذلك على طيب النفس، وشعور المرء بحسن الحال.

د. للضحك دلالة اجتماعية أيضاً، وهي دلالات ترتبط بين التفاؤل والاستبشار وسيكولوجية الأمل، كما يقول العرب على أبنائهم: "بالضحاك وبيسام وبطلق وطليق. وإذا ذمّوا قالوا: هو قطوب وعبوس وكالح ..."الخ[4].

---

[1]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١٦، ص١١٣.
[2]- نوادر البخلاء، د. جميل جبر، ص٢٤
[3]- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، ج٦، ص٤٧١،الجاحظ، شارل بلا، ص٣٧٤.
[4]- الجاحظ الأديب الساخر، عبد الحليم محمد حسين، ص٧

ر. ليس الضحك أمراً مطلقاً، ولا سلوكاً منطلقاً بلا حدود ولا لجام لدى الجاحظ، فـ"لكل مقام ضحك وابتسام، وللضحك نفسه موضع ومقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جاز هما أحد، وقصر عنهما أحد .. فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جداً، والضحك وقاراً"[1]. فللأنسان أن يلزم حد الوسطية المعروف، حتى لا يقع في الخطل عند الإفراط، أو يقع في النقص والتقصير حين التفريط، فالضحك لا يكون للضحك، بل للراحة، ثم العودة إلى مواصلة العمل والحياة.

س. والضحك عند الجاحظ ليس نقيضاً للجدّ؛ بل هو حالة من حالاته، فمن دون الضحك لن يكون ثمة جدّ حقيقي ولا وقار غير متصنع.

حقاً أن الجاحظ على عبقريته وألمعيته، وسموّ مكانته، شخص مفعّم بالطرافة، موشّح بالظرافة، منفرد في روح الدعابية الفكهة، متفردّ في ذلك ببراعته وأسلوبه وخصائصه وموضوعاته.

كان الجاحظ قوي الملاحظة و صاحب قلب مستنير، واحسّ الساخر الهزلي، الذي قادته إلى تكييف فكره مع ميوله إلى النماذج الإنسانية والاجتماعية موظّفاً كل مهاراته ومعارفه في ثلب أخلاق عصره وعاداته وأحواله. وكان أسلوبه ممتع رشيق، ومنهج علميّ دقيق، ولفظ باهر، وتعبير ساخر ممتزجاً بالنكتة حيناً، وبالسخرية حيناً آخر، وبالتهكم مرّة ثالثة، يواجهك في الخطاب تارة، ويتوارى خلف شخصيات محدثية تارة أخرى، يناقشك بمشكلة ويترك لك الباب مفتوحاً لتدلي بدلوك إن شئت.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الجاحظ قد بلغ بفنه التهكمي مبلغاً منقطع النظير في التاريخ. وارتفعت مكانته وسمت بين معاصريه، فصار المقرب من ندماء الخلفاء والوزراء والأمراء على الرغم من دمامة خلقه، وقبح هيبته، حتى صار يتهكم من يتهكم، ولا يجد من يجرؤ على التهكم به.

---

[1]- البخلاء، ص٧

٢. السخرية والفكاهة في الإمتاع والمؤانسة

ألّف التوحيدي الإمتاع والمؤانسة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهي تفاصيل مكتوبة لمجلسه حضر التوحيدي وسامر مع الوزير. والكتاب ملّون بألوان مختلفة بمزاجه، ومزاج صاحبه. وفي بعض الليالي الفكاهة أو الهزل تأتي في نهاية المجلس، باسمية "ملحة الوداع"، وبعض الليالي تحيط جوّ الهزل، مثل الليل الذي ذكر فيه الأحاديث عن المجانين.

وفي مرحلة أولى في حياته عاش التوحيدي مبؤوساً، محروماً، وكان مزاجه سوداوياً، بعيداً عن حس المزاح ويذكر بكبار عباقرة التاريخ البائسين. ومثلما كان الجاحظ أستاذ علم الكلام في الأدب في القرن الثالث الهجري، كان التوحيدي بحق أستاذ الفلاسفة في الأدب في القرن الرابع الهجري، وقد وصفه ياقوت في كتابه "إرشاد الأديب" بأنه: "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة[١]. وورد حديث التوحيدي عن الضحك والفكاهة والتهكم والمزاح وغيرها من ضروب السرور في مواضع عدّة من كتبه.

٢,١. أسباب الفكاهة عند التوحيدي

إذا قرأنا عن حياة التوحيدي فنجد أن هناك عناصر عديدة أثّرت في تكوين شخصيته، منها: (ا) الوراثة، و(ب) المهنة، و(ج) البيئة، و(د) منابع ثقافته. تأثر التوحيدي بأفكار الجاحظ، لكن رؤيته للفكاهة والضحك أقلّ عمقاً من أفكار الجاحظ.

وكلمة الفكاهة لا يتناسب مع أبي حيان التوحيدي لأوّل وهلة، لأن هناك تناقضاً صارخاً بين روح التشاؤمية التوحيدي وتسميته بفيلسوف الفكاهة. وميل التوحيدي إلى الفكاهة لم يكن إلا صدى لما حفلت به حياته من آلام ومحن ومصائب. وليس من الشك في أن النفس المعذبة كثيراً ما تلتمس في الهزل ترويحاً عن النفس، فلا تكون الفكاهة بالنسبة إليها سوى منفذ لتنفيس عن آلامها، فلا تكون النكتة عندها سوى أداة للتهرب من الواقع الذي يرن على كاهلها[٢].

---

[١]- أنظر: أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، عبد الأمير الأعسم، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م؛ الفكاهة والضحك، شاكر عبد الحميد، ص٢٧٧.

[٢]- أنظر: أبوحيان التوحيدي، زكريا إبراهيم، ص٢٤٧.

إذن فإننا حتى لو سلمنا مع بعض الباحثين بأن "حياة التوحيدي كانت ملأى بالتزمُّت والعبوس والحنق"[1]. فإننا لن نوافق هؤلاء على القول بأن التوحيدي لم يكن من أهل الفكاهة أو محبى الهزل[2].

والمؤرخون يقارنون بين الجاحظ والتوحيدي، وأبوحيان كان يميل إلى الجد والصرامة في حين كان الجاحظ أميل إلى الهزل والفكاهة، ولعل الجاحظ كما قال أستاذ أحمد أمين: إن الجاحظ لما حسن حظه ضحك ، فاشتهر بالفكاهة الحلوة، والنادرة اللطيفة، والتوحيدي لما ساء حظه بكى، والناس عادة يضحكون مع الضاحك، ويهربون من الباكي. فقد أكثر التوحيدي من الشكوى، حتى مل منه مسكويه في كتاب "الهوامل والشوامل" وقرعه عليه"[3]، ولكن الواقع أن التوحيدي مع بؤسه وكثرة شكاته، كان ميلاً إلى الهزل والدعابة، فضلاً عن أنه كان أعرف الناس بقيمة الفكاهة والتندر في حياة الإنسان. وينبه من "تعاف السماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف، فإنك لو أضربت عنها الجملة .. اجعل الاسترسال بها ذريعة إلى احماضك، والانبساط فيها سلّماً إلى جدّك، فإنّك متى لم تذق نفسك الفرح الهزل، كرّبها غمّ الجدّ"[4]، فالتوحيدي يعتقد أن المزاح ينفى عن النفس ما طرأ عليها من سأم، ويزيل عن القلب ما ألم به من هم. فهو يؤكد قيمة الفكاهة في حياة الناس، وضرورة تذوق النفس لفرح الهزل إذا كربها غمّ الجدّ.

٢,٢. تفسير الضحك

يقول التوحيدي عن الضحك في "المقابسات": "سألت أبا سليمان عن الضحك ما هو؟ فقال: الضحك قوة ناشئة بين قوتي المنطق والحيوانية، وذلك أنه حال للنفس باستطراف وارد عليها"[5]. فالضحك في رأي التوحيدي أو في رأي أبي سليمان، قوة تنشأ، وفي ضوء التصور الأرسطي عن تفاعل القوة الناطقة والقوة الحيوانية، أي عن قوتي العقل والغريزة، والضحك حالة من أحوال النفس تنشأ عندما يرد إليها "استطراف" أي شيء طارئ يحدث تعجبا معيناً. ويذكر محمد بلقراد في رسالة عن "الفكاهة والضحك في الأدب العربي" أن التوحيدي قد استخدم في أدبه المضحك أسلوبين اثنين : "فهو تارة يعمد إلى أسلوب الهجاء الساخر العنيف، أسلوب العداء على خصمه والقضاء عليه بإفشاء معايبه، وإضحاك الناس من مقابحه ونقائصه، وسخط عارم على الناس جميعاً بوجه عام، وعلى من يعاديه بوجه خاص. وخير مثال لهذا النوع من أدب السخر والتهكم ما كتبه عن الوزيرين أبي الفضل وابن العميد، ولا سيما عن الصاحب بن عباد عدوه اللدود، وتارة يعمد إلى أسلوب عذب ممتع وهو أسلوب التفكه البارع اللطيف، والدعابة

---

[1]- أبوحيان التوحيدي، د. أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ج٢، ص١٤٥

[2]- أبوحيان التوحيدي، زكريا إبراهيم، ص٢٤٨.

[3]- البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تصدير أحمد أمين، القاهرة، ١٩٥٣م، ص (ط).

[4]- المرجع السابق، تحقيق أحمد أمين و السيد أحمد صقر، ص٤٩-٥٠.

[5]- المقابسات، التوحيدي، تحقيق علي شلق، ص٧-٨.

الحلوة والضحك البرئ، يهدف بذلك إلى الترفيه عن نفسه لكثرة ما ألم بها من هموم وأكدار. ونجد أمثلة على ذلك في كتابيه الإمتاع والمؤانسة و البصائر والذخائر[1].

وفي الإمتاع والمؤانسة يورد التوحيدي الكثير من الملح والنوادر والفكاهات في الليلة الثامنة عشرة، ويعقب قول ابن عباس، أنه "يقول في مجلسه بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه المسائل: أحمضوا، وما أراه أراد بذلك إلا لتعديل النفس، لئلا يلحقها كلال الجدّ، ولتقتبس نشاطاً في المستأنف ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع .."[2]، والوزير ابن سعدان كان ينهى المجلس يطلب فيه بطرفة من الطرائف يسميها "ملحة الوداع"، فيورد التوحيدي نادرة لطيفة، أو قصّة طريفة أو أبياتاً رقيقة .. الخ.

والتوحيدي له طريقة خاص، هو لم يمزج الهزل بالجدّ والجدّ بالهزل، على طريقة الجاحظ، الذي يريد دفع ملل القارئ وسأمة السامع، "انقاذاً للقراء من طريقة العلماء الذين كانت لهم السيطرة إلى ذلك الحين، والذي كانت كتاباتهم ثقيلة لكثرة ما فيها من الجدّ واظهار العلم"[3]. وإنما كان إقباله على الفكاهة جزءاً لا يتجزأ من صميم فلسفته التشاؤمية التي كانت تريد إلغاء الواقع، والتنكر له والسخرية به، فلم يكن فن الضحك عنده سوى مجرد أداة الدفاعية اصطنعتها نفسه لمواجهة ما في حياته من شدّة قتوة وحرمان[4]. ومعظم نوادر والفكاهات التي خلق التوحيدي، هي بمثابة "أداة تطهيرية" تبدد هواجسه الكئيبة، وتطرد عنه أشباح الفقر والفشل والحرمان. والضحك هو الإنسان نفسه، وإن اكتشفنا شخصية التوحيدي من خلال فكاهاته ونوادره، فقال أحد الباحثين: "قل لي مم تضحك، أقل لك من أنت؟" فهل من عجب في أن يكون الضحك التوحيدي معياراً لشخصيته، أو أن تكون فكاهته أصدق تعبير عن نفسيته؟

ولما نبحث عن شخصيته نجد أنه لم يتزوج، ولم ينجب أطفالاً، فليس بدعا أن كثيراً من فكاهاته ونوادره يدور حول النساء والأطفال، كأن هذه الفكاهة تعويضاً نفسياً عن بقائه عزباً بلا نسل! وكان التوحيدي يميل إلى الوحدة، ولا عجب أنه يسخر الناس ويهزأ بهم، كأنما مجد في الفكاهة العدوانية أشباعاً لميله إلى التفوق ونزوعه نحو الاستعلاء.

والتوحيدي قرع أبواب الوزراء والرؤساء للصلة إليهم، لكنه لقي من جانبهم الإهانة ويعاني الكثير من وراء صلفه وانفه وكبريائه، فليس غريباً أن يتجه نحو الفكاهة اللاذعة، والسخرية البارعة والتصوير "الكاريكاتوري" الساخر، ومن هنا كشفت الغطاء من فكاهة

---

[1]- الفكاهة والضحك، شاكر عبد الحميد، ص٤٥.

[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٦٠. (القاهرة، ١٩٤٢م).

[3]- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، القاهرة، ح١، ١٩٤١م، ص٢٩٥.

[4]- أبوحيان التوحيدي، زكريا إبراهيم، ص٢٥٠

التوحيدي عن طبيعة مزاجه النفسي، حتى نجد فيها مرآة صادقة لروح ذلك الشخص الذي عاش وحيداً مكدوداً متكبراً، سريع التأثر والانفعال[1].

ومعظم النوادر التي رواها التوحيدي عن النساء، معظمها الفكاهات المجونية التي يمجّها الذوق السليم، وتعافها الآداب العامة. وربما السبب الرئيسي في إقبال التوحيدي على هذا النوع من الفحش كما قال الأستاذ أحمد أمين: "كان مكبوت الغريزة الجنسية، وذلك بحكم فقره وتقشفه الجبري، فلم نسمع مثلاً في تاريخ حياته أنه تزوج أو رزق أولاداً .. ثم كان فقره القطيع يحول بينه وبين التّسرى، كما كان حال الأغنياء في زمنه"[2]. وليس من شك أن الرجل حين يجهل المرأة زوجاً وأماً، فإنه لن يرى فيها سوى مجرد "موضوع جنسي" أو "أداة للمتعة"، فمعظم فكاهات رواها التوحيدي كانت عن وظيفة المرأة التناسلية، وصلاتها بالرجل، وعلى استخفاف بقدسية الجنس وازدراء لعلمية التكاثر. وكان الناس وعصره أفرطوا في المجون وطربوا منه، لكن التوحيدي قد أفرط في استخفافه بالمرأة، وسخريته منها. فسخرية التوحيدي ربّت في داخله، ونشأت مع نشأته، وترعرعت مع طفولته وشبابه، ونضجت مع كهولته، وفي فكاهته مرارة حياته و ملاحة إهانة أصحاب السلطة والوزيرين.

الخلاصة

البخلاء انعكاس بيئة الجاحظ، وظروف الحياة في القرن الثالث الهجري، وقصص البخلاء توضح صورة عصره، والمقابلة بين العنصر العربي والفارسي في الجود والبخل، وآثار الحياة العقلية الجديدة في التعامل والسلوك. رسم الجاحظ في البخلاء صورة المجتمع العباسي الذي تهالك الملذات في القرن الثالث الهجري. وهو المبدع في خلق فن أدبي جديد بدت فيه روحه الساخرة الفكه. وصوّر صورة صادقة لعصره، وبيئته وطبائع الناس، وسلوكهم. ويحدد القيمة الأخلاقية الفاضلة ودرجاتها ومقاديرها. ويثبت في قصصه أثر البيئة في الأخلاق وحتى في عرق الصبيان والحيوان. ويقدّم خصال قريش على مقابل أهل مرو وخُراسان، فالظاهرة الشعوبية موجودة بغير ذكر الشعوبية.

وكتاب الإمتاع والمؤانسة يلقي أضواء ساطعة على المجتمع العباسي في القرن الرابع الهجري، وتميز فيه أنماط الحياة الخاصة والعامّة. ويبرز مظاهر الترف والبذخ واللهو في حياة المترفين، وكذلك يصوّر الفقر المدقع في حياة الشعب. واضطراب الاجتماعي في أيام فتنة الخُراسان، وغارات الروم التي أهلكت أمن المجتمع. ونيوع الفتنة الشطّار والعيّارين الذين يروّعون الناس، ويسلبون أموالهم ويسفكون دمائهم. ويظهر الكتاب التناقض الطبقي والتبان

---

[1]- أنظر. أبوحيان التوحيدي، إبراهيم زكريا، ص٢٥١.

[2]- النصائر والذخائر، تصدير أحمد أمين، القاهرة، ١٩٥٠م، ص (هـ)

السلوكي في أفراد المجتمع، والصراعات الحارّة بين أجناس العرب والفرس التي طال دخان الخوف في أنحاء البلاد.

لمّا نرجع إلى التاريخ هذا الأديب الأريب واتصاله بالخلفاء، كان المأمون الذي بدأ معه مجده وعزّه الذي لم ينته إلا مع المتوكل، الذي غيّر المسار، ولكن الجاحظ كان قد ناهز السّبعين مع أوائل خلافته، وقد دبّت الأمراض. وكتب البخلاء وكان يصارع أمراض الشلل والنِّقرِس. وتظهر ثمرته أن جسمه كان مفلوجاً ، لكن عقله الصيقل، فصقل مواهبه وتعهدها بالرّعاية، وتنفّس بالحرية، وألّف ما ألّف، ما وُجد نظيره في القديم، ولا حتى الآن.

والإمتاع والمؤانسة تبرز التناقضات والاضطرابات والتدهور السياسي في القرن الرابع الهجري، مع انقسام المجتمع إلى طبقات، الارستقراطية والبورجوازية والشعب. وبلغت الحضارة الإسلامية على ذِروتها في نشأة العلوم والفنون. وثارت فتنة الخُراسان، وأغار الروم، ونهّب العيّارين، وساءت العلاقات بين الحكام والرّعيّة.

يلاحظ أن الفرس أكثر الأمم حضارة في الحياة الاجتماعية، والتمازج العرقي والديني حصل إثر الفتح الإسلامي. والفرس أسهموا في الحضارة الإسلامية إسهاماً بارزاً، وقدّم لنا الجاحظ صورة الفرس عبر رؤية جمالية وإنسانية، حتى يضفي على صورة البخيل دون أن يميّز فيها بين العرب والفرس. ورصد في مرحلة حضارية جديدة بدأت تفرض قيمها الاجتماعية والاقتصادية غير مألوفة، فقدم لنا صورة الفرس كما قدّم لنا صورة العرب. وبدا لنا مدافعاً من الفرس ضد المتعصبين العرب، كما دافع عن العرب ضد المتعصبين من الفرس. فقدّم لنا كتاب البخلاء الأوصاف الجاهزة التي تسود المجتمع وكذلك فتح آفاق الرؤية التي لا تحد الإنسان بمعتقد أو مكان أو زمان، وابتعد أدبه عن كل رؤية متعصبة ضيق الأفق.

ولما نلاحظ الكتاب الثاني فهو صديق صامت، يتناول بحّار العلم، فالإمتاع والمؤانسة هو ممتع ومونس حقيقي كاسمه، ويلقي أضواء ساطعة على عصر يتصف بالظلام، فيعرض كثيراً من الشؤون الاجتماعية في ثنايا حديثة، ويصف الأمراء والوزراء ومجالسهم ومساويهم، ويصف العلماء ويحلل شخصياتهم، وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال. وهو يصوّر حياة الارستقراطيين في شكل قصصي ويبرز الخصائص العامة لذلك العصر.

وقد تناول قضايا جادّة وبروح نقديّة تساؤلية توّاقة إلى التغيير وإلى تخليص المعارف من الوثوقية، وهو جادّ في عصر الهزل، وهو عاقل في زمن أشباه العقلاء، وهو مفكر حرّ في العالم المتهذب.

الباب الثالث: العناصر الفنية للقصص في الكتابين

الفصل الأول: السرد في القص بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة

الفصل الثاني: الشخصيات في القصص بين الكتابين

الفصل الثالث: الحكاية في القصص بين الكتابين

الفصل الرابع: المظاهر الأسلوبية في القصص بين الكتابين

الباب الثالث: العناصر الفنية للقصص في الكتابين

مدخل

إن الأدب موهبة الإبداع، ينميه الاكتساب والتقدير الاجتماعي. ويشتمل الانتاج الأدبي على شيئين: أولهما مادة الأدب والثاني جوهر الأدب. ومادة الأدب، هي اللغة التي يكتب فيها، والمراد بجوهره الفكرة التي ينطوي عليها والعاطفة التي يضطرم بها والخيال الذي يتألق فيه والأسلوب الذي يبرز به. وليس من الممكن أن ينفصل المادة من الجوهر في الانتاج فإنهما جزءان لا يتجزءان، لأن اللغة كمادة الأدب تحمل الفكرة، وتُنشئ، ثمّ تصوغها، وتختزن العاطفة وتفيضها، وتنقل الخيال وتترجم عنه، وهو كالسحاب، الذي يحمل المياه والهواء وتسير به حتى تنزل من السماء مطراً.

وموضوع هذا البحث القصّة في الأدب ، التي تعرف بـ"صوت الفرد" وهي "الوعي الحاد بالتفرد الإنساني". والقصّة القصيرة لم يكن لها بطل على الإطلاق، وإنما لها – بدلا من ذلك – جماعة خاصة، معزولة، لها مزاجها الذي يميّزها عن غيرها. وهي جماعة تعاني من ألوان الضغوط الاجتماعية، وتسعى جاهدة إلى تنفس أو خلاص. وليس من الضروري أن يكون الفقر المادي من بين هذه الضغوط، فقد تكون فقيرة من الناحية الروحية. وتختلف هذه الجماعة – عند كتاب القصّة القصيرة العظام – من كاتب إلى كاتب، فهي عند "جوجول[1]"، "الموظفون"، وهي عند "موباسان[2]"، "البغايا"، وهي عند "تشيخوف[3]"، "الأطباء والمدرسون"، وهي عند "شيروود اندرسون[4]"، "أهل الريف"، وهكذا يسمّى "أوكونور" هذه الجماعات كلها "الجماعات المغمورة"[5]. والقصّة تتحتم أن "تتركز الحياة بأكملها، وتزدحم، في بضع دقائق". كما أن الرواية تعدّ الفن التطبيقي، والقصّة القصيرة الفن الخالص، وليس الفرق بينهما في الطول، وإنما هو فرق في الطبيعة الفنّية لكل منهما، فالفكرة التي تقدمها أحدهما بنجاح تحقق الأخرى في تقديمها،

---

[1]- نيقولاى جوجول (١٨٠٩م-١٨٥٢م) قصاص روسي عظيم، تأثر بالرومانسية، وكتب قصّة شهيرة "المعطف" (القصّة القصيرة، الطاهر أحمد مكي، ص٥٦-٦٠).

[2]- جي دي موباسان (١٨٥٠م- ١٨٩٣م) شاعر وقصاص وروائي ومسرحي. تتلمذ على الكاتب الفرنسي فلوبير (المرجع السابق، ص٦٣-٦٦).

[3]- أنطون تشيخوف (١٨٦٠م- ١٩٠٤م) ولد في "تاجا نروج"على بحر أزوف، وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره أصبح قصاصاً من الصف الأول في الموضوعات المتنوعة. وضع أسس القصّة للعالم الأدبي (المرجع السابق، ص٦٦-٧٠).

[4]- شيروود اندرسون (١٨٧٦م-١٩٤١م) روائي أمريكي وكاتب قصص قصيرة، وأحد رواد مدرسة الواقعية (ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

[5]- أنظر الصوت المنفرد، مقالات في القصّة القصيرة، فرانك أوكونور، ترجمة محمود الربيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص٧.

والموضوع الذي يصلح علاجه في واحدة منها لا يصلح علاجه في الأخرى. وليست القصّة القصيرة قصّة قصيرة لأنها صغيرة الحجم، وإنما هي كذلك لأنها عولجت علاجاً خاصاً، وهو أنها تناولت موضوعها على أساس "راسي[1]" لا "أفقي".

إن كل قصّة تجربة جديدة في مجال التكنيك، وتختلف تصميم كل قصّة عن غيرها من القصص. السرد والحوار يكون في خدمة الحدث، والنسيج يساهم في تصوير الحدث وتطويره حتى تصبح شخصياته مستقلة كالكائن الحي. ووظيفة الأسلوب أنها تكون في خدمة المضمون. والأسلوب قد يُستخدم للدلالة على زمان ومكان معينين، وكذلك على الشخصيات. ويختلف الأسلوب لاختلاف الطبقات الاجتماعية. والأسلوب الركيك يفسد القصّة[2].

---

[1]- حيث في الأساس الأفقي تتبع الخط الزمني لتتعرف على الأسس الإستيمولوجية التي تحكمت في الكلام والخبر. - تعتمد فيه تحديد العلائق القائمة بين الكليات والجزئيات (الثوابت، المتحولات، والمتغيرات) من خلال الكلام والخبر.

[2]- أنظر القصّة تطوراً وتمرداً، يوسف الشاروني، ص٣٩-٥٠.

الفصل الأول: السرد في القصص بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة

١. مفهوم السرد

السرد نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية. وهي الطريقة التي تروي بها القصّة. ويعتبر السرد مكونا محايثا للنص الروائي، إذ هو الذي ينتظم أحداثه وشخصياته وبالتالي فضاءاته وأزمنته. ومن ثم انتسابه إلى الخطاب والمبنى؛ بما هو صياغة فنيّة. ومن هنا يتحول مفهوم السرد، من مجرد عرض للأحداث إلى نظام من التواصل، وصياغة جديدة للواقع التي يتكلم عنه وينطلق منه.

إن سرد قصّة أو نادرة لا ينبغي أن يخضع لصوت الكاتب خضوعاً كليّاً بل لا بدّ من مراعاة المستويات اللغوية والاجتماعية وكذا النفسية للشخصيات، وإلا فقدت تأثيرها. ففي كل نصّ أو خطاب أدبي بنية وجدانية، ومضامين عاطفية سواء حملتها اللغة في بنائها أو حملتها قوالب سياقية.

إن "الفلسفة تماثل السرد وتشبهه أو ربما تكون شكلاً من أشكاله"[١]. وهي الطريقة التي يختارها الروائي لتقديم مادة الحكاية أو القصّة، وهو يُعدّ بمثابة إضافة جديدة في حقل الدراسات النقدية الحديثة، بوصفه جامعاً بمختلف المعارف والثقافات. وللسرد مستويان يراد بهما: (ا) السرد الابتدائي، ويتمثل هذا في العمل الأوّل للمؤلف. (ب) السرد الثانوي، حيث يحكي القاص حكاية داخل الحكاية؛ حيث تكون هناك شخصيتان، سارد ومستقبل داخل القصّة، فيقوم السارد منهما بسرد القصّة الأساسية، فتعتبر هذه القصّة بمثابة سرد ثانوي من الدرجه الثانية.

الوظيفة السردية تعتبر من أهم المعالم والتقنيات، واستطاع الباحثون إزاحة الكثير من الغموض في هذه النظرية، مما ساهم في اكتشاف تقنيات أخرى، وتحدد مفهومها ودورها في العمل الأدبي.

والقصّة يمكن لها أن تأخذ اتجاهات متعددة ومتشعبة. وتتوالد الوظائف فيما بينها لضرورة منطقيّة أو جماليّة، تربط بينهما، وهذا ما يجعلها تقوم على الانسجام والتكامل، وتندرج ضمن مسار أو محور واحد. وفهم القصّة لا يعني مجرد التطور الجديد للحكاية بل تعني كذلك التعرّف على طبقات المعنى التي تتداخل فيما بينها تشكيل المعاني، وتنظيم العلاقات، التي تقوم بين عناصر الأثر الواحد. وفي دراسة القصّة تكون التواصل بين المتن الحكائي والمبنى الحكائي:

---

[١]- فلسفة بول ريكور، (الوجود والزمان والسرد)، بول ريكور، ترجمة و تقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٩٩٩م، ص٢١٣.

(ا) المتن الحكائي، هو "مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها والتي يقع أخبارها بها خلال العمل.
(ب) والمبنى الحكائي، فهو يتشكل من الأحداث نفسها بيد أنه يراعي نظام ظهورها في عمل كما يراعي ما يتّبعها من معلومات.

في العصر العباسي خطا النثر العربي خطوات سريعة، وتغير نمط الأدب من حيث النوع والأسلوب. وامتزجت ثقافات عديدة بالثقافة العربية. وفي هذا العصر برزت شخصية الجاحظ العلمية والأدبية، التي تنوّعت وتباينت بمؤلفاته، ومنها كتاب البخلاء، الذي بلغ ما لم يبلغه معاصروه.

والأنماط الحكائية في كتاب البخلاء تمارس بطرق مختلفة، وتشمل أنواعاً عدة. وتحاول هذه الدراسة السردية تصنيف وتحديد الأجناس الأدبية من حيث هياكلها وأبنيتها السردية. وستقف هذه الدراسة على أنماط حكائية، وما حواه من مضامين وأساليب، وبنياته السردية. وهذه الدراسة تلتقي الأنماط الحكائية بحسب نوعها وحجمها على حدة.

٢. السرد في البخلاء

السرد عنصر رئيسي لنقل القصّة. وفي دراسة القصص، بدأتُ من عناوين القصّة، وإذا كانت القصّة بدون العنوان، عنونتها بعنوان مناسب واخترت العنوان لكلّ قصّة ما يحيط حول الموضوع، أو يكون مفارق القصّة، وقسمت السرد بين الذاتي والموضوعي؛ والسرد الذاتي منسوب إلى الذات، نزعة ترمي إلى ردّ كلّ شيء إلى الذات، وعكسها الموضوعي. ومنها الاستقلال الشخصي الناتج عن تفكير الشخص. والسرد الموضوعي منسوب إلى الموضوع، وهو مجرد من غاية شخصية، رأي موضوعي، عكسه ذاتي.

ثمّ ذكرت شخصية رئيسية في القصّة، هو شخص واحد أو ممثل يقوم بدور ما في الحكاية، ثمّ موضوع القصّة، ثم المبنى الحكائي، وفيه ركزت الفضاء المكاني والزماني في القصّة. وكذلك طول القصّة، ويأتي بعدد الصفحات وطولها.

وفي كتاب البخلاء خمس ومائتين قصّة (٢٠٥). ويبيّن سرد هذه القصص في الجداول التسلسلي حسب التالي.

جدول ٣,١,١ : التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (نوادر أهل خراسان) ٢٣ قصّة، جدول ٣,١,٢: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (قصص أهل البصرة من المسجديين وقصص زبيدة وليلى وأحمد وحديث خالد بن يزيد) ٣٠ قصّة، جدول ٣,١,٣: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (بقية حديث خالد بن يزيد مع القصص الأخرى) ٢٦ قصّة، جدول ٣,١,٤: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (قصّة الحارثي وقصّة الكندي)

٢١ قصّة، جدول ٣,١,٥: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (قصّة محمد بن أبي المؤمل وأسد بن جاني وتمام بن جعفر) **٢٤ قصّة**، جدول ٣,١,٦: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (بقية قصّة تمام بن جعفر وقصّة ابن العقدي) **٢١ قصّة**، جدول ٣,١,٧: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (بقيّة قصّة ابن العقدي وقصّة الأصمعي) **٢٠ قصّة**، جدول ٣,١,٨: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (بقيّة قصّة الأصمعي وأحاديث البخلاء) **٢٢ قصّة**، جدول ٣,١,٩: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (الرجوع إلى أحاديث البخلاء) **١٨ قصة**.

تتكون بنيوية القصّة من أنظمة التفكير التي تتقابل عند نقطة معيّنة، وهي عملية ذات جزئين: الجزء الأوّل منها هو التشريح والثاني هو الربط. وهذه الدراسة هي محاولة التشريح لبنيوية القصص الواردة في البخلاء في الموقع الأول. بدأت الجداول التسلسلي من **العناوين**، ونظرت إلى نسخة البخلاء تحقيق: طه الحاجري، فما وجدت فيها عناوين القصص، فرجعتُ إلى نسخة البخلاء دار صادر بيروت، ووجدت معظم القصص مع العناوين، فأخذت العناوين كما هي، وهي ١٦٧ قصّة مع عناوين من ٢٠٥قصّة، فهناك ٣٨ قصّة دون عنوان، فعنّونت لها عنواناً مناسباً وأشرت إليها مع علامة (*).

ثمّ قسمت القصص من حيث **السرد**. فالقصص التي يغلب عليها السرد الذاتي، ويستخدم ضمير المتكلم، هي ٥٦ قصّة، حيث لجأ الكاتب إلى السرد الموضوعي عن طريق استخدام ضمير الغائب يوسع من نطاق المتن الحكائي هي ١٤٩، من ٢٠٥ قصة.

وفي قائمة "**شخصية رئيسية**" وجدت شخصيات بشرية، وحيوانية في صورة المفرد والمركب، المنسوب بأسمائها أو بكنياتها، وببلدتها، ففيها الأصدقاء والأصحاب والجيران، والشيوخ والغلمان، والصبيان، والأقرباء والعاملون. ورجال غير معروف في الذات ومعروف بصفاتهم، أي بصفة البخل.

وموضوع رئيسي للقصص هو البخل، سواء هو يتعلق بذات البخيل وتصرفاته، ومنعه، وحيله، وحججه واقتصاده، أو تعامله في بيته، أو في السفر، وكذلك في البيع والشراء، والإجارة، والقرض، و الهدايا والعطاء. وعن سلوكه في ماله و مال غيره، وتجنّبه من الضيافة، ومنعه للضيوف على خوان، والصراع بين البخيل وعياله وأصدقائه. واقتصاد في المعيشة وفى الأكل والشرب والكساء. وتربية البخيل لأولاده، وطبع بعض الأماكن وأثره على الحيوان وحتى الصبيان و .. و...

والمبنى الحكائي معيّن في ٩١ قصّةً، وغير معيّن في ١١٤ قصّةً. وهو بيت وطريق وبقال ومجلس، وماندة، وحمّام، ودهليز، وحلقة المصلين، والحيّ، وباب، وبستان، والحانوت، ونخلة، وشركة، وحائط، ونهر، ومسجد وغيره.

ومكان معروف: بيت المروزي، وبيت الكندي، وبلدة مرو، ومنزل خراساني، وطريق الكوفة، والعراق، وحيّ النظّام، ومجلس الوالي، بغداد، دار ثمامة، المراوزة، جنازة مريم، ومنزل زبيدة، ومجلس وليد، ودار أبو مازن، ومنزل أحمد، وبيت الباسياني، وشقّ بني تميم، ومنزل ابن خالد، مائدة يحي، وخوان أبي الفتح، والكوفة، وواسط، وحشمة، مائدة معاوية، وخوان مهلب، وتقريب مؤيس، خوان إسماعيل، ومنزل الثوري، بيت العنبري، بيت يوسف، وبيت محفوظ نقاش، والأريّ، مجلس محمد بن الجهم، خوان المدائني، حائط هشام، نهر الأبلّة، ومنزل الكناني، وبيت ابن عبّاد. ومن الزمان: شهر، زمان التوليد، إفطار الصوم.

وفي القائمة الأخيرة قسّمت القصص من حيث الحجم والهيكل، ووجدتها:

القصص من حيث المتن قصيرة: من ٢ إلى ٤ أسطر: ٥٣ قصّة

القصص من حيث المتن متوسطة: من ٥ إلى ٧ أسطر: ٥٦ قصّة

القصص من حيث المتن طويلة: من ٨ إلى ١٥ سطراً: ٥١ قصّة

القصص من حيث المتن طويلة جدّاً: أكثر من ١٥ سطراً: ٤٥ قصّة

وهيكل قصص البخلاء وحجمها يظهر أن الكاتب استخدم القصص في كل الحجم والهيكل، وهي تظهر ندرة أسلوبه في تناول القصّة.

جدول ٣،١،١: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (نوادر أهل خراسان)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/عدد /سطر
١ المروزي وزائره	موضوعي	المروزي	حيلة البخل	بيت المروزي	٣/١/١٧
٢ الوضوء بالعذب	ذاتي	ابن أبي كريمة	بخل في الماء	منزل المروزي	٣/١/١٧
٣ أبخل مَن خلق الله	ذاتي	الكندي	منع من الطعام	بيت الكندي	٦/١/١٧
٤ البخل طبع في مرو[1]	موضوعي	الديك مرو	سلب الحدث	بلدة مرو	٣/١/١٨
٥ البخل طبع في مرو	ذاتي	الصبيّ مرو	طبع البخل	بيت المروري	٦/١/١٨
٦ البخل حتى في نور المصباح	موضوعي	خراساني	البخل في الضوء	منزل خراساني	٤/١/١٨
٧ من غريب الاتفاق	ذاتي	حجاج عراق	الاقتصاد في الراد	طريق الكوفة	٤/١/١٨
٨ كلّ ورغيفة	موضوعي	رجل مسافر	تطاعم الجماعة	الطريق	٨/٢/١٨
٩ المروري وعود المسرجة	ذاتي	شيخ مرو	بخل في الدهن	بيت خراساني	١٤/٢/١٩
١٠ فصل قنديل الرحاح	موضوعي	شيخ خراساني	فضل الرحاح	بيت خراساني	٣٠/٢/٢٠
١١ صائم الدهر	موضوعي	أبو عبد الله	البخل في الطعام	خراسان عراق	٥/٢/٢١
١٢ العراقي والمروزي	موضوعي	العراقي	بخل المتجاهل	عراق ومرو	١٤/١/٢٢
١٣ يتقاسمون اللحم قبل طبخه	موضوعي	مرافقوالسفر	حيل الاقتصاد	غير معيّن	١٠/١/٢٣
١٤ النظّام وحاره الخراساني	ذاتي	سيّار النظّام	إعارة المقلى	حيّ النظّام	٧/١/٢٣
١٥ طلق امرأته لعسلها الحوان	ذاتي	الخراساني	يدهن الحوان	جار النظّام	٦/٢/٢٣
١٦ أبو نواس والخراساني	ذاتي	الخراساني	أكل مع جماعة	السفينة	٥/١/٢٤
١٧ كلام بكلام	موضوعي	شيخ خراسان	أبين الدعوة	عير معيّن	٣٠/٣/٢٤
١٨ كذب بكذب	موضوعي	والٍ بفارس	سرور بالكلام	مجلس الوالي	١٩/٢/٢٦
١٩ الإيمان بالحلف	ذاتي	ابن هشام	إيمان بالحلف	بغداد	٤/١/٢٧
٢٠ ضمان للحلف	موضوعي	المروري	سرعة الحلف	عير معيّن	٩/١/٢٧
٢١ الحريق سريع الخلف	موضوعي	ثمامة	سرعة الخلف	دارُ ثمامة	٣/١/٢٨
٢٢ المراورة والحفاف	موضوعي	المراوزيون	اقتصاد في نعال	سنّة شهور	٤/١/٢٨
٢٣ النظّام وحار المروزي	ذاتي	جار النظّام	الجمع للمستقل	عير معيّن	٥/١/٢٨

[1]- هي كبرى مدن خراسان قديماً، حتى لتعد قصبتها.

جدول ٣,١,٢: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (أصحاب من المسجديين)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/عدد /سطر
٢٤ الحمار والماء الأجاج	ذاتي	الشيخ	البخل في المال	بيت الشيخ	١٢/١/٢٩
٢٥ مريم الصناع وحسن تدبيرها	موضوعي	مريم	كفاية في الدقيق	حارة مريم	١٨/١/٣٠
٢٦ الغذاء بالنخالة	ذاتي	الشيخ	صلاح البدن والمعاش	بيت الشيخ	٢١/٢/٣١
٢٧ مذاكرة الرجال تلقح الألباب	ذاتي	الشيخ	لبّ الاقتصاد	بيت الشيخ	١٢/١/٣٢
٢٨ وضع الأمور مواضعها	ذاتي	معاذة العنبرية	تدبير جميع أجزاء الأضحية	غير معيّن	٢٩/٢/٣٣
٢٩ قصّة زبيدة بن حميد	موضوعي	زبيدة	استلاف من بقال	بقال جار	٩/١/٣٥
٣٠ يسمعون بالسمع سماعاً	ذاتي	غلام زبيدة	جوع الغلمان	بيت زبيدة	١٢/٢/٣٥
٣١ السكر مفتاح الشر	موضوعي	زبيدة	الشر في السكر	منزل زبيدة	١٣/١/٣٦
٣٢ قصّة ليلى الناعطية[1]	موضوعي	ليلى الناعطية	رقعة القميص	عير معيّن	٦/١/٣٧
٣٣ حجج البخلاء في المنع	ذاتي	وليد القرشي	حجج في المنع	مجلس وليد	١٥/١/٣٨
٣٤ *حيلة سكران	موضوعي	حبل	حيلة البخيل	دار أبو مارن	١٨/١/٣٩
٣٥ قصّة أحمد بن خلف	موضوعي	أحمد	شرّ مال الميراث	منزل أحمد	٢١/٢/٤١
٣٦ متى كان أيسر وأعنى؟	موضوعي	أحمد	يقرّب إلى الفقر	منزل أحمد	١٢/١/٤٢
٣٧ طمع في رخص الثمن	موضوعي	أحمد	حيلة بقلّة الثمن	زمان التوليد	٩/٢/٤٢
٣٨ بدأ السوء بنفسه	ذاتي	أبو عثمان	كرامة الملائكة	غير معيّن	١٢/١/٤٣
٣٩ أجهز على الجرحى	ذاتي	فلان	طعام الجرحى	مائدة فلان	٥/١/٤٤
٤٠ الولد سرّ أبيه	ذاتي	الرجل	مضيف بخيل	بيت الرجل	٣/١/٤٤
٤١ صالح بن عمار وصاحب الحمّام	موضوعي	صالح بن عمّار	تكثّر في العسل	الحمّام	٩/٢/٤٤
٤٢ يطعم لوجه الله	موضوعي	الباسياني	طعام لوجه الله	بيت الباسياني	٣/١/٤٥
٤٣ حديث خالد بن يزيد	موضوعي	خالد بن يزيد	بخل في الإنفاق	سَقْ بني تميم	١٦/١/٤٦
٤٤ وصيّة خالد لابنه	موضوعي	خالد بن يزيد	عيشة المقتصدين	عير معيّن	٨٤/٥/٤٧
٤٥ ابن خالد على مساره	موضوعي	ابن خالد	فساد في الأموال	منزل ابن خالد	٦/١/٥١
٤٦ رغيف يحيى	موضوعي	يحيى	من يأكل كثير؟	مائدة يحيى	٣/١/٥٤
٤٧ مائدة مقسّة الحبر	ذاتي	أبو الفتح	ماحجل على قلّة	حوان أبي الفتح	١١/١/٥٤
٤٨ الحمار وماء البئر	ذاتي	الحمار	يشرب العذب	عير معيّن	٦/٢/٥٤
٤٩ أي ضرب من الناس هم	ذاتي	بخلاء	طبائع في الأكل	عير معيّن	٨/١/٥٥
٥٠ يزيد في تكثير الطعام	ذاتي	صديق له	ابتلاء بمؤاكلة	حوانه	٥/١/٥٥
٥١ يجلده على إبضاح الخبز	موضوعي	من أصحابه	إبضاح الخبز	عير معيّن	٥/٢/٥٥
٥٢ حدي مقام حديين	ذاتي	جدي	الجدي غير منصح	غير معيّن	٧/١/٥٦
٥٣ التعس في الدخل	موضوعي	صديق له	يرذ بفضل دجاجة	مائدته	٣/١/٥٦

[1]- ذكرها الحاحظ في البيان على أنها من نساء الغالية. وأما "ناعط" التي تنسب إليها، فهي حصن في رأس جبل بناحية اليمن وليس يبعد أن تكون يمنية الأصل، وقد كان الناعطيون من أصحاب علي في الكوفة، وطائفة من طوائف حيشه نصفين (ت طه الحاجري، ص٣٠١)

جدول ٣,١,٣: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (حديث خالد مع القصص الأخرى)

عنوان القصة	السرد	شخصية رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/عدد /سطر
٥٤ *العطاء أم البخل	ذاتي	صديقه	ليحصل جديد	مائدة	٤/١/٥٦
٥٥ *الملوك لا تأكل مع السوقة	موضوعي	صديقه	يغار على طعام	مائدة مطلمة	٤/٢/٥٦
٥٦ *التفنن في بخل الخبز	موضوعي	صديقه	الخبز الذلك	مائدتهم	٥/١/٥٧
٥٧ الموعظة لعو	ذاتي	رجل ضخم	إفادة النصيحة	غير معيّن	٨/١/٥٧
٥٨ *ثريدة مالك بن منذر[1]	ذاتي	مالك	ثريدة بلقاء	عير معيّن	٣/١/٥٧
٥٩ *الطرف سلّماً إلى المنع	ذاتي	الصاحب	ستر حالة أصحابه	غير معيّن	٥/١/٥٧
٦٠ قصّة أبي جعفر	ذاتي	أبو جعفر	حك إصبعه للغالية	غير معيّن	٥/١/٥٨
٦١ قصّة الحرامي[2]	ذاتي	الحرامي	الكساء قبل أوانه	غير معيّن	١٨/١/٥٩
٦٢ *نارُ المعدة شيطان	ذاتي	الحرامي	البحل في السعر	الكوفة	١٥/٢/٥٩
٦٣ *عِطر ومشط صندل	موضوعي	الحرامي	تفننه في البخل	عير معيّن	٧/٢/٦٠
٦٤ طمع الناس بحر الافلاس	ذاتي	الحرامي	سبب الإفلاس	عير معيّن	١٨/١/٦١
٦٥ *ضحكة للناس	موضوعي	الحرامي	أثر من الآراء	غير معيّن	٤/١/٦٢
٦٦ *تنوّع في اللحوم	ذاتي	الحرامي	شهوة في لحوم	غير معيّن	٣/١/٦٢
٦٧ *البخيل دو مال	ذاتي	عبد الله	البخيل والسخي	عير معيّن	٧/١/٦٢
٦٨ الحلاوة تعقب المرارة	ذاتي	الحرامي	الحور بعد الكور	واسط	٤٠/٣/٦٢
٦٩ المفسد ينحو ولا المصلح يسلم	ذاتي	المكّي[3]	اسم الجود والبخل	حشمة	٧/٢/٦٤
٧٠ بخل خالد القسري[4]	موضوعي	الخالدان	يرمون بالبخل	عير معيّن	١٥/١/٦٦
٧١ قصّة الحارثي	موضوعي	الحارثي	شنّع الآكلين	عير معيّن	٤٤/٣/٦٧
٧٢*سرار الناس في الأكل	موضوعي	الحارثي	عن أواكل الناس	عير معيّن	١٧/٢/٦٩
٧٣ *أيّ أمري معاوية كان أحسن	موضوعي	رجل مجهول	تبصّر في اللقمة	مائدة معاوية	٨/١/٧٠
٧٤ *كل ولا تقصّر	موضوعي	الحارثي	أصرار في الأكل	عير معيّن	٣/١/٧٠
٧٥ *لا ينفعك ولا يضرّنا	موضوعي	المهلّب	عاطش على المائدة	جوان مهلّب	٧/٢/٧٠
٧٦*إكرام الظرفاء	موضوعي	الجارود وحمّون	حراء الظرفاء	عير معيّن	٦/١/٧١
٧٧ *كيف طعامهم؟	موضوعي	الجارود	عن طعام الأشراف	غير معيّن	٨/١/٧١
٧٨ *لم ير أسخ منه قط	موضوعي	أبو شعيب	حول الإحسان	تقريب مؤيس	٨/٢/٧١
٧٩ *في كفّه كُرّ خردل	موضوعي	محمد بن يحي	كيف عذاؤه	غير معيّن	٥/١/٧٢

[1]- كان أبوه صحابياً جليلاً. وقد نشأ مالك بالبصرة. وقد ثار الخليفة لعمر بن يزيد من مالك، فألقى في السجن، ومات فيه. (ت طه الحاجري، ص٣٣٤.)

[2]- وكان الحرامي يصطنع الكتابة والولاة. تحقيق الحاجري: ص٢٥٠-١. - وإذا صحت الحرامي فالأكثر أنها نسبة إلى "بني حرام" (سكة بالبصرة). جاء الراى بالمواضع والزاى في مواضع أخرى.

[3]- كنية المكي هو أبو اسحاق، نشأ في مكة، ثم هاجر إلى العراق، واتخذ البصرة موطناً وكان محلاً طريفاً حلو النادرة حاضر حاضر البديهه. (تحقيق: طه الحاجري، ص٣٣٠.)

[4]- من أحد سادة العصر الأموي، وكان سيداً شريفاً جواداً. وفي الأغاني، أنه كان أكذب الناسوأحمقهم وأبخلهم على الطعام (طه الحاجري، ص٣٣٨.)

جدول ٣,١,٤: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (قصّة الحارثي والكندي)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/عدد/ سطر
٨٠ أبو نواس و خبز إسماعيل	موضوعي	أبو نواس	يعيب بعد الأكلة	خوان إسماعيل	٥/١/٧٢
٨١ أبو الشمقمق[1] وخبز جعفر	موضوعي	أبو الشمقمق	عيب في الطعام	غير معيّن	٤/٢/٧٢
٨٢ قيء كلب في قحف خنزير	موضوعي	حمّاز	سؤال عن الأكل	دهليز فلان	٢/١/٧٣
٨٣ جوع وأحاديث	موضوعي	رجل	كيف رأيت خُزاعة؟	عير معيّن	٢/١/٧٣
٨٤ عمرو بن معدي كرب وبنو المعيرة	موضوعي	عمرو بن معدي كرب	تضيّف بالفصل	عير معين	٤/١/٧٣
٨٥ *نحرلكلّ كلب	موضوعي	أعرابي	إطعام الصيف مخافة لسانه	غير معيّن	٤/١/٧٣
٨٦ زياد يتشبه بعمر	موضوعي	زياد	نظر الراعي للرعيّة	عير معيّن	٦/٢/٧٣
٨٧ لقمة الدرداء	موضوعي	يوسف	الثريد سيّد الطعام	عير معيّن	٧/١/٧٤
٨٨ طعام يد لا طعام يدين	موضوعي	ابن القعقاع	ترفة الطعام	غير معيّن	١١/٢/٧٤
٨٩ طفيل العرائس	موضوعي	بني عبد الله	طالب الأعراس	الكوفة	٤/١/٧٨
٩٠ أعجب العجب	موضوعي	الحارثي	حرص في أموال الغير	عير معيّن	٧/٢/٧٨
٩١ يبلع صرسه ولا يعلم	موضوعي	إبراهيم	كثرة الأكل	غير معيّن	١٢/٢/٧٩
٩٢ *يفسد طين الردعة	ذاتي	الحارثي	صياع ماء البحر	عير معيّن	٣/١/٨٠
٩٣ قصّة الكندي	موضوعي	الكندي	يسأل بالحيلة	منزل الكندي	٨/١/٨١
٩٤ *لو أكل شهد عليه بالكفر	ذاتي	جار الكندي	إعراضه عن الحار	منزل الكندي	٥/١/٨١
٩٥ *ذكاء الجارية	ذاتي	قصاف	صوت الجرّة	منزل الكندي	٣/١/٨١
٩٦ شروط الكندي على سكان داره	موضوعي	الكندي	شروط لسكان داره	دار الكندي	١٦٨/٩/٨٢
٩٧ *لله درّ الكندي	موضوعي	الكندي	حكمته وحجته	غير معيّن	٣٥/٣/٩٠
٩٨ *حفظ المال أشدّ من جمعه	موضوعي	الكندي	المال وحفظه	غير معين	٨/١/٩١
٩٩ *ندع عيالك أغنياء	موضوعي	الكندي	وصية في الفقر	عير معيّن	٩/١/٩٢
١٠٠ *الشهوة فتنة والهوى عدواً	موضوعي	الكندي	وصيّة صبر وثبات	غير معيّن	٢٢/٢/٩٢

[1]- لقب الشاعر المغمور "مروان بن محمد" من أعظم شعراء العصر الأموي في المعنى والأسلوب.وهو من موالي مروان بن محمد نشأ في البصرة، وكان قبيح الشكل، وكان أديباً ظريفاً محارفاً، وكان صعلوكاً. (العقد الفريد٣، ٣٤٣، ط١٢٩٣ هـ، ٢١٥ ٦ ط، لجنة التأليف، ٩٤٩م.)

جدول ٣،١،٥ : التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (قصة محمد بن ابي المؤمل وأسد وتمام)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/عدد/ سطر
١٠١ محمد بن أبي المؤمل	ذاتي	ابن أبي المؤمل	عن الإحادة والتكثير	غير معيّن	٩٧/٥/٩٤
١٠٢ *إنما الأكل تارات	موضوعي	ابن أبي المؤمل	الخدع والمكايد	منزله	٢٥/٢/٩٩
١٠٣ *أقداح على الرّيق	موضوعي	ابن أبي المؤمل	أصحاب الرّيق والنبيذ	غير معيّن	١٠/١/١٠٠
١٠٤ *لا يؤاكل رغيباً ولا رهيدا	موضوعي	ابن أبي المؤمل	ابتلاء بالتّين	بغداد	٢٢/٢/١٠٠
١٠٥ أسد بن جاني	موضوعي	اسد بن جاني	الفشل لطبيب مسلم	غير معيّن	١٦/١/١٠٢
١٠٦ يوصي عياله بأكل العلف	موضوعي	الثوريّ[1]	الحجج التبخّل	غير معيّن	١٩/١/١٠٣
١٠٧ يمشي ونعله في يده	موضوعي	اسد بن جاني	يقرض ولا يشتري	غير معيّن	٨/١/١٠٤
١٠٨ في حلقة المصلّين	موضوعي	الثوريّ	كثرة المبطّة	حلقة المصلين	٦/١/١٠٤
١٠٩ الحمى مربحة	موضوعي	الثوريّ	إفادة الحمى	منزل الثوريّ	٤/١/١٠٤
١١٠ حطة الإصلاح	موضوعي	الثوريّ	طرق الإصلاح	غير معيّن	١٦/١/١٠٥
١١١ يحتج للبخل ويوصي به	موضوعي	الثوريّ	عن صحبة البخيل	مسجد ابن رُعبان	٧/٢/١٠٥
١١٢ الدرهم دار همّ والدينار يدني إلى النّار	موضوعي	أبو عبد الرحمن	عن تأويل الأسماء	غير معيّن	١٠/١/١٠٦
١١٣ تأويلات للأسماء	موضوعي	عبد الأعلى	لمّ سمّي بهذا	غير معيّن	١٠/٢/١٠٦
١١٤ يعجب بالرؤوس ويأكلها	موضوعي	أبو عبد الرحمن	الرأس ومصرّة الشبع	غير معيّن	١٠/٦/١٠٧ ١
١١٥ ماء بماء	ذاتي	العنبري	الجوهر بالجوهر	بيت العنبري	١٠/١/١١٣
١١٦ العنبري وطنزه	ذاتي	العنبري	البخل في أكلة التمر	بيت العنبري	٦/١/١١٣
١١٧ أبو قطبة وتبقية بالوعة	موضوعي	أبو قطبة	العالي والرخيص	غير معيّن	٩/٢/١١٣
١١٨ يدرّ القمل والصوت يدبع	ذاتي	أبو قطبة	الصّوت يدبع	غير معيّن	٥/١/١١٤
١١٩ *اخوة ثلاثة	موضوعي	أبوقطبة وأخوه	أعمال للغير	غير معيّن	٥/١/١١٤
١٢٠ يبخل بالدرهم على أمه	موضوعي	أمّ فيلويه	برّ الأبناء بالأمهات	الحيّ العاتم	١٢/٢/١١٤
١٢١ قصّة تمام بن جعفر	موضوعي	تمام بن جعفر	نهم تمام وشؤونه	غير معيّن	٦٧/٤/١١٦
١٢٢ شقّ قميصه من الطرب	موضوعي	تمام بن جعفر	انتهاء الطرب	غير معيّن	٧/١/١١٩
١٢٣ رفعتم الحشمة كلها	موضوعي	عليّ الأعمى	صيافة الأعمى المتأخر	بيت يوسف	٩/١/١٢٠
١٢٤ أعجوبة في البخل	موضوعي	الغزّال	طرائق عديدة في البخل	حانوت غزّال	١٢/١/١٢٠

[1]- كان سرياً من سراة البصرة، يملك خمسمائة جريب من أكرم الأرض، كان رجل شديد العارضة عصب اللسان، وقد جرد في الانتصار للبخل والمدافعة عنه كتاباً (ت. طه الحاجري، ص٥٧.)

جدول ٣,١,٦: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (بقية قصّة تمام بن جعفر وابن العقدي)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المعنى الحكائي	صفحة/عدد/ سطر
١٢٥ ابن جذام والسائل	ذاتي	ابن جُذام	البخل مع السائل	باب ابن جُذام	١٥/١/١٢١
١٢٦ طبخة لأسبوع	موضوعي	أبو يعقوب الذقناني	طبخة الأسبوع	غير معيّن	٩/٢/١٢١
١٢٧ دخان يهضم الطعام	موضوعي	أهل الجزيرة	شرّ حطب الطرفاء	عير معيّن	٤/١/١٢٢
١٢٨ جمعوا بين البخل واليسر	موضوعي	أهل المازح	يضيق على النفس	عير معيّن	٥/١/١٢٢
١٢٩ يتجاوز حد الخلاء	موضوعي	سليمان الكثري	حدّ البخلاء	غير معيّن	١٦/٢/١٢٢
١٣٠ الجاحظ ومحفوظ نقاش	ذاتي	محفوظ النقاش	حيل البخل	بيت محفوظ	١٧/٢/١٢٣
١٣١ أول الإصلاح	موضوعي	أبو القماقم[1]	لا يردّ ما صار في اليد	عير معيّن	٨/١/١٢٤
١٣٢ عشق في المعدة	موضوعي	بضمير غائب	لا يجاوز المعدة	غير معيّن	٥/٢/١٢٤
١٣٣ *مالها يكفيني ويكفيها	موضوعي	أبو القماقم	يلحّ عن زوجها	غير معيّن	٣/١/١٢٥
١٣٤ تعظيم الأعياء	ذاتي	شيخ الأبلّة[2]	أفضل الفقراء	عير معيّن	٦/١/١٢٥
١٣٥ كيف يصرفون الزائر	موضوعي	الزائر	حيلة ليمرّ الزائر	أهل الأبلّة	٤/١/١٢٥
١٣٦ البخيل النفّاح	موضوعي	ابن الخاركي	يفتخر بترفه ونفاقه	عير معيّن	٢٧/٣/١٢٥
١٣٧ صالح بن عفان وغلامه	موضوعي	ابن عفّان	دخل في النمط	غير معيّن	٥/١/١٢٧
١٣٨ العجلة من الشيطان	ذاتي	ابن جناح	لحسن المؤاكلة	أفطار الصوم	٢٠/٢/١٢٧
١٣٩ قصّه ابن العقدي	ذاتي	ابن العقدي	طرق البخل	الستان	١٩/١/١٢٩
١٤٠ السيذ يذهب بالذاكرة	ذاتي	إسماعيل بن غروان	الشّح في قرية نبيد	بيت إسماعيل	١٢/١/١٣٠
١٤١ البخلاء أعقل أم الأسخياء	موضوعي	البخلاء	البخل والعقل في الميزان	غير معيّن	٦/١/١٣٠
١٤٢ الغدر واللؤم في النّاس	ذاتي	إسماعيل	فضيلة الإنفاق	عير معيّن	٤/٢/١٣٠
١٤٣ شرّمن النساء من يطيعهن	موضوعي	جار تمّام	من أطاع النساء شرّمنهنّ	غير معيّن	٣/١/١٣١
١٤٤ حديث على وجه الدهر	موضوعي	إمام البخلاء	يعامل البخيل بالدرهم	غير معيّن	١٨/٢/١٣١
١٤٥ يهب النبيذ ويحب الندماء	ذاتي	ابن جهانة التقفيّة	طلب النبيذ مع نقصانه	عير معيّن	٩/١/١٣٢

[1]- واحد قمقم، وهو نوع من الجرار، وفي البيان نادرة أشبه هذا، ولكن اسم صاحبها "أبو القمقام"، فلعله هو. (ت طه الحاجري، ص٣٦٩)

[2]- مدينة قديمة من مدن الخليج الفارسي، وهي تقع على شاطئ دجلة البصرة في راوية الحليج. ويخرج منها نهر – يسمى نهر الأبلة – يضرب إلى البصرة (ت. طه الحاجري، ص٣٦٩.)

جدول ٣,١,٧: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (بقية قصة ابن العقدي وقصة الأصمعي)

عنوان القصة	السرد	شخصية رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/عدد/سطر
١٤٦ برذون لا ينام	موضوعي	مديني	يخاف من أكلة العلف	الأريّ	٤/١/١٣٢
١٤٧ تمار وعلامه	موضوعي	تمّار	طريقة أنيقة ليظهر سرقة علام	الحانوت	٤/١/١٣٢
١٤٨ يمسك بوله في فمه	موضوعي	رجل من بني أسد	التفنن لوقاية رطب من الأكل	نخلة	٥/١/١٣٣
١٤٩ ينغص السائلين ويتنهرهم	ذاتي	حار الدّاردريشي	بغض على لمس أراد أن صرتْ مثله	بيته	٦/١/١٣٣
١٥٠ التستر وقاية دون المال	موضوعي	أخ	إكرام الأصدقاء عزيز على الأخيه	شركة	٢٢/٣/١٣٣
١٥١ أبو الهديل ودجاجته	موضوعي	أبو الهذيل	كثرة الذكر جنس الدجاجة	غير معيّن	١٤/١/١٣٥
١٥٢ *استحلف في الإنفاق	ذاتي	ابو الهذيل	كثرة الذكر للإنفاق	محلس محمد بن الجهم	٥/٢/١٣٥
١٥٣ اللئيم الراصع	ذاتي	المدائني	فرق بين البخيل واللئيم	غير معيّن	١٨/١/١٣٧
١٥٤ يسافر ونعله في يده وسراويله في كمه	موضوعي	المدائني	الإصلاح عند أمام البخلاء	غير معيّن	٣٧/٢/١٣٨
١٥٥ لماذا لا يغسل ثيابه؟	ذاتي	أبو سعيد	أمور كثيرة والغرماء في عسل الثياب	غير معيّن	٢٩/٣/١٣٩
١٥٦ بخيل عزيز النفس	موضوعي	أبو سعيد	الرغبة في الغداء	حوان المدائني	٢٨/٢/١٤١
١٥٧ جامع الكناسات	موضوعي	أبو سعيد	تعرّف الاقتصاد	دار أبي سعيد	٢١/٢/١٤٢
١٥٨ قصة الأصمعي	موضوعي	الأصمعي	الحسران عليه والربح له	غير معين	١١/١/١٤٤
١٥٩ أبو عيينة يزر السور	موضوعي	أبو عيينة	الحرص والغرمة	غير معيّن	٣٣/٢/١٤٥
١٦٠ محمد بن أشعث ويحيى بن خالد	موضوعي	محمد بن الأشعث	يعرف موضع ريته	غير معيّن	٥/١/١٤٧
١٦١ رب جهل خير من علم	موضوعي	أسد بن عبد الله	ينطق من يعرف	غير معيّن	٤/١/١٤٧
١٦٢* في اللوح المحفوظ	موضوعي	رجل	في الخير والقدر	غير معيّن	٥/١/١٤٧
١٦٣ رمضان والشيخ الأهواري	موضوعي	الشيخ الأهواري	عين مالحة	غير معيّن	١٣/٢/١٤٧
١٦٤ حديُ المعيرة	موضوعي	حدّ المعيرة	شرائط على المائدة	الكوفة	١١/٢/١٤٨
١٦٥ حدي زياد	موضوعي	أشعب	حلف البخيل	غير معيّن	٥/١/١٤٩

جدول ٣,١,٨: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (بقيّة قصّة الأصمعي والأحاديث البخلاء)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/عدد/ سطر
١٦٦ يجود بالدراهم ويبخل بالطعام	موضوعي	عبد الملك	رغيف واحد يحتبس النفس	غير معيّن	٤/١/١٤٩
١٦٧ دجاجة سليمان بن عبد الملك	موضوعي	سليمان بن عبد الملك	طمع أعرابي في طعام غير	عير معيّن	٣/١/١٤٩
١٦٨ من أجدب انتجع	موضوعي	صعصعة	يتناول بين أيديه	غير معيّن	٣/١/١٥٠
١٦٩ هشام وأصحابه	موضوعي	هشام	أمر لأقلع الأشجار	حائط هشام	٣/١/١٥٠
١٧٠ يلعب بالكعبين	موضوعي	المغيرة	طمع في الأكل	غير معيّن	٣/١/١٥٠
١٧١ لا نفع للمال مع العيال	موضوعي	حويطب بن عبد العزّى	منفعة مع العيال يصير قليلا	عير معيّن	٣/١/١٥٠
١٧٢ خالد بن صفوان ودرهمه	موضوعي	خالد بن صفوان	ارتفاع الدرهم	عير معين	٣/١/١٥٠
١٧٣ إفطار بلال	موضوعي	ابن أبي بردة	البخل في إفطار	غير معيّن	٥/٢/١٥٠
١٧٤ يحدث في الطست تحلا	موضوعي	عمر بن يزيد	دهن الحقنة يصلح	غير معيّن	٥/١/١٥١
١٧٥*يتحلل شهراً بخلال واحد	موضوعي	عمر بن يزيد	بخل في خلال	عير معيّن	٣/١/١٥١
١٧٦ ذراع ودجاجة خالد	موضوعي	خالد بن صفوان	أنا وأنت سواء	عير معيّن	٣/١/١٥١
١٧٧ أبو الأشهب وكثرة أكله	موضوعي	أبو الأشهب	ثمانون ألف درهم	غير معيّن	٣/١/١٥١
١٧٨ يعزله من أجل دراجة	موضوعي	ابن أيوب الثقفي	يعزل عامل	غير معين	١١/٢/١٥١
١٧٩ بيضة العقر	موضوعي	رجل	بيضة العقر	غير معيّن	٢/١/١٥٢
١٨٠ لا يأكل لئلا يطعم	موضوعي	رجل بخيل	لا يأكل لئلا يطعم	غير معيّن	٥/١/١٥٢
١٨١ على جوان معاوية	موضوعي	عبد الرحمن	علة للقمات كثيرة	خوان معاوية	٣/٢/١٥٢
١٨٢ أبو الأسود ولقمان	موضوعي	أعرابي	يأكل لقماً منكراً	عير معيّن	٣/١/١٥٣
١٨٣ أبو الأسود والأعرابي	موضوعي	أعرابيّ	يبعر العرس	نكانه	٦/١/١٥٣
١٨٤ أحوال مقل ومكثر	موضوعي	مكثر	في الكلام فقط	عير معيّن	٩/١/١٩٥
١٨٥ لا يعرف لعطة الجود	موضوعي	طاهر الأمير	ليس لديهم الجود	عير معيّن	١٦/٢/١٩٥
١٨٦ كل الطعام حيره شره	موضوعي	راشد الأعور	كل الطعام كله	عير معيّن	٧/١/١٩٦
١٨٧ التحير قرفة وحور	موضوعي	راشد الأعور	تحول في الطبق	عير معيّن	٥/١/١٩٦

جدول ٣,١,٩: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (الرجوع إلى أحاديث البخلاء)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المعنى الحكائي	صفحة/عدد/سطر
١٨٨ الأكل وشرب الماء	موضوعي	موسى	بخل علي حوان	غير معيّن	٥/٢/١٩٦
١٨٩ يطعمهم لوجه الله	موضوعي	أبو عثمان الأعور	يفطر ويبدأ يقرأ القرآن	غير معيّن	١٠/١/١٩٧
١٩٠ الشيخ والتمر	موضوعي	شيخ	الحذر في الأكل المباح	نهر الأبُلّة	٧/٢/١٩٧
١٩١ يدعو الله عليه	موضوعي	إسماعيل بن غزوان	يدخل في توسع الصف، وندعو الله عليه	مسجد	٤/١/١٩٨
١٩٢ أسخى الناس على طعام غيره	موضوعي	ثمامة	في أسخى الناس شيء من دخل	خوان ثمامة	٤٢/٣/١٩٨
١٩٣ حلقه معيشته	موضوعي	شيخ بخيل	سوء الحلق عند الناس	غير معيّن	٣/١/٢٠٠
١٩٤ الكناني والحانية	موضوعي	الكناني	يخرج المغني من الحانية الفارعة	منزل الكناني	٤٠/٣/٢٠٠
١٩٥ مدمن اللحم كمدمن الخمر	موضوعي	الأصمعي	أنواع الطعام	غير معيّن	٣٢/٢/٢٠٢
١٩٦ اللسان يكذب والحال لا تكذب	موضوعي	الأصمعي	لا أدري بأي أمر يريد	غير معيّن	٦٥/٤/٢٠٥
١٩٧ ثمامة وطالبا حاجة	موضوعي	ثمامة	بعض الأحيان في الحاجة خير	غير معيّن	١٥/١/٢٠٩
١٩٨ *كرامة المسجد أم رباط	موضوعي	أبو همام بن السنّوط	صلاح المعاني من فسادها	عبّادان	٧/٢/٢٠٩
١٩٩ ليس عليه بل عليّ	موضوعي	العاضري	تريد أن تخلف عليه أو عليّ	غير معيّن	٣/١/٢١٠
٢٠٠ ابن اشكاب والمستلف	موضوعي	ابن اشكاب	قبول العذر في استلاف	غير معيّن	٤/١/٢١٠
٢٠١ الدخل قليل والعيال كثير	موضوعي	الفيض بن يزيد	حاجات يورد على الأصدقاء ويزيد ضيقاً	غير معيّن	٢٦/٢/٢١٠
٢٠٢ *الطباهج[1] والكرباج	موضوعي	رجل	زيارة في المنزل زيادة في المؤانسة	بيت ابن عبّاد	٢٠/٢/٢١١
٢٠٣ المال المكدوب له وعليه	موضوعي	إبراهيم بن سيّابة	عذر البخيل إلى صديقه	غير معيّن	٧/١/٢١٢
٢٠٤ *نعم الإدام الجوع	ذاتي	الأصمعي	التحفيف شعار المسلمين	غير معيّن	٤/١/٢٢١
٢٠٥ أعرابي وأولاده والعظم المتعرق	موضوعي	أعرابي	كيف تنفع مخة إدام	غير معيّن	٦/١/٢٢٢

[1]- وهو "طعام من بيض وبصل ولحم"، وقد جاءت صفة طهية في كتاب الأطعمة، وذكر الشهاب الخفاجي أنه "الكباب"، والعرب تسميه "الصعيب" (ت طه الحاجري، ص٢٨٩)

٢,١. تقنيات السرد في البخلاء

كتاب البخلاء يتنوع ببنياته السردية، ويحيط جوانب الحياة العديدة، أخلاقية واجتماعية واقتصادية. تميزت القصّة بتقنياتها السردية المختلفة، ولم يعد السرد البسيط بأحادي الصوت فحسب، بل هناك أساليب أخرى استخدمها القصاص، وفيما يلي تفصيل قصص البخلاء:

ا. **السرد البسيط:** وهي التقنية السردية ذات صوت واحد، بضمائره الثلاثة: الغائب، المتكلم، والمخاطب. وهي تقنية تقليدية مستخدمة في السرد منذ القدم، وما زالت مسيطرة حتى الآن[١].

ا: راوٍ مفرد بضمير المتكلم: "رأيتُ أنا حمّارة منهم ... "[٢].

ب: راوٍ مفرد بضمير الغائب: "دخل أبو عبدالله المروزي على شيخ من أهل خُراسان ... "[٣].

ج: راوٍ مفرد بضمير المخاطب: "وقلتُ لأحمد بن هشام، وهو يبني داره ... "[٤].

ب. **السرد المركب:** وهذه التقنية السردية التي تتعدد فيه الرؤي والأصوات لحدث واحد. ومثاله: "وكنّا عند داود بن أبي داود بواسط أيام ولايته كسكر، فأتته من البصرة هدايا ... "[٥].

"قال أصحابنا من المسجديين ... "[٦].

ج. **السرد بمقدمات استهلالية:** بعض الأحيان يبدأ الجاحظ القصّة من مقدمة استهلالية، كقوله، "لم أر في وضع الأمور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية ... "[٧].

د. **السرد التوثيقي:** وهذه التقنية يلجأ إليها الكاتب إلى تضمين بعض المعلومات أو الأحداث الحقيقية، التاريخية أو الحالية، المنشورة في الصحف والكتب والمراجع، ثم يقوم الكاتب بتوثيق هذه النصوص، لتدخل فيه تكوين جمالي جديد[٨]. ومثاله: "وكان بالكوفة رجل من بني عبد الله بن غطفان يسمّى "طفيل": كان أبعد الناس نُجعة في طلب الولائم والأعراس، فقيل له

---

[١]- أنظر رؤية الواقع في الرواية المصرية الجديدة، د. شعبان عرفات، ص٢١٠.
[٢]- البخلاء، تحقيق. طه الحاجري، ص١٨.
[٣]- المصدر نفسه، ص٢٠.
[٤]- المصدر نفسه، ص٢٧.
[٥]- المصدر نفسه، ص٦٢.
[٦]- المصدر نفسه، ص٢٩
[٧]- المصدر نفسه، ص٣٣
[٨]- رؤية الواقع في الرواية المصرية الحديدة، د. شعبان عرفات، ص٢١٤-٥.

لذلك "طفيل العرائس" وصار ذلك نبزاً له ... [1]". أي اشتهر به. وهذا السرد يتعلق بالواقعة حقيقية.

٢,٢. ملامح السرد

تميزت القصّة بملامح السرد، ومن الملامح الجديدة يعدّ: التضمين والمفارقة، وفيما يلي دراسة لهذين الملمحين:

ا. **التضمين/ التناص:** هذا النوع الأدبي الشامل الذي يمكنه استيعاب الأنواع الأدبية الأخرى كالشعر والمقال والأمثال والحكم، والحكاية التاريخية، وغير ذلك من أنواع المعارف المختلفة. ومن أنواع النصوص المتضمنة ما يأتي فيما يلي، **النصوص الدينية**، وهي تمثل في بعض آيات القرآن الكريم: "كنّا نفطر عند الباسياني، فكان يرفع يديه قبلنا، ويستلقي على فراشه ويقول: **(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩))**[2][3]..

ومن **حديث الرسول** صلى الله عليه وسلم: الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق[4]. (..) ولقوله: فقال": (**إنك إن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس**[5])، فكيف تأمرونني ... [6]".

الشعر: "وكان أبو نواس يرتعي على خوان إسماعيل بن نُيبَخت، كما ترتعي الإبل، (..) ثم كان جزاءه منه أنه قال:

خبز إسماعيل كالوشـ ـي إذا ما شقّ يُرفا[7]

وقال:

وما خبزه إلاّ كُليبُ بنُ وائل لياليَ يحمِي عزُّه منبِت البَقلِ [8]".

---

[1]- البخلاء، ص٧٨

[2]- سورة الإنسان.

[3]- البخلاء، ص٤٥.

[4]- التنوير شرح الجامع الصغير، رقم ٣٥٩٣.

[5]- (١٤٤٠ – ٨٣٦٢/الحديث) مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص

[6]- البخلاء، ص٩٢.

[7]- وهي هجاء الخبز على خوان إسماعيل في كلمات زخرفة

[8]- البخلاء، ص٧٢

المثل، ولهذا ما قاله الأوّل: "مذاكرة الرجال تلقح الألباب[1]"[2].

الحكم: "واحذر سُرعة الكظّة وسرف البطنة. وقد قال بعض الحكماء: إذا كنت بطيناً فعدّ نفسك في الزّمني[3]"[4].

٢. **المفارقة**: هي تناقض ظاهري، وتعبير لغوي، تركز أساساً على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة التشكيلية، وهي لا تتبع من تأملات راسخة ومستقرة داخل الذات، ولكنها تصدر أساساً عن الذهن المتوقد، ووعي شديد للذات بما حولها[5].

والمفارقة تقنية قديمة، والجاحظ هو الصانع الأوّل للمفارقة والسخرية بامتياز في التراث العربي، وكان متوائماً ومنصهراً مع الواقع. وهذه المفارقة، ليس لها شكل ثابت، وقد تتبدى في تصوير الحدث أو الشخصية أو أي عنصر بنائي آخر. والمفارقة هي الجمع بين طرفين يرسم كل منهما عكس ما يتوقع به. وهناك نوعان من المفارقة: المفارقة **اللفظية البلاغية**، ويشير مفهوم المفارقة إلى الأسلوب البلاغي، الذي يكون فيه المعنى الخفي في تضاد حارّ مع المعنى الظاهري. وقد يأتي في توظيف المفردات اللغة البلاغية. وفيما يلي نموذج لها: *"يقول المروزيّ للزائر إذا أتاه: (..) تغديت اليوم؟ وإن قال: نعم. قال: لو لا أنك تغديتَ لغدّيتُكَ بغداء طيّب، وإن قال: لا. قال: لو كنتَ تغدّيت لسقيتُك خمسة أقداح. فلا يسير ... "*[6].

المفارقة التركيبية، ما ينطوي على تناقض ظاهر في التركيب، وفيما يلي نموذج لها: *"أصبح ثمامة شديد الغمّ حين احترقت داره. وكان كلّما دخل عليه إنسان قال: الحريق سريع الخلف. فلما كثر ذلك القول منهم، قال: فاستحرق الله. اللهم إني أستحرقُك فأحرق كل شيء لنا"*[7].
والمفارقة **السياقية** أو **الحدث**، التي تتطلب خفاء وعمقاً في البحث عن طرفي المفارقة، وتتعلق بعناصر البناء القصّة، كالحدث والشخصية والزمان والمكان. وفيما يلي نموذج لها على سبيل المثال: *"إنّ رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحجّ ويتّجر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه (..). فعرضت لذلك العراقيّ بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية، (..)، فلمّا قدم، .. وجده قاعداً في أصحابه، أكبّ عليه وعانقه، فلم يره أثبته، .. فنزع عمامته ... وقلنسوته. وعلم المروزيُّ أنه لم يبقَ شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، فقال: لو خرجتَ من جلدك لم أعرفك"*[8].
وهذه أمثلة المفارقة السياقية في القصص ودورها الواضح في قصص البخلاء، وهي محاولة تأكيد الأسلوب الفني للجاحظ. ويستخدمها بالألفاظ حيناً وبالتركيب حيناً آخر، وبعض الأحيان

---

[1]- أي: المشاورة تمكن الإنسان في التفكير بعمق في الأمور.
[2]- البخلاء، ص٣٢.
[3]- الواحد رمى.
[4]- البخلاء، ص١٠٩.
[5]- أنظر المفارقة، د. نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، المجلد السابع، العدد ٤٣، القاهرة، ابريل – ستمبر ١٩٨٧م، ص١٣٢.
[6]- البخلاء، ص١٧.
[7]- المصدر نفسه، ص٢٨.
[8]- المصدر نفسه، ص٢٢.

يبرزها بعناصر القصّة الأخرى، فالشيخ المروزي يدهش الضيف بكلمات "لو لا .. لغذيت أو لسقيت"، وثمامة يضعج بتكرار الخُلف فيدعو، "استحرق الله"، ورجل مروزي يثبت بردّ الفعل أنه لم يعرف العراقي- الصديق القديم.

٣. السرد في الإمتاع والمؤانسة

وجدتُ في كتاب الإمتاع والمؤانسة سبع وثمانين ومائة قصّةً (١٨٧). ولتحليل السرد لهذه القصص تستخدم طريقة الجداول وتأتي بالتسلسل، وتتابع جداول البخلاء في القائمات إلا زدتُ فيها رقم الليلة في القائمة الأخيرة. وقسمت هذه القصص في الجداول التسلسلي حسب التالي:

جدول ٣,٢,١: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، خمس عشرة قصّةً (١٥)، وجدول ٣,٢,٢: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، عشرين قصّةً (٢٠)، وجدول ٣,٢,٣: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، عشرين قصّةً (٢٠)، وجدول ٣,٢,٤: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، عشرين قصّةً (٢٠)، وجدول ٣,٢,٥: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، سبع عشرة قصّةً (١٧)، وجدول ٣,٢,٦: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، وجدول ٣,٢,٧: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، عشرون قصّةً (٢٠)، وجدول ٣,٢,٨: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، عشرون قصّةً (٢٠)، وجدول ٣,٢,٩: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، عشرون قصّةً (٢٠)، وجدول ٣,٢,١٠: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة، خمس عشرة قصّةً (١٥).

هذه الدراسة، هي محاولة التشريح لبنوية القصص الواردة في الإمتاع والمؤانسة، الذي هو كتاب المسامرات. وبحثت القصص التي كانت مبعثرة بين النصوص، وقصصه كلها كانت بدون العناوين (لأن؛ أخذتها من بطون النصوص والمسامرات)، فجمعتها واخترت لكلّ قصّة **عنواناً** التي كانت مطابقة لمقتضى الحال.

ثمّ قسمت القصص من حيث **السرد**. فالقصص يغلب عليها السرد الذاتي، ويستخدم ضمير المتكلم، هي سبع وثلاثون قصّةً (٣٧)، حيث لجأ الكاتب إلى السرد الموضوعي عن طريق استخدام ضمير الغائب في نطاق واسع من المتن الحكائي هي مائة وخمسون قصّةً (١٥٠)، من سبع وثمانين ومائة قصّةٍ (١٨٧).

وفي قائمة "**شخصية رئيسية**" وجدت شخصيات مختلفة ومتنوّعة. من حيث الجنس وجدت شخصيات إنسانية، ومنهم رجال ونساء، وكذلك من جنس ثالث – مخنّث - ، وإنسان عاقل وجاهل، وكذلك المجانين، والصبيان، منها القينة، والجواري والغلمان، ومنها سالم وأعشى

وأعمى، ورجل متحيّر، والشعبي واللدولي، والأعرابي والطفيلي، والأحمق، والزوج والأخ، والابنة، والأمّ ، والبقال، والورّاق والجماز، وشاطر، فيها بعض الشخصيات التي كانت حيّة في العصر التوحيدي، حين يقص قصصها، وبعضها ماتت قبل قليل، منها ابن بقيّة، وعضد الدولة، وطاهر بن الحسين، وعزّ الدولة، وأسود الزّبد، وابن سيرين، وشخصيات العصر الأموي، منها عمر بن عبد العزيز، والحجاج، وابن خالد بن وليد، و فريعة، وسليمان بن عبد الملك، وبثينة جميل، وعبد الملك بن مروان. وفي العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين، شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر بن خطاب، وعلي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، وخالد بن سعيد بن العاص، وصهيب، ومعاوية، وسعد بن أبي وقاص، وحسن وحاطب بن أبي بلتة وعائشة رضى الله عنهم أجمعين، وغيرهم. وفيها شخصية إبراهيم وسليمان عليهما السلام. وبعض ملوك العصر القديم منها، كسرى أنوشروان، والإسكندر، والنجاشي، ورستم. اشتملت هذه القصص بعض شخصيات حيوانية، مثل جمل، وناقة الرسول صلى الله عليه وسلم العضباء، وأفلاء، والضفادع والبغل، والمكاء والكراكيّ وغيرها.

التوحيدي قد خرج عن المألوف وهي **الموضوعات** الغالبة في عصره، وسأذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر: الخير والشرّ في الحكام. وعود المنجّم. قصة إبراهيم عليه السلام بما خيّره الله. طريقة نادرة لأداء القرض. عقيدة اليهودي والمجوسي. السماء يبخل ويجود بقدر الملوك. قلّة العيش والضنك في الجاهلية.

وقصّة زواج أمّ حبيبة رضى الله عنها. والحياء والحفيظة في الأنصار. والطعام أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتسامح ابن المقدم. أخي فلان أحوج إليها. تقسيم الغنائم. حفاظة بيت المال. إكرام أهل البيت. عرف المقوقس أنه نبيّ الله. كانت رجُلة العرب. الخلاف بين علي وعباس رضى الله عنهما. كتاب اللّين وجواب الجاهل. سنّة النبي صلى الله عليه وسلم أو آنين العجم. الحالة السيئة للرعاية. حر ب الأنانية. ثمانة ثابت لأهل الشام. قصص المفاخرة في العصر الأموي. لا تسبّوا الأموات. سبّ في النسب. سبّ الحجاج في مجلسه. التعصب بين فضلي ومرعوشي في بغداد. الاعتماد على الذات. سألت قدحاً وأعطاها راوية. حديث الذكور والإناث. ربّ ملوم لا ذنب له. زيادة العمر يؤثر في المرء وزوجه على العكس. جرأة المرأة.

ومن عجائب **الحيوانات**: الجمل والإفلاء يحافظان حرمة الأمّ. أمومة المكاء. الكراكيّ افتشت سرّ قاتل الشاعر. يرابيع في السفود.

وموضوعات **تفنّن في الفكاهة والسخرية والتهكم** على سبيل المثال: أجرة بنّاء الحائط. عضد الدولة تحت الأرض وعدوه فوق الأرض. التسهيل على النّاس. جودة التشبيه المخنّث. مائدة البرمكي يحضر كرام الكاتبين. تشخيص البول لإيفاء العهد. دواء البرسم. وأعدّوا لهم ما استطعتم. حبّك هذا ما تجاوز المعدة. الأعمى والرّغيف الصحيح. الصائم الذي ينسى كل مرّة. كم اثنين في اثنين، أربعةُ أرغفة. قِدر أم قبر؟. أكل الجواذب. أراد الديكة فوجه إليه سبع شياه. الجنّة ميراث العرب أم العجم.

والتوحيدي يذكر في بعض القصص ويتلذذ الوزير **بجواب حاضر، مثل**: الأعرابي في مجلس الأخفش. يريد أن تصلب الأمة في مصلحته. ويذكر الرجل عن الميثاق على العلماء أن يعلّموا. والسائل يدخل **(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (٣٧))**[1] لكن بعد جواب حاضر **(يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ (٥٧))**[2]. عمّه أبو لهب، وعمّته حمّالة الحطب. وفاء معن. المجانان يحاجان على ربّهم. جنّة النصارى. من يناظران في وصف الباري. بئس البيت الحمام.

والمبنى الحكائي معيّن في ستّ وستين قصّة (٦٦)، وغير معيّن في إحدى وعشرين ومائة قصّة (١٢١). وهو بيت ، وجسر، وباب الطاق، ونخلتين، وصحراء، وحمّام، وبئر، وأودية، ونهر، ومجلس وجوه الكتاب، وماندة، وصعومة، ومسجد، وكهف، البادية، ووليمة، وخوان، ومعسكر وغيره.

والمكان المعروف: البصرة، والكرخ، الأبلّة، ظلّ الكعبة، المدينة، الحبشة، رهط ذي الرّمة، مجلس الأخفش، بغداد، دِجلة، وقباء، وأصفهان، وتهامة، وحلقة الحسن، وبيت ابن سيرين، أرض أردبيل، وطريق مكة، نيسا بور، وجامع البصرة، وهمذان، والكوفة، ومسجد ابن رغبان، وبيت التوحيدي، والشام، وبين مكة والمدينة، ومجلس نمير. **ومن الزمان:** الدهر السالف، يوم صفّين، ويوم الرّحيل، وغدوات الصّيف، والرّبيع، وليلة.

وقسّمت القصص من حيث الحجم والهيكل في الأخير، ووجدتها: (ا) القصص من حيث المتن القصيرة، من اثنين إلى أربع أسطر، أربعة وثمانون قصّة (٨٤)، و(ب) القصص من حيث المتن المتوسطة، من خمسة إلى سبعة أسطر، ثلاثة وخمسون قصّة (٥٣)، و(ج) القصص من حيث المتن الطويلة، من ثمانية إلى خمسة عشر سطراً، اثنتان وثلاثون قصّة (٣٢)، و(د) القصص من حيث المتن الطويلة جدّاً، أكثر من خمسة عشر سطراً، ثمانية عشر قصّة (١٨)، وهيكل قصص الإمتاع والمؤانسة وحجمها يدلان على تنوع الكاتب من حيث بناء القصة.

---

[1]- سورة إبراهيم

[2]- سورة القصص.

جدول ٣,٢,١: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج١-٢،الليالي ١-١٨)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد /سطر
١ عمر بن عبد العزيز وتحفّظه على بيت المال	ذاتي	أمير المؤمنين	اشترى المحادثة للمسلمين	غير معيّن	٦/١/١/٢٦
٢ (م) جحظة وبنّاء الحائط	موضوعي	جحظة	أجرة الحائط	بيت جحظة	٧/١/١/٢٨
٣ عضدالدولة وعدوّه	ذاتي	ابن بقيّة	عجب الدنيا	الجسر	٧/٢/٣/٤١
٤ (م) التسهيل على النّاس	موضوعي	المهدي	علام يبايع؟	غير معيّن	٥/١/٥/٧٠
٥ أنوشروان ورقعة الوزير	ذاتي	وزيره	فرحة عاجلة؟	غير معيّن	٥/١/١٧/٢٤
٦ نزل الوزير بباب الطّاق	ذاتي	الوزير	سوء الحالة الرعية	باب الطّاق	١١/١/١٧/٢٦
٧ قصّة السباق	موضوعي	أسامة بن زيد	سبق أسامة	النخلتين	١١/١/١٧/٣٠
٨ الحمل يستر الأم	موضوعي	الجمل	إكرام الحمل للمحارم	الدهر السالف	٣/١/١٧/٣١
٩ أفلاء أهلكه في الأودية	موضوعي	أفلاء (مهر)	يكره أن تحمل أمها	غير معيّن	٣/١/١٧/٣١
١٠ الإسكندر وسوء الثناء عليه	موضوعي	الإسكندر	فينا خير أو شرّ	غيرمعيّن	٤/١/١٧/٣٧
١١ ليطماثاوس وسوء القول	موضوعي	لطيماثاوس	سوء القول	غيرمعيّن	٣/١/١٧/٣٧
١٢ أمل الغني عند الفقير نزل العقر	موضوعي	زيموس	وعود المنجّم للغنى	عير معيّن	١٨/٢/١٧/٣٧
١٣ محمد بن الحسن الجرجاني وقيّم الحمّام	موضوعي	محمد بن الحسن	صنع القيّم الجرجاني	الحمّام	٨/١/١٨/٥٢
١٤ وقعت الحفرة في الدارجة	موضوعي	مخنّث	يعشق بعض المهالبة	البصرة	٨/٢/١٨/٥٢
١٥ متمتمة وجودة تشبيهه	ذاتي	مشمشة	جودة تشبيه المخنّث	غير معيّن	٥/١/١٨/٥٤

جدول ٣,٢,٢: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٢،الليالي ١٨-١٩)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد /سطر
١٦ أخذ المصحف ووضع الطنبور	ذاتي	بدون اسم معيّن	جودة التشبيه لصاحب الكناسة	البتر	٤/١/١٨/٥٤
١٧ الولد للفراش وللعاهر الحجر	موضوعي	رجل	الولد وأمّه على فراشك	عند القاضي	٦/٢/١٨/٥٤
١٨ قد ماتت الضفادع	موضوعي	شاطر	يظهر الخبث بالتلميح	النهر	٣/١/١٨/٥٥
١٩ الجارية تبخّرت	موضوعي	الجارية	تبخّر وتمرس	غير معيّن	٤/١/١٨/٥٥
٢٠ قصة الرجل عشق الجارية	موضوعي	الرجل	مراحل العشق دون النكاح	غير معيّن	٤/١/١٨/٥٥
٢١ الأعرابي والعشق في البادية	ذاتي	أعرابي	فرق بين العشق وطلب الولد	غير معيّن	٤/١/١٨/٥٦
٢٢ أهكذا أدوك يغنّيك؟	ذاتي	قينة	قينة حاضرة النادرة	مجلس وجوه الكتاب	٥/١/١٨/٥٦
٢٣ أقفال الأسماء	موضوعي	أعرابيّ	أسمائهم أقفال	غير معيّن	٣/١/١٨/٥٧
٢٤ أصحاب النذور	ذاتي	جحا	نذر أن أخذ منك	غير معيّن	٢/١/١٨/٥٧
٢٥ يا متسوق نعلك رائعة	ذاتي	المحدّث	المحدّث ينتقم	عير معيّن	٨/٢/١٨/٥٧
٢٦ يحصر الكرام الكاتبون	موضوعي	الجمّاز	مائدة البرمكي	مائدة يحيى	٤/١/١٨/٥٨
٢٧ نضلة والسَقْفاء	ذاتي	نضلة	توضأ وهرب من السَقْفاء	الكرح	٣//١٨/٥٨
٢٨ هدية الدغل وتشخيص الدول	موضوعي	بعض أخ	تشخيص الدول، لإيفاء العهد	غير معيّن	٣/١/١٨/٥٨
٢٩ م ابن عبّاس وتعديل النفس	موضوعي	ابن عبّاس	بالخوض يمحوا كلال الحدّ	مجلسه	٤/١/١٨/٦٠
٣٠ معاوية أم القسب[1] الأصفر	موضوعي	رجل من بني تغلب	لمن أترثم في الصفّين	يوم صفّين	٣/١/١٩/٦٣
٣١ العار خير من النّار	موضوعي	حسن بن علي(ض)	عار في الصلح	غير معيّن	٢/١/١٩/٦٤
٣٢ غصّ بعظمٍ على مائدة الحجاج	موضوعي	الحجاج	العظام في الطعام	مائدة الحجاج	٥/١/١٩/٦٤
٣٣ فتح الأبلّة وقدر نحاس	ذاتي	سلمة بن المحبّق	تقسيم الغنائم لفتح الأبلّة	الأبلة	٥/١/١٩/٦٤
٣٤ اذهبوا أنتم أحرار	موضوعي	عبد الرحمن بن مدين	حرّر سبعين مملوكاً مع المال	يوم الرّحيل	٤/٢/١٩/٦٤
٣٥ بلعت مبلغ النّساء	موضوعي	ابن أسيد القاضي	توصية بحضرة الأم	عير معيّن	٢/١/١٩/٦٥

[1]- القسب: التمر اليابس

جدول ٣,٢,٣: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٢،الليالي ١٩-٢٤)

عنوان القصة	السرد	شخصية رئيسية	الموضوع	المدى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/ سطر
٣٦ ليس دواءٌ إلا الموت	موضوعي	صاحب المظالم	دواء البرسم	البصرة	٣/١/١٩/٦٥
٣٧ الدرّاج يسهّل البيع	موضوعي	غير معيّن	يأخذ من البائع ليبيع	غير معيّن	٣/١/١٩/٦٥
٣٨ ألف رِطلٍ خراء[1]	موضوعي	حجاج بن هارون	يقبّل رأسه	غير معيّن	٣/٢/١٩/٦٥
٣٩ كُل فإنها أمُ القِرى	موضوعي	ابن الحسحاس	إكرام بسكباجة	غير معيّن	١/١/١٩/٦٦
٤٠ ابنة البظراء	موضوعي	ابن الحسحاس	الموت لكل إنسان	غير معيّن	٢/١/١٩/٦٦
٤١ كيف أنتَ الساعة؟	موضوعي	يعقوب بن الليثي	حاضر الجواب	غير معيّن	٣/١/١٩/٦٦
٤٢ الشيطان لا تقيل	موضوعي	رجل من قريش	لا تنم في وقف الحوائج	عداة	٦/١/١٩/٦٦
٤٣ تنسّم هذه الأرواح	موضوعي	أعرابية	أيقظت أولاداً صغار	في الربيع	٣/١/١٩/٦٧
٤٤ مالك بن عُمارة اللّحمي وعبد الملك بن مروان	ذاتي	مالك بن عُمارة	سكن مالك في بيت مروان	ظلّ الكعبة والقصر	٣٧/٣/٢٠/٧٠
٤٥ عطيّة عمر بن عبدالعزيز إلى فاطمة بن الحسين	ذاتي	عمر بن عبد العزيز	اكرام أهل البيت	المدينة	١٨/١/٢٠/٧٢
٤٦ النبي(ص) يكتر الدطر إلى ابن المحرومية	موضوعي	خالد بن سعيد بن العاص	رواج أمّ حبيبة وقدومها إلى مدينة	الحبشة	١٢/١/٢٠/٧٤
٤٧ الدنيا تزول من قوم إلى قوم	ذاتي	علي بن أبي طالب	حلاف بين علي وعباس رضي الله عنهما	غير معيّن	١٥/١/٢٠/٧٥
٤٨ الربيع وضربه على التشميت	موضوعي	الربيع	سنة النبي أو آيين العجم	غير معيّن	٧/١/٢٠/٧٦
٤٩ النجاشي وألف دينار في التابوت	موضوعي	رجل	طريقة نادرة لأداء القرض	غير معيّن	٩/٢/٢٠/٩٦
٥٠ جريج ودعاء أمّه	موضوعي	جريج	عن جزاء المعصية الأمّ	صعومة	١٢/٢/٢٣/٩٧
٥١ أبو موسى وكاتب نصراني	موضوعي	عمر رضي الله عنه	ألا تكرموا النصرانيين	المسجد	٥/٢/٢٣/٩٨
٥٢ رجلان يختصمان في مواريث	موضوعي	رجلان	توخّيا الحقّ واصطلحا	غير معيّن	٨/١/٢٣/٩٩
٥٣ قصّة مكاء وأمومتها	موضوعي	مكاء	قتلت الأم الحيّة	رهط ذي الرّمة	٤/٢/٢٤/١٠٤
٥٤ لا تلومين إلا حالقها	ذاتي	شقيق	عمّا سحطت الأمّ	غير معيّن	٣/١/٢٤/١٢١
٥٥ بعد الحلو مرّاً	موضوعي	عبد حبشي	أكل الغلام مرّاً	غير معيّن	٤/١/٢٤/١٢١

[1]- خراء ما يقذف الإنسان من جوف بطنه.

جدول ٣,٢,٤: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٢،الليالي ٢٤-٣١)

عنوان القصة	السرد	شخصية رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/سطر
٥٦ تحرك الحجر من باب الكهف	موضوعي	ثلاثة شباب	ما عملوا في الرخاء أصبحت فرجاتهم	كهف	١٨/٢/٢٤/١٢٤
٥٧ قصة الورّاق ويديه	موضوعي	ورّاق	اعتمد على ذاته	غير معيّن	٣/١/٢٤/١٢٨
٥٨ شتم الرجل لأبي ذر	موضوعي	رجل	إن نجوتُ منها لايضُرُّني	غير معيّن	٣/١/٢٤/١٢٨
٥٩ أبو هريرة وشاتمه	موضوعي	أبو هريرة	ما شمت من كان يشمت	غير معيّن	٣/١/٢٤/١٢٩
٦٠ وعد الشفاعه بعد التكفير	موضوعي	ابن مكدّم رضي الله عنه	التسامح ابن المقدّم رضي الله عنه	غير معيّن	٥/١/٢٤/١٢٩
٦١ الحسن وجاره النصراني	موضوعي	جارٌ النصراني	يتعلّب منه الدول في بيته	كنيف	٦/١/٢٤/١٢٩
٦٢ جارية المنصور وعفوه	موضوعي	جارية منصور	هراقتها بمرقة عليه	غير معيّن	٥/١ /٢٤/١٢٩
٦٣ موت ابن للرشيد وجزعه	موضوعي	محنّث	تنرّد الرشيد مخنّث	غير معيّن	٥/١/٢٤/١٣٠
٦٤ قصة الأعرابيّ في مجلس الأحنف	موضوعي	أعرابي	رأي الأعرابي	مجلس الأحنف	٣/١/٢٥/١٣٩
٦٥ قصة كنتس والكراكيّ	موضوعي	الكراكيّ	الكراكيّ أفشت سرّ	عير معيّن	٢٠/٢/٢٧/١٥٣
٦٦ طريف في أمر الإتفاق	ذاتي	أح صغير	ما قال عبثاً وحد في الحقيقة	غير معيّن	٨/١/٢٧/١٥٥
٦٧ قصة الدقيق والحراق	ذاتي	التوحيدي	حسن الإتفاق، سلموا من الأعداء	البادية	٢٨/٣/٢٧/١٥٥
٦٨ عقيدة اليهودي والمجوسي على مذهبهم	موضوعي	المجوسي	العقيدة يشأ ويرسخ في المعتقدين	غير معيّن	٥٣/٤/٢٧/١٥٧
٦٩ عقد هشام لسعيد بن عمرو	موضوعي	هشام	يقين بالفتح	غير معيّن	٤/٢/٢٨/١٦٣
٧٠ هذا حيّة وأبوه نكّار	موضوعي	عمررضي الله عنه	كره عمر(ص) لبعض الأسماء	غير معيّن	٢//٢٨/١٦٤
٧١ رمي الجمار وصلعة عمررضي الله عنه	موضوعي	رجل	أمر الإتفاق أو علم العيافة	عير معيّن	١١/١/٢٨/١٦٤
٧٢ حرب طاهر بن حسين	موضوعي	علي بن عيسى	حرب للأنانية	بغداد	١٠/٢/٣١/٢٠١
٧٣ رسالة محنون إلى محنون	موضوعي	محنون مجهول	وأعدّو لهم مااستطعتم من قوّة	بجلة	٧/٢/٣١/٢٠٣
٧٤ قدر السؤال وقدر العطاء	موضوعي	الليث بن سعد	سخاء الليث بن سعد	غير معيّن	٣/١/٣١/٤
٧٥ الشاة تداول على تسعة أبيات	موضوعي	رجال	ويؤثرون على أنفسهم	غير معيّن	٤/١/٣١/٥

جدول ٣,٢,٥: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٣،الليلة ٣١-٣٢)

عنوان القصة	السرد	شخصية رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/ سطر
٧٦ حسن المنظر أم الطعام	ذاتي	أبو حليفة المنخنل	أدب في الطعام	وليمة	٤/١/٣١/٧
٧٧ حبّك هذا ما تجاوز المعدة	موضوعي	جارية رومية	حبّ القلب أم المعدة	غير معيّن	١٢/٢/٣١/٨
٧٨ لم يعاب الطعام قط	موضوعي	أم أيوب	أحبّ إلي رسول الله	غير معيّن	٧/٢/٣١/٩
٧٩ أحاءت قصعة أسعد؟	موضوعي	رسول الله (ص)	يعجب هريسة	ليلة	٣/١/٣١/١٠
٨٠ أكل بشق عيني الصحيحة	موضوعي	صهيب (ص)	يأكل الرطب وهو رمل	قباء	٧/١/٣١/١٠
٨١ فرق الإبنة والابن على المائدة	ذاتي	ابنة	ابنة خصّت أكلة نفيسة للوالد، والابن له.	المائدة	٥/٢/٣١/١٤
٨٢ قصة بعير تحول بحتياً	موضوعي	أعرابي	أكل علف الأمير فتيبّت	غير معيّن	٣/١/٣١/١٥
٨٣ أصاب بالأحول العين	موضوعي	سالم	لقع الأحول العين اصاب في جسمه برصاً	غير معيّن	٥/١/٣١/١٥
٨٤ دقيق في معسكر عكرمة	موضوعي	عكرمة	كيف وجدوا الدقيق في المعسكر	معسكر	١٠/٢/٣١/١٨
٨٥ الأعمى والرعيف الصحيح	موضوعي	أعمى	ما ناوله أحد رغيفاً صحيحاً	أصفهان	٥/١/٣٢/٢٨
٨٦ مطبخ سليمان (عليه السلام) "مسكين"	موضوعي	سليمانعليه السلام	يطعم الناس كثيراً ويقول بنفسه مسكين	تهامة	٧/٢/٣٢/٢٩
٨٧ الشعبي على حوان قتيبة	ذاتي	الشعبي	أكرمه بالماء	حوان قتيبة	٢/١/٣٢/٣٢
٨٨ قصة السائل حسه أبو الأسود	موضوعي	أبو الأسود	سأل مسكين بعد الطعام فحسه	غير معيّن	٦/١/٣٢/٣٣
٨٩ سؤال الأعرابي في حلقة الحسن البصري[1]	موضوعي	أعرابي	سؤال واسع ما بقي أحد	حلقة الحسن	٣/١/٣٢/٣٥
٩٠ انشق البطن وماتت	موضوعي	أحمق	تشرب الماء حتى انشقت بطنها وماتت	غير معين	٣//٣٢/٣٥
٩١ أحلام أعرابيّ، لو كان خليعة	موضوعي	أعرابيّ	أمر الطهاة . فأكل	عير معيّن	٤/١/٣٢/٣٥
٩٢ باعك الله في الأعراب	موضوعي	أعرابيّ	الأعراب يعري جلده . ويحيع كنده	عير معيّن	٢/١/٣٢/٣٦

[1]- أبو سعيد، الحسن بن أبي الحسن، من أهم الشخصيات الإسلامية في القرن الأوّل، وأبعدها أثراً في نواحي الحياة المختلفة. هو عراقي الأصل، في عهد أمير المؤمنين وقع أبوه في أسر، وفي بيت أمّ سلمة زوج الرسول ولد الحسن، ونشأ وترعرع ويتكلم لغتها وخرج إلى العراق، ثم إلى البصرة، وكان يجلس إلى ابن عباس في مجلسه بالمسجد. (ت. طه الحاجري، ص٢٧٢)

جدول ٣,٢,٦: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٣،الليلة ٣٢-٣٣)

عنوان القصة	السرد	شخصية رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/سطر
٩٣ الطفيلي[1] على المائدة	موضوعي	الطفيليّ	لا ترد في الجواب على نعم	غير معيّن	٢/١/٣٢/٣٦
٩٤ عثمان بن رواح ورفيقه	موضوعي	رفيق له	استحى من كثرة الخلاف	السفر	٦/١/٣٢/٤٠
٩٥ قولي إنّه نائم	ذاتي	ابن سيرين	أحرجه الخبيص	بيت ابن سيرين	٢/١/٣٢/٤٠
٩٦ كيف الخبز والمبزّر؟	موضوعي	الرّحل	يكفي له الأكل، ويسلح إلى الصباح	أرض أردبيل	٣/١/٣٢/٤٥
٩٧ كلّما اعتدت الصيام	موضوعي	رجل	الصائم لكن ينسى كل مرّة	غير معيّن	٤/١/٣٢/٤٦
٩٨ أنا عبد الله ورسوله	موضوعي	أبو مطرّف	لا يقتعزنّكم الشيطان	غير معيّن	٤/٢/٣٢/٤٦
٩٩ قصّة جارية لقمان	موضوعي	جارية	عرفت الجارية سيدهم بأطوارهم	غير معيّن	/٢/٣٢/٤٩ ١٩
١٠٠ عدوّ الخبز	موضوعي	زوج	غضب الزوج على بشارة ابنه قد اثّغر	غير معيّن	٢/١/٣٢/٥٠
١٠١ الأعداد عند طفيل العرائس	موضوعي	طفيل العرائس	اثنين في اثنين، أربعة أربعة	غير معيّن	٢/١/٣٢/٥٦
١٠٢ لمّ لا تطل الهجاء؟	موضوعي	عقيل بن علفة	ما أحاط بالعنق	غير معيّن	٥/٢/٣٢/٥٨
١٠٣ تعوذ بالله من الإشهاب	موضوعي	ابن عمر	لو دعوت الله بدعوات	غير معين	٢/١/٣٢/٥٩
١٠٤ جهد وضنك في الجاهلية	ذاتي	عمّ عيلان	قلة العيش والضعك	غير معيّن	٢٦/٢/٣٣/٦٧
١٠٥ قدرٌ أم قدر؟	موضوعي	أبو العيناء	قدراً كثيرة العظام	غير معيّن	٣/١/٣٣/٦٩
١٠٦ شربات الباردة ثم الحارّة	موضوعي	أبو العيناء	عند الطلب سقاه شربة حارة	غير معيّن	٢/١/٣٣/٦٩
١٠٧ قصّة يربوع في الطعام	موضوعي	أبو القمقام	يرابيع في السمّود	بغداد	٣/١/٣٣/٦٩
١٠٨ جارية بحراء، أكلت خردلاً	موضوعي	بحراء	ما ذا تأكل الجارية	غير معيّن	٣/١/٣٣/٧١
١٠٩ الهريسة أفضل أم الحواذق	موضوعي	ابن مقلة	الهريسة طعام السوقيين، والحوذاب	المائدة	٧/١/٣٣/٧٥
١١٠ ترابيين المائدة والأدم	موضوعي	أبو عمر الشاري	لايعدّ الطعام إلا الأدم	المائدة	٤/١/٣٣/٧٦
١١١ أكل الحواذق	موضوعي	عبد الله بن علي	فواذ الحوذاب	غير معيّن	٤/١/٣٣/٧٦
١١٢ حت الحوذاب على أيّ قيمة	موضوعي	يحيى بن أكثم	إن عاب الجوذاب توقفتُ عن شهادته	غير معيّن	٥/١/٣٣/٧٦

[1]- طفيل العرائس، وهو من غطفان، ويقال إنه من موالي عثمان بن عفان (ص) وكان يتبع الأعراس، وهو أول من فعل ذلك، وإليه ينسب الطفيليون (تحقيق طه الحاجري، ص٣٤٨.)

جدول ٣,٢,٧: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٣،الليالي ٣٣-٣٤)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/ سطر
١١٣ الجارية تأكل المنطّ	ذاتي	الجارية	ناعمة الدنن،المبطّن حقّ لك	غير معيّن	٤/١/٣٣/٧٧
١١٤ عوّاصة الصوفي والزّنّادتين	ذاتي	ابن الحصاص	ورود ابن الجصاص	المائدة	٦/١/٣٣/٧٧
١١٥ عمر ورجل جائعاً	موضوعي	عمررضي الله عنه	أنتَ تنتُ نتُ الحميت	غير معيّن	٢/١/٣٣/٧٧
١١٦ قصّة إبراهيم بما حيره الله	موضوعي	إبراهيم الخليل	تعشّى مع الضيف	غير معيّن	٣/١/٣٣/٧٨
١١٧ قصّة مزنّد[1] وأضحية الديكة	موضوعي	مربّد	أراد الديكة، فوجد سبع شياه	غير معين	٣/١/٣٣/٧٨
١١٨ مائة رغيف بكليجة	موصوعي	مسيرة الرأس	يأكل رغيفين فقط	غير معيّن	٣/١/٣٣/٧٩
١١٩ الفضل بن العباس والتحيّات	موضوعي	الفضل	يأكل الصلوات والطيبات	غير معيّن	٣/١/٣٣/٧٩
١٢٠ رقة الغناء والطعام	ذاتي	إسحاق	الرقيق من الغناء	بيت أحمد بن يوسف	١٤/١/٣٣/٨٠
١٢١ الحجّاج والأعرابي الصائم	موضوعي	أعرابيّ	لم يفطر	طريق مكة	١٠/٢/٣٣/٨٠
١٢٢ لعب الشطرنج بالشّاه	موضوعي	رجل	يأكل كأنه يلعب	غير معيّن	٣/١/٣٣/٨١
١٢٣ المحسّن الضبي وتسع بنات	موضوعي	المحسّن	وهنّ أكل منه	غير معيّن	٤/١/٣٣/٨١
١٢٤ الأعرابي وإبله عطشان	موضوعي	الأعرابيّ	الإبل على الماء	غيرمعيّن	٦/١/٣٣/٨٢
١٢٥ خليفة المعتصد ومن السترق السمع	موضوعي	المعتصد	الرعيّة تغضب ظلم لحقه أو جاره	باب الطاق	٤١/٤/٣٤/٨٨
١٢٦ جماعة الغرباء في الفتنة خراسان	ذاتي	جماعة الصوفياء	حالة البائسة في زمن الفتن	نيسابور	٦٨/٦/٣٤/٩١
١٢٧ الأعرابي ومصلحة الأمّة	موضوعي	أعرابيّ	تصلب الأمّة في مصلحته	غير معيّن	٣/١/٣٤/٩٩
١٢٨ حكماء فارس جرّب الملوك	موصوعي	حكماء فارس	السماء يجود ويبخل بقدر الملوك	غير معيّن	٣/١/٣٤/٩٩
١٢٩ قصّة جواب حاضر	ذاتي	رجل	الميثاق على الطعام	غير معيّن	٣/١/٣٤/١٠٠
١٣٠ نوادر غريبة	ذاتي	سائل	يجبى إليه ثمرات	جامع البصره	٦/١/٣٤/١٠٠
١٣١ شمامة لكل مسمومة	موضوعي	أبو الحسين الدنّي	شمامة مشمومة عطرت الأرض بها	غير معيّن	٤/١/٣٤/١٠٠
١٣٢ نصر بن سيّار والأعرابيّ	موضوعي	الأعرابيّ	ليتني حرست بسوّال ها الشيطان	غير معيّن	٣/١/٣٤/١٠١

[1]- أبو إسحاق مزند هو - كأبي الحارث جميز- مدني نشأ في المدينة، ثم انتقل منها إلى العراق، وكان بها في أيام المهدي. ونوادر مزند فقد أورد الكتبي والحصري والثعالبي (تحقيق: طه الحاجري، ص٢٦٢-٣.)

جدول ٣,٢,٨: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٣،الليالي ٣٤-٣٩)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/ سطر
١٣٣ تقديم الإناث	ذاتي	التوحيدي	حديث الذكور والإناث	غير معيّن	٧/١/٣٤/١٠١
١٣٤ رسالة سعد[1] إلى رستم رستم وجوابه	موضوعي	سعد بن أبي وقاص	كتاب ليّناً وجواب جهل	عير معيّن	١٣/١/٣٤/١٠٢
١٣٥ رسالة حذيفة إلى عمر	موضوعي	سعد	أمر عمر ارتدّ إلى الكوفة	غير معيّن	٩/٢/٣٤/١٠٢
١٣٦ كنتُ أرعى الإبل	ذاتي	عمر(ض)	احوال عمر والعرب	غير معيّن	١١/١/٣٤/١٠٣
١٣٧ الرؤيا رستم يأخذ سلاح فارس	موضوعي	رستم	رأي النبيّ (ص) وأيقن أنه هالك	غير معيّن	٢/١/٣٤/١٠٤
١٣٨ قصّة أمير عضد الدولة وابن حرنبار	موضوعي	ابن حرنبار	أغصب الأمير على تأخير لتعميل حكمه	همذان	٣٧/٣/٣٨/١٤٨
١٣٩ عزّ الدولة والعلماء	موضوعي	عزّ الدولة	عضب العلماء والنّاس عن الحكام	الكوفة	٥٦/٤/٣٨/١٥١
١٤٠ قصّة أسود الزّبد والجارية	موضوعي	أسود الزّبد	هي لا تريده فأعتقها	مسجد ابن رغبان	١٩/٢/٣٨/١٦٠
١٤١ قصّة التوحيدي في النّهابة	ذاتي	التوحيدي	في الغارة، اكتسحوا وماتت جاريته	بيت التوحيدي	٥/٢/٣٨/١٦١
١٤٢ إنّ من البيان لسحراً	موضوعي	زبرقان بن بدر	فرق الرأي في حالة الرضا والسخط	عير معيّن	٨/١/٣٩/١٦٣
١٤٣ شماتة ثابت لأهل الشام	موضوعي	ثابت بن عبد الله	من قتل لأبي من؟	شام	٣/١/٣٩/١٦٤
١٤٤ شماتة بسبب الآباء	موضوعي	ثابت بن عبد الله	حلاف بين ثابت ومروان وأسبابه	غير معيّن	٧/١/٣٩/١٦٤
١٤٥ قصّة المفاخرة	موضوعي	ابن خالد بن وليد	مفاخرة بين ابن خالد ومعاوية	غير معيّن	٣/١/٣٩/١٦٥
١٤٦ أكدر بين الجدّ والجدّة	موضوعي	فريعة	أحوال الحدّ والحدّة	غير معيّن	٩/٢/٣٩/١٦٥
١٤٧ قبر أبي سعيد بن العاص وأبوبكر	موضوعي	أبو سعيد	سبّ الأموات، يغضب الأحياء	بين مكة والمدينة	٧/١/٣٩/١٦٦
١٤٨ امرأة من بني نمير	موضوعي	امرأة نميري	لا أطعتم الله ولا الشاعر أن تغضّ	مجلس نمير	٥/٢/٣٩/١٦٧
١٤٩سليمان بن عبد الملك على فراش الموت	موضوعي	سليمان بن عبد الملك	الحجاج بين أبيك وأخيك	غير معيّن	٥/١/٣٩/١٦٨
١٥٠عبد الملك بن مروان وبنيبة	موضوعي	ثينة جميل	رجت منك الأمّة	غير معيّن	٥/١/٣٩/١٦٨
١٥١ رهط من الأنصار ومعاوية	موضوعي	معاوية	ربّ ملوم لا ذنب له	عير معيّن	١٣/٢/٣٩/١٦٨
١٥٢ قيس بن سعد ومعاوية	موضوعي	معاوية	شكوة معاوية إلى أنصار المدينة	عير معيّن	١٣/٢/٣٩/١٦٩

[1]- أحد كبار الصحابة، قرشي، زهري، أحد العشرة المبشرين بالجنة. وهو فاتح العراق، وبطل القادسية، احتط مدينة الكوفة. (ت: طه الحاجري، ص٤١٩.)

جدول ٣,٢,٩: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٣،الليلة ٣٩-٤٠)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/ سطر
١٥٣ عبد الملك بن مروان ورُفَر	موضوعي	رُفَر	خلاف والسب بعض الأمويين والقرشيين	غير معيّن	١٠/٢/٣٩/١٧٠
١٥٤ سليمان وبين أبيه كلام	موضوعي	سليمان	سب في السب حتى لابنه	غير معيّن	٤/١/٣٩/١٧١
١٥٥ لو قصّرتَ قميصك	موضوعي	أبو شاكر بن هشام	أن تدس، فما ينفعك من دَوسه	عير معيّن	٣/١/٣٩/١٧٢
١٥٦ هجم الهجيمي والكلبي	موضوعي	الهجيمي	عن الهجيم والكلب	غير معيّن	٧/٢/٣٩/١٧٣
١٥٧ المرأة تنازع زوجها	موضوعي	زوج	زيادة العمر في المرأة والرجل	غير معيّن	٥/١/٣٩/١٧٤
١٥٨ أعشى طلّق زوجها	موضوعي	أعشى	طلّقها على الرِّدّ	غير معيّن	٦/١/٣٩/١٧٤
١٥٩ قبض كسرى أرصاً لرجل	موضوعي	الرجل	قعد الرجل في الطريق، فأردد عليه أرضه	غير معيّن	١٣/١/٣٩/١٧٥
١٦٠ الجنّة وليس فيها ثنويّاً	ذاتي	ثنويّ	الجنّة ميراث العرب أم العجم	الحلم	٣/١/٣٩/١٧٦
١٦١ ابن هبيرة العرازي يدعو بالدوّة	ذاتي	رجل قريشي	يحلّ الحمر والزنا	غير معيّن	٦/١/٣٩/١٧٦
١٦٢ وكيع وأصحاب معاوية	موضوعي	وكيع	لمن عليه اللعنة؟	غير معيّن	٦/١/٣٩/١٧٨
١٦٣ فرّق عمر بين منظور وامرأته	موضوعي	امرأة منظور	سأل روح عن روجها الحديد	عير معيّن	٣/٢/٣٩/١٧٨
١٦٤ كتاب رسول الله (ص) إلى المقوقس	ذاتي	حاطب بن أبي بلتعة	عرف المقوقس حكمته أنه نبيّ	عير معيّن	١٢/١/٣٩/١٧٩
١٦٥ موعده الحشر	موضوعي	راهل	يُعهده إلى الكورة	عير معيّن	٩/٢/٣٩/١٧٩
١٦٦ الحواب حاصر	موضوعي	عقيل	مقابلة الجاهلية	عير معين	٣/١/٣٩/١٨٠
١٦٧ حواب حميل	موضوعي	معن[1]	وفاء معن	غير معين	٣/١/٣٩/١٨٠
١٦٨ معاوية مع قريش	موضوعي	صفوان	طمع في مال مصر	محلس معاوية	٦/١/٣٩/١٨١
١٦٩الزبير عند عبد الملك	موضوعي	عروة	يسبّ الحجاج	محلس عبد الملك	٥/١/٣٩/١٨٢
١٧٠ حرب الحمل وصفّين	موضوعي	عمر(ض)	أكره أن أعمس لساني	عير معيّن	٣/١/٣٩/١٨٣
١٧١ طلّق أبو الحندف	موضوعي	أبو الخندف	ذنبها خمسين سبة	غير معيّن	٢/١/٣٩/١٨٣
١٧٢ أيما أحبّ إليك	موضوعي	فرردق	ما أريد، بل نكون معاً	غير معيّن	٤/١/٣٩/١٨٥

[1]- شاعر من فحول الشعراء المخضرمين، وقد عاش أكثر حياته في الإسلام، وهو من قبيلة مزينة. دخل الشام وأقام بالنصرة زماناً. (ت طه الحاجري، ص٤٢٢)

جدول ٣,٢,١٠: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (ج٣،الليلة ٣٩-٤٠)

عنوان القصّة	السرد	شخصيّة رئيسية	الموضوع	المبنى الحكائي	صفحة/ليلة/عدد/سطر
١٧٣ قصّة فصاء التعصب	ذاتي	أبو حامد المروروزي	صار جميع بغداد إما مرعوشياً وإما فضليّاً	غير معيّن	٦/١/٤٠/١٨٨
١٧٤قصّة المجان والقاضي	موضوعي	ابن معروف القاضي	التعصب بين فضلي ومرعوشي	غير معين	٨/١/٤٠/١٨٨
١٧٥صف لي أنت ربّك	موضوعي	المجانين	المجانون يحاجون علي ربهم	غير معيّن	٩/١/٤٠/١٨٩
١٧٦ غلام أبتلي بوجع شديد	موضوعي	غلام أعجميّ	الجزع لأن الله ابتلاه	غير معيّن	٩/٢/٤٠/١٨٩
١٧٧يا من خلق السباع	موضوعي	أعجميّ	لا يدري كيف يدعو	غير معيّن	١٠/١/٤٠/١٩٠
١٧٨ قصّة الأدلة المتكافئة	ذاتي	ابن بقال	التميزالحق بالباطل	غير معين	٢٠/٢/٤٠/١٩٠
١٧٩ جنّة النصارى	موضوعي	بعض نصارى	ليس في الجنّة أكل، ولا شرب ولا نكاح	غير معيّن	٣/١/٤٠/١٩٢
١٨٠ قصّة المتكلمين ببغداد	موضوعي	أبو سعيد الحضرمي	وزيّن لهم الباطل	غير معين	١٠/٢/ ٤٠/١٩٢
١٨١ الرجل المتحيربسجستان	موصوعي	رجل متحيّر	ليس عنده دليل لصحة دينه ولا حجة	غير معيّن	٢٨/٣/٤٠/١٩٣
١٨٢ مناظرة في الإمامة	موضوعي	ابن بقال	صفات مخالفة	غير معين	١٨/١/٤٠/١٩٥
١٨٣ نهانا أن نعبد إلهين	موصوعي	رجل	نهانا عمّا يُعقل وأمرنا بما لا يُعقل	غير معيّن	٦/١/٤٠/١٩٦
١٨٤ تناظران في وصف الباري	موصوعي	أعرابيّ	تقولان على الله ما لم تعلما	غير معيّن	٦/١/٤٠/١٩٦
١٨٥ نفس البيت الحمّام	موضوعي	قائل	هي أولي بالحمام	غير معيّن	٦/٢/٤٠/١٩٦
١٨٦ كانت زَحْلَة العرب	موضوعي	عائشة (ص)	مناقب عائشة (ض)	غير معيّن	٢٢/٢/٤٠/١٩٩
١٨٧ حراسان بلا عامل	موضوعي	امرأة	حراة المرأة	غير معين	٦/٢/٤٠/٢٠٠

٣,١. تقنيات السرد

تميزت القصّة بتقنياتها السردية المختلفة وفيما يلي تفصيل قصص الإمتاع والمؤانسة.

ا. **السرد البسيط:** وأمثاله: راوٍ مفرد بضمير المتكلم: "كنتُ قائما عشية على زنبرية الجسر... [١]".

راوٍ مفرد بضمير الغائب: "كان محمّد بنُ الحسن الجرجاني متقعّراً في كلامه، فدخل الحمّام يوماً ... [٢]".

راوٍ مفرد بضمير المخاطب: "وقلتُ لأعرابيّ: هل تعرفون العشق بالبادية؟ قال: نعم، ... [٣]".

ب. **السرد المركب:** ومثاله: "وحكى لنا في عرض هذا الكلام (..) أنّ طائفة من النّاس يجتمعون بباب الطاق ... [٤]". و"قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلنا: يا رسول الله، أنت سيّدنا، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجَفنةُ الغَرّاء. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : **فَقَالَ : (يَأَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَفِزَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)**[٥].

ج. **السرد بمقدمات استهلالية:** بعض الأحيان يبدأ التوحيدي القصّة من مقدمة استهلالية كقوله: "فمن الغريب ما جرى أنّ أسود الزُّبدِ كان عبداً... [٦]".

د. **السرد التوثيقي:** وهذه التقنية يلجأ فيها الكاتب إلى تضمين بعض المعلومات أو الأحداث الحقيقية، التاريخية أو الحالية، المنشورة في الصحف والكتب والمراجع، ومثاله: "*كان في بني إسرائيل ثلاثة خرجوا في وجه، فأخذهم المطر فدخلوا كهفاً، فوقع حجرٌ عظيم على باب الكهف، وبقوا في الظلمة، وقالوا: (..) فتحرّك الحجرُ وسقط عن باب الكهف وخرجوا منه يمشون*"[٧].

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، ح ١، ص٤١.
[٢]- المصدر نفسه، ح ٢، ص٥٢.
[٣]- المصدر نفسه، ح ٢، ص٥٦.
[٤]- المصدر نفسه، ح ٣، ص٨٨.
[٥]- المصدر نفسه، ح ٣، ص٤٦-٧. موطأ مالك، الرقم الحديث: ١٠٤، حديث مرفوع
[٦]- المصدر نفسه، ح ٣، ص١٦٠
[٧]- الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ١٢٤-٥

"وقال رجلٌ لأبي ذَر: أنت أبو ذَر؟ قال: نعم. قال: لولا أنك رجُل سوء ما أُخرِجتَ من المدينة. فقال أبو ذَر: بين يدَيَّ عقَبَة كؤُودٌ إن نجوتُ منها لا يضُرُّني ما قلتَ، وإن أقَع فيها فأنا شَرٌّ ممّا تقول [1]". وهذه الحادثة معلومة في التاريخ الإسلامي أن أبا ذرٍ خرج أو أخرج من المدينة في عصر الخلافة.

٣,٢. ملامح السرد

تميزت القصّة بملامح السرد، وهي:

ا. **التضمين/ التناص:** هي النوع الأدبي الشامل الذي يمكنه استيعاب الأنواع الأدبية الأخرى كالشعر والمقال والأمثال والحكم، والحكاية التاريخية، وغير ذلك من أنواع المعارف المختلفة. ومن أنواع النصوص المتضمنة ما يأتي:

ا. **النصوص الدينية**، وتمثل في بعض آيات القرآن الكريم: "كتب مجنون إلى مجنون: بسم الله الرحمن الرّحيم. حفظك الله، وأبقاك الله، كتبتُ إليك ودِجلة تطغى، (..) ولا تبِت إلا وعند رأسك حَجَر، أو حجران، فإنّ الأخبر يقول: **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (٦٠))** [2] [3].

ومن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: وقَدِم رجلٌ مع امرأة إلى القاضي ومعها طفلٌ، فقالت: هذا ابنه، فقال الرجل: أعزّ الله القاضيَ ما أعرفُه؛ فقال القاضي: إتّقِ الله فإنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: **(الولد للفراش، وللعاهر الحجر)** [4]"، فهذا وأمه على فراشك؛ ... [5].

- قيل للحسن بن عليٍّ رضي الله عنه لمّا صالح مُعاوية: يا عار المؤمنين. فقال: **(الْعَارُ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ)** [6] [7].

ب. **الشعر:** "وعشق رجلٌ جاريةً رومية كانت لقوم ذوي يسار، فكتب إليها يوماً: جُعلتُ فداك، عندي اليوم أصحابي، وقد اشتهيت سكباجةً، (..) ثمّ كتب إليها يوماً آخر: فدَتكِ نفسي، إخواني مجتمعون عندي، وقد اشتهيتُ قليّةً جزوريّة فوجّهي بها إليّ (..)، ثمّ كتب إليها يوماً

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح ٢، ص١٢٨.
[2]- سورة الأنفال
[3]- الإمتاع والمؤانسة، ح ٢، ص٢٠٤.
[4]- حديث صحيح، رقم الحديث ٢١٠٨، متفق عليه.
[5]- الإمتاع والمؤانسة، ح ٢، ص٥٤.
[6]- صحيح البخاري، كتاب الفتن، (رقم الحديث ٢٨٢
[7]- الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٦٤.

آخر: جعلتُ فِداك، وقد اشتهيتُ أنا وأصحابي (..)؛ فكتبت الجارية عند ذلك: *"إني رأيتُ الحبَّ يكون في القلب، وحبُّك هذا ما تجاوز المعدة"*. وكتبت أسفل الرُقعة:

عذيري من حَبيبٍ جا عنا في زَمَنِ الشِّدّة

ج. **المَثَل:** ووردت الأمثال في عدد من ليالي الكتاب، فنجده في الليلة الثالثة والرابعة والسادسة والتاسعة وغيرها من الليالي. وفي الليلة الثالثة يذكر التوحيدي عن بعض الشخصيات العلمية والأدبية، ومنهم ابن طاهر، وذكر التوحيدي مثلاً معروفاً:

"لا تكن حُلواً فتؤكل، ولا مُرّاً فتعاف[1]" و"البِرّ يستعبد الحُرّ، والقناعة عزّ المعسر، والصدقة كنز الموسر[2]".

وأما قولك إنّا صَلِينا بالأمر يومَ صِفّين، فإنما كنّا مع رجلٍ لم نألُه خُبراً، فإن لمتنا "فرُبَّ ملومٍ لا ذنبَ له[3]".

د. **الحِكَم:** وقال بعض الحكماء: "عند الشّدائد تذهب الأحقاد" و"موتٌ في قوّةٍ وعِزٌّ خيرٌ من حياةٍ في ذُلٌ وعجز"، و"عدل السلطان خيرٌ من خِصب الزمان"[4]. وهذه الحقيقة أن في أوقات رهيبة في الحياة الناس يتركون الأحقاد والعداوة. والحياة حياة حقيقي في القوّة والعزّ والخير، ولا حياة في الذّل والعجز. وعدل الحكام يأتي خير للرعية أكثر من خصب الزمان.

٢. **المفارقة:** وهناك ثلاثة أنواع من المفارقة:

ا. **المفارقة اللفظية البلاغية**، وفيما نموذج لها: "بشّرت امرأةٌ زوجها بأن ابنها منه قد اتّغَر (نبت ثغره)، فقال: أتُبَشّرينَني بعدُوّ الخُبزِ؛ اذهبي إلى أهلك"[5]. وهذه البشارة تعكس في الأثر، وشباب الولد ليس محموداً عند الوالد، بدليل أنه عدوّ الخبز. و"قال نضلة: مررت بكنّاسين أحدهما في البئر والآخرُ على رأس البئر، وإذا ضجّة، فقال الذي في البئر: ما الخبر؟ فقال: قُبِضَ على عليٌّ بن عيسى؟ فقال: من أقعدوا بدَله؟ قال: ابن الفُرات؛ قال: قاتلهم الله، *"اخذوا المصحف ووضعوا بدله الطنبور"*".

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص٤٦

[2]- المصدر نفسه، ج ٢، ص٦١

[3]- المصدر نفسه، ج ٣، ص١٦٩

[4]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٨-٩

[5]- المصدر نفسه، ج ، ص ٥٠

[1]- المصدر نفسه، ح ٢، ص٥٤

ب. المفارقة التركيبية، وفيما يلي نموذج لها: "قال ابن الجصاص الصّوفيّ: دخلتُ على أحمد بن رَوح الأهوازيّ فقال: ما تقول في صحفةِ أرز مطبوخ، فيها نَهرٌ من سَمن، على حافاتها كُثْبَانٌ منَ السُّكر المنخُول، فدمَعَت عَيني. فقال: ما لَكَ؟ قلتُ: أبكى شوقاً إليه، جعلنا الله وإيّاك من الوارِدِين عليه بالغَوّاصة والرَّدَادَتين. فقال لي: ما الغوّاصة (والردادتان)؟ قلتُ: الغَوّاصة الإبهام، والرَّدادتان: السَّبّابةُ والوسطى. فقال: أحسنتَ، بارك الله عَليك"[1]. قال الشعبي: استسقيتُ على خِوانٍ قُتَيبة، فقال: ما أسقِيك؟ فقلتُ: *الهَيْنُ الوَجد، العَزيزُ الفَقد*، فقال: يا غلام، إسقِه الماء[2].

ج. مفارقة الحدث: وهي التي تتعلق بعناصر البناء القصّة، كالحدث والشخصية والزمان والمكان. وفيما يلي نموذج لها على سبيل المثال: " وعد رجلٌ بعض إخوانه أن يهديَ إليه بغلاً؛ فطال مطله، فأخذ قارورة وبالَ فيها وجاء إلى الطبيب وقال: أنظر إلى هذا الماء، هل يهدي إليَّ بعضُ إخواني بغلاً"[3]. وهذه أمثلة المفارقة في القصص ودورها الواضح في قصص الإمتاع والمؤانسة.

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج ٣، ص ٧٧.
[2]- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢.
[3]- المصدر نفسه، ح ٢، ص٥٨

الفصل الثاني: الشخصيات في القصص بين الكتابين

١. مفهوم الشخصية

لايمكن وجود أي قصّة بدون الشخصيات. ما هي الشخصية؟ الشخصية مكون رئيسي وركيزة أساسية لكل عمل سردي، وتلعب دوراً بنوياً أو وظيفياً يوازي دور البنيات الأخرى: الزمان والمكان والأحداث. الشخصيات الإنسانية أو الحيوانية هي مصدر إمتاع وتشويق في القصّة، وهي النابضة التي خلقها الكاتب. وتوجد في القصّة الشخصيات الحيّة التي يعرفها القارئ، أو فيها بعض الصفات تشترك فيها، أو يلتقي بها كل يوم. وهذه الشخصيات تؤثر في القارئ، وتصبح شعاعاً ينبعث من شخصية، ويجتذب في شخصية أخرى. د. كمال غنيم، يقول عن الشخصيات أن من الممكن أن تكون من الحيوانات أو النباتات أو الجمادات، رمزية أو حقيقية. والشخصية في القصّة تختلف عنها في الحياة، فـ"الفن والحياة شيئان متباينان. والوجود في أحدهما يختلف عن الوجود في الآخر. فالحياة تفرض علينا وجوداً مستمراً، بينما الشخصية في القصّة، لا تظهر إلا في الأوقات التي يُنتظر منها أن تقوم فيها بعمل ما"[١].

وشخصيات القصّة نوعان: رئيسية وثانوية، وليست في القصّة القصيرة حشد كبير للأشخاص، إذ لا تتسع في الغالب إلا لشخصية واحدة أو شخصيتين. ورسم هذه الشخصيات مهمة صعبة، تحتاج إلى براعة خاصة من المساحة المحدودة المسموح لكتابها. وتركيز القصّة القصيرة في رسم الشخصية، ينصب على الموقف، وكأنها مستغرق في بحث مختلف. والقصّة القصيرة غير قادرة على رسم الشخصية بتفاصيلها وخلفيتها الاجتماعية، فالشخصية فيها تتحول إلى جزء من الأسلوب والتصميم الذي تتضمنه القصّة، ويتراجع وجودها الموضوعي خارج القصّة[٢]. يقول د. عزّ الدين: "إن الشخصيات ذاتها في القصّة نوعان: الشخصية الجاهزة، وهي مكتملة التي تظهر في القصّة، أما تصرفاتها فلها دائماً طابع واحد. والنوع الثاني، يمكن أن نسميه "الشخصية النامية" وهي التي يتم تكوينها بتمام القصّة، فتطور من موقف لموقف، ويظهر لها في كل موقف تصرف جديد، يكشف لنا عن جانب منها"[٣].

---

[١]- فن القصّة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، ط٧، ١٩٧٩م، ص٩٣.

[٢]- The short story, Valarie Shaw, A critical introduction, Longman, New York, ١٩٨٣, pp١١٨- ١٢٧.

[٣]- الأدب وفنونه، د. ع الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، (د ت)، ص١١٧.

الشخصية (الجاهزة والنامية) بنيويا

الأول، يمكن للقاص أن يقدّم الشخصية الجاهزة دفعة واحدة، وهذا النوع أصبح نادراً في القصّة القصيرة المعاصرة لسببين اثنين: أولهما أن القاص يجتنب تقديم الشخصية في القصّة كما هي في الرواية، عن طريق الوصف الدقيق وإنشاء هوية للشخصية. وثانيهما أن جزءاً كبيراً من القصص تحتل فيها "أنا" الموقع الأساسي كشخصية. وبالنسبة الشخصية النامية، فهي تقدم تدريجيا للقارىء على طول القصّة.

الثاني، أن الشخصية الجاهزة مأخوذة من واقع ما أو من عمل أدبي ما دون أن يتصرف فيها القاص. ويمكن أن تكون بذلك شخصية مكرورة وشخصية منتقلة. وأن الشخصية النامية هي الشخصية المركبة أو المتطورة أو التي لا تكتمل ملامحها إلا مع نهاية القصّة. ويعتبر هذا النوع من الشخصيات مرتبطاً بتطورات العالم المعاصر، فالجوهر الحقيقي للشخصيات القصصية يكمن في قدرتها على ترجمة وعي خاص بالآخرين. فالشخصية القصصية التي تبددو معقدة أكثر فأكثر نوعاً من الوعي بالواقع الذي أصبح بدوره أكثر تعقيداً.

والشخصية في القصّة هي المحور الذي تدور حوله القصّة كلها، ولا بدّ أن تكون الشخصية حيوية، قوية في إظهار موقفه، والجوانب الثلاثة التي تتكون منها الشخصية بصفة عامّة، وهي الجانب الخارجي والجانب الداخلي والجانب الاجتماعي. ولا تقتصر هذه الأبعاد على الشخصية البشرية أو تنسحب أيضاً على كل شخصية، ولو كانت حيواناً أو نباتاً أو جماداً. وعلى الكاتب أن يجعل شخصياته نابضة بالحياة في ذهن القارىء، أي لا تكون مثل قطع الشطرنج يحركها حسب مزاجه وتفكيره هو[1].

٢. الشخصيات في البخلاء

الشخصية ركن أساسي في القصّة، ونجاح الكاتب مرتبط بشخصياته، لأن الشخص هو الصوت الذي يسمع القارئ من خلال القصّة. والجاحظ يبتكر شخصياته بعناية فائقة، كأنه يخلق شخصاً جديداً. وشخصياته تتناسب مع موضوع القصّة، ويكبح بدايته ونهايته. ومن خلال هذه الدراسة سأبحث الشخصيات القصصية في كتاب البخلاء، ولا يمكن لي أن أبحث أبعاد كل شخصيات الوارة في القص (لأن الدراسة لا تتحمل الطوالة)، فأختار شخصيات رئيسة وسأبحث ملامح هذه الشخصيات، لتكون هذه الدراسة إجمالي وشمولي. وقسمت هذه الشخصيات بترتيب الكتاب حسب الآتي.

---

[1]- أنظر نظرات في القصّة القصيرة، حسين القباني، دار أنهار للنشر والتوديع الإليكتروني، ص٢٥-٣٠

٢,١. ملامح الشخصيات

ا. شخصيات خراسانية

وهي شخصيات اجتماعية، وليس يسمّى باسم واحد، أو شخصية واحدة، بل هي شخصية مركبة، وأصلها بلد خراسان. صبروا عن ارتفاق بالمصباح[١]، وشاركوا في الغرم إلا واحد منهم، فشدّوا عينيه بالمنديل حتى يطفئوا المصباح. فبعدهم الخارجي والداخلي يظهر البخل في طينتهم. وفي طريق الكوفة يسافر حمّارة منهم، ولا يأكلون معاً، وهذا حرصهم على المؤاكلة، لا يريدون المؤانسة، حتى في سفر مبارك. وبعدهم الاجتماعي صفة البخل. وهم يعرفون طرائق مختلفة لاقتصاد في الدهن بالفتيلة والملح، والنُخالة.

وجار خراساني يمنع جيرانهم الماعون، لكن حين يرى فائدة المقلي، يغضب على الجار لمَ لا خبّرتني أنك تريده للحم، وبعد اللحم تكون المقلي أحسن حالا. هو لا يكرم الجار إلا لمفاده. وهذا الجار يأتي على خوان الجار، والنّاس يأكلون وهو يقطر السمن على الخوان، وعلّته أن الخوان خوانه، ويريد أن يدسّمه. ولقد طلّق امرأته لأنها غسلت هذا الخوان. ويظهر شخصيته بأبعاده الثلاثة - الخارجي والداخلي والاجتماعي - وصفة البخل تحيطه. ولقي أبو نواس بالخُراساني في السفينة، وشاهد أنه يأكل وحده، ويعتبره هو الأصل، والأكل مع الغير زيادة في الأصل والتكلف. وكذلك شيخ خراساني، يدخل في بعض بساتين الكرخ، ويرسل قيم البستان ليشتري له رطباً أو عنباً، ويحذره من الغبن، ويأكل وحيداً. وإذا مرّ به رجلاً، ويسلّم عليه، يقول له "هلم" على الرغم لا يريد أن يشاركه في الطعام. ولو يأتي إليه الرجل يفهمه "آنين كلام بكلام"، وهو أنّ دعوته إلى الطعام كمثل جواب السلام، فقط في الكلام وقوله هلمّ، لا علاقة له في العمل.

ب. شخصيات مَروَزية

شخصية المروَزي تظهر من الوهلة الأولى مع الزائر[٢]، والزائر أتاه وطال جلوسه، والمروَزي يسأل فقط عن الأكل، ولا يعطيه طعام ولا شراب، فبعده الخارجي هو كلام عن الأكل، دون الطعام. وسبب الرئيسي لهذه التأني طبيعته البخيلة. وفي المشهد الثاني هو[٣] يتكلم بالضيف دون الكرامة، ويظن أنه يضيع ماء عذب بالوضوء، ولمّا عرف أنه يتوضأ من ماء

---

[١]- أنظر: البخلاء، ص ١٨ .

[٢]- أنظر المصدر نفسه، ص ١٧-٣

[٣]- اسمه أسود، وهو مروزي الأصل. وكان رجلاً بصرياً، اسمه ابن أبي كريمة، ويؤخذ من أخباره أنه كان من أصحاب الحاحظ الذين يزورهم ويروي بعض تحاريهم، وهو معدود في البخلاء الذين يستشهد بأسماتهم. (تعليقات وشروح: طه الحاجري، ص٢٨٢-٣)

البئر[1]، يقول: أنه يفسد كوزه، وهو بعده الداخلي والخارجي معاً، أنه يضيق بالضيف، ولا يكرمه حتى بماء الوضوء. وبعده الاجتماعي، هو شهرته بالبخل. ولما دخل المروزي على الخراسانيين (وهو أبو عبد الله، وكان من أطيب الخلق، وأملحهم بخلاً وأشدّهم رياء)، يظهرعليه أنهم مسرفون، لأنّ المروَزي يعتبر إطعام الناس وسقايتهم خسران وغَبن، ولا يتهاون به إلا أصحاب الفساد، وجعله الله يوم القيامة طعاماً للنار[2]. ويدخل الضيف على (أبي عبد الله) هذا فيقول: "أنا هنا (بالعراق) منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ أربعين سنة[3]"، فيقطع أمل الضيف في آن واحد. وتظهر فيها بعده الاجتماعي والداخلي معاً، كأن عنده مكتوبة على لافتة: "الضيافة ممنوع".

هذه قصّة المروزي الذي لايزال يحجّ ويتّجر وينزل إلى العراقي، ويستفيد من ضيافته أعواماً، ويقول له: "ليتني رأيتك بمرو، حتى أكافئك لقديم إحسانك[4]"، وبعد دهر طويل يذهب إليه العراقيّ، ووجده قاعداً بين أصحابه، لكنه ينكر كأنه لم يره قط. ويجدّد كي يعرفه، لكنه يقول: لو خرجت من جلدك لم أعرفك[5]. فبعده الاجتماعي أنه ينسى أيّ إحسان وإكرام قديم. وبعض الأحيان مراوزيين ترافقوا وتزاملوا في السفر، ويطبخون جميعاً. فيقسمون العمل، ونصيبهم من الطعام قبل الطبخ، ويشدّ هم بخيط، وبعد الأكل أعادوا تلك الخيوط قد تشربت الدسم، ولا يشركون برغبة الاجتماع أو المحبّة، بل لأن المؤنة تخفّ أيضاً، وفي نوعية الطعام يختارون السكباج لأنها تبقى على الأيام، وأبعد من الفساد. فالقصة تبيّن كيف جماعة المسافرين اجتمعوا، واقتسموا، وانفردوا حسب عقلهم، للإصلاح والاقتصاد. وهذه رجل مزوري سمع (وعظ) الحسن، وهو يعدهم سرعة الخلف[6]. (أن الإنفاق يزيد المال ببركة الخلف)، فتصدّق بماله كلّه، وانتظر سنوات، فلما لم ير شيئاً، ذهب إلى الحسن، كأنه هو سبب لفقره، وقال: "ما صنعت بي؟" وهذه القصّة تشير إلى إنفاق المروزي، وانتظاره للخلف، لأنه نظر إلى الخلف ولم يفكّر على الأجر. وهذه الطرفة تظهر بعده الداخلي، في تعجيل الإنفاق وانتظار الخلف لسنوات، وبعده الخارجي يظهر في كلامه، حين خاطب بالحسن مغاضباً، "ما صنعت بي".

وصورة أخرى في المراوزة، تظهر سلوكهم بأشياء حسّية، وهم الذين لبسوا الخفاف في ستة أشهر، لاينزعون فيهم خفاف، ويمشون على صدور الأقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر، مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب. ومروزي آخر، لايلبس خفّاً ولا نعلاً حين يذهب النبق اليابس، لكثرة النوى في الطريق. ويجمع قصب السكر مصصت للتنور[7].

---

[1]- أنظر: البخلاء، ص١٧.
[2]- أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٠
[3]- أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٢
[4]- أنظر: المصدر نفسه، ص٢٢.
[5]- أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٢
[6]- أنظر: المصدر نفسه، ص٢٧
[7]- أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٨

ج. أصحاب المسجدين[1]

هم أصحاب الجمع والمنع. وشخصياتهم متنوعة وعديدة جمعتهم على صفتهم الاقتصاد في النفقة والتثمير للمال. وهم يروون تجاربهم. فالشيخ الأول وزوجه يواجهان مشكلة الماء العذب، للشرب والغسل. وماء البئر يعترى الجلود وحتى جوف الحمار. فحصل على الماء الصافي، وعمد الإصلاح للحمار، وعبقريته انفتح له باب الإصلاح، فربح الحمار من ماء الجنابة، وأسقط عنهما مؤنة عن النفس والمال. فشخصية الشيخ أنه صاحب الاقتصاد والإصلاح، وعامل الشريعة، وهو يجتنب من الحرام، حتى في أمور الحمار. وهذه شخصية مقتصدة في بعده الخارجي والداخلي، وصاحبة الاصلاح في بعده الاجتماعي.

الشيخ الثالث[2]، اشتكى بمرض سعال، فأشار الأصدقاء على أشياء مختلفة للعلاج، فاستثقل عليه المؤونة، ولم يقبل أيّ علاج. فقال له بعض الموفقين: عليك بماء النُّخالة، فحسى[3] ووجده طيّب، لأن فيه دواء وغذاء. أي صلاح البدن وصلاح المعاش. فهذه الشخصية كيف يواجه بهذه النسخة، "لا يكون إلا سماوياً". فيظهر فيها أبعاد ثلاثة لشخصيته، بعده الخارجي أنه مريض، لكن بخيل، لا ينفق نفقة على دواء، حتى وجد دواء رخيص، ونعمة تلو النعمة، أنه غذاء، فبعده الداخلي، فرحته على هذا الاقتصاد، وتقبّله لغذاء له ولعياله، ومظهر الاجتماعي، أنه يشارك في هذا الإصلاح أصدقاءه في المسجدين. والشيخ الرابع يشير إلى مشكلة الحُراق، وأنه عَلِم طريقة الحراق بالعراجين الأعذاق[4] من صديقه الثوري، وعالج دون كلفة. والنتيجة أن مذاكرة الرجال تلقح الألباب. وهناك يظهر بعده الخارجي والاجتماعي معا.

---

[1]- هم قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم، وطال غشيانهم له، فعرفوا به، ونسبوا إليه. ولم يكونوا من صنف واحد، بل كانوا خليطاً من الناس، منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة، ويجلس بعضهم إلى بعض، يتحدثون شتى الأحاديث، ويتحادثون أطراف الرأى في مختلف المسائل، وكان يظهر في مجلسهم الجاحظ والكثير من أدباء ذلك العهد. (تعليقات وشروح طه الحاجري، ص٢٩٥-٦)

[2]- الشيخ الثاني ذكر قصة مريم الصنّاع، وذكرت تحت "الشخصيات النسائية".

[3]- حسى شربه.

[4]- عراجين الأعذاق: عناقيد النخل.

د. زبيدة بن حميد[1]

زبيدة بن حُميد الصَّيرفي[2]، بخيلاً جداً، استلف من بقّال، درهمين وأربع شعيرات، وأسلفه درهمين وثلاث شعيرات، بدليل أني قضيتك في الشتاء. وشعيرات شتوية نديّة، وكانت شعيرات صيفيّة يابسة.

وكان يضرب غلمانه بيوم، أنهم أكلوا كلّ جُوارشن[3] كان عنده. ورئيس غلمانه يقول: وما رغبت فيه؟ ما أقدر أن أكلمك من الجوع إلا وأنا متّكيء. إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس، ما نصنع بالجوارشن؟ وهذه معاملة سيئة بغلمانه. وكان يقدم إلى زواره وأصحابه ماءً بارداً، إلا من رفض بشرب وقال: "الطعام قبل الشراب". أو حين أمر بغلامه: هات خوان النرد، فقال الضيف: نحن إلى خوان الخبز أحوج.

وسكر زبيدة ليلة، فكسا صديقا له قميصاً، ولما أصبح سأل عن القميص، فأعلم أنه مضى إلى منزله، وجعله برنكانا لامرأته. فأقبل إليه وقال: ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟ فقال أنه خفته وجيّبته لامرأته، فقال: آخذه، لأنه يصلح لامرأتي كما يصلح لامرأتك، لكنه كان عند الصباغ. فقال جمع الشرّ كله في بيت، فكان مفتاحه السكر. فشخصية زبيدة تظهر في معاملة سيّئة مع البقال، وهو يريد أن يسلفه قليلاً. وغلمانه يصيحون بالضرب والجوع وهو يتهم بأكل الجوارشن، وهو يستقبل الضيف بالماء بدلاً من الطعام، ويريد أخذ القميص الذي كساه صديقا له، فأبعاده الثلاثة يظهر في شدّة بخله وضيق صدره على الإنفاق.

ر. أحمد بن خلف[4]

هومن طيّاب البخلاء[5]. ترك أبوه في منزله يوم مات مالاً كثيراً، فاقتسمه هو وأخوه حاتم قبل دفنه. ومع أنه ورث مالاً كثيراً، وكان بعيد العهد بالأكل في بيته. وعن غير مشورة يقول للجاحظ، أن يتّخذ لعيالك في الشتاء من هذه المثلثة[6]؛ ويعدد منافع المثلثة: أنها تنوب عن الغذاء،

---

[1]- لعله ابن "حميد بن القاسم الصيرفي"، وكان تاجر رقيق في أيام المنصور وقد جاء ذكره أيضاً في حوادث سنة ١٥٧هـ (تعليقات وشروح طه الحاجري، ص٢٩٨-٩.)

[2]- أنظر البخلاء، ص ٣٥-٦.

[3]- تجيء هذه الكلمة بالنون كما هي، وحالية منها، كما ذكرها أدى شير في كتابه إنها عند الأطباء نوع من الأدوية، تعريب كَوارش ومعناه الهضام. (تعليقات وشروح طه الحاجري، ص٢٩٩.)

[4] - هو أحد أصدقاء الجاحظ. وإذا كانت هذه الصداقة لم تجعله يتحرج في وصفه بما وصفه به، بعد عينه وسماه، فلعله كان هو الذي يعنيه، في مقدمة هذا الكتاب. "ولربما سميناه الصاحب إذا كان ممن يمارح بهذا كثيراً، ورأيناه يتطرف به. ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه". (تعليقات وشروح طه الحاجري، ص ٣٠٣)

[5]- أنظر البخلاء، ص ٤١-٣.

[6]- ليس في قواميس اللغة تفسير لمعني هذه الكلمة، وهذا السياق يدلّ على أنها كانت تطلق على نوع من الحساء، أي طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن، وقد يحلى، ويكون رقيقاً يحسى (تعليقات وشروح طه الحاجري، ص ٣٠٣.)

وتغني عن العشاء، ويغني عن طلب النبيذ وشرب الماء، وهي تملأ النفس، وتمنع من التشهّي، وسريع في الهضم، وشرّ شيء فيه أن من تعوّده لم يدفئه شيء سواه. وكان لا يفارق منازل إخوانه، ولم يشكوا أنه سيدعوهم مرّة، وأن يجعلوا بيته نزهة ونشوة. فلمّا طال تغافله، صرّحوا له، فلمّا امتنع قالوا: اجعلها دعوة ليس لها أخت، فاتخذ لهم طعيماً خفيفاً شهيّاً مليحاً، لا ثمن له، فلمّا أكلوا، قال: أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامي، قالو: لا نشكّ أنك قبل الطعام كان أغنى وأيسر. قال: فمن يلومني على دعوة قوم قرّبوني من الفقر وباعدوني من الغنى.

ومرّ بأصحاب الجداء في زمان التوليد، فأطمع في الرخص وبعث غلاماً له ليشتري له جدياً، فوجده يشير بيده ويؤمىء برأسه، أن "اذهب ولا تقف[1]"، لأنه ليس رخيصاً هناك. فشخصيته تظهر من أبعاده الثلاثة، هو ابن الذي اقتسم المال، ونعي والد في البيت. وهو يشير إلى صديقه الحميم الجاحظ أن يستفيد "المثلثة"، وهو يأكل في بيت إخوانه لكن لا يقدّم لهم الطعام ولا يدعوهم، إلا أن يحصر باصرارهم. يقول عنه الجاحظ هو من طياب البخلاء، لأن شخصيته غير متحرج، وبخله في ذاته أو من قبيل المشورة.

ز. خالد بن يزيد[2]

شخصية **خالد بن يزيد**[3]، وهو مولى المهالبة شخصية طريفة. وكان قد بلغ في البخل والتكدية، وفي كثرة المال مبالغ إلى الحدّ الذي لم يبلغه أحد. كان ينزل في شقّ بني تميم، فوقف عليه ذات يوم سائلٌ، فأخرج درهماً للسائل، فأعظمه، فردّه وأخرج فلساً، ووجده غليظاً، فلم يفطن حتى وضعه في يد سائل، فلمّا فطن استردّه، وأعطاه الفلس. وهذه صورة قبيحة للعطاء، لكن خالد بن يزيد لا يحسبه قبيحاً، بدليل "إني لم أجمع هذا المال بعقولكم، فافرقه بعقولكم"، ويعرف بفراسته الخاصة ويفرّق بين "مساكين الدراهم" و "مساكين الفلوس[4]". وخالد يحتجّ ويبعد نفسه عن الإنفاق، يخرج درهماً لقضاء حاجته، لكن وقع عينه على اسم الله المكتوب عليه، فيردّه في موضعه بدليل "لئن أنا أخرجتُ من يدي ومن بيتي شيء عليه: لاإله الا الله، وأخذت بدله شيئاً ليس عليه شيء".

وهو يعرف "المكدّين" بكلّ حيلهم وكيف لا يعرفهم، وكان "كاجار[5]" في حداثة السنّ ونصح ولده عند موته: "إني قد تركت لك ما تأكله إن حفظته، وما لا تأكله إن ضيعته". وإنّ هذا

---

[1]- البخلاء، ص٤٢.

[2]- هو أحد المكدين، الذين مارسوا التكدية حياتهم، ثمّ نزل البصرة، فأجرى الجاحظ هذا الحديث على لسانه، ليرسم به صورة عجيبة من حياة هذه الطائفة (تعليقات وشروح: طه الحاجري، ص ٣٠٤)

[3]- أنظر. البخلاء، ص٤٦-١.

[4]- أنظر المصدر نفسه، ص٤٦

[5]- وكلمة "كاجار" جعلها مستشرق "فان فلوتن" في نشرته "كاخان". وما هي إلا صورة من كلمة "غجر" التي تطلق الآن على النور. (تعليقات وشروح: طه الحاجري، ص٣٠٧.)

المال لم أجمعه من القصص التكدية، أو من احتيال النهار ومكابدة الليل. ولستُ أوصيك بحفظه لفضل حبّي لك، ولكن بفضل بغضي للقاضي. والحقّ لا يوصف عاجله بالحلاوة، كما لايوصف عاجل الباطل المرارة. فإن كنت منهم فالقاضي لك، وإن لم تكن منهم فالله لك. ويعترف خالد أنه قد لابس السلاطين والمساكين، وخدم الخلافاء والمكدين، وخالط النّساك والفتاك. ويعترف أنه عمر السجون كما عمر مجالس الذّكر، (وهو اجتماع تنوّع الخير والشرفي ذاته) وصادف دهراً كثير الأعاجيب. وحفظ المال من فتنة البناء ومن فتنة النساء ومن فتنة الثّناء، ومن فتنة الرياء، ومن أيدي الوكلاء فإنهم الداء العياء. ويقول أن لو ذهب ماله "لجلست قاصاً، أو طفتُ في الآفاق، كما كنتُ مكديّاً". وينصه لابنه، لأنه غلام، لسانه فوق عقله، وذكاءه فوق حزمه، ويخوّف عليه من حسن الظن بالناس. فشخصيته محورية في البخل، والضنّ عليه بما عنده من مال.

ولمّا مات خالد، كفنه أبنه، وغسله بماء البئر(وماء البئر في البصرة مالح أجاج)، ودفنه من غير أن يضرح له ، أويلحد له. ونظر إلى جرّة معلقة، فسأل عنه، فقيل: في الشتاء نلقي له السمن. فقال: لو لا أن للجرّة ثمناً لما كسرتها إلا على قبره. فخرج فوق أبيه، وما كنا نظن أن فوقه مزيداً. فبعده الخارجي أنه كان مكدياً. بخيل في العطاء والإنفاق، ينصح أولاده بالبخل، وهم أكثرمنه بخلاً.

س. أبو جعفر الطّرطوسي

الجاحظ يصوّر تصويراً حسّياً لبخل الطرطوسي[1]، وهو البعد الخارجي والداخلي للشخصية معاً. أنه زار قوماً فأكرموه، وجعلوا في شاربه وسلبته غالية. فحكّته شفته العليا، فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة، مخافة أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئاً إذا حكها من فوق. فهذا مشهد مضحك، مضيفه يكرمه بالغالية، وهو يحك أصابعه، من بعده الداخلي والخارجي معاً.

ص. الحزامي[2]

وكان أبخل من برأ الله[3]، وأطيب من برأ الله، وكان له في البخل كلام. نظر إلى الجاحظ في تشرين الأول ، لابساً كساء قُومَسياً خفيفاً، فعاتبه أنه كساه قبل أوانه. لأن غبار آخر الصيف يتقبّض عليه الكساء ويتكرش، ويأكله مثل السوس، وعليه أن يلبسه بعد المطر حتى سكن الغبار

---

[1]- أنظر: البخلاء، ص ٥٨.

[2]- هكذا جاء بالراى في الموضع، وفي موضع الأخرى بالراء، وكلا الشين وارد متحه. وإذا صحت الثاني فالأكثر انها نسبة إلى "بني حرام" (سكة بالبصرة)، وكان من أصحاب أبي نواس. وكان الحرامي يصطنع الكتابة للسرلة والولاة، فقد مال كاتباً لموسى بن عمران، ولأبي سليمان داود بن داود. (تعليقات وشروح: طه الحاجري، ص ٢٥٠-١)

[3]- أنظر البخلاء، ص ٥٩-٥.

وغسل الهواء. فهو صديق حميم، ونصحه نصحاً ثميناً مثل صداقته. وهذا بعده الاجتماعي. وكان في البيع والشراء، يكيل ويزن أيّ شيء بمقدار وسعر، واشترى ما أثقلها وزناً، ويقول: "ونار المعدة شيطان". وهذا الميزان لا يخرج إلا من داخل نفس البخيل، فهو بعده الداخلي.

وإذا يلبس قميصاً جديداً أو مغسولاً، لم يتبخّر، مخافة أن يسود دخان العود بياض قميصه، وإن اتسخ فأتي بالبخور. وكان يقول: حبّذا الشتاء، فإنه يخفظ عليك رائحة البخور، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً، ولا يفسد فيه مرق إن بقي أياماً. وهو يفضّل مشط صندل، لأنّ ريحه طيّبة، والشعر سريع القبول، وأقل ما يصنع أن ينفي سهك الشيب. فكان عطر الحزامي إلى أن فارق الدنيا مشط صندل، إلا أن يطيّبه صديق. وهو أيضاً يكيل ويوازن الأشياء بخفّة سعرها وثمنها، فوجد في مشط صندل فوائد كثيرة، في ريحه، فكأنه مشط وعطر في مقام واحد، والشعر يقبله سريعاً. فبعده الخارجي والداخلي يظهر معاً.

ط. خالد القسري[1]

بلغ خالد[2] أنّ النّاس يرمونه بالبخل على الطعام، فتكلّم يوماً، فما زال يدخل كلاماً في كلام، حتى أدخل الاعتذار من ذلك، وذكر خالد المهزول الذي كان في الجاهلية، والذي حلف بإلهه ألا يأكل بقلاً، وإن مات هَزْلاً، فدقّ جسمه باللبن والشراب، وسمّي بالمهزول. وهأنذا مبتلى بالمضغ، ومحمول على تحريك اللّحيين، ومضطرٌّ إلى مناسبة البهائم، ومحتمل ما في ذلك من السخف والعجز. ما بالي احتملته فيمن لي بدّ، ولي عنه مذهب. ليأكل كل امريءٍ في منزله، وفي موضع أمنه وأنسه، ودون ستره وبابه.

ويظهر أن الخالد لا يحبّ أن يذكر اسمه، ويثلبه على مأكله ومشربه، وذكر خالداً في الجاهلية الذي هزل جسمه بسبب حلفه، وهو يريد أن يعجب الناس، فرأيه أن هذه معاملة ذاتية، ما يأكل الإنسان، وللناس ليس لهم أيّ علاقة أن يبحثو عن الآخرين، ما ذا يفعلون. ومذهب خالد فيها أن يأكل كل شخص في بيته، في موضع الأمن والأنس، دون ستره وبابه.

---

[1]- هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلي القسري، أحد سادة العصر الأموي. ولى العراق في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦هـ عزل عنه سنة ١٢٠هـ (تعليقات وشروح طه الحاجري، ص ٣٣٧.)

[2]- أنظر البخلاء، ص ٦٦.

ع. الحارثيّ[1]

والحارثيّ يصنع الطعام، فيجيده[2]، ويغالي بالخبّاز والطباخ والشوّاء والخبّاص[3]، ويشهد على خوانه عدوّاً ولا وليّاً، ولو يحضر عليه الضيوف ليبقى على الأيام ذكره، وكان ذلك أولى به. والحارثي لم يأكل مع أحد بعد أن لقي أبا الفاتك، الذي شنّع وقبّح بالضيوف، وقال: والله، احتمل الضيف والضيفن، ولا أحتمل اللعموظ[4] (طفيلي) ولا الجرذبيل. ومن يشكّ أن الوحدة خير من جليس السوء، وأن جليس السوء خير من أكيل السوء. وإن كان لابدّ من المؤاكلة، ولا بدّ من المشاركة، فمع من لا يستأثر علىّ (..)، ولا يتناول إلا ما بين يديه، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره ولا يشتهي الغرائب، ولا يمتحن الإخوان بالأمور الثمينة، ولا يهتك أستار النّاس بأن يشتهي ما عسى ألا يكون موجوداً. وكيف تصلح الدنيا، وكيف يطيب العيش، مع من اكتسح كل شيء عليه، الذي لا يرحم ذا سن لضعفه، ولا يرقّ على حدث لحدّة شهوته، ولا ينظر إلى العيال، ولا يبالي كيف دارت بهم الحال. وإن كان لابدّ من ذلك، فمع من لا يجعل نصيبه في مالي أكثر من نصيبي.

وشخصية الحارثي، شخصية نادرة، هو يأكل بالاهتمام، وخوانه مليء بأشياء نادرة ومتنوعة، وهو يأكل وحيداً، لأنه يكره الأكيل السوء. وهو يكره الطفيلي والضيف الذي يجمع أشياء غالية قريب منه كي لا يحصل الآخرين. وهو الذي لا يلتفت إلى الضعفاء على خوان ولا يرحم على الصغير. والحارثي شخصية متواضعة، ولا يريد أن يأكل الناس بدون مراعاة، ولا يضيق المضيف أن يأكلوا أكثر منه، ويطلب الأشياء التي ليست موجودة في البيت، ويخجله أمام الناس. والحارثي يريد أن يلاحظ الضيوف أدب الطعام، والمؤاكلة، ويؤتوا حق الجليس على الخوان. وهذه الشخصية ذكره الجاحظ شخصية وصفية، بعده الخارجي يظهر في اهتمامه على زينة المائدة. وبعده الداخلي، يظهر في صورة الإنكار في الضيافة لقليل أو كثير. هو يتجنب الضيوف. وهو بعده الاجتماعي أيضاً.

ف. الكندي*

شخصية الكندي شهيرة ومعروفة. وشهرته أنه كان "أبخل من خلق الله[6]"، والجاحظ يكشف الستار عن وجهه، فهو جار، وفي بيته امرأة حامل دائماً، وكان لا يزال يقول للساكن أو

---

[1]- وهو رجل سري متنبل، وقد اتخذ نحله من هذا التنبل مادة للاحتجاج والمحادلة. ولم يشر الجاحظ في ذكره له إلى شيء يقرّب إلى تعيين شخصه، من اسم أو كنية أو غيرها. (تعليقات وشروح- طه الحاجري، ص ٢٥٥.)

[2]- أنظر البخلاء، ص ٦٧-٧٥

[3]- وهو صانع الخبيص- الحلواء المخبوصة

[4]- اللعموظ هو الذي يضع شماله على شيء يكون على الخوان كي لا يتناوله غيره. (الجاحظ، البخلاء، دار صادر، ص٩٨)

[5]- هو شخص مستقل عن الكندي الفيلسوف، نصري، لم يكن له إلا علة داره. (تعليقات وشروح طه الحاجري، ص٢٥٣-٤)

[6]- أنظر البخلاء، ص ٨١-٠.

للجار: "إن في الدار امرأة بها حمل"، ويسأل لها الطعام الشهي لكي لا يسقط حملها، لأن الوحمى[1] ربما أسقطت من ريح القدر الطيّبة، ويقول له: فإن لم تفعل ذلك، فكفارتك إن أسقطت غرة: عبد أو أمة. و يرسل إليه السكان أو الجيران ما يكفيه الأيام. وكان يقول لعياله: "أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع. إنما لكل بيت منهم لون واحد، وعندكم ألوان"[2].

وهو مضيف، ويومئذٍ جاء إليه الضيف، وكانا (الكندي والضيف)على الخوان إذ جاء إليه جار، كان صديقاً لضيف، فدعاه الضيف أن يشارك معهم في الأكل، لكن الكندي رفض على الإعلان أن يأكل جاره[3]. وكتفه كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً. وفي الدار الأخرى انقلبت جرّة، فصاح: أي قصاف[4]! فأجابت الجارية: "بئر وحياتك!"، وقيمة جرّة العذب يعرف البصريّ، وأجابت قصاف من ذكائها.

وشخصية نادرة ومتلونة ظهرت في شرائط الكندي مع معبد: ونزل معبد في دار الكندي للكراء، فشرّط على السكان شرائط كثيرة. في أن يكون له روث الدابة، وبعر الشاة (..) فكانوا لطيبه وإفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك. ولكن حين قدم في بيته أبن عمّه ومعه ابنه، فجاءت إليه رقعة منه: وسأل كم وقت يسكنون في هذه البيت؟ فكتب إليه: "ليس مقامهما عندنا إلا شهراً أو نحوه". وهذا فقط احتمال، والحقيقة أن قيامهما عندهم كان ليلةً أو ليلتين. فكتب إلى معبد: "إنّ دارك بثلاثين درهماً، وأنتم ستة، فإذ قد زدت رجلين، فلا بدّ من زيادة خمسين، فالدار عليك من يومك ها بأربعين". واحتج به بدلائل طويلة، خلاصتها: أن الأقدام إذا كثرت، كثر المشيُ على ظهور السطوح المطينة، فينقشر لذلك الطين، وإذا كثر الدخول والخروج تهشمت الأبواب وتقلعت الرزّات، وإذا كثر الصبيان نزعت مسامير الأبواب، وهذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف.

وإذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء، احتيج من صب الماء، واتّخاذ الحبية القاطرة، وكم من حائط قد تأكل أسفله، وتناثر أعلاه، ومن فضل ماء البئر ومن سوء التدبير. وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيزوالطبيخ ومن الوقود والتسخين. والنار لا تُبقى ولا تذر.

ثم أنكم يتخذون المطابخ في العلالي على ظهور السطوح، وفي لك من الأخطار بالأنفس، والتغرير بالأموال. ثمّ إن كثير منكم يُدافع بالكراء، ويماطل بالأداء، حتى إذا اجتمعت عليه أشهر فرّ وخلّى أربابها جياعاً. ولانهدام المنزل غايةٌ قريبةٌ، ومدّة قصيرة. فإذا قسنا الغرم عند انهدامها بإعادتها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاّتها، وارتفقنا به من إكرائها، خرج على المُسكن من الخسران، بقدر ما حصل للساكن من الربح.

---

[1]- الوحمى المرأة الحامل التي تتوحم أسقطت: ألقت حملها سقطاً.

[2]- البخلاء، ص٨١.

[3]- أنظر: المصدر نفسه، ص١٧.

[4]- قصاف اسم جاريته.

وجُرم آخر، وهو أنكم أهلكتم أصول أموالنا، وأخرجتم غلاّتنا ، فأنتم شرٌّ علينا من الهند والرّوم ومن التّرك والديلم. وهذا مع قولكم: "إن نزول دور الكراء أصوب من نزول دور الشراء". وأن صاحب الكراء الخيار في يده والأمر إليه، وصاحب الشراء يجرّع المُرار، ويُسقى بكأس الغيظ، ويحتمل الذلة وإن كان ذا أنفة. وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : "الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق[1]". وزعمتم أن تسقُّط الكراء أهون، إذا كان شيئاً بعد شيء. وفي كساد الدُّور فساد لأثمان الدور، وجراة المستأجر، واستِحطاط من الغلّة، وخسرانٌ في أصل المال.

فهذه الخصال المذمومة كلّها فيكم، وكلها حجّة عليكم، وليست لكم خصلة محمودة، ولا خَلّة فيما بيننا وبينكم مَرضيّة. وقد أريناكم أن حكم النازلين كحكم المقيمين، وإن كل زيادة فلها نصيب من الغلّة. ولو تغافلت لك يا أخا البصرة عن زيادة رجلين لم أبعدك أن تلزمني ذلك، فيما يتبين، حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف، وتصير الإقامة كالظّعن والتفريغ كالشغل. أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة، وبالعداوة التي بين أسد وكندة، وبما في قلب الساكن من استثقال المُسكن. وكل هذا يظهر بعده الداخلي للكندي. واحتجاجه لزيادة الكراء لمعبد.

وعند الكندي حفظ المال أشدّ من جمعه. فالمال لمن حفظه، وإنفاقه هو إتلافه. ولو حسّن الناس بها الاسم، وزيّنوه بها اللقب، أي اللقب السخاوة. والكندي يرفض منطق الناس في تعريف البخل والجود، ويقول: "زعمتم أنما سمّينا البخل إصلاحاً والشح اقتصاداً، (..) بل أنتم الذين سمّيتم السّرف جوداً والنفجَ أريحيّة[2]".

وعجب الكندي لمن قلّت دراهمه كيف ينام، ويقول النبي – صلى الله عليه وسلم - : (إِنَّكَ أَنْ تَدعَ وَارِثَكَ غَنِيًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُ فَقِيرًا يَتَكَفَّفُ النَّاسَ)[3]". فكيف تأمروني أن أوثر أنفسكم على نفسي، وأقدّم عيالكم على عيالي، وأن أعقد أن الثناء بدلا من الغنى، وأن أكنز الريح واصطنع السراب، بدلا من الذّهب والفضّة. وهويقول لعياله وأصحابه: اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله، وعن باكورات الفاكهة. فإن للنفس عند كل طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة، فاضمنوا لي النزوة الأولى أضمن لكم تمام الصبر وعاقبة اليسر.

ق. محمد بن أبي المؤمّل

هو من أصدقاء الجاحظ. وكان يطعم الطعام، وينفق عليه المال ويجوّده[4]، ولكنّ يقلّل الخبز، حتى أن جماجم مَن يأكل معه أكثر من عدد خبزه. ونصحه الجاحظ إن كان يحرص في

---

[1]- التنوير شرح الجامع الصغير، ج٥، ص٢٨٤، الرقم ٣٥٩٣.

[2]- النفج هو أن يفتخر المرء بأكثر مما عنده. الأريحيّة: السخاء والارتياح إلى بذل العطايا.

[3]- مسند أحمد بن حنبل، ج١، مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص، الحديث ١٤٠١.

[4]- أبطر الحمقاء، ص ٩٤-٠١.

كلمة الشكر والذكر في الناس، عليه أن يزيد عدد خبزه شيئاً، فينقلب ذلك اللؤم شكراً وذلك الذمّ حمداً. وأبو المؤمل يرى أن الخبز إذا كثر على المؤائد ورّث ذلك النفس صُدوداً، ويميت الشهوة ويُسكن الحركة. والخبزإذا كثر على الخوان فالفاضل مما يأكلون لا يسلم من التلطيخ والتّغمير. ولا يقدر أن ينظر إليها، ويستحي أيضاً من إعادتها، فيذهب الفاضل باطلاً. فقبل أبو المؤمل رأيه الذي هو أعدل الأمور وأقصدها، وهو أنه سيحضر الزيادة من الخبز على طبق، ويكون قريباً حيث تناله اليد، لكن لمّا حضر وقت الغذاء، نسي كل ما عاهد وصوّت بغلامه: "يا مبشر هات من الخبز تمام عدد الرؤس". وقال حين سئل: ترك الطعام أهون علينا من هذه الخصومة.

وكان كثيراً ما يقول: "يا غلام هات شيئاً من قليلة أو أقِلّ منها، وأعد لنا ماء بارداً وأكثر منه". وهو يضيق على أمر الضيوف ويقول: "ما رأيت قصعة قطّ رفعت من بين أيديهم إلا وفيها فضل". ويسخط أبو المؤمل على الرجل لا يعرف المقدار ما أكل حتى يناله من الماء، وربما كان شبعان لكن هو لا يدري. ولو يعرفوا ما وجدوا حاجة إلى المعالجين. فعليكم بشرب الماء على الغذاء. ولاحظ أبو المؤمل أن الناس يرغبون إلى أشياء ثمينة ونادرة، أو كان قليلاً في أصل منبته، وموضع عنصره. ولا يحنّون إلى شيء إلا على قدر القلّة أو موضع الاستفضال.

وشخصية أبي المؤمل، شخصية مدبّرة. ويدبر نفسه كيف يعامل بين ضيوف مختلفة، وإن كان في منزله مع الزائر أو زائران ويدخل عليه صديق له، يستعمل على خوانه من الخدع والمكايد والتدابير، فيقبله بعضهم عند الطعام ويحرم بعضه بالحيلة. ويعترف الضيف بلسانه، إنه قد تغدّيت، ويسدّ أبواب الطعام عليه. وكذلك يقول: "لم لا نشرب أقداحاً من الريق؟ ومن لم يشرب فهو نِكس في الفتوة[1]"، ودعِي في أصحاب النبيذ. وإنما يخاف على كبده من سَورة الشراب على الريق، من بعد عهده باللحم. ومن هذه الحيلة، لا يدخل أجوافهم من الثّقل ما يزن خَردلة. وبعد هذا الخداع لايلوم نفسه، وعلى العكس هو يوم سُروره التام، لأنه ربح المرزنة[2] وتمتّع بالمنادمة.

ومرّة اشترى شبّوطة[3] ثمينة في بغداد، وكان قد بعُد عهده بأكل السمك، وهو بصري لايصبر عنه. وهجم عليه الجاحظ والسّدري، فلما رأه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، وأيقن بالشرّ، وعلم أنه قد ابتلي بالتّنين. ويريد أبو المؤمل أن يخدع السّدري على الخوان بالسُّرر والأقفاء، لكنه اجترف المتن كله. فلما أكل السّدري جميع أطابيعها، وبقي هو في النظارة، ولم يبق في يده من السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل، وكان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه. وتولّد الغيظ في جوفه، فخبثت نفسه فما زال يقي ويسلح. ثم ركبته الحمّى. وصحت نوبته، وتمّ عزمه أن لا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكة أبداً رخصةً ولا غاليةً، وإن أهدوها إليه لا يقبلها.

---

[1]- البخلاء، ص١٠٠.

[2]- المرزنة: من رزأه: أصاب منه خيراً ما كان.

[3]- الشبوط: ضرب من السمك.

كلمة الشكر والذكر في الناس، عليه أن يزيد عدد خبزه شيئاً، فينقلب ذلك اللؤم شكراً وذلك الذمّ حمداً. وأبو المؤمل يرى أن الخبز إذا كثر على المؤائد ورّث ذلك النفس صُدوداً، ويميت الشهوة ويُسكن الحركة. والخبزإذا كثر على الخوان فالفاضل مما يأكلون لا يسلم من التلطيخ والتّغمير. ولا يقدر أن ينظر إليها، ويستحي أيضاً من إعادتها، فيذهب الفاضل باطلاً. فقبل أبو المؤمل رأيه الذي هو أعدل الأمور وأقصدها، وهو أنه سيحضر الزيادة من الخبز على طبق، ويكون قريباً حيث تناله اليد، لكن لمّا حضر وقت الغذاء، نسي كل ما عاهد وصوّت بغلامه: "يا مبشر هات من الخبز تمام عدد الرؤس". وقال حين سئل: ترك الطعام أهون علينا من هذه الخصومة.

وكان كثيراً ما يقول: "يا غلام هات شيئاً من قليلة أو أقِلّ منها، وأعد لنا ماء بارداً وأكثر منه". وهو يضيق على أمر الضيوف ويقول: "ما رأيت قصعة قطّ رفعت من بين أيديهم إلا وفيها فضل". ويسخط أبو المؤمل على الرجل لا يعرف المقدار ما أكل حتى يناله من الماء، وربما كان شبعان لكن هو لا يدري. ولو يعرفوا ما وجدوا حاجة إلى المعالجين. فعليكم بشرب الماء على الغذاء. ولاحظ أبو المؤمل أن الناس يرغبون إلى أشياء ثمينة ونادرة، أو كان قليلاً في أصل منبته، وموضع عنصره. ولا يحنّون إلى شيء إلا على قدر القلّة أو موضع الاستفضال.

وشخصية أبي المؤمل، شخصية مدبّرة. ويدبر نفسه كيف يعامل بين ضيوف مختلفة، وإن كان في منزله مع الزائر أو زائران ويدخل عليه صديق له، يستعمل على خوانه من الخدع والمكايد والتدابير، فيقبله بعضهم عند الطعام ويحرم بعضه بالحيلة. ويعترف الضيف بلسانه، إنه قد تغدّيت، ويسدّ أبواب الطعام عليه. وكذلك يقول: "لم لا نشرب أقداحاً من الريق؟ ومن لم يشرب فهو نِكس في الفتوة[1]"، ودعِي في أصحاب النبيذ. وإنما يخاف على كبده من سَورة الشراب على الريق، من بعد عهده باللحم. ومن هذه الحيلة، لا يدخل أجوافهم من النّقل ما يزن خَردلة. وبعد هذا الخداع لايلوم نفسه، وعلى العكس هو يوم سُروره التام، لأنه ربح المرزئة[2] وتمتع بالمنادمة.

ومرّة اشترى شبّوطة[3] ثمينة في بغداد، وكان قد بعُد عهده بأكل السمك، وهو بصري لايصبر عنه. وهجم عليه الجاحظ والسّدري، فلما رأه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف، وأيقن بالشرّ، وعلم أنه قد ابتلي بالتّنين. ويريد أبو المؤمل أن يخدع السّدري على الخوان بالسُّرر والأقفاء، لكنه اجترف المتن كله. فلما أكل السّدري جميع أطابيعها، وبقي هو في النظارة، ولم يبق في يده من السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل، وكان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه. وتولّد الغيظ في جوفه، فخبثت نفسه فما زال يقي ويسلح. ثم ركبته الحمّى. وصحت نوبته، وتمّ عزمه أن لا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكة أبداً رخصةً ولا غاليةً، وإن أهدوها إليه لا يقبلها.

---

[1]- البخلاء، ص١٠٠.

[2]- المرزئة: من رزأه: أصاب منه خيراً ما كان.

[3]- الشبوط ضرب من السمك.

فشخصية محمد بن أبي المؤمل شخصية متناقضة. من جانب واحد يريد كلمة الذكر والشكر في الناس، ويطعم الضيوف وخوانه مليء بنوادر الطعام، ومن الجانب الثاني، يقلل الخبز على المائدة. وكثيراً يحرم بعض ضيوفه من الطعام أو الشراب بالكيد والتدبير والخداع. فبعده الخارجي والاجتماعي يظهران أنه كريم جواد، وعلى العكس بعده الداخلي يكشف الستار من طينته البخيلة، ولما أمتهن بالضيف الشرير على شبوطة (وهي سمكة ثمينة) تولّد غيظاً شديداً في صدره، وركبته الحمى، وعزم عزماً نادراً ألاّ يأكل شبوطة أبداً، وهذا العزم يظهر بركان الغضب في داخله.

ل. أسد بن جاني

وأسد بن جاني شخصية ناعمة، لطيفة الطبعة، فكان يجعل في الشتاء من قصب مقشّر، لأن البراغيث تزلق عن ليط[1] القصب[2]. وكان إذا دخل الصيف، وحرّ عليه بيته، أثاره حتى يغرّق المسحاة، ثمّ يصب عليه جراراً كثيرة من ماء البئر ويتوطؤه حتى يستوى. فلا يزال لك البيت بارداً ما دام نديّاً. وكان طبيباً، وقال له قائل: "السنة وبئة والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتي في هذا الكساد؟". فقال: أما واحدة، فإني مسلم، ويعتقد القوم أن المسلمين لا يفلحون في الطبّ؛ واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليباً وجبريل ويوحنّا؛ وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى، وأبو زكريا، وأبو إبراهيم؛ وعليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون ردائي حريراً أسود؛ ولفظي لفظ عربيّ وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جندي سابور".

بعده الخارجي، أنه شخصية ناعمة، ويدبر لحماية الصيف والشتاء تدبير خاص، وكذلك يدافع من البراغيث. وبعده الداخلي أنه يتهم الناس على كساده، لأنهم لم يقبلو المسلم طبيباً. ويبين فشل طبّه بطريقة تهكمية، أنّ أصله واسمه وكنيته ولباسه ولغته أسباب لفشله. لأن المجتمع لم يقبل علمه وفنّه بضيق نظره.

م. الثوري

يملك الثوري خمسمائة جريب، ولا يشتري إلا كل غرّة، وكل أرض مشهورة بكريم التربة، وشرف الموضع، والغلّة الكثيرة[3]. وكان يقول لعياله: لا تبقوا نوى التمر والرطب، وتعوّدوا ابتلاعه، وخذوا حلوقكم بتسويغه، فإن النوى يعقد الشحم في البطن. وكذلك ينصح: "كلوا

---

[1]- الليط: قشرة القصب.

[2]- أنظر: البخلاء، ص ١٠٢.

[3]- أنظر المصدر نفسه، ص ١٠٣-٦.

الباقلي بقشوره، فإن الباقلي يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله. فما حاجتكم أن تصيروا طعاماً لطعامكم". وكان يعيّن مالاً كثيراً ولم يكن له وارث، فكان يسخر ببعضهم: "قد علمتم أنه لا وارث لي، فإذا متّ فهذا المال لفلان". وما رأى الناس يمشي إلا ونعله في يده، ولا يجده إلا حافية أو لابسة نعلاً سندية.

ومرّة حمّى الثوري، وحمّ عياله وخادمه، فما يقدروا أكل الخبز، فربح كيلة تلك الأيام من الدقيق، ففرح بذلك وقال: لو كان منزلي في سوق الأهواز (..) لرجوت أن استفضل كلّ سنة مائة دينار". فكان لا يبالي أن يحمّ هو وعياله بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق. وكان يقول: إذا رأيتُ الرجل يشتري الجدي رحمته، فإن رأيته يشتري الدجاج حقرته فإن رأيتُ يشتري الدُرّاج لم أبايعه ولم أكلمه". وكان له في البخل كلاماً كثيراً، وكان ينزل ببغداد في مسجد ابن رغبان، ويجتمع الناس عنده وإليه. وأكثرهم البخلاء.

ن. تمام بن جعفر

كان تمام بن جعفر[1] بخيلاً على الطعام، مفرط البخل، وكان يقبل على كلّ من أكل خبزه بكلّ علّة، ويطالبه بكلّ طائلة. وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدمّ. وإن قال له النديم: "ما في الأرض أحد أمشى منّي"، فيقول: " وما يمنيك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن؟". فإن قال: "لا والله لا أقدر أن أمشي لأني أضعف الخلق عنه، وإني لأنبهر من مشى ثلاثين خطوة"، قال: "وكيف تمشي، وقد جعلتَ في بطنك ما يحمله عشرون حمالاً؟ وهل ينطلق الناس إلا مع خفّة الأكل؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود، فكيف المشي الكثير؟". فإن شكا ضرسه، وقال: "ما نمتُ البارحة مع وجعه وضربانه"، قال: "عجبت كيف اشتكيت واحداً، وكيف لم تشتك الجميع؟" وإن قال: "لا والله إن اشتكيت ضرساً لي قط، ولا تحلحل لي سنٌّ عن موضعه، منذ عرفت نفسي" قال: "يا مجنون لأن كثرة المضغ تشدّ العمور وتقويّ الأسنان وتدبغ اللثة وتغذو أصولَها، وإنما الفم جزء من الإنسان، ولكن رفقاً، فإن الإتعاب ينقض القوة، ولكل شيء مقدار ونهاية. فهذا ضرسك لا تشتكيه، بطنك أيضاً لا تشتكيه؟". فإن قال: "والله إن أروى من الماء، وما أظن أن في الدنيا أحداً أشرب منّي للماء". قال: "لا بدّ للتراب من ماء، ولابدّ للطين بالماء يبلّه ويرويه، والله لو شربتَ ماء الفرات ما استكثرته لك".فإن قال: "ما أنام الليل كله، وقد أهلكني الأرق"، قال: "وتدعك الكظّة والنفخة والقرقرة أن تنام؟ ومن شرب كثيراً بال كثيراً، ومن كان الليل كله بين شرب وبول، كيف يأخ النوم؟". فإن قال: "ما هو إلا أن أضع رأسي، فإنما أنا حجر ملقيّ إلى الصبح"، قال: ذلك لأن الطعام يكسر ويخدّر ويختر". فإن قال أصبحتُ وأن لا أشتهي شيئاً" قال: إياك أن تأكل كثيراً أو قليلاً، فإن قليل على غير الشهوة أضرّ من الكثير مع الشهوة".

---

[1]- أنظر: البخلاء، ص١١٦-٩.

وكان كثيراً ما يقول لندمائه: "إياكم والأكل على الخمار. فإن دواء الخمار الشراب، وعليكم بالتخفيف في الصيف كله، واجتنبوا اللحم خاصة". وكان يقول: ليس يفسد الناس إلا الناس. وقول الناس للأكول النهم وللرغيب الشّره: "فلان حسن الأكل" هو الذي أهلكه وزاد في رغبه. ولوقالوا: "فلان أقبح الناس أكلاً، كان ذلك صلاحاً للفريقين. ولا يزال البخيل على الطعام، قد دعا الرغيب البطن. وقد سابَّ رجل أيوب بن سليمان بن عبد الملك، فقال في بعض ما يسبّه: ماتت أمك بغراً وأبوك بشماً[1]". ومرّة شرب النبيذ، وغناه المغني، فشق قميصه في الطرب، وقال لمولاه: شق أيضاً أنت"، وقال: لا، ليس لي غيره. فقال: "شقّه، وأنا أكسوك غداً"، قال: "فأنا أشقّه غداً". فقال: "أنا ما أصنع بشقك له غدًا؟ فهو ومولاه شقّا القميص من غلبة الطرب".

فتمام بن جعفر شخصية عجيبة ومتناقضة، ودلائله واحتجاجه غير مفهوم، وماذا وكيف يُفهم من هذا، أنه يتهم الأكلة للقوة في حين وللضعف في حين آخر. فعنده "البطن" مركز القوة لشخص، وما يمشي الرجل إلا بالبطن، ورجل آخر يشتكي لضعفه، ولا يمشي ثلاثة أقدام؛ فيقول له، وكيف تمشي، وقد جعل في البطن ما يحمل عشرون حمالاً. وإن شكا رجل ضرسه يقول كثرة المضغ تشدّ العمور، لأن الإتعاب ينقص القوّة، وضرسك لا تشتكي مثل بطنك لا تشتكيه. فسبب وجعه عنده كثرة الطعام. وإن يقول رجل أنه لم ينم في الليل، فسببه عنده الكظّة والنفخة والقرقرة، وإن وجد رجل وجع الرأس فسببه الطعام الذي يكسر ويخدّر ويختر، قليل أو كثير. وهو دائماً يصرّ على تخفيف الطعام، وفي الصيف، وخاصة اللحوم. وكان لا يحبّ كلمة "فلان حسن الأكل" لأن هذه الكلمة يفسد الناس، فلهم أن يقولو "فلان يقبح الناس أكلاً" ، وهذا عيب للأولاد أن أباه أو أمه ماتت بغراً أو بشماً. فبعده الاجتماعي أنه يتهم الناس وأن عيبهم ولو عيبة وحيدة أنهم يأكلون، وحاله أنه شرب النبيذ وسمع الغناء فشقّ قميصه من الطرب، وأصر لغلامه أن يشقّ هو أيضاً.

شخصيات نسائية

ا. مريم الصناع

هي شخصية حقيقية، وعثر الناس على اسمه بعد موتها. كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة الإصلاح. ومثال كفايتها أنها زوّجت ابنتها بحسن الأداء، وحلّتها بالجواهر، وكسّتها بثياب طيّب، وعظمت أمرها في عين الختن، ورفعت قدرها عند الأحماء. وهي جمعت هذه الأشياء بعقلها، وبكفايتها، وكانت ترفع من دقيق كل عجنة حَفَنة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك بعته.

---

[1]- البغر كثرة شرب الماء البشم: التخمة من كثرة الأكل.

ويشهد زوجه عنها أمام الناس أنها ليست خائنة في نفسها ولا في مال بعلها. ويدعو أن يخرج ولدها على عرقها الصالح، وعلى مذهبها المحمود[1].

فبعدها الخارجي أنها أمينة، وربّة البيت، واجتمع المال لزواج ابنتها. وبعدها الداخلي أنها تحبّ ابنتها، وهي تريد إكرامها عند أحمائها، فزوّجها بطريق حسن، بذكائها وتدبيرها وإصلاحها. وبعدها الاجتماعي أن زوجه يقدّرها، ويفرح بتربيتها، والناس يشارك في حزنه عند موتها. هي امرأة ذكية ولها صفات عميقة إنها من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح، وليست خائنة.

ب. معاذة العنبرية

هذه الشخصية مثالية في وضع الأمور مواضعها وفي توفية غاية حقوقها[2]. هي أرملة. أهدي إليها ابن عمٍّ لها أضحية، فكانت كئيبة حزينة ومتفكرة مُطرقة. وكانت خافية أن يضيع بعض هذه الشاة، لأن تضييع القليل يجرّ إلى تضييع الكثير. فتفكّر في استعمال القرن في السقف كالخُطاف[3]، والمصران[4] لأوتار المندفة. وأما قحف الرّأس واللّحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرّق، وما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللأدام والعصيدة. فيوقد العظام لأصفى وأحسن لهباً منه. وللصوف وجوه لا تُعد. والفرث والبعر للحطب. وبقي الآن الانتفاع بالدم، وهي تعرف مواضع يجوز فيها ولا يمنع فيها. فتبسمت، ذكرت أنّ عندها قدوراً شامية، ويزيد قوّتها من التلطيخ بالدم الحارّ الدسم. وبعد ستة أشهر قالت: لنا في الشحم واعرق وفي غير لك معاش، ولم يجيء وقت القديد بعد.

فبعدها الخارجي، أنها أرملة، وصاحبة الاقتصاد. وبعدها الداخلي يظهر في غاية الاهتمام وعمق فكرها، وتدبيرها في استفادة أي شيء كبير أو صغير. وعنايتها على هذه الأضحية أنها لم تصل إلى اللحوم حتى بعد ستة أشهر. وعندها لكل شيء إبّان.

---

[1]- أبطر البخلاء، ص ٣٠.
[2]- أبطر المصدر نفسه، ص ٣٣-٤.
[3]- الخطاف حديدية ملوية.
[4]- المُصران ما ينتقل إليها الطعام بعد المعدة. الأوتار: رباط بين أعضاء البدن.

ج. ليلى الناعطية[1]

صاحبة الغالية من الشيعة، فإنها ما زالت ترقع قميصاً لها وتلبسه، حتى صار القميص الرّقاع، وذهب القميص الأوّل. ورفت كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرّفو، وذهب جميع الكساء. فهذا بعدها الخارجي، أنها ترقع وتلبس. لانعرف بالضبط لماذا هي تفعل هكذا. لأن الرقع ليس غير محمود، إلا أن يكون في غلّ.

شخصيات صبيانية

ا. صبيُّ مرو

كان يلعب بين يدي أحمد بن رشيد. فقال له، عابثاً أو ممتحناً، أن يطعمه من خبزكم، فقال الصبيّ[2]: لا تريده، هو مرّ، وكذلك، ماءه مرّ، لايريده. وفي كل صنف كان جواب هذا الصبيّ، لا تريده. فاعترف أبوه، أنّ البخل في طبع مرو. وشخصية الصبيّ نشأت مع هذه الصفّة، والبخل في طينتهم وفي أعراقهم. أي البعده الخارجي والداخلي والاجتماعي كلها تظهر صورة واحدة، وهي صورة البخيل.

شخصيات حيوانية

ا. ديكة مرو

هو يختلف من أي ديك، وصفته المنفردة، أنه لا يلفظ الحبّ قدام الدجاجة. وديكة مرو تسلب الدّجاج ما في مناقيرها من الحبّ. فبعده الخارجي والداخلي أن البخل في مظهره وفي نفسه[3].

---

[1]- هي من نساء غالية، وجاء ذكرها في قصيدة صفوان الأنصاري في الرد على بشار، فيقول:

أتجعل ليلى الناعطية نحلة وكل عريق في التناسخ والرد

وأما "ناعط" التي تنسب إليها، فهي حصن في راس جبل بناحية اليمن، قديم، كان لبعض الأذواء. ويمكن أن تكون بمنية الأصل؛ فالتشيع غالب على اليمانية، وقد كان الناعطيون من أصحاب علي في الكوفة، وطائفة من طوائف جيشه بصفين. (تعليقات وشروح: طه الحاجري، ص ٣٠٠-١.)

[2]- أنظر: البخلاء، ص١٨.

[3]- انظر المصدر نفسه، ص ١٨.

٢,٢ـ تشريح الشخصيات

والجاحظ في كتاب البخلاء يبرز صور البخلاء، وتناول شخصيات بين البلاد اشتهروا بالبخل، ولكنّها غير متحرّج، ومرحّة عابثة تميل على السخر والتهكم. وهذه الشخصيات موجودة في كل المجتمعات وفي كل الزمن، ويستطيع الجاحظ أن يستحضر شخصياته من مجتمعه ومحيطه. وفيما يلي نماذج بعض الشخصيات في الجداول المسلسلة.

هذه مجموعة من ثمانية وأربعون شخصيةً (٤٨) أخذت من كتاب البخلاء في سبعة جداول. تشتمل فيها ستّ وعشرون شخصيةً نامية (٢٦) واثنتا وعشرون شخصيةً جاهزة (٢٢). وتسع عشرة شخصية فارسية وكذلك تسع عشرة عربية (١٩-١٩). ويوضح أبعاد الشخصيات الخارجي والداخلي والاجتماعي خلال الجداول. والبعد الخارجي لشخصيات البخلاء يظهر الغضب، والقوّة، وطيب الخُلق، وصفة الجود والكرم في العطاء، والمنع في الإنفاق، وحالة الجار الذي يقطر السمن على الخوان، والتزام الشخصية بـ"آيين فارس"، وإزعاج في الظاهر، والضرب للغلمان، وإكثار في الغسل، وتردد في الإنفاق، وسؤال من الجيران. وكذلك حالة ظاهرية في الشراء والطبخ وفي الأكل. والشخصية التي تجمع المكوك، والتي ترقع قميصاً، والحيوان الذي يأخذ الحبّ بمنقارة، والذي لا يشرب ماء أجاج، ويموت عاطشاً، والطفل الصغير الذي يلعب، وينكر أن يؤتي أي شيء، ويغضب على الضيوف .. الخ.

والبعد الداخلي يظهر في طمانية النفس في جمع الدواء والغذاء، وضاق النفس، وقلة الاعتماد على الغلمان، ومحاولة الأخذ على كل حال، وطمع النفس والبخل، ومخافة ومحاولة الأخذ، والخوف أن يقصد إليه، وتنفر من أكليل السوء. وكذلك صبر الرفقاء على الارتفاق، ورغبة في المشاركة، والخجل والضحك، وعدم خيانة، وكئيبة وحزينة ومفكرة، وخرقاء ..الخ.

والبعد الاجتماعي يظهر في تعامله مع الضيوف، وفي الإعطاء والمنع لبعض، واستقبال الضيوف بالترحاب، والانكار في الإعارة، وأكلة وحيدة، وإصلاح الحمار، ومعاملة الاقتصاد، واستلاف، وإغلاق الباب على الضيف، والغضب على العيال، والحرص أن يؤكل، ودعوة إلى البخل، ويطعم فالوذج على عرس، ومعاملة مغاضبة مع بعض الرفيق، وإصلاح المرأة في بيتها. وكذلك أن الشخصية مسافرة، وفقيه، وأرملة، وذات الاقتصاد، خُراسانية أو مرزوية، من الشيعة .. الخ.

جدول ٣,٣,١: شخصيات البخلاء (من أهل مرو وخراسان) الجدول التسلسلي

الشخصية	جاهزة/ نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
مروزي	نامية	فارسية	يكيد للبخل	يلجأ إلى الحيل	يحيل للضيوف	١٧
ابن أبي كريمة	نامية	فارسية	يغضب على الضيف	ضيق النفس	أصله من مرو	١٧
الكندي	نامية	عربية	يمدّ من الطعام بالقوة	بخيلاً	ينفق على الصديق ويمنع الجار	١٧
رجل متراءل	جاهزة	فارسية	يطعم وحيداً	حرص	مسافر	١٨
أبو عبد الله المروزي	جاهزة	فارسية	مصلّح	عاتب في مسارج	فصل أهل مرو	٢٠
أبو عبد الله المروزي	جاهزة	فارسية	أطيب الخُلق وريّاء	أملحهم بخلاً	لا يعرف ضيفه	٢١
العراقي	نامية	فارسية	جواد وكريم	يكرم الضيف	يرحب الضيوف	٢٢
جار النطّام	نامية	فارسية	يمنع الماعون	مغضب	لا يعير لجاره	٢٣
جار النطّام	نامية	فارسية	يقطر السمن	يريد الدسم	طلّق زوجه	٢٣
خراساني	جاهزة	فارسية	لا يشارك الآخرين	عاقل وفقيه	أكل وحدة	٢٤
شيخ خراساني	نامية	فارسية	يلتزم دستور الفارس	لا يريد الفساد	أنين كلام بكلام	٢٥
خالد حومهرويه	نامية	فارسية	حاكم بخيل	يرعبه من الكذب	سرر الشاعر بكلام	٢٦
المراوري	نامية	فارسية	يسمع الوعظ ويتصدّق	يزمن بالحلف	يسمع وعظ ويعمل	٢٧
ثمامة	جاهزة	عربية	مرعى	لحقه الغمّ	يضيّق من كلام	٢٨
المروزي	جاهزة	فارسية	لا يلبس نعلاً	يحفظ نعله	يعظ بالبخل	٢٨

جدول ٣,٣,٢: شخصيات البخلاء من أصحاب المسجديين وغيرها

الشخصية	جاهزة/ نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
الشيخ	نامية	عربية	يغسل بالعذب	اهتمام بالسنة	إصلاح للحمار	٢٩
الشيخ	نامية	عربية	مريض	جمع الدواء والغذاء	مقتصد	٣١
الشيخ	نامية	عربية	ضاق بالجهد	يسر بعد العسر	تعلم الحراق	٣٢
زبيدة بن حميد	نامية	عربية	الصيرفي	يضيق النفس	استلف من بقال	٣٥
زبيدة بن حميد	جاهزة	عربية	ضرب غلمانه	لايعتمد على الغلمان	يشرب الماء زوّاره	٣٥
زبيدة	نامية	عربية	كسا صديق له قميصاً	الأخذ على كل حال	بحيل سكران	٣٦
وليد القرشي	نامية	عربية	يبكر الضيف	حيلة بسكران	أغلق الباب على الضيف	٣٨
أحمد بن خلف	نامية	عربية	نال مال ميراث	يعرض طعيماً	يعصب على العيال	٤١
صالح بن عفان	نامية	عربية	يكثر في العسل	-	يغسل في عمار الناس	٤٤
خالد بن يزيد	نامية	عربية	يتردد في الإنفاق	بحيل	يعضب على الناصح	٤٦
خالد بن يزيد	نامية	عربية	يتزيد في الطعام	البخل على طعام	الحرص أن يؤكل	٥٥
خالد بن يزيد	جاهزة	عربية	جلدالختار على إبضاج	بخل في العجين		٥٥
أبو جعفر الطرسوسي	جاهزة	_	حك شفة العليا	مخافة أن تأحد إصبعه من العالية	زار قوماً	٥٨
أبو محمد الحرامي	جاهزة	عربية	تنبّه لبس الكساء قبل أوانه	بخيل وطيّب	يدعو إلى البخل	٥٩
			يشتهي لحم دجاجتين	يخوف أن قصد إليه	من أسباب الإفلاس طمع الناس فيه	٦٢
الحارثي	جاهزة	عربية	طعام جيد، ويأكل وحيداً	تنفر من أكيل السوء	لا يحتمل متطفّل	٦٧-٧٠
الكندي	جاهزة	عربية	يسأل الجيران	يحيل لحمل امرأته	ألوان من الطعام	٨١
			شروطه لكراء بيته	إفراط البخل عند نزول الضيوف	ليس بينه وبين المستأجر حلّة	٨٢-٩٠

هذه الشخصيات أخذت من القصص المسجديين، الذين كانوا يجتمعون في المسجد، ويتحلون الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، وكانوا يتناصرون حلقهم، التماساً للفائدة.

جدول ٣,٣,٣: شخصيات مركبة

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
رفقاء خراسانيون	نامية	فارسية	شذّوا عينيه	صبروا على الارتفاق	يناموا ويطعوا المصباح	٣٢
رفقاء	نامية	فارسية	شروا اللحم	راغب في المشاركة	طبع البخل، وأبعد من الفساد	٣٨
أنا و و . و .	جاهزة	فارسية	أكل كل إنسان رغيفة	خجلوا مرّة وضحكوا مرّة	خد واقسم على أصحابنا	٧٩-٠
	نامية					

جدول ٣,٣,٤: شخصيات أنثوية

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
مريم الصناع	نامية	-	كانت تجمع المكوك[1]	ليست حانية	كانت ذوات الإصلاح	٤٨-٠
معادة العنبرية	نامية	-	تبسمت بوجه طلق	كئيبة، حزينة، مفكرة	أرملة	٥٣-٤
ليلى الداعطية	جاهزة	-	ترقع قميصألها وتلبسه	حرقاء	من الشيعة	٥٨

جدول ٣,٣,٥: شخصيات حيوانية

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
الديك	جاهزة	فارسية	يأخذ الحبّة بمنقاره	الدخل في الطبع	عمّ النحل في البلاد	٣١
الحمار	جاهزة	-	لايقرب ملح أجاج			٤٧-٨
حمار مكاري	جاهزة	_	مات عطشاً		سقوه ماء بئر	٨٠
حمار مستعار	جاهزة	_	يسقون ماء بئر	لا يعرف إلا العذب	أمكنه من أذن، سمع ما يشتهي	٨٠

[1] -المكوك معيار يكال به، وهو مكيال يسع صاعاً ونصفاً، او نصف رطل إلى ثمان أواق، أو نصف الويبة، الخ التقديرات التي ترجع في احتلافها إلى اختلاف الزمان والمكان. والأصل في كلمة المكوك أنها طاس يشرب به. (ت طه الحاجري، ص٢٩٦.)

جدول ٣,٣,٥: شخصيات صبيانية

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
صبيّ مرو	جاهزة	فارسية	صغير، يلعب	رفض أي شيء	بحل طبعي	٢-٣١
حدّ الصبيّ	جاهزة	عربية	يجيء ويذهب	يقول: كم تأكلون		٦٦
صالح بن عمان	نامية	عربية	يكثر في الغسل	وجد غسلة	يغسل في غمار الناس	

جدول ٣,٣,٧: شخصيات بالمقاربة النسبة

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
كان معنا	جاهزة	فارسية	يأكل وحيداً	عاقل	فتيه، له دليل لبخله	٢٤
صديق لنا	نامية	_	بخيل على الطعام	توهم أنّا تذاكرنا أمره	يغرّم من أكل قليل	٨١
جدي	جاهزة	عربية	صرب الشواء	قام مقام جدين	وضع بين يديه غير منضج	٨٢
كان لنا جار	جاهزة	-	عريس	يريد الراحة	يطعم فالوذج على عُرس	١٣١

٣. الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة

٣,١. ملامح الشخصيات

الشخصية تكون عنصراً رئيسياً في القصّة، ومن خلال هذه الدراسة سأبحث الشخصيات القصصية في هذا الكتاب الذي له ثلاث مجلدات. ولا يمكن لي أن استوعب أبعاد كل شخصيات الواردة في القصص (لأنه سيكون طويلاً جداً)، فأختار شخصيات رئيسية وسأبحث ملامح هذه الشخصيات، لتكون هذه الدراسة إجمالي وشمولي. وقسمت هذه الشخصيات بترتيب الزمني كالآتي:

ا. شخصيات من التاريخ القديم

١. وزير كسرى أنوشروان

هذا وزير كسرى أنوشروان، لمّا رأى مَلِكه يعيش صبوحاً وعشياً، كتب إليه، ونصحه بعض النصائح[١]. فبعده الخارجي يظهر جرأته على الحق، وبعد الداخلي يظهر إخلاصه للمملكة أوّلاً وللملك ثانياً. وهو حكيم بالغ النظر، وذو همة عالية، يعرف أهمية أمن العالم، وكيف يؤثر سيرة الحاكم، وعدله في الدنيا، وكذلك يعرف أهمية العمال أن يكونوا على الحق. وهذه موازين لفرحة عاجلة. فبعده الاجتماعي أيضاً يظهر أنه وزير حقيقي يراعي أمور المملكة. ولو نبحث حقيقة هذا الملك أنوشروان فعلى ظهره رجال مثل هذا الوزير العاقل، الذي يشاوره في أمور المملكة. وبمساعده نجح أنوشروان في إقامة مملكة عظيمة ليست مثلها مملكة على وجه العالم حتى اليوم.

٢. جريج

كان جريج[٢] شاباً عابداً. كان يتعبّد في صومعته، فأتت أمه فقالت: يا جريج كلّمني، أنا أمّك، ويقول جريج في نفسه، كيف اتكلم أمّي، اللهم أمّي وصلاتي؛ واختار صلاته. فدعت له: اللهم إنّ هذا ابني قد عنّني، فلم يكلمني فلا تمته حتى تُريه المومسات، ولو دعت عليه أن يفتن لفُتِن؛ وامرأة خرجت من القرية فوقع عليها الراعي الضان، فحملت، وولدت غلاماً، فقيل لها:

---

[١]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص٢٤.

[٢]- أنظر: المصدر نفسه، ح ٢، ص٩٧-٨

ممن هذا؟ قالت: من صاحب هذه الصومعة، فأقبل الناس بفؤوسهم، فصادفوه يصلي، فلم يكلمهم، فهدّموا ديره، فنزل وتبسّم، ومسح رأس الصبيّ وقال: من أبوك؟ فقال: أبي راعي الضّأن. فقالوا: نحن نبني لك ما هدمنا بالذهب والفضّة، قال" لا أعيدوها كما كانت تراباً. فشخصية جريج، شخصية رئيسة في هذه القصّة، الصفة الأولى أنه متعبّد، والثانية أنه يعقّ أمّه. فدعت عليه، فاتهمت امرأة عليه، وجمع الناس وهدّموا صومعته. وجريج يحلّ هذه المسئلة بطريقة عجيبة، هو ينزل، ويمسح رأس الصبيّ ويسئله: من أبوك؟ وهو يكلّم في المهد: أبي راعي الضّأن. فيرفع قدره في أعينهم كأنه شيء عظيم، وهم يريدون أن يبنوا صومعته بالذهب والفضّة، لكنه يريد ديره كما هومن قبل، من تراب.

٣. ثلاثة من بني إسرائيل

هم ثلاثة[1]، خرجوا في وجه، فأخذهم المطر، فدخلوا كهفاً، فوقع حجر عظيم على باب الكهف. فقالوا: لا ينجينا إلا ما عملناه في الرخاء.

الأول، كنتُ راعياً، فأرحتُ وحلبتُ، فسقيتُ أوّلا الوالدين ثمّ الأولاد، فجئتُ يوماً فوجدتُ أبويَّ قد ناما، فلم أوقظهما لحرمتها ولم أسقِ الأولاد، وبقيتُ قائماً إلى الصبح؛ فإن كنت يا ربّ قبلتَ هذا منّي فاجعل لنا فَرَجاً، فتحرّك الحجر، ودخل عليهم الضوء. فتقبل الله عمله أنه كان يؤول أبويه في الطاعة.

الثاني، كنتُ صاحب الضياع، فجاءني رجل بعد ما متع النهار، وكان لي أجراء يحصدون الزرع، فاستأجرته وافياً كما أعطيت غيره، فغضبوا، وقالوا: تعطيه مثل ما أعطيتنا. فأخذت تلك الأجرة واشتريت بها عجّولا ونمى حتى كثُر البقر؛ فجاء صاحب الأجرة يطلب، فقلت، هذه البقر كلها لك، فسلّمتها إليه، فإن كنت يا ربّ قبلت منّي ها الوفاء ففرّج عنا. فتحرّك الحجر ودخل منه ضوء كثير. فتقبل الله عمله الذي عمله بالإخلاص، أنه حفظ أمانته، وفكر في نموها، وأعطى بكل ما حصل مع الربح.

الثالث، كانت لي بنتُ عمٍّ فراودتها، فأبت، حتى أعطيتها مائة دينار فلما أردتُ ما أردتُ اضطربت وارتعدت. فقلت لها: مالك؟ فقالت: إني أخاف الله. فتركتها ورجعتُ عنها، إلهي فإن كنت قبلت لك مني ففرّج عنّا. فتحرّك الحجر، وسقط عن باب الكهف وخرجوا منه يمشون. وهذا الشاب حفظ عصمة ابنة عمّه، وعصمته أيضاً بعد أنه كان قادراً على الذنب. لكن مع ذكر الله ترك ذنب من الكبائر، ودخل في رحمته، وتحرك الحجر دليل أن الله تقبل عمله الصالح. فقال

---

[1]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص١٢٤-٥.

النبيّصلى الله عليه وسلم إن الله تعالى حرم عقوق الأمهات، وهو يحب المعاملة الحسنة بين الأجير والأجير، ويحبّ النكاح، ويحرّم الزنا.

ب. أنبياء عليهم السلام والعصر النبوي

١. إبراهيم عليه السلام

إبراهيم –عليه السلام – أبو الأنبياء وصديقاً نبياً، هو خليل الله، اصطفاه الله بفضله ولرسالته على كثير من العالمين. و"قيل له: بأي شيء اتّخذك الله خليلاً، قال: بأني ما خيّرتُ بأمرين إلا اخترتُ الذي لله، وما اهتممتُ لما تكفل لي به، وما تغدّيتُ وما تعشّيتُ إلا مع ضيف"[١]. فشخصية إبراهيم - عليه السلام- شخصية تحبّ الله، وهو تصوير حيّ كما يذكر في القرآن: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ (١٦٥))**[٢]، فقوله يشرح وهو حديث بالذات، وإعترافه، أنه يختار كل عمل لله، وهو أوّاه منيب، ويقول: **(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩))**[٣]. صفته الأولى يربطه بالله، ولذلك اتخذه الله خليلاً، ومعناه الخليل أوسع من الصديق. وصفته الثانية يربطه بعباد الله، هو يحبّ الناس، ولا يأكل وحيداً، صباحاً أو عشيّاً.

٢. سليمان عليه السلام

وردت ذكر مطبخ سليمان –عليه السلام – يخبز فيه كلّ يوم ستّمائة كرّ حِنطة[٤]، ويذبح له في كلّ غداةٍ ستة آلاف ثور وعشرون شاةً، وكان يطعم النّاس، ويجلس على مائدته بجانبه اليتمى والمساكينَ وأبناء السبيل، ويقول لنفسه: مسكين بين مساكين. ولمّا ورد تهامة وافى الحرم، ذبح للبيت طول مُقامه بمكةَ كلّ يوم خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة. وقال لمن حضر: إنّ هذا المكان سيخرج منه نبيٌّ صفته كذا وكذا. وشخصية سليمان عليه السلام، ذكر الله في القرآن ١٧ مرة، وكان في معاشر الأنبياء أولو العزم، وأعطاه الله ملكاً عظيماً، وكان يطعم الطعام للناس، طعاماً ثميناً وجيداً، وكان يجلس بين اليتامى والمساكين وأبناء السبيل. وهي طريقة النبيين والصالحين، ليس فيه ذرة من الكبر على ما آتاه الله، بل يحصي نفسه في صفّ المساكين. وفي سفر الحج كان عمله الطيّب أنه كان يُطعم الناس على كلّ مقام، ويصف أوصاف النبيّ الذي سيخرج في هذا المكان.

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٧٨

[٢]- سورة البقرة.

[٣]- سورة الأنعام.

[٤]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٢٩.

ج. أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

١. أسامة بن زيد رضي الله عنه

هذه القصّة تبرز شخصية أسامة بن زيد رضي الله عنه . المبنى الحكائي هو قفّ[١] النخلتين. كان أسامة بن زيد[٢] على العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبعد الخارجي يظهر حبّ الرسول الله على أسامة، وهو مركز هذا الحبّ أنه كان على هذه الناقة. يريد الأنصار السباق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أسامة؟ وهو ينظر بنظرةٍ خاصةٍ على هذا الشاب. فلمّا بلغ الصوت إليه، فوضع السّوط في الناقة فأقبلت. وهي تظهر الطاعة من جانب أسامة. فترع الناقة، وفي السباق سبقت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل أسامة يُكبِّر ويقول: سبق رسول الله، ورسول الله يقول: سبق أسامة. وهناك مظهر الحبّ بين أسامة ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وشفقة الرسول الله لأسامة. فلما أكثرمن ذلك قال: أقصر يا أسامة، فإنّ إخواننا من الأنصار فيهم حياء وحفيظة. فشخصية أسامة ملينة بالحبّ، والطاعة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما قال الله تعالى في القرآن: **(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧))**[٣].

٢. رجل أقرض ألف دينار

هي شخصية إيجابية، وكان رجلاً مجهولاً، ذهب إلى النجاشي، وقال له: أقرضني ألف دينار إلى أجل[٤]، فقال: مَن الكفيل بك؟ قال: الله، فأعطاه الألف. فلما بلغ الأجل أراد الردّ، فحبسته الرّيح. فبُعده الخارجي، أنه أخذ القرض للميعاد، وكان يريد أداءه، لكن حبسته الرّيح. فعمل معاملة عجيبة، أخذ التابوت، ووضع فيه الألف وغلّفه، وألقاه في في البحر، وقال "اللهمّ أدّ حمالتك"، ثمّ جمع الألف ، وطابت الريح، وجاء إلى النجاشي، وسلّم عليه؛ وقال النجاشي لم أقبلها منك حتى تخبرني بما صنعت فيها. فأخبره بالّذي صنع؛ فقال النجاشي: فقد أدى الله عنك. فهو صادق في الخارج والداخل، وفكرته كانت عميقة، وإيمانه بالله كان قوياً، هو أدّى الأمانة على أجلها، ولم يفكر أنه أدّى القرض، بل جمع هذا المال مرّة ثانية، ووصل إلى صاحب الحق. ووسع رحمة الله على كل شيء، وهو قادر، وإذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون. وهذه لفظته أن النجاشي رأى هذا التابوت في البحر، فقال ائتوني به، ففتحه فإذا فيه الألف.

---

[١]- القفّ ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته، وهو مقام مرتفع تقع بين النخلتين.

[٢]- أنظر. الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص٣٠.

[٣]- سورة الحشر.

[٤]- أنظر. الإمتاع والمؤانسة، ح ٢، ص٩٦-٧

د. عصر الخلفاء الراشدين

١. سلمة بن المُحبِّق[١]

قد شارك سلمة في فتح الأبُلّة[٢]، فوقع في سهمه قِدرُ نحاس، فنظر إليها، ووجد ذهب فيها ثمانون ألف مثقال، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر أن يحلّف سلمة، فحلف وسلّمت الأموال إليها. وهذه شخصية سلمة الذي كتب إلى الأمير لحقه، والأمير أيضاً قام لأداء حقّه، ولو كان مالاً كثيراً.

٢. رجل من تغلب

هذا الرجل كان في جانب معاوية رضي الله عنه يوم صفّين[٣]، فسأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن سببه، فقال: آثرنا القسب[٤] الأصفر، والبرّ الأحمر، والزيت الأخضر. أي اعترف أنه آثره لمال الدنيا. فشخصيته يظهر بعده الداخلي الذي أثّر في عمله الخارجي.

ر. العصر الأموي

١. عمر بن عبد العزيز

شديد في تحفّظ بيت المال المسلمين. يعيد النظر برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين. ووجد في المحادثة تلقيحاً للعقول، وترويحا للقلب، وتسريحا للهمّ، وتنقيحا للأدب[٥]. وقيل لعمر بن عبد العزيز: "ما تقول في عليّ وعثمان وفي حرب الجمل وصفّين؟ قال: تلك دماءٌ كفّ الله يدي عنها، فأنا أكره أن أغمس لساني فيها"[٦]. وهذه شخصية عمر، بعده الاجتماعي أنه قام لحفظ بيت المال، ونصحه لعامة المسلمين. وكان بعيداً من أمور الخلاف، والتعصب في جماعة المسلمين، ولا يشارك في قيل وقال، ورأيه سديداً في هذه المعاملة، هو كفّ أيديه من

---

[١]- هو صحابي الرسول صلى الله عليه وسلم وقيل الهزلي البصري. ويكني أبا سنان (الإصابة في تميز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق/ علي محمد البجاوي، ح٨ ط١، دار الحيل، بيروت، ١٤١٢هـ.)

[٢]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٦٤.

[٣]- أنظر المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣

[٤]- القسب التمر اليابس.

[٥]- الإمتاع والمؤانسة، ح ١، ص٢٦.

[٦]- أنظر المصدر نفسه، ج ٣، ص١٨٣.

حربين (الجمل وصفّين)، وكذلك حفظ لسانه أن يلقى في هذه الفتنة. واختار سبيله ما اختار كبار الصحابة.

٢. الحجاج

الحجاج هو عامل في العصر الأموي، وكان معروفاً في الشدّة. وجد رجلاً في وجع بسبب عظم في الطعام التي غصّ في عنقه[١]، فأمر أن تصب المرق على المناخل[٢].

٣. مالك بنُ عُمارة اللَّخميّ

كان يجلس مالك بن عُمارة اللخمي[٣] مع عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزّبير، ويخوض في الفقه، وفي الذكر، وأشعار العرب وآثار الناس، وكان يعجب بعلم عبد الملك بن مروان وتصرّفه في فنون العلم والفصاحة والبلاغة إعجاباً كثيراً. فلقيه في خلوة. ولمّا أفضت إليه الخلافة، حضر مالك في خطبة الجمعة، نظر عبد الملك بن مروان إليه لكن أعرض عنه، لكن رحبّه في قصره. وبوّءه منزلاً في الدار. وكان في أخفض حال وأنعم بال؛ وبعد العشاء يأتي إليه الغلام، ويصيره إلى أمير المؤمنين، وهو يسأل عنه عن العراق والحجاز، وعن أمور أخرى، حتى مضت له عشرون ليلة، فأمره أن يختار بين القيام في القصر أو الرجوع إلى الأهل والولد، فاختار الرجوع، فأمر له بعشرين ألف دينار وكسوة وحمله على راكب، وودّعه بالدعاء. هي شخصية علمية في العصر الأموي، يحبّ العلم، وفي أيام الموسم يجلس في ظلّ الكعبة مع أصحاب العلم في ذلك الزمان. فالزمان والمكان وغاية مجلس، تزيد صفة هذا النور(نور العلم)، كأنه هو نور على نور. وفي ميزان العلم وجد عند عبد الملك بن مروان من لايجد عند أحد منهم، وهو اعتراف بمكانته قبل أن أفضت إليه الخلافة. وحضر في الجامع ليسمع خطبة الجمعة، ومن ذلك الاستماع أخذ طريقاً إليه. فبوّءه منزلاً في داره، ومضى عشرون ليلة في المحادثة، يسأله الأمير عن العراق والحجاز، ثمّ رجع من داره مع المال والإكرام مع اختياره. وهذا نموذج لشخصية علمية في العصر الأموي، بكلّ حيويته.

---

[١]- أنظر- الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٦٤.

[٢]- المنخل. التي يستخدم لتنظيف الدقيق من قشوره أو الأرز (أو العظام المكسرة) بل وحتى الرمل.

[٣]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٧٠-٢.

٤. الحسن البصري[1]

وكان للحسن جار نصراني[2]، وكان يؤذيه، بكنيف كان له على سطح، ونقب ذلك في بيته، وكان يتحلّب منه البول في بيت الحسن، وكان الحسن أمر بإناء فوُضع تحته، ومضى على ذلك عشرون سنة، فمرض الحسن ذات يوم، فعاده النصرانيّ، فرأى ذلك وقال: يا أبا سعيد: مذ كم تحملون مني هذا الأذى؟ فقال: منذ عشرين سنة، فقطع النّصراني الزنّارة وأسلم. فتظهر شخصية الحسن الحليمة القويّة الصابرة، فبعده الخارجي يظهر في صبره وثباته، وبعده الداخلي أيضاً يثبت الخير في قلبه، وهو مثال حسن لآية القرآن: (**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١٣٤))**[3].

ز. العصر العباسي

١. جحظة

الشاعر المعروف، وكان من ظرفاء عصره. تماكس مع بنّاء الحائط[4]. لكن حسّه الظريف يوقظ مع سقوط الحائط ويقول: كان يبقي إلى أن تستوفيَ أجرتك. فظرافته لم تمت مع نقصان مضاعف.

٢. التوحيدي

مؤلف هذا الكتاب، نادر الكلام،كان قائماً على زنبرية الجسر، لأن الحجاج يدخلون عرض الجسر، فرأى الجزع عليه نعش ابن بقيّة صلبه الملك، فقال: ما أعجب أمور الدنيا (..) عضد الدولة تحت الأرض وعدوه فوق الأرض![5] وهذه فكرة نادرة، من أبعاده الداخلي، وكلامه مظهره الخارجي الذي وصل إلى الملك فأمر بدفنه. ومن هذا يُفهم قوة كلام التوحيدي الذي أعطى ابن بقيّة اللحد.

---

[1]- هو من أخطر الشخصيات في القرن الأوّل، هو عراقي الأصل، وولد في بيت أم سلمة (رضي الله عنها) سنة ٢٢هـ، ونشأ وترعرع في هذه البيئة الإسلامية، ظل في المدينة حتى كانت سنه أربعة عشر عاماً، حين قتل عثمان (رضي الله عنه). (تعليقات وشروح: طه الحاجري، ص٢٧٢-٣)

[2]- أنظر. الإمتاع والمؤانسة، ح ٢، ص١٢٢٩.

[3]- سورة آل عمران.

[4]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ح ١، ص٢٨.

[5]- المصدر نفسه، ح ١، ص٤٢.

٣. المهدي

خليفة المهدي، بعده الخارجي أنه يريد علوّاً في الأرض، وهو بعده الداخلي أيضاً. فأمر أن يبايع النّاس. فسأله أبو دعلج: علام؟ قال: على ما بويع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صفّين. وعلى هذا الخطأ الفاحش يقول: أحبّ التسهيل على الناس[١]. فبعده الاجتماعي أنه يخطي ولا يعترف، بل يؤكد أنه يسهل على النّاس. وهل نسي النّاس حرب صفّين - هذه المعركة العظيمة - نشبت بين المسلمين.

٤. الوزير

نزل الوزير ليركب المركب بباب الطاق[٢]. اجتمع الناس على الشطّ وصاحوا وضجّوا وذكروا غلاء القوت وتعذر الكسب وغلبة الفقر وتهتك صاحب العيال. هذا بعده الخارجي، أنه نزل كما ينزل الأمراء والوزراء. وظهر بُعده الاجتماعي حين وجّه الرعيّة من طبقة الفقراء، وأجابهم بجوابٍ مرّ. وإظهار التبرم بالاستغاثة، لأنهم لم تأكلو النّخالة. وقطوب الوجه يظهر بُعده الداخلي، لأنه كان مغضباً عليهم في نفسه. فأبعاده الثلاثة يكمل شخصيته، يخرج بكبره، ولا يسمع مصائبهم، وينظر إليهم بالغضب، ولا يسمح لهم حتى وأن يرفضوا أكل النخالة (وهو غذاء رخيص)، ويهدر الوزير ويلزم على الرعيّة التبرّم.

س. شخصيات نسائية (الحرائر والجواري)

١. أمّ رجل

هذه الأم كانت متفكرة لتربية أولادها، ودعت لابن أسيد القاضي، أن توصيَ، وتحضر وتكتبَ[٣]. فبعدها الخارجي والداخلي معاً، أنّها الأمّ، وهي حريصة لتربية الأولاد، وتريد الإصلاح لهم. وصفتها أنها تحسّ مسئوليتها، ونادت القاضي، للنصيحة.

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص٧٠

[٢]- أنظر المصدر نفسه، ح ٢، ص٢٦.

[٣]- أنظر المصدر نفسه، ح ٢، ص ٦٥.

٢. أعرابية

هي أعرابية نشيطة، أيقظت أولاداً لها صغار قبل الفجر، في غدوات الربيع، وقالت: "تنسموا هذه الأرواح، واستنشقوا هذا النسيم، وتفهموا هذا النعيم، فإنه يشدّ متنكم"[١]. هي امرأة ساذجة لكن عاقلة، وتحسّ أهمية هذا الوقت، وإيقاظ الأولاد قبل الفجر كيف يأتي الخير للجسم، واعتراف النعمة تزيدها.

٣. فاطمة بنت الحسين رحمه الله

كانت فاطمة بنت الحسين[٢] في المدينة في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين قدم المال إلى هذه المدينة. فدعت أبا بكر بن حَزم ليكتب إلى عمر، فكتب عنها. وهي اشتكت عن الجفوة أصابتها في تخفيف حقّها، لأنها أصابت خمسين ديناراً مع عامة الناس. واحتجت إلى أن يعمل فيهم بالحق. ومن الجانب الثاني مدحت لأمير المؤمنين أنه قد اختدم من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا خادم له، واكتسى من كان عارياً (..)، فذهب الرسول إلى الشام، وأرسل عمر إليها خمسمائة دينار، وكتب إليها كتاباً يذكر فيه فضلها، وفضل أهل بيتها، وذكر ما فرض الله لهم من حقّ. فمكانتها عند المسلمين وعند أمير المؤمنين عالية، وفي شكايتها واحتجاجها وقار وكرامة لها ولأسرتها. وكان بيت المال يقسم بين المسلمين، حسب منزلته بين المسلمين.

٤. أمّ حبيبة بنتِ أبي سفيان رضي الله عنهما

كانت أمّ حبيبة رضي الله عنها في الحبشة[٣]، حين مات عبيد الله بن جحش، فخطبها النبيّ صلى الله عليه وسلّم إلى النجاشي، فدعا بالقريشيين، فزوّجه نبيّ صلى الله عليه وسلّم، ومهر عنه أربع مائة دينار. فصفتها الأولى أنها تركت أباها- أبا سفيان وعائلتها- وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، والثانية، أن زوجها مات في الحبشة، وهي صبرت عليها، والثالثة أن النبيّ عليه الصلوة والسلام خطبها، والرابعة أن النجاشي أدّى مهرها، وهي أول امرأة مهرت أربعمائة دينار. وهي أتت إلى النبيّ مع الحكم بن العاص، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يكثر عليه النظر بسببها. (كان من عائلتها.)

---

[١]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٦٧.
[٢]- أنظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٢.
[٣]- أنظر. المصدر نفسه، ج ٢، ص٧٤

ص. شخصيات صبيانيّة

١. غلام أعجميّ

وهذا غلام أعجميّ، أبتُلي بوجع شديد[١]، فجعل يتأوّه ويتلوّى ويصيح. فقال له أبوه: يا بنيّ اصبر واحمد الله تعالى، فقال: لماذا أحمدُه! قال: لأنه ابتلاك بهذا؛ فاشتدَّ وجعُ الغُلام ورفع صوته بالتأوُّه أشدَّ مما كان، فقال له أبوه: ولمَ اشتدَّ جَزَعك! فقال: كنتُ أظنُّ أنّ غيرَ الله ابتلاني بهذا فكنت أرجوه أن يُعافيني من هذا البلاءِ ويصرفه عنّي، فأما إذا كان هوالّذي ابتلاني به فمن أرجو أن يُعافِيَني! فالآن اشتدّ جزعي، عظمت مصيبتي. قال: ولو علمَ أنّ الذي ابتلاه هو الذي استصلحه بالبلاء ليكون إذا وهب له العافية شاكراً له عليها بحسٍّ صحيح وعلمٍ تامٍ لكان لا يرى ما قاله وتوهّمه لازماً.

وهذا الغلام أعجميّ عنده علم قليل، هو يعرف الله بصفات الرحمة فقط، ولا يعتقد أن كلّ خير وشرّ من الله تعالى. يظن أن الله مرجع الخير فقط، والوجع الذي لاحقه هو من جانب غير الله، وهو يدعو أن ينجيه من مصيبة أصابه من غير الله، ولما أعلم أن هذا الوجع أيضاً من الله تعالى اشتدّ وجعه. فعلمّه أبوه أن يسأل الله رحمته والعافية، وأن يستصلحه بالبلاء الذي وهبه.

ط. شخصيات مجانية

١. المُجان

اجتاز ابن معروف بباب الطاق[٢]، فتعلق بعض هؤلاء المجان بلجام بغلته، وقال: أيها القاضي، عرّفنا، أنت مرعوشي أم فضلي؟ فالتفت إلى الحرّاني، فقال: يا أبا القاسم، نحن في محلّة من؟ قال: في محلة مرعوش؛ فقال ابن معروف: كذلك نحن – عافاك الله – من أصحاب محلّتنا لا نختار على اختيار هم؛ ولا نتميّز فيهم.

وهذه عصبية التي شاعت في البلد، ومفاخرة بين فضلي ومرعوشي ازداد وتكثّر حتى المجان يسدّ الطريق للقاضي، ويسأله تعرفه كفضلي ومرعوشي، وهو يخرج من هذه العصبية بالتورية.

---

[١]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، ج ٣، ص١٨٩-٠.

[٢]- أنظر: المصدر نفسه، ج ٣، ص١٨٨.

ع. شخصيات مخنّثة

١. مخنّث بالبصرة

بعده الخارجي أنه يجمع بين المتعاشقين، ويعشق بعض المهالبة[١]، وهو يشهد الوقعة بالبصرة سنة سبعين بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير. ودامت هذه الوقعة أربعين يوماً، وكان النصر فيها لعبد الملك بن مروان بالبصرة. ويبيّن مخنّث تصوير حسّي لوقعة جفرة. وبعده الاجتماعي أنه لم يشارك في المعركة، إلا بكلامٍ لطيفٍ عن الفريقين.

٢. مخنّث يلقب مشمشة

نبدأ ببعده الخارجي أنه كان أمّيّاً، ويتدخل في الأمور ليس له أي علاقة، كتب في حضرته رجل إلى صديقه كتاباً[٢]، فقال له: أكتب إليه: مشمشة يقرأ عليك السلام؛ ثمّ قال: أرني؛ فقال: هذا اسمك؛ (ولم يكتب اسمه) فقال: اسمي في الكتاب "شبه داخل الأذن"، فضحك الناس من جودة تشبيهه. أي حسّه المرهف.

٣. مخنّث ينتقم بالغريب (من الألفاظ)

وهذا المخنّث[٣] يعرف بالغريب من الألفاظ، ورجل من عامّة الناس آذاه وطال ذلك. فالتفت إليه وأجابه بجواب، من الكلام لا يعرفه بسبب غرابته، وفيه إهانته، فلم يفهمه العامي لكن خجل وذهب. فسأله السّري عن تفسير هذا الكلام، ففسرّه، وكلّ هذا الكلام يشتمل على إهانته على نعله وثيابه الرثّ، ورقعته أجود من القميص، وإزار مخرّق مفتّت، وقوله: يا مشقوق، معناه قطيع الظهر.

فهذا المخنّث عنده علم، بعده الخارجي، أنه لم يؤذ الناس، لكن حين طال إيذاء من جانب الثاني، يدخل في ميدان المقابلة، مع أسلحته، وهو علم لغريب الألفاظ وأجابه بطريقة هرب المقابل بالخجل. فبُعده الداخلي، هو فكرته كيف يسد الإيذاء عنه.

---

[١]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ح ٢، ص٥٢.
[٢]- أنظر. المصدر نفسه، ج ٢، ص٥٤.
[٣]- أنظر. المصدر نفسه، ح ٢، ص٥٧.

٤. مخنّث يعظ هارون الرّشيد

أصيب هارون الرشيد بغمٍّ شديد، إذ مات ابنه. "فجزع جزعاً شديداً، فوعظه العلماء ولم يتعظ؛ فدخل مخنّث عليه، وقال: أتأذن لي في الكلام؟ قال: تكلم، فكشف عن رأسه وقام بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل وقد تشبهتُ بالنساء كما ترى، فأيّ شيء كنت تصنع لو كان ابنك في الأحياء وكان على صورتي، فاتّعظ به، وأخرج النّواحات من الدار".

فشخصية مخنّث هنا شخصية عاقلة، هو يعرف عيبه، وهو أنه يشبه بالنساء، وبهذا العيب أخرج خليفة هارون الرشيد من شدّة غمّه. وفعل هذا المخنّث بذكاء ما عجز العلماء بعلمه. لأنه يعرف النكتة النادرة يمكن أن يلين بها قلب الرّشيد. فبعده الاجتماعي أنه مخنّث، وبعده الخارجي والداخلي معاً أنه يحبّ الخليفة، ولمّا أعجز الآخرون أن يبرّده، دخل عليه بعزم صميم، ورضى الخليفة برضاء الله.

ف. شخصيات حيوانية

١. العضباء (ناقة رسول الله ﷺ)

العضباء[١] ناقة مطيعة، بعدها الخارجي، السرعة والإطاعة وهو بعده الداخلي والخارجي معاً. وهي أسبق في السباق، كأنها تعرف أهميتها، هي ناقة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ظهرها أسامة – الشاب محبّ الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو بعد اجتماعي لها.

٢. الجمل

بعده الخارجي أنه لا ينزو على أمّه[٢]، وإن اضطرّ كرهه. ففيه حياء وستر لأمه. ورجل أرسله عليها، فلمّا عرف لم يتمّ، وبعده الداخلي أثّر عليه، فحقد على الجمّال حقداً شديداً، فقتله.

٣. أقلاء (وهو المهر الذي لم يبلغ الفطام)

هو ابن فرس أنثى، فأراد مالكه[٣] أن تحمل من أكرمها، وبعده الخارجي لأنه كره ورفض، فسترت الفرس، وشدّ عينيه كي لا ينظر، لكن حين عرف أنها أمه التي ولدته، هرب. وهذا بعده

---

[١]- أنظر. الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص٢٤.
[٢]- أنظر المصدر نفسه، ج ٢، ص٣١
[٣]- أنظر المصدر نفسه، ح ٢، ص٣١

الداخلي والخارجي معاً. وهرب بسرعة العدو، حتى ألقى نفسه في بعض الأودية فهلك. وبعده الاجتماعي أنه لم يقبل هذه الحالة، ومات.

٤. المكّاء[1]

أكلت حيّة بيض مكّاء[2]، فجعل المكّاء يُشَرشِر على رأسها، حتى إذا فتحت فاها تريده وهمت به ألقى فيها حسكة؛ فأخذت بحلقها حتى ماتت.

فشخصية المكاء شخصية حيّة ونابضة، ويغلب عليها[3] أمومتها، أكلت حيّة بيضه، ويضطرب، ويغضب، ويعاقب حتى يجد فرصة اللحظة للانتقام، ويقتل حيّة بتدبيره. فبعده الخارجي والداخلي معاً يشير إلى همته وجرأته وصراعه مع العدو القوي.

٥. الكراكيّ

وشخصية الكراكيّ، شخصية أمينة، هي طائرة، وكانت تطير في جوّ السماء، حين رأت شاعراً فيلسوفاً، وحيداً في البادية[4]، وأحاط به قوماً من قطّاع الطريق، الذين سلبوا ماله وهمّوا بقتله، فناشدهم الله ألا يقتلوه، وأن يأخذوا ماله ويخلّوه، فأبوا، فتحيّر الشاعر ونظر يميناً وشمالاً، يلتمس معيناً وناصراً فلم يجد. فرفع رأسه إلى السماء، ومدّ طرفه في الهواء، فرآى كراكيّ تطير في الجوّ محلّقة، فصاح، أيتها الكراكيّ الطائرة، قد أعجزني المعين والناصر، فكوني الطالبة بدمي، والآخذة بثأري. فضحك اللصوص، وقتلوا الشاعر، وأخذوا ماله؛ فلما اتصل الحديث حضر اليونانيون، وأهل مدينته إلى هيكلهم لقراءة التسابيح، والمذاكرة بالحكمة والعظة، وحضر الناس من كل قطر وأوب، وجاء القتلة واختلطوا بالجمع، وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل، فهم على ذلك إذ مرت بهم كراكيّ تتناغى وتصيح، فرفع اللصوص أعينهم ووجوههم إلى الهواء ينظرون ما فيه، فإذا كراكي تصيح وتطير، وتسد الجوّ؛ فتضاحكوا وقال بعضهم لبعض: هؤلاء طالبو دَمِ كُنتُس الجاهل – على طريق الاستهزاء – فسمع كلامهم بعض من قريباً منهم فأخبر السّلطان، فأخذهم، وشدّد عليهم، فأقروا بقتله، فقتلهم.

فهذه الكراكيّ فهمت طلب الشاعر، وقامت لثأره كما يقوم أهل المقتول، كأنها واحدة من جنود الله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (٣١)﴾[5] ، كانت ضعيفة لكن تتناغى وتصيح واجتهدت

---

[1]- طائر أبيض يصفر ويصيح في الرياض.
[2]- أنظر. الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص١٠٤-٥.
[3]- استخدمت (تذكير) للمكاء، وهو الأم، بحسب ما وجدت في الإمتاع
[4]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص١٥٣-٤.
[5]- سورة المدثر

بكلّ الجهد وأفهمت ما تقول، وفهم كلامها اللصوص، وسمع كلامهم البعض، ومن هذه الطريقة نالت قصدها. فبعدها الاجتماعي أنها طائرة، تطير ويفرح بها الناس، وبعدها الخارجي والداخلي يظهران أنها كانت في المعركة، وهي بطلة هذه المعركة، ونجحت في صراع الخير والشرّ، وفي إقامة الخير بجهدها.

ق. شخصيات بدون عصر معيّن

١. الرجل

رجل مجهول، وعده بعض إخوانه أن يهدي إليه بغلاً[١]، فطال الانتظار، فأخذ قارورة وبال فيها، وهب إلى الطبيب للتشخيص، هل يهدي إليه إخوانه بغلاً. وبعد الخارجي والداخلي معاً يظهر في حالة الانتظار، وطريقة مضحكة للوصول إلى النتيجة.

٢. عبد حبشي

هو عبد حبشي، أعطاه مولاه شيئاً ياكله[٢]، وقال: أعطني قطعة منه، فأعطاه، فلما أكله وجده مرّاً، فقال: كيف أكلت هذا مع شدّة مرارته، قال: أكلتُ من يدك حلواً كثيراً، وما أحببتُ أن أريك في نفسي كراهة لمرارته.

هي شخصية غير معروف، عبد وحبشي، لكن صفاته قويّة، هو مطيع لمولاه، ويحبّه. لايشكو أنه وجد المُرّ دون الإرادة، لأنه يعرف أن مولاه يحبّه. هي شخصية إيجابية وبعده الخارجي والداخلي يظهر في إخلاص نيته، وصلاح عمله.

٣. رجلٌ من العجم

رجل من العجم حجّ وتعلّق بأستار الكعبة فطفق يدعو[٣] ويقول: "يا من خلق السِّباع الضارية، والهوام العادية، وسلّطها على النّاس، وضربهم بالزَّمانة والعَمَى والفَقر والحاجة؛ فوثب الناسُ عليه وسبُّوه وزجّروه وقالوا: أدع الله بأسمائه الحسنَى. فأظهر لهم النَّدامةَ، والتَّقارف فخلّوا عنه بعد ما أرادوا الوقيعة به، فرجع وتعلّق بأستار الكعبة، وجعل ينادي: يا من لم يخلق

---

[١]- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص٥٨.
[٢]- أنظر: المصدر نفسه، ح ٢، ص١٢١.
[٣]- المصدر نفسه، ح٣، ص١٩٠.

السّباع الضّارية، ولا الهوامّ، ولا سلّطها على النّاس، ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام. فوثبو عليه أيضاً وقالوا له: لا تقُل هذا فإنّ الله خالق كلّ شيء؛ فقال: ما أدري كيف أعمل؟ إن قلتُ: إنّ الله خالق هذه الأشياء وثبتم عليَّ؛ وإن قلتُ: إنّ الله لم يخلقها وثبتم عليّ. فقالوا: هذا ينبغي أن تَعلمه بقلبك ولا تدعُ الله به.

فهذا رجل مجهول، صفته أنه عجمي، وهذا البعد الاجتماعي غالبُ عليه، بعده الخارجي أنه سافر للحجّ، ووصل في الكعبة، وهو يدعو ربّه، وبعده الداخلي، دعاءه وهو جاهل عن دعاء حسن، ولا يعرف أدب التخاطب بالله تعالى، فلا يدعو برحمته وبصفاته الأعلى وبأسمائه الحسنى، بل يدعو بتخليقه الذي يضرّ الناس، السّباع الضارية، والهوامّ العادية، فوثب الناس عليه، ومنعه أن لا يدعو مثل ذلك. فقبل هذه النصيحة، ومرّة ثانية وصل إلى أستار الكعبة ونادى بكل حزم: يا من لم يخلق السّباع الضارية .. و .. و .. ؛ فوثبو عليه مرّة ثانية، وقالوا: لا تقل هذا، فإن الله خالق كلّ شيء؛ فأعجز العجميّ ما ذا يفعل، فقالو: هذا فقط ليعلم قلبك ولا تدع الله به. وهذا الرجل ليس عنده علم، والناس الذين منعوا من هذا الدعاء أيضاً لم يعلّموه كيف يدعو ربّه، فأعاد الخطأ مرّة ثانية.

٣,٢. تشريح الشخصيات

التوحيدي يبين صور عديدة للشخصيات في الإمتاع والمؤانسة. وتناول شخصيات من كل زمن وعهد، ومن طبقات المجتمعة المختلفة. وفيها شخصيات عاقلة ومجونية، رجالية ونسائية وكذلك المخنثة. وشخصياته تتعلق من طبقة الحكام، ومن الشعب، من طبقة العمال ومن العيّارين، شخصيات حرّة وأخرى جواري والغلمان. وتناول التوحيدي الملوك القديمة والخلفاء والوزراء من عصره، وأيضاً تناول شخصيات أبناء أو أحفاد أصحاب النبي، وهم كثيرون في عهده، فناقش عن الماضي على لسانهم، فشخصيات الإمتاع والمؤانسة مختلفة ومتنوعة من حيث زمنها وصفاتها، وفيما يلي نماذج بعض الشخصيات في الجدول التسلسل.

هذه أربع وأربعون شخصيةً (٤٤)، التي وردت في الجداول لقصص الإمتاع والمؤانسة، وهي شخصيات من زمن ومكان مختلف. فيها خمس عشرة شخصيةً نامية (١٥)، وعلى العكس تسع وعشرون جاهزة (٢٩)، ومن حيث المكان خمس شخصيات فارسية (٥)، و إحدى عشرة شخصيةً عربية (١١) وثماني عشرة شخصيةً من بلاد أخرى. وهذه الجداول تظهر أبعادها الثلاثة. فالبعد الخارجي للشخصيات يظهر اهتمام المناقشة، والفتح في المسابقة، وسمع الملك عن الرعيّة، وخداع المنجّم، وعابد، وصالح، وعالم وشاعر، وأمّي، ودميم، وملك غاصب، حكمة الحاكم، وكالك يظهر في قطوب الوجه، وحبس القيم، وتماكس في الأجرة، والعشق، والقاحش في الكلام، والأم والجارية، وذو يسر، وفراسة، ورجولة، ومن يقال الحق، والحيوان الذي يراعي

حق الأمّ، ومن يكرمها، وأمومتها، وذكاءها، وولد مريض، وجسيم وأكيل، ونحيف، ويصيد ..الخ.

والبعد الداخلي للشخصيات يظهر إعادة الرأي، وفرحة، ومحبّة للرعيّة، والخداع، وحبّ الصلاة، والحكمة، والذكاوة، وضاق النفس، وقوي الإيمان، والتقعّر، وخشية الله، والعفو، والحزن، والفكرفي العبر، وحريص، ومتجسس، ضاق النفس، فطين، يحذّر، حبّ الأولاد، ذكية، وتريد الحبّ، تحسّ، تغيّر في الداخل، أشجع، شجيعة، كرهة، صار عدوّاً، والغضب، وحفظ السرّ، والمزاح، لا يعرف حق العرفان .. الخ.

والبعد الاجتماعي يظهر احتفاظ مال المسلمين، وأطاعة الرسول، ومرجع الخير والشرّ إلى الحكام، والسخرية، والإيذاء من الناس، والقصاص، والصراع الدائم، ولهجة صارمة، وعطاء الحرية، وفرج الهمّ، وكلمة الحقّ، وكثرة الكلام، واستعدّ من قوّة، وإيقاظ الأم لأولادها، ودعت على الابن، ومن تخصّ النفيس لأبيها، ومن تشرب الماء وانشقّت بطنها، وعرفت بأطوار الناس، والتي يسيء خلقها في آخر عمرها، ورجولة العرب .. الخ.

جدول ٣,٤,١ الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة (الشخصيات التاريخية)

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	جزء/صفحة
١ عمر بن عبد العزيز	جاهزة	عربية	اهتم بالمناقشة	إعادة رأيه	احتفاظ بيت مال المسلمين	١/ ٢٦
٢ أسامة بن زيد		عربية	الفتح في المسابقة	فرحته على ناقةالنبي (ص)	يطيع الرسول(ص)	٢/ ٣٠
٣ الإسكندر	جاهزة	غير هما	ملك يسمع عن الرعية	يحبّ الرعيّة	في الحكام خير أو شرّ	٣٧/٢
٤ لطيماناؤس	جاهزة	عيرهما	يواج القوله سوعالقول		يسخر	٣٧/٢
٥ زيموس	جاهزة	غيرهما	منجم يخدع الأخرين	خدع بزهده	لقي من الناس الأذى	٣٧/٢-٨
٦ جريج	جاهزة	غيرهما	عابد	يحبّ الصلاة	ناسك	٩٧/٢
٧ كنتس	جاهزة	غيرهما	عالم وشاعر	حكمة خاصة	مقتول نال القصاص	١٥٣/٢
٨ كسرى	نامية	فارسية	ملك غاصب	جائر/ ذكي	رذ الأرض المظلوم	١٧٥/٣
٩معاوية رضي الله عنه	نامية	عربية	حاكم المسلمين	ضيق النفس مع القريش	الصراع الدائم بين المسلمين	١٦٨/٣
١٠ سعد بن أبي وقاص	حاهزة	عربية	حكمة سعد	قوي الإيمان	لهجة صارمة للعدوان	١٠٢/٣

جدول ٣,٤,٢: الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة (شخصيات في القرنين الثاني والثالث)

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الدلخلي	البعد الاجتماعي	جزء/ صفحة
١ الوزير	جاهزة		قطوب الوجه		يركب المركب	١/ ٢٦
٢ محمّد بن الحسن الجرجاني	نامية		حبس القيم	متقعّر		٥٢/٢
٣ عبد الرحمن بن مدين	نامية	فارسية	صالح وذومال	خشية الله	أعطى الحرية لسبعين مملوكاً	٦٤/٢
٤ الحسن البصري	جاهزة	عربية	يسامح	يعفو	لا يسيء لمن يسيئ به	١٢٩/٢
٥ هارون الرشيد	نامية	عربية	خليفة المسلمين	حريص حرباً شديداً	مات الله، فبرده المخنث	١٣٠/٢

جدول ٣,٤,٣: الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة (شخصيات فكاهية)

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
١ جحظة	جاهزة	فارسية	تماكس في أجرة			١/ ٢٨
٢ التوحيدي	جاهزة	عربية	المشاهد	فكّر في عِبَر	كلمة الحق	١/ ٤١-٢
٣ المخنّث	جاهزة	فارسية	يعشق	حريص	كثير الكلام	٥٣/٢
٤ مخنّث متمشة	جاهزة	-	أمّي	يتجسس	يعجب بجودة التشبيه	٥٤/١
٥ محمس الضبي	جاهزة	-	دميم	ضيق النفس	يثقل عليه طعام البنات	٨١/٣
٦ أعرابي	جاهزة	عربية			لا يراعي مصلحة الأمة	٩٩/٣
٧ سائل	جاهزة	-	يسأل الناس	فطين	يجيب ويأخذ دراهم	١٠٠/٣
٨ رجل	نامية		مضحك	يضيق بالنتظار	التهكم في طبع	٥٩/٢
٩ صاحب المَظالِم	جاهزة	عربية	فاحش في الكلام		لا يرحم أمام المريض وأهله	٦٥١/٢
١٠ مجنون	جاهزة	-	يكتب إلى مجنون آخر	يحذر عن الناس	استعذ من قوة	٢٠٣/٢-٤

جدول ٣,٤,٤: الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة (شخصيات أنثوية)

الشخصية	حاهرة/نامية	عربية/ فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
١ أعرابية	جاهزة	عربية	الأم	تحبّ الأولاد	استيقظت أولادها بلطمة	٦٧/٢
٢ أمّ حريج	نامية	-	الأم	شديد في الحبّ	دعت على الابن	٩٧/٢
٣ جارية المنصور	نامية	-	جارية مؤدبة	ذكية	خطأت لكن نالت الحرية	٢/ ١٢٩
٤ جارية رومية	نامية	-	ذات يسار	تريد الحبّ	رفضت على الضيافة	٠٨/٣
٥ ابنة أبي الحسن	جاهرة	-	حبّها لأبيها	محنّة قوية	تخصّ النفيس لأبيها	١٤/٣-٥
٦ أحمق	جاهرة	-	وجدت تودية	تحسّ طعم اللبن	تشرب وانشقّت بطنها.	٣٥/٣
٧ جارية لقمان	جاهرة	-	فراسة الجارية	ذكاءها	عرفت الناس بأطوارهم	٤٩/٣
٨ امرأة	جاهزة	-	تنازع زوجها	تغيّر في الداخل	يسيء الخلق في الأواخر	١٧٤/٣
٩ عائشة رضي الله عنها	جاهزة	عربية	خير من نساء العرب	أشجع جنانها	كانت رجُلة العرب	١٩٩/٣
١٠ امرأة	جاهزة	فارسية	قالت كلمة الحق	شحيعة	وخز قلب مسلم بن قتيبة منها	٢٠٠/٣-١

جدول ٣,٤,٥: الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة (شخصيات حيوانية)

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الداخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
١ العضباء	جاهزة	-	سبقت ناقة الرسول (ص)			٣٠/٢
٢ الجمل	نامية	-	لاينزو على أمه	كرهة	قتل الجمّال	٣١/٢
٣ أفلاء	نامية	-	يكرم أمها	صار عدوّاً	أهلكه نفسه	٣١/٢
٤ مكّاء	نامية	-	أموتها	غضبها على الحيّة	انتقمت من حيّة وقتلها	١٠٤/٢-٥
٥ الكراكيّ	نامية	-	طير ذكي	حفظ سرّ المقتول	صارت طالبة الدّم	١٥٣/٢-٤

جدول ٣,٤,٦: الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة (شخصيات صبيّة)

الشخصية	جاهزة/نامية	عربية/فارسية	البعد الخارجي	البعد الدلخلي	البعد الاجتماعي	صفحة
١ ابن	جاهزة	-	على الفراش	-	أخذه الوالد	٥٤/٢
٢ أخ	نامية	-	يصيد باليد	يمزح	يعبث	١٥٥/٢
٣ ابنة	حاهرة	-	نحيف لكن تخرج الدهيس لأبيها	تحب لأبيها	تؤثر الأب عليها	١٤/٣
٤ ابن	حاهرة	-	حسيم، أكيل	يحبّ نفسه	يأكل كلّ نفيس	١٤/٣
٥ غلام	نامية	أعجمي	مريض، وجع شديد	لا يعرف الله بصفاته	انتلي فاشتد الجزع	١٨٩/٣

الفصل الثالث: الحكاية في القصص بين الكتابين

١. مفهوم الحكاية

تتميز الحكاية من الأحداث المروية والشخصيات المتحرّكة ومن العناصر التي تحيل إلى تجربة المتلقي وتعدّ محاكاة للواقع. الحكاية تنقسم إلى مجموعة من الأجزاء التي يمكن توزيعها على عدد محدد من الأنواع أي لابدّ من الوصول إلى الوحدات القصصية الصغرى[١]. إننا نطلق اسم الحكاية على مجموعة الأحداث المتصلة فيها بينها، والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل. ويمكن أن تعرض – الحكاية - بطريقة عملية، حسب النظام الطبيعي. وفي مقابل الحكاية هناك المبنى الحكائي الذي يتألف من نفس الأحداث، إلا أن يراعي نظام ظهورها في العمل، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تحددها لنا.[٢] ويمكن الاشارة هنا إلى رقعتين أو لحظتين، هما القول، والحكاية، اللتان تلتصقان ببعضها وتسيران جنباً إلى جنب. ونمثل الراوي هنا كملاحق خفي للشخصية يراقبها ويسجل كل حركة وسكنة في الحال، وبذلك يكون النسق في صعود من أسفل إلى أعلى بخطين: خط الراوي وخط الشخصية، لايسبق أحدهما الآخر. والقارىء يشارك في الحاضر المستمر للشخصيات مشاركة فورية، ويتقبل الأحداث "طريقة" من أذهانها[٣]. والزمن في القصّة يمتدّ على رقعتين، رقعة الحكاية المتزامنة مع رقعة القول والتي فيها الراوي ملازما للشخصيّة، وهنا يفترض أن الماضي فيها هو في واقع الأمر حاضر، إذ أن ما يُحكى الآن يجري في نفس الوقت.

إنّ الراوي والشخصية في القصّة بضمير المتكلم هما نفس الشخص أحياناً، فهو راوٍ يروي الأحداث، وهو معان للتجربة تدور حوله الأحداث، أو يمارسها. وكل من الراوي والمحكي عنه له مكانة الشخصية في القصّة. أما في رواية بضمير غائب، فالراوي الذي يشارك الشخصية في رواية الأحداث لا يدخل في حيز القصّة، بل يخرج عنها، ومن هنا، فثمة أهمية معينة للراوي في ضمير المتكلم لا تقل عن أهمية المحكي عنه، إن لم تفُقها، من حيث كونه شخصية في القصّة[٤]. ودراسة الحكايات تنحصر في أربع نقاط رئيسية، يلخصها على شكل التالي: (ا) إنّ العناصر الثابتة في الحكاية، هي الوظائف التي تقوم بها الشخصيات وكيفما كانت هذه الشخصيات، وكيفما كانت الطريقة التي تمّ بها انجازها. فإنّ الوظائف هي الأجزاء الأساسية في

---

[١]- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م، ص٤٠٨.

[٢]- توماشفسكي، ١٩٦٥م، ص٦٦-٦٧.

[٣]- تيّار الوعي في الرواية العربية الحديثة، دراسة أسلوبية، محمود عنايم، دار الجيل بيروت، ودار الهدى القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، ص٤٣

[٤]- أنظر تيّار الوعي في الرواية العربية الحديثة، محمود عنايم، ص٤٥-٤٦.

الحكاية، و(ب) إنّ عدد الوظائف التي تحتوي عليها حكاية دائماً يكون محدوداً، و(ج) إنّ تتابع الوظائف متطابق في جميع الحكايات المدروسة، و(د) جميع الحكايات تنتمي من حيث بنيتها إلى نمط واحد.

مظاهر التصور البنائي

يميّز الناقد في بنية الحكاية بين ثلاثة مظاهر:

١. **المظهر الفعلي اللغوي:** ويتمثّل في الجمل المحددة التي يتكون منها النص. ويتصل بهذا المظهر مجموعتان من المسائل: أولهما تتعلق بخصائص الكلام وسمات الأسلوب، والثانية تتعلق بالتعبير نفسه. وقد درج النقاد هذه الدراسة تحت اسم "رؤية" العمل الأدبي أو وجهة نظره.

٢. **المظهر النحوي:** ويتصل بعلاقات أجزاء العمل فيما بينها، وهو مما يطلق عليه بعض الدارسين تركيب العمل الأدبي، ويقتضي تحليله التعرض لعلاقات القول بالحكاية، وهي منطقية وزمانية ومكانية.

٣. **المظهر الدلالي:** أو موضوعات الأعمال الأدبية، ويمكننا أن نتوقع وجود عدد من الموضوعات العالمية المحددة يخضع لنوع من التوافق والتخالف ينجم عنه انطباع بكثرته الشديدة في الظاهر[١]. هذه المظاهر الثلاثة لا ينفصم بعضها عن بعض الآخر إلا بشكل مؤقت في التحليل النظري، أما على مستوى العمل نفسه فهي متشابكة معقدة غنية.

وحدات الحكاية

يمكن تقسيم الحكاية إلى مجموعة من الأجزاء التي توزع على عدد محدد من الوحدات القصصية الصغرى. وطبقا للمنهج التكاملي فإن التحليل البنائي لا يمكن أن يكتفي بتعريف الوحدات الصغرى وتوزيعها، بل من الضروري أن يكون **المعنى** منذ اللحظة الأولى هو معيار الوحدة؛ وأن تكون الخاصية الوظيفة لبعض أجزاء الحكاية هي التي تجعل منها وحدة؛ ولذلك تسمى **وحدات وظيفية**؛ ويعتبر كل من هذه الوحدات جزءا من الحكاية[٢].

والحكاية تتألف فعلاً من وظائف لكن على مستويات مختلفة؛ فكل شيء فيها له معنى؛ ولا يعود هذا إلى تفنن القصاص بل إلى بنية القصة نفسها. إنّ الفن لا يعرف الضجّة – بالمعني الذي تستخدمه نظرية الأعلام الحديثة – وما دام هناك نظام في العمل الأدبي فلا توجد أية وحدة

---

[١]- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د صلاح فضل، ص٤٠٦-٧.

[٢]- المرجع السابق، ص٤٠٨.

ضائعة على الإطلاق؛ مهما كان الحبل الذي يصلها بأحد مستويات الحكاية واهياً أو طويلاً، والوظيفة اللغوية تؤدي إلى وحدة المضمون[1].

الشخصية الحكائية وتوزيع الوظائف

يجعل "بروب" الشخصيات الأساسية منحصرة في سبع شخصيات: (ا) المتعدي أو الشرير، (ب) الواهب، (ج) المساعد، (د) الأميرة، (ر) الباعث، (ز) البطل، و(س) البطل الزائف. فالشخصية لم تعد تحدد بصفاتها وخصائصها الذاتية بل بالأعمال التي تقوم بها ونوعية هذه الأعمال ويستثنى من هذا التحديد شخصية "الأميرة" التي أثبتها "بروب" هذه الصفة المحددة نفسها[2].

سيمولوجية الحكاية، في تحليل القصّة عن الاتجاهات البنائية المختلفة يميز من بين ثلاثة عناصر، وهي **الهيكل والرسالة والشفرة**. ويعني بالهيكل لغة القصّة ومجموعة الخصائص البنيوية التي تشرك فيها مع غيرها؛ ويشمل مستويين، (ا) مستوى المقال باعتبارها مجموعة من الأقوال المكونة من جمل متتالية، و(ب) مستوى البنية وهو يتمثل في بنية المضمون الذي نعبر عنه القصّة. أما **الرسالة** فهي المعنى الخاص لكل حكاية، على مستويين **المقالي** والبنائي، فعلى المستوى الأول تتوالى الأحداث التي تقتضي **أبطالاً**؛ وهؤلاء الأبطال قد يكونون أفراداً أو جماعات، فاعلين أو مفعولين، موجهين أو موجهاً إليهم، معارضين معوقين، أو مساعدين. ولكل منهم دلالته التي تتشابك مع دلالة الحدث في تسيج معقد. وينطلق الباحث من أصغر وحدة دلالية إلى الوحدات الكبرى بكل علاقاتها التي تكون بنية المضمون. أما العنصر الثالث في هذا التحليل فهو **الشفرة** أو **الكود**، وهي مجموعة القوانين الرمزية التي تحكم مدلول الرسالة[3].

إنّ بنية القصّة تقوم على أفعال أو أحداث أربعة، تختلف ورودها وترتيبها وطريقة تموضعها من نادرة لأخرى، وهذه الأفعال **هي الجمع والمنع والتفويت والاستدراك**. وإنّ الأحداث في القصّة تتوزع تبعا لما تعود به من **النفع** أو **الضرر** على المشروع الإنساني في مجموعتين أساسيتين، هما:

{عملية التحسن {تحسن يتم الوصول إليه

---

[1]- المرجع نفسه، ص٤٠٩.

[2]- أنظر:

"Intoduction of a le literature fantasiica" Trad. Madrid, ١٩٧٣, ٩. ٢٩.

[3]- أنظر:

"Semanlique Structural", Greimas, A.J. ParisK ٩٦٦. Trad Madrid, ١٩٧٣, P. ١٧٥.

منفعة يسعى إليها {انعدام التحسن {تحسن لايتم الوصول إليه

{عملية الضرر {ضرر يحدث بالفعل

ضرر محتمل {انعدام الضرر {ضرر يتم تفاديه

وهناك تتابع بالقفز إذا تدخلت عوامل وقطعت هذه الدورات فلم تنته إلى نتائجها المرتقبة أو أدت إلى نتائج عكسية.

٢. الحكاية في البخلاء

تعريف حكاية البخلاء أنها وحدة سردية، مستقلة بذاتها وهذه القصص تجسم فعلاً أو حادثاً ما يبيّن أن شخصاً أو أشخاصاً، أو جماعة، أو طبقة من الناس يتصفون بصفة البخل. وهذه الحكايات متنوعة ومختلفة، لكن تقوم على أساس واحد مشترك، وهو أنها تمثل صفة البخل، أو طبيعة الشخص "البخيل"، وبهذا السبب تشكل كياناً واحداً. صوّر الجاحظ فيها القصص، من بيئته المطبوعة على السخرية والتهكم. ووضع الحكايات بناء على معايير أدبية محضة وليست دائماً في حاجة أن تطابق دائماً مع كل التقسيمات أو العلامات التي وردت بالنص، لذلك فإن الوحدات السردية التي تختلف في أطوالها قد أدرجت بناء على هذا[1].

وهذه الحكايات تعتمد على الأحداث التي مهما تكن تنوعها، فهي تقوم على أساس واحد مشترك. هو أنها جميعا تمثل صفة البخل، أو طبيعة الشخص "البخيل"، وبهذا تشمل كياناً واحداً وتناولها فقط ككيان واحد هو الي سوف يسمح بالقيام بعملية التحليل لطبيعة وبناء ركنها الأساسي كحكايات للبخلاء.

وفي تحليل هذه الوحدات السردية سوف تعتمد على استخدام المنظومات الصغيرة، ويكون "المعنى" منذ اللحظة الأولى هو معيار الوحدة؛ ثمّ تكون وظيفة بعض الأجزاء الحكاية، التي تسمّى "وحدات وظيفية". وفحص الحكايات في ضوء الوسائل التكنيكية النقدية، أن تتطرق إلى أبعد من مجرد المسائل البلاغية من ناحية أو مجرد التقديرات الذاتية من ناحية أخرى، كما أنه يتجاوز الوصف الشكلي للنص. ويلاحظ "بروب" أن الأفعال المتماثلة يمكن أن يكون لها دلالات

[1]- بناء النص السردي، د. فدوى مالطي، دراسات في الأدب التراحم، دار الشؤون الثقافة العامة، ١٩٩٢م، ص٢٠.

مختلفة، والعكس صحيح. وبهذا فإن النص الروائي يمكن أخذه على أنه عبارة عن سلسلة من الوظائف[1].

٢,١. تقسيم الحكايات في فئات أساسية

قبل الدخول في الحكاية على أساس الفئات الأساسية، أذكر دراسة د. فدوى مالطى التي تناولت كتاب البخلاء في كتابها "بناء النص التراثي، الفصل الثاني "المنظومات القصيرة في حكاية البخلاء[2]"، فتقول عن حكاية البخلاء أنه؛ "هو نص يضمن ما يقرب من مائتين وأربعين حكاية (٢٤٠) من هذه الحكايات"، وعلى العكس بعد التحقيق أنا وجدتها مائتين وخمس حكاية (٢٠٥)، و د. فدوى مالطى لم تعددها بنفسها بل تعيّنها بدون دراسة أو إعداد مشروع إرتجالياً كما تظهر من هامش الكتاب[3]؛ ودراسة تقول عن وظيفة الحكاية: "أنها كثيراً ما تتضمن وظيفة واحدة فقط أو تصل في أقصاها إلى وظيفتين"[4]، والحقيقة على عكسها، ووجدت في حكايات وظائف متعددة وكثيرة، منها قصّة الحارثي، والكندي، ومحمد بن أبي المؤمل وغيرها. وقسمت د. فدوى قصص البخلاء في فئتين أساسيتين، هما: الشيء والضيافة، ولتعرف على حكايات الجاحظ وتصنيفها إلى فئات وظيفية. وأهم هذه الحكايات تبلغ سبعين حكاية (٧٠)، تمثل حوالي ثلاثين في المائة ٣٠% من المجموع الكلي، سوف نطلق عليها اسم فئة "الشيء"[5]. ومجموعة الثانية التي تنتمي إلى فئة "الضيافة"، وهي تصل إلى ستين حكاية (٦٠)، أو خمس وعشرين فى المائة ٢٥%[6]. وقسّمت هذه القصص في ثلاث فئات أساسية، وهي فئة الضيافة، والشيء، والأكل، بدليل أن كل طعام ليست الضيافة، بل الإنسان يأكل وحيداً أو مع عائلته، ومع غلمانه، وهو يشمل في فئة "الأكل" وليس بالضيافة.

ويلاحظ أن دراسة د. فدوى يبيّن سبعين حكاية عن الشيء، وستين عن فئة الضيافة، وهي مائة وثلاثين حكاية (١٣٠)، لكنها لم تذكر بقيّة مائة وعشرة حكاية (١١٠). وحسب دراستي توجد في فئة الشيء خمس وثمانون حكايةً (٨٥)، حيث عن الضيافة ستّ وستين حكايةً (٦٦)، وعن الأكل أربع وخمسين حكايةً (٥٤)، وهي بالترتيب ٤١%، و٣٢%، و٢٦%.

---

[1]- أنظر.
"Morphologie du conte", Vlamir Propp, paris, Edition du Seuil, ١٩٧٠.
ترجمة. مارحريت ديرندا، ولقد تم استخدام المترجمة لأنها تعتمد على الطبعة الثانية الروسية المصححة، لنتجراد، ١٩٤٩
[2]- بناء النص التراثي، د فدوى مالطى، ص١٩.
[3]- المرجع السابق، ص٢٠.
[4]- المرجع السابق، ص٢٣.
[5]- المرجع السابق، ص٢٣.
[6]- المرجع السابق، ص٢٥.

ا. حكايات في إطار عن فئة "الشيء"

إن نحلل حكايات البخلاء التحليل الوظيفي فأهم هذه الحكايات تبلغ ٨٥ حكاية، وتمثل حوالي ٤١% من المجموع الكلي، وممكن أن نطلق عليها اسم فئة "الشيء".

وهناك مثالان يوضحان هذه الفئة:

١. *"وأما ليلى الناعطية، فإنها مازالت ترقع قميصاً لها وتلبسه*، حتى صار القميص الرِّقاع ، ... وأرقع الخرق وخرق الخرق"[١].

٢. *"وكان يُعيِّن مالاً عظيماً، ولم يكن له وارث. ... ما رأيته قطّ إلاّ ونعله في يده، أو يمشي طولَ نهاره في نعل مقطوعة العقب، ... فمن كان له مالاً كثيراً فلا بدّ له أن يفتح كيسَه للنفقات وللسرّاق؟"*[٢].

هاتان الحكايتان مختلفتان من حيث الشكل، ولكن طبيعتهما من الناحية الوظيفية متطابقتان، فكلتاهما تعرضان لنفس الفعل، وبالتالي لنفس الوظيفة. وكلا هما تستخدمان "الشيء" بطريقة غير عادية، أو بالغة العناية في محاولة الإنقاذ أو لتوفير هذا "الشيء". وفي كلتا الحالتين هذه العملية الاقتصادية لا تتضمن الإنكار لشخص آخر.

وهناك صورة البخل في نور المصباح:

٣. *"إنّ خُراسانية ترافقوا في منزل .. وأبى واحدٌ منهم أن يعينهم، وأن يدخل في الغرم معهم. فكانوا إذا جاء المصباح شدُّوا عينه بمنديل، ولا يزال ويزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفؤوه أطلقوا عينيه"*[٣].

وهي صورة البخل في "الشيء"، في المنع عن طريق غير مزّوج. هو ليس صورة الاقتصاد، بل فقط المنع والعتاب على صاحبهم، لأنهم أدّوا الغُرَم، ليشتروا الدهن لمصباح، وواحد منهم لم يشارك في الغرم، فحرموه من النور.

وفيما يلي مثال "الشيء" في صورة الإنفاق البخيل، مع طلبه على سرعة الخلف:

٤. *"سمع رجل من المراوزة الحسنَ وهو يحثّ النّاس على المعروف، ويأمر بالصدقة، (..) ويعدهم سرعة الخَلف. فتصدّق بماله كلّه فافتقر، فانتظر سنة وسنة، فلمّا لم ير شيئاً بكر*

---

[١]- البخلاء، ص٣٧.
[٢]- المصدر نفسه، ص١٠٤.
[٣]- المصدر نفسه، ص١٨.

على الحسن، فقال: حسنٌ ما صنعتَ بي؟ ضمنتَ لي الخلفَ ، فانفقتُ على عدتك، (..) هل يحلّ لك؟ اللصُّ كان بي أكثر من هذا" [1].

هذه القصّة تشتمل على وظيفتين، الأولى إنفاق "الشيء"، والثانية انتظار "الشيء"، وهو الخلف. وحين يحرم من الخلف يشتم الحسن، ويعتبره اللصّ الذي حرّمه من ماله.

وفيما يلي مثال البخيل في "الشيء" وهذا ليس الطلب عن الآخرين، بل هو اقتصاد البخيل بطريقة غير عادية من جانب وظريفة من جانب آخر:

٥. *"ناسٌ من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستّة الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة اشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة اشهر، مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب"* [2].

وهذه صورة بخل مركب، ارتكبها "ناس من المراوزة"، للاقتصاد، فيها المبالغة في تحفظ النعال من التنقّب، أو الرثّ. وزمن في الحكاية يشير إلى طول المدّة. والمكان (مرو) سبب رئيسي لهذا الحدث.

وهذا مثال البخل في "الشيء" وهو الكراء:

٦. *"قال معبد: نزلنا دار الكنديّ أكثر من سنة، نروّج له الكراء ونقضي له الحوائج، ونفى له بالشرط. (..) قال معبد: فبينا أنا كذلك إذ قدم ابن عمّ لي ومعه ابن له، وإذا رقعةٌ منه قد جاءتني: "إن كان مقام هذين القادمين ليلةً أو ليلتين، احتملنا ذلك. وإن كان إطماع السكّان في الليلة واحدة، يجرّ علينا الطمع في الليالي الكثيرة" . فكتبتُ إليه: "ليس مقامهما عندنا إلا شهراً أو نحوه" . فكتب إليّ: "إنّ دارك بثلاثين درهماً، وأنتم ستة، لكلّ رأس خمسة. فإذا زدت رجلين فلا بدّ من زيادة خمسين. فالدار عليك من يومك هذا بأربعين" . فكتبتُ إليه: "ما يضرُّك مقامهما، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال، وثقل مؤنتهما عليّ دونك؟ فاكتب إليّ بعذرك لأعرفه" . ولم أدر أني أهجم على ما هجمت، وأني أقع منه فيما وقعت فكتب إليّ:*

"الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة، (..) ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت (..) فينقشر لذلك الطين، وينقلع الجصّ، وينكسر العتب، مع انتناء الأجذاع لكثرة الوطء وتكسّها لفرط الثقل. وإذا كثرُ الدُّخول والخروج والفتح والإغلاقُ والإقفال وجذبُ الأقفال تهشمت الأبواب وتقلّعت الرزّات. (...)" [3].

---

[1]- البخلاء، ص٢٧.

[2]- المصدر السابق، ص٢٨.

[3]- المصدر نفسه، ص٨١-٩٠.

وهذه الحكاية طويلة، وفيه أسلوب الرسائل، والشيء الجوهري فيها هو أن معبد نزل في دار الكندي، على شروطه الخاصة، ويرضى معبد على كلّ شرط ومضى عليه سنة. ويسقط الحجر في الماء الساكن حين ينزل ضيفان وهما عمّ معبد وابن له، ويضيف الكندي الكراء بسببهما. وفي رسالة طويلة يعدد الكندي أسباب لمنطقه في هذه الزيادة. وهو بخل الشيء كله، في مجال "الاحتمال"، وكل الحكاية تدور حول احتمال الكندي، كأن بيته يواجه زلزال بزيادة الأفراد، ويرث ويبلي حيطانه بالماء، والسقف يتسخ بالدخّان، ومعبد ينفق على المؤنة حتى يماطل بأداء الكراء وغيرها كثير من الدلائل. والأحداث في هذه الحكاية ترسم صورة البخل من الجانب الواحد، وهو ليس مضيف بل مكريء الدار نزل فيه الضيف.

وفيما يلي حكاية مزاوجة المعنى، وظيفتها الأولى عن "الشيء" والثانية عن الفئة الثانية وهي "الضيافة".

٧. *"كان بلال بن أبي بردة قد خاف الجُذام، وهو والي البصرة. فوصفوا له الاستقاع في السّمن. فكان إذا فرّغ من الجلوس في أمرَ بيعه. فاجتنب الناسُ في تلك السنة أكلَ السّمن.*

وكان يفطر النّاسَ في شهر رمضان، فكانوا يجلسون حِلقاً، وتوضع لهم المؤائد، فإذا أقام المؤذّن نهض بلال إلى الصلاة، ويستحي الآخرون. فإذا قاموا إلى الصلاة جاء الخبّازون فرفعوا الطعام" [1].

وهذه الحكاية تبدو فيها وظيفتان، الأولى عن "الشيء" والثانية عن "الضيافة"، فالحدث الأول يظهر بخل والي البصرة، الذي استنقع في السّمن وباعه، فترك الناس أكل السمن تلك السنة، وهذا البخل أشدّ من الكراهية، الذي ذكر في قصّة المسجديين[2]، حيث يشرب الشيخ البخيل الحمار ماء غسل الجنابة، لكن في هذه الحكاية يبيع السمن الذي استنقع فيه الوالي للناس، للمؤاكلة. وفي الوظيفة الثانية، يحكي الجاحظ "الضيافة" تلك الوالي، للصائمين، ومن حيلة الصلاة يرفع الخبّازون الطعام، ويستحي النّاس عن الطلب. فهذا امتناع الضيافة دون الرفض الصريح. وكيف تتغير طبيعة البخيل، صفة البخل لازمة عليه، فيظهر اقتصاده وحيله في أيّ شيء وعلى المؤائد.

ب. حكايات في إطار فئة "الضيافة"

وهذه المجموعة الثانية التي تنتمي إلى فئة "الضيافة" وهي تصل إلى ٦٦ حكاية أو اثنتين وثلاثين في المائة من مجموع الحكايات. وفيها الندرة والتفنن، والحيلة والمكر والخداع من جانب المضيف دون رفض صريح.

---

[1]- البخلاء، ص١٥٠-١.

[2]- المصدر نفسه، ص٢٩.

والحكاية التالية تستند إلى بخيل كان من أطيب الخلق وأملحهم بخلاً وأشدّهم رياء.

١. *"دخل على أبي عبد الله ذي اليمينين طاهر بن الحسين، وقد كان يعرفه بخراسان بسبب الكلام، فقال له: منذ كم أنتَ مقيم في العراق يا أبا عبد الله؟ فقال: أنا بالعراق منذعشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ أربعين سنة. قال: فضحك طاهر، وقال: سألناك يا أبا عبد الله عن مسألة، فأجبتنا عن مسألتين".*

وفي هذه الحكاية رفض المضيف **بالطلب الضمني**. فلجأ إلى الحيلة، يفهم الضيف عن عدم مؤاكلة عنده، وكذلك يعرف أنه صائم الدهر، ليس إمكان الضيافة في المستقبل أيضاً.

وفيما يلي حكاية البخل على الطعام دون الحاجة، ومنع الطعام بغير الطلب (الصريح أو الضمني)، وهو بالتأجيل حتى يذهب الآخرين:

٢. *"وأتى ضيعة له يتنزّه إليها، ومعه خمسة رجال من خاصّته، وقد حملوا معهم طعام خمسمائة. وثقُل عليه أن يأكلوا معه، واشتدّ جوعه. فجلس على مشارة بقل، فأقبل ينتزع الفجلة، فيطوي جزرتها بعرقها، ثمّ يأكلها من غير أن تُغسل، من كَلب الجوع، ويقول لواحد منهم، كان أقرب الخمسة إليه مجلساً: "لو قد ذهب هؤلاء الثقلاء لقد أكلنا"*[1].

وفي هذه الحكاية عن البخل والشحّ المضيف. والطعام المقدم كان بكميات وافرة، وذو نوعية حسنة، لكن يضيق المضيف على خمسة حمّال، (ولم يطلبو بالقول أو الفعل أو الإشارة) أن لا يشاركهم في الضيافة، حتى يجلس على مشارة بقل، ويأكل جزر غير مغسولة، ليبرد نار المعدة.

وفيما يلي حكاية البخيل يلتوي إلى الحيلة كي يجتنب الضيافة.

٣. *"واشتدّ (زبيدة) غلمانه في تصفية الماء، وتبريده وتزميله، لأصحابه وزوّاره. فقال له غازي أبو مجاهد: جعلتُ فداك! مر بتزميل الخبز وبتكبيره، فإنّ الطعام قبل الشراب"*[2].

وفي هذه الحكاية يجتنب المضيف من الضيافة دون الرفض الصريح، بل يلجأ إلى الحيلة، أن يشرب ماء بارد دون الطعام. لكن الضيف يطلب الطعام قبل الشراب.

---

[1]- البخلاء، ص١٥٢.

[2]- المصدر نفسه، ص٣٦.

ج. حكايات في إطار فئة "الأكل":

وهذه المجموعة الثالثة تتعلق عن فئة "الأكل"، وهو طعام غير الضيافة، فيها يشمل طعام المرء في داره أو في السفر، وحيداً أو مع أهله وأولاده. هي تصل إلى ٥٤ حكاية، وهي ستّ وعشرون حكاية في المائة.

وفيما يلي حكاية في إطار فئة "الأكل"، والمكان بيت زبيدة بن حميد:

١. *"دخلتُ عليه (زبيدة بن حميد) بعد أن ضرب غلمانه بيوم، فقلتُ له: ما هذا الضرب المبرّح، وما الخُلقُ السّيء؟ هؤلاء غلمان، لهم حرمة وكفاية وتربية، وإنما هم ولد. هؤلاء إلى غير هذا أحوج. قال: إنّك لست تدري أنهم أكلوا كلّ جوارشنٍ كان عندي.*

قال أبو الإصبغ: فخرجتُ إلى رئيس غلمانه بيوم، فقلتُ: ويلك! مالك وللجوارشن؟ ما رغبتك فيه؟ قال: جعلتُ فداك! ما أقدر أن أكلّمك من الجوع إلا وأنا متّكيء. الجوارشن ما أصنع به؟ هو نفسه ليس يشبع، ولا يحتاج إلى الجوارشن، ونحن الذين إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه النّاس، ما نصنع بالجوارشن؟"[١].

وهذه الحكاية تشتمل على وظيفتين، الأولى أن ضرب زبيدة لغلمانه ضرباً مبرحاً على أكل الجوارشن، ومعناها أكل "الطعام" في كمية كثيرة، حتى يهضم بالجوارشن، والغلمان ينكرون هذا الفعل. والوظيفة الثانية أيضاً يتعلق "بالطعام"، ورئيس الغلمان يعترف عن شدّة الجوع، أنه يسمع كلمة الشبع من أفواه الناس فقط. وهو طلب صريح لـ"الطعام".

وفيما يلي حكاية الكندي، وحيله في أخذ في فئة "الطعام":

٢. *"كان الكندي لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: إنّ في الدار امرأة بها حمل، والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيّبة، فإذا طبختم فرُدّوا شهوتها، ولو بغرفة أو لعقة،(..) فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إيّاك، فكفّارتك إن أسقطت غرّة: عبد أو أمة، ألزمتَ ذلك نفسك أم أبيت"قال: فطفان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السكّان والجيران ما يكفيه الأيام. وكان الكنديّ يقول لعياله: أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع. إنمالكلّ بيتٍ منهم لون واحد وعندكم ألوان"*[٢].

وهذه الحكاية عن حيلة الكندي، وهو "طلب صريح" عن الطعام الشهي من الجيران، وهو يخوّفهم من إسقاط حمل لزوجه، بسبب ريحة طيّبة لـ "الطعام"، فيقبلون الطلب، لكي لا تسقط غرّة. فيجد بكميات كافية للطعام، ويفرح على حيله.

١- البخلاء، ص٣٥-٦

٢- المصدر نفسه، ص٨١

وفيما يلي حكاية كفاية الدقيق.

٣. *"حمّ الثوري، وحمّ عياله وخادمه، فلم يقدروا مع شدّة الحمى على أكل الخبز، فربح كيلةَ تلك الأيام من الدقيق، ففرح بذلك وقال: لو كان منزلي سوق الأهواز أو نطاةَ خيبر أو وادي الجحفة، لرجوتُ أن استفضل كل سنة مائة دينار. فكان لا يبالي ان يحمّ هو واهله ابداً، بعد ان يستفضل كفايتهم من الدقيق"* [1].

وفي هذه الحكاية يفرح الثوري على كفاية المؤنة، ويدعو لإستيفاء هذا الطلب، ولا يهمّ أنه وعياله وخادمه اشتدّ عليهم الحمى. ويجد نفس الموضوع في حكاية أخرى، حيث شيخ المسجديين[2]، شكا أياما بالسعال، وشرب ماء النخالة، فوجد فيها صلاح البدن وصلاح المعاش.

وهذه الحكاية تستند إلى الأعرابيّ، وهو على المائدة، ويريد أن يهب "نعمة العظم" لمن يستحق له.

٤. *"تعرّق اعرابيّ عظماً، فلما اراد ان يلقيه، وله بنون ثلاثة، قال له احدهم:" أعطنيه"، قال: "وما تصنع به؟"، قال: "اتعرّقه، حتى لا تجد فيه ذرّة مقيلاً"، وقال الثاني: "أعطنيه"، قال: "وما تصنع به؟"، قال: "اتعرّقه، حتى لا يدري العامّه ذلك هو أم للعام الذي قبله"، قال: ما قلت شيئاً"، قال الثالث: "أعطنيه" قال: "وما تصنع به؟"، قال: "أجعله مخّه إدامه"، قال: "أنت له"* [3].

وهذه الحكاية عن **طلب البخل** والاقتصاد (كما يعبرون البخلاء عنهم) في المؤاكلة، وخاصة بالعظام امتصه الأب، والأولاد يريدون أن استفادو منه. وبالامتحان يحكم الوالد من يستحق له.

وهذه الحكاية استند إليه ثلاث وظائف، وظيفتان في فئة "الشيء" والثالثة من فئة "الطعام":

٥. *"زعموا انّ رجلاً قد بلغ في البخل غايته، وصار إماماً، وأنه كان إذا صار في يده الدرهمُ، خاطبه وناجاه وفدّاه واستبطاه. وكان ممّا يقول له: "كم من أرضٍ قد قطعتَ، وكم من كيسٍ قد فارقتَ، وكم من خامل رفعتَ، ومن رفيع قد أخملتَ. لك عندي ألا تعرى ولا تضحى"، ثمّ يلقّيه في كيسه ويقول له: "اسكن على اسم الله في مكانٍ لا تهان ولا تذل ولا تُزعج منه"*. *وإنه لم يدخل فيه درهماً قطّ فاخرجه.*

وان اهله الحّوا عليه في شهوة، واكثروا عليه في إنفاق درهم، فدافعهم ما أمكن ذلك. ثمّ حمل درهماً فقط. فبينما ذاهبٌ إذ رأى حوّاء، قد أرسل على نفسه أفعي لدرهم يأخذه، فقال في نفسه: اتلف شيئاً تبذل في النفس، بأكلة أو شربة؟(..) فرجع إلى أهله، وورّد الدرهم إلى كيسه.

---

[1]- البخلاء، ص١٠٤.

[2]- المصدر نفسه، ص٣١-٢.

[3]- المصدر نفسه، ص٢٢٢.

وكان أهمه منه في بلاء، وكانوا يتمنّون موته والخلاص منه (..) فلما مات وظنّوا أنهم قد استراحوا قَدِمَ ابنه، (..) قال ما هذه الحفرة؟ قالوا: كان لا يقطع الجبن، وإنما كان يمسح على ظهره، فيحفر كما ترى، قال: هذا أهلكني، وبها أقعدني هذا المقعد. لو علمتُ ذلك ما صلّيتُ عليه، قالوا: فأنتَ كيف تريد أن تصنع؟ قال أضعها من بعيد، فاشيرُ إليها باللقمة"[1].

هذه قصّة أمام البخلاء، وتعامله بالدراهم، وطريقة طريفة لإكرام الدراهم، وتمكنها في مكان عافية. وله فكرة خاص بالإنفاق، لا ينفق حتى أحاط به، ويلتمس سبيل الفرار، ولو وجد دليلاً منكراً، يسرع إليه، ويرتد ويرجع قهقرياً، وأخيراً يعود إلى البيت ويلقي الدرهم في كيسه، ويتمنّى الأهل بالخلاص منه بالموت، فهاتان وظيفتان يتفقان في طلب البخيل في "الشيء". والوظيفة الثالثة تشير إلى فعل ابنه، وهو أشدّ منه في التبخّل وطلب المال. وعنده عملية أبيه خسارة وسبب الهلاك، أنه يمسح الحزّ باللقمة (وبخل في الجبن) وابنه يرشد لأهله أن يشير إليها باللقمة من بعيد، كي يحفظ الحزّ بالحفرة. وهي صورة البخل بل الشحّ، والمبالغة فيها وهي أمثلة نادرة من المقترين.

٢,٢. الحكاية على أساس أنماطها

في فصل خاص بالمسجديين روى أحد المشايخ الحكاية التالية:

١. *"كنا نلقي من الحرّاق والقداحة جهداً؛ لأن الحجارة كانت – إذا انكسرت حروفها واستدارت – كلت ولم تقدح خير ... أن العراجين أعذق ... والخادم اليوم لا تقدح ولا تُوري إلاّ بالعرجون"*[2].

وفي هذه الحكاية كحكايتين السابقين استخدم بشيء ما بطريقة الاقتصاد والإصلاح. وهي قصّة ذات بنية هرمية (مثلثية)، ويشكل هذا الصنف من القصص أكثر شيوعاً في القص القديم. وهي تعتمد على نظام التتابع الزمني، وتتبع أحداث كثيرة، بانتهاء أي واحد منها يبدأ الثاني.

وتقسيم الحكاية:

منفعة يسعى إليها عملية التحسن تحسن يتم الوصول إليه

بداية - عقدة - نهاية / الانفراج

فالحكاية تبدأ بالهدوء: " كنّا نلقي من الحرّاق والقداحة جهداً". (منفعة يسعى إليها)

---

[1]- البخلاء، ص١٣١-٢.

[2]- المصدر نفسه، ص٣٢.

والعقدة: "إذا انكسرت حروفها كلت ولم تقدح .. ربما أعجلنا المطر والوكف .. ونشتريه بأغلى الثمن ... الثوري علّمني كيف تعالج عراجين ..... ". (اضطراب وعملية التحسن)

لحظة التنوير/ الارتخاء: " فالخادم اليوم لا تقدح ولا توري إلا بالعرجون". (تحسن يتم الوصول إليه).

الاحتمال الثاني:

منفعة يسعى إليها - انعدام التحسن - تحسن لا يتم الوصول إليه

التوازن (١) اضطراب التوازن (٢)

وفيما يلي قصّة محمّد بن أبي المؤمّل:

التوازن: *"قلتُ لمحمد بن أبي المؤمّل: أراك تطعم الطعام وتتخذه، وتنفق عليه المال وتجوّده. ....*

اضطراب: فقد صيرنا لقلّة عَدَد خبزك من بين الأشياء، ... فإنّ بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللوم شكراً وذلك الذمُّ حمداً. ... قال: فها هنا رأيي هو أعدل الأمور وأقصدها، وهو أنا نحضر هذه الزيادة من الخبز على الطبق،.....

التوازن (٢): فلمّا حضر وقت الغذاء، صوّت بغلامه – يا مبشّر هاتِ من الخبز تمام عَدَد الرؤس".

هذه الحكاية عن تبدأ من الضيافة أبي المؤمّل، تطعم الطعام الجيد. (منفعة يسعى إليه)

لكن عدد الخبز على الخوان كان قليلاً، فقرّر أن يزيد ... (انعدام التحسن)

فلما حضر وقت الغذاء قال هات من الخبز تمام عدد الرؤس. فقد عاد الأمر وبطل ما تناظروا فيه. و(تحسن لا يتم الوصول إليه)

الاحتمال الثالث:

ضرر محتمل - عملية الضرر - ضرر يحدث بالفعل

التوازن اضطراب

وفيما يلي حكاية عن بخل خالد بن عبد الله القسري:

التوازن (١) : *بلغ خالد بن عبد الله القسري أنّ الناس يرمونه بالبخل على طعام. .....*

اضطراب: فتكلم يوماً، فما زال يُدخل كلاماً في كلام. حتى أدخل الاعتذار من ذلك في عُرض كلامه، فكان مما احتجّ به في شدّة الرؤية الأكيل عليه، وفي نفوره منه. (..)

التوازن (٢) *ما بالي احتملته فيمن لي منه بدّ، ولي عنه مذهب. ليأكل كلّ امرئٍ في منزله، وفي موضع أمنه وأنسه، ودون ستره وبابه.*

وهذه الحكاية تظهر تدهور محتمل، وهو أن الناس يرمونه بالبخل. (ضرر محتمل)

فتكلمه يوماً وفكان ما احتجّ به في شدّة الرؤية. (عملية الضرر)

فرفض خالد وقال ما بالي احتمله فيمن لي منه بد. (ضرر يحدث بالفعل).

الاحتمال الرابع:

ضرر محتمل - انعدام الضرر - ضرر يتم تفاديه

وفيما يلي حكاية عن والٍ وشاعر:

هذا الحديث ما حدثني به محمد بن يسير عن والٍ كان بفارس: "بينا هو مشغول بحسابه وأمره، إذ نجم شاعرٌ من بين يديه فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه ومجده، فلما فرغ قال: قد أحسنتَ. ثمّ أقبل على كاتبه ، فقال: أعطه عشرة آلاف درهم". (ضرر محتمل).

ففرح الشاعر، فجعلها عشرين ألف درهم، ... ثمّ قال: أعطه يا فلان أربعين ألفاً. فكاد الفرح يقتله. ... ثمّ دعا وخرج. ... فأقبل عليه كاتباً فقال: هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً، تأمر له بأربعين ألف درهم؟ (اضطراب، وانعدام الضرر)

هذا رجلٌ سرَّنا بكلام، وسررناه بكلام. (ضرر يتم تفاديه)

٣. الحكاية في الإمتاع والمؤانسة

٣,١. تقسيم الحكايات في فئات أساسية

الحكاية بنية رئيسية تشترك مع غيرها على نظام ضمني من الوحدات والقواعد. وهي تنقسم بين "الهيكل" و"الرسالة" و"الشفرة". والقصص في كتاب الإمتاع والمؤانسة تعبّر عن الحياة الإنسانية، بمختلف شؤونها، وقد وردت فيه بعض القصص التي أقرب للوعظ والنصح، ويستخدم فيها أسلوب الترغيب والترهيب، وكذلك وردت فيه حكايات بطولية، وفيها حكايات فكاهية، وفيها السخرية والتهكمية، حكايات العقلاء والمجانين، وعن الفقراء والحكام، وعامة الناس، وهذا صعب جداً أن أقسم هذه الحكايات على تقسيمات كتاب البخلاء، (لأن هذا الكتاب على موضوع واحد وهو البخل)، وحرصتُ أن أحلل هذه الحكايات على تقسيم السابق، وهو الشيء، والضيافة والأكل.

ا. حكايات في فئة "الشيء"

هذه الحكاية تتعلق عن فئة الشيء: *"رأيت حجطة، قد دعا بنّاء ليبنى له حائطاً، فحضر، فلمّا أمسى اقتضى البنّاء الأجرة، فتماكسا وذلك أنّ الرجل طلب عشرين درهماً؛ فقال حجظة: إنما عملتَ يا هذا نصف يوم وتطلب عشرين درهماً؟ قال: أنت لا تدري، إنّي بنيتُ لك حائطاً يبقى مائة سنة؛ فبينما هما كذلك وجب الحائط وسقط؛ فقال حجظة: ها عملك الحَسَن؟ قال: فاردتَ أن يبقى ألف سنة؟ قال: لا، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفيَ أجرتك"* [١]. وهذه الحكاية يوضح عن فئة "الشيء" يتماكسا فيه آجر والبنّاء، وهو طلب الأجرة أكثر من العمل، وإسقاط الحائط هو وظيفة فيصل بينهما.

وفيما يلي حكاية عن هدية الشيء:

"وعد رجلٌ بعض إخوانه أن يهديَ إليه بغلاً؛ فطال مطله، فأخذ قارورة وبال فيها وجاء إلى الطبيب وقال: انظر إلى هذا الماء، هل يُهدِي إليّ بعضُ إخواني بغلاً" [٢].

وهذه حكاية يعبّر عن انتظار الرجل للهدية، وكيفية الانتظار يثقل عليه، فيبحث طريقة نادرة، وما ذا صلة بين تشخيص البول وهو ليس للمرض بل ليعرف عن نصيبه أن ينجح في حصول طلب "الشيء" أم لا. ويدهش القارىء كيف يربط بين العمل والنتيجة.

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٢٨.

[٢]- المصدر نفسه، ج٢، ص٥٨.

وفيما يلي حكاية عن "قصّة تاريخية" عن "الشيء":

"قال سَلَمة بنُ المُحبِّق: شهدتُ فتح الأُبُلّة، فوقع في سهمي قِدر نحاس، فنظرتُ فإذا هي ذهبٌ فيها ثمانون ألف مثقال، فكتبتُ في ذلك إلى عُمَر، فأجاب بأن يُحلِّف سلَمة بأنه أخذها يومَ أخذَها وهي عنده، فإن حلَف سُلِّمت إليه، وإلا قُسمت بين المسلمين، قال: فحلفتُ فسُلِّمت إليَّ، فأصول أموالنا اليوم منها"[1].

وهذه الحكاية تصوير حيّ لعصر الخلافة، وثقة الفرد على حكامه، واعتماد الحكام على رعاياهم، وأن بالقول الثابت (بالحلف) يحلّل معاملات، وعناية الخليفة أن يقسّم أموال المسلمين بينهم، بالحق، ويصل كل فرد من نصيبه. فيصل سلمة بن المحبّق غنيمة بالحقّ.

وفيما يلي حكاية عن رجل في حكم النجاشي:

١. *"إنّ رَجُلا جاء إلى النجاشيّ فقال له: اقرضني ألف دينار إلى أجل، فقال: من الكفيل بك؟ فقال: الله، فأعطاه الألفَ، فلمّا بلغ الأجل أراد الرّد، فحبسته الرّيح، فعَمِل تابوتاً وجعل فيه الألف وجعل فيه الألف وغلّفه، وألقاه في البحر، وقال: اللّهمّ أدّ حمالتك؛ فخرج النّجاشيُّ إلى البحر فرأى سواداً؛ فقال: ائتوني به. فأتوهُ بالتّابوت، ففتحه، فإذا فيه الألف، ثمّ إنّ الرّجل جمع ألفاً بعد ذلك، وطابت الرّيح، وجاء إلى النّجاشيّ فسلّم عليه؛ فقال النّجاشيّ: لا أقبلُها منك حتى تُخبرني بما صنعتَ فيها. فأخبره بالّذي صنع؛ فقال النّجاشيّ: فقد أدّى الله عنك، وقد بلغت الألفُ في التابوت، فأمسِك عليك ألفك"*.

هذه الحكاية عن رجل في عصر النجاشي، الذي قرض منه الألف، و جعل الله كفيل عليه، فأدى القرض بطريقة عجيبة، جعل الدراهم في التابوت، وألقى التابوت في البحر، على اسم الله، فالله حافظ عليه، وحمل الأمانة إلى النّجاشي بطريقة صدفة. فهذا أمر الله، أنه وصل "الشيء" إلى ما يستحق. فمعنى الحكاية أن الله يكون في عون العبد حتى يكون العبد في جهده.

حكاية جواب حاضر عن "الشيء":

٢. *"حدّثنا القاضي أبو حامد المرورُوذيّ؛ قال: وقف سائلٌ من هؤلاء الأنكاد علينا في جامع البصرة وفي المجلس ابن عبدل المنصوريّ، وابنُ مَعروف، وأبوتمام الزّينبيّ، فسَأل وألحّ؛ فقلتُ له من بين الجماعة – وقد ضجرتُ من إلحاحه وصفاقة وجهه -: يا هذا نزلتَ* **(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (٣٧))**[2]. *قال: صدقتَ، ولكن* **(يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) (٥٧))**[3]. *فضحكت الجماعة، ورَمَينا له دراهمَ"*[4].

---

[1]- الامتاع والمؤانسة، ج٢، ص٦٤

[2]- سورة إبراهيم

[3]- سورة القصص

[4]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص١٠٠.

هذه الحكاية عن جامع البصرة، وفيها رجال صعب عليهم العيش، إذ وقف عليهم سائل، وقال المروروذيّ: يا هذا: نزلتَ "بوادٍ غيرذي زرع"، وهذا تلميح عن أرضٍ لا تنبت أيّ نبات، أي أنت تسأل من الناس ليس عندهم أيّ خير أو نفقة. فأجاب بجواب حاضر: صدقتَ، لكن يجبى إليه ثمرات كلّ شيء"، وهو أيضاً تلميح جميل، ومثال مكة هي وادٍ غير زرع لكن يجبى إليه ثمرات كل شيء، ومن هذا الجواب الحاضر، وهبهم له دراهم. أي وجد "الشيء" بحسن كلامه.

هذه حكاية عن زوجين في الكبر:

٣. *"قدمتِ امرأةٌ زوجها إلى زياد تُنازعُه، وقد كانت سنُّه أعلى من سِنِّها فجعلت تَعيبُ زوجَها وتقع فيه، فقال زوجها: أيها الأمير، إنّ شرّ شطرَي المرأة آخرها، وخيرُ شطرَي الرجل آخره. المرأة إذا كبرَت عقمَت رَحِمُها، وحدّ لسانها، وساءت خُلُقُها، وإنّ الرجلَ إذا كبرَت سِنّه استحكم رأيُه وكثُر حِلمُهُ وقلّ جَهلُه"*[1].

وهذه الحكاية تظهر أنّ زيادة العمر يؤثر في المرء وزوجه على العكس، وفي شطر الأول من الحياة المرأة خيرٌ من زوجها في الخُلق والرحم، وفي شطر الأخير يستحكم رأي الرجل ويزيد حِلمه، يقلّ جهله. وأنا أوافق هذا الرجل، والمرأة بعد العقم تكون جريئاً في كلامها، وتحدّ لسانها، ولها أسباب عديدة، منها، أنّها تحس الهبات الساخنة في جسدها، والطبّ الحاضر يوافق بها.

٤. *"قال معاوية: هذا عقيل عمُّه أبو لهب. فقال عقيل: هذا معاوية عمّتُه حمّالةُ الحَطَب"*[2].

وهذه الحكاية موجزة تعبر عن مخاصمة فيما بين عقيل و معاوية، وهما يحقّران على نسبة أقاربهما بالتهكم أحدهما على الآخر، فمعاوية يحقّر عقيل بعمّه أبو لهب، وفي جواب الحاضر عقيل يهاجم عليه بنسبته لزوجة أبي لهب، وذكر القرآن أنها **(حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤))**[3]. وهذه القصة تبدو الجوّ الإهانة بعد عصر خلفاء الراشدين. وهو نفس العصر نشبت فيه النّار المخاصمة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وهذه النار بردت لكن أثرها لم يبرد، حتى هاجم بعضها على بعض في الكلام، وفي المداعبة.

وفيما يلي حكاية عن "جواب الشتم":

٥. *"وقال رجل لابن مُكدّم: يا كافر. قال: وجب عليّ الشُكر، حيث لم يجر ذلك على لساني، ولم تجب عليّ إقامة الحجّة فيه، وقد طويتُ قلبي على جملة أشياء؛ قال: وما هنّ؟ قال:*

---

[1]- الإمتاع والمؤاسة، ج ٣، ص١٧٤

[2]- المصدر نفسه، ج ٣، ص١٨٠.

[3]- سورة المَسَد.

إن قلتَ ألفَ مرّة لا أحبّك مرّة، ولا لأحقِد عليك، ولا أشكوك إلى أحد، وإن نجوتُ من الله عزوجلّ بعد هذه الكلمة شفتُ لك. فتاب الرجل"[1].

وهذه الحكاية عن موعظة حسنة، للرجل الذي يُشتم، ويدفع السّيئة بالحسنة، كما قال الله تعالى: **(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤))**[2]

ومن عمل ابن مكدّم الحسن تاب الرجل.

وفيما يلي حكاية عن رأي عمر بن الخطاب عن النصارى:

٦. *"قدِم أبو موسى على عُمر ومعه كاتبٌ له، فرفع حسابه، فأعجب عُمَر. وجاء إلى عمر كتابٌ فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على النّاس؟ قال: إنّه لايدخل المسجد. قال: لمَ؟ أجُنُبٌ هو؟ قال: إنه نصرانيّ. قال: فانتهره، وقال: لا تدنِهم وقد أقصاهم الله، ولا تُكرِمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خوّنهم الله"*[3].

وهذه الحكاية تظهر رأي عمر للنصارى وشركتهم في أمور المسلمين، وهو لا يحبّ قربهم مع المسلمين. وحجته قويّة أن الله أقصا هم فلا تدنهم، ولا تكرمهم ولا تأمنهم، وفيما بعد ظهر انتشار والضعف في حكم المسلمين لما شاركوا أهل الكتاب في أمور المسلمين.

وفيما يلي حكاية عن "التسهيل المهدي" لعامة النّاس:

٧. *"قال أبو دعلج: قال المهديّ: بايع؛ قلتُ:أبايعكم علام؟ قال: على ما بويع رسول الله عليه وسلم يوم صفّين، قال كريز أبو سيّار المسمعيّ: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدرك صفّين، إنما كانت صفّين بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما). فقال دوست بن رباط الفقيميّ أبو شعيب: قد علم الأمير هذا، ولكن أحبّ التسهيل على النّاس"*[4].

وهذه حكاية طريفة، عن المهدي، وهو خليفة العباسي، هو يأخذ البيع، ويخلط الوقائع التاريخية، ولمّا يتوجه إليه المسمعيّ لكي يصحّ حقائق تاريخية، يقول الفقيميّ ، الأمير يريد فقط التسهيل على الناس، كي يفهم مراد الأمير، كأن العوام كالأنعام، لا يفهم السياسية ولا التاريخ.

فيما يلي حكاية فكاهية:

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص١٢٩.
[2]- سورة فصلت.
[3]- الإمتاع والمؤانسة، ح ٢، ص٩٨-٩.
[4]- المصدر نفسه، ج ١، ص٧٠

٨. *"قال رجلٌ من العرب لرجل من أبناء العجم: رأيتُ في النوم كأنّي دخلتُ الجنّة فلم أر فيها ثَنَوياً. فقال له ثنويّ: أصعدتَ الغرفَ؟ قال: لا. قال: فمن ثَمّ لم ترهم، هم في الغرف"*[١].

هذه الحكاية تظهر مقابلة بين العرب وأبناء العجم، وهي الفضاء التي سادت في القرن الثالث الهجري، مَن هم على الحق، ومن سيكون في الجنّة، وهذا ليس على علم دقيق بل على الرؤيا، وبصورة فكاهة.

ب. حكايات في فنة "الضيافة"

هذه الحكاية عن السلع (الطعام) تقدم بكميات كافية:

١. *"وقال الرشيد للجمّاز: كيف مائدة محمد بن يحيى، أي البرمكيّ. قال: شِبرٌ*[٢] *في شبر؛ وصحفَتُه قِشر الخشخاش*[٣]*، وبين الرغيف والرغيف مَضربُ كُرة؛ وبين اللّون واللّون فَتزَةُ نبيّ. قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون؛ فضحك وقال: لَحاكَ الله من رجُل"*[٤].

وهذه حكاية ضيافة محمد بن يحيى، خوانه مليء بالنوادر، وعليه رفض كامل للضيوف، و"يحضرها الكرام الكاتبون" هي إشارة نفي لأي إنسان على هذا الخوان، فهو رفض بغير "الطلب".

فيما يلي حكاية عن "طلب الضيافة":

٢. *"وعشقَ رَجُلٌ جاريةً رومية كانت لقوم ذوي يسار، فكتب إليها يوماً: جعلتُ فداك، عندي اليوم أصحابي، وقد اشتهيتُ سكباجة بقريّة، فأحبُّ أن توجّهي إليّ بما يعمّ ويكفينا منها، ودستجة من نبيذٍ لنتغذى ونشرَب على ذِكرك، فلما وَصَلتِ الرُّقعةُ وجَهت إليه بما طلب؛ ثمّ كتب إليها يوماً آخر: فِداتكِ نفسي، (..) وقد اشتهيتُ قليّة جزوريّة، فوجّهي بها إليّ (..) ثمّ كتب إليها يوماً آخر: جعلتُ فداك: وقد اشتهيتُ أنا وأصحابي رؤساً سماناً (..) فكتبت الجارية عند ذلك: إنّي رأيتُ الحبّ يكون في القلب، وحبّك هذا ما تجاوز المعدة"*[٥].

وهذه *الحكاية عن طلب* الضيافة من المعشوقة وهي جارية روميّة، وهذا الطلب طلب صريح بالكتابة، فتمّ الطلب وتقدّمت تغذية بكميات وافرة، لكنه أضاف الطلب مراراً، حتى

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، ج ٣، ص١٧٦.
[٢]- الشبر. ما بين طرفي الخنصر والإبهام بالتفريج المعتاد.
[٣]- الخشخاش نبات عشبي، متنوع الاستعمال.
[٤]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٥٨.
[٥]- المصدر نفسه، ح٣، ص٨

رفضت الجاريَة بالقول: "إنّي رأيتُ الحبّ يكون في القلب، وحبّك هذا ما تجاوز المعدة". وهذا إنكار للطلب بدليل المنطق.

وفيما يلي حكاية عن خوان المضيف:

٣. *"وحكى لنا أبوبكر أحمدُ بنُ إبراهيمَ بُجرجانَ إمامُ الدنيا قال: رأيتُ أبا خليفة المفضّل بن الحُباب، وقد دعى إلى الوليمةِ فرأى الصّحاف تُوضعُ وتُرفعُ، فقال: أللِحْسن والمَنظَرِ دُعينا، أم للأكل والمَخبَر؟ فقيل: بل للأكل والمخبر، قال: فاتركوا الصّحفَةَ يُبلَغُ قَعرُها"*[1].

وهذه الحكاية عن منظر الضيافة، وطلب الضيف ليس للطعام، بل أن يضع الصحاف حتى يؤكل ما فيه، ويبلغ قعرها.

وفيما يلي حكاية عن خوان قتيبة:

٤. *"قال الشعبي: استسقيتُ على خِوانِ قُتيبة، فقال: ما اسقيك؟ فقلتُ: الهيِّن الوُجد، العزيز الفَقد، فقال: يا غلام، اسقه الماء"*[2].

وهذه الحكاية عن بخل قتيبة على خوانه، وهو يسأل عن الشعبي، ما ذا يريد، ورفض طلبه بالحيلة، وسقاه الماء.

وفيما يلي حكاية عن الضيافة السيئة:

٥. *"قال سلمة: بَقِي أبو القَمقام ببغداد، وكنّا نأتيه ونسمع منه، فجاءنا بجفنة فيها جوانب* (طعام فارسي، يشتمل على سكر وأرز ولحم) *فجعل أصحابنا يأكلون، ثم أتاهم بسفُودٍ فيه يرابيعُ فسلتها في الجفنة، فعلم القوم أنّهم قد دهوا، فجعلوا يستقيئون ما أكلوا"*[3].

هذه الحكاية عن الضيافة بدون الطلب، لكن ضيافة سيّئة، الطعام يقدم في الضيافة بكميات كافياة لكن ذات نوعية سيّئة، وهو سفّود فيه يرابيع، ولما عرف الضيوف أنهم قد دهوا أخذوا يستقيئون ما أكلوا.

وفيما يلي حكاية عن الضيف جواب حاضر:

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٧.
[2]- المصدر نفسه، ح٣، ص٣٢
[3]- المصدر نفسه، ح ٣، ص٦٩

٦. *"تغدى أبو العيناء عند ابن مكرّم، فقدّم إليه عُراقاً* (العظم الذي أخذ ما عليه من اللحم)، *فلمّا جسّه قال: قِدرُكم هذه قد طبخت بشِطرنج؟ وقدّم إليه يوماً قِدراً وجدها كثيرة العظام، فقال: هذه قِدرٌ أم قبر؟"*[١]. وهذه الحكاية عن المضيف جواب الحاضر، في الوظيفة الأولى وجد عراق وشبّهه بالشِطرنج، وفي الوظيفة الثانية وجد القِدر فيها كثيرة العظام فشبّهه بالقبر، الذي فيه العظام دون اللحم. وفي هذه الضيافة الطعام ذو نوعيّة غير مطلوبة، وغير مناسب للضيف، والضيف أيضاً لا يستحيي أن يضرب عيوبه.

ج. حكايات في فئة "الطعام"

وهذه الحكاية عن طعام غير مرغوب:

١. *"قال شقيق: اشتريتُ بطّيخة لأمّي، فلمّا ذاقها سخطت. فقلتُ: يا أمّي، على من تُرَدّين القضاء ومن تلومين، أحارثُها أم مشتريها أم خالقَها؟ فأمّا حارثُها ومشتريها فما لهما ذنبٌ، فلا أراكِ إلا تلومين خالقَها"*[٢].

وهذه الحكاية عن سخط الأمّ على بطيخة غير لذيذة، وهي نصيحة الابن لأمه، أن لا تلومي خالقها. ولا تسخط عليها.

وفيما يلي حكاية على العكس من الحكاية الأولى:

٢. *"إنّ عبداً حبشيّاً ناوله مولاه شيئاً يأكله، وقال: أعطني قطعةً منه فأعطاه، فلمّا أكله وجده مُرّاً، فقال: يا غلام، كيف أكلتَ هذا مع شدّة مرارته. قال: يا مولاي، قد أكلتُ من يدك حلواً كثيراً، ولم أحبّ أن أريك من نفسي كراهةً لمرارته"*[٣].

هذه الحكاية عن الحبّ الحقيقي بين مولى وغلام، الذي يقبل مرارة الطعام، في حبّه، ولم يظهر أيّ أثر سيّء على وجهه، لأنّ في نظرته مقام الحبّ أولى وأعلى من مرارة الطعام الذي وصل إليه فجأة دون الإرادة. وهو "قبول طعام مرّ بغير الطلب".

وفيما يلي حكاية "عن أخذ الطعام على قدره":

٣. *"وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد، وفي يدها قدح، فسألت عسلاً وقالت: زوجي مريض؛ فأمر لها برواية عسل؛ فقالوا: يا أبا حرث: إنما تسأل قدحاً. قال: سألت على قدرها*

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة ، ح ٣، ص٦٩.
[٢]- المصدر نفسه، ح ٢، ص١٢١
[٣]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٢١ .

ونعطيها على قدرنا"[1]. وهذه الحكاية عن سؤال نوع من الطعام، وهو عسل، ووظيفتها أن المعطي يعطي "أكثر من الطلب"، بدليل أنها سألت على قدرها ونعطي على قدرنا.

وفيما يلي حكاية عن "الطعام النفيس":

٤. "*قال أبو الحسن: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتبرز كفّاً كأنها طلعةٌ، في ذراع كأنها جمّارة، فلا تقع عينها على أكلةٍ نفيسةٍ إلاّ خصّتني بها، فزوجتُها، وصار يجلس معي على المائدة ابنٌ لي، فيبرز لي طفّاً كأنها كِرنافة، في ذراع كأنها كَرَبَة، فوالله إن تسبقُ عيني إلى لقمةٍ طيّبة إلاّ سبقت يده إليها*"[2]. وهذه الحكاية عن تجربة الأب على المائدة، في الوهلة الأولى هو يجلس مع الابنة، التي تخص كل أكلة نفيسة للوالد، وفي الوهلة الثانية هو يجلس مع ابنه الذي تسبق بكل لقمةٍ طيّبة له. فطلب الابنة ليست لها بل هي تؤثر الوالد عليها، وطلب الابن لذاته، هو يسبق منه إلى بلقمة طيّبة، وفيه إشارة إلى ترجيح البنت والولد على الخوان، والمشاعر القلبية لأبيهما. وفيه إشارة إلى شدة الحبّ البنت مع الوالد.

وفيما يلي حكاية "عن طلب الصوفيّ":

٥. "*قيل لصوفيٍّ في جامع المدينة: ما تشتهي؟ قال: مائدةٌ روحاء* (إذا كانت واسعة عريضة)، *عليها جفنةٌ رحّاء، فيها ثريدة صفراء، وقدر حمراءُ بيضاء*"[3].

هذه الحكاية يظهر "طلب الصوفيّ" للطعام، وماذا يشتهي على المائدة.

وفيما يلي حكاية عن "أكلة صهيب وهو رمِد":

٦. "*قدم صهيب على رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقباءَ ومعه أبو بكر وعمر، بين ايديهم رطبٌ قد جاءهم به كُلثوم بن الهِدم أمَهات جُرازين*[4] *وصهيبٌ قد رَمِد*[5] *في الطريق، وأصابته وأصابته مجاعةٌ شديدة، فوقع في الرطب؛ قال صهيب: فجعلتُ آكل، فقال عمر: يا رسول الله، ألا ترى إلى صهيب يأكل الرّطبَ وهو رَمِد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتأكل الرّطب وأنتَ رمِد؟ فقال صهيب: انا آكل بشقّ عيني الصحيحة، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم*"[6]. هذه الحكاية عن أكلة صحابي هاجر إلى المدينة، وأصاب عينه الرّمِد خلال السفر، ولمّا قدم

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج ٣، ص٤.

[2]- المصدر نفسه، ج ٣، ص١٤-٥

[3]- المصدر نفسه، ج ٣، ص٢٣

[4]- نوع من الرطب كبار، وسمي بذلك لأن نخلة يجتمع تحته الجرزان لحلاوة ثمره هي أحر نخلة بالحجاز إدراكاً، وهي أم جرزان رطباً، فإذا جفت فهي الكبيس (الهامش في الإمتاع والمؤانسة).

[5]- رَمِد: داءٌ يصيب العين فيحدث فيها التهاباً واحمراراً، وتفرز المادة كالقيح، لونها ما بين البياض والصفرة

[6]- الإمتاع والمؤانسة، ج ٣، ص١٠

بقباء، كان النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه يأكلون الرّطب، وفي شدّة الجوع وقع صهيب في الرطب، بدليل أنه يأكله بشقّ عيني الصحيحة.

وفيما يلي حكاية "أكل عثمان بن رواح مع الرفيق بسبب الحياء":

٧. *"ضمّ عثمان بن رواح السّفرُ ورفيقاً له، فقال له الرفيق: إمض إلى السوق فاشتر لنا لحماً. قال: والله ما أقدر؛ فقال: فمضى الرّفيق واشترى اللحم ثمّ قال لعثمان: قُم الآن فاطبُخ القدر، قال: والله ما أقدر؛ فطبخها الرفيق. ثمّ قال: قُم الآن فاثرد. قال: والله إني لأعجز عن ذلك. فثرد الرّفيق. ثمّ قال: قُم الآن فكُل. فقال: والله لقد استحييتُ من كثرة خلافي عليك، لو لا ذلك ما فعلتُ"*[1]. وهذه الحكاية عن رفيق كسلان في السفر، الذي رفض كل مرّة أن يشارك في عدّة الطعام، بقول أنه لا يقدر، وهو إنكار صريح على طلب العمل، لكنه قبل طلب الأكل، بقول أنه يستحيي من كثرة الخلاف.

٣,٢. الحكاية على أساس أنماطها

الاحتمال الأول:

وفيه حكاية الرجل أخذ القرض من النجاشي:

"إنّ رجلًا جاء إلى النجاشي فقال له: أقرضني ألفَ دينار إلى أجل ...

فقال: من الكفيلُ بك؟ فقال: الله. فأعطاه الألف. (منفعة يسعى إليها)

فلما بلغ الأجل، أراد الردّ، فحبسته الريح ... فعمل تابوتاً وجعل فيه الألف .. وألقاه في البحر (عملية التحسن)

قال النجاشيّ: قد أدى الله عنك، وقد بلغت الألف في التابوت، فأمسك عليك ألفك". (تحسن يتم الوصول إليه.)

وهي قصّة ذات بنية هرمية (مثلثية)، ويشكل هذا الصنف من القصص أكثر شيوعاً في القص القديم. وهي تعتمد على نظام التتابع الزمني، وتتبع أحداث كثيرة، بإنتهاء أي واحد منها يبدأ الثاني وهكذا.

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح ٣، ص٤٠

وتقسيم الحكاية: منفعة يسعى إليها عملية التحسن تحسن يتم الوصول إليه

بداية - عقدة - نهاية / الانفراج

فالحكاية تبدأ بالهدوء: " سأل القرض وأعطاه ذلك النجاشي". (منفعة يسعى إليها)

والعقدة: "إذا بلغ الأجل حبسته الريح، فعمل تابوت وأرسل إليه،..... ". (اضطراب وعملية التحسن)

لحظة التنوير/ الارتخاء: " بلغت الألف إلى النجاشي[1] ". (تحسن يتم الوصول إليه).

الاحتمال الثاني:

منفعة يسعى إليها - انعدام التحسن - تحسن لا يتم الوصول إليه

التوازن (١) اضطراب التوازن (٢)

وفيما يلي قصّة جحظة:

التوازن: "*رأيتُ جحظة قد دعا بنّاء ليبني له حائطا، فحضر. ....*

اضطراب: فلمّاأمسى اقتضى البنّاء الأجرة، فتماكسا، وذلك بأن الرجل طلب عشرين درهما؛ ... (انعدام التحسن)

التوازن (٢): فوجب الحائط وسقط[2]. (تحسن لا يتم الوصول إليه)

هذه الحكاية تبدأ من حضرة البناء ليبنى حائطا. (منفعة يسعى إليه)

طلب زيادة الأجرة، والتماسك بينهما... (انعدام التحسن)

وجب الحائط وسقط. (تحسن لا يتم الوصول إليه)

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٩٦

[2]- المصدر نفسه، ج١، ص٢٨.

الاحتمال الثالث:

ضرر محتمل - عملية الضرر - ضرر يحدث بالفعل

التوازن اضطراب

وفيما يلي حكاية عن الأكلة عند أبي القمقام:

التوازن (١) : *بقى أبو القمقام ببغداد، وكنّا نأتيه ونسمع منه، فجاءنا بجفنة فيها جوانب (..)*

اضطراب: فجعل أصحابنا يأكلون، ثمّ أتاهم بسفودٍ فيه يرابيع فسَلتها في الجفنة، فعلم القوم أنّهم قد دهوا، ..

التوازن (٢) *فجعلوا يستقيئون ما أكلوا*[١].

وهذه الحكاية يظهر ضرر محتمل، وهو أن الناس أكلوا ما لم يعرفوا. (ضرر محتمل)

فأكلو السفود فيه يرابيع. (عملية الضرر)

فجعلوا يستقيئون ما أكلوا. (ضرر يحدث بالفعل).

الاحتمال الرابع:

ضرر محتمل - انعدام الضرر - ضرر يتم تفاديه

وحكاية فيما يلي يظهر ذلك:

هذه الحكاية عن الحسن وجاره النصراني،

"*وكان للحسن جارٌ نصرانيّ، وكان له كنيف على السّطح، وقد نقب ذلك في بيته* (ضرر محتمل)

وكان يتحلّب منه البول في بيت الحسن ... فمرض الحسن، فعاده النّصراني، فرأى ذلك، وقال مذ كم تحملون منّي هذا الأذى؟ قال منذ عشرين سنة (اضطراب، وانعدام الضرر)

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٦٩.

فقطع النّصرانيّ زُنّارة، وأسلم.[1] (ضرر يتم تفاديه)

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص١٢٩.

الفصل الرابع: المظاهر الأسلوبية في القصص بين الكتابين

١. مفهوم الأسلوب

إنّ الأسلوب هو طريقة معيّنة في التفكير والتعبير حسب مقتضى الحال. وأحد رواد هذا الفن، أحمد الشايب يقول: "هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير"[١]. ويضيف قائلاً: "إنّ أبرز صفاته ترجع إلى ثلاث: أوّلاً، الوضوح، ثانياً، القوّة بقصد التأثير، وثالثاً، الجمل لعقد الإمتاع والسرور"[٢]. ويقول الفيروز أبادي[٣]: إنّ الأسلوب هو الطريق والمذهب، وينعته الرازي[٤] بـ"الفنّ"، وهو اللفظ والمعنى والقدرة على تقديمها في أحسن صورة. والصورة اللفظية التي هي أوّل ما تلقى من الكلام لا يمكن أن تحيا مستقلة، وإنما يرجع الفضل في نظامها اللغوي الظاهر إلى نظام معنوي آخر، انتظم وتألف في نفس الكاتب أو المتكلم، فكان بذلك أسلوباً معنوياً، ثم تكون التأليف اللفظي على مثاله وصار ثوبه الذي لبسه أو جسمه، إذا كان المعنى هو الرّوح. ومعنى هذا أن الأسلوب معانٍ مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم، وهذا وجه. والوجه الثاني، أن كلمة الأسلوب صارت هذه الأيام حقًا مشتركاً بين البيئات المختلفة، ليدلو بها على منهج من مناهج البحث العلمي، ويستعملها الأدباء في الفن الأدبي قصصاً أو جدلاً أو تقريراً، في العنصر اللفظي سهلاً أو معقداً. وفي إيراد الأفكار منطقية أو مضطربة وفي طريقة التخييل جميلة ملائمة أو مشوهة نابية. وأصبحت هذه الكلمة "الأسلوب" ترادف كلمة "الشخصية" في المعنى. لهذا كله كان إطلاقها على هذا العنصر اللفظي ضرورة اقتضاها التعليم أولا، لأنه هو مظهر العناصر الأخرى ومعرضها ثانياً[٥].

الأسلوب العلمي يتكون من عنصرين أساسيين: الأفكار والعبارات، والأسلوب الأدبي من الأفكار والعاطفة والخيال. ويرجع اختلاف الأساليب إلى سببين رئيسيين:

١. **الموضوع**: ويراد به الفن الذي يختاره الكاتب ليعبر به ما في نفسه، علماً أو أدباً، نظماً أو نثراً، مقالة أو قصّة، رسالة أو خطابة، فكل فن منها أسلوبه الخاص الذي يلائم بطبيعته. يختلف الأسلوب باختلاف الموضوع، فلكل صنف أدبي أسلوب خاص، ويقول: "الأسلوب هو

---

[١]- علم الأسلوب، أحمد الشانب، ص٤٥.

[٢]- المدخل في فن التحرير الصحفي، عبد اللطيف حمزة، ص٢٢٢.

[٣]- القاموس المحيط، الفيرور أبادي، المحقق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرّسالة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج١، ص٨٦.

[٤]- مختار الصحاح، الرازي، المحقق. يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص١٣٠.

[٥]- علم الأسلوب، أحمد الشايب، ص٤٠.

الموضوع". والأسلوب يختلف في الفن الواحد باختلاف الأدباء، ممتازاً به من الآخر في تفكيره وتعبيره وتصويره.

ب. الأديب: وأما الأديب فإن اختلاف الأساليب بالنسبة له راجع إلى اختلاف شخصيات الأدباء من حيث أذواقهم ومواهبهم العقلية، ودرجة انفعالهم، وطباعهم الخشنة أو الرقيقة، وطريقة تفكيرهم وتصويرهم؛ إذ كان لكل ذلك معناً خاصاً[1]. وقد يصح أن يقول: "الأسلوب هو الأديب".

إن أسلوب الأدبي لغة **العاطفة**، كما يكون الأسلوب العلمي لغة العقل. وغايته إثارة الانفعال في نفوس القراء والسامعين. ولذلك يعرض الأديب الحقائق بصورة رائعة وجميلة، كما أدركها أو تصورها هو، ويجمع بين الإفادة والتأثير. والأديب في حدود الفن، ومع التزامه خواصه الأدبية العامة يطبع الأسلوب طابعاً آخر ممتازاً. وشخصية الأديب لا تكون فردية فقط، بل تكون كذلك اجتماعية، فنجد عصر واحد من العصور الأدبية له طوابع عامة شائعة بين أدبائه، ونجد الشعب الواحد له خواصه الأدبية التي تفرقه من آخر يوافقه في لغته وجنس أدبه. وعنصر العاطفة يعدّ في الأدب الدافع المباشر إلى القول وروحه، وهذا العنصر هام إلى درجة أنه احتاج غالباً، لأجل أدائه، إلى الخيال الذي هو لغة العاطفة، ووسيلة تصويرها من ناحية الأديب، وبعثها في نفس القارئين. فالعاطفة في الأدب عنصر أسلوبي يُحسّ دون أن يشرح أو يعرض عرضاً مباشراً صريحاً.

فالأدب تبتسم فيه الألفاظ، وتشرق منه الروح ويضحك فيه النغم، وكذلك الأدب تبكي فيه الكلمات وتتهجم منه الروح ويثقل أنغامه الحزن. وروح الفكاهة لم تكن في أدباء بلد معيّن، بل هو حظّ مشترك بين الناس على اختلاف أوطانهم وأفكارهم. والعواطف مشتركة بين الأسرة الإنسانية.

وعنصر **الخيال** ضروري في كل أصناف الأدب. وهي الكوة التي يستطيع بها الكاتب أن يصوّر الأشخاص والأشياء والمعاني، ويمثلها شاخصة أمام القراء. وكل أدب يثير العواطف، لا شك فيه أن للخيال دخلاً كبيراً في إثارة تلك العواطف، ومملكة الخيال غامضة لايمكن تعريفها، إنما يمكن معرفتها بأثرها. والصور التي يخلقها الخيال لا عداد لها، فهو الملكة التي تربط الحقائق المفككة للحياة[2]. وبعض الخيال يكون كحلم النائم، لأن العقل نائم والخيال يقظان، ويسميه الناقد "أحمد أمين" وهماً. وهناك نوعاً آخر من الخيال، "الخيال الموحي أو الموعز"، له معاني روحية تؤثر في النفس، وهي عملية الخيال الأديب، فالخيال تغلغل في باطن الإنسان، ويبعث على التفكير، ثمّ يلبس كساء التأليف. ويستطيع المؤلف بخياله أن يستخرج من كلّ ذلك أشخاصاً كأنهم يعيشون تحت أعيننا[3]. والعواطف مرتبطة بالخيال، وكلما كانت العاطفة قويّة، احتاجت إلى خيال

---

[1]- أنظر- علم الأسلوب، أحمد الشايب، ص٥٤.

[2]- أنظر النقد الأدبي، أحمد أمين، ص٣٧-٤٠.

[3]- أنظر. المرجع السابق، ص٤١

قوي، وضعف أحدهما يؤثر أثراً كبيراً في ضعف الآخر، فإذا كانت العواطف مسرفة مبالغة ذهب الخيال كلّ مذهب كأنه وهم نائم.

تعدّ **الفكرة** ركنا مهما في العمل الأدبي، ولا يشترط في الفكرة الأدبية أن تكون مخترعة أو غريبة، فكثير من الأفكار التي تقوم عليها العمل الأدبي كانت شائعة ومشهورة. وإذا كان العاطفة هي المقصد الأول والفكرة تأخذ مجراها في ذهنه عن طريق مشاعره فهذا يسمّى فن الأدب الجميل، سواء كان شعراً أم نثراً. إن اللغة وسيلة التعبير الطبيعية عن الأفكار والمعاني لا العواطف. والألفاظ تعبر عن الفكرة وتنتقل إلى ذهن الآخر. أما العواطف فليست اللغة قادرة على نقلها نقلاً تاماً صحيحاً كما هو الشأن في المعاني. فالنظم يقاس بالقدرة على نقل العواطف والفكرة نقلاً صحيحاً صادقاً. وإذا قلنا جمال اللغة أو الأسلوب، فلا بدّ أن نشرك في ذلك المعاني والعواطف ومطابقتها لهما بالقوة والرقة. والمراد من الأسلوب في سائر الفنون، فهو تفكير وتصوير وتعبير.

١,١. المعايير الأسلوبية

الأسلوبية تحاول الإجابة عن كيفية النص من خلال اللغة، وتترصد مكامن الجمال والفنيّة في الآثار الأدبية. والظاهرة الأسلوبية تجلّى السّخرية في النص بطريقتين: (ا) المفارقات الأسلوبية والسّاخرة، و(ب) الآليات التناصية والمحاكات السّاخرة.

ا. المفارقات الأسلوبية والسّاخرة

من أهم معايير النص أسلوب المفارقة، التي هي تعبير لغوي. يرتكز الخطاب القصصي الساخر في طابعه الأسلوبي على المفارقة حيث ينفتح على دلالات عديدة ومتنوّعة تحيلنا على خطابات كثيرة ومتخفيّة، فالمستهدف من السخرية غير معطي في ظاهر الكلام، لذا يمكن اعتبارها تناقضاً فنياً، يجمع بنية فنّية جمالية ببنية ضمنية يغرضها الواقع ومنطق العلاقات الإنسانية، وذلك بتسليط الضوء على البنى المفارقة الموجودة في القصص.

المفارقة لعبة لغوية ماهرة وذكية، تقوم على تقنية التلاعب ودلالات الألفاظ وإعطائها معان غير متوقعة. يقول الأرسطو: "هي الاستخدام المراوغ للّغة وهي عند شكل من أشكال البلاغة يندرج تحتها المدح في صيغة الذّم، والذّم في صيغة المدح"[١].

---

[١]- فن القصّ في النظرية والتطبيق، سلسلة الدراسات النقدية، د. نبيلة إبراهيم، دار قباء للطباعة، مكتبة غريب، (د ط، دب، دت)، ص١٩٧.

ب. الآليات التناصية والمحاكات السّاخر

التناص هو تداخل النصوص الأدبية بالآية القرآنية، أو بالحديث النبوي صلى الله عليه وسلم، أو الشعر، والمثل والحكمة من الأدب في الحكاية.

٢. المظاهر الأسلوبية في البخلاء

القصّة ليست هي مجرد الأحداث والشخصيات، هي قبل ذلك عمل فنّي. ولكلّ قصاص طريقته، وأسلوبه[١]. وكلّ طرائق تتبع مزاج القصاص وميوله وثقافته. وهو يتأثر من المجتمع، والتاريخ، وكذلك حالته النفسيّة. الأسلوب هو الأديب، لأن الأديب يبدع أي لون من الفنّ من داخله، وهذا الابتكار يرجع إلى حياة الأديب، التي يتكون من حالته الثقافية والحالة النفسية.

والأسلوب موضوع البلاغة. وفي لسان العرب: الأسلوب: هو الطريق، الوجه، والمذهب. ويقال: "للسطر من النخيل: أسلوب." وكلّ طريق ممتدٍ فهو الأسلوب. يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب، والأسلوب: الطريق تأخذ فيه، والأسلوبُ، بالضم: الفنُّ، يقال: أخذ فلانٌ في أساليبَ من القول، أي أفانين منه[٢].

فالمعاني الأسلوبية عند ابن المنظور يشتمل على قسمين: قسم حسّي يمثّل الوضع الأسبق للفظ، كسطر النخيل والطريق الممتد، أو المسلوك، والأسلوب عليه خطّة يسلكها السائر. وقسم معنوي هو الخطوة الثانية في الوضع اللغوي حين تنتقل الكلمات من معانيها الحسّية إلى هذه المعاني الأدبية، أو الداخلية، وذلك هو الفن من القول أو الوجه والمذهب في بعض الأحيان. موضوع البلاغة ينحصر في بابين أو كتابين: الأسلوب والفنون الأدبية.

ا. **الأسلوب:** هو طريقة معينة في التفكير والتصوير والتعبير. فالكلمة، والصورة، والجملة والفقرة والعبارة وطريقة أداءها يسمّى الأسلوب، من حيث أنواعه وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه[٣].

ب. **الفنون الأدبية:** وقد تسمّى الابتكار، وبهذه تدرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها، وقسميها، وما يلائم كل فن من فنون الأدبية، وقواعد هذا الفن[٤]. وفي باب الأدب معانيها ملائمة، فالأسلوب هو فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً، تشبيهاً أو مجازاً أو كنايةً،

---

[١]- أنظر النقد الأدبي أصوله ومنهاجه، سيد قطب، ٧٦-٨٠.
[٢]- لسان العرب، ابن المنظور، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م، ج١، ص٤٧٣.
[٣]- أنظر علم الأسلوب، أحمد الشايب، ص٣٦
[٤]- علم الأسلوب، أحمد الشايب، ص٣٧.

تقريراً أو حكماً وأمثالاً. وإذا صح هذا الاستنباط كان للأسلوب معنى أوسع إذ يتجاوز هذا العنصر اللفظي فيشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع أو التأثير.

وهناك رأي عن دراسة العمل الأدبي، الأولى: منطلق الشكلية الروسية، و"سوسير[1]" وضع حجرها الأساسي بين العقدين الثاني والثالث في القرن العشرين. وهو أن الناقد الأدبي عليه أن يواجه الآثار نفسها، لا ظروفها الخارجية التي أدت إلى إنتاجها، فالأدب نفسه هو موضوع علم الأدب، وليس مجرد ذريعة للافاضة في دراسات جانبية أخرى[2]. أن الأسلوبية، تعمل على اكتشاف طبيعة العناصر اللغوية التي جمعت تحت نسق متصل، وترفض ربط النص بعوامل خارجية بتركيزها على التحليل والفهم دون استناد إلى التعليل والتبرير. "فزعماء الشكلية يرفض العلوم المجاورة لها على اعتبار أنها عوائق، مثل علم النفس والاجتماع والتاريخ الثقافي"[3].

ولعل هذا هو الذي جعل الدكتور لطفي عبد البديع يؤكد – أيضاً – على أنّ "النقد الحديث قد استحال إلى نقد للأسلوب، وصار فرعاً من فروع علم الأسلوب، ومهمته أن يمدّ هذا العلم بتعريفات جديدة ومعايير جديدة، وأدواتها البارعة في استخراج كنوز الآثار الأدبية من طرق اللغة دون تجاهل للموضوعية التي تقوم عليها"[4].

فمهمة الناقد في التحليل الأسلوبي تتحول لتصبح بمثابة قنطرة بين الأسلوب ومتلقيه فتقربه من نفسه من خلال المنهج العلمي يحدد له خطوط مهمته حتى لا يضل في متاهات التفاسير التي تبتعد عن الصياغة، وهي تفاسير تتيح للناقد أن يقدم فهماً خاصاً له، قد يتصل بالنص، وقد يبتعد عنه في بعض الأحيان[5].

وعلى هذا يجب أن ندرك أهمية وجود خلفية معيّنة على الناقد أن يستعين بها، وهو بسبيل دراسة نص معيّن، وهي خلفية لا تستخدم المفاهيم بطريقة ذاتية صرفه، وإنما تعتمد بشكل مباشر على طبيعة الأسلوب كمظهر مجسم للإبداع الأدبي، تتبلور فيه معظم عناصر هذا الإبداع من عاطفة وفكر وخيال، باعتبارها أدوات يتعامل معها الأديب، أو يساعد على الربط بين الأدب ومتلقيه ومبدعه. ولكي يتقرب الناقد من المنهج الموضوعي فعليه أن يتخلص قدر جهده من خبراته الخاصة في المجالات الفلسفية والنفسية والاجتماعية والتاريخية، لكي يدخل إلى النص

---

[1]- فرديناند دي سوسير (١٨٥٧م – ١٩١٣م)، من جنيف. هو المؤسس لمدرسة البنوية في اللسانيات والسيموتيك أو علم الإشارات، ومن أشهر علماء اللغة في العصر الحديث.

[2]- نظرية البناية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، ص ٥٩-٦٠.

[3]- نظرية البناية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل ، ص٦٠.

[4]- أنظر: التركيب اللغوي للأدب، د. لطفي عبد البديع، النهضة المصرية، ط١، ١٩٥٣م، ص٩٣-٧.

[5]- أنظر: الأدب وفنونه، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٧، ٩٧٨م، ص٧٣.

من خلال صياغته، وبهذا – وحده – يمكن أن يقدم تحليلاً موضوعياً[1]. وفيما يلي ينظر نظرة عابرة علي حياة الثقافية والنفسية لأديبين.

٢,١ ـ حياة الجاحظ

وقد ذكرتُ هذا العنوان في الباب الأول بالتفصيل، فهذه نظرة عابرة فقط.

٢,٢ ـ الحالة الثقافية

ونقصد به الحسّ اللغوي الذي يتولد في نفس الأديب، وقدرة على التعبير عن إحساسه، لأن هذه القدرات تنمو في النفس، والتجربة يصقلها، فتنكشف مميزاته ومواهبه. وقدراته أنه كان عالماً محيطاً بمعارف عصره. وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها، ودقيق المعرفة، ويفوق هذا كله صفته من رهافة في الحسّ، وخصوبة من الخيال، ودقّة في الإدراك. والعصر الذي غلبت فيه الحياة العقلية على الخيال العربي، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر بالجاحظ الذي يعدّ معلم البيان، وأسلوبه من أجمل الأساليب وأسمحها، وكان أسلوبه شبيهاً بالسوفسطائيين[2]. وقيل أنّ الهيلينيّة[3] أثّرت في أدبه من طريق غير مباشر، أي من طريق متكلمي المعتزلة. ومعارفه الواسعة بدعاً في التهكم والسخرية، وهو يضرب لفظاً بلفظ، أو يولد معنى من معنى، أو يلجأ إلى ما هو مألوف من رذل القول وساقط الكلام. وهو عارف بأدب الأمس، والاجتماعية الحاضرة، فاتخذ الحياة الاجتماعية موضوعاً له، الذي أتاح نزعة أدبية خاصة من الأدب الموضوعي[4].

٢,٣ ـ الحالة النفسية

الحالة النفسية هو الأمر الجوهري التي تؤثر في الأسلوب، فينعكس حياتها الواقعة، وأطوار حياتها السابقة في انطباعاته. والجاحظ خبير بمجتمعه، الذي تسير فيه أحاديث البخل وأخبار البخلاء في طريقين، في جانب واحد يقوم دعاة الشعوبية، فيردّون على العرب فخرهم

---

[1]- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ص٢٧٤؛ وانظر أيضاً نظرية البنائية في النقد الادبي، د. صلاح فضل، ص٤٥-٧٠.

[2]- السوفسطائيون سادة فن الكلام، الماهر في حرفته والبارع في صنعته. والسفسطة عبارة عن محادلة تبدو كأنها موافقة للمنطق، وهناك موضوع عن تأثر المعتزلة بالسوفسطائيين. (المنزع العقلي عند الجاحظ، المعرفة عبر الإنترنيت.)

[3]- عبارة عن الفلسفة اليونانية.

[4]- أنظر البخلاء، مقدمة: طه الحاجري، ص١٨-٢٧.

التقليدي بالكرم، ويتلقطون الأخبار بمأكلهم الغثة، ومطاعمهم الكريهة، وهيئة معيشتهم الخشنة، مما هو من لوازم البداوة. وفي الجانب الثاني شعراء العرب وجدوا مادة موفورة في باب الهجاء يصدرون عنها، نوع من حديث البخل ووجهته ولوّنته تشنيعاً وسخرية. فثارت الخصومة بين الروح العربية والروح الشعوبية. وكذلك ثارت المعركة القلمية بين العباسيين والأمويين. واستخدم لها العلماء والكتاب بنشرة أحاديث مطاعمهم، وعاداتهم الشنع، ومثالبهم. والشر الذي يتقذر منه الحضارة، والعادة التي تنفر منه الإنسانية، وهي البخل، وهما يتجاوران كثيراً من أحاديث البخلاء[1].

٢,٤. تحليل العمل الأدبي

وهنا نظرة عابرة على إنتاج الجاحظ، وبصمات أثر البيئة، ومذهبه العلمي، وأصحاب الأمر على أدبه.

ا. أصدقاؤه: في بداية البخلاء، جاء "قصّة الكندي" كان صديقه المعروف، ومعروفاً بالبخل، ومحتجاً له. وعند الجاحظ هو "كان أبخل من خلق الله[2]". ومن أصحابه "خاقان بن صبيح[3]" الذي يروي بعض المشاهدات، ويذكر نبل الشتاء وفضله على الصيف. وكان يعدّ من البخلاء مع سهل بن هارون[4]. ومن أصدقائه "أحمد بن خلف" و"عبد الله العروضي"، و"محفوظ النقاش[5]" وغيره. ذكر الجاحظ هذه الأصدقاء بالاعتماد أن هذا التنقيص لا يهم.

ب. بيئته: ذكر في القصص العديدة ماء بئر البصرة الذي يعتري جلد الإنسان، مثل ما اعترى جوف الحمار. وهذا يشير إلى أن البصرة كانت تعاني من أجل ماء الشرب. بسبب ملوحة مياهم. ومن هذا نفهم ما جاء في البخلاء من إشارات إلى المبالغة في تقدير ماء العذب، والشحّ به، والتدبير له. وأمثلة فيما يلي:

١. كان في منزل ابن أبي كريمة، فسأله دون حياء أنه الضيف: *"قال: تتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة؟ قلتُ: ليس بعذب، إنما هو ماء البئر"*[6].

---

[1]- أنظر: البخلاء، مقدمة طه الحاجري، ص٣٠.
[2]- البخلاء، ص١٧
[3]- المصدر نفسه، ص١٩
[4]- المصدر نفسه، ص١٣٠.
[5]- المصدر نفسه، ص١٢٣.
[6]- المصدر نفسه، ص١٧.

٢. قصّة أهل البصرة من المسجديين، التماساً للفائدة، في ربح الماء النهر للحمار: *"ماء بئرنا – كما علمتم – مالح أجاج، لا يقربه الحمار ولا تُسقيه الإبل وتوت عليه النخل، والنهر منا بعيدٌ وفي تكلف العذب علينا مؤونة ... وكثيراً ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا منه مثلُ ما اعترى جوفَ الحمار ..."*[١].

٣. قصّة الحمارلا يشرب إلا عذباً، وماء البئر ليس بعذب: *"فسقوه ماء بئر، فلم يشربه الحمار، وقد مات عطشاً"*[٢].

٤. عتاب لمن يضيع ماء البحر: *"لو رأيتُ رجلاً يفسد طين الردَغة، ويضيع ماء البحر، لصرفتُ عنه وجهي"*[٣].

٥. ذكاء الجارية، عرفت من الصوت هذا ماء البئر: *"... إذ سمع صوت انقلاب جرّة من الدار الأخرى: فصاح: أي قصاف! فقالت مجيبةً له: بئر وحياتك!"*[٤].

٦. أجابة طلب الأمّ لكن الماء بالماء: *"اذهبي فاملئيه من ماءِ حنّكم وفرّغيه في حنّاء، ثمّ املئيه من ماء مزمّلتنا .."*[٥].

وهذه الأمثلة تنعلق من بيئته، في البصرة، كيف يضايق الناس على ملوحة ماء البئر، وهذا الضيق أثرت في نفوسهم، حتى زاد بخلهم على الماء العذب.

ج. أولو الأمر (في عهد الأمويين)

انتاجه تصوير لما يدور في الأسماع في عصره عن الأمويين، فمنهم خالد بن عبد الله القسري[٦]، أحد سادة العصر الأموي، ولى العراق سنة ١٠٦هـ، وكان بخيلا على الطعام. ويوسف بن عمر[٧]، أحد ولاة بني أمية الذين عرفوا بالعنف والعتو والقسوة، وأسد بن عبد الله[٨]، أخو خالد بن عبد الله القسري، وقد ولى خراسان في عهد ولاية أخيه على العراق، أيام هشام بن عبد الملك. وبلال[٩] بن عامر بن أبي موسى الأشعري، أحد الأمراء القضاء الذين ولوا إمارة

---

[١]- البخلاء، ص٢٩.
[٢]- المصدر نفسه، ص٥٥.
[٣]- المصدر نفسه، ص٨٠.
[٤]- المصدر نفسه، ص٨١.
[٥]- المصدر نفسه، ص١١٣.
[٦]- المصدر نفسه، ص٦٦
[٧]- المصدر نفسه، ص٧٤.
[٨]- المصدر نفسه، ص١٤٧.
[٩]- المصدر نفسه، ص١٥٠

البصرة وقضاءها منذ سنة ١٠٩ إلى سنة ١٢٥هـ. وعبد الرحمن بن أبي بكرة[١]، ولاه زياد بن أبيه بعض أعمال البصرة. وكذلك معاوية، وسليمان وهشام بن عبد الملك، ويزيد بن المهلب، وزياد الحارثي والحكم بن أيوب الثقفي وغيرهم.

د. أولو الأمر (في عهد العباسيين)

هومعرّف بعصره، وله بعض علاقات طيبة وسيئة مع هذه الحكام. فهناك عيسى بن سليمان بن علي، وكان أبو العباس قد ولاه على البصرة وأعمالها، فأقام فيها هو و أولاده، وبنو فيها دورهم. وذكر الجاحظ "قصّة أكلة السمكة مع عليّ الأسواري[٢]". وسلم بن قتيبة[٣] بن مسلم الباهلي، ولاه أبو جعفر المنصور على البصرة ثمّ عزله. ومحمد بن الجهم البرمكي[٤]، ولاه الخليفة المأمون بعض الولايات. وزياد بن عبد الله بن عبد الله المدان الحارثي، خال الخليفة أبي العباس السفاح، ولاه أبو العباس على المدينة ومكة والطائف واليمامة. وعزله أبو جعفر المنصور بسبب من فتنة محمد وإبراهيم ابني عبيد الله بن حسن وغيرهم.

ر. من المعتزلة

ذكر الجاحظ "ثمامة" في بعض قصصه، وهو شخصية من الشخصيات الخطيرة، ذات أثر خالد في الحياة العقلية الإسلامية، وقد كان زعيماً من زعماء المعتزلة. وكان تلميذاً لأبي الهذيل العلاف، وحكايته عن "ديكة مرو[٥]" تشير إلى عقله البصري. وموبس بن عمران، جاء اسمه في البخلاء، وكذلك نجد أسماء النظام وأبي الهذيل في قصص البخلاء، والجاحظ يكرمهم. فالأسلوب هو حاصل التقاء في الأديب، من أثر الثقافة، وحالته النفسية. والناس يختلفون في الشخصية، والأديب حين يعبر عن شخصيته تعبيراً صادقاً ويصف تجاربه ونزعاته ومزاجه وطريقة اتصاله بالحياة، ينتهي به الأمر إلى أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التفكير والتصوير والتعبير؛ هو أسلوبه المشتق من نفسه، هو من عقله، وعواطفه وخياله ولغته، فتكثر الأساليب بين الأدباء.

وفي سبيل المثال الجاحظ، هو كاتب **متعمق** مستقص يلح وراء المعاني، والأوصاف والخواطر لا يترك منها شيئاً. **يطوع اللغة** لعقله وشعوره وخياله، فيوردها ألفاظاً دقيقة، ويرددها

---

[١]- البخلاء، ص١٥٢.
[٢]- المصدر نفسه، ص٦٩.
[٣]- المصدر نفسه، ص٧١.
[٤]- المصدر نفسه، ص١٣٥.
[٥]- المصدر نفسه، ص١٨

جملاً مقسمةً، ويسهب فيها بعبارات موسيقية فياضة حتى يتشفى. **يجدّ** فيبلغ من التحقيق والإحاطة جهد العقول، **ويهزل** عابثاً وداهية وماكراً. **يبكي ويسخر** ما شاءت له براعته ومرونته الخلقية والدينية حتى **كأن الجاحظ هو الدنيا جميعاً**[1].

٢,٥. العاطفة والخيال والفكر في القصص

وفيما يلي بعض أمثلة البخلاء للجاحظ، وندرته في إظهار فكرته، وعاطفته وملكة خياله في تصنيف حكاية البخلاء:

١. وهذه القصّة عن خراسانيين الذين ترافقوا في منزل، (والفعل يستخدم هنا: ترافقو، وصبروا، وتناهدوا، وتخارجوا، يناموا، ويطفئوا، أطلقوا) **والفكرة** الذي يواجه هذا المترافقين هي حصول الغرم للمصباح، فـ**عاطفة** الرغبة (للنور) أنهم "شاركوا في الغرم، فأبى واحدٌ منهم"، فورد **خيال** نادر في ذهنهم، أنهم *"إذا جاء المصباح شدّوا عينيه بمنديل، ... إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفؤوه أطلقوا عينيه"*[2].

فهذه صورة ساخرة لعتاب نادرعلى هذا الرفيق، أنهم لم يحرموه من المصاحبة، بل حرّموا ضوء المصباح عليه، كأنهم يقولون بلسان الحال: "وجزاء سيّئةٍ سيئة مثلها[3]".

٢. وهذه القصّة تبدأ بمقدمة استهلالية: *"ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعنا من مشيختنا على وجه الدهر"* أنّ رجلا من أهل مرو كان لايزال يحجُّ ويتّجرُ، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤنته، ثمّ كان يقول المروزي للعراقي *"ليت أني قد رأيتك بمرو، حتى أكافئك"*، فهذه **عاطفة المحبّة** في العراقي الذي أكرم ضيفه سنوات.

وبعد دهر طويل عرضت لذلك العراقيّ حاجة إلى مرو، *"فكان ممّا هوّن عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب، مكان المروزي هنالك"*. فلما وصل مرو، وجده قاعداً بين أصحابه، أكبَّ عليه وعانقه. وهناك يقع **"المفارقة الحدث"**، إذ يبدو **عاطفة الخوف** على المروزي، وهو خوف هلاك ماله في الضيافة، وفجأة ورد في ذهنه **فكرة** نادرة، وهي "إنكار" بالحيلة في تعرفه. ويظهر الصراع بينهما، العراقي يبذل جهداً في تعرفه، والمروزي ينكر أشدّ إنكاراً. فجاء في ذهن العراقي **خيال**، لعل هذا الإنكار بسبب هيئته *"فرمى بقناعه، .. ثمّ نزع "العمامة" ثمّ "القلنسوة"، وعلم المروزي أنه لم يبقَ شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، فقال: لو خرجتَ من*

---

[1]- أنظر علم الأسلوب، أحمد الشايب، ص١٢٨.

[2]- البخلاء، ص١٨.

جلدك لم أعرفك". وهذه الكلمة الأخيرة هي "المفارقة الحدث" الثاني، حين يخرج المروزي من كلّ الحيلة والخداع، ويرفض الضيافة صريحة.

وهذه الحكاية تكشف الحجاب من ثقافتين، العربي والمروزيّ، والبعد الفكري بينهما، الأولى يحبّ الضيف بدون أي غرض أو الرّد، ويكرمه سنوات، ومن الجانب الثاني، ثقافة المروزي، الذي اكتسب الكرامة والمؤنة بسنوات، لكن يغلب عليه **عاطفة الخوف**، ولا يبالي صداقة قديمة، وسلوك المحبّ معه، **وفكرة** البخل يحاصره.

٣. وهذه القصّة تبدأ بمفاجئة الحدث، أقبل شيخ المسجديين، فقال: *"هل شعرتم بموت مريم الصنّاع؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد وصاحبة الإصلاح"*. فالقصّة تبدأ بـ**عاطفة الحزن**، أي بخبر موت مريم، ونوادرها كثيرة، اكتف الشيخ عن واحدة منها، وهي كفاية، لأن **عاطفة الحبّ** تعمل فيها، وهي تريد أن تزوّج ابنتها، من شأن يرفع قدر ابنتها عند أحمائها. *فزوّجت ابنتها، وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلّتها .. وعظّمت أمرها في عين الختن، ورفعت قدرها عند الأحماء"*. وجاءت **مفارقة الكلام**، حين سأل زوجها، أنّى لك هذا يا مريم؟ قالت هو من عند الله، (وهو التناص من القرآن، سأل زوجها ما سأل نبي الله زكريا من مريم،وهو: **(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧))**[1]، *"قال: دعي عنك الجملة وهات التفسير"*، وظهر الزوج رأيه عنها، *"ما كنتِ ذا مال قديماً ولا حديثاً، وما أنتِ بخائنةٍ في نفسك ولا في مال بعلك، إلاّ أن تكوني قد وقعتِ على كنز"*، فكيف اجتمعت على الزاد. فجواب مريم تبدو **فكرة** هذا الزاد، فقالت: *"اعلم أني منذ ولّتني إلى أن زوّجتها كنتُ أرفع من دقيق كل عجنة حفنة، .. فإذا اجتمع من ذلك مكوك بعته"*. وهذا **خيال** نادر للجمع الكثير وللإصلاح في المعيشة، والاقتصاد. وتظهر **مفارقة الكلام** الثانية حين اعترف الزوج بالقول: *"أسعد الله من كنت له سكناً، وبارك لمن جُعلتِ إلفاً. .. وإني لأرجو أن يخرّج ولدكِ على عرقك الصالح، وعلى مذهبك المحمود"*. فتثير **عاطفة الفرح** في الجميع.

فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها، وصلّوا عليها، .. وشاركوه في حزنه"[2]. وفي الأخير أيضاً تغلب **عاطفة الحزن**، على موت مريم ذات صلاح كثير. فالقصّة تبدأ بعاطفة الحزن وتنتهي عليها. وفي إثناء القصّة تظهر عاطفتان الحبّ والفرح.

٤. وهذه قصّة خالد بن يزيد مولى المهالبة، وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ إلى حد لم يبلغها أحد.

"فكان ينزل في شِقّ بني تميم، فلم يعرفوه. فوقف عليه ذات يوم سائل، وهو في مجلس من المجالس، فأدخل يده في الكيس ليخرج فلساً – وفلوس بصرة كبار – فغلط بدرهم بَغلي، فلم

---

[1]- سورة آل عمران.

[2]- البخلاء، ص٣٠.

يفطن حتى وضعه في يد السائل. فلما فطن استردّه، وأعطاه الفلس". وهذه صورة **مضحكة**، وحالته **النفسية** تظهر في مظهره، وتردّده، في إخراج الفلس، وفحصه، ثمّ تبدّله بدرهم، وعطائه للسائل، ثمّ استردّه، أعطاءه الفلس، وهذه **تصوير فوتوغرافية**، لكيفية ذهنه وإظهاره في عمله. *"فقيل له: هذا لا تظنّه يحلّ، وهو بعدُ قبيح"*. فيظهر أن **المفارقة الكلام** يجنّه، كأنه يصيح: *"قبيح عند من؟ إنني لم أجمع هذا المال بعقولكم، فأفرّقه بعقولكم"*. فغلبت عليه **عاطفة الحزن** على فقد المال، و**عاطفة الكره** للسائل، وللموجودين الذين استبخله، وهم الذين يلقّونه أدب الإنفاق. ويلقي **جملة المفارقة**: *"ليس هذا من مساكين الدراهم، هذا من مساكين الفلوس. والله ما أعرفه إلاّ بالفراسة"*[1]. وهذه القصّة عن **فكرة البخيل**، عن ماله وفراسته في الإنفاق.

٥. وهذه القصّة عن بخل خالد القسري: قال أبو عبيدة: *"بلغ خالد بن عبد الله القسري، أنّ الناس يرمونه بالبخل على الطعام"*. فهذه القصّة تبدأ بالتدهور المحتمل، هذه الصفة تقلل شأن خالد، وهو أحد سادة العصر الأموي، ووالي العراق في عهد هشام بن عبد الملك. فظهر **الاضطراب** حين تكلمه، *"فما زال يُدخل كلاماً في كلام، حتّى أدخل الاعتذار من ذلك في عُرض كلامه. فكان مما احتجّ به في شدّة رؤية الأكيل عليه، وفي نفوره منه"*، وذكر *أمثلة خالد المهزول في الجاهلية"* (وهو التناص من الأدب الجاهلي)، *الذي حلف بإلهه ألا يأكل بقلاً، وإن مات هزلا. .. فلما دقّ جسمه، واشتدّ هزاله، سمّي: المهزول"*. فـ**عاطفة الكره** غالب عليه، للناس الذين يترددون أمامه صفته "الأكيل"، وحالته **النفسية** غالب عليه، أنّ خالد المهزول واجه المصيبة مثله، وأجبر على حلف بدون أي الرغبة الذاتية بل لفرحة الناس. والتدهور لم يتحقق حين ظهر **فكرته** لحل المسئلة، وهي: *"ليأكل كلُّ امرئٍ في منزله، وموضع أمنه وأنسه، ودون ستره وبابه"*[2]. وهذه معالجة البخل في في صورة مضحكة، وطبيعة تهكميّة غالب على الجاحظ، وهذه موهبة الجاحظ، لا تجد عند كلّ النّاس.

٦. وهذه قصّة الكندي عن الحيلة العجيبة: *"كان الكندي لايزال يقول للساكن، وربّما قال للجار: إنّ في الدار امرأة بها حمل، والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيّبة، فإذا طبختم فردّوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة، فإنّ النفس يردّها اليسير"*. وهذه القصّة تبدأ من حيلة للأخذ، بالكذب والخداع، والكلمة "لايزال" يشير إلى عمله الثابت، وحمل المرأة لا تزيد من تسعة أشهر، لكن في بيته دائماً امرأة مع حمل ولا يبالي الجيران أنها تنجب أم لا. هل هي **عاطفة الرحم** التي ألزمه الجيران عليها. أم **عاطفة التهدد**، لأن الكندي لم يسأل عن سبيل العرض بل أوعد لهم ألا تسقط غُرّة بسبب عدم تحسن العمل لها. وهذا منظر داخلي لبيت الكندي، وصورة **المفارقة الحال** تظهر بالقول الكندي: *"أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع. إنما لكل بيتٍ منهم لون واحد وعندكم ألوان"*[3]. وهذه الكلمة تكشف الستار من الواقع، لأن كلهم يأكلون ألوان الطعام من اسم

---

[1]- البخلاء، ص٤٦.

[2]- المصدر نفسه، ص٦٦.

[3]- المصدر نفسه، ص٨١.

هذه الحامل، وهي **فكرة** نادرة، نبتت في ذهن الكندي الخصيب. وهي صورة البخل النادرة، زيّنه **بخياله** الجميل.

٧. وهذه قصّة محمّد بن أبي المؤمل وشبّوطة: *"واشترى مرّة شبّوطة، وهو ببغداد، وأخذها فائقة عظيمة، وغالى بها وارتفع في ثمنها، وكان قد بَعُد عهدُه بأكل السمك. وهو بصري لا يصبر عنه"*. والقصّة تبدأ بشراء سمكة غالية، صنفها "شبّوطة" (وهي نوع من السمك، ناعم الملمس، يكثر في نهر دِجلة.)، فهذه السمكة تجمع **عواطف عديدة** لابن أبي المؤمل، هو بصريّ، فيعرف مكانة شبّوطة، وأخذ بمقابل فائقة الثمن، ونال هذه السمكة بعد زمن بعيد، فـ**عاطفة حبّ البلد، وحب الأكل وحبّ المال** جمعت في مكان واحد. وأكبر أمر هذه السمكة لكثرة ثمنها ولِسِمَنها وعِظَمها ولشدّة شهوته لها. فـ**عاطفة الفرحة** أحاطت ابن أبي المؤمل بجوانب كلّها.

"فحين ظنّ عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرّد بأطايبها، وحسر عن ذراعيه وصمدها" هذا تصوير حسّي لشوق ابن أبي المؤمل، كأنه في اللحظة القادمة يمدّ يده إلى أطايب طعامه، لكن فجأة وقع **مفارقة الحدث**، أن الجاحظ والسّدري هجما عليه. *"فلما رآه رأي الموت الأحمر والطاعون الجارف، ورأي الحتم المقضيّ، ورأى قاصمة الظهر، وأيقن بالشّرّ، وعلم أنه قد ابتلي بالتنين"*. فانقلب كل مشاعره الجيّدة، و**عاطفة الحزن** غلبت عليه، كأنه يموت قتلاً، والطاعون الجارف، ..و..و... كأنه في نزعة الموت، وفي كل مكان موت، كأن **عواطف الفرح، والحبّ، والعيش** غابت.

وعلى خوان لجأ ابن أبي المؤمل إلى الحيلة، لكن السّدري يقع على السمك، بـ**العاطفة الجشع والشره**، و*"اجترف المتن كله، .. ولم يعرف أن السّدري يعرف فضيلة ذنب الشّبُوط وعذوب لحمه، .. وظنّ أنه سيسلم له، وظنّ معرفة ذلك من الغامض، ... فلمّا أكل السّدريّ جميع أطايبها، وبقي هو في نظّارة، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلاّ الغيظ الشديد والغُرم الثقيل، .. فلما رأى السّدري يفري الفريّ ويلتهم التهاماً قال: يا أبا عثمان السدريُّ يعجبه كلُّ شيء"*. وهذه **المفارقة الحدث** الثاني، أن السّدري أكل كلّ السمكة بدون الترحم، ما يدلّ **عاطفة الغضب والانفعال** في ابن أبي المؤمل. *"فتولّد الغيظ في جوفه، وأقلقته الرّعدة. فخبُثت نفسه، فما زال يقيءُ ويسلح. ثمّ ركبته الحمّى"*.

"ولما صحت توبتُه وتمّ عزمه، في أن لا يؤاكل رغيباً أبداً ولا زهيداً، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصةً ولا غالية، وإن أهدوها إليه ألاّ يقبلها، وإن وجدها مطروحةً لا يمسُّها"[1]. وهي **مفارقة القول**، فعليه **خيال غالب** ليهرب عن المنظر مثله فعزم ترك أي **العاطفة الرغبة** للسمك، قليلة أو كثيرة. وفي هذه القصّة يظهر حسّ الجاحظ في اكتشاف الجوانب المضحكة في طبيعة ابن أبي المؤمل بصورة فريدة، نادرة التناقض، حيث ينقلب انفعالاته، والرغبة في أكل الشبّوطة صارت عدم قبولها في أيّ حال.

---

[1]- البخلاء، ص١٠٠-١.

وهذا تحليل لبعض القصص ليبرز أسلوب الجاحظ في البخلاء. فعنده ندرة الخيال، والفكرة العميقة، يظهر أحداث القصّة عاطفة الشخصيات إيجابية أم سلبية. وفي كل قصّة وفي أيّ شخصية يعامل الجاحظ كأنه خلق جديد، وليس عنده تكرار في الأسلوب، بل كل قصّة تظهر جانباً جديداً وطريفاً كأنه صاغه بالتوجه والحكمة البالغة، ولا تغلغل أحداثه بعضه بعضاً.

٣. المظاهر الأسلوبية في الإمتاع والمؤانسة

هذا الكتاب من أقوم كتب التوحيدي وأنفعها وأمتعها، وهو الكتاب الذي كتب التوحيدي بطلب أبي الوفاء الذي جعله من سمّار الوزير ابن سعدان، ودون له كل ما دار بينه وبين الوزير في سبع وثلاثين ليلة. والتوحيدي اعتنى باللفظ والمعنى معاً، وجمع بين الصناعة اللفظية والتحليل المنطقي. والرسائل التي ألحق التوحيدي بالكتاب، هي عند آدم متز، "أجمل آية للفن الإسلامي[١]"، ومادتها أنفس ما اشتغل الفنانون، وهي اللغة.

٣,١. حياة التوحيدي

يعدُّ أبو حيان التوحيدي من الأدباء الذين أصيبوا في حياتهم البؤس والشقاء، من احتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار. وقصد إلى الوزراء لكن دون الفائدة.

٣,٢. الحالة الثقافية

إنّ للكتاب الإمتاع والمؤانسة قيمة ذهنية وأخرى واقعية، فهو تعبير صادق عن مفهوم الثقافة هذا العصر، وبهذا سميت بـموسوعية فكرية. وهو صورة حقيقية للمجتمع بالتباين الشامل، من الجانب الطبقي والسلوكي والجنسي. والحياة الاجتماعية منقسم بين المترفين ومن يعانون الفقر في أيام البويهيين.

١. علاقات التوحيدي مع أبناء عصره

الإمتاع والمؤانسة شاهد على عصره، كأنه مرآة سحرية، وهو كتاب الأدب الذي "هو الأخذ كل شيء بطرف" وفيما يلي نظرة عابرة، من خلال قصصه.

---

[١]- أبو حيان التوحيدي، أحمد محمد الحوفي، ج٢، ص١٠٦.

ب. رجال السلطة

ليس بين التوحيدي وبين أصحاب السلطة صداقة قويّة، بل يبدو أن السلطة كانت معادية له، المهلبي نفاه من العراق لسوء عقيدته، وابن العميد والصاحب بن عبّاد احتقراه وعاملاه معاملة الخادم. وذكر قصّة "عضد الدولة وعدوّه[1]" في الليلة الثالثة، وهي قصّة عن جور الحكام وعن صراعاتهم السياسيّة، لم يسلم من ذلك حتى الخلفاء والوزراء، وقتل عضد الدولة وزيره ابن بقيّة وصلبه ببغداد.

ج. علماء عصره

علاقة التوحيدي بعلماء عصره علاقة نادرة، تجتمع فيها الصداقة بالعلم، منحه أروح الصفات العلمية والإنسانية. وكان معظم علماء عصره أصدقاءه، والحوار بينه وبينهم يؤيد ذلك، منهم أبو سعيد السيرافي، وابن بقيّة ومسكويه، وغيرها. وقصّة "عز الدولة والعلماء[2]" شاهد على سوء العلاقة بين عز الدولة والعلماء، حين قاموا العلماء وغضبوا عليه، وأدّي حقّهم وحق الرّعية أمام سلطان مشغولاً بالصيد.

د. التمازج الحضاري

اشتدّ في العصر العباسي التمازج الحضاري بين العرب والفرس. وإن كثيراً من الخلفاء والوزراء قد اتخذوا المؤدبين من الفرس لتأديب أبنائهم، وهذه قصّة "الربيع وضربه على التشميت[3]"، أن أبا جعفر المنصور اتخذ حاجباً اسمه الربيع، وإنه ضرب من شمت الخليفة، وحين شكا الرجل إلى المنصور، قال: "أصاب الرجل السنّة وأخطأ الأدب". فيعلق التوحيدي قائلا: وهذا هو الجهل، كأنه لا يعلم أن السنّة أشرف من الأدب، بل الأدب كلّه في السنّة. هكذا استطاع التوحيدي أن تقدم لنا صورة اجتماعية وثقافية حيّة.

ر. صورة اليونان

لم تكن صورة اليونان لدى التوحيدي كما كان صورة الفرس. وكان مولعاً بحكمة اليونان، وذكر لعلمائهم (بطليموس، بقراط، إقليدس ...) وملوكهم، خاصة الإسكندر، وأخلاقه الرفيع في

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٤١-٢.
[2]- المصدر نفسه، ج٣، ص١٥١-٠.
[3]- المصدر نفسه، ح٢، ص٧٦

التعامل مع الأعداء. ويورد التوحيدي قصّة "كنتس والكراكي[1]"، ويختم القصّة بقول لإبي سليمان: "إن كنتس وإن كان خاطب الكراكيَّ فإنه أشار به إلى ربِّ الكراكيّ وخالقها .. ويرفع الحجاب بعد الحجاب".

ز. صورة النصارى

وصورة النصارى ذكر التوحيدي في الليلة الثالثة والعشرين في الإمتاع والمؤانسة، وهذه القصّة تتعلق من زمن النجاشي، أي قبل قليل من عصر النبوّة، وهي "قصّة النجاشي وألف دينار في التابوت[2]". وهي قصّة رجل الذي أقرض من النجاشي، وجعل الله الكفيل على ذلك، ولما جاء الأجل حبسه الرّيح، فعمل التابوت، وجعل الدينار فيه، وألقاه في البحر، بالدعاء: "اللهم أدّ حمالتك"، ووصل هذا التابوت إلى النجاشي بطريق الصدفة. وهذه الصورة الحسنة للنصارى في ايمان بالله وأداء الأمانة. وقصّة أخرى "الحسن وجاره النصراني" تبرز صورة سيئة للنصراني، الذي جعل كنيف على السطح ويتحلب البول في بيت الحسن، وأذاه لعشرين سنة.

س. صورة اليهود

تلمح لدي التوحيدي الصورة التقليدية لليهودي الجشع والأنانية، وهذه قصّة "عقيدة اليهودي والمجوسي على مذهبهم[3]"، وكان المجوسي من أهل الرّيّ[4]، واليهودي من أهل جيّ، اللذين التقيا في سفر. والقصّة تبرز صورة جيدة في العقيدة والعمل، والرفقة والتسامح للمجوسي، وصورة سيئة في الأخلاق، والعهد، والأمانة لليهودي.

ص. صورة الذمي

يروي التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة قصّة عمر بن عبد العزيز، "السلام على أهل الذمة[5]"، فرأيه في إثبات، لقول الله عزّوجلّ: **(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩))**[6].

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص١٥٣-٤.

[2]- المصدر نفسه، ج٢، ص٩٦-٧

[3]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٧-٠

[4]- وهو مكان الذي سكن فيه التوحيدي، بعد ما ترك البعداد، وهذا ظنّي أنه سمع هذه القصّة في الرّي، لأن القصّة تصف مكارم المجوسي، الذي ابن هه البيئة.

[5]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٢٠٣.

[6]- سورة الزخرف.

ط. صورة العيّارين

يبرز الكتاب الحالة السيئة للمجتمع العصر العباسي في أيام الفتنة ٣٦٢هـ، حين العيارون شنّوا الغارة، واتصلوا بالنهب وتوالى الحريق، حتى لم يصل إلى الناس ماء دِجلة. وقوّادهم ابن كبرويه، وأبو النّود، وأبو الذُباب، وأبو النّوابح، وأسود الزُبَد. والأخير كان عبداً، لكن أصبح قائداً. وقصّة "أسود الزُبَد والجارية[١]" تظهر مراحل حياته، وتغيّر فيه. والتوحيدي لم يسلم في هذه الحالات، فجاءت النّهابة إلى بين السورين[٢]، وشنّو الغارة، وذهب كل ما ادّخر التوحيدي، وقتلت الجارية. ذكره في "قصّة التوحيدي في النّهابة[٣]".

ع. صورة الصوفيين

يبرز الكتاب صورة الصوفيين متناقضة، فهناك صوفي يسمع "المغنيّة"، وجماعة الغرباء يأوي إلى دويرة الصوفياء في أيام فتنة خُراسان، "قصّة جماعة الغرباء في فتنة خراسان[٤]" فرأي الوزير عن الصوفياء أنهم يهذون بما لا يعلمون، والتوحيدي يدافع عن رأيه. وكذلك يقصّ قصّة "غوّاصة الصوفي والرّدّادتين[٥]"، وهي قصّة ذاتية لصوفي عن شهوة الأكل.

٣,٣. الحالة النفسية

وكتاب الإمتاع والمؤانسة تأليف التوحيدي، الذي ألفه تحت ضغوط نفسية، وهي حالة الجبر والإكراه، لأن أبا الوفا المهندس جعله من سمّارالوزير ابن سعدان، وطلب منه أن يقصّ عليه كل ما دار بينه وبين الوزير، ومنّ عليه، وذكر لقبح هيئته، وسوء عاداته حتى يفهم أنه لا يستحقّ ما أعطاه المهندس. لقد اتخذ التوحيدي مواقف عديدة في الإمتاع والمؤانسة تحت ضغوط النفسية حادّة، تمكّنت منه ولم يستطع التجرد من تأثيراتها وقت التصريح لرأيه، على سبيل المثال موقفه عن **"الصاحب بن عبّاد"**، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ... فقال: "إني رجل مظلوم من

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٦٠-١.
[٢]- اسم محلة التوحيدي في البغداد.
[٣]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٦١-٢.
[٤]- المصدر نفسه، ج٣، ص٩١-٧.
[٥]- المصدر نفسه، ج٣، ص٧٧.

جهته، وعاتب عليه في معاملتي، .. فإنّ جانبه مهيب ولمكره دبيب[1]". التوحيدي كان أديباً أريباً لكن شاكياً، فانتقم من الناس الذين كفروا صنيعه، فأحرق كتبه في آخر أيامه.

٣,٤. العاطفة والخيال والفكر في القصص

فيما يلي النماذج المختارة من القصص في الإمتاع والمؤانسة:

ا. عضد الدولة وعدوّه

بدأت القصّة من خلفية الحدث، سمع الوزير من أبي الوفاء ما تحدث التوحيدي، حديث الخراساني، ومسرح الأحداث زنبيرية الجسر، بدأت **القصّة من هدوء**، الحاجّ يدخلون، وبدأ **اضطراب** حين جمالهم قد سدّت عرض الجسر، ووقعت **مفارقة الحدث**، رجل خراساني رأى الجانب الغربي، وعلى الجزع عليه نعي ابن بقيّة – وكان وزيراً، فصلبه الملك لذنوب كانت له – وجاءت في ذهنه **خيال** نادر، هذه صورة **مضحكة**، فقال: "*لا إله إلاّ الله، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلّ المفكّر في غيرها وغيرها، أرض الدولة تحت الأرض وعدوّه فوق الأرض*[2]!". وهذا كلام **تهكمي**، الذي انقلب المشهد كله، الصورة الأصلية أنّ ابن بقيّة صُلب بسبب بعض أعماله، وجثّته على الجذع للعبرة، وهي إهانة الميت أنه لم يؤذن للدفن، لكن كلام خراساني يظهر صورة ظاهرة، أن عضد الدوله تحت الأرض وعدوّه فوق الأرض، وفي هذه الكلمة تنقيص للخليفة.

و**مفارقة الحدث** الثانية أن بعد هذا الكلام أذنت لدفنه. و**عاطفته الأنانية** تغيرت، وغلبت عليه **عاطفة** الميت.

ب. هدية البغل وتشخيص البول

وهذه القصّة الساخرة عن رجلٍ، وعده بعض إخوانه أن يهدي إليه بغلاً؛ وهي **عاطفة المحبّة**، ومضى وقت كثير **واضطراب** الرجل ازداد، **وفكرة** عجيبة جاءت في ذهنه، وهو يحلل مسئلة التأجيل في صورة **مضحكة**، ويدخل إلى الطبيب ويعرض القارورة للتشخيص، وسوال **المفارقة** يقدم إليه: "*أنظر إلى هذا الماء (البول)، هل يهدي إليّ بعض إخواني بغلاً؟*[3]".

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٥٣-٤.
[2]- المصدر نفسه، ج١، ص٤١-٢.
[3]- المصدر نفسه، ج٢، ص٥٨.

ج. جريج ودعاء أمّه

هذه القصّة عن جريج يتعبدّ في صومعته، فأتت أمّه، وناداه، فـ**عاطفة الحبّ**، تثير لكن جريج يؤثر الصلاة من كلام مع أمه، لأن **فكرة العبادة** يغلب عليه، ويستهين أن يكلّم أمّه، فرجعت أمه، و**اضطراب** في قصّة أن أمه دائماً ترجع دون أن تكلمه، وهذه المصادفة، أنها دائما تأتي في وقت، كان مشغولاً في الصلاة. و**مفارقة القول** أنها دعت عليه بالقول: *"اللهم إنّ* هذا ابني، قد عقّني فلم يكلّمني فلا تمته حتى تُرّيه المومسات، ولو دعت عليه أن يفتّن لفُتن[1]". وهذه هي **عاطفة الحزن** التي غلبت عليها، واستحالت في **عاطفة الكره**.

وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره، فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي، فحملت وولدت غلاماً، فقيل لها: ممن هذا؟ و**مفارقة القول** الثانية، أنها قالت: *"من صاحب هذه الصومعة"*، و**مفارقة الحدث**، أن الناس أقبلوا إليه بفؤوسهم، فبصروا به، فصادفوه يصلي، فلم يكلمهم، فأخذوا يهدمون ديره، فنزل وتبسّم، ومسح رأس صبيّ وقال: *"من أبوك؟ فقال: أبي راعي الضأن"*. **ولحظة التنوير**: أن *الناس عجبوا، وقالوا: نحن نبني لك ما هدمنا بالذهب والفضّة. قال: لا أعيدوها كما كانت تراباً"*. واعترفوا بجفاء عملهم، ب**خيال**، أن يردّ إكرامه، ببناء صومعته بالذهب والفضّة. و**عاطفة الحبّ والإكرام** غلب على الناس. فالقصّة بدأ بالهدوء، وثار الاضطراب، لكن في الأخير زال هذا الاضطراب، وساد الهدوء مرة أخرى.

د. جارية المنصور وعفوّه

هذه القصّة تبدأ بالحدث، وخاصة بـ**الحدث المفاجيء**، *"جاءت جارية لمنصور بن مهران بمَرَقةٍ فهراقتها عليه، فلمّا أحسّ بحرّها نظر إليها، فقالت: يا معلّم الخير اذكر قول الله. قال: وما هو؟ قالت: (والكاظمين الغيظ) قال: كظمتُ. قالت: واذكر (والعافين عن الناس) قال: قد عفوتُ، قالت: واذكر (والله يحبّ المحسنين[2]). قال: اذهبي فأنتِ حرّة"*[3]. وهذه القصّة عن ذكاء الجارية، أنها أخطأت، لكن ذكرت مولاها بالقرآن، وهذا **التناص بالقرآن** في القصّة. و**عاطفة الرهبة** تبدّلت بـ**عاطفة الرحمة**، وهذا **خيالها** نادر أنها لمّا رأت أن الرّوع أدخل في قلب منصور وكظم غيظه، فذكرت قطعة من الآية الثانية، فزادت **عاطفة العفوّ** لها، وعافها، فقالت: والله يحبّ المحسنين، فأثارت **ذروة العاطفة** في داخله، وهي **كلمة المفارقة** لها: اذهبي

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٩٧-٨.

[2]- الجارية قرأت من الآية الواحدة في ثلاث مرّات وهي من سورة آل عمران، آية ١٣٤

[3]- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص١٢٩.

فأنتِ حرّة. **ولحظة التنوير**: أن الجارية التي ارتكبت خطأ، صارت حرّة.

ر. رسالة مجنون إلى مجنون

وهذه حكاية عن رسالة مجنون إلى مجنون: تبدأ الرسالة "بسم الله ارحمن الرّحيم[1]" وبعدها كلمات تهنية، وبعد: "*كتبت إليك ودجلة تطغى، وسفن الموصل ها هي، وما يزداد الصبيان إلا شرّاً، ولا الحجارة إلاّ كثرة، فإيّاك والمَرَق، فإنه شرّ طعام في الدنيا، ولا تبت إلا وعند رأسك حجر أو حجرين، فإن الأخبر*[2] *يقول*: **(وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة (٦٠))**[3]. والقصّة تظهر عواطف عديدة من جانب مجنون له ولصديقه. الأولى هي **عاطفة الرغبة** والشوق، ليكتب إلى مجنون آخر، ويبدأ رسالة كما يبدأ رجل عاقل، **فكرة قوية**، **وخيال جميل**، لكنه خيال مجنون، لكن فيه **اضطراب**، لأن الصبيان شرير وزاد الشرّ من جانب الصبيان، و**عاطفة الخوف والرهبة** غالب عليه، والحجارة أيضاً ازداد لمجنون، وعنده شرّ الطعام في الدنيا هو المرق، لكن لم يذكرسببه، وفجأة يلقي مجنون **الحل لمشكلته**، وهو في الليل ينام مع الحجر أو حجرين، وهي لاستقبال العدوّ (أي صبيان أشرّ)، وهي نسخة أعطاها الأخبر (أي من جانب الله)، **ولحظة التنوير**: وأعدّو لهم ما استطعتم.

ز. حبّك هذا لا تجاوز المعدة

هذه القصّة عن رجل عشق جاريّة رومية، وكانت لقوم ذوي يسار، فكتب إليها يوماً: "*جعلتُ فداك، عندي اليوم أصحابي، وقد اشتهيتُ سكباجة بقريّة فأحبّ أن توجهي إلينا بما يعمنا، و.. و.. ، فلما وصلت الرّقعة وجّهت إليه بما طلب؛ ثمّ كتب إليها يوماً آخر: فدتك نفسي، إخواني مجتمعون عندي، وقد اشتهيتُ قَلْيَةً جزوريّةً، فوجّهي بها إليّ و .. و ..؛ ثمّ كتب إليها يوماً آخر: جُعِلتُ فِداكِ، قد اشتهيتُ أنا و أصحابي .. و .. و.. ؛ فكتبت الجارية: إنّي رأيتُ الحبّ يكون في القلب، وحبّك هذا ما تجاوز المعدة*"[4]. فتبدأ القصّة بـ**عاطفة الحبّ**، لرجل إلى جارية رومية، وهو يميل إليها لـ**عاطفة الرّغبة**، لأكل الشهيّ مع أصحابه، وهدوء العشق يصير **اضطراب**، لأن الرجل يأتي مراراً مع أصحابه، يكتب إليها للضيافة، حتى تغيّب **عاطفة الحبّ**، ولما يكتب الرجل إليها الرّقعة، تكتب إليه جملة **المفارقة**، وهي نفي وجود **عاطفة الحبّ** التي تكون في القلب،

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٢٠٣-٤.
[2]- المراد: الله.
[3]- سورة الأنفال.
[4]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٨.

وحبّك هذا ما تجاوز المعدة، هي في الحقيقة **عاطفة الرغبة** الطعام. فهذه القصّة تبرز **صورة تهكمية** للطمع.

س. الأعمى والرّغيف الصحيح

هذه قصّة الأعمى، بإصفهان، *"يطوف ويسأل، فأعطاه مرّة إنسانٌ رغيفاً، فدعا له وقال: أحسن الله إليك، وبارك عليك، وجزاك خيراً، وردّ غربتك. فقال له الرجل: ولِمَ ذكرت الغربة في دعائك، وما علمك بالغربة؟ فقال: الآن لي ها هنا عشرون سنة ما ناولني أحدٌ رَغيفاً صحيحاً"*[1]. تبدأ القصّة بالهدوء، أعمى يطوف يسأل، والناس يعطونه بـ**عاطفة الرّحمة**، فمرّة أعطاه رجل رغيفاً، فدعا له، وهناك **اضطراب** في دعائه، هو أعمى، لا ينظر إلى معطي، إلا ما ناله، فكيف يعرف أنّ المعطي غريب الوطن، فأجاب، بكلمات **المفارقة**، أنه وجد بعد عشرين سنة رغيفاً صحيحاً، فعرف أن المعطي جديد في هذا البلد. و**مفارقة الحدث** أن مكان القصّة أصفهان، يتعلق بفارس. وهذه القصّة تبدو حدث **التهكم** وهي تشير إلى العادة أهل أصفهان، وإنفاق أهلها على المعذّرين من الأعمى.

ص. قصّة جواب الحاضر

قال: *"مرّ الفرزدق بخالد بن صفوان بن الأهتم، فقال له خالد: يا أبا فراس، ما أنتَ الذي* **(فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا (٣١))**[2]*، فقال له الفرزدق: ولا أنت الذي قالت الفتاة لأبيها فيه* **(يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦))**[3]*"*[4]. وهذه القصّة دعابة بين الفرزدق[5]، وخالد بن صفوان[6]، وهم يلعبون بينهم، ويقللون قدرهم، بالأضحوكة، فخالد يقول لفرزدق، (لست يوسف، أو لست جميل مثل يوسف) واستناد من الآية، عن قصّة النساء اللآتي رأينه وقطعن أيديهن، فأجابه، ولستَ أنت الذي قالت الفتاة لأبيها فيه، ياأبت استأجره .. وهذه شخصية موسى قال عنه ابنة شعيب حين وجل إلى مدين. فهذه دعابة بين صديقين، وهذا الكلام ليس للمفاخرة بل للتنقيص.

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٢٨.

[2]- سورة يوسف.

[3]- سورة القصص.

[4]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٦٨.

[5]- اسمه همام بن غالب المعروف أبو فراس، لقب بالفرزدق (٣٨-١١٠ هـ)، ولد في البصرة، وكان من التابعين (إمام علي بن الحسين كام)

[6]- هو البصريّ، وكان من التابعين (سر أعلام النبلاء، الطبقة الرّابعة، ح٦، ص٢٢٦)

الخلاصة

هذا الباب عبارة دراسة فنيّة لكتابين، البخلاء والإمتاع والمؤانسة، بالتفصيل، وقد قام البحث بتحليل العمل الأدبي، حسب منهج علمي لمورفولوجية القصّة، كما قام البحث بتحليل بعض الأمثال لتكون الدراسة شاملة ومحيطة بالجانب النظري والتطبيقي.

والكاتب الأصيل هو الذي ينفرد بأسلوب متميز، وتحليل كتابين يظهر الفرق بين الجاحظ والتوحيدي بأسلوبهما، وانتاجهما. والكتابان يختلفان في الحجم والهيكل، وكذلك في موضوعات القصّة. والأول كتاب القصص والثاني كتاب المسامرات، ولهما أسلوبهما الخاص، لكن الباحثة حاولت أن يتعرف بأسلوبهما وطريقة تفكيرهما وتعبيرهما، وطرق معالجتهما عن الموضوع الخاص. وكلاهما يتفقان في بعض الأمور ويختلفان في بعض.

الباب الرابع: أوجه التشابه والاختلاف
بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة

الفصل الأول: أوجه التشابه وأسبابها

الفصل الثاني: أوجه الاختلاف وأسبابها

الفصل الثالث: تقييم القصص الواردة في الكتابين

الباب الرابع: أوجه التشابه والاختلاف

بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة

مدخل

هذا الباب يتكون من دراسة موازنة للعناصر القصصية في الكتابين، إبرازاً لمزاياهما، وبياناً لأوجه الاتفاق والاختلاف بينهما. سيضيف هذا الباب في مجال الموازنة في الأدب العربي بالموازنة بين البخلاء للجاحظ والإمتاع والمؤانسة وللتوحيدي.

الموازنة لغةً: وزن: الوزن؛ رَوزُ الثِّقَلِ والخِفَّة. الليث: الوزن ثقل شيء بشيء مثله كأوزان الدراهم، ومثله الرزن. وزن الشيء وزناً وزنة. وقال **سيبويه:** اتَّزَنَ يكون على الاتخاذ وعلى المطاوعة، وإنه لحَسَنُ الوِزنَة، أي الوزن[1].

واصطلاحاً: هي دراسة تتم من خلالها المقارنة بين عناصر الأدب، وفنونه، وعصوره، ورجاله قصد الإيضاح والترجيح[2].

تاريخ ظهورها: الموازنة بين الأشياء والآراء أصل من أصول البحث العلمي ذي الآثار الهامة في العلوم والفنون. قد ظهرت الموازنة مبكرة في تاريخ الأدب العربي وبقيت تسايره على مر العصور إلى اليوم، وستبقى دائماً من وسائله النقدية والتاريخية. وكانت أمّ جندب من أوائل الذين وازنت بين الشاعرين، وهما امرئ القيس وعلقمة في وصف الفرس. والنابغة الذبياني يحكم بين شعراء عكاظ حكماً أدبياً، وذلك دليل الموازنة على أساس المفاضلة منذ الجاهلية. وكانت مدرسة الحطيئة وكعب بن زهير مقابلة لمدرسة الشماخ وأخيه مزرد[3]. وفي صدر الإسلام

---

[1]- لسان العرب، ابن منظور، ج١٣، ص٤٤٦.

[2]- كتاب التعريفات، علي بن أحمد الجرجاني، ط مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٦٧.

[3]- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، ط مصر، ص٢٤.

كانت الموازنة بين القرآن الكريم وكلام العرب، وكذلك بين شعراء الرسول وبين شعراء الوفود العربية، وخطبائه وخطبائهم من ناحية أخرى[1].

وفي العصر الأموي بدأت الموازنة بين الفحول والغزلين والسياسيين من الشعراء والخطباء والأدباء تحت تأثير العصبيات المختلفة. وفي العصر العباسي ظهرت الموازنة بين شاعرين أو رأي وسيط بين شاعر وخصومه، وكذلك في النثر الموازنة بين الخطباء والكتاب، وبين اللفظ والمعنى، وبين الفكرة والفكرة، والخيال والخيال وفي كلّ ما هو صالح لهذا الضرب. وكتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلّام الجمحي، أوّل كتاب قام على الموازنة الفنيّة. وابن قتيبة في كتاب "الشعر والشعراء" وأخبر في أقسام الشعر وطبقاته، عن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها. ثمّ ساق كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري، مع ميل المؤلف إلى أبي تمام صريحاً. وبدأت أمثال الموازنة الجوهرية، والمنهجيّة والوصفيّة[2].

وفي العصر الحديث من الذين كتبوا في الموازنة الأستاذ قسطاكي الحمصي في كتابه "منهل الورّاد في علم الانتقاد"، وقد وازن الأدب على قواعد خمسة: نقد القائل، القول، والمقول فيه، والزمان والمكان[3]. وكتب أيضاً زكي مبارك في كتابه "الموازنة بين الشعراء"، فقد ألم بأهواء النقاد ودعا إلى وجوب البراءة منها، والموازنة عنده نوع من النقد والوصف، وعلى موازن أن يعرف حياة من يوازن بينهما، ويصل بين نفسه ونفسيهما لأن الأديب يؤدي رسالة في جيل خاص وبيئة خاصة، وأن يوسع أفق النقد، وأن يكون واضحاً ذا ذوق سديد، وعليه في الموازنة بين الشعراء أن يدرس نواحي اشتراكهم وافتراضهم وابتداعهم وأخذهم إلى غير ذلك[4].

---

[1]- أنظر: أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط١٠، ٢٠٠٤م، ص٢٨٠

[2]- أنظر: المرجع السابق، ص٢٨٠-١.

[3]- أنظر: منهل الورّاد في علم الانتقاد، قسطاكي الحمصي، مطبعة الضاد في حلب، ط٢، ١٩٥٥م، ج١، ص٦٦.

[4]- أنظر: الموازنة بين الشعراء، د. زكي مبارك، دار الجيل، ط٢، ١٩٩٣م، ص٩-١٠.

الفصل الأول: أوجه التشابه وأسبابها

١. أوجه التشابه وأسبابها بين الأديبَين

الجاحظ ثمرة القرن الثاني والثالث الهجري، والتوحيدي طائلة القرن الرابع الهجري، لكن هناك كثير من التشابهات في حياتهما ونتاجهما، وهذا البحث يذكر بعضها:

١,١. حياة الجاحظين

الجاحظ يعتبر إماماً من أئمة الكلام، وزعيماً من زعماء المعتزلة، وعالماً محيطاً بمعارف عصره، وهو معلم العقل أولاً والأدب ثانياً، والتوحيدي من العلماء الأدباء القرن الرابع الهجري، ليس عالماً يدانيه علماً ولا أديباً يجاريه أدباً، وهو فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة.

١. **طفولتهما:** نبدأ عن حياتهما التي تبرز أنهما تربّا من أسر رقيقة الحال، نشأ الجاحظ في الحيّ الفقير من أحياء البصرة، حيث فقد أباه في صغر سنه، وتربّته أمّه، لكن حياة التوحيدي ساكتة عن طفولته، لعل طفولته المعذبة منعته من الخوض فيها، فآثر الصمت، إلاّ أنه ذكر وفات أمها وكان غلاماً[١].

٢. **اشتهرا باسم غير مرغوب لهما:** الجاحظ يستعمل في كتبه كنيته "أبو عثمان"، لكن الناس أطلق عليه لقب "الجاحظ" وربما لقب بـ "الحدقي"، وكان غير راض عنهما في شبابه، ويبدو فيه قبح صورته، لكن هذا اللقب أصبح عنوان الشرف في مهنة الأدب، وكذلك التوحيدي، اشتهر بمهنة أبيه، وهو "بيع التوحيد"، والتوحيدي لم يختر هذه المهنة في حياته حتى ليوم واحد، لكنه يعرف به، والصاحب بن عبّاد يريد أن يعيّبه على كنيته "أبو حيان"، لكن أبا حيان يطرح عليه كيده، بالقول أنه "كناه بأبي حيان".

---

[١]- أنظر. أبوحيان التوحيدي، أديب فلاسفة وفيلسوف الأدباء، د. زكريا إبراهيم، ص١٧.

٣. **نسبتهما بالورّاقة:** كلاهما في مراحل مبكرة في حياتهما لقي الشقاء والبؤس، فأخذ الجاحظ يبيع الخبز والسمك، وكان يكتري دكاكين الورّاقين، ولم يزاول أية مهنة، بل الجوائز التي ناله من كتبه يكفي عيشه. والتوحيدي اتخذ مهنة الوراقة والنسخ وجوب الأقطار، وألف الكتب وقصد الأمراء والوزراء، لكن لم ينل حظه. ومضى بعض الوقت يراعي أمر البيمارستان، وفي الأخير أحرق كتبه، وذهب إلى سامراء. فالبداية السيئة انتهت إلى سيئة أخرى.

٤. **طوالة العمر وعدم الزواج:** وكلا هما منحا بطول الحياة، (وهو أكثر من تسعين سنة)، لكن الجاحظين (أبا عثمان وأبا حيان) لم يتزوّجا ولم ينجبا أولاداً، ولم يؤسسا عائلة. ولا نعرف بالضبط، هل هو سبب قبح الصورة للأوّل، وقلّة المال للثاني، أم كلا هما كانا مشغولين بالعلم والدراسة الذي صرفهما عن التفكير في الزواج.

٥. **الانشغال بالأدب والعلم:** تأدب الجاحظ في المربد والمسجد والمجالس الخاصة وشوارع البصرة وفُرضتها، وعاشر أهل الاعتزال، وذهب مذهبهم فتعلّم استعمال العقل وكيفية تحكيمه في أحوال الحياة قبل أن يعلمه غيره، ووسّع تجاربه وثقافته في حوانيت الورّقين بالليل لمطالعة الكتب، وقرأ كتب الفلسفة اليونانية، وكتب فارسية وهندية في بغداد، والتوحيدي استقى معارف العلوم من الكتب التي ينسخها بعد قراءتها واستيعابها، وحرفة الوراقة ساعده على التمعن فيها، وهو يشبه الجاحظ في هذا المضمار. فشغل التوحيدي عن البحث والدرس في بطون هذه الكتب، ودرس فلسفة والمنطق من الأساتذة، وكان على صلة بنقلة الفلسفة اليونانية إلى العربية.

٦. **التباعد من إكرام الحكام:** ذهب الجاحظ من البصرة إلى بغداد للقاء الخليفة المأمون، الذي تولاه "ديوان الرسائل" إكراما له، لكنّه استقال منه، وفارق منصبه بعد ثلاثة أيام، لأنه يأبى أن يكون كاتباً من كتاب الدواوين شغفاً بالحرية وولعاً بالاستقلال[١]، والتوحيدي ذهب من بغداد إلى الرّي إلى الصاحب بن عبّاد الذي قدّم إليه رسائله في ثلاثين مجلدة على أن ينسخها، فاعتبره التوحيدي "حرفة الشؤم"، ورجع إلى بغداد. فالأوّل لم يقبل "المنصب"، والثاني اعتبر العمل النسخ "الإهانة" ورجعا. فلم يقبلا ما أوتيا من قبل الخليفة أو الوزير، الأوّل ردّ الإكرام والثاني رفض العمل الذي يعتبره إهانة، وغير ملائمة لشخصيته.

---

[١]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلاّ، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٨٠-١

٧. **حسّهما المرهف:** لقد أثر قبح الجاحظ ومرضه الشلل في تفكيره فأرهف حسه الجمالي، وآثر أن يكنت على بشاعته ويضحك قبل أن يضحك الناس عليه حتى قيل عنه أنه مطبوعاً على الضحك والتهكم، ولم يستطع أن يتخلى عن طبيعته التندر والتهكم سواء كان بين أصدقائه أو أدخل على القاضي، مقيداً بالسلاسل وفي قميص سمل، ولمّا سئل عنه يبيّن سبب فراره، قال: *"إنه لا يريد أن يكون ثاني اثنين في التنور"*[1]، أي في لحظات عصيبة في حياته لم يمت حسه المرهف، ويضحك الناس بجوابه. **والتوحيدي**، لا نعرف عن جمال صورته أو قبح جسمه شيئاً، لأن كتب الأدب والنقد صامتة عنه، لكن حسّه المرهف مستيقظ حين سأله يوماً ابن عبّاد: *"يا أبا حيان من كنّاك بأبي حيان؟* (وابن عبّاد يريد تنقيصه من هذا السؤال.) *قلتُ (أي أبوحيان): أجل الناس في زمانه، وأكرمهم في وقته. قال: من هو ويلك؟ قلتُ: أنتَ. قال: ومتى كان ذلك؟ قلتُ: حين قلتَ يا أبا حيان من كنّاك أبا حيان؟"*. وهذا مشهد غير مشهد الأوّل لكن يظهر جواب حاضر الذي يسكت عدوّ لدود.

٨. **كلاهما على مذهب الاعتزال:** كان الجاحظ رائد المعتزلة بعد موت ثمامة بن أشرس، ورأي العسقلاني عن **التوحيدي** أن نسبته "التوحيدي"، المأخوذ من قول المعتزلة لأنهم يسمّونهم "أهل التوحيد". فيمكن أن يكون التوحيدي معتزلياً.

٩. **المماثلة في العصر:** الجاحظ شاهد لعصره، ومسجّل القرن الثاني والتوحيدي يعتبر الجاحظ الثاني، لأنه كان شاهد لعصره مثله، وهو مسجّل القرن الرابع، وواحد من عمد الثقافة العربية. بهرت الثقافة العربية في عصر الجاحظ في القرن الثاني، وحرّص الخلفاء في الجدّ والاجتهاد، وعلى التقدّم والتطوّر كأنهم يبارون فيه، وعصر المأمون من أزهى العصوربحريّة الفكر، ويعدّ القرن الرابع الهجري (أي عصر التوحيدي) عصر الازدهار الثقافة والآداب والفنون، بل كان ربيعها وشبابها الناضر، وفيه بلغت الفلسفة شأواً عظيماً. فالجاحظان نشئا في عصر التقدّم، كان الجاحظ في المرحلة الأولى للازدهار والتوحيدي على ذروته.

---

[1]- الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة. د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٦٦.
[2]- أخلاق الوزيرين، أبوحيان التوحيدي، ص٦١.

٢. أوجه التشابه وأسبابها بين الكتابين

١. **عظمة الكتابين:** كتاب البخلاء هو أكبر الآثار التي أبقت الأيام عليها من ميراث الجاحظ الأدبي الخالص. وكتاب الإمتاع والمؤانسة هو أقوم كتب التوحيدي، وأنفعها وأمتعها.

٢. **تشابههما بـألف ليلة وليلة:** ا. كتاب البخلاء اتخذ أسلوباً فريداً يشبه قصص "ألف ليلة وليلة" المتداخلة، وهو أن شهرزاد تحكي لشهر يار قصّة، ثمّ يحكي أحد أبطال هذه القصة، قصّة فرعية، وتخلل القصّة الفرعية، ثمّ تخلل القصّة الفرعية قصّة ثالثة ورابعة أحياناً، ففي البخلاء يبدأ ال جاحظ بقصص أهل خُراسان، ويخصّ بذلك أهل مرو، وبعد القصّة الثالثة يقول: "وليس هذا الحديث لأهل مرو[١]"، في قصّة أحمد بن خلف يقصّ قصّة صالح بن عفان[٢]، و قصّة الباسياني بدون أي رابط بينهما، ويبدأ قصّة الحارثي، ويستطرد فيها قصّة علي الأسواري[٣]، وقصّة معاوية، و .. و... وكتاب الإمتاع والمؤانسة اتّخذ أسلوبه في تقسيمه إلى ليال، وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار، ما جعله لذيذاً شيقاً، وهو ممتع ومؤنس، فهو يشبه بـ"ألف ليلة وليلة"، ولكنها ليست ليالي للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام، إنما هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء. فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبدع تصوير الحياة الشعبية في ملاهيها وفتنها وعشقها، فكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حياة الأرستقراطيين عقلية، فكلاهما في شكل قصصي منقسم إلى ليال، إن كان حظ الخيال في الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة[٤]. فكتاب البخلاء يشبه بألف ليلة وليلة في أسلوب القصّة، والإمتاع والمؤانسة يشبه بأسلوب الكتابة.

ب. **جوّ الخوف في الإمتاع وألف ليلة وليلة:** وقصّة ألف ليلة وليلة تبرز صورة الخوف، فالقاصة "شهرزاد" تخشى من "الملك شهر يار" وتروي له القصّة الممتعة الجذّابة، وتطيل القصّة ولا تنتهي حتى مضت ألف ليلة وليلة، كي تنجو حياتها[٥]، فسادت فضاء الخوف في القصّة كلها، وهو "خوف عن حياتها"، وكذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي يروي ويناقش مثل

---

[١]- البخلاء، ص١٧.

[٢]- المصدر نفسه، ص٤٤، و٤٥

[٣]- المصدر نفسه، ص٦٩، و٧٠، و٧١.

[٤]- الإمتاع والمؤانسة، مقدمة: أحمد أمين، ص (ص)

[٥]- الملك شهر يار كان غاضباً على النساء بسبب خيانة زوجه، وكان يقتل كل يوم المرأة بعد زفافها، وشهرزاد بدأت تسامر القصّة حتى تنجي نفسها، وترد إليه الثقة.

شهرزاد، والوزيرابن سعدان يسمع القصص، والحوار، والمناظرات، ومن كلّ علم وفن، وهناك أيضاً سادت جوّ الخوف، وهو ليس خوفاً على الحياة بل "خوفاً على فقد المتاع والعناية" الذي يرغب فيه من الوزير، وكان حرصه أن يجلس مع الوزير، وطلب من صديقه أبي الوفاء أن يوصله إلى الوزير للمسامرة، فكان يحذر نفسه، ويجتنب عن المباحث والكلام الذي يلقيه إلى المصائب، فيسئله الوزير: أتفضّل العرب على العجم، أم العجم على العرب؟ فلا يجيب عن نفسه، بل يروي كلاماً لابن المقفع، والجيهاني وغيرهما. ويريد أن يقال ما في نفسه في رأي الآخرين، كي يتجنّب من عتاب أو خلاف ظاهر.

ج. **يشابهان في ظاهرة القصص:** وألف ليلة وليلة قصّة خيالية، والبخلاء، والإمتاع والموانسة قصص من ظاهرة الأدب الواقعي.

٣. **المماثلة في اللذة والإمتاع:** يتميّز كتاب البخلاء بالمتع واللذة الأدبية، وأقوى ما فيه دلالة على قوة الجاحظ الفنّية، وكتاب الإمتاع والمؤانسة هو كتاب ممتع في الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض في كلّ بحر وغاص من كل لجة، وبعض أهل صقلية كتب على ظهر الكتاب هذا: "ابتدأ أبوحيان كتابه صوفيّاً وتوسطه محدّثا، وختمه سائلا ملحفاً[1]. فالكتابان ممتعان، وفيهما توجد لذة العلم وفنيّة الأدب.

٤. **المماثلة في الأسلوب:** الجاحظ اصطنع الأسلوب على لفظ جيد، ومعنى حسن، وجرى على سبيل الهزل والمعابثة، وأبوحيان التوحيدي هو الآخر ما يجري هذا المجرى، وساقه مساق السخرية والتهزؤ، وكان يضمرها لكتاب القرن الرابع.

٥. **المشابهة في جودة التعبير:** ومن الناحية العلمية، السيطرة الأدبية واضحة في كتاب البخلاء، وألفاظه جميلة، وسياقه سهل متبسط، والكلام الأدبية منسجم وموافق، وألفاظه وأساليبه حسب مقتضى الحال، وكذلك أسلوب التوحيدي أسلوب أدبي راق، يحب الازدواج ويطيل في البيان، ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع للقائل بعده قولاً. ومع ذلك التوحيدي تعرض في الكتاب لمسائل فلسفية عميقة، قد عزّت على البيان، لكن حين خرج إلى موضوعات أدبية جرى قلمه، وسال سيله، وأجاد وأبدع.

---

[1]- أخبار الحكماء، ص٢٨٣.

٣. أوجه التشابه بين القصص

فيما يلي الموازنة لبعض القصص المختارة من البخلاء والإمتاع والمؤانسة بدورهما.

قصّة ١. عشق في المعدة (البخلاء)

*"وتعشّق واحدةً، فلم يزل يتبعها، ويبكي بين يَديها، حتى رحِمته. وكانت مكثِرة وكان مقلاً. فاستهداها هريسة، وقال: أنتم أحذق بها. فلمّا كان بعدَ أيام تشهّى عليها رؤوساً، فلمّا كان بعد قليل طلب منها حَيسة. فلمّا كان بعد ذلك تشهّى عليها طَفَيشلة. قالت المرأة: رأيتُ عِشق الناس يكونُ في القلب وفي الكبد وفي الأحشاء، **وعشقك أنتَ ليس يجاوز مَعدتك**"* [١].

قصّة ١. حبّك هذا ما تجاوز المعدة (الإمتاع والمؤانسة)

*"وعشق رَجلٌ جاريةً رومية كانت لقوم ذوي يسار، فكتب إليها يوماً: جُعِلتُ فِداكِ، عندي اليومَ أصحابي، وقد اشتهيتُ سكباجةً بقريّةً فأحبُّ أن توجّهي إلينا بما يُعمنا ويكفينا منها، ودستجةً من نبيذٍ لنتغذّى ونشرب على ذكرك، فلمّا وصلت الرّقعةُ وجّهت إليه بما طلب؛ ثم كتب إليها يوماً آخر: فَدَتكِ نفسي، إخواني مجتمعون عندي، وقد اشتَهيتُ قَلّيةً جزوريّة فوجّهي بها إليّ وما يكفينا من النّبيذ والنُّقل، ليعرفوا منزلَتي عندَكِ، فوجّهت إليه بكل ما سأل؛ ثم كتب يوماً آخر: جُعِلتُ فِداكِ، قد اشتهيتُ أنا وأصحابي رؤوساً سماناً، فأحبُّ أن توجّهي إلينابما يَكفينا، ومن النبيذ بما يُروينا؛ فكتبت الجارية عند ذلك: **أنّي رأيتُ الحُبَّ يكونُ في القلب، وحُبّك هذا ما تجاوز المعدة**. وكتبت أسفلَ الرُّقعة:*

عذيري من حبيبٍ جا عنا في زَمَنِ الشّدّه
وكان الحُبُّ في القلبِ فصار الحبُّ في المعدة" [٢].

هاتان القصّتان تشبهان في المعنى كليةً، ويوجد التقارب اللفظي بينهما. في قصة (البخلاء)، بداية القصّة استخدما كلمة "عشق"، لكن في قصّة (الإمتاع والمؤانسة) أصبحت كلمة

---

[١]- البخلاء، ص١٢٤-٥

[٢]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٨-٩.

"الحبّ"، والفرق بين الحبّ والعشق في اللغة: الحبّ: رغبة وودّه، ما أحبّه إليه؛ والعشق: هويه، وتعلّق قلبه إليه، وإفراط في الحبّ، أحبّه حبّاً شديداً.

وفي قصّة (البخلاء) بداية تفصيلية، كيف نجح في حصول مناه؛ باتّباع التكرار، والبكاء، ثم رحمته، ثم أربعة أحداث في نمط واحد؛ وهو اضطراب في القصّة، أن العشيق لا يريدها، بل يريد عطاء جارية منها في نوع من الطعام، وفي النهاية، رفض المرأة، وهي لحظة التنوير، وفيها سخرية بارزة على نوع العشق اتّخذها العشيق: وهو أن عشقه لا يجاوز المعدة.

وفي قصة (الإمتاع والمؤانسة): بداية القصّة العشق هيّناً بالجارية، واضطراب القصّة، تكرار المراسلات التي أرسله المحبّ إلى حبيبته، في اشتهاء الطعام اللذيذ له ولأصحابه، وفي المرّة الثالثة لم ترسل إليها الطعام بل كتبت إليه الرقّعة، وهي لحظة التنوير في القصّة، كلام ساخر لكن فيه عجز، وهو كلام جارية رومية ليس المرأة محصنة: "إني رأيتُ الحبّ يكون في القلب، وحبّك هذا لا تجاوز المعدة"، وكتبت تحتها الشعر، وفيه المعذرة من حبيبها، وإبراز حالة معيشتها التي أجبرها على هذا الكلام.

ففي قصّة (البخلاء) كلام موجز مؤثر وفي كلمات قصير ومعنى كثير، ويثير قصّة على الضحك الساخر، وقصّة (الإمتاع والمؤانسة) فيها إطناب وتفصيل في حالة الاضطراب في القصّة، وتفاصيل رجاء الحبيب من صورة الضيافة، وفي هذه التفاصيل أيضاً لذة وإمتاع، وموسيقى في الكلمات : "جُعِلتُ فِداكِ، عندي اليومَ أصحابي، وقد اشتهيتُ سكباجةً بقريَّةً فأحبُّ أن توجِّهي إلينا بما يعُمنا ويكفينا منها، ودستجةً من نبيذٍ لنتغذّى ونشرب على ذكرك،

فَدَتكِ نفسي، إخواني مجتمعون عندي، وقد اشتَهَيتُ قليَّةً جزوريَّة فوَجِّهي بها إليّ وما يكفينا من النَّبيذ والنَّقل، ليعرفوا منزلَتي عندَكِ،

جُعِلتُ فِداكِ، قد اشتهيتُ أنا وأصحابي رؤوساً سماناً، فأحبُّ أن توجِّهي إلينا بما يَكفِينا، ومن النبيذ بما يُروِينا".

قصّة ٢. رفع الحِشمة و الأعمى (البخلاء)

" دخل عليٌّ الأعمى على يوسف بن كلّ خير، وقد تغدّى، فقال: "يا جارية هات لإبي الحسن الغذاء". قالت: "لم يبقَ عندنا شيء" قال: "هات – ويلك – ما كان، فليس من أبي الحسن حِشمة". ولم يشكّ عليٌّ أنه سيؤتى ملطخ، وبرقاقة ملطّخة، وبسكّر، وبقيّة مرق، وبعرق وبفضلة شواء، وببقايا ما يفضُل في الجامات والسكرّجات. فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أرز قاحل، لا شيء معه غيره، فلمّا وضعوا الخوان بين يديه، فأجال يده فيه، وهو أعمى، فلم يقع إلا على ذلك الرغيف. وقد علم أنّ قوله: "ليس منه حِشمة" لا يكون إلا مع القليل. فلم يظنّ أن الأمر بلغ

*ذلك. فلمّا لم يجد غيره، قال: "ويلكم ولا كل هذا بمرّة. **رفعتم الحِشمة كلها**. والكلام لم يقع إلا على هذا؟"*[1].

قصّة ٢. الرغيف الصحيح (الإمتاع والمؤانسة)

*"حكى عندنا ابن أسادة قال: كان عندنا – يعني بأصفهان – رجلٌ أعمى يطوفُ ويسأل، فأعطاه مرّةً إنسانٌ رغيفا، فدعا له، وقال: "أحسن الله إليك، وبارك عليك، وجزاك خيراً، وردَّ غربتَك". فقال له الرّجل: "ولم ذكرتَ الغربة في دعائك، وما علمك بالغربة؟" فقال: "الآن لي ها هنا عشرون **سنةً ما ناولني أحدٌ رغيفاً صحيحاً**"*[2].

هاتان القصّتان تشبهان في كثير من الأمور: الشخصية الرئيسية فيهما "الأعمى"، وموضوع أساسي فيهما "الطعام"، وخاصة "تقصير النّاس في معاملة سيئة للعميان".

في قصّة (البخلاء) الأعمى ضيفٌ، وفي قصّة (الإمتاع والمؤانسة) سائل، الذي يطوف ويسأل. وفي الأولى الأعمى يريد ويتوقع حسن المعاملة، حتى بعد أن يعرف بقول الجارية "لم يبقَ عندنا شيء"، فهو يتصور أنّ "*سيؤتي ملطخ، وبرقاقة ملطّخة، وبسكّر، وبقية مرق، وبعرق وبفضلة شواء، وببقايا ما يفضُل في الجامات والسكرّجات*". ويأتي إليه "رغيف أرز قاحل" ولا شيء معه، ويدهش من هذه الضيافة.

وفي قصّة (الإمتاع والمؤانسة) الأعمى، يتوقع معاملة سيئة، مثلما يتعامله النّاس من عشرين سنة، ويتحيّر، ويعرف مع عمياته، أن الذي أعطاه "الرغيف الصحيح"، هو رجل غريب في هذا البلد، فيزيد في دعائه عن فرج مشكلته الغربة.

وفي قصّة (البخلاء) مضيف "يوسف بن خير" والضيف الأعمى "أبو الحسن عليّ" كلاهما معروفان، وفي قصّة (الإمتاع والمؤانسة) السائل الأعمى وإنسان غريب كلاهما منكران، لكن مكان القصّة معروفة، وهو "أصفهان"، وله شهرة واسعة في البخل.

واضطراب في قصّة (البخلاء) هو حلم الأعمى على خوان يوسف بن كلّ خير، ولم يجد الأعمى "أيّ خير" على هذا الخوان، ومفارقة الحدث ما وجد أمامه، وهو "رغيف أرز قاحل"، وتبرز لحظة التنوير: لما كان وحيداً قال: **"رفعتم الحِشمة كلها"**.

---

[1]- البخلاء، ص١٢٠.

[2]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ٢٨.

واضطراب في القصّة الثانية هو عكس القصّة الأولى، فالسائل الأعمى يطوف ويسأل ويتوقع كسرة الرغيف كما يجد في التواتر من خلال عشرين سنة، ويقع اضطراب في تغيير هذا العمل، أن بعد عشرين سنة ناوله إنسان بأصفِهان رغيفاً صحيحاً، فعرف أنه إنسان جديد في هذا المكان. ولحظة التنوير هو بيان دهشته: **"الآن لي ها هنا عشرون سنةً ما ناولني أحدٌ رغيفاً صحيحة"**.

والقصّة الأولى أطول من الثانية، أجزل الألفاظ، فيه استخدام الجناس، وتصوير حسّي، في مشاهدة الأعمى، وحسن تعبير الأعمى في كلامه استخدام كلمة "الحشمة" وهو التهكم اللاذع. وفي القصّة الثانية، استخدام اللغة سهلة، وكلمات قليلة في معانٍ كثيرة، وفي خمسة أسطر، قصّ الأعمى قصّة عشرين سنة بالترسل، وهي سخرية معنوية، ليس في الألفاظ. ورغيف صحيح تفشي أحوال المنفقين على المعذّرين.

قصّة ٣. طلّق امرأته على غسلها الخوان (البخلاء)

"قال أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار: دعانا جارٌ لنا، فأطعمنا تمراً وسمن سلاء، ونحن على خوان ليس عليه إلاّ ما ذكرتُ، والخُراسانيُّ معنا يأكل، فرأيتُه يقطُر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك. فقلتُ لرجل إلى جنبي: ما لأبي فلان يضيع سمن القوم، ويسيء المؤاكلة، ويغرف فوق الحق؟ قال: وما عرفتَ علّته؟ قال: الخوان خوانه، فهو يريد أن يتسمه، ليكون كالدبغ له. ولقد طلّق امرأته – وهي أمّ أولاده – لأنه رآها غسلت خواناً له بماء حارّ، فقال لها: هلاّ مسحتِه"[1].

قصّة ٣. طلّق أبو الخندف (الإمتاع والمؤانسة)

"وقال: طلّق أبو الخندف امرأته أم الخِندِف، فقالت له: يا أبا الخندف طلّقتني بعد خمسين سنة، فقال: مالك (أو تبا لك) عندي ننبّ غيره"[2].

هاتان القصتان تشبهان في معاملة الرجال للنساء، وهي صورة سيئة في تعامل الرجال مع النساء، فالقصّة الأولى تبرز صورة البخل للجار الخُراساني الذي أتى على خوان أبي إسحاق إبراهيم بن يسار، الذي دُعيَ إلى المأدبة، فجعل يقطر السمن على الخوان، (لأن الخوان خوانه وأخذ أبو إسحاق من جاره عارية) ليدبغ له، وهو الشخص الذي طلّق امرأته على غَسل الخوان،

---

[1]- البخلاء، ص٢٣-٤.

[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٨٣.

بقول: "هلاّ مسحتِه"، وأهمية سمن الخوان أكثر من أمّ أولاده، فطلّق امرأته، وهذه شخصية خُراسانية وفيها نوع من غاية البخل وطريقة نادرة لحصول السمن على الخوان، وفي القصّة الثانية طلّق أبو الخندف امرأته (وهي أيضاً أمّ الأولاد) بعد خمسين سنة، فسألت عن ذنبها، حين مضت خمسين سنة، قال، عندي ذنبٌ غيره. وهل معناه أن الوفاء الزوج لخمسين سنة نوع من الذنب؟ وإن يعدّ الرجل مثل هذا من فهرس ذنوبها لكان الذنوب أكثر.

قصّة ٤. كلام بكلام (البخلاء)

"قال إبراهيم: فبينا هو يوماً من أيامه يأكل في بعض المواضع، إذ مرّ به رجلٌ فسلّم عليه، فردّ السلام، ثمّ قال: "هلمّ عافاك". فلما نظر إلى الرجل قد اثني راجعاً، يريد أن يطفُر الجداول أو يعبر النهر، قال له: "مكانك، فإنّ العجلة من عمل الشيطان". فوقف الرجل، فأقبل عليه الخُراساني وقال: "تريد ما ذا؟" قال: "أريد أن أتغدّى". قال: "ولم ذاك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومَن أباح لك مالي؟" قال الرجل: أوَ ليس قد دعوتني؟" قال: "ويلك، لو ظننتُ أنّك هكذا أحمقُ ما رددتُ عليك السلام. الآيين فيما نحن فيه أن تكون، إذا كنتُ أنا الجالس وأنتَ المار، أن تبدأ أنتَ فتسلّم، فأقولُ أنا حينئذ مجيباً لك: وعليكم السلام. فإن كنتُ لا آكلا شيئاً سكتُّ أنا وسكتَّ أنتَ، ومضيتَ أنتَ وقعدتُ أنا على حالي. وإن كنتُ آكلُ فهاهنا آيين آخر، وهو أن أبدأ أنا فأقول: هلمّ، وتجيبُ أنتَ فتقول: هنيئاً. فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال وقول بأكل فهذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلاً كبيراً، قال: فورد على الرجل شيء لم يكن في حسابه"[1].

قصّة ٤. سنّة النبي أو آيين العجم (الإمتاع والمؤانسة)

"ألا ترى أن الحال استحالت عَجَما: كِسرويَّةً وقيصريّة، فأين هذا من حديث النبوّة الناطقة، وللإمامة الصادقة؛ هذا الربيع – وهو حاجب المنصور – يضرب مَن شَمّتَ الخليفةَ عند العطسة، فيُشكى ذلك إلى أبي جَعفر المنصور، فيقول: أصاب الرجلُ السُنّةَ وأخطأ الأدب. وهذا هو الجهل، كأنه لا يعلم أنّ السنّة أشرَفُ من الأدب، بل الأدب كلُّه في السُنّة، وهي الجامعة للأدب النبويّ والأمر الإلهي، ولكن لما غلبت عليهم العزّة، ودخلت النُعرة في آنافهم، وظهرت الخُنزُوانةُ بينهم، سَمّوا آيينَ العَجَم أدباً، وقدّموه على السّنّة التي هي ثمرة النبوّة"[2].

وهاتان القصّتان تشبهان في نبوغ "آيين العجم"، قصّة (البخلاء) تظهر أن للكلام معنيين عند الخراسانيين. الأول المعنى الظاهري وهو غير مطلوب والثاني المعنى الباطني وهو

---

[1]- البخلاء، ص٢٥.

[2]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٧٦

المقصود الحقيقي عند الخُراسانيين. وبعد السلام، دعوت الطعام، يبني على الكلام فقط، وهو كلمة الكرامة، ليس مقصود به أن يتقبل الثاني دعوة الطعام، وجواب "هلم" هو "هنيئاً"، لتكون كلام بكلام. وقصّة (الإمتاع والمؤانسة) تبرز حالة حاجب الخليفة أبو جعفر المنصور، الذي ضرب رجلاً الذي قال "يرحمك الله" على عطس الخليفة، ولما شكا إلى الخليفة، قال: أصاب الرجل السنّة وأخطأ الأدب. والسنّة أشرف من الأدب، والأدب كلّه من السنّة، وهو جامع الأدب النبوي وأمر إلهي. فالقصّة الأولى أيضاً تبرز آنين العجم في مقابلة السنّة وكذلك القصّة الثانية.

الفصل الثاني: أوجه الاختلاف وأسبابها

١. أوجه الاختلاف وأسبابها بين الأديبَين

١. ولد الجاحظ في البصرة في سنة بين ١٥٠هـ - ١٦٥هـ، وهو عربي الأصل والتوحيدي مولد بغداد باختلاف بعض الأماكن الأخري، وفي سنة بين ٣٠٢هـ - ٣١٠هـ، وهناك اختلاف في عربيته، ويقال إنه فارسياً، لكنه يجهل الفارسية، وهذا ليس دليلًا على نسبته.

٢. اجتمع في الجاحظ خصبة أرضين: البصرة وبغداد، هو مثل حبّة أغرست في البصرة وأصبح وردة كاملة في بغداد؛ نمى في البصرة، واكتسب العلم، و جلس في مجالس العلماء، ثمّ هاجر إلى بغداد، وقصد إلى الخليفة المأمون، الذي استدعاه وزيراً في الديوان، لكن الجاحظ استقال منه بعد ثلاثة أيام، والخليفة المتوكل استدعاه لتأديب بعض ولده، فاستبشع منظره، وصرفه الخليفة. لما رأى الذي هنّاه، والتوحيدي قضى حياته الطويلة في بغداد، الذي كان عصر الازدهار الفكري والثقافي، ووجد هناك ألوان التفكير بمدارس فكرية وعقائد فلسفية واتجاهات مذهبية ومدارس كلامية. وذهب إلى "الريّ"، إلى الوزراء، ولما خاب أمله، رجع إلى بغداد، وفي قنوط عميق أحرق كتبه، وذهب في مكان خمول. فكان الخلفاء يتمنون أن يتصلوا بالجاحظ، وبالعكس، كان التوحيدي يتمنى أن يلحق بالخلفاء والوزراء.

٢. ذهب **الجاحظ** إلى بغداد، وقصد إلى المأمون وفي يده كتاب "الإمامة"، فهنّاه على عمله، وتولّاه ديوان الرّسائل، (لكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام.) وخليفة المتوكل استقدم الجاحظ لتأديب ولده، (واستبشع منظره، فصرفه، بعد أن) وهبه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم، وقصد **التوحيدي** إلى الوزيرين، هما ابن العميد والصاحب بن عبّاد بالرّي، (عاصمة البويهيين) طالباً عطاءهما ولكنّهما لم ينالا ما كان يأمله منهما، فرجع خائباً في عام ٣٧٠هـ، إلى بغداد، وألف في هذين الوزيرين كتابه "مثالب الوزيرين".

٣. عاش الجاحظ في ازدهار العصر العباسي، والتوحيدي عاش في عصر الاضطراب والتشكيك.

٢. أوجه الاختلاف وأسبابها بين الكتابين

١. كتب الجاحظ البخلاء ليقدمه إلى عظيم من عظماء الدولة، ولكنه لم يبح اسمه، وراجح أنه كتب لابن الزيات، أو الفتح بن خاقان، أو لصديقه ابن المدبّر، لينال الجائزة أو الموت[١]، وألف التوحيدي الإمتاع والمؤانسة على طلب صديقه أبي الوفاء المهندس لأنه أوصله بالوزير أبي عبد الله العارض، الذي سامره أبوحيان، على أن يدوّن ما دار بينه وبين الوزيرفي سبع وثلاثين ليلة.

٢. كتاب البخلاء للجاحظ يشتمل على مقدمة وقصص البخلاء، والرّسائل الثلاثة في توجيه البخل، وعن ضروب الطعام عند العرب، وكتاب الإمتاع والمؤانسة هو ثمرة سبع والثلاثين ليلة، ما دار فيها بين التوحيدي وابن سعدان في موضوعات متنوعة لا تخضع لترتيب أو تبويب، وإنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث. وفي الكتاب يجد مسائل من كل علم وفن[٢].

٣. وضع الجاحظ كتاب البخلاء وهو بالبصرة، قبيل وفاته بأشهر معدودات، وهو المتوفي سنة ٢٥٥هـ، وفي أواخر عهد ابن الزيات، وأوائل إصابته بالفالج، في الوقت الذي كتب فيه رسالة الجد والهزل، وآثارة تدل على حالة نفسية هادئة مطمئنة، وعلى نشاط موفور، وعمره آنذك أكثر من تسعين سنة. وألّف التوحيدي الكتاب في حياة الوزير ابن سعدان، فخاف من بعض ما ورد في الكتاب، فرجى أبو الوفاء في أن يحفظ الكتاب سرّاً. فأنشئت هذه الرسالة في رجب ٣٧٤ هـ، والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من ٣٧٣هـ إلى ٣٧٥هـ[٣]، فألف الكتاب وهو ٦٥ سنة. وهو أخر كتاب ألفه التوحيدي في مصاحبة الوزير، وبعد هذا لم يلحق بالوزراء.

٤. أسلوب الجاحظ تاليفي لكتاب البخلاء، أنه في "نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحاء، وما يجوز في باب الهزل، وما يجوز في باب الجد، فعلى هذا بنى الكتاب كله، إلا ما ذيله به من حديث العرب والأعراب. وفهو يقص القصص لبعض من عرفوا بالبخل من معاصريه، ومن يحتجون لمذهبهم الاقتصاد، أو مذهب الجمع والمنع، ويدافعون عنه. وكتاب الإمتاع والمؤانسة يسلّط ضوءاً كاشفاً على العصر البويهي، وعلى كثير من شؤون الحياة الاجتماعية في ثنايا

١- أنظر: مقدمة البخلاء، أحمد العامري و علي الجارم، سنة ١٩٣٧م
٢- أنظر: الإمتاع والمؤانسة، مقدمة أحمد أمين، ص (س).
٣- أنظر: المصدر نفسه، مقدمة أحمد أمين، ص (ع- ف).

حديثه، فيصف الأمراء والوزاء ومجالسهم، ويصف العلماء، ويحلل شخصياتهم، وما كان يدور في مجالسهم، ويصف النزاعات والمناظرات، ورأي العلماء في الشعوبية، والمفاضلة بين الأمم، وغير ذلك. والتوحيدي يصف كثيراً حالة الشعب في عصره، وموقفهم من الأمراء والملوك، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك.

٥. الجاحظ (كأديب حرّ) يسير على طريقته التأليفية من المراوحة بين الأحاديث الطويلة والرسائل المسهبة، بالطرف القصيرة والنوادر المقتضبة، إيثاراً لاستهواء القراء، وحرصاً على استجلاب رغبتهم، ودفع السآمة والملل عنهم. فهمّه الأول رضاء قرائه، لكي لا تثقل. وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة مادة الكتاب يدور حول موضوع ما يريد الوزير، فيسأل الوزير ويجيب التوحيدي، ويقترح الموضوع، وهو يجيب عما اقترحه، فيسأل عن جوابه، ويأتي أسئلة عديدة، فهو يجيب ويطمئنه، وأحياناً يطلبه أن يتمّ الموضوع في رسالة، فيجيء له ما طلب[١]، فحرية الأديب مفقودة في الكتاب كله، ولا يهمّ عن القراء، لأنه يسامر مع الوزير، وألف الكتاب لشخص آخر وهو صديقه الذي أوصله إلى الوزير، ويرجو منه ألا ينشر هذا الكتاب، ولا يصل إلى الوزير ابن سعدان، فموافقة القراء أو رضاء القراء ليس أمام المؤلف، وغير هذا أن الكتاب طبعت ونشرت في أنحاء العالم، وله القراء حتى بعد ألف سنة، وهو موضوع الدراسة والتحقيق في الجامعات العالمية.

٦. كتاب البخلاء نال العناية الخاصة من المستشرقين في بداية القرن العشرين، للنشر والتحقيق لهذا الأثر العظيم، فعنى فان فلوتن بتحقيقه، وشجعه شيخ المستشرقين العلامة الكبير نولد كه، وترجم هذا الأثر إلى اللغات الأوربية، وترجم شارل بللا باللغة الفرنسية، وكذلك حاول العلامة وليم مرسيه[٢] لترجمة الكتاب. وفي العالم العربي قامت الوزارة المصرية لنشره، وحققه الأستاذان المصريان، أحمد العوامري وعلي الجارم، وكذلك الأستاذ الكبير والمحقق طه الحاجري قام بتحقيقه. وعلى عكس كتاب الإمتاع والمؤانسة لم ينل عناية المستشرقين، وكذلك كان "نسياً منسياً" في العالم العربي والإسلامي لعهد طويل. وكانت أجزاءه منثورة في المكتبات، في خمسة أقسام، فالأستاذ زكي باشا حصل على نسخة فوتوغرافية من مكتبة طوب، وبعد وفاته حقق النسخة أستاذان كبيران هما أحمد الزين وأحمد أمين، وقد اكتنفه الظلام.

---

[١]- أنظر الإمتاع والمؤانسة، مقدمة: أحمد أمين، ص (ن)

[٢]- قد مضى ذكر هؤلاء المستشرقين في الباب الأول، ص١٠٤-٥

٣. أوجه الاختلاف وأسبابها بين القصص

هذه دراسة موازنة بين القصص في الكتابين: البخلاء والإمتاع والمؤانسة، والأول كتاب القصص والثاني المسامرات، وبحثت أوجه الخلاف بين القصص، وركزت على الفكرة النادرة، والموضوع المدهش، والشخصية الجاذبة ومفارقة الحدث، لأسس الموازنة العكسية. واخترتُ بعض القصص كما يلي:

قصّة ١. استلاف من بقّال (البخلاء)

"وأما زبيدة بن حُميد الصّيرفي، فإنه استسلف من بقّال كان على باب داره درهمين وقيراطاً، فلمّا قضاه ستّة أشهر، قضا درهمين وثلاث حبّات شعير. فاغتاظ البقّال، وقال: سبحان الله! أنتَ ربُّ مائة ألفِ دينار، وأنا بقّال لا أملك مائة فلس، وإنما أعيشُ بكدّي وباستفضال الحبة و الحبّتين. صاح على بابك جمّال وحمّال، ولم يحضرك شيء، وغابَ وكيلُك، فنقدتُ عنك درهمين وأربعَ شعيرات، فقضيتني بعد ستّة أشهر درهمين وثلاث شعيرات! فقال زبيدة: يا مجنون أسلفتني في الصيف فقضيتُك في الشتاء، وثلاث شعيرات شتويّة نديّة، أرزنُ من أربع شعيراتٍ يابسه صيفيّة. وما أشكّ أن معك فضلاً"[١].

قصّة ١. استلاف من نجاشي (الإمتاع والمؤانسة)

"قال عبد الله بن عمرو بن العاص:[٢] *إنّ رجلاً جاء إلى النجاشيّ وقال له: "أقرضني ألف دينار إلى أجل"، فقال: "من الكفيلُ بك؟" قال: "الله". فأعطاه الألف، فلمّا بلغ الأجل أراد الرّدّ، فحبسَته الرّيح، فعمل تابوتاً وجعل فيه الألف وعلّقه، وألقاه في البحر، وقال: "اللهمّ إنّ حمالتك"؛ فخرج النجاشيُّ إلى البحر فرأى سواداً؛ فقال: "ائتوني به". فأتوه بالتابوت، ففتحه، فإذا فيه الألف، ثمّ إنّ الرجل جمع ألفاً بعد ذلك، وطابت الرّيح، وجاء إلى النّجاشيّ فسلّم عليه؛ فقال له النّجاشيّ: "لا أقبلها منك حتى تُخبرني بما صنعتَ فيها". فأخبره بالّذي صَنع؛ فقال النّجاشيّ: قد أدّى الله عنك، وقد بلغتُ الألف في التابوت، فأمسك عليك ألفك"*[٣].

وهاتان القصّتان عن استلاف المال، وأدائه، وهذا الحدث يشابه بينهما، والقصّتان تختلفان في أنماط كثيرة. فالقصّة الأولى عن الواقع البصري في القرن الثالث الهجري، والثانية عن

١- البخلاء، ص٣٥.

٢- ذكرت هذه القصة عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري، رقم ٢٢٩١

٣- الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٩٦-٧

يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذكر اسم النجاشي في حديثه .

التاريخ الحبشة قبيل عهد الإسلام. في القصة الأولى استلف زبيدة بن حميد الصيرفي من بقّال (ليس عنده مائة فلس)، درهمين وقيراط مع أنه ربُّ مائة ألف دينار، وفي القصّة الثانية استلف رجل مجهول من النّجاشيّ ألف دينار، ففي الأولى مستلِف صاحب المال، والبقال رجل ذو عسر، لكنه استلفه مع شدّته، وفي الثانية مستلِف ذوعسر. وفي القصّة الأولى زبيدة لم يؤدّ القرض إلا بعد ستة أشهر، وفي الثانية يريد الرجل أداء القرض على أجله، ولمّا حبسه الريح، أدّى القرض بطريقة نادرة، وهو أنه وضع المال في التابوت وألقاه في البحر، بالدعاء إلى الله، "اللهم إنّ حمالتك"، وهو لا يعرف أن المال بلغ إلى مبلغه أم لا، فجمع المال مرّة أخرى. وفي القصّة الأولى كسل الصيرفي في أداء المال إلى مسكين بقّال، وغاب وكيله ولمّا أجبر عليه أدّى أقلّ من مالٍ أخذ منه، بدليل أن حبّة شعيرية نديّة أرزن من حبّة يابسة صيفيّة[1]، فمعه فضل، لكن في القصّة الثانية أدّى الرجل الأمانة، ثمّ جمع ألف دينار، ولمّا طابت الريح ذهب إلى النجاشي لأداء القرض. فالقصّتان تبرزان صورتان مختلفتان تماماً، من البداية إلى النهاية، الشخصية الأولى متّصف بأخلاق عالية، استلف لقضاء حاجتها، وأدّى القرض على الميعاد حتى كان على مسافة بعيد، والشخصية الثانية، تعيش في جوار البقال، وحياته المترفة أمامه، لكن يؤخر أداء الأمانة (بصورة القرض)، وهذا ليس مبلغاً كبيراً (درهمان وقيراط)، لكن للبقال هذا مبلغ ذو أهمية كبيرة الذي يجمع فلس وفلس لحاجاته. وهناك مثالان في القرآن الكريم: ﴿*وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (٧٥)*﴾[2]، فالقصّة الأولى تبرز الشخصية الثانية، التي لم تهتم لأداء الأمانة، إلاّ ما دمتَ عليه قائماً، والقصّة الثانية تبرز المثال الأول الذي يؤدي أمانة ولو كان "قنطاراً".

قصّة ٢. كذب بكذب (البخلاء)

"حدثني به محمد بن يسير عن والٍ كان بفارس، إما أن يكون خالداً خو مهرويه أو غيره، قال: بينا هو يوماً في مجلس، وهو مشغول بحسابه وأمره، وقد احتَجب بجُهده، إذ نجم شاعرٌ من بين يديه، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّضه ومجّده. فلمّا فرغ قال: قد أحسنتَ. ثمّ أقبل على كاتبه فقال: أعطه عشرة آلاف درهم. ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار له، فلما رأى حاله قال: وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع؟ اجعلها عشرين ألف درهم. فكاد الشاعر يخرج من جلده. فلما رأى فرحه قد أضعف، قال: وإن فرحك ليتضاعفُ على قدر تضاعف القول؟ أعطه يا فلان أربعين ألفاً. فكاد الفرح يقتله.

---

[1]- ولا أعرف بالضبط أن الدليل الصيرفي في الشعيرات الندية وأخرى اليابسة يعمل في الفقه الإسلامي أم لا. والردوا يكون في التأجيل، لكن فقه الصيرفي يقال أصل المال بعد ستة أشهر. (الباحثة)

[2]- سورة آل عمران.

فلمّا رجعت إليه نفسُه قال له: أنتَ – جُعلتُ فِداك – رجل كريم، وأنا أعلمُ أنك كلما رأيتني قد ازددتُ فرحاً زدتني في الجائزة، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلّة الشكر. ثمّ دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبُه فقال: سبحان الله! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً، تأمرُ له بأربعين ألف درهم؟ قال: ويلك! وتريد أن تعطيَه شيئاً؟ قال: ومن إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق، إنما هذا رجلٌ سرَرْنا بكلام، وسررناه بكلام. هو حينَ زعمَ أني أحسن من القمر، وأشدُّ من الأسد، وأن لساني أقطع من السيف، وأن أمري أنفذُ من السّنان جعل في يدي من هذا شيئاً أرجع إلى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذبَ؟ ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا، ونحن أيضاً نسرُّه بالقول، ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذباً، فيكون كذبٌ بكذب وقول بقول. فأما أن يكون كذب بصدق وقول بفعل، فهذا هو الخسران المبين الذي سمعتَ به"[1].

قصّة ٢. هدية البغل وتشخيص البول (الإمتاع والمؤانسة)

"وعد رجل بعض إخوانه أن يهديَ إليه بغلاً، فطال مَطلُه، فأخذ قارورة وبال فيها وجاء إلى الطبيب وقال: أنظر إلى هذا الماء، هل يهدي إليّ بعض إخواني بغلاً"[2].

وهاتان القصّتان تختلفان في أنماط كثيرة إلا أن فيهما فكرة وعد للعطاء، وعلى هذا التشابه أخترتُهما للموازنة. فالقصّة الأولى تروي عن والٍ بفارس، وشاعر مجهول، وفي القصّة الثانية الشخصية الرئيسية "رجل" منتظر للهدية ومن وعد للهدية "أخ" كلاهما مجهول العرف. القصّة الأولى يوضح مكان القصّة وهو مجلس والٍ بفارس، والمكان في القصّة الثانية غير مذكور. في القصّة الأولى وعد الوالي للعطاء على إنشاد القصيدة في مدحه، وفي الثانية سبب الوعد للهدية غير واضح. وفي القصّة الأولى المعطي يضطرب في أداء ما وعد، ويخترع أسباب لمنعه، وفي القصّة الثانية المنتظِر للهدية يضطرب علي طال مَطله، ويذهب إلى من يحلّ مشكلته.

ولحظة التنوير في القصّتين تختلف. في القصّة الأولى هي: أن الشاعر كان كاذباً في مدحه، وأنشد القصيدة لفرح الوالي، فالوالي أيضاً وعده للعطاء كذباً، ليكون كذباً لكذب. وهي سخرية بارزة. وفي القصّة الثانية يذهب الرجل إلى الطبيب ليفحص "البول" ويرشده أن بعض أخوانه يهدي إليه بغلاً أم لا، وهذه مفارقة القول للقصّة، وفيه تهكم وسخرية.

---

[1] البخلاء، ص٢٦-٧.

[2] الإمتاع والمؤانسة، ج٢، ص٥٨.

قصّة ٣. أبو الأسود ولقمان (البخلاء)

ا: "وأكل أعرابيٌّ مع أبي الأسود الدؤلي، فرأى لُقماً منكَرا، وهاله ما يصنع. قال له: "ما اسمك؟" قال: "لقمان". قال: "صدق أهلك. أنتَ لقمان"[١].

قصّة ٣. أبو الأسود والسائل (الإمتاع والمؤانسة)

"مرّ مسكينٌ بأبي الأسود ليلاً وهو ينادي: "أنا جائع! فأدخله وأطعمه حتى شبع، ثمّ قال له: انصرف إلى أهلك، وأتبعه غلاماً وقال له: إن سَمعتَه يسأل فاردده إليّ". فلما جاوزه المسكين سأل كعادته، فتشبّث به الغلامُ وردّه إلى أبي الأسود. فقال:"ألم تشبع؟" فقال: بلى. قال: فما سؤالك؟ ثمّ أمر به يحبس في بيتٍ وأغلق عليه الباب، وقال: لا تُرَوّع مسلماً سائر الليلة ولا تكنب. فلما أصبح خلّى سبيله، وقال: "لو أطعنا السؤال صرنا مثلهم"[٢].

وهاتان القصتان تشابهان في الشخصية الأساسية في القصّة، وهو أبو الأسود الدولي، وكلتا القصتين قصّة فكاهية. في القصّة الأولى أبو الأسود يأكل مع الأعرابي، فرأى لُقماً منكراً، ويسأل اسمه، فهو "لقمان"، فيقول، صدقت أهلك، أنتَ لقمان، وهو لغز لغوي، والفرق بين لُقمان ولَقمان، الأول اسم رجل والثاني تثنية من لَقم، وتمسخر أبو الأسود بين المشابهة في اسمه وفعله (لَقماً منكراً). والقصّة الثانية عن معاملة أبي الأسود مع السائل الجائع، الذي يشبع عنده، فيجيء إلى ذهنه الخصب خيال نادر ولما ينصرف السائل من بيته يرسل غلامه عقبه بإرشاد أن يردّده إن يسأل غيره، فيعقبه ولمّا يسأل تشبّث به الغلام ويردده إلى أبي الأسود الذي يحبسه لسائر الليل غاضباً عليه، كي لا يكذب مرة أخرى. وهذه القصّة تبرز سخرية ومعاملة حادّة مع السائل الكاذب، الذي يشبع عنده ويتجول ويسأل عادة، فيقول أبو الأسود: "لو أطعنا السؤال سرنا مثلهم".

---

[١]- البخلاء، ص١٥٣.

[٢]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٣٣.

الفصل الثالث: تقييم القصص الواردة في الكتابين

١. نظرة عامة

كتاب البخلاء والإمتاع والمؤانسة، يعدّان من المصادر الأدبية الهامة في العصر العباسي. وبما أن بين نهاية عصر "الجاحظ" وبداية عصر "التوحيدي" تفاوت ستين سنة تقريباً، إذ توفي الجاحظ في ٢٥٥هـ سنة، وولد التوحيدي في ٣١٠هـ سنة. ومعايير الأدب والفنون الأدبية تختلف من عصر إلى عصر، وكذلك أنواع الكتب، فالأول كتاب القصّة والثاني كتاب المسامرات. والأول ألّف في القرن الثالث (٢٥٤هـ تقريباً) والثاني في القرن الرابع الهجري (٣٧٤هـ تقريباً) أي بعد القرن وعشرين سنة تقريباً. ويبرز هذا الفصل قيمة القصص الواردة فيهما وتقييم القصص خلال المنهج الوصفي.

كتاب البخلاء كتاب موسوعة من الناحية العلمية والأدبية، حشد فيه الجاحظ ألواناً كثيرة من البخل والبخلاء، ومن الروح الفنيّة الحرّة، فهو يذكر البخيل من اسمه الحقيقي ومن صحة نسبته، وهي صورة صادقة لعصره، للحياة والأحياء أبدعه الفنّان العظيم الجاحظ.

وكتاب الإمتاع والمؤانسة هو كتاب طريف، في متنوع العلوم والفنون، يبدأ بلطافة الكلام لا في الهزل ولا في الجدّ، ولا في الغضب ولا في الرضا. هو ليس كتاب الفكاهة والتندر ولا على موضوع البخل، لكن فيه الفكاهة، مثل كتاب البخلاء، وفيه كلام عن الجود والبخل والشحّ والتقتير. وكتاب البخلاء تصوير للمجتمع البصري خاصّة، والقرن الثالث الهجري عامّة، وكتاب الإمتاع والمؤانسة يسامر عن العهد القديم، والعصرالنبوي، وعصر الصحابة، وعصر الأموي والعباسي، وليس له المبنى الحكائي الخاص.

٢. الموازنة النوعية للقصص بين الكتابين

كتابان يختلفان في الموضوع وكذلك في أنماط القصص. وعدد القصص في كتاب البخلاء مائتا وخمس قصص (٢٠٥)، وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة مائة وستّ وثمانون قصّة (١٨٧). وعلى الرغم أن القصص الواردة فيهما يفرّق بين المعاني، والألفاظ والصور لكن في مواضع عديدة يوجد فيهما نوع من التشابه والتخالف، فقسّمت القصص إلى سبع وعشرين نوعاً (٢٧)؛ وتبرز الموازنة النوعية للقصص الواردة بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة.

وأرقام القصص في جدول ٤,١ مبني على أساس الفهرس الذي رتّب في جداول (٣,١ و٣,٢) الباب الثالث، الفصل الأول (من صفحة ٢٠٢ إلى ٢١٠ صفحة ومن صفحة ٢١٦ إلى ٢٢٥ صفحة) وفي هذا جدول لم يذكر عناوين القصص، بل ركّز على أرقام القصص. والجدول (٣,١ و ٣,٢) رتّب على أساس العناوين والأرقام، حيث جدول ٤,١ يوزان قصص الكتابين بين سبع وعشرين موضوعاً(٢٧).

وقد قسمت القصص في الأنواع، وأمثالها: "صفات الله تعالى، والنبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء عليهم السلام، والصحابة رضوان الله عليهم، والملوك والأمم، ولا يجد هذه الأنواع في كتاب البخلاء، وكل القصص الواردة تحتها توجد في كتاب الإمتاع والمؤانسة. وهذه أربعون قصةً (٤٠).

والقصص الواردة في الكتابين صالحة للموازنة، هي: عن أمراء والحكام، وعن المؤلفين (الجاحظ والتوحيدي)، وعن الأهل والأقارب، وعن النساء، وعن الأصدقاءوعن الضيوف، وعن الجيران وعن الجواري والغلمان، وعن السائلين والطفيليين، وعن المسافرين الخ.

وفي كتاب البخلاء أكثر القصص واردة عن الضيوف، كما يظهر جدول ٤,١، وهي خمس وثلاثون قصّةً (٣٥)، في حين كتاب الإمتاع والمؤانسة أكثر القصص عن الأمراء والحكام، وهى ثلاثون قصّةً (٣٠). ونكتة طريفة أن في البخلاء توجد أربع (٤) قصص عن الجاحظ، وكذلك في "الإمتاع" عن التوحيدي أربع قصص، والكتابان يشاركان في عدد القصص عن النساء، وهي تسع قصص (٩) فيهما، وعن قسم الأصدقاء توجد في البخلاء اثنتا وعشرون قصّةً (٢٢)، وفي "الإمتاع" خمس قصص (٥) فقط. وعلى العكس في "الإمتاع" عن موضوع المفاخرة سبع عشرة قصّةً (١٧)، وقصتان في البخلاء. والجاحظ يعرف اختصاص المكان في موضوع القصص، فيورد القصص عن الخُراسانيين، (ويشمل فيه بلدة مرو أيضاً) فيجد في البخلاء تسع قصص (٩) عن الخراسانيين، والإمتاع والمؤانسة لا يوجد أيّ تقسيم بلاد فيه.

جدول ٤،١ : أنواع القصص الواردة في الكتابين (التسلسل)

رقم	أنواع القصص	من الخلاء (ب)		من "الإمتاع والمؤانسة" (أ)	
	١	رقم القصّة	المجموع	رقم القصّة	المجموع
١	صفات الله			١٧٥،١٧٦،١٧٧،	٠٣
٢	النبي (ص)			٤٦،٥٢،٧٨،٧٩،٨٠،٩٨، ١٤٢،١٦٤،	٠٨
٣	الأنبياء (ع)			٨٦،١١٦ *	٠٢
٤	أصحاب النبي			٢٩،٣١،٣٣،٤٧،٥١،٥٨، ٥٩،٦٠،٧٠،٧١،٧٥،٩٧، ١٠٣،١٣٤،١٣٥، ١١٥،١٣٦،١٦٣،	١٨
٥	الملوك			٥،١٠،١١،١٢،٤٩،٥٦، ١٢٨،١٣٧،١٥٩،	٠٩
٦	الحكام	١٦٨،١٦٩،١٧٣،١٧٨،١٨١، ١٦٥،١٨،٧٣،٧٥،٧٩،٨٦	١١	١،٣،٤،٦،٣٠،٣٢،٣٤،٤١،٤٢، ٤٤،٤٥،٤٨،٦٩،٧٢ ٨٤،١٢١،١٢٥،١٣٨،١٣٩،١٤، ٩،١٦٥،١٦٧،١٦٩، ١٧٠،١٥٠،١٥١،١٥٢،١٥٣،١٥ ٤،١٦٢	٣٠
٧	نفسه	١٢٠،٦١،٦٩، ٣٨	٠٤	٦٧،١٢٦،١٣٣،١٤١،	٠٤
٨	الأهل والعيال	٩٩،٥٢،٤٥،٤٤،٤٠،٣٥،٥، ١٦٥،١٦٤،١٤٤،١١٩،١٠٩، ١٩٦،١٩٠،١٨٤،١٧١،١٠٦	١٧	١٠٠، ١٧،٤٠،٤٣،٥٠،٦٦،٨١،	٠٧
٩	النساء	١٢٠،١٣١،١٣٢،١٣٣، ٢٥،٢٨،٣٢، ١٤٣،١٥٩،	٠٩	*١٨٦،١٨٧،١٧١،١٥٧، ١٥٨،١٤٨،٢١،٣٥،٥٤،	٠٩
١٠	الأصدقاء	٢١،٢٦،٢٧،٣١،٥٠،٥٣،٥٤،٥٥، ٥٦،٦٤،١٠٢،١٠٣،١٢٣،١٤١،١٥، ١٧٦، ١٥١،١٧٠، ٢٠٠،٢٠١،٢٠٢،٢٠٣،	٢٢	١٣١،٢٨،٣٨،٣٩،١٠٢،	٠٥
١١	الضيافة	١،٢،٣٤،٣٦،٣٩،٤٢،٤٦،٤٧،٤٩، ٥٩،٦٠،٧٢،٧٤،٨٠،٨١،٨٣،٨٤، ٨٥،٨٨،١٠١،١٠٤، ١٣٥،١٣٨،١٤٠،١٤٥،١٤٦، ١٤٧،١٥٦،١٦٦،١٨٠،١٨٦، ١٨٨،١٨٧،١٨٩،١٩٢،	٣٥	٧٦،٨٧،٩٥،١٠٤،١٠٥ ١٠٦،١٠٧،١١٠،١١٤،١١٨،	١٠
١٢	الجيران	٣،١٤،١٥،٩٤،١٩١،١٩٤،	٠٦	٦١،	٠١

*٠٣: الأنبياء الرقم ٨٦ (أ)عن سليمان عليه السلام والرقم ١١٦ (أ) عن إبراهيم عليه السلام، وقصتان عن الموضوع الضيافة؛
٩: الرقم ١٨٦، (أ) قصّة عن عائشة رضي الله عنها، عن رجولة العرب.

جدول ٤,١ : أنواع القصص الواردة في الكتابين (التسلسل)

	أنواع القصص	من البخلاء		من "الإمتاع والمؤانسة"	
		رقم القصة	المجموع	رقم القصة	المجموع
١٣	الجواري والغلمان	٣٠،٩٥،	٠٢	١٩،٢٠،٢٢،٥٥،٦٢،٧٧ ،٩٩، ١٠٨،١١٣،١٤٠	١٠
١٤	السائل والطفيلي	٤٣،٨٩،٩٣،١٢٥،١٤٩،١٧٢،	٠٦	٧٤،٨٥،٨٨،٨٩،٩٣،٩٦، ١٠٠،١٢٩،١٣٠١،	٠٩
١٥	المسافر	١٥٤،٦،٧،٨،١٣	٠٥	٦٨،٩٤،	٠٢
١٦	الخراساني	١٠،١١،١٢،١٦،١٧، ١٦١،٢٠٢	٠٩		
١٧	البيع والشراء	٣٧،٤١،٦٢،١٣٩،١٥٨، ١١٧،	٠٦	٣٧،	٠١
١٨	الأحير والمستأجر	٢٩،٥١،٩٦،١٠٥،١٣٦،١٧٤،١٧٥ ١٩٤،	٠٨	٢،١٣،٢٧،٣٦،٥٧،	٠٥
١٩	المترفون	١٩،٣٣،٥٧،٥٨،٦٧،٦٨،٧٠،٧١، ٧٦،٧٧،٩٧،١٥٣،١٩٧،	١٣	٢٦،٨٣،	٠٢
٢٠	الأعراب	١٦٧،١٨٢،١٨٣،٢٠٥	٠٤	٢٣،٦٤،٩١،٩٢،١٢٤، ١٢٧،١٣٢،	٠٧
٢١	المخنث والمجان			١٤،١٥،١٦،٢٤،٢٥،٦٣، ٧٣،٩٠،١٦١،١٧٤، ١٧٨،١٧٩،	١٢
٢٢	الأكل	٦٥،٦٦،٨٢،٨٧،٩٠،٩١،٩٢،١٠٠، ١٠٨،١١٤،١١٥،١١٦، ١٢١،١٢٤،١٢٦،١٢٧،١٢٨، ١٤٨،١٥٢،١٦٠،١٦٢،١٦٣، ١٤٢،١٧٧،١٧٩،١٩٥،٢٠٤	٢٧	١٠٩،١١١،١١٢،١١٩،١٢٠١٢، ٢،١٢٣،	٠٧
٢٣	الكساء والطيب	١٠٧،١١٠، ١٥٥،٦٠،٦٣، ١٢٠،١٥٧١١٨،	٠٨	١٥٥،	٠١
٢٤	جمع المال	٩٨،١١١،١٢٩،١٣٤،	٠٤		
٢٥	المفاخرة والمقابلة	١٩٨،١٩٩	٠٢	١٤٣،١٤٤،١٤٥،١٤٦،١٤٧١٨ ١،١٨٢،١٨٣،١٨٤،١٨٥١٨٠١، ٧٣،١٧٢،١٦٠،١٦٢ ١٦٦،١٥٦	١٧
٢٦	تأويل الأسماء والكلمات	١١٢،١١٣،١٨٥	٠٣		
٢٧	الحيوان	٤،٢٤،٤٨،١٣٧،	٠٤	٧،٨،٩،١٨،٥٣،٦٥،٨٢، ١١٧،	٠٨
	المجموع		٢٠٥		١٨٧

في هذا الجدول تقسيم القصص في سبعة وعشرين (٢٧) نوعاً، وبعد التغافل لبعض الأنواع التي كانت أقل من خمس قصص، تبقى عشرين أنواعاً للموازنة في مخطط ٤,١. وهذه الموازنة نظرة سريعة على أنواع القصة في الكتابين، هناك تسعة أنواع حيث القصص في البخلاء أكثر من الإمتاع والمؤانسة عدداً، وهي: كساء وطيب، وأكل، ومترفون، وأجير ومستاجر، وجيران، وضيوف، وأهل وأقارب، أما القصص التي في النساء فيساوي فيها الكتابان، و في الإمتاع لا توجد أي قصّة عن الخراسانيين، كما لا توجد في البخلاء أي قصّة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه أوالملوك، والمخنّث. و"الإمتاع" تكثر قصصه في أمراء وحكام، وسائلين، وأعراب، وحيوان، وفي مفاخرة ومقابلة.

مخطط ٤,١: الموازنة النوعية للقصص الواردة بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة

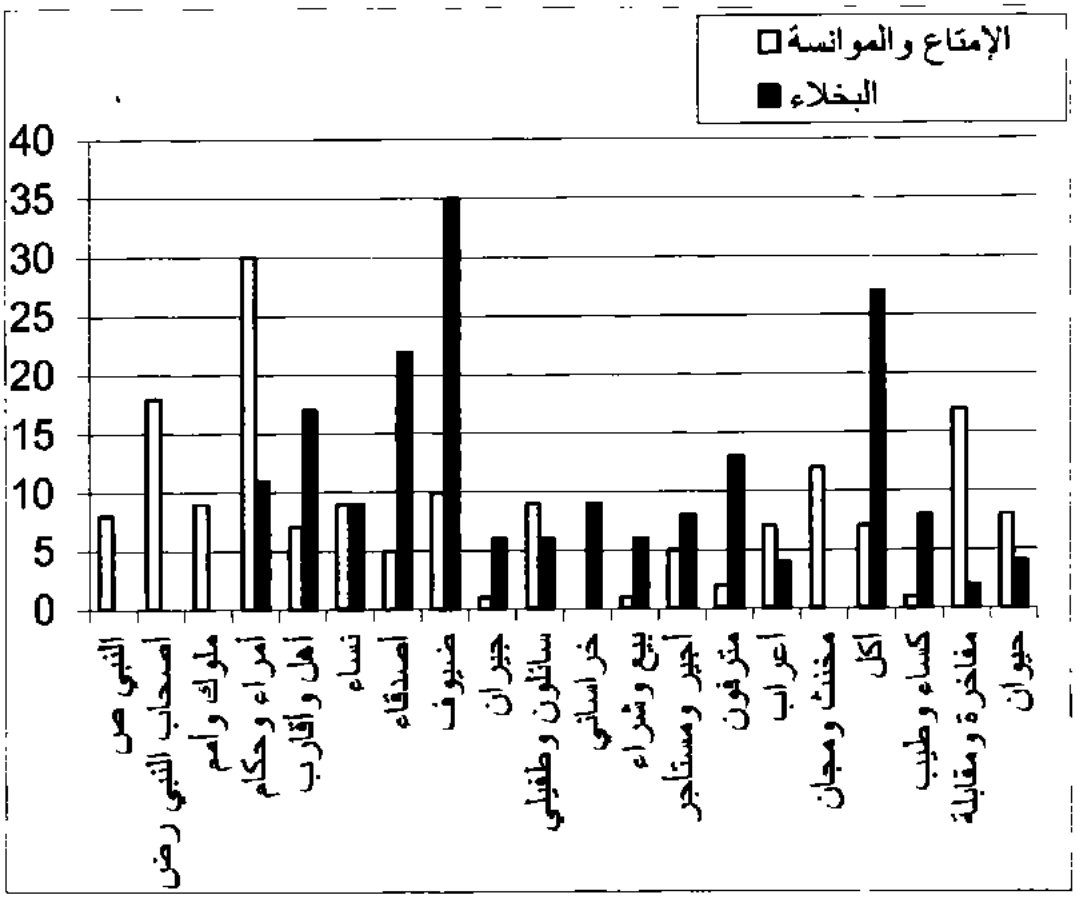

يقدم المخططان ٤,٢ و٤,٣ صورة واضحة لجميع أنواع القصص وهي عشرون في الكتابين. في مخطط ٤,٢ في كتاب البخلاء قصص الضيافة تسع عشرة في المائة ، وقصص

الأكل أربع عشرة في المائة، وعن الأصدقاء اثنتا عشرة في المائة، وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة قصص الأمراء والحكام ثماني عشرة في المائة، وإحدى عشرة في المائة عن أصحاب الرسول رضي الله عنهم، وعن المفاخرة عشرة في المائة.

مخطط ٤،٢: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في البخلاء

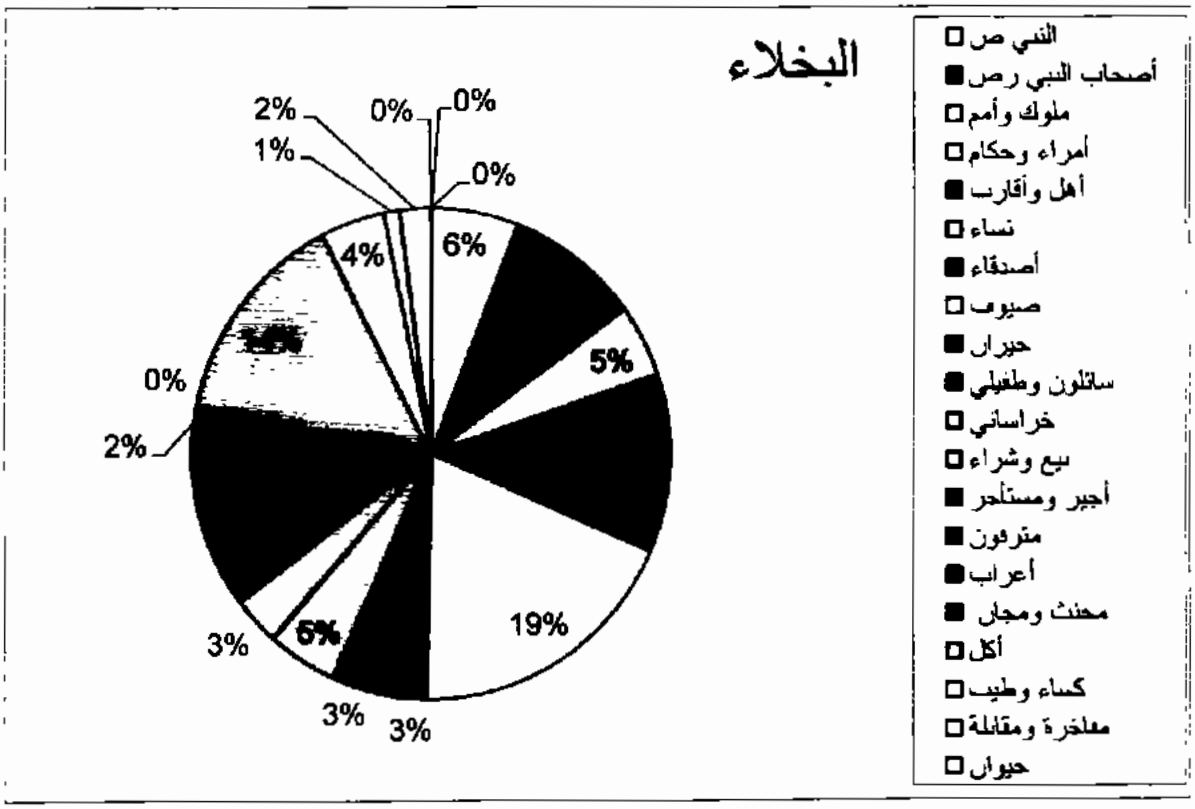

مخطط ٤,٣: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في الإمتاع والمؤانسة

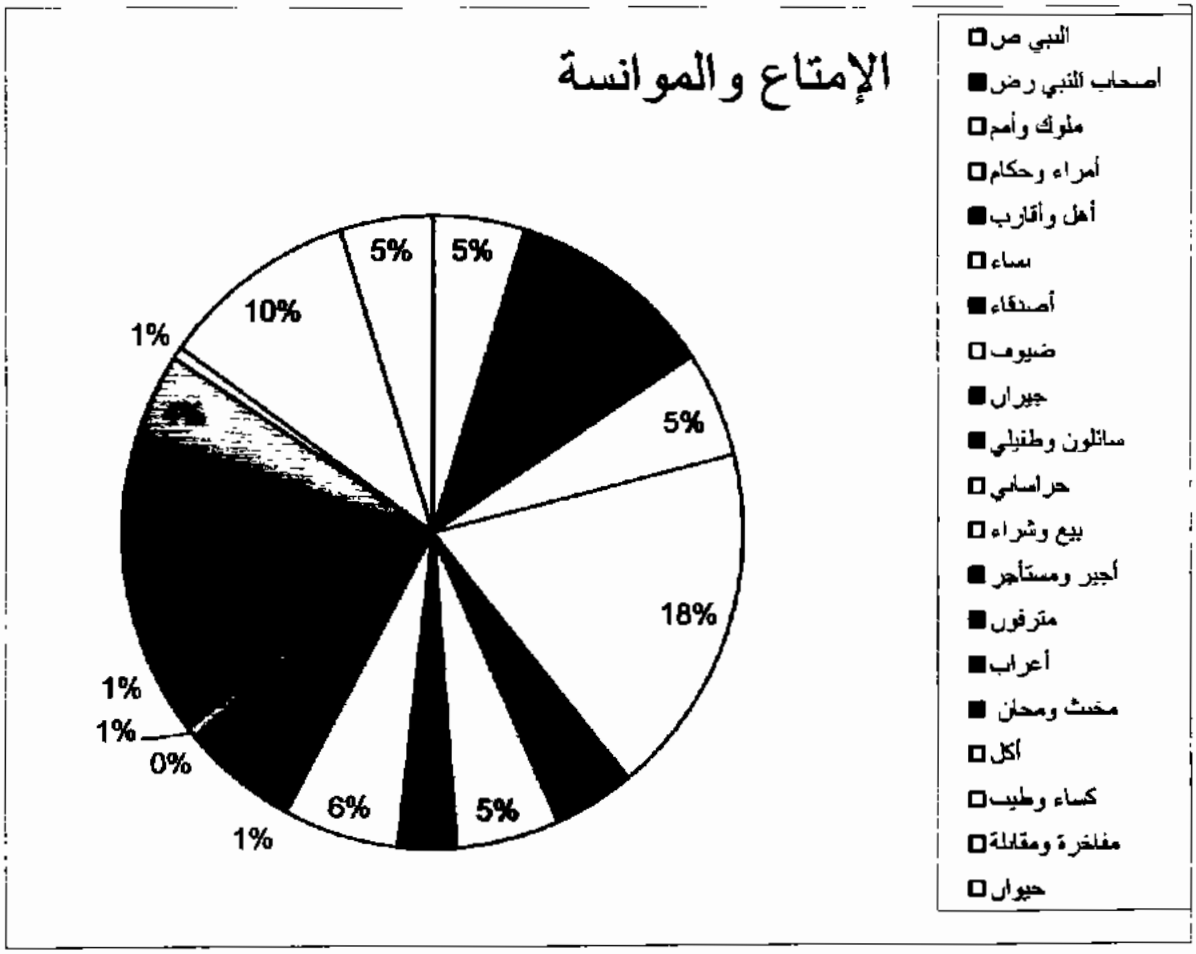

٣. نظرة إجمالية على القصص للكتابين

قد قسّمت الكتابين في سبعة وعشرين موضوعاً لإحاطة المواد المذكورة بينهما، والجدول التسلسل ٤,١ يظهر صورة واضحة لموضوعات القصص نظرة عابرة. وإعادة النظر ستكون مفيداً. إن كتابين يختلفان في الموضوع، والأسلوب والغاية. وفكرة رئيسة أيضاً تختلف بينهما. فـ البخلاء يدور حول فكرة البخل. والبخل يبدأ بالنفقات على الآخرين، فالجاحظ يقصّ قصص الضيوف والمسافرين، والسائلين، ويطول دائرة البخل فيشمل فيها الأصدقاء، والجواري والغلمان، العمال ثمّ الأهل والعيال، والحيوانات وفي الأخير يبخل حتى على نفسه. وهذا البخل يبرز في البيع والشراء، وفي المأكل والمشرب، وفي الكساء والطيب، وفي المكان والدكان،

والبخيل يسميه الإصلاح والاقتصاد، والجاحظ كخبير بالمجتمع والأهالي يراعي ويرقب البخيل، وعملية التبخل، وحتى كأنه يسمع صوت خفيف من قلبه. وعلى الرغم أكثر من مائتين قصّةٍ في كتاب البخلاء يلاحظ فيه تنوّع الفكر وحرارة العاطفة وجمال الخيال من البداية إلى النهاية في الكتاب، ودور الشخصيّة الرئيسية في كلّ قصّة حول البخل، والبخيل يحاول تغطيه محاولاته، ويكيد كيداً، لكن الجاحظ يخرجه من صُلب الأرض.

ومن الجانب الثاني الموضوع الأساسي في كتاب الإمتاع والمؤانسة ليس بخلاً ولو كان فيه بعض القصص عن موضوع البخل. ويشمل فيه التاريخ، والسياسة، والاجتماع، والثقافة، والعقيدة والفن، وغيرها من الجوانب العديدة. والموضوعات التي قد ذكرت في الجدول هي موضوعات الكتاب، عالجه التوحيدي بأسلوبه، وهو يسامر قصص الأمراء والحكام الذين يعيشون حياة االبذر والترف، وعن معاملتهم مع الرعيّة في حالة الأمن وفتنة الخُراسان وأيام حملة الروم، وكذلك يبرز إحساس التفاخر والعصبية الجاهلية التي سادت البلاد عامّة وبغداد خاصة، وهبّت ريح المفاخرة والمقابلة السموم التي ابتعدت بها قلوب المسلمين. وجيل جديد من المسلمين بدأ ينقّب في أجدادهم، وكانوا يعارون الأحفاد على أعمال أجدادهم، أو ينسبونهم بأجداد وأقارب ماتوا على الكفر، أو المسلمين الذين شاركوا في حرب الجمل أو الصفّين يسئلون عنهم من كان على الحقّ. والتوحيدي يركزّ على التاريخ القديم وقصص الإسكندر وأنوشيروان ورستم وغيرهم. وقصص الأنبياء عليهم السلام، وعن النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وكان فيهم أسوة حسنة للمسلمين. والتوحيدي يبرز حالة المجتمع الأرستقراطية، والطبقة البورجوازية وعامّة الشعب. وقصصه في أحجام مختلفة، لكن فيها قوّة وتأثير، وهي تشير إلى مثل عالٍ، أو توجّه إلى خطأ عامّة، أو إصلاح الأحوال. وفي آخر بعض **أوجه الاختلاف وأسبابها** الليالي يورد ملحة الوداع في صورة قصة طريفة أو شعر جيد أو كلمات دعائية، وغير هذه الملوحة تجد فكاهة، وسخرية أو التهكم في قصصه.

٤. تثمين على النطاق الواسع في فئات ثلاث

هذا البحث سيوازن القيمة بين الكتابين، حسب ما قسم في الجدول ٤,٢، وهي تقسيم القصص على أساس ثلاث فئات، هي: الضيافة والأكل والشيء. والفئة الأولى "الضيافة" تبيّن أطوار المضيف، وحالة الضيافة في تقليل وتكثير، وأقسام الضيوف، وخوان المضيف. والكتابان يشتركان في أحوال الضيافة إثباتاً ونفياً، على الرغم أن البخلاء حظّ حظّاً وافراً في الضيافة، وهي ستّ وستّين قصّةً (٦٦)، حيث الإمتاع والمؤانسة نال اثنتين وعشرين قصّةً (٢٢). وفي موضوع الأكل ندرة المأكولات، وفكرة الاقتصاد في الغذاء، وتربية الآكلين، و حبّ المرض أو الدواء لتقليل النفقة، وبعض التبخل عن الأكل وطبائع الناس في المأكولات والمشروبات، وشنّع الآكلين، وغيرها. وفي البخلاء أربع وخمسين قصّةً في موضوع الأكل (٥٤)، وفي الإمتاع

والمؤانسة ثلاث وثلاثين قصّةً (٣٣). وفي فئة "الشيء"، وهو موضوع واسع، في أشياء حسّية ومعنوية، ففي البخلاء خمس وثمانين قصّةً (٨٥) حيث في الإمتاع والمؤانسة اثنتين وثلاثين ومائة قصّةٍ (١٣٢)، ويضمن موضوع "الشيء"، أشياء موجودة وأشياء ما يتصوّر ويخبر عنه، سواء أكان حسّياً أم معنوياً. وهذا التعبير يستعمل لتذكر حدثٍ عند حدوث آخر شبيه به. فالكتابان يبرزان هذا الموضوع في طبائع الناس، وأفعالهم غير عاديّة، وفي البخل والجود، وحيلهم في المنع، وفي أداء الحق والأمانة، وتدبير الأمور مواضعها وعيشة المقتصدين، وفساد الناس في الأموال، وإجادة العمل وإتقانه، وتفنن المواقف في إصلاح الأموال. وكذلك في أشياء معنوية مثل تحفظ أموال المسلمين، والنظر في أمور المملكة، ورفاهة الرّعية، وتقسيم الغنائم، وحرّية المماليك، وإكرام أهل البيت، وآثين العجم، وكرامة النصارى، والسباب والشتم والتسامح، وغضب الزوج، والمفاخرة والمقابلة، والشكوى، والطمع، والتعصب، والجزع على البلاء، وجرأة المرأة، وأمومة الحيوان، وأوصافه، وجرأة المرأة الحرّة وجارية والخ.

جدول ٤,٢: التقسيم الموضوعي للقصص بين كتابين

رقم	فئة	من البخلاء		من الإمتاع والمؤانسة	
		رقم القصص	المجموع	رقم القصص	المجموع
١	الضيافة	١، ٣، ٥، ١١، ١٢، ١٦، ١٧، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٤، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٣، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٦، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢	٦٦	٦، ٢٦، ٣٢، ٣٩، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١٢١، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٢٠	٢٢
٢	الأكل	٤، ٧، ٨، ١٣، ٢٦، ٣٠، ٤٥، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧١، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٩٠، ٩١، ٩٣، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٤، ١١٦، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٧، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٥	٥٤	٥٤، ٥٥، ٥٦، ٦٢، ٦٧، ٧٤، ٧٥، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١، ١١٣، ١١٥، ١٢، ١١٧، ١١٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٢، ١٢٤	٣٣
٣	الشيء	١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٩٢، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٥، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠١	٨٥	١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٨٩، ٩٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧	١٣٢
	المجموع		٢٠٥		١٨٧

هذا المبحث سيبرز قدر القصص في الكتابين على أساس ما ذكرنا في الباب الثالث، وهو تقسيم القصص حسب الموضوع الكلي، والجزئي. وللموازنة قسّم القصص في ثلاثة فئات، وهي: الضيافة والأكل والشيء في الكتابين. ويبرز هذا في مخطط ٤,٤ أن في كتاب البخلاء موضوع الضيافة ٣٢% قصةً وفي الأكل ٢٦% وفي الشيء ٤١%.

مخطط ٤,٤: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في البخلاء

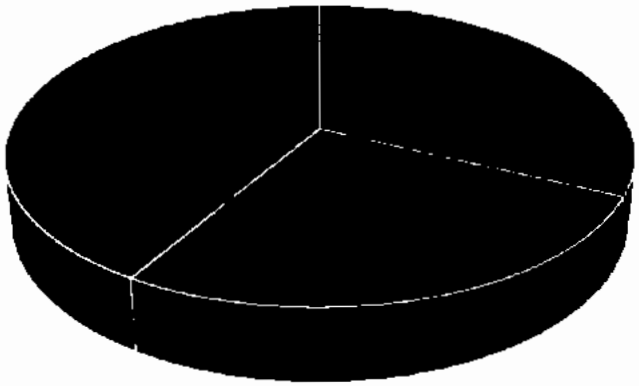

مخطط ٤,٥: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في الإمتاع والمؤانسة

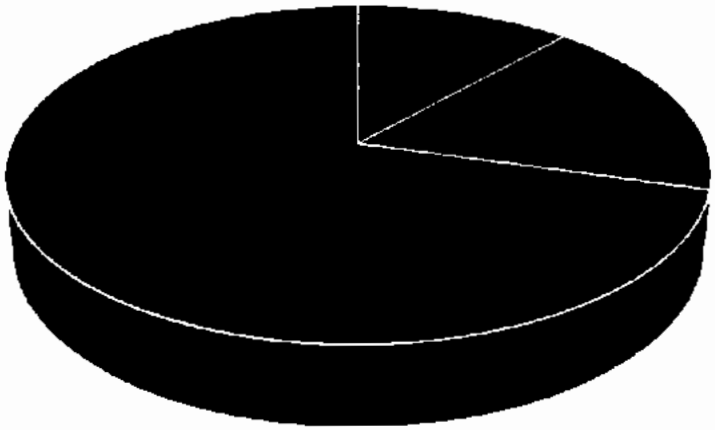

وجدول ٤,٥ يبرز موازنة القصص بين الكتابين في الأرقام، وقد قسّمت القصص في ثلاثة موضوعات رئيسية، ونتيجة جدول أن القصص في البخلاء هي ٣٢% في الضيافة، و٢٦% في الأكل، حين ٤٢% في الشيء، حيث كتاب الإمتاع والمؤانسة يحمل ١٢% قصّة في الضيافة، ١٨% في الأكل، والقصص عن الشيء تجد ٧٠% قصّة.

ا. الضيافة

الموضوع الرّئيسي في كتاب البخلاء هو البخل، وهو الحالة النفسية يشتغل بها الأجسام الحيّة. والجاحظ يبرز أحوال البخيل، وكيفية البخل في المنع بالحيلة والمكر وبالقوّة.

وتبدأ القصص في البخلاء بأطوار لضيافة أهل مرو، والمضيف لا يلقي الضيف بحسن الطلق، ولا يكرمه بالضيافة ويكتفي على الأسئلة "**تغدّيت اليوم؟**" أو"**لو كنت تغدّيت لسقيتك خمسة أقداح**[١]" ولا يصير في يد الضيف قليل ولا كثير، ويكتفي على الكلام؛ **ويضيق نفس أبن أبي كريمة، حتى على الوضوء بالعذب**[٢]؛ وأبو عبدالله ينظر إلي الضيف، وينادي "**أنا أصوم الدهر منذُ أربعين سنة**[٣]"؛ والمروزي ينزل على العراقي، ويتلذذ بإكرامه، وكفاية مؤونته في طريق الحج بسنوات، وكثيراً ما يقول: "ليت أنّي قد رأيتك بمرو"، ولكن بعد دهر طويل لما يصل العراقي فجأة بمرو، ينكر المروزي معرفته بالتجاهل الشديد، ويقول: "**لو خرجتَ من جلدك لم أعرفك**[٤]"؛ وبخيل آخر في الطريق يدعو المار إلى الطعام ولمّا يقبله ويريد أن يجلس **يفهّمه "الآيين**[٥]"، ومعناه أن لا يتقبل الدعوة، وهذا على سبيل كلام بكلام؛ ومن طياب البخلاء الجاحظ أحمد بن خلف يهتم مأدبة على إصرار إخوانه "طعيماً خفيفاً شهيّاً مليحاً، لا ثمن له، ولا مؤنة فيه"، ويأسف بعد الضيافة بقول: "**فمن لا يلومني على دعوة قوم قرّبوني من الفقر وباعدوني من الغنى**[٦]"؛ وبخيل آخر "الحارثي"، يجيد في الطعام، لكن يأكل وحيداً بلا صديق وعدو، لأن في رأيه **الجليس السوء خيرٌ من أكيل السوء**، بدليل: "أنا والله أحتمل الضّيف والضّيفن، ولا أحتمل اللّعموظ ولا الجردبيل. والواغل أهونُ عليّ من الراشن[٧]".

---

[١]- البخلاء، ص١٧.
[١]- المصدر نفسه، ص١٧.
[٢]- المصدر نفسه، ص٢٢.
[٣]- المصدر نفسه، ص٢٢
[٤]- المصدر نفسه، ص٢٤.
[٥]- المصدر نفسه، ص٤٢.
[٦]- اللعموط المتطفل، الجردبيل هو الذي يضع شماله على شيء يكون على الخوان كي لا يتناول غيره، الواغل. الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون أن يدعوه، الراشن الطفيلي. البخلاء، الجاحظ، ص٦٧-٨.

وبعض الضيوف مثل عليّ الأسواري، وهم شرار الناس "**يستلب اللقمة من يده (المضيف) بأسرع من خطفة البازي وانكدار العُقاب**[1]"؛ وهذا الضيف السوء يأكل قليلاً لكن "**يقطر السمّن على الخوان**[2]" لأن الخوان خوانه؛ وبعضهم مثل هذا الرجل المجهول، يجلس على مائدة معاوية رضي الله عنه – وهو في مرتبة الخلافة، وفي السطح من قريش، فيبصر في لقمته شعرة، فيقول دون حياء: "**خذ الشعرةَ من لقمتك**[3]"، فلم يدر الناس أيّ أمري معاوية رضي الله عنه كان أحسن وأجمل: تغافله عنه أم شفقته عليه؛ وعلى خوان المهلبي يطلب رجل الماء، وكان المهلب أوصى الغلام بإقلال من الماء والإكثار من الخبز، فلما سقاه استقلّه، وطلب الزيادة منه، وحبس يده عن الطعام، فقال المهلب: "إلهُ عن هذا أيها الرجل، (..) **أردنا أمراً وأردتَ الخلافة**[4]"؛ ومحمد بن أبي المؤمل عكس من المهلّب، المهلّب يقلل الماء وهو يقلل الخبز لكن مع هذا يرغب في الذّكر وكلمة الشكر، فقال له أصدقاؤه، أن يزيد في عدد خبزك شيئاً، وبعد إصرار يوافق على أن يزيد الخبز ويحضره قريباً تناله اليد، لكن لما حضر وقت الغذاء صوّت بغلامه: "**يا مبشّر هات من الخبز تمام عدد الرؤس**[5]"؛ فلما بطل ما تعاهدوا، قال: "لا أعلم إلا ترك الطعام البتّة؛ أهون علينا من هذه الخصومة"؛ وابن أبي المؤمل يستعمل على خوانه من الخدع والمكايد والتدبير ما لم يبلغ غيره، واليوم كان الضيوف لا يعاينون فيه لُقمة واحدة، هو يوم سروره التامّ؛ لكن هذا البخيل قد امتحن بالسّدري، والجاحظ، حين اشترى شبّوطة (نوع من السمك الثمين)،وهجما عليه، فلما رأه السّدري رأي الموت الأحمر والطاعون الجارف. وأكل السدريّ جميع أطايبها، وبقي هو في النظّارة، فتولّد الغيظ في جوفه، ثمّ ركبته الحمّى، ولمّا أفاق تمّ عزمه: "**أن لا يؤاكل ولا رغيباً ولا زهيدا، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصة ولا غالية، وإن أهدوها لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسّها**[6]"؛ وهذا العزم صميم يظهر شدّة نوائب قلبه؛ وفي ليلة مطرٍ باردٍ صحب محفوظ نقاش بالجاحظ من مسجد الجامع، وسأله أن يبيت عنده، وعلّمه أنّ: "عندي لبأ[7] لم ير الناسُ مثله، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له[8]"، فذهب الجاحظ معه، وبعد ساعة، جاء إليه بجام لبأ وطبق تمر، لكنّ خوّفه محفوظ بالليل وركوده، ومرضه الفالج، وطعنه في السنّ، وأنه ليس بصاحب عشاء، وأخيراً قال كأنه رمى حجراً إليه، "**إن شئتَ فأكلةً وموتة، وإن شئتَ فبعض الاحتمال، ونومٌ على السلامة**[9]"، فأكل الجاحظ جميعاً وهضمه الضحك والنشاط الموفور؛ وهذا بخيل من نوع آخر يأمر الجارية أن "**تلقي في القصعة الذبابة**

---

[1]- البخلاء، ص٦٩.
[2]- المصدر نفسه، ص٢٣.
[3]- المصدر نفسه، ص٧٠.
[4]- المصدر نفسه، ص٧٠-١.
[5]- المصدر نفسه، ص٩٦.
[6]- المصدر نفسه، ص١٠١.
[7]- لبأ أوّل اللّبن عند الولادة قبل أن يرقّ.
[8]- البخلاء، ص١٢٤.
[9]- المصدر نفسه، ص١٢٤.

والذبابتين، والثلاثة، حتى يتقزز بعضهم أو يكفي الله شرّه"[1]؛ وبعض الأحيان يبخل أهل المضيف، وصبيّ مرو يقول للشيخ: "طعامنا، **"لا تريده، هو مرّ، وشرابنا، لا تريده، هو مالح"**[2]؛ وصبيّ المضيف الآخر يجول حول خوان الضيافة ويقول : **"كم تأكلون لا أطعم الله بطونكم!"**[3].

في حين أنّ الضيافة موضوع جزئي في كتاب الإمتاع والمؤانسة، والبخل ليس لازمة الضيافة في قصصه، بل هناك نماذج عليا في هذا المجال. والضيافة عند التوحيدي مقام مرموق في بعض القصص. وهي بين أمرين خيّر بها إبراهيم عليه السلام خليل الله، وعمله أنّ **"ما تغدّيتُ وما تعشّيتُ إلاّ مع الضيف"**[4]؛ والقصّة الثانية تمثل مثال مطبخ سليمان عليه السلام، **"تطبخ فيه الخبز في كلّ يوم ستّمائة كرّ[5] حنطة، ويُذبح له ستّة آلاف ثور وعشرون شاة"**، ولما ورد تهامة وافى الحرم "ذبح للبيت طول مقامه بمكة كلّ يوم خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة[6]"، وكلّ هذا ليس للذكر ولا للشكر، ولا للأنانية، وكان يجلس على مائدته بجانبه اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ويقول لنفسه: مسكين بين مساكين؛ وفي هذه القصّة جاء الضيف وهو صهيب رضي الله عنه بقباء من مقام بعيد، وهو تعبان، وقد رمد في الطريق، وأصابته مَجاعة شديدة، فوقع في الرُّطب، وشركاء الضيافة، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال عمر: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا ترى إلى صهيب يأكل الرّطبَ وهو رمد ؟ وفقال صهيب: **"أنا آكل بشقّ عيني الصحيحة، فتبسّم"**[7]؛ وهذه القصّة عن جهد وضنك عيش العرب في الجاهلية، توالت على العرب سنون، حصّت كلّ شيء، فخرج غَيلان على بكر، فمال إلى بيتٍ، خرجت منها امرأة طويلة حسنة، وقالت **"لو كان عندنا شيءٌ آثرناك به"**، وفي هذا الفقر أرشدته إلى بيت آخر، وفرحَب به هناك وحالة معاشهم أنّ ليس عندهم طعاماً ولا شراباً لكن قالوا: **"قد أبقينا في ضرع فلانة شيئاً لطارقٍ إن طَرَق"**[8]، فهذا أهمية الضيف المجهول، إن طرق سيضاف بشيءٍ ادّخروا للطارق (الضيف) فقط، وفي الجاهلية هم (*وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٩)*)[9] ؛ وهذا الأعرابيّ دُعي ليتغذى مع الحجاج في طريق مكّة، لكنّه رفض الضيافة، وطعام طيب، وآثر أن **يصوم في يوم حارّ**، و**"خرج من عنده**[10]**"** بدون الضيافة؛ وهذه مائدة محمد بن يحيى البرمكي، "شبرٌ في شبرٌ؛ وصحفته من قشر الخشخاش، وبين الرّغيف والرغيف مَضربُ كُرة؛ وبين اللون واللون فترةُ نبيّ، ويحضرها **الكرام الكاتبون**[11]**"** وهذا

---

[1]- البخلاء، ص١٢٦.
[2]- المصدر نفسه، ص١٨.
[3]- المصدر نفسه، ص٤٤.
[4]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٧٨.
[5]- الكرّ ستون قفيزاً، وهو ستة أوقار حمار، وقيل: أربعون اردبا. (الإمتاع)
[6]- الإمتاع والمؤانسة،ج٣، ص٢٩-٠.
[7]- المصدر نفسه،ح٣، ص١٠.
[8]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص٦٧.
[9]- سورة الحشر.
[10]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٨١
[11]- المصدر نفسه، ح٢، ص٥٨

الخوان عكس خوان الحجاج الذي لا يأكل إلا مع الأعرابي (الضيف)؛ وأبو الخليفة المُفضّل بن الحباب، قد دعي إلى وليمة، فرأى الصّحاف توضع تُرفع، فقال: **"أللحُسن والمنظر دعينا، أم للأكل والمخبَر؟[1]"**، فقيل: بل للأكل والمخبر، قال: **فاتركوا الصّحفة يُبلغ قَعرُها**؛ وهذا الضيف يفرّق بين الأدم وبين تزايين المائدة، وهو ابن ضَبعون الصّوفيُّ دعاه أبو عمر الشاري صاحب الخليفة، كي يتغذّى معه، وقال: "إنّ عندي مصوصاً وهلاماً وبقيّة مطجّنة، وشيئاً من البانّنجان البورانيّ البائت المخسّر[2]، فقال: **"هذه كلها تزايين المائدة، فأين الأدم؟[3]"**؛ وهناك فرق بين الصّوفي والصّوفيّ، ابن الجصّاص الصوفي دخل على أحمد بن رَوح الأهوازي، فقال: "ما تقول في نطرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل صحفةِ أرزٍ مطبوخ، فيها نَهر من سَمن، على حافاتها كُثبانٌ من السُّكر المنخول"، فدمعت عينيه شوقاً إليه، وقال: **"جعلنا الله وإيّاك من الواردين عليه بالغوّاصة والرّدادتين[4]"**، فقال له: ما الغوّاصة والرّدادتين؟ قال: الغوّاصة الإبهام، والرّدادتان: السّبّابة والوُسطى؛ والضيف مثل أبو العيناء إذا قدّم إليه عراقاً، قال: **"قدركم هذه قد طُبخت بشِطرَنج؟[5]"**؛ ويوم قدّم إليه قدراً فوجدها كثيرةَ العظام، فقال: **هذه قِدرٌ أم قبر؟[6]"**؛ وأكل أبو العيناء عند ابن مكرّم يوماً، فسُقِي ثلاث شرباتٍ باردة، ثمّ طلب الرابعة، فَسُقي شَربةً حارّة، فقال: **"لعل مزمّلتكم تعتريها حُمى الرّبع[7][8]"**؛ وهذه الضيافة أيضاً لم تأتي حسن النتيجة، حين جاء القوم إلى أبي القَمقام ببغداد، وكانوا يسمع منه، فجاء إليهم "بحفنة فيها الجواذب، فأكلوا، ثمّ أتاهم بسفودٍ فيه يرابيع فسلتها في الجفنة، فعلم القوم، أنهم قد دهوا، **فجعلوا يستقيئون ما أكلوا[9]"**.

وخلاصة القول أن الكتّابين خصبان في موضوع الضيافة، وتصوير المضيف والضيف بصورة حيّة ونابضة، إلا أن البخلاء يظهر صفة البخل في أكثر قصصه حين الإمتاع والمؤانسة يساوي في صفة الجود والبخل في الضيافة.

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٥٧.

[2]-المصوص. طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل؛ ويكون من لحم الطير خاصة. الهلام كغراب. طعام من لحم عجل بجلده، وقيل مرق السكباج المجرد المصفى من الدهن. (الإمتاع)

[3]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٧٦.

[4]- المصدر نفسه، ح٣، ص٧٧.

[5]- المصدر نفسه، ح٣، ص٦٩.

[6]- المصدر نفسه، ج٣، ص٦٩

[7]- حمى الرّبع هي التي تأخذ يوماً وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع.

[8]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٦٩.

[9]- المصدر نفسه، ح٣، ص٦٩

ب. الأكل

كتاب البخلاء يُكثر في قصص الآكلين، والمأكولات، ويبرز أنواع البخل في مؤاكلة الناس، سواء كانوا آكلون في البيت أو في السفر، على جانب البرّ أو في السفينة، في البستان أو في الدكان، وحيداً أم مع الأهل والعيال، أو مع المترافقين أو المتزاملين.

القصّة الأولى تبرز أكلة الحجاج الخُراسانيين، في طريق الكوفة، وهم يتغدّون على مباقل، ولم ير الجاحظ **"من جميع الخمسين رجلين يأكلان معاً"**[1]؛ وفي قصّة أخرى عن الأكل، كان مع أبي نواس رجل في السفينة، وهو من أهل خراسان، وكان من عقلائهم وفقهائهم، **"وكان يأكل وحده"**، وفي رأيه، ليس عليّ في هذا الموضع مسألة: إنما المسألة من أكل بالجماعة، **"وأكلي وحدي هو الأصل، وأكلي مع غيري هو زيادة في الأصل"**[2]؛ وهؤلاء المسافرون، وضعوا لهم ميزان آخر، وتناهدوا وتلازقوا في شراء اللحم، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ، فأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكّه بخوصة أو بخيط، ثمّ أرسله في خل القدر والتوابل. فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه. وليس تناهدهم من طريق الرغبة في المشاركة، ولكن **المؤنة تخف، ويقدر كل واحد منهم على قدر**[3]". ورغبة حقيقية في المشاركة هي خفّة المؤنة، ويجمعوا عليه ويأكلون وحيداً؛ وشيخ من أصحاب المسجديين، لا يحقر صغار الأمور، لأنّ أول كل كبير صغير، واشتكى الشيخ من سعال، فأشاره الأصدقاء على أدوية وأغذية كثيرة، فاستقلّ المؤنة ولم يجرّب شيئاً، حتى قال له بعض الموفقين: "عليك بماء النُخالة" فاحسه حاراً، ووجدته طيباً جدّاً، ولا يشتهي الغذاء معه، فقال للعجوز: **"لم لا تطبخين لعيالنا في كلّ غذاء نخالة؟"**[4] لأن فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك؛ ومثل هذا تجرّب الثوريّ، حين حمّه، وحمّ عياله وخادمه، فلم يقدروا مع شدّة الحمى أكل الخبز، فربح كيلةً تلك الأيام من الدقيق، ففرح بذلك، وقال: "(..) لرجوتُ أن استفضل كلّ سنة مائة دينار، فكان **لايبالي أن يحمّ هو وأهله أبداً، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق**[5]"؛ والثوري يدرّب عياله على المؤاكلة، فيقول: **لا تلقوا نوى التمر والرطب، وتعوّدوا ابتلاعه**، وخذوا حلوقكم بتسويغه، فإنّ النوى يَعقِد الشحم في البطن، ويدفئُ الكليتين بذلك الشحم. وكان يقول: كلوا الباقلّي بقشوره، فإن الباقلي يقول: **"من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله**[6]"؛ وقال الأصمعي: تعرّق أعرابيٌ عظماً، فلمّا أراد أن يلقيه، وله بنون ثلاثة، قال له أحدهم: "أعطنيه"، قال: وما تصنع به؟ قال: "أتعرّقه، حتّى لا تجد فيه ذرّة مَقيلاً"، قال: "ما قلتَ شيئاً"، قال الثاني: "أعطنيه"، قال: "وما تصنع به؟"، قال: "أتعرّقه حتى لا يدرى ألِعامة ذلك هو أم للعام الي قبله"، قال: "ما قلتَ شيئاً"، قال الثالث: "أعطنيه"، قال: وما تصنع

---

[1]- البخلاء، ص١٨.
[2]- المصدر نفسه، ص٢٤.
[3]- المصدر نفسه، ص٢٣.
[4]- المصدر نفسه، ص٣١.
[5]- المصدر نفسه، ص١٠٤.
[6] المصدر نفسه، ص١٠٣.

به؟"، قال: أجعله مخّه إدامه" قال: "أنتَ له[1]". ونكتة المبالغة، أن أبا ما قال، هو لك، بل قال: "أنتَ له"، وهذه معاملة الأهل والعيال، وبخيل الجاحظ كيف يعامل مع الغلمان، فهذه قصّة زبيدة بن حميد الذي ضرب غلمانه الضّرب المبرّح، لأنهم أكلو كلّ جوارشن كان عنده. ولما فتش صديقه عن رئيس غلمانه قال:الجوارشن ما أصنع به؟ ونحن الذين إنما **نسمعُ بالشبع سَماعاً من أفواه الناس**، ما نصنع بالجوارشن؟[2]"ومن شبع بأكل كثير يحتاج إلى الجوارشن، ومن جاع وخلّى معدته من الطعام، له حاجة في الطعام ليس في الجوارشن؛ وهذه قصّة تمار، وكان غلامه إذا دخل الحانوتَ يحتار، فربما احتبس فاتهمه بأكل التمر. فسأله يوماً فأنكر، **فدعا بقطنة بيضاء، ثمّ قال: "امضغها" فمضغها، فلما أخرج وجد فيها حلاوة وصفرة**[3]، قال: هذا دأبك كلّ يوم، وأنا لا أعلم؟ أخرج من داري. وهل يعتمد الرجل بعد هذا؛ وفي هذه القصّة جاء الغلام إلى خالد بن صفوان بطبق خوخ، إما أن يكون هديّة، وإمّا أن غلامه جاء به من البستان. فلمّا وضعه بين يديه قال: **"لو لا أني أعلم أنك أكلتَ منه لأطعمتك واحدة"**[4]، وهذا الشك في صدق وإمانة الغلام، الذي حرمه من الخوخ؛ وكيف يسرّ ويطمئن الرجل في حالة تبرز القصّة القادمة، أن أبا عيينة قد سأل من امرأته عن اللحم فقالت، أكله السنّور، **فوزن السنّور، ثمّ قال: "هذا اللحم فأين السنّور؟** وقال: كم أجمجم: بلغني أنّك فقدتَ قطعة بطيخ، فألححت في المسألة عنها، فقيل لك **أكلها السنّور، فرميتَ بباقي القطعة قدّام السنّور، لتمتحنَ صدقهم من كذبهم**[5]، فلمّا لم يأكله غرّمتهم ثمن البطيخة كما هي. فالجاحظ تناول موضوع الأكل وبدأ من "أكل مع الجماعة"، وذكر الأشياء وطريقة تناول الأغذية التي تخفّ المؤنة وتزيد الإفادة، ثمّ ذكر بعد الإتهامات والجدل في حصول الطعام بطريقة الخداع والحيلة بين الأهل والعيال أو الغلمان، وتنتهي المعاملة السيئة إلى أن أبا العيينة يجبر أن يزن السنّور، أو يلقي إليه بطيخة ليمتحن حقيقة الصدق.

كتاب الإمتاع والمؤانسة يكثر في القصص عن الأكل، وفيها أمثلة النبي صلى الله عليه وسلم، وعصر الصحابة رضي الله عنهم اجمعين، وحتى إلى عصر التوحيدي، والقصّة الأولى تدلّ على أكلة النبي صلى الله عليه وسلم، أنه ما عاب الطعام قطّ؛ وأخبر أبو أيوب رضي الله عنه أنه **ينهك القصعة فيها طفيشل**[6]، ما لم ينهك غيرها، فأمّ أيوب رضي الله عنه **تعملها** له، وكذلك الهريسة؛ فتعمل له ليلةً وليلةً لا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسأل عنها؛ أجاءت قصعة أسعد أم لا؟ فيقال: نعم، فيقول: **هلُموها**[7]؛ وهذا شفيق، اشترى بطيخة لأمّها، فلمّا ذاقتها سخطت، فقال: يا أمّي على من تُردّين القضاء، ومن تلومين، أحارثها أم مشتريها أم خالقها؟ أمّا حارثها ومشتريها فما لهما ذنب،

---

[1] البخلاء، ص٢٢٢.
[2] المصدر نفسه، ص٣٦.
[3] المصدر نفسه، ص١٣٣
[4] المصدر نفسه، ص١٤٧.
[5] المصدر نفسه، ص١٤٥.
[6]- الطفيشل: نوع من المرق.
[7]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٩-١٠.

فلا أراكِ تلومين إلا خالقها"[1]؛ وهذه القصّة عن شاةٍ أهديت لرجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: **أخي فلان أحوج إليها**[2]، وبعث بها إليه، فلم يزل يبعث بها واحدٌ بعد واحد حتى تداولها تسعةُ بيوت، ورجعت إلى الأوّل، فنزلت الآية: **(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٩))**[3]؛ وهذه القصّة عن واحد من الثلاثة، حبسوا في الكهف، فدعو الله بذكر حسنة ما عملوا في الرخاء، فالأوّل كان الراعي، وأيضاً كان **يراعي حق الأبوين**، وكان له أبوان وأولاد وامرأة، فيسقي أوّلا الوالدين، ثمّ الأولاد، فجاء يوماً فوجد أبواه قد ناما، فلم يوقظهما، ولم يسق الأولاد، وبقي قائماً إلى الصبح؛ فدعا الله "فإن كنتَ قبلتَ هذا مني فاجعل لنا فرجاً، فتحرّك الحجر ودخل عليهم الضوء؛ وهذه القصّة عن محبٌ الجواذب، وهو يحيى بن أكثم، فبلغه أنّ رجلاً ممّن يحضر عنده يعيب الجواذب، فقال يحيى: إن ثبت عندي هذا، توقفتُ عن شهادته، وحكمتُ عليه بضعف الحسّ وقلّة التمييز، فبلغ الرجل ذلك، فاحترس، فقال له يحيى يوماً: ما قولك في الجواذب؟ قال: أشرف مأكلٍ وأطيبُه، سهل المدخل، لذيذ المطعم، جيّد الغذاء، قليل الأذى. قال: أصبتَ، هكذا أريدك"[4]؛ وهذه القصّة عن الحبّ عبد حبشي لمولاه، الذي ناوله شيئاً يأكله، وقال: أعطني قطعةً منه، فأعطاه، فلمّا أكله وجده مرّاً، فقال: يا غلام، كيف أكلتَ هذا مع شدّة مرارته. قال: "يا مولاي، **قد أكلتُ من يدكَ حلواً كثيراً، ولم أحبُّ أن أريك من نفسي كراهة لمرارته**"[5]؛ وهذه جارية أخطأت في حقّ مولاها، وهو منصور بن مهران، **فجاءت بمَرقَة فهراقتها عليه**، فلمّا أحسّ بحرّها نظر إليها، فقالت: يا معلّم الخير اذكُر قول الله. قال: وما هو؟، قالت: *(والكاظمين الغيظ)*، قال: كَظَمتُ، قالت: واذكر، *(والعافين عن الناس)*، قال: قد عفوتُ. قالت: والذكُر *(والله يحبُ المحسنين)*[6]. قال: **اذهبي أنتِ حرّة**"[7]، فنالت العفو على سهوها، ونالت الحرية بذكائها؛ وهذه القصّة عن كثرة شرب الماء لأحمقٌ من الضَبُع، التي وجدت تودية في غدير، **فجعلت تشرَب الماء** وتقول: "يا حبّذا طعم اللبن" حتى **انشقّ بطنها فماتت**"[8]؛ وهذا الأعرابيّ، يحلم لو كنتُ خليفةً، فقيل له: لو كنتَ خليفةً كيف كنتَ تصنع؟ قال: كنتُ استكفي شريفَ كلّ قوم ناحيتَه، ثم **أخلو بالمطبخ فآمر بالطهاة** فيعظمون الثريدة ويكثرون العُرَاق، فأبدأ فآكل لُقماً، ثمّ آذنُ للناس، فأيُّ ضياع يكون بعد هذا؟!"[9]؛ وهذه القصّة عن رجل أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه، فقال: إنّي كنتُ صائماً فدخلتُ بيت أبي فوجدتُ طعاماً، فنسيتُ فأكلتُ. قال: الله أطعمك. قال: ثمّ دخلتُ بيتاً آخر فوجدتُ أهله قد حلبوا لَقحَتهم فسَقَوني، فنسيتُ فشربتُ. فقال: **"يا بنيّ هوّن**

---

[1]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٢١.
[2]- المصدر نفسه، ج٣، ص٥.
[3]- سورة الحشر
[4]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٧٦.
[5]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٢١.
[6]- آل عمران، آية ١٣٤. *(والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ۗ والله يحبُ المحسنين)*
[7]- الإمتاع والمؤانسة، ح٢، ص١٢٩.
[8]- المصدر نفسه، ج٣، ص٣٥.
[9]- المصدر نفسه، ح٣، ص٣٥.

عليك فإنّك قلّما اعتدتَ الصيام"[1]؛ وهذه القصّة عن عثمان بن رواح ورفيقاً له في السفر، فقال له الرفيق: إمض إلى السوق فاشتر لنا لحماً. قال: والله ما أقدر. قال: فمضى الرفيقُ واشترى اللحم ثم قال لعثمان: قم الآن فاطبُخ القدر. قال: والله ما أقدر. فطبخها الرفيق. ثم قال: قم الآن فاثرد. قال: والله إني لأعجزُ عن ذلك. فثرد الرفيق. ثمّ قال: قم الآن فكُل. فقال: والله قد **استحييتُ من كثرة خلافي عليك، ولو لا ذلك ما فعلتُ**"[2]؛ وهذه قصة أبي الحسن، الذي يقصّ تجربة ذاتية على المائدة مع ابنته ثمّ مع ابنه، فيقول: "كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتُبرزُ كفّاً كأنها طَلعَةٌ، في ذِراعٍ كأنها جُمّارة، فلا تقع عينُها على **أكلةٍ نفيسةٍ إلاّ خصّتني بها**، فزوّجتُها، وصار يجلس معي ابنٌ لي، فيبرزُ لي كفّاً كأنها كِرنافة، في ذِراعٍ كأنها كَربة، فوالله إن **تسبِقُ عيني إلى لُقمةٍ طيبةٍ إلاّ سبقت يدُه إليها**"[3]؛ وهل هذا سبب نفسه في القصّة القادمة حيث تبشّر امرأة زوجها بأن ابنها قد اتّغر[4]، فقال: أتبشّرينني بعَدُوّ الخبزِ؛ اذهبي إلى أهلِكِ"[5].

هذه القصص تبرز صوَر مختلفة، في معاملة الناس في المؤاكلة، فهناك خير أمثلة خير البشر صلى الله عليه وسلم، الذي لم يعاب الطعام قط، ومن يؤثر الآخرين عليهم، ومن يصبر مع مرارة الطعام، ومن ينسى أنه صائم، ومن تشرب حتى الموت، ومن تسقط المَرَق وتعطي الحرية، ويكسل في إعداد الطعام ويحصل الثريد الخ.

ج. الشيء

كتاب البخلاء يبرز صور البخل من الحياة الإنسانية في أشياء مختلفة، والبخل يعبّر عن وجهة النظر في كل جوانب الحياة. والجاحظ كطبيب نفسي ماهر يكشف الستار من الأحداث المختلفة، صغيرة وكبيرة، ضاحكاً ومضحكاً وساخراً، وبعض الأحيان متهكما، حيث يعامل الإنسان بطبيعته الخالص.

هذه القصّة يكشف الستار عن الخُراسانيين المرافقين اجتمعوا في منزل، وصبروا عن الارتفاق المصباح ما أمكن الصبر، ثمّ جمعوا الغرم، وأبى واحد منهم أن يدخل في الغرم معهم، فإذا جاء المصباح **شدّوا عينه بمنديل**[6]، حتى يطفؤا المصباح؛ وهذه القصّة عن ناسٌ من المراوزة، إذا لبسوا الخفاف في الأشهر الستّة التي لا ينزَعون فيه خفافهم، **يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر**[7]، حتى يكون كأنهم لم يلبسو خفافهم إلا

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص٤٦.
[2]- المصدر نفسه، ح٣، ص٤٠.
[3]- المصدر نفسه، ج٣، ص١٤-٥.
[4]- اتّغر الغلام واثغر: نبت ثغره.
[5]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٥٠.
[6] البخلاء، الجاحظ، ص١٨.
[7] المصدر نفسه، ص٢٨.

ثلاثة أشهر، مخافة أن تنجرد نِعال خفافهم أو تنقَب؛ وهذه القصّة ليلى الناعطية، صاحبة الغلو من الشيعة، وهي أيضاً صاحبة الاقتصاد، وهي ما زالت **ترقّع قميصاً وتلبسُه حتى صار القميص الرِّقاع**[1]، وذهب القميص الأوّل؛ وهذا أحمد بن الخاركي، كان بخيلاً ونفاجاً، وكان **يتّخذ لكلّ جبّة أربعة أزرار، ليرى النّاس أن عليه جبّتين**. ويشتري الأعذاق والعراجين[2]، فإذا جاء به الحمّال إلى بابه تركه ساعةً **يُوهم النّاس أنّ له من الأرضين**[3] ما يُحتمل أن يكون ذلك كلّه منها؛ وهذه القصّة عن أبي جعفر، وهو في البخل مثالاً عالياً، زار قوماً فأكرموه وطيّبوه، وجعلوا في شاربه وسَبَلته غالية. **فحكته شفتُه العُليا، فأدخل إصبعه فحكّها باطن الشفة، مخافة أن تأخذ إصبَعُه من الغالية شيئاً**[4] إذا حكّها من فوق؛ وهذه القصّة عن أبي عبد الرحمن، الذي ينصح ابنه، أن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتّح عليك أبواب الدنانير، **وتأويل الدرهم "دار الهم" وتأويل الدينار "يدني إلى النار"**[5]، أن الدرهم إذا خرج غير خلف، وإلى غير بَدل، دار الهمّ على دانق مخرجه. والدينار يدني إلى النار لأنه إذا أنفقه في غير خلف، وأخرجه من غير بدل، بقي مخفقاً مُعدماً، وفقيراً مبلطاً متحرّج المخارج... ويدخلُ النار؛ وهذه القصّة عن رجل مجهول، الذي بلغ في البخل غايته، وصار إماماً، وأنه كان إذا صار في يده الدرهمُ، خاطبه وناجاه وفدّاه واستبطاه، وكان مما يقول له: "كم من أرضٍ قد قطعتَ، وكم من كيسٍ قد فارقتَ، وكم من خامل رفعتَ، ومن رفيع قد أخملتَ. **لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى**"، ثم يلقيه في كيسه ويقول له: "**اسكن على اسم الله في مكان لا تُهان ولا تَذلّ ولا تُزعجُ منه**[6]"، وإنّه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه؛ وهذا مقلّ، وكان له أخٌ مكثر، وكان مفرط البخل، شديد النفج، فقال له يوماً أخوه: "ويحك! أنا فقيرٌ مُعيل، وأنتَ غنيّ خفيف الظهر، لا تعنيني على الزمان، .. ما رأيتُ قطّ، ولا سمعتُ بأبخل منك". قال: "ويحك! ليس الأمر كما تظنّ، ولا المال كما تحسب، .. والله **لو ملكتُ ألف ألف درهم لوهبتُ لك منها خمس مائة ألف درهم. يا هؤلاء، فرجل يهب ضَربَةً واحدة خمس مائة ألف يقال له بخيل؟**"[7]؛ وهذه القصّة تبرز صورة البخل في الشيء، وهو السمن، وكان والي البصرة بلال بن بردة قد خاف الجُذام، فوصفوا له **الاستنقاع في السّمن، فكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر ببيعه**[8]. فاجتنب الناسُ في تلك السنّة أكل السمن؛ وكذلك احتقن بحقنة فيها أدهان. فلمّا حرّكته بطنه، كره أن يأتيَ الخلاء فتذهبَ تلك الأدهانُ، فكان **يجلس في الطست ويقول: "صَفّوا هذا، فإنه يصلح للسراج**[9]"؛ والرجل الذي يصفّي الأدهان، ماذا يفعل في أشياء أخرى، وخبّرنا جار له أنه **يتخلّل**

---

[1]- البخلاء، ص٣٧

[2]- الأعذاق: الواحد عذق. عناقود النخل. العراجين: الواحد عرجون: العذق إذا يبس وأعوج.

[3]- البخلاء، ص١٢٥.

[4]- المصدر نفسه، ص٥٨.

[5]- المصدر نفسه، ص١٠٦.

[6]- المصدر نفسه، ص١٣١.

[7]- المصدر نفسه، ص١٩٥.

[8]- المصدر نفسه، ص١٥٠.

[9]- المصدر نفسه، ص١٥١.

من الطعام بخلال واحد شهراً[1]، كلما تغدّى حذف من رأسه شيئاً، ثمّ تخلل به، ثمّ وضعه في مجرى دواته؛ فهذه القصص نبذة من القصص عن الشيء في البخلاء، وفكرة البخل تظهر في تعامل الرجل، في الكساء، والنعل، والطيب، وهو يعرف ويستسلم أهمية المال في الحياة، فيكنز ويدّخر بالمحبّة، ولا يستخرج منها ليذلّ، ويستخرج من الكلمات معناً جديداً ويستنبط به، فالدرهم عنده "دار الهمّ" لكن يجتمع ويعدد هذا الهمّ، والدينار "يدني إلى النار" وهو لا يهرب من هذه النار، بل يجمع بدليل اخترع له نفسه، فيسهل له أن يبيع السمن بعد الاستنقاع، ويصفي الدهن بعد الحقنة، ولا يبالي أن يستعمل خلال واحد لشهر.

كتاب الإمتاع والمؤانسة يسامر عن أشياء عديدة، وهو في موضوع البخل والجود، والعفو والقصاص، وفيه القصص تبرز صور مفاخرة، ومن تعرض أن يلقي في نار الجاهلية المفاخرة، والقصص فيها المرأة التي تنازع زوجها، ومن تخز الحاكم بخُراسان مسلم بن قتيبة.

وهذه القصّة عن اللذّين تماكسان في أجرة الجدار، وهما البنّاء، وجحظة. والبناء عمل في نصف اليوم، وكان يطلب عشرين درهماً، وقال بنّاء: أنتَ لا تدري، إنّي قد بنيتُ لك حائطاً يبقي مائة سنة؛ فبينما هما كذلك وجب الحائط وسقط؛ وقال جحظة: هذا عملك الحسن؟ قال: فأردتَ أن يبقى ألف سنة؟، قال: لا، **ولكن كان يبقى إلى أن تستَوفيَ أجرَتك**[2]"؛ وهذه القصّة عن التاريخ القديم، ومملكة الإسكندر، وقال له بعض ندمائه أن فلاناً يسيء الثناء عليك، فقال: أنا أعلم أن فلاناً ليس بشرير، فينبغي أن يُنظر هل ناله من ناحيتنا أمر دعاه إلى ذلك، فبحث عن حاله، فوجدها رثّةً، فأمر له بصلةٍ سنيّةٍ، فبلغه بعد ذلك أنه يبسط لسانه بالثناء عليه في المحافل؛ فقال: "أما ترون أن **الأمر إلينا أن يقال فينا الخير والشرّ**[3]"، فالتوحيدي يبين كيف يحصل الحاكم حسن الثناء من رعيّته، وكان التوحيدي يعيّب وينقد على وزراء عصره، وكان يسامر مع الوزير ابن سعدان حين يقصّ هذه القصّة، وهو يروي كيف يبدّل سوء الثناء في حسن الثناء، والمعاملة في أيدي الحكام؛ وهذه القصّة أيضاً تبرز حسن المعاملة مع المماليك، وهو عبد الرحمن بن مدين – وكان رجل صدق بخُراسان – أصاب مالاً عظيماً، فجهّز سبعين مملوكاً بدوابّهم وأسلحتهم إلى هشام بن عبد الملك، ثمّ أصبحوا معه يوم الرّحيل، فلمّا استوى بهم الطريق نظر إليهم فقال: ما ينبغي لرجل أن يتقرّب بهؤلاء إلى غير الله. ثمّ قال: "**اذهبوا أنتم أحرارٌ، وما معكم لكم**[4]"؛ وهذه أيضاً قصّة الحريّة للجارية، لكن مولاه هو قوّادُ العيّارين الذي شُنّت الغارة، واتّصل النّهب، وتوالى الحريق، وقطع ماء الدِجلة لأهل الكرخ. وقصّة أسود الزّبد أيضاًغريبة لأنه كان عبداً يأوي إلى قنطرة الزّبد، ويلتقط النّوى ويستطعم من حضر ذلك المكان بلهو ولعب، وهو عريان،

---

[1]- البخلاء، ص١٥١

[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٢٨.

[3]- المصدر نفسه، ح٢، ص٣٧.

[4]- المصدر نفسه، ج٢، ص٦٤-٥.

لا يتوارى إلا بخرقةٍ، ولا يؤبه له، ولا يبالَى به، ومضى على هذا دهر، ولمّا حلّتِ النفرة، ووقعت الفتنة، وفشا الهرج والمرج، أخذ الأسود السيف وأعمله، ونهب وأغار وسلب، وظهر منه شيطان في مَسك إنسان؛ وهذه القصّة عن حسن خلقه، مع شرّه ولعنته، وسفكه للدّم، أنه اشترى جارية، بألف دينار، وكانت حسناء جميلة، فلما حصلت عنده حاول منها حاجته، فامتنعت عليه، **فأعتقها وهبَ لها ألف دينار**[1] بحضرة القاضي عند مسجد ابن رغبان، فعجب الناس من نفسه وهمّته وسماحته ومن صبره؛ وهذه القصّة عن الطير الصغير الذي حفظ أمانة الخبر ووصله إلى الحكام بطريقة لا يحسبه الإنسان، والقصّة أن ملك يونان كتب إلى كنتس الشاعر أن يزوّده ما عنده من كتب فلسفيّة، فارتحل قاصداً إليه، فلقي في تلك البادية قوماً من قطّاع الطّريق، فطعموا في ماله وهمّوا بقتله، فناشدهم الله ألاّ يقتلوه، فأبوا، فتحيّر ونظر يميناً وشمالاً يلتمس ناصراً ومعيناً، فلم يجد، فرفع رأسه إلى السماء، فرأى كراكيّ تطير في الجوّ محلّقة، فصاح: **أيتها الكراكيّ الطائرة، قد أعجزني المعين والناصر، فكوني طالبة دمّي، والآخذة بثأري**، فضحك اللصوص، وقتلوا كنتس؛ فلمّا اتصل الحديث بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك، وحضر اليونانيون وأهل مدينته إلى هيكلهم للقراءة التسابيح والمذاكرة بالحكمة والعظة، وحضر الناس من كل قطر وأوب، وجاء القتلة واختلطوا بالجمع، وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل، إذ مرّت بهم كراكيٌّ تتناغى وتصيح، فرفع اللصوص أعينهم ووجوههم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كراكيٌّ تطير وتصيح، وتسدّ الجوّ؛ فتضاحكوا، وقال بعضهم إلى بعض، **هؤلاء طالبوا دم كنتس الجاهل** – على طريق الاستهزاء – فسمع كلامهم بعض، فأخبر السلطان، فأخذهم وشدّد عليهم، فأقرّوا بقتله، فقتلهم؛ فهذه الكراكيّ جنديّ من جنود الله **(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (٣١))**[2]؛ وهذه القصّة عن سببُ الأموات، ومكانها بين مكّة والمدينة، و"كان النبيّ صلى الله عليه وسلم، يسير إذ رُفِعَ بين مكة والمدينة قبرُ أبي سَعيدِ بن العاص، فقال أبوبكر رضي الله عنه، لَعَن اللهُ صاحبَ هذا القبر، فإنه كان يكذّب الله ورسوله، فقال خالد بنُ أسيد – وهو في القوم - : لا بل لَعَن الله أبا قُحافة فإنه كان لايقرى الضيفَ، ولا يمنعُ الضّيمَ، ولا يُقاتلُ معَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إذا سبَبْتُم المشركون فعمُّوهم بالسبّ، ولا تسبّوا الأموات، فإنّ سبّ الأموات يغضب الأحياء**[3]"؛ وهذه القصّة عن المقابلة في حصول الشيء وهي الجنّة، وقال رجلٌ من العرب من أبناء العجم: "رأيتُ في النّوم كأني **دخلتُ الجنّةَ، فلم أر فيها ثنويّاً**". فقال له ثنويّ: "أصعدتَ الغُرف؟ قال: لا. قال: "فمن ثمّ لم تَرَهُم، هم في الغُرَف"؛ وهذه القصّة عن تقسيم المسلمين في الحروب تشبث بينهم، والناس في الجانبين يعتبرون أنهم على حقّ، والجانب الثاني يعدّ من المعتدين وسئل عن عمر بن عبد العزيز: "ما تقول في عليّ وعثمانَ في حرب الجمل وصفّين؟ قال: **تلك دماءٌ كفّ الله يدي عنها، فأنا أكره أن أغمسَ لساني فيها**[4]"، وهذا موقف جميل، أصرّ عليه عمر بن عبد العزيزوكان هذه بداية الفتن بين المسلمين، وأنه اجتنب أن يغمس

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ح٣، ص١٦٠

[2] سورة المدثر.

[3] الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٦٦

[4] المصدر نفسه، ح٣، ص١٨٣.

لسانه في هذه المعركة الكلامية، وكذلك فعل بعض الصالحين حتى تخفّ حدّته مع مرور الزمن؛ وهذه المرأة تنازع زوجها، وكلاهما كانا زيادة في السن، "فبدأت تعيبُ زوجها، وتقع فيه، في حضرة زياد، فقال زوجها: "أيها الأمير، إن شرّ شطري المرأة آخرها، وخير شطري الرجل آخره. **المرأة إذا كبرت عقمت رحمها، وحدّ لسانها، وساء خُلقها**، وإن الرّجل إذا كبرت سنّه يتحكم رأيه، وكثُر حلمه، وقلّ جهله"؛ وهذه القصّة أيضاً تبرز جرأة المرأة أمام حاكم خُراساني، وهو مسلم بن قتيبة، ويحدّث أن "المرأة تظلّمت إليه، فزبرها، ولم يَنظُر في قِصّتها"؛ فقالت له: "إن **أمير المؤمنين بَعَثَك إلى خُراسان لِتَنظُرَ هل تَثبُتُ خُراسان بلا عاملٍ أم لا**"؛ فقال لها مسلم: "اسكتي وَيلكِ، فظلامَتُكِ مَسموعة، وحاجتُك مقضيّة". وقال مسلم: "**ما وخز قلبي قطّ شيءٌ مثل قول هذه المرأة**، ولقد آليتُ ألاّ أستهين بأحدٍ من ذكرٍ أو أنثى[1]"، وهذه المرأة الخُراسانية تلقّنه درساً لا ينسى في المستقبل.

وهذه القصص في "الإمتاع" عن الشيء، في صورة حسّية ومعنوية. وهي عن الأجرة، وثناء عن الهجاء أوالمدح للحكام، وحريّة المماليك وحسن المعاملة معهم، وعتق الجارية وإعطائها ألف دينار من قوّاد العيّارين، وقصاص الشاعر المقتول ودور الكراكيّ فيه، وسباب الأموات يغضب الأحياء، وحدّة لسان المرأة وسوء خُلقها في زيادة السنّ، وجرأة المرأة التي وخز قلب الحاكم.

الخلاصة

هذا الباب الدراسة الموازنة بين الأديبين الجاحظ والتوحيدي وإنتاجهما البخلاء والإمتاع والمؤانسة، من حيث الوصف في الفكر والموضوع والموقف. والجاحظ والتوحيدي نشأ في عصر التقدّم، ووُهبا حرية الفكر، فالأوّل أصبح معلماً للعقل والأدب، والثاني برع في الفلسفة، وأصبح فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة. وكلاهما لقيا الشدائد في الحياة، ونسبتهما للورّاقة منحت لهما مكانة مرموقة في العلم والأدب.

ونضرة كتاب البخلاء والإمتاع والمؤانسة وإمتاعهما حيّاهما حتى بعد ألف قرن تقريباً. وكلاهما يشبه بـ"ألف ليلة وليلة"، البخلاء يشبه في طريقة الاستطراد في متون القصص، حيث الإمتاع والمؤانسة يشبه في طريق مسامراته.

وهذا الباب يضمن دراسة القصص على نطاق مختلف، وهي مئتان وخمس قصص في البخلاء وسبع وثمانون ومائة قصّةٍ في الإمتاع والمؤانسة، فجاز بين القصص على ميزان التشابه والتخالف، في الموضوع والفكرة والعمل الأدبي. ثمّ وازن بينهما على أساس أنواع القصص الواردة في الكتابين، فوجدت بعض الأنواع ثريّة في التشابه، وصالحة للموازنة، فقسمت القصص

---

[1]- الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص٢٠٠-١٠٢.

في سبع وثلاثين نوعاً، ووضعتُ الميزان لكلّ نوع وجد فيه القصص في الكتابين أو لواحد منهما، ووجد موضوع الضيافة، والأكل، والنساء، والسائلين، وغيرها في الكتابين، وموضوع صفات الله تعالى، والأنبياء عليهم السلام وقصص النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والملوك القديمة، وكذلك قصص المخنثين والمجان لا يوجد في كتاب البخلاء، وعلى العكس كتاب الإمتاع والمؤانسة لا يتركز على تخصص الخراسان، أو لبلد آخروكذلك عن البيع والشراء وعن كساء والطيب وعن الجيران وتأويل الأسماء، وبرزت هذه التفاصيل في جدول ٤,١ في الموازنة النوعية للقصص. ثمّ أهملت بعض الأنواع التي تقلّ من خمس قصص في العدد فبيّنت هذه الموازنة في مخطط ٤,١ الذي يبرز هذه الموازنة في صورة عدد القصص، ومخطط ٤,٢ يبرز وضع النسبي الميؤي للقصص الواردة في البخلاء، وهو ١٩% في الضيافة، و١٤% في الأكل، و١٢% في الأصدقاء، ومخطط ٤,٣ يبرز الوضع النسبي الميؤي في الإمتاع والمؤانسة، وهي ١٨% عن الأمراء والحكام، و١١% عن أصحاب الرسول، و١٠% عن المفاخرة والمقابلة. ثمّ قسم قصص الكتابين في فئات ثلاث، وهي الضيافة والأكل والشيء، والجدول ٤,٢ يبيّن القصص بالأرقام، (وهذه الأرقام رتّبت في الباب الثالث الفصل الأول ص١٤-٢٣ للبخلاء، و٣٠ص- ٤٠ لـالإمتاع والمؤانسة) ووضعت هذه التفاصيل في مخطط ٤,٤ للبخلاء، ومخطط ٤,٥ للإمتاع والمؤانسة، ووضع النسبي يظهر أن في البخلاء ٣٢% قصةً عن الضيافة، و٢٦% عن الأكل و٤١% عن الشيء، ومن جانب الثاني في الإمتاع والمؤانسة، ١٢% قصةً عن الضيافة، و١٨% عن الأكل، حيث ٧٠% قصّةً عن فئة الشيء. فهذه الموازنة على أساس موازين مختلفة في صورة مجملة وشاملة.

خاتمة البحث

بفضل الله تعالى وبمنّه تتم الصالحات، فقد وفقني الله تعالى أن أكمل هذا البحث بعد تحمل بعض المعاناة والتعب، ولكن أحمد الله تعالى على توفيقه.

هذا البحث عبارة عن الموازنة للعناصر القصصية بين الكتابين؛ "البخلاء" و"الإمتاع والمؤانسة". والبحث يتضمن أربع غايات. أوّلاً: تحديد جذور القصّة في الأدب العربي، وتطورها في الشرق والغرب، وكيف حدث التأثر والتأثير بينهما. ثانياً: محاولة كشف وجود عناصر القصة الحديثة في الكتابين الممثلين للقصة القديمة من حيث القيمة الفنيّة. ثالثاً: تطبيق العناصر الفنية للقصّة القصيرة على البخلاء والإمتاع والمؤانسة والموازنة بينهما. وأخيراً، إبراز ملامح النقد الاجتماعي الموجود في الكتابين. ومن الدراسة الموازنة للعناصر القصصية في كتابين ظهرت النتائج العامة والخاصة فيما يلي:

- البخلاء والإمتاع والمؤانسة يعرضان النقد الاجتماعي والخُلقي للشعب والحكام والنظام الاجتماعي. وقد تأثر المؤلفان من تأثير البيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية في إنتاج أدبهما، وعصرهما. وعصر الجاحظ، هو عصر التقدم والتطور للعصر العباسي، وكذلك عصر التشجيع والترغيب للعلم والأدب، في حين عصر التوحيدي هو عصر التشكيك والاضطراب من جانب، وعصر الازدهار للنثر العربي في تناول الحياة العامة للمجتمع من الجانب الثاني.

- القصّة بدأت منذ خلق الله آدم عليه السلام، وهبوطه مع عدوّه، وهذه القصص وردت في الكتب السماوية. والقصّة تطوّرت وتقدّمت في الشرق والغرب، ومرّت بمراحل عديدة قبل الميلاد (مثل القصّة المصريّة، والقصّة الإغريقية؛ العصر القديم، والعصر الكلاسيكي، والعصر الهيليني، وعصر إمبراطورية روما)، وبعد الميلاد (مثل في الأدب اليوناني، والروماني)، والقصّة قبل الإسلام، وبعد الإسلام (في العصر الأموي، والعباسي). والحقيقة أنّ القصّة الغربية قد تأثرت من القصّة العربية وليس من الشك أن الأخيرة أيضاً تأثرت من السابق.

- قصّة "كليلة ودمنة" و"سند باد البحري"وغيرهما مصادرعربية (وإلى العربية من الهندية) تسلّلت إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والأسبانية والعبرية ولغات أخرى بواسطة يهودي أندلسي "موسى سفردي" (١٠٦٢م)، وكذلك حاول ملك قشتالة بترجمة "كليلة ودمنة" إلى اللغة الاسبانية، والعبرية. وترجمت بعض القصص "ألف ليلة وليلة" إلى اللغة اليونانية، عن السريانية، وهذه عن العربية.

- القصة الشرقية لم تتسلل إلى الغرب فقط بل تسلّلت في داخل القصّة وغيّرت في فكرة القصّة وغيّرت معنى الفروسية، والحماسة فيها. فقصّة "السمين" الإيطالية لأنتونيو مانيتي،

و"كرباج" لألفونسو مرتينيث، و"الديكامرون" لمرجريت وغيرها تأثرت من العرب في حكاية قصّتها، في القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر. حتى في عصر النهضة وهي القرن التاسع عشر، تأثرت القصّة الشهيرة "فاوست" من تراث الشرق وبالروح المسيحية، و"أماديس دي جولا" خاصة والآداب الأوروبية عامّة في فروسيتها. هذه نبذة من الحقيقة وهل ممكن أن يدعو الغرب مثلما أثبت الشرق وأقرّه عن أثره على الغرب.

- العرب القدماء لم يتأثر من الغرب إلا في الفكر اليوناني في العصر العباسي، والقصّة الواقعية في البخلاء تأثر من العقل اليوناني، حين الإمتاع والمؤانسة كتب في عصر رسخ العقل اليوناني وفلسفته في الأدب العربي، فهذا التأثير غير المباشر يوجد في أدبهما.

- الجاحظ والتوحيدي عاشا في العصر العباسي، والمؤلف الأول نال عصر التقدم، حيث الخليفة يراعي العلم والأدب، ويشجع الأدباء بالعطاياء، وتقرب بعض المذاهب مثل المعتزلة، (والجاحظ رئيس هذا المذهب العقلي)، حيث أن المؤلف الثاني حظّ في عصر التناقضات والتدهور السياسي، والمملكة العظيمة قسّمت إلى دويلات عديدة، ومن الحكام من يراعي الأدب، وممن هم بأنفسهم أصبحوا الأدباء، وهم يعطون العطايا على حسب اختيارهم ومزاجهم، ويحرمون ممن يشاء. فعلى الرغم أن أدب التوحيدي أدب مثالي ولكنه لم يحظّ من الحكام العطايا، بل صار حظه الحرمان الكلّي.

- ومجتمع الجاحظ كان منقسماً بين الطبقات والمذاهب، واشتعلت نار الشعوبية بين العرب والعجم، وكان الخليفة عربياً هاشمياً، ويريد إحياء السنّة وإعادة حكم العدل، ولكن الوزراء وأكثر القواد كانوا فارسيين، الذين يذكون نار الشعوبية، وحاول الجاحظ أن يخمد نارها في البخلاء.

- ومجتمع التوحيدي كان مفككاً بين العناصر العديدة من ناحية جنسية ومذهبية ودينية، وظهر اختلاف شديد بينهم، حتى جعل المملكة ناراً مشتعلة، نتيجةً لهذه الأحوال لم يبق للخلافة العباسية إلا بغداد، ولم يكن الخليفة إلا رمزاً لها فقط؛ لأنّ الخلافة كانت في يد الأتراك فعلاً، وزادت خصوم الدولة، وانتشر التخرب والافتراق، فأغار الروم على أطراف الدولة غارات عدة، والدولة ضعفت سياسياً، رغم هذا كان الخلفاء يشجعون العلماء والأدباء؛ وكان نشاطهم في تشجيع العلماء والأدباء محموداً. ويعرض التوحيدي الحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية لعصره وما فيها من غارات الروم وفتنة العيّارين، وجوّ الرعب الذي ساد المجتمع، ووصل التعصب المذهبي والسياسي والعرقي إلى أوجه.

- الجاحظ كأديب حرّ يسير على طريقته في البخلاء من المراوحة بين الأحاديث والرسائل، والقصة القصيرة، لدفع السآمة والملل عن الناس. والإمتاع والمؤانسة يدور حول موضوع ما يريد الوزير، فيسأله الوزير ويجيب التوحيدي، ويقترح الموضوع، وهو يجيب عما اقترحه، فحرية الأديب مفقودة في الكتاب كله، ولا يهمّ عن القراء، لأنه يسامر مع الوزير، وألف الكتاب لشخص آخر وهو صديقه الذي أوصله إلى الوزير، ويرجو منه ألا ينشر هذا الكتاب، ولا

يصل إلى الوزير، فموافقة القراء أو رضاء القراء ليس أمام المؤلف، وغير هذا أن الكتاب طبع ونشر في أنحاء العالم حتى بعد ألف سنة.

- والبخلاء هو كتاب الأدب والعلم والفكاهة، يقوم على أساس التماس البخلاء، ومشاهدة المؤلف عن الطبقة البورجوازية وتعاملها بين الناس بنفسية البخل في صورة القصص. ويمزج الجاحظ بين الجدّ والهزل، وكان موهوباً في ابتداعه للمدائح والأهاجي غير المباشرة، ومن مظاهره أنه أبدع أدباً واقعياً لا أدبا خياليا، وجاء بأسلوب جديد في إتقان اللفظ وإجادة المعنى في التصوير والتحليل والتعبير للبخل والبخيل. ولقد أثرت الهيلينية عن طريق غير مباشر، في أدب عقلي، حيث يعتمد الجاحظ على الترتيب العقلي والتقسيم المنطقي.

- والإمتاع والمؤانسة مسامرات يشارك في فنون العلم وموضوعاته المتنوعة، وطرائف لطيفة حتى وسع أفق الكتاب لكل علم وفن. وأسلوبه يشبه بـ"ألف ليلة وليلة" في ظاهرة تقسيم الكلام إلى ليال، ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة في تصوير الفكرة، وتوليد المعاني.

- والبخلاء يظهر التفاوت الطبقي من أبرز المميزات العصر العباسي، فطبقة السادة ينعم من وسائل الترف، ويحصل الإجلال والمهابة والاحترام. ومن نال حظوة القرب إلى الخلفاء وجد كثيراً من العطايا. وذكر الجاحظ والي فارس وصورته السلبية للعطاء، وهو يبين تبخل الوالي في بيع السمن المستنقع. وكذلك يسخر الوالي الذي يرفع موائد الإفطارقبل الطعام. ويبرز سلوكًا سيّئًا من طبقة المترفين مع طبقة الشعب، وهو أن الصّيرفي يستلف من بقّال، مبلغاً قليلاً، ويرجع أقلّ منه وبعد جهدٍ كبير. ويظهر مبالغة في بخل المرأة التي ترقع القميص وتلبسه حتى صار القميص الرّقاع. وتبرز حالة البخيل الذي يعطي للسائل فلساً بعد الدقّة، ويعتقد أن العطاء لا يعرف إلا بالفراسة.

- والإمتاع والمؤانسة يسلط ضوءاً على العصر البويهي ويصف الأمراء والوزراء ومجالسهم، ومحاسنهم ومساويهم. ويصف العلماء، ومجالسهم والمناظرات، ورأي العلماء في الشعوبية والمفاضلة بين الأمم وغيرها. ويصف حالة الشعب وموقفهم من الأمراء والملوك، ويظهر التوتر بين الرعيّة والحكام الذي يزيد توتراً في الحياة السياسية. والكتاب يلمس سخريته البيّنة من الطبقات العالية. وفي الكتاب موضوعات مختلفة ومتفرقة، عن الإنسان و قضايا إنسانية مختلفة. والتوحيدي يقارن بين علم الحساب والبلاغة، وكذلك بين الخياطين والأطباء، وفرّق بين العلم والتعليم. وكذلك اهتمّ بفلسفة الحكم والعلاقة بين الشريعة والسياسة أو الحديث عن علاقة السلطان بالرعيّة. والتوحيدي يعرّف رجال السوء كما يعرّف علماء الحق. وعن الأمم ولكلّ أمةٍ لها زمان على ضدّها، ولكل أمة عصر تعلو فيه.

- يتميز كتاب البخلاء في تصوير نفسيّة الإنسان، الذين تذاكروا وتواصوا بالبخل . ويوصون أبناءهم لحفظ المال، وعدم إنفاق والتقتير، وتدبير أمورهم. ونصائحهم تركّز على

وسائل الحياة. والبخل يأتي إليهم من الجوانب العديدة. فالبخيل يكون صائم الدهر. فالبخل يمرّ طعامه، ويُملح ماءه، وبهذه الحيل يمنع من الإنفاق. وتتبيّن شدّة البخل في يوم حارٍ، حتى في الماء لأمه. وهناك ناس لاينزعون خفافهم، وحين يمشون على صُدور أقدامهم وعلى أعقاب أرجلهم. ويأتي البخل إليه على جميع جوانب الحياة. ويعدد الجاحظ عن البخيل المخدوع والبخيل المفتون والبخيل المضياع والبخيل النفّاج (الذي يفخر بما ليس عنده).

- وموضوع رئيسي للإمتاع والمؤانسة ليس بخلاً، لكن يضمن موضوع البخل. والبخل عند التوحيدي يختلف من جهات عن الجاحظ، ويأتي صفة محمودة لعكسه. وينشغل التوحيدي بظاهرة بخل الأغنياء وشحّهم، ويعالج لظاهرة البخل، ويميل إلى التندر والسخرية. ويروي عن بخل الذي يتجاوز حدود النادرة ويقترن باللؤم والقسوة والخساسة. ويروي عن الحبّ الذي ما تجاوز المعدة. فيصف عن بخيل الحبّ، وكذلك بلدة البخلاء، ما ناول لأعمى رغيفاً صحيحاً. وهناك مائدة شبرٌ في شبر لكن يحضره الكرام الكاتبون. وكذلك هناك الوالد يعتبر أولاده بعدوّ الخبز. ولمّا يذكر التوحيدي خصائل بعض علماء عصره، البخل صفة كبيرة في خصائلهم. ومعظم علماء عصره كانوا بخلاء. ويأتي التوحيدي بمقابل هذه الصفة البخل، الجود وضيافة إبراهيم وسليمان عليهما السلام.

- البخلاء يفكه ويتمسخرعن الذين يسمّون البخل "إصلاحاً"، والشحّ "إقتصاداً"، فالبخل خاصية سلوكية ممقوتة، يتم عن قصد ونية بلا مواربة، وتظاهر على سبيل المزاح والملاطفة، وتصوير لبعض الأحاسيس والعواطف. والتهكم فن وموهبة الجاحظ، وهو يصور تهكم العاجزين. ويصدر الأفعال التهكمية عن الحساد وأضرابهم وقد يكون دفاعاً عن الذات ضد الذات وضد ذوات الآخرين، ليحمي ضعفها أمام جبروت السلطان. وضحكه أنه قد فاضل بين البكاء والضحك، وربط بين الضحك والحياة، وبين البكاء والموت. والضحك عند الجاحظ ليس نقيضاً للجدّ، والحسّ السّاخر الهزلي، وكان أسلوبه ممتع رشيق، ومنهج علميّ دقيق، ولفظ باهر، وتعبير ساخر ممتزجاً بالنكتة حيناً، وبالسخرية حيناً آخر، وبالتهكم مرّة ثالثة.

- والفكاهة والضحك عند التوحيدي ليس عميقاً وشديداً من الجاحظ، ومع هذا سمّى بفيلسوف الفكاهة، ومع بؤسه وكثرة شكاته، كان ميّالاً إلى الهزل والدعابة. وفي أدبه المضحك يعمد إلى أسلوب الهجاء الساخر العنيف، أسلوب العداء على خصمه والقضاء عليه بإفشاء معايبه، وإضحاك الناس من مقابحه ونقائصه. وكذلك يعمد إلى أسلوب عذب ممتع، التفكه البارع اللطيف، والدعابة الحلوة والضحك البرئ، يهدف بذلك إلى الترفيه عن نفسه. هو لم يمزج الهزل بالجدّ والجدّ بالهزل، على طريقة الجاحظ.

والعصر الذي غلبت فيه الحياة العقلية على الخيال العربي، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر بالجاحظ الذي يعدّ معلم البيان، وأسلوبه من أجمل الأساليب وأسمحها، وكان أسلوبه شبيهاً بالسوفسطائيين. وقيل أنّ الهيلينيّة أثّرت في أدبه من طريق غير مباشر، أي من طريق متكلمي

المعتزلة. ومعارفه الواسعة بدعاً في التهكم والسخرية، وهو يضرب لفظاً بلفظ، أو يولد معنى من معنى، أو يلجأ إلى ما هو مألوف من رذل القول وساقط الكلام.

وهو عارف بأدب الأمس، والاجتماعية الحاضرة، فاتخذ الحياة الاجتماعية موضوعاً له، الذي أتاح نزعة أدبية خاصة من الأدب الموضوعي:

- فكتابان يشبهان في أسلوبهما بـ"ألف ليلة وليلة"؛ فالبخلاء يشبه بألف ليلة وليلة في أسلوب القصّة، والإمتاع والمؤانسة يشبه بأسلوب الكتابة. وأسلوبه أن في قصّة ألف ليلة وليلة، (ا) وجود تعدد الليال، وشهرزاد تحكي لشهر يار قصّة، بأسلوب حوار(ب) ولا تكملها في ليلة وتحكيها في ليال، (ج) وسببه أنها تخاف من الموت. فقصص البخلاء تصنيفية لكنها تشابه بألف ليلة وليلة في (ب) أنه يقص القصة بعنوان ثمّ يأتي قصص أخرى بدون أي رابط بينهما، ويتخلل الموضوع، حيث الإمتاع والمؤانسة يشبه بها (ا) و (ج) أنه اتّخذ أسلوب ألف ليلة ولية في تقسيمه إلى ليال، ويقص المؤلف للوزير ابن سعدان، وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار، وسادت فضاء الخوف، وهو ليس خوف عن الحياة بل خوف عن فقد المتاع والعناية.

- والكتابان ممتعان، وفيهما توجد لذة العلم وفنيّة الأدب. فالبخلاء أقوى ما فيه دلالة على قوة الجاحظ الفنّية، حين الإمتاع والمؤانسة، له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض في كلّ بحر وغاص من كل لجة. وابتدأ أبوحيان كتابه صوفيّاً وتوسطه محدّثا، وختمه سائلا ملحفاً.

- الجاحظ اصطنع الأسلوب على لفظ جيد، ومعنى حسن، وجرى على سبيل الهزل والمعابثة، وأبوحيان التوحيدي هو الآخر ما يجري هذا المجرى، وساقه مساق السخرية والتهزؤ.

- ويلاحظ أن البخلاء يضمن خمس ومائتي قصّةٍ (٢٠٥)، حين كتاب الإمتاع والمؤانسة يضمن سبع وثمانين ومائة قصّةٍ (١٨٧)، ومعظم القصص للكتابين تحتوي عناصر القصّة، التي هي الحادثة، والسرد، والبناء، والشخصيّة، والزمان والمكان والفكرة. وفي قصص البخلاء المبنى الحكائي معيّن في إحدى وتسعين قصّةً (٩١)، وغير معيّن في مائة وأربع عشرة قصّةً (١١٤)، حيث المبنى الحكائي معيّن في ستّ وستّين قصّةً (٦٦)، وغير معيّن في مائة وإحدى وعشرين قصّةً (١٢١) في الإمتاع والمؤانسة.

- في الإمتاع والمؤانسة ستّ موضوعات (صفات الله تعالى، النبي صلى الله عليه وسلم، الأنبياء عليهم السلام، وأصحاب النبي رضي الله عنهم، الملوك، والمخنث والمجان) فيها اثنين وخمسين قصّةً (٥٢) التي لا توجد مماثل في البخلاء للموازنة، وعلى العكس في البخلاء ثلاثة موضوعات (الخُراساني، جمع المال، تأويل الكلمات) فيها ستّ عشرة قصّةً (١٦).

- على أساس تقسيم القصص في سبعة وعشرين نوعاً، في البخلاء خمس وثلاثين قصّةً (٣٥) عن الضيافة، وسبع وعشرين قصّةً (٢٧) عن الأكل، واثنتين وعشرين قصّةً (٢٢) عن الأصدقاء، حيث في الإمتاع في الموضوعات المذكورة تأتي عشرة قصّةً (١٠)، وسبع قصص

(٠٧)، وخمس قصص (٠٥) على التوالي. وعلى العكس في الإمتاع والمؤانسة، عن الأمراء والحكام ثلاثين قصّةً (٣٠)، وعن المفاخرة والمقابلة سبع عشرة قصّةً (١٧) وعن الجواري والغلمان عشرة قصّةً (١٠) حين في البخلاء إحدى عشرة قصّةً (١١)، وقصّتين (٢) وقصّتين (٢)، على التوالي. كما توجد عن النساء تسع قصص (٩) في الكتابين.

- وفي البخلاء عن فئة الشيء خمس وثمانين قصّةً (٨٥)، حيث عن الضيافة ستّ وستين قصّةً (٦٦)، وعن الأكل أربع وخمسين قصّةً (٥٤) حيث الإمتاع والمؤانسة نال اثنتين وثلاثين ومائة قصّةٍ (١٣٢) عن فئة الشيء، وثلاث وثلاثين قصّةً (٣٣) عن الضيافة، اثنتين وعشرين قصّةً (٢٢) في موضوع الأكل.

وهناك مجال واسع للجهود الأخرى من الباحثين في مجال الأدب العربي القديم، وخاصة في أنواع الطعام والرسائل في البخلاء، وموضوعات العقل، والنفس، والأخلاق، والحيوان، والمجون، والأمثال والحكم وأحاديث النبوية في مسامرات الإمتاع والمؤانسة.

تنصح الدراسة بالتوصيات الآتية

١. **الخصائص اللغوية لقصص البخلاء والإمتاع والمؤانسة** (دراسة موازنة)

٢. **النقد التطبيقي عند الجاحظ** (كتاب البخلاء نموذجاً)

٣. **بنية السردية في كتاب البخلاء للجاحظ**

٤. **الظاهرة السخرية في العصر العباسي**

٥. **العناصر القصصية في قصص الإمتاع والمؤانسة والكتب السماوية**

٦. **الدراسة الأسلوبية في الإمتاع والمؤانسة** (بين النظرية والتطبيق)

٧. **سرد قصصي في الإمتاع والمؤانسة وألف ليلة وليلة** (دراسة موازنة)

هذا جهد متواضع في الموازنة بين الكتابين، وقد بذلت جهدي قدر وسعي وطاقتي، فإن كان فى البحث من الجوانب الحسنة فهي بعون الله تعالى وتوفيقه وإن وُجدت فيه الأخطاء والهنات فهي مني ومن الشيطان.

الفهارس الفنيّة

١. فهرس الآيات
٢. فهرس الأحاديث
٣. فهرس الجداول
٤. فهرس المخططات
٥. قائمة المصادر والمراجع
٦. فهرس المحتويات

فهرس الآيات

الرقم	الآية	السورة	الصفحة
١.	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)	البقرة	٢٤٥
٢.	كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)	آل عمران	١٢٨، ٢٩٨
٣.	وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (٧٥)	آل عمران	٣٢٩
٤.	الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)	آل عمران	٢٤٩، ٣٠٧، ٣٤٩
٥.	وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)	النساء	٣
٦.	(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)	الأنعام	٢٤٥
٨.	نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (٣)	يوسف	٣

٩.	فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)	يوسف	٣٠٩
١٠.	رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)	إبراهيم	٢٠٥، ٢٧٧
١١.	اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ (٣٥)	النور	١٥٦
١٢.	وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ (١١)	القصص	٣
١٣.	قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)	القصص	٣٠٩
١٤.	وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)	القصص	٢٠٥، ٢٧٧
١٥.	وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)	القصص	

١٦.	وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)	فصلت	٢٧٩
١٧.	وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)	الشورى	
١٨.	فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)	الزخرف	٢٠٤
١٩.	وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)	الذاريات	١٢٦
٢٠.	وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)	الحشر	٢٤٦
٢١.	وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٩)	الحشر	٢٤٥، ٣٤٩،
٢٢.	وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (٣١)	المدثر	٢٥٥ ٣٥٣،
٢٣.	إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)	الإنسان	٢٠١
٢٤.	وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)	المسد	٢٧٨

فهرس الأحاديث

الرقم	الحديث	تخريج	صفحة
١.	انطلق ثلاثةُ رهطٍ ممَّن كان قبلكم، حتَّى أَوَوا المبيتَ إلى غار فدخلوه، فانحدرتْ صخرةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنَّه لا يُنجيكم من هذه الصَّخرة إلاَّ أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، ...	مسلم، حديث ٢٢٧٢، ص١٠٩٦.	١٧
٢.	إنك إن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ..	مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص الحديث ١٣٦٢-١٤٤٠	١١٤
٣.	إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَارِثَكَ غَنِيًّا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُ فَقِيرًا يَتَكَفَّفُ النَّاسَ ..	مسند أحمد بن حنبل، ج١، مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص، الحديث ١٤٠١.	٢٣١
٤.	(بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ)	صحيح مسلم، حديث مرفوع، الحديث ١٤٥.	٢٢٨
٥.	الْغَارُ حَيْرٌ مِنَ النَّار	رقم الحديث ٢٨٢، صحيح البخارى، كتاب الفتن.	٢١٧
٦.	كان ملك فيمن كان قبلكم ، و كان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، و كان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه و سمع كلامه فأعجبه ، ...	مسلم، حديث ٣٠٠٥، ص٢٣٠١.	١٧
٧.	لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي جاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلي فقالت اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات	البخاري، حديث ٣٢٥٣، ص٢٦٨.	١٦

٧.	(الولد للفراش، وللعاهر الحجر)	حديث صحيح، رقم الحديث ٢١٠٨، متفق عليه.	٢٢٩
٨.	يَاأَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَفِزَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَل	موطأ مالك، رقم الحديث ٢١٠٨، متفق عليه.	٢١٦

فهرس الجداول

الجدول	الصفحة
جدول ٣,١: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص البخلاء (الجدول التسلسلي)	١٩١-٩
جدول ٣,٢: التصنيف الشكلي لمحتوى قصص الإمتاع والمؤانسة (الجدول التسلسلي)	٢٠٦-٥
جدول ٣,٣: شخصيات في قصص البخلاء (الجدول التسلسلي)	٢٣٩-٢
جدول ٣,٤: شخصيات في قصص الإمتاع والمؤانسة (الجدول التسلسلي)	٣٥٩-١
جدول ٤,١: أنواع القصص الواردة في الكتابين (الجدول التسلسلي)	٣٣٤-٥
جدول ٤,٢: التقسيم الموضوعي للقصص بين كتابين	٣٤١

فهرس المخططات

الرقم	المخطط	الصفحة
١.	مخطط٤,١: الموازنة النوعية للقصص الواردة بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة	٣٣٦
٢.	مخطط ٤,٢: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في البخلاء	٣٣٧
٣.	مخطط ٤,٣: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في الإمتاع والمؤانسة	٣٣٨
٤.	مخطط ٤,٤: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في البخلاء	٣٤٢
٥.	مخطط ٤,٥: الوضع النسبي لنوعية القصص الواردة في الإمتاع والمؤانسة	٣٤٢

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر

١ **الجاحظ:** مقدمة كتاب البخلاء، أحمد العامري وعلي الجارم، سنة ١٩٣٧م (د.ط).

: كتاب البخلاء، تحقيق، مقدمة وتصدير طه الحاجري، القاهرة، ١٩٤٨م.

: البخلاء، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٢ **أبو حيان التوحيدي:** مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، (د.ت).

قائمة المراجع

١. **إبراهيم، زكريا:** أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، المؤسسة المصرية العامّة، ١٩٦٤م.

٢. **إبراهيم، نبيلة:** فن القصّ في النظرية والتطبيق، سلسلة الدراسات النقدية، دار قباء للطباعة، مكتبة غريب، (دت).

٣. **إبراهيم، وسيم:** نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي، دار دمشق، ط١، ١٩٩٤م.

٤. **ابن الأثير،الجزري:** الكامل في التاريخ، محقق: ابو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، مجلدات ١١، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٥. **ابن الأنباري، أبوالبركات:** نزهة الألباء في طبقات الأدباء، محقق: إبراهيم السامرائي، ج٢، مكتبة المنار، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

. ا **بن الجوزي،** مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٦٨م.

٦**سبط:**

٧. **ابن الخلكان:** وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٩م.

٨. **ابن طقطقا، محمد بن علي بن طباطبا:** الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار القلم العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٩. **ابن العساكر:** تاريخ دمشق، (ترجمة الجاحظ التي نشرها كرنكو في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد التاسع) ١٩٢٩م.

١٠. ابن العماد، عبدالحي بن أحمد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: الأرناؤوط، دار ابن كثير، ج١٠، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١١. ابن القفطي، جمال الدين: تاريخ الحكماء، تصنيف: جوليوس ليبرت، ١٩١٩م.

١٢. ابن منظور، محمد بن مكرم الافريقي المصري: لسان العرب، ج٧، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٩٩٧م.

١٣. ابن النديم: الفهرست، بيروت، دارالمعرفة، ١٩٧٨م.

١٤. أبو عيسى، محمد معوض: الفكاهة في الأدب العربي، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٠م.

١٥. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي: تاريخ أبي الفداء، في سنة ٢٥٥هـ (د.ن) و(د.ت).

١٦. الأتابكي، جمال الدين يوسف بن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

١٧. أحمد، عزّت السيد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

١٨. أرسطوطاليس: فن الشعر، ترجمة ابن سينا، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣م.

١٩. إسماعيل، عزالدين: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧٥م.
: الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، ، ط٧، ١٩٧٦م.

٢٠. الأصفهاني، فتح الله: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، المطبعة العربية بمصر، ط١، القاهرة، سنة ١٩٢٨م.

٢١. الأعسم، عبدالأمير: أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، دار الأندلس، ط١، سنة١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢٢. أمين، أحمد: ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م.
: ظهر الإسلام، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.

٢٣. اندراوس، عزت: انسائيكلوبيديا، موسوعة تاريخ أقباط مصر، ١٩٩٤م.

٢٤. أوكونور، فرانك: الصوت المنفرد، ترجمة: محمود الربيعي، دار الكاتب القاهرة، ١٩٧٩م.
٢٥. بدوي، عبدالرحمن: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٩٣م.
٢٦. برجسون، هنري: الضحك، ترجمة ساتي البارودي وعبد الله الدائم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.
٢٧. بروكلمان، كارل: تاريخ الآداب العربية، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، دار الطبعة، مجلدات ٦، ١٩٤٨م.
٢٨. البعلبكي، منير: المورد، دار العلم للملايين،١٩٩١م.
٢٩. البغدادي، الخطيب: تاريخ بغداد، ج١٢، القاهرة، ١٩٣١م.

٣٠. البغدادي، عبدالقاهر: الفَرْق بين الفِرَق، طبعة محمد بدر، القاهرة، ١٩١٠م؛ دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
: خزانة الأدب، القاهرة، أربعة أجزاء، ١٣٤٧هـ.
: تاريخ بغداد، القاهرة، ١٤جزءاً، ١٩٣١م.
٣١. بللا، شارل: الجاحظ، في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
٣٢. بور، دي: تاريخ الفلسفة في الإسلام، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) القاهرة، ط٣، ١٩٥٤م.
٣٣. الترمانيني، عبدالسلام: أحداث التاريخ الإسلامي،ج٢، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م(د.ط).
٣٤. التوحيدي، أبوحيان: : مقابسات، تحقيق حسن السندوبي، القاهرة، ١٩٢٩م.

: ثلاث رسائل لأبي حيان، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ١٩٥١م.
: مقدمة البصائر والذخائر، أحمد أمين، القاهرة، ١٩٥٣م.
: الإشارات الإلهية، تصدير: عبد الرحمن بدوى، طبعة كويت، ١٩٨١م.
: الإرشادات الإلهية، تحقيق وداد القاضي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٢م.
: أخلاق الوزيرين، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، بيروت، دار صادر،١٩٩٢م.

: الصداقة والصديق، تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٥. التوحيدي، أبوحيان ومسكويه: الهوامل والشوامل، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر، سنة ١٩٥١م.
٣٦. الثعالبي، عبدالملك النيسابوري: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ط مصر، ١٩٠٩ م.
: لطائف اللّطف، تحقيق عمر الأسعد، بيروت، دار المسيرة، مجلدات ٩، ١٩٨٠م.
: يتيمة الدهرفي محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ج٧، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٣٧. الجاحظ، عمرو بن بحر: : رسالة التربيع والتدوير، تحقيق: شارل بللا، ط دمشق، ١٩٥٥م.
: ثلاث رسائل، نشر يوشع فنكل، المطبعة السلفية، ط٢، ١٣٨٢هـ.
: رسالة الجد والهزل، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٦٦م.
: البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، مصر، ط٧، ١٩٩٨م .
: استحقاق الإمامة، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام، (د.ن)و(د.ت).
٣٨. جاد المولى، محمد أحمد: قصص القرآن، مكتبة الأموية، بيروت، ١٩٧٨م.
٣٩. جبر، جميل: نوادر الجاحظ، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م.
٤٠. جبري، شفيق: الجاحظ معلم العقل والأدب، دمشق، ١٩٣٢م.
٤١. الحاجري، طه: الجاحظ، حياته وآثاره، ط٨٩، المعارف سنة ١٩٦٣م.
٤٢. حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٦٥م.
٤٣. حسن، محمد عبد الغني: جرجي زيدان، غير مفهرس، الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م.
٤٤. حسين، طه: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، ١٩٦٥م.

: من تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ج٢، ١٩٧٦م.
: الأيام، دار المعارف، ط١٦، القاهرة، (د.ت).
٤٥. حسين، عبدالحليم محمد: الجاحظ الأديب الساخر، المنشأة الشعبية للنشر، ليبيا، ١٩٨١م.
: السخرية في الأدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط١، ١٣٩٥هـ\١٩٨٨م.
٤٦. حمزة، عبداللطيف محمود: المدخل في فن التحرير الصحفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٥، (د.ت).
٤٧. حمود، خضر موسى محمد: الجواحظ في الأدب العربي، حياتهم بيئتهم نتاجهم، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٤٨. الحموي، ياقوت بن عبد الله: المعجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٧م.
:معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب في معرفة الأديب، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، (د.ت).
٤٩. الحوفي، أحمد محمد: أبوحيان التوحيدي، القاهرة، ج١، ١٩٥٧م.
: أبو حيان التوحيدي، القاهرة، ج٢، ١٩٦٤م.
٥٠. خفاجي، عبدالمنعم: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٧م.
: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٧٧م.
٥١. خليفة، حسن: الدولة العباسية، قيامها وسقوطها، الطبعة الحديثة، القاهرة، ط١، ١٩٣١م.
٥٢. الدوري، عبدالعزيز: العصر العباسي الأوّل، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.
٥٣. الدين، عبدالرزاق محي: أبو حيان التوحيدي، سيرته وآثاره، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٩م.
٥٤. الذهبي، محمد بن أحمد عثمان: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ج٢٤، ط١، ٢٠٠١م.
٥٥. الرازي، زين الدين أبو عبدالله: مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٥٦. رقيق، حافظ: أدبية النادرة، دراسة في بخلاء الجاحظ، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس، ط١، سنة ٢٠٠٤م.
٥٧. ريكور، بول: فلسفة بول ريكور، (الوجود والزمان والسرد)، ترجمة و تقديم: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ١٩٩٩م.
٥٨. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ-١٣٠٧هـ.
٥٩. الزركلي، خير الدين: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، ط القاهرة، ١٩٢٨م.
: الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٦٠. زكي، أحمد كمال: الجاحظ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، فبرائر ١٩٦٧م،
٦١. زلط، أحمد: رواد أدب الطفل العربي، الزقازيق، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.
٦٢. السندوبي، حسن: أدب الجاحظ، مطبعة الرحمانية، القاهرة، ط١، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.
: رسائل الجاحظ، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٣م.
٦٣. السيد، عبدالسلام: موسوعة علماء العرب، ط٢، ٢٠١١م.
٦٤. السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٧١هـ /١٩٥٢م.
٦٥. الشاروني، يوسف: القصة تطوراً وتمرداً، الهيئة العامة لعصور الثقافة، ١٩٩٥م.
٦٦. الشايب، أحمد: علم الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط١٢، ٢٠٠٣م.
: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط١٠، ٢٠٠٤م.
٦٧. شبيل، الحبيب: المجتمع والرؤية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع،١٩٩٣م.
٦٨. الشذر، طيبة صالح: ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، مطبعة الأهرام التجارية، ١٩٨٩م.
٦٩. الشريشي، أحمد بن عبد المؤمن: مقامات الحريري، ط بيروت،١٩٧١م.

٧٠. الشعّار، فواز: الموسوعة الثقافية العامّة، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
٧١. الشكعة، مصطفى: مناهج التأليف عند العلماء العرب، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤م.
٧٢. شهاب الدين، أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم البلدان، مصر ١٩٠٦م.
٧٣. صدقي، عبد الرّحمن: الموسوعة العربية، أعلام مصر في القرن العشرين، ١٩٩٦م.
٧٤. الصديقي، ضياء ومحجوب، عباس: فصول في النقد الأدبي وتاريخه، دراسة وتطبيق، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة.
٧٥. الصفدي، صلاح الدين خليل: الوافي بالوفيات، محقق: أحمد أرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ج٢٩، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٧٦. ضيف، شوقي: عصر الدول والإمارات، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٠م.
: العصر العباسي الأوّل، دار المعارف، القاهرة، ط١٦، ١٩٩٦م.
: العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط١٢، ٢٠٠١م.
٧٧. الطبري، محمد ابن جرير: تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
٧٨. الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، طبعة مصر، ١٩٢٢م.
٧٩. الطهطاوي، رفاعة رافع: الموسوعة العربية، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣م.
٨٠. عبدالبديع، لطفي: التركيب اللغوي للأدب، النهضة المصرية، ط١، ١٩٥٣م.
٨١. عبدالحميد، شاكر: الفكاهة والضحك، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٣م.
٨٢. عبدالمطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

٨٣. عبدالهادي، أحمد محمد: أبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).
٨٤. عجيل، مؤيد: صورة المجتمع الحضري في كتاب البخلاء للجاحظ، كلية الآداب الجامعة المستنصرية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م.
٨٥. عرفات، شعبان: رؤية الواقع في الرواية المصرية الجديدة، مكتبة الآداب، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٨٦. العسقلاني، ابن حجر: لسان الميزان، حيدر آباد، جزآن، ١٣٢٩هـ.
٨٧. العطري، عبد الغني: أدبنا الضاحك، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٤م.
٨٨. عطية، أحمد محمد: أصوات جديدة في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.
٨٩. العقاد، عباس محمود: مطالعات في الكتب والحياة، ، مطبعة الاستقامة، ط٢، ١٩٢٤م.
: جحا الضاحك المضحك، دار الهلال،١٩٥٦م.
٩٠. غربال، محمد شفيق؛ ٩١. د. محمود، زكي نجيب، و ...: الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥م.
٩٢. غنايم، محمود: تيّار الوعي في الرواية العربية الحديثة، دراسة أسلوبية، دار الجيل بيروت، ودار الهدى القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.
٩٣. فريحة، أنيس: الفكاهة عند العرب، مكتبة رأس، بيروت، ١٩٦٢م.
٩٤. فضل، صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.
٩٥. فيدا، ليفي ديلا: لغة العرب، ترجمة: د. عادل العوّا، ج٨، مجلة الأبحاث الاستشراقية، روما (د.ت).
٩٦. الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، المحقق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرّسالة، ط١، ج٨، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٩٧. القالي، أبو علي: الأمالي، دار الكتب المصرية، ج٤، ط٢، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦.
٩٨. القباني، حسين: فن القصّة القصيرة، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م.
٩٩. القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب: جمهرة أشعار العرب. دار القلم، ١٩٩٩م.

١٠٠. قطب، سيد: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط ٨، ٢٠٠٣م.

:أخبار العلماء بأخيار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٠١. كامبل، ب روبرت: أعلام الأدب العربي، ج٢، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٩٩٦م.

١٠٢. الكتبي، محمد بن شاكر: عيون الأخبار، دار حاطوم للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م.

١٠٣. الكيلاني، إبراهيم: أبو حيان التوحيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.

١٠٤. ماسينيون، لويس: خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة تحقيق: تقي محمد المصعبي، كامل سلمان الجبوري، دارالورق للنشر، ط١، ٢٠٠٩م.

١٠٥. مالطى، فدوى: بناء النص التراثي، دراسات في الأدب التراجم، دار الشؤون الثقافة العامة، ١٩٩٢م.

١٠٦. مبارك، زكي: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٣١م.

: الموازنة بين الشعراء، دار الجيل، ط٢، ١٩٩٣م.

١٠٧. المبارك، محمد: فن القصص في كتاب البخلاء، دار الفكر دمشق، ط٢، ١٩٦٥م.

١٠٨. متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة، تحقيق: محمد عبد الهادي أبوريدة، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

١٠٩. المرتضى، أحمد بن يحيى: ذكر المعتزلة من كتاب المنة والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، تصحيح: توما ارنلد، طبعة حيدرآباد، ١٨٩٨م.

١١٠. مرتضى الزبيدي: تاج العروس، ج٢١، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٤م.

١١١. المرتضى، الشريف: أمالي المرتضي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

١١٢. مرسي، شعبان محمد: الفنون الأدبية في العصر العباسي، دار الثقافة العربية، ط١، ١٩٩٢م، والطبعة الثانية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، اسلام آباد، ١٩٩٥م.

١١٣. المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، المطبعة التجارية الكبرى، ١٩٥٨م.

١١٤. المسعودي، محمد: سمات أدب الهامش من التوحيدي إلى شكري، ندوة الهامش والهامشي في الأدب، اتحاد كتاب المغرب، أصيلة ٩-١٠ دجنبر ٢٠٠٥م.

١١٥. مسكويه، أحمد بن محمد: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، ط٢، ٢٠٠٠م.

١١٦. المقدسي، أنيس: تطوّر الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٢م.

١١٧. مكي، الطاهر أحمد: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧.

:القصّة القصيرة، دراسة ومختارات، دار المعارف، ط ٥، ١٩٨٨م.

: في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٧م.

١١٨. ملحم، بو علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

١١٩. موجز دائرة المعارف الإسلامية: الجاحظ، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج٣٣، ط١، ١٤٨هـ/١٩٩٨م.

١٢٠. نجم، محمد يوسف: فن القصّة، دار الثقافة، ط٧، ١٩٧٩م.

١٢١. هلال، محمد غنيمي: الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢م.

: الأدب المقارن، مكتبة نهضة مصر، ١٩٧٣م.

: النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

١٢٢. الهمذاني، بديع الزمان: مقامات، ط بيروت، دار التراث، (د.ت).

١٢٣. الوافي، علي عبد الواحد: الأدب اليوناني القديم ودلالته، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م؛ ودار نهضة مصر، ١٩٧٩م.

١٢٤. وسيم إبراهيم: نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيان التوحيدي، ، دار دمشق، ط١، ١٩٩٤م.

١٢٥. يعقوب، إميل بديع وعاصي، ميشال: المعجم المفصّل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، ط١،ج١، ١٩٨٧م.
١٢٦. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: كتاب البلدان، مطبعة بريل، طبعة ليدن، ١٨٦٠م.

قائمة المجلات

١. **علاء الدين رمضان السيد:** صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء، مجلة جذور، ج٧، ستمبر ٢٠٠٣م.

٢. **ليفي ديلافيدا:** لغة العرب، ج٨، ٥٧٢-٥٧٥؛ مجلة الأبحاث الاستشراقية، روما، ج١٢، ص٤٤٥- ٤٥١.

٣. **مثنى كاظم صادق:** الجاحظ وصورة الآخر في كتاب البخلاء، الحوار المتمدن، العدد: ٢٧٥٢، ٢٨-٠٨-٢٠٠٩م، ٠٣:١٠.

٤. **محمد رجب السامرائي:** نقد عصر التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة.

٥. **نانجو وموال: د. فاتن حسين،** معزوفة للعلاج النفسي، جريدة القاهرة، العدد ٦٤٥، الثلاثاء ٢٣/١٠/٢٠١٢م.

٦. **نبيلة إبراهيم:** المفارقة، مجلة فصول، المجلد السابع، العدد ٤٣، القاهرة، ابريل – ستمبر ١٩٨٧م.

٧. **هالة أحمد فؤاد:** غني بخيل .. فقير شره! كوتيديا سوداء، مجلة العربي، العدد ٦٢٦، ١١\٢٠١١م.

شبكات إلكترونية

١. **أحمد اللساني:** جذور الأدب العالمي، الآداب الإغريقية، منتديات برق، ٢٠١٢/٣/٢.

٢. **بو بكر الفلابي:** أبو حيان التوحيدي، مؤسسة الحوار المتمدن، العدد: ٣٨٤٦، ٢٠١٢/٠٩/١٠م.

٣. **سعاد جبر:** القصّة القصيرة، الميلاد والتساؤلات، ديوان العرب ، منبر للثقافة وافكر والأدب، الثلثاء أيلول (ستمبر).

٤. **السقاف، الشيخ علوي، ومجموعة من المؤلفين:** موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، موقع الدرر السنية على الإنترنيت، ج١٠، ١٤٣٣هـ.

٥. **سوسن رجب :** فن القصّة في النثر العربي، عبر الإنترنيت، اينجل فائر دات كام. تعريف

٦. **عبد الكريم الفزني:** المضحك في كتاب البخلاء، الحوار المتمدن، العدد ٢٩٩٧، ٢٠١٠\٠٥\٠٦م

٧. **محمد صالح:** تعريف القصّة، عبر الانترنيت، بوابة: يوم جديد، نشرت في ١٨ مايو ٢٠٠٨م.

٨. **محمد غالمي:** فن القصّة: الماهية، منديات دار الأدباء الثقافية، ٢٠٠٩/١١/٢٢م.

٩. تعريفات حول القصّة القصيرة والحكاية، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

١٠. الغرفة الصوتية، الجمعية الدولية لمترجمي العربية.

قائمة المراجع الأجنبية

Annees, de Decouverts, ١٩٥٠.

Bompiani, Laffont: Dictionnaire des Oeuvres IV.

Bulwer, E. G - lytton: Paul Clifford , XXX.

Forster, E.M: Aspects of the Novel.

Green , F. C: French novelists, Vol, ١.

Longman: The short story, Valerie Shaw, A critical introduction, New York, ١٩٨٣.

Moseley, Sydney A: Short story writing and freelance journalism.

London, ٥th ed, ١٩٤٨.

Palencia, A. C., op. cit.

Trade: Intoduction of a le literature fantasica, Madrid, ١٩٧٣.

Vladimir Propp : Morphologie du conte, paris, Edition du Seuil, ١٩٧٠.

ترجمة: مارجريت ديرندا، اعتمدت فيها على الطبعة الثانية الروسية المصححة، لتتجراد، ١٩٤٩..

قائمة المحتويات

المحتويات	الصفحة
كلمة الشكر والتقدير	
المقدمة	أ
التمهيد: جذور القصّة في الأدب العربي	١
١. جذور القصّة	٢
٢. القصّة قبل الميلاد	١٠
٣. القصّة بعد الميلاد	١٣
٤. القصّة قبل الإسلام	١٥
٥. القصّة بعد الإسلام	١٦
٦. القصّة في الأدب العربي	١٨
٧. أثر القصص العربية على الغربية	٢٣
٨. أثر القصص الغربية على العربية	٣١
٩. أبنية القصّة الغربية	٣٤
١٠. حكاية التأثر والتأثير	٣٨
الخلاصة	٣٩
الباب الأوّل: شخصية المؤلّفين وكتاباهما	٤٢
مدخل	٤٣
الفصل الأوّل: المحيط البيني والاجتماعي والسياسي والثقافي	٤٣
١. المحيط البيني للجاحظ	٤٣
١,١. المحيط الاجتماعي	٤٦
١,٢. المحيط السياسي	٤٨
٢. المحيط البيني للتوحيدي	٥١
٢,١. المحيط الاجتماعي	٥٢
٢,٢. المحيط السياسي	٥٤

٢,٣. المحيط الثقافي	٥٧
الفصل الثاني: سيرة الجاحظ والتوحيدي ومكوّناتهما النفسية والاجتماعية والثقافية	٦١
١. سيرة الجاحظ ومكوّناته النفسية والاجتماعية والثقافية	٦١
١,١. سيرة الجاحظ	٦١
١,٢. المكوّنات النفسية	٦٩
١,٣. المكوّنات الاجتماعية والسياسية	٧٣
١,٤. المكوّنات الثقافية	٧٤
٢. سيرة التوحيدي ومكوّناته النفسية والاجتماعية والثقافية	٧٥
٢,١. سيرة التوحيدي	٧٥
٢,٢. المكوّنات النفسية	٨١
٢,٣. المكوّنات الاجتماعية	٨٨
٢,٤. المكونات الثقافية	٩٠
الفصل الثالث: البخلاء والإمتاع والمؤانسة بين الفن والتاريخ	٩٣
١. كتاب البخلاء	٩٣
١,١. البخلاء من حيث الفن	٩٣
١,٢. البخلاء من حيث التاريخ	٩٧
٢. كتاب الإمتاع والمؤانسة	١٠٠
٢,١. الإمتاع والمؤانسة من حيث الفن	١٠٠
٢,٢. الإمتاع والمؤانسة من حيث التاريخ	١٠٢
الفصل الرابع: البخلاء والإمتاع والمؤانسة من حيث المحتوى والقيمة	١٠٧
١. كتاب البخلاء	١٠٧
١,١. البخلاء من حيث القيمة	١٠٧
١,٢. البخلاء من حيث المحتوى	١٠٨
٢. كتاب الإمتاع والمؤانسة	١١٠
٢,١. الإمتاع والمؤانسة من حيث القيمة	١١٠
٢,٢. الإمتاع والمؤانسة من حيث المحتوى	١١١
الخلاصة	١١٨
الباب الثاني: العناصر المضمونية للقصص في الكتابين	١١٩
مدخل	١٢٠
الفصل الأول: الملامح التاريخية للعصر العباسي	١٢١
١. العصر العباسي في البخلاء	١٢١
١,١. الحياة العلميّة	١٢١

١,٢. الحياة الاجتماعية	١٢٣
١,٣. الحياة الثقافية	١٢٦
١,٤. الحياة السياسية	١٢٩
٢. العصر العباسي في الإمتاع والمؤانسة	١٣٠
٢,١. الحياة السياسية والاجتماعية	١٣١
الفصل الثاني: المحتوى الاجتماعي والسياسي	١٣٦
١. في البخلاء	١٣٦
١,١. الأخلاق عند الجاحظ	١٣٨
١,٢. النزعة الإنسانية	١٤١
١,٣. أثر البيئة في الأخلاق	١٤٢
١,٤. البيولوجية والأخلاق	١٤٥
١,٥. مذهب البخلاء	١٤٥
٢. المحتوى الاجتماعي والسياسي في الإمتاع والمؤانسة	١٤٦
٢,١. التصوير الطبقي	١٤٦
الفصل الثالث: المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي	١٥١
١. المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي في البخلاء	١٥١
١,١. ظاهرة البخل	١٥٢
١,٢. طياب البخلاء	١٥٧
٢. المعالجة النفسية للبخل والنقد الاجتماعي في الإمتاع والمؤانسة	١٥٩
٢,١. نقد اجتماعي	١٦١
٢,٢. المنزع العقلي	١٦٥
٢,٣. تصوير انعدام الأمن	١٦٦
الفصل الرابع: السخرية والفكاهة في الكتابين	١٦٨
١. السخرية والفكاهة في البخلاء	١٦٨
١,١. أسباب الفكاهة عند الجاحظ	١٧٠
١,٢. إمام السخرية والفكاهة	١٧٢
١,٣. التهكم في الطبع	١٧٤
٢. السخرية والفكاهة في الإمتاع والمؤانسة	١٧٩
١,٢. أسباب الفكاهة عند التوحيدي	١٧٩
٢,٢. تفسير الضحك	١٨٠
٣. الخلاصة	١٨٢
الباب الثالث: العناصر الفنية للقصص في الكتابين	١٨٤

مدخل	١٨٥
الفصل الأول: السرد في القصص بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة	١٨٧
١. مفهوم السرد	١٨٧
٢. السرد في البخلاء	١٨٨
٢,١. تقنيات السرد في البخلاء	٢٠٠
٢,٢. ملامح السرد	٢٠١
٣. السرد في الإمتاع والمؤانسة	٢٠٣
٣,١. تقنيات السرد	٢١٦
٣,٢. ملامح السرد	٢١٧
الفصل الثاني: الشخصيات في القصص بين الكتابين	٢٢٠
١. مفهوم الشخصية	٢٢٠
٢. الشخصيات في البخلاء	٢٢١
٢,١. ملامح الشخصيات	٢٢٢
٢,٢. تشريح الشخصيات	٢٣٨
٣. الشخصيات في الإمتاع والمؤانسة	٢٤٣
٣,١. ملامح الشخصيات	٢٤٣
٣,٢. تشريح الشخصيات	٢٥٧
الفصل الثالث: الحكاية في القصص بين الكتابين	٢٦٢
١. مفهوم الحكاية	٢٦٢
٢. الحكاية في البخلاء	٢٦٥
٢,١. تقسيم الحكايات في فئات أساسية	٢٦٦
٢,٢. الحكاية على أساس أنماطها	٢٧٣
٣. الحكاية في الإمتاع والمؤانسة	٢٧٦
٣,١. تقسيم الحكايات في فئات أساسية	٢٧٦
٣,٢. الحكاية على أساس أنماطها	٢٨٤
الفصل الرابع: المظاهر الأسلوبية في القصص بين الكتابين	٢٨٨
١. مفهوم الأسلوب	٢٨٨
١,١. المعايير الأسلوبية	٢٩٠
٢. المظاهر الأسلوبية في البخلاء	٢٩١
٢,١. حياة الجاحظ	٢٩٣
٢,٢. الحالة الثقافية	٢٩٣
٢,٣. الحالة النفسية	٢٩٣

٢,٤. تحليل العمل الأدبي	٢٩٤
٢,٥. العاطفة والخيال والفكرة في القصص	٢٩٧
٣. المظاهر الأسلوبية في الإمتاع والمؤانسة	٣٠٢
٣,١. حياة التوحيدي	٣٠٢
٣,٢. الحالة الثقافية	٣٠٢
٣,٣. الحالة النفسية	٣٠٥
٣,٤. العاطفة والخيال والفكرة في القصص	٣٠٦
الخلاصة	٣١٠
الباب الرابع: أوجه التشابه والاختلاف بين البخلاء والإمتاع والمؤانسة	٣١١
مدخل	٣١٢
الفصل الأول: أوجه التشابه وأسبابها	٣١٤
١. أوجه التشابه وأسبابها بين الأديبين	٣١٤
١,١. حياة الجاحظين	٣١٤
٢. أوجه التشابه وأسبابها بين الكتابين	٣١٧
٣. أوجه التشابه بين القصص	٣١٩
الفصل الثاني: أوجه الاختلاف وأسبابها	٣٢٥
١. أوجه الاختلاف وأسبابها بين الأديبين	٣٢٥
٢. أوجه الاختلاف وأسبابها بين الكتابين	٣٢٦
٣. أوجه الاختلاف وأسبابها بين القصص	٣٢٨
الفصل الثالث: تقييم القصص الواردة في الكتابين	٣٣٢
١. نظرة عامة	٣٣٢
٢. الموازنة النوعية للقصص بين الكتابين	٣٣٢
٣. نظرة إجمالية على القصص للكتابين	٣٣٨
٤. تثمين على النطاق الواسع في فئات ثلاث	٣٣٩
الخلاصة	٣٥٤
خاتمة البحث	٣٥٦
الفهارس الفنية:	٣٦٢
١. فهرس الأيات	٣٦٣
٢. فهرس الأحاديث	٣٦٦
٣. فهرس الجداول	٣٦٨
٤. فهرس المخططات	٣٦٨
٥. فهرس المصادروالمراجع	٣٦٩
٦. قائمة المحتويات	٣٨٣